شوارع الرياض

رواية تاريخية

حمد حميد الرشيدي

رواية تاريخية
حاز الرواية فازت بمسابقة جائزة الكتابة
بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة
الرياض ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

سلسلة الأعمال المحكمة (٥١)

شوال الرياض

رواية تاريخية

حمد حميد الرشيدي

رواية تاريخية

هذه الرواية فازت بمسابقة جائزة المكتبة بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

الرياض ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

ح مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ،١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الرشيدي ، حمد حميد

شوال الرياض . / حمد بن حميد الرشيدي . - الرياض ،١٤٢٤هـ

١٩٢ ص ؛ ١٧×٢٤سم (سلسلة الاعمال المحكمة ؛ ٥١)

ردمك ٣-٩٤-٦٢٤-٩٩٦٠

١ - القصص التاريخية العربية - السعودية ٢ - السعودية - تاريخ

أ- العنوان

ديوي ٨١٣،٠٨١٩٥٣١ ١٤٢٣/٤٥٤٠

رقم الإيداع : ١٤٢٣/٤٥٤٠

ردمك ٣-٩٤-٦٢٤-٩٩٦٠

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لمكتبة الملك عبدالعزيز العامة
الرياض ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

ص.ب: ٨٦٤٨٦ الرياض ١١٦٢٢ - هاتف: ٠٠٩٦٦ ١ ٤٩١١٣٠٠
ناسوخ: ٠٠٩٦٦ ١ ٤٩١١٩٤٩ - برقياً: ٤٠٦٤٤٤
URL/Kapl.Sakhr.com
E-mail: Kapl@anet.net.sa

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
تصدير	٧
الفصل الأول	٩
الفصل الثاني	١٧
الفصل الثالث	٣٥
الفصل الرابع	٥٧
الفصل الخامس	٧٧
الفصل السادس	٩٥
الفصل السابع	١١١
الفصل الثامن	١٢١
الفصل التاسع	١٣٩
الفصل العاشر	١٥٥
الفصل الحادي عشر	١٦٩
الفصل الثاني عشر	١٧٩
ملاحظات هامة	١٨٥

تصدير

الحمد الله على نعمة التوحيد والوحدة ، والشكر للمولى عز وجل على شرف حمل رسالة نبي الأمة ، وخدمة أقدس بقعتين على وجه الأرض ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كانت هذه الأمّة ـ ومازالت ـ تضرب بجذورها في أعماق التاريخ الإنساني بعد ما تشرفت بهبوط الرسالة الإسلامية على أرضها الطاهرة ، لتنير ظلام العالم وتبدد جهالته ، تنجب الرجال الأفذاذ على مدار التاريخ ، فخرج من صلب أرض الجزيرة العربية ، من قيضهم الله تعالى ، ليعيدوا لهذه البلاد العزيزة مجدها وسؤددها ويدخلوها التاريخ الحديث بعد قرون من التنازع والتناحر والفرقة وانتشار الخوف على النفس والعرض والمال ؛ فكان الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ـ طيب الله ثراه ـ الذي حقق فيها ما يشبه المعجزات في فترة زمنية محدودة ، قد زاوج بين الماضي والحاضر ، في أسلوب عزّ أن يكون له مثيل في العالم ، وأصبحت إنجازاته دينًا على عاتق أجيال هذه الأمة حاضرًا ومستقبلاً .

انطلقت مسيرة التوحيد المظفرة في الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ ؛ لتتوالى مسيرة الوحدة والبناء لهذه البلاد . والآن وبعد مسيرة المائة عام التي نحتفي بها جميعًا ؛ تخليدًا لذكرى استرجاع الملك المؤسس عبدالعزيز آل سعود ـ طيب الله ثراه ـ لمدينة الرياض ، والإعلان عن هذه الانطلاقة المظفرة والميمونة لتوحيد أجزاء الجزيرة العربية في وحدة عظيمة لا مثيل لها في العصر الحديث ؛

وعرفانا وتقديرا بالجهود الكبيرة لأبناء الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه؛ وماتحقق من إنجازات عظيمة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز ـ حفظه الله ، فإن مكتبة الملك عبدالعزيز العامة التي تشرفت بحمل اسم الملك المؤسس والتي أنجزها ورعاها بخيره وبره صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ـ حفظه الله ـ تشارك في هذه المناسبة المجيدة علينا جميعًا بمجموعة من المشروعات العلمية والتوثيقية لتاريخ الملك المؤسس ـ طيب الله ثراه ـ حيث تأتي رواية (**شوال الرياض**) ترجمة صادقة لاهتمام المكتبة بدعم ومساندة الدراسات التي تخدم تاريخ الملك عبدالعزيز وتاريخ المملكة العربية السعودية وتراثها الوطني.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

الفصل الأول

هنا في بلدة «الدرعية» الواقعة على الضفة الغربية لوادي «حنيفة» وُلدَ الإمام محمد بن سعود مؤسس كيان الدولة السعودية الأولى الذي نذر نفسه وسلاحه وماله لرفع راية التوحيد والجهاد والإيمان بالله ، ونبذ الخرافات والشبهات والمعتقدات الباطلة .

فاتحد السيف مع عبارة « لا إله إلا الله» شعاراً خالداً للدولة السعودية في الدرعية التي توالى عليها أئمة آل سعود بدءاً بمحمد بن سعود ومروراً بعبدالعزيز بن محمد وابنه سعود ، وانتهاء بعبدالله بن سعود . وفي عهده انتهت الدولة السعودية الأولى ، وفي الرياض استطاع تركي بن عبدالله استعادة حكم آل سعود ، واتخذ من الرياض عاصمة للدولة السعودية الثانية ، وخلفه ابنه « فيصل» الذي أخذ بزمام الأمور في دولته بعد وفاة والده ، وتمكن من إرساء دعائم حكمه ، والوقوف ضد هجمات الدولة العثمانية بين الفينة والأخرى ضد توطيد أركان دولته في شبه الجزيرة العربية .

وبعد وفاة فيصل بن تركي تولى الحكم بعده كبير أبنائه «عبدالله بن فيصل» يساعده في ذلك أخوه محمد بن فيصل .

لقد خلف فيصل بن تركي أربعة أبناء هم : عبدالله أكبرهم ، يليه في ذلك سعود ثم محمد ثم عبدالرحمن وهو أصغرهم سناً .

وشاء اللّه أن تسوء أحوال أبناء الإمام فيصل بعد وفاته ، وذلك لما حدث بين أبنائه من تنازع على الحكم وتنافس على الإمساك بزمام الأمور في الدولة ، وكان طرفا هذا النزاع هما الأمير عبدالله وأخوه الأمير سعود .

أما الأمير محمد والأمير عبدالرحمن فقد أخذا يصلحان بين أخويهما المتنازعين ليسدا هذه الفجوة التي تهدد بسقوط أعمدة الحكم في البيت السعودي .

إلا أن التنازع على الملك بين الأخوين الأميرين « عبدالله وسعود» قد تحول إلى فتنة شاع خبرها بين الناس استغلها محمد بن رشيد حاكم « حائل » لصالحه ، وما هو جدير بالذكر أن أول من تولى إمارة «حائل » من آل رشيد هو عبدالله بن رشيد الذي ولاه الإمام فيصل بن تركي أيام حياته على حائل ، وذلك لما وجده الإمام من ولاء هذا الرجل له ووقوفه إلى جانبه في كثير من معاركه مع قبائل « نجد » والأتراك .

ولما توفي عبدالله بن رشيد تداول الإمارة أبناؤه من بعده إلى أن تولاها - أخيراً - محمد بن رشيد الذي استغل نشوب الخلاف ، ودبيب الفتنة بين أبناء الإمام فيصل في قاعدة حكمهم في « الرياض » ، مما دعا إلى ضعف أمرهم ، حيث خرج ابن رشيد ودخل الرياض بالقوة ، وولى عليها أحد رجاله ألا وهو « سالم السبهان» .

ولدى تولي السبهان الإمارة على الرياض من قِبل ابن رشيد قام بإعمال سيفه برقاب أهلها ليخضعهم لإرادته ، وصب عليهم جام غضبه!! وعلى من تبقى من أمراء آل سعود باستثناء الأمير عبدالرحمن الذي ارتأى السبهان أن يبقيه إلى جانبه حتى يحكم قبضته على أهل الرياض ، لأنه يدرك أن هذا الرجل لاينبغي التفريط به لما له من مكانة سامية في نفوس الأهالي ، ولما له من تأثير بالغ عليهم ، ولكي يتمكن السبهان من خلال عبدالرحمن من التفاف الناس حوله ، وتأييدهم لحكمه .

وتمضي الأيام والأمير عبدالرحمن وأتباعه يعانون من استبداد ابن رشيد وعامله وتسلطهما عليهم .

ولذلك أخذ عبدالرحمن - في هذه الأحوال العصيبة - يجمع حوله بعض أتباعه المخلصين ممن يثق بهم ، ويعقد معهم جلسات سرية في مكان بعيد عن عيون السبهان وجواسيسه ، ليبحثوا خطورة وضعهم ، وليتخلصوا بالتالي من نير الظلم والاضطهاد .

وذات ليلة كان عبدالرحمن جالساً في غرفته ساهم التفكير يخلل لحيته بأصابعه تارة، ويلوح بـ « سبحته » المصنوعة من الخرز بيده ذات اليمين وذات الشمال تارة أخرى . . . أثناء ذلك تبادر إلى سمعه طرق باب غرفته طرقاً متواتراً فهرع إليه :

- من في الباب ؟

- أنا فيروز يا سيدي .

ولما فتح الأمير عبدالرحمن الباب رأى مملوكهم فيروزاً وقد تهلل وجهه بشراً وانفرجت شفتاه الغليظتان عن ابتسامة تجلت ببياض أسنانه وأضاءت ملامح بشرته السمراء .

- خيراً إن شاء الله يا فيروز . . ! . .

قالها الأمير وقد انبسطت أسارير وجهه تفاؤلاً بهذا الطارق .

وما لبث فيروز أن قال برعشة تهز حباله الصوتية :

- إن . . . إن . . . سيدتي الأميرة « سارة » قد أنجبت غلاماً .

وما أن سمع الأمير ذلك حتى تهلل وجهه ، رافعًا يديه إلى السماء وهو يدعو :

- أنجبت غلاماً . . ! . . لك الحمد والشكر يا رب على ما وهبتني . . !! اللهم بارك لنا فيما وهبتنا من نعمك وفضلك يا أرحم الراحمين ، ثم أقبل الأمير عبدالرحمن على خادمه فيروز وهو يربت على كتفيه .

- فيروز . . . إن غداً هو أول أيام عيد الأضحى المبارك كما تعلم ، فاذهب إلى مواشينا في الوادي ، وائت لنا ببعض منها لنذبحها غداً إن شاء الله أضاحي وعقائق .

ولما انصرف فيروز أسرع الأمير إلى زوجته الأميرة « سارة » فاطمأن على صحتها ، وحمل الوليد بين يديه وأذن في أذنيه أذان الصلاة اقتداء بسنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأطلق عليه اسم «عبدالعزيز » ثم أعاده إلى حجر والدته التي لا تزال تعاني من آلام الولادة ، وحولها بعض خادماتها اللاتي يقمن على خدمتها .

كان الأمير عبدالرحمن قد استبشر خيراً بمولوده الذي وضعته زوجته في ظروف من أصعب الظروف التي مرت عليه في حياته ، ومضى يحدث نفسه بصمت :

- الحمد لك يا رب على ما وهبتني . . سأهتم بتربية هذا الوليد كل الاهتمام وسأولي أمره شيوخاً يعلمونه القرآن والسنة منذ الصغر ، ويثقفونه بالتاريخ والأدب والمعارف .

ولدى بلوغ عبدالعزيز سن الخامسة عهد به والده إلى الشيخ «عبدالله الخرجي» فحفظ سوراً كثيرة من القرآن في سن مبكرة ، ثم ولى أمره - بعد ذلك - الشيخ

«عبدالله بن عبداللطيف » الذي تعلم على يده الحديث والفقه والتجويد وسائر علوم القرآن والسنة .

وكان الأمير حريصاً على اصطحاب ابنه في مجالسه وتعويده على الاستيقاظ مبكراً لأداء صلاة الفجر معه ومرافقته له في بعض رحلاته خارج الرياض ليعوده على الخشونة وتحمل المشاق وهجر النعيم والترف والليونة .

وهكذا نشأ الابن في كنف والده نشأة تختلف عما نشأ عليه غالبية أبناء الأمراء من تدلل ونعومة وترف وجنوح إلى الراحة والاسترخاء ، فبدا هذا الصبي سريع الحركة حاد الطباع قاسي العود .

ومع مرور الوقت بدأ سالم السبهان يشك في أمر عبدالرحمن وأتباعه ، وأخذ يزرع عيونه وجواسيسه في كل شبر من الرياض ، فعلم أن عبدالرحمن يعقد اجتماعات سرية ، ويجمع حوله أنصاره ، ويتحين الفرص المواتية للإيقاع به عن الحكم .

وبات سالم على مضض ، لا يهدأ له بال ولا يهنأ له عيش ، وفكر بالتخلص من آل سعود عن بكرة أبيهم ليستقر له حكم الرياض ، وفي نهاية الأمر هداه تفكيره إلى تدبير مكيدة شاركه بالتخطيط لها ابن رشيد ، وهي أن يستغل سالم مناسبة أول أيام العيد الذي سوف يحل بعد غد ، بحيث يذهب لمعايدة الأمير عبدالرحمن في منزله برفقة عدد من حرسه المدججين بالسلاح ، ويطلب منه السلام على أبنائه وأقاربه وبعض رجاله في قاعة الضيوف ، وبالتالي فإنه سيتسنى لسالم وحرسه الانقضاض عليهم جميعاً وإبادتهم عن آخرهم .

ولكن أمر هذه المؤامرة تسرب إلى الأمير عبدالرحمن فأعدّ خطة مضادة .

وفي ليلة العيد بدا عبدالرحمن واجماً في غرفته غارقاً في بحر عميق من التفكير حين دخل عليه ابنه عبدالعزيز الذي لم يبلغ سن الحادية عشرة عائداً من رحلته اليومية التي كان يقضيها بممارسة رياضة الفروسية والتدرب على استخدام السيف والرمح على ظهور الخيل، وقد لحظ عبدالعزيز ما لحظه من الكآبة على وجه أبيه، إلا أنه لم يكن يعي تفسير هذه الكآبة، نظراً لحداثة سنه فسلم على أبيه، واستفسر بعفوية طفولية :

- هل ثمة ما يضايقك يا أبي ؟

واحتار الوالد في سؤال صغيره عما يضايقه، لا يدري بماذا يجيبه، ولم يكن منه إلا أن ضمه إلى صدره وهو يقول :

- غداً ستعرف يا عبدالعزيز . . المهم الآن أن تعجل بالإسراع إلى عمك محمد، وعمك عبدالله بن جلوي وتخبرهما أنني أريد حضورهما الليلة حالاً لأمر مهم .

وما لبث عبدالعزيز أن أسرع بإخبار عميه اللذين أتيا مسرعين، ودخلا على عبدالرحمن في غرفته - حيث أخبرهما بالتفصيل عن المؤامرة المدبرة لهم غدا من قبل ابن رشيد والسبهان، في أول أيام العيد، فأعدو العدة للتصدي لها والقضاء عليها .

وفي الصباح الباكر أقبل السبهان بحرسه الأربعين المدججين بالسلاح لمعايدة الأمير عبدالرحمن في منزله، حيث استقبله الأخير بالترحيب في قاعة الضيوف وكأن الأمور تبدو طبيعية وليس فيها مايبعث على الخوف أو عدم الاطمئنان .

وتبادل الجميع الأحاديث الودية وعبارات التهاني بالعيد، وأخذ سالم يجيل نظره في أنحاء القاعة، ويخلع على وجهه ابتسامة مصطنعة وهو يسأل عبدالرحمن :

- كيف حال الأبناء يا أبا عبدالعزيز . . ؟ وماذا عن الأخوين محمد وعبدالله . . ؟ أين هم . . ؟ إنني لم أرهم منذ مدة . . . !

فأجابه عبدالرحمن وهو يغمز بعينه لأحد رجاله الواقف بالقرب من الباب الداخلي للقاعة المؤدي للمنزل :

- كلهم بخير . . . إنهم سيأتون للسلام عليك حالاً .

وما كاد عبدالرحمن ينهي عبارته هذه حتى دخل رجاله القاعة بشكل مفاجىء شاهرين أسلحتهم، فاندهش سالم لذلك وجحظت عيناه خوفاً وهلعاً مما يراه لهول المفاجأة، ثم صاح بمن حوله من حرسه ولما أوشك على أن يستل سيفه من جرابه كان اثنان من الرجال قد أوقعا به أرضاً واستلا سيفه منه، في حين أغلق بعضهم أبواب القاعة الخارجية دون من تبقى من حرس السبهان في الخارج .

واحتدمت المعركة بين الطرفين داخل القاعة المغلقة التي أصبحت وطيساً حامياً وقوده الرؤوس المتطايرة والأشلاء المتناثرة والدماء النازفة، وامتد القتال خارج القاعة إلى ساحة القصر حتى عم المدينة التي هب أهلها لنجدة آل سعود ورجالهم والوقوف بصفهم .

وبذلك تمكن عبدالرحمن ومن معه من قتل الكثير من حرس السبهان ورجاله وأتباعه والقضاء عليهم وأسر بعضهم، هذا فضلاً عن تمكنهم من أسر السبهان - الرأس المدبر لهذه المؤامرة الدنيئة - والإبقاء عليه حياً لمفاوضة ابن رشيد في

أمره، والضغط عليه للرضوخ لمطالبهم المتمثلة بإقصاء آل رشيد من الرياض وماحولها ، وإعادتها لأهلها « آل سعود » .

وفي الحال ارتفعت أصوات أهل الرياض تجوب أحياءها الصغيرة الجاثمة على ضفاف وادي حنيفة وهم يرددون مبتهجين :

- الله أكبر . . . ! . . . الله أكبر !

في حين كان المنادي ينادي :

- الملك لله ثم لعبدالرحمن الفيصل . . !! الملك لله ثم لعبدالرحمن الفيصل . . . ! .

الفصل الثاني

كان ابن رشيد قد علم بما حدث في الرياض ، فاستشاط غضباً ، وكاد يجن لهول ماسمعه، وما وصل إلى علمه ، فجهز جيشاً بقيادته من حائل زاحفاً إليها .

ولدى وصوله الرياض كانت قد تحصنت تحسباً لهجومه فحاصرها ما يقارب شهراً .

ولما رأى أنه لم يفلح في غزوته هذه ، وأنه لا فائدة من حصاره للرياض دعا أميرها عبدالرحمن بن فيصل للصلح والمفاوضات وقفل راجعاً إلى حائل .

حينئذ اجتمع عبدالرحمن بأقاربه وكبار رجاله بقصر الحكم قائلاً :

- أيها الإخوة الأفاضل والسادة الكرام، إنكم تعلمون ما وصل إليه حالنا، وما كان من حصار ابن رشيد لبلادنا طيلة الأيام السابقة، وإننا - على أي حال - نحمد الله إذ لم نتكبد خسائر كبيرة لا في أحوالنا ولا في أموالنا .

ثم توقف الأمير قليلاً عن الكلام والجميع ينصتون إليه بهدوء وما لبث أن أردف قائلاً وهو يشير ببنانه :

- أنت أيها الأخ الأمير محمد بن فيصل ، وأنت يا شيخ عبدالله بن عبداللطيف وبرفقتكما الابن عبدالعزيز اذهبوا إلى ابن رشيد في حائل ، وفاوضوه في الأمر حسب ما اتفقنا عليه ، فإن التزم بعلاقته معنا ، وتعهد بعدم مهاجمة الرياض فإننا لن نمانع في اطلاق سراح عامله « سالم السبهان » وتسوية الخلاف فيما بيننا ، وإلا فلن يكون بيننا إلا الحرب إذا لم يكن هناك بد منها .

ولما انفض المجلس ارتسمت على الوجوه ابتسامات الرضى ، واعتز الوفد بهذه المهمة التي كلفه بها الأمير عبدالرحمن ، فهرع كل من محمد بن فيصل والأمير الصغير عبدالعزيز والشيخ عبدالله بن عبداللطيف « الوفد المكلف » إلى امتطاء ركائبهم متجهين إلى ابن رشيد في حائل يطوون الفيافي والقفار .

وعند وصولهم حائل أناخوا ركائبهم في فناء قصر الحكم ، واستقبلهم الأمير محمد بن رشيد بالقصر ، ومعه ثلة من رجاله وأهل بيته ، وكان الوفد يتقدمه محمد بن فيصل الذي صافحه ابن رشيد بحرارة قائلاً بلهجة تنم عن قلق داخلي لا يعي تفسيره :

- مرحباً بكم . . . ! . . . حياكم الله ! . . قد انتظرناكم طويلاً فعسى المانع يكون خيراً ؟

فأجابه محمد بن فيصل وهو يحيط ابن رشيد بنظرات يحاول من خلالها تفريغ ما في نفسه من شحنة تعتلج بداخله :

- بارك الله فيك أيها الأمير . . . أنتم تعلمون أن الأمر يحتاج منا إلى التروي والتمهل ، وأنه ليس من السهل اتخاذ قرار عاجل بشأن المفاوضات التي سبق اتفاقنا على بحثها معكم .

ثم التفت محمد بن فيصل يساره واستطرد قائلاً :

- أقدم لكم رفيقي . . ابن أخي الأمير عبدالعزيز بن عبدالرحمن ، والشيخ عبدالله بن عبداللطيف .

وما لبث محمد بن رشيد أن بادرهما بالمصافحة مرحباً . . عندئذ توجه الجميع داخل القصر يحيط بهم بعض حرس ابن رشيد وحاشيته وخدمه ، ولدى جلوسهم أديرت عليهم القهوة العربية حيث ارتشفوا بعض الفناجين الساخنة منها .

ولدى فراغهم من القهوة تقدمهم ابن رشيد إلى قاعة الضيافة حيث أعد لهم وليمة عظيمة، ومن ثم دلفوا جميعاً إلى إحدى غرف القصر الداخلية لإجراء مفاوضات سرية بينهم حيث بادر محمد بن فيصل إلى إخراج رسالة خاصة من عبدالرحمن إلى ابن رشيد وناوله إياها.

وعندما فض ابن رشيد الرسالة، وقرأها ابتسم ابتسامة مصطنعة ثم قال :

- يبدو أن الامام عبدالرحمن لا زال متشدداً برأيه وبضرورة تمسكه بالإمارة على العارض، وامتداد إمارته إلى النواحي المتاخمة لحدود إمارتنا . . و . . فقاطعه محمد بن فيصل بعصبية قائلاً :

- أرجو ألاتنسى أيها الأمير مبدأ الاتفاق بيننا على هذه المفاوضات حيث اتفقت - أنت - مع الإمام عبدالرحمن لدى حصاركم للرياض الأشهر الماضية على أن تكون إمارة العارض وتوابعها لآل سعود مقابل إطلاق سراح عاملكم «ابن السبهان» وأن نسوي الخلافات فيما بيننا.

ثم أضاف كل من الأمير الصغير « عبدالعزيز » والشيخ ابن عبداللطيف قائلين على لسان واحد :

- إن هذا أصلاً ما جئنا للمفاوضة من أجله بناء على موافقتكم أنتم، وتأكيدكم لنا بالالتزام بما اتفقنا عليه سابقاً.

وبدت على وجه ابن رشيد ملامح الضجر، وأخذ يرمق الوفد المفاوض بعينين يشع منهما بريق المراوغة والدهاء ثم قال :

- حسناً . . . حسناً . . . بلغوا الإمام عبدالرحمن بموافقتي، واعترافي به أميراً على العارض مقابل اطلاق سراح عاملنا «ابن السبهان».

عندها انفض مجلس المفاوضات بين ابن رشيد ووفد الرياض ، وقد أحس الوفد أن ابن رشيد يظهر غير ما يبطن ، وأنه غير مقتنع بينه وبين نفسه باعترافه بإمارة آل سعود على العارض .

هذا وقد عاد الوفد أدراجه إلى الرياض حيث أبلغوا الإمام عبدالرحمن بما حدث من مفاوضات بحثوها مع ابن رشيد في حائل .

لم يطمئن عبدالرحمن - بالطبع - لنتيجة مفاوضاته مع ابن رشيد فقام بإطلاق سراح « ابن السبهان » بعد أن أدرك أنه ليست هناك جدوى من أسره ، وأخذ يعد العدة تحسباً لتلقي أي هجمات طارئة يفاجئه بها ابن رشيد .

ولم تمض أشهر قليلة من ذلك حتى تحرك ابن رشيد يقود جيشه من حائل متجهاً إلى الرياض ، وفي طريقه إليها نشبت الحرب بينه وبين أهل القصيم الذين كانوا يدينون بالولاء لآل سعود ، ففتك بهم في موقعة « المليداء » ، وأنزل بهم خسائر فادحة بالأرواح والأموال ، حيث قتل « زامل ابن سليم » أمير عنيزة و « ابن مهنا » أمير بريدة في الوقت الذي خرج فيه عبدالرحمن ورجاله من الرياض يقصدون ملاقاته قبل توغله في القصيم دفاعاً عن أهلها ، ولكن سبقه ابن رشيد وكان أسرع بالتحرك من عبدالرحمن الذي عرف أن خصمه قد سبقه الى القصيم ، وأنه فتك بأهلها ، وهو في طريقه إلى الرياض ، فما كان من عبدالرحمن إلا أن عاد بجيشه إلى الرياض ، وهو يعلم أنه ليس هناك تكافؤ بين جيشه وجيش ابن رشيد الذي يفوقه في العدد والقوة والتجهيزات العسكرية ، كما أنه أدرك ضرورة تجنب هذه المواجهة غير المتكافئة كيْ لا يجر على أهل الرياض حرباً ضروساً تؤدي إلى سفك دمائهم وهلاكهم .

وفي حينه عقد عبدالرحمن اجتماعاً عاجلاً في الرياض حيث ضم هذا الاجتماع أخاه محمداً وابنه الفتى « عبدالعزيز » وابن عمه عبدالله بن جلوي والشيخ ابن عبداللطيف وبعض رجاله وبدأ قائلاً :

- تعلمون - أيها الاخوة - أن ابن رشيد منذ فترة طويلة أخذ يشن علينا حروباً تنذر بالهلاك والدمار ، ومضى يؤلب علينا قبائل نجد والأتراك على الرغم من إبرامنا معه اتفاقية الصلح في الأشهر الماضية ، والتي قام بنقضها وعدم الوفاء بما اتفقنا عليه معه ، وها هو الآن قد فتك بأهالي القصيم ، ولا يزال في طريقه إلينا يجر جيشاً كبيراً يفوقنا عدداً وقوة ، وليس من مصلحتنا أن نخوض معه معركة قد تؤدي بحياة الكثيرين منا ، وتلقي برجالنا ورعايانا تحت أيد لا ترحم . . . فما رأيكم بما نحن فيه ؟

عندها أدلى محمد بن فيصل برأيه قائلاً :

- أنا من رأيي أن يغادر الأخ الأمير عبدالرحمن وعائلته الرياض بأسرع وقت ممكن حفاظاً على نفسه وعائلته ، لأنه بلا شك هو الهدف الأول الذي يحاول ابن رشيد القضاء عليه ما أمكن ذلك ليضمن سقوط العمود الرئيس لبيت الحكم السعودي بالرياض ، وبالتالي فإنه سيهون عليه إزالة ما يعترض طريقه من عوائق للاستيلاء عليها .

ثم توقف محمد قليلاً وهو يوزع نظراته بانفعال حاد على الجالسين حوله فاسترسل بكلامه :

- أما أنا فأرى أنه يجب علي البقاء هنا في الرياض ومن معي من الرجال الذين ربما يكونون هدفاً ثانوياً بالنسبة لابن رشيد .

وما كاد محمد ينهي كلامه حتى بادر عبدالله بن جلوي الجالسين بقوله :

- بالنسبة لي - أنا شخصياً - فلا أمانع من مرافقة الأمير عبدالرحمن إذا شاء مغادرة الرياض ، على أنني وفي الوقت نفسه لا أمانع أيضاً من البقاء إلى جانب الأمير محمد في الرياض .

وما لبث عبدالرحمن أن نظر يساره حيث يجلس ابنه الأمير الفتى « عبدالعزيز » وكأنه قد توجس في نفس ابنه شيئاً يريد قوله، فأيقن الفتى أن والده قد أفسح له المجال ليفضي ببعض ما يجول في ذهنه حيث قال :

- أنا رأيي مرهون بما يراه والدي على أي حال ، فإن رغب ببقائي في الرياض بقيت ولو كلفني ذلك حياتي ، وإن رأى ضرورة مرافقتي له لدى مغادرته فإني على أتم الاستعداد .

عندئذ هز الإمام عبدالرحمن رأسه إشعاراً منه للجالسين بأنه قد اقتنع بضرورة مغادرة الرياض حفاظاً على نفسه وعائلته ، وتجنباً لسفك الدماء ثم قال :

- إذن . . . ما دمتم مقتنعين بذلك فإني أترككم بحفظ لله ورعايته ، وأتمنى من الله عز وجل لنا جميعاً التوفيق والثبات على الحق ، والله سبحانه وتعالى كفيل بنصر أوليائه ورد كيد الظالمين المعتدين إلى نحورهم . . ! . . إلى اللقاء . إلى اللقاء أيها الإخوة .

ثم نهض عبدالرحمن فتهافت عليه أتباعه ومناصروه يودعونه قبيل خروجه ، ويعانقونه ويصافحونه بحرارة ، ويربتون على كتفيه وقلوبهم تكاد تتفطر على زعيمهم الذي جمع كلمتهم ، ووحد صفوفهم ، وقاتل في سبيل الله قتال المستميت ، لإعلاء كلمة الله التي هي أساس العدالة التي يقوم عليها الحكم .

- استودعك الله أيها الأخ . . . ! . . وإلى لقاء قريب إن شاء الله .

قالها محمد بن فيصل وهو يصافح أخاه عبدالرحمن ويهز يده بشدة ، فبادله عبدالرحمن عبارات التوديع ثم همس في أذنه :

- أنت خليفتي على الرياض من بعدي يا محمد، أوصيك بأهلها خيراً وبجمع أمرهم ولمّ شتاتهم ، وتقصي أحوالهم، والحرص على مصالحهم .

فأجابه محمد :

- اطمئن يا أبا عبدالعزيز ، فوالله لن أتخلى في يوم من الأيام عما أوصيتني ، وستكون الرياض وأهلها أمانة في عنقي ما حييت إلى أن يكتب الله لنا الفرج من عنده إنه سميع مجيب .

وفي خضم مرارة التوديع التفت عبدالرحمن إلى ابنه عبدالعزيز وهما يغادران مكان الاجتماع قائلاً بصوت ينبض بالأسى وبحرارة فراق الأهل والديار :

- يا بني . . . أسرع إلى والدتك وإخوانك وبعض الخدم ، وعجل بتجهيز الركائب ، وكل ما نحتاج إليه ، فإننا مغادرون .

عندئذ هرع الابن إلى والدته كما أمره أبوه وهو يجيل نظره بما حوله من ساحة القصر وفنائه وغرفه متذكراً أيام طفولته ومرابع صباه . . تلك الأيام الخوالي التي صقلت عوده على الحياة بحلوها ومرها .

كان المساء قد أزف في ليلة من ليالي رمضان حين كان الإمام عبدالرحمن يتقدم قافلته على ناقته « الشهباء » مغادراً الرياض ، متجهاً ناحية الشرق وبرفقته ابناه عبدالعزيز ومحمد وابن عمه عبدالله بن جلوي وزوجته الأميرة سارة بنت أحمد السديري وبعض الخدم .

وكانت القافلة تحث سيرها بين السهول والتلال وبطون الأودية في حين كان الإمام عبدالرحمن وعائلته يتناولون طعام الإفطار على ظهور ركائبهم وهم يجهرون بالتسبيح والتهليل والاستغفار ، وتتكسر أصداء التسبيح بين جنبات الطريق لتبدد رهبة الليل الذي بدأ يخيم على معالم الكائنات من حولهم .

- ياالله . . . الطف بنا . . .

قالها الإمام وهو ينيخ ناقته التي تتقدم القافلة، حيث بدأت بقية إبل القافلة تأخذ مباركها بمن عليها حول الشهباء بشكل شبه دائري.

وما لبث الجميع أن أدوا صلاة المغرب.

وبعد انتهاء الصلاة أحسوا بحاجتهم لأخذ قسط من الراحة، وذلك بعد أن رأوا أنهم قد ابتعدوا كثيراً عن الرياض وأنهم بمنأى عن خطر مداهمة ابن رشيد لهم.

كان ليل الصحراء غولاً يجثم بشبحه الأسود على المخلوقات والكائنات الصحراوية التي لاتهدأ لها حركة ولا ينقطع لها صوت .. عواء الذئاب والضباع وبنات آوى .. صفير صرّار الليل.، ووشوشة أغصان الأشجار التي تحركها الرياح، كل ذلك كان دوامة من الصخب والجلبة والفوضى الفطرية التي تبدد رهبة الليل ووحشته، في حين كانت القافلة تقبع بهدوء تام تحت ستار الظلام.

وفي الهزيع الأخير من الليل استيقظ الإمام ورفاقه فتناولوا طعام السحور مما وجدوه في حقائبهم من تمر قليل ولبن.

وما كادت تنساب خيوط الفجر الأولى إلى الأفق حتى أذن مؤذنهم فأدوا الصلاة وهيأوا ركائبهم لاستئناف رحلتهم.

ولما بدأت الشمس تنشر أشعتها الذهبية على أديم الصحراء البكر مبشرة بمولد صبح جديد تحركت القافلة تذرع مناكب هذه الصحراء القاحلة التي لا يرى فيها إلا تموج السراب على امتداد النظر، ولايسمع فيها إلا نعيق الغربان وصفير الرياح.

وما إن توسطت الشمس كبد السماء حتى كانت القافلة قد توغلت في الصحراء مشرقة مع ميل قليل باتجاه الربع الخالي.

نزل الإمام عبدالرحمن عن ظهر ناقته، وترجل وهو ممسك بإحدى يديه على «رسن» (*) الناقة، وكذلك فعل الأمير عبدالله بن جلوي حين ترجل السير وأخذ

(*) الرسن في اللهجة العامية لأهل نجد هو الحبل الذي يقاد به البعير ويقتصر إطلاقه على الإبل دون غيرها من الدواب

يتفقد القافلة يراقب سيرها بين الحين والآخر ، وحذا حذوهما الأمير الفتى «عبدالعزيز » حين ترجل ومضى يحث خطاه خلف والده ويسأله بأنفاس متلاحقه :

- أين نحن يا أبتاه ؟

ويلتفت الأب إلى ابنه ليجيبه بعبارة توحي له بمجابهة الواقع العنيف ، والاعتداد بالنفس لمواجهته بقوله :

- أنت في « الدهناء » يا عبدالعزيز !!

وما إن سمع عبدالعزيز هذه العبارة حتى أخذ يردد كمن يكلم نفسه :

- الدهناء . . ! الدهناء . . !

لقد طافت في مخيلة الفتى وهو يسير مترجلاً خلف والده ذكريات الماضي . . شريط من الذكريات العبقة مرت بذهنه . . قصر الحكم . . شيخه عبدالله الخرجي الذي تلقى على يديه مبادىء القراءة والكتابة . . . شيخه عبدالله بن عبداللطيف وشيخه محمد بن مصيبيح الذي قرأ عليه القرآن كاملاً . . لوحه الذي كان يتأبطه كل صباح في طريقه إلى الكتّاب .

كان ذلك الشريط من الذكريات يمر بذهن عبدالعزيز حين انتشله أبوه من دوامة التفكير قائلاً :

- عبدالعزيز . . أترى ما أراه يا ولدي ؟

كانت القافلة قد توقفت خلف الإمام عبدالرحمن وهو يشير بسبابته لابنه الذي أرسل نظره بعيداً حيث يشير والده فقال :

- نعم ، نعم يا أبي . . . إنها بيوت شعر .

ولما اقترب الإمام بقافلته من البيوت أحس أن أهلها لم يخرجوا لاستقباله كما تعود عليه أهل البادية - فعرف أن هذه البيوت يقطنها أناس قد دب في نفوسهم

الذعر من ابن رشيد الذي لا يأمنون نقمته وسخطه عليهم إن هم قاموا بإيواء كبير آل سعود وأسرته فانحرف بقافلته عن هذه البيوت قاصداً منازل قبائل « آل مرة » و«العجمان» بين « يبرين» والأحساء ، ولما بلغها استقبله شيخ بني مرة من «آل شريم» مرحباً ، فنصب الإمام خيامه على مقربة منه .

بدأت الأسرة تقاوم قساوة الصحراء ومشقاتها ، وكان عبدالرحمن دؤوباً في تعويد ابنه عبدالعزيز منذ صغره على تحمل الشدائد ، وقساوة الحياة ، حيث كان يوقظه قبل ساعات الفجر الأولى من كل يوم ليؤدي الصلاة، ويأمره بأن يسكب الماء على من لم يصحُ من إخوته للصلاة، ومن ثم يأخذه على ناقته بعيداً خارج المدينة ليلقيه في الصحراء في أشد أيام الصيف حرارة، ليمشي حافي القدمين على الرمال الحارقة مسافات طويلة .

ولم تكن والدته الأميرة سارة أقل حرصاً من زوجها على ابنها، وتنشئته مبكراً على الشدة، ومجابهة قسوة الحياة ، وتجنب رخاوة العيش ونعومته .

وقضى عبدالرحمن وأسرته بقية ليالي رمضان في مضارب بني مرة ، وآثر أن ينقطع في هذا الشهر الفضيل من السنة للصلاة والتعبد وتلاوة القرآن ، خاصة في أوقات المساء بعد تناول طعام الإفطار مع أفراد عائلته .

أما في النهار فقد كان يخرج لتفقد إبله وخيوله ومواشيه ورعاتها في المراعي المجاورة لمنازلهم، هذا فضلاً عن تقصيه لأخبار الرياض وأهلهاوتحركات ابن رشيد ونواياه ومطامعه بالاستيلاء على العارض وتوابعه بمساعدة الأتراك .

وكان ابن عمه الأمير عبدالله بن جلوي يسانده في كل كبيرة وصغيرة ، ويطرح عليه ما يدور بذهنه من آراء ومقترحات ومرئيات ، وما يجب عليهم اتخاذه من إجراءات من شأنها أن تحسم واقعهم الذي يعيشونه .

أما الأميران الصغيران « عبدالعزيز ومحمد » فقد كانا ملازمين لوالدهما الإمام لايفارقانه إلا في أوقات ممارستهما لتمارين الفروسية على ظهور الخيل ، أو في أوقات خلودهما للنوم .

وفي ليلة عيد الفطر اجتمع أفراد الأسرة يهنئون بعضهم بحلول أول أيام العيد في الصباح الباكر ، وتعالت أصواتهم بعبارات التهاني والتبريكات .

وفي صباح العيد أقبل عبدالعزيز مرتدياً عباءة بنية اللون تحتها ثوب جديد من «الجوخ » قاصداً خيمة استقبال الضيوف في مخيمهم ، حيث يجلس والده ورجاله ، فقبّل جبين والده مهنئاً له بهذه المناسبة ، وصافح بقية رجالهم ومن في معيتهم من جيرانهم من رجال بني مرة الذين قدموا لمعايدة الإمام وأسرته ، وتبادل الجميع عبارات التهاني والتبريكات ، ثم عرج عبدالعزيز وأخوه محمد على خيمة والدتهما الأميرة سارة حيث عانقاها عناقاً حاراً بهذه المناسبة السعيدة ثم عانقا أخاهما الأصغر « سعداً » وهنآه بهذه المناسبة .

ولما ارتفعت الشمس ضحى العيد كان عبدالعزيز واقفاً في باب خيمته يمد بصره بعيداً في الأفق نحو الغرب مع ميل قليل إلى الجنوب . . لقد تذكر أيام طفولته وصباه في الرياض « مسقط رأسه ومهده الأول » وما كان عليه بالأمس وما هو عليه اليوم .

إن العيد هنا يبدو على غير ما اعتاده في ماضيه حينما كان ينعم بأحضان الرياض بين الأهل والأصحاب ، وبينما هو كذلك أحس أن ثمة كفاً تربت على كتفه اليمنى من الخلف ، فأدار وجهه بالاتجاه المعاكس ، فإذا هو والده ، فابتسم قائلاً :

- أسعد الله صباحك يا أبتاه . . . !

- وصباحك يا عبدالعزيز .

- كنت . . كنت قد تذكرت عيد العام الماضي في الرياض .

- وسنتذكر جميعاً يا بني عيدنا هنا في مضارب بني مرة العام القادم في الرياض إن شاء الله .

قالها الوالد لابنه وهو يلاطفه باسم الوجه بهذه الكلمات التي توحي بالإيمان القوي بالله تعالى ، وتبعث على الاطمئنان والأمل بالمستقبل المشرق .

وفي بني مرة - في الربع الخالي - مرت الأيام سريعة ، ودأب الفتى عبدالعزيز يروض نفسه على شظف العيش ، وظروف الحياة بهذه الصحراء القاسية فتعلم فنون القتال ، والأساليب الحربية ، وأجاد استخدام السيوف والرماح والبنادق ، وكيفية مقارعة الأعداء في ساحات الوغى .

وكان الأب سعيداً بما يرى عليه ابنه من إقدام على التمرن والتمرس وحذق فنون القتال وأساليبه ، على الرغم مما يصاحب ذلك من مغامرات ومخاطر قد تودي بحياته أثناء قيامه بهذه الممارسات والتمارين ، ولذلك بدا الفتى عبدالعزيز قوي البنية ، فارع الطول ، مفتول العضلات .

وقد استفاد عبدالعزيز كثيراً من بني مرة حيث طفق يرافق بعض رجالهم بعيداً عن منازلهم في الصحراء ، فتعلم كثيراً من الأمور التي تشتهر بها قبيلة بني مرة ، مثل كيفية تتبع الأثر ومسالك الطرق المؤدية لمواقع المياه ، والجهة التي تهب منها الرياح أكثر من غيرها من الجهات الأخرى وكيفية الاستدلال بالنجوم ليلاً ، وتحمل السير مسافات طويلة بقليل من الماء والزاد .

ولم يكن من السهل التكيف مع الصحراء بظروفها وطبيعتها القاسية ؛ إلا أن الاسرة قد بدأت تقاوم العيش في هذا المكان الموبوء بالوحشة والعزلة والبعد عن الأهل والديار .

وفي صبيحة يوم من الأيام كان الإمام عبدالرحمن وأبناؤه عبدالعزيز ومحمد وسعد وابن عمه الأمير عبدالله بن جلوي يجلسون حول النار التي اعتادوا أن يشعلوها كل صباح ليتناولوا حولها القهوة العربية ، فإذا برجل يمتطي ناقته باتجاههم قادما من منازل بني مرة ، وكانوا يلاحظون على الرجل أنه يركل الناقة بعقبيه ليحثها على السير السريع ، وكان الرجل يبدو عليه الارتباك والوجل في حين رفع عبدالرحمن صوته مرحباً في الوقت الذي كان فيه الرجل ينيخ ناقته تهيؤاً للنزول عن ظهرها :

- مرحباً . . حياك الله .

- بارك الله فيك أيها الأمير .

قالها الرجل بصوت تشوبه مسحة من الألم ، على الرغم من تظاهره بهدوء الأعصاب ، ثم صافحهم واحداً تلو الأخر فأجلسوه إلى جانبهم ، وأومأ عبدالرحمن إلى « المقهوي » الذي ناول الرجل فنجاناً ساخناً من القهوة سرعان ما ارتشفه على عجل وهز يده للمقهوي إشارة للاكتفاء .

ثم حدّق عبدالرحمن بالرجل المتربع قبالته بنظرات مفعمه بدهشة الموقف ، حتى كاد يبادره بالسؤال ليحطم حاجز الحرج الذي يحول دون افصاح هذا الرجل بما عنده ، لولا أن الرجل تنحنح قائلاً وهو ينظر إليه :

- ياطويل العمر . . ! . . أنا سالم المري من جيرانكم بني مرة ، وقد أصيب أخ لي يدعى « راشداً » بطعنة رمح في بطنه أمس الأول أثناء لحاقه بإبلنا التي استاقها عدد من قطاع الطرق ، وهو الآن ممدد على الرمال متأثراً بإصابته في موقع الحادث ، وليس بإمكاننا حمله إلى منازلنا خوفاً عليه من ا لحركة التي ربما تزيد من آلامه و . . . و . . .

فقاطعه عبدالرحمن بانفعال ينم عن نخوة استثارت حفيظته وغيرته على جيرانه :

- وأين الشيخ ابن شريم . . ؟ وهل استعدتم الإبل المنهوبة ؟

فاستطرد سالم وهو يبتلع ريقه بانفعال حاد :

- الشيخ ابن شريم خرج قبيل الحادث يستدرك نشوب صراع بين رعايا آل مرة ورعايا آل كثير على موقع ماء بين حدود ديار القبيلتين .

أما الإبل فقد هب أحد فرسان بني مرة ، وتمكن من استعادتها حيث لاذ اللصوص بالفرار .

وداخل الإمام عبدالرحمن شعور مسكون بالارتياح سكنت له ريح انفعاله ، فأراد أن يخفف عن سالم بعض ما شعر به من أسى تجاه أخيه راشد حيث قال :

- لا بأس عليك يا سالم . . وأخوك سيعافى بمشيئة الله .

واستدارت دفة الحديث إلى الأمير ابن جلوي الذي مضى يخاطب الجميع قائلاً :

- إن أذن لنا الإمام فسنرافقك يا سالم إلى أخيك ، فلعلنا نستطيع إسعافه بما من شأنه أن يخفف من وجع اصابته .

هز الإمام رأسه اشعاراً بالموافقة حيث هرع كل من ابن جلوي وعبدالعزيز ومحمد وسالم إلى امتطاء ركائبهم قاصدين موقع الحادث في الجهة الشرقية من منازل آل مرة ، فلما بلغوه وجدوا « راشد المري » المصاب وحوله رجلان أحدهما من أقاربه والأخر شيخ ذو لحية شمطاء يقلب بين يديه حقيبة جلدية صغيرة ، يبدو أنها تحوي بعض الأدوية والأدوات الجراحية ، والتف الجميع حول راشد الذي كان يجاذب الأنين ويتلوى على الرمال من شدة الألم وقد بدا وجهه شاحباً .

جلس الأمير ابن جلوي القرفصاء، فأطلّ في وجه راشد ثم قال مواسياً له :

- سلامات . . ! سلامات إن شاء الله يا راشد.

أما عبدالعزيز وأخوه محمد فقد كانا واقفين يجيلان نظرهما بأسى حول الرجل الممدد على الرمال بينما كان سالم مسنداً رأس أخيه المصاب إلى ركبته، وهو يصوب نظره تجاه الرجل ذي اللحية الشمطاء الذي يبدو أنه يتمتم بتعاويذ لايُفْهَمُ منها شيء.

نهض ابن جلوي وتقدم بخطوات وئيدة نحو الشيخ وهو يقول :

- أيها الشيخ، إنه لا يمكننا الوقوف مكتوفي الأيدي، ولا بد لنا أن نتصرف لانقاذ الرجل، فهل لديك معرفة بالجراحة ؟

أطلق الشيخ زفرة عميقة قائلاً وهو ينفش شعر لحيته :

- إنني منذ البارحة قائم على إيقاف نزف الجرح وتضميده، والحقيقة أنه لابد لنا من إرسال بعض الرجال لينقبوا في أقاصي صحراء الربع الخالي عن النمل الكبير.

وأخذ الجميع يرددون باستغراب :

- النمل الكبير . . ! النمل الكبير !.

لقد بدا كلام الشيخ لهم ضرباً من الألغاز لايدركون فحواها، ولم يتمالك عبدالعزيز نفسه لما يسمعه، حيث توقدت في عينيه شعلة تتوهج بدهشة مصحوبة بحب استطلاع الأمور فسأل الشيخ :

- وماذا تقصد بالنمل الكبير أيها الشيخ ؟

فتنهد الشيخ ومضى يقول محاولاً أن يبدد الدهشة التي ارتسمت على وجوه من حوله :

- النمل الكبير يا بني هو نوع من النمل يندر وجوده ، له فكّان كبيران وقويان إذاوضعناه على الجرح فإنه سيقوم بعقص شقيه حتى يلتئما ، وبالتالي فإنه سيسهل علينا عملية خياطة الجرح .

هز الجميع رؤوسهم وقد تمالكتهم الدهشة لما سمعوه من كلام الشيخ خاصة عبدالعزيز الذي كان شغوفاً باكتشاف عجائب هذه الصحراء وأهلها يوماً بعد الآخر .

حينئذ امتطى الجميع ركائبهم باستثناء الشيخ الذي بقي إلى جوار المصاب ليقوم بمواساته ريثما يعود الرجال جالبين معهم النمل الكبير .

وقد توجه سالم إلى منازل آل مرة ليقوم بإرسال من يراه من رجالهم بجلب النمل ، في حين توجه ابن جلوي والأخوان عبدالعزيز ومحمد إلى منازلهم .

كان الإمام عبدالرحمن جالساً في خيمته ، ساهم التفكير حين دخل عليه ابنه عبدالعزيز مستئذناً ، فطمأنه عن أحوال جيرانهم ، وحكى له كل ما شاهده وسمعه من الشيخ والرجل المصاب والنمل الكبير .

وقد أحس عبدالعزيز أن والده كان شارد الذهن لدى دخوله عليه في خيمته فسأله :

- أبتاه . . يساورني شعور بأنك تفكر في شيء ما .

- نعم يا بني .

- وهل لي أن أشاركك التفكير ؟

- الأمر بسيط إن شاء الله - يا عبدالعزيز - وليس فيه ما يبعث على الضجر إلى ذلك الحد . . لقد أتاني قبل قليل أحد رجالنا وافداً من الرياض ، وأخبرني أن ابن رشيد قد دخل الرياض عنوة وولى عليها عمك « محمداً » .

- دخل الرياض . . وهل خلف أضراراً بها وبأهلها ؟

- لا . . لا . . إنه لم يخلف أضراراً كبيرة على أي حال . . ليس هذا ما يقلقني فحسب يا ولدي .

- ماذا إذن يا أبي .

- إن بعض نسائنا وأطفالنا - بحاجة إلى مغادرة هذا المكان ، ولم يعودوا قادرين على تحمل العيش فيه ، ولكنني سأحاول إيجاد حل لما نحن فيه .

واستأذن عبدالعزيز والده فانصرف وهو يفكر بما قاله له ، وبعد يومين أوعز الإمام إلى ابنه :

- يا بني ، اذهب إلى شيخ « البحرين » ابن خليفة ، وبلغه السلام ، وأخبره بما نحن فيه لعله يأذن لنسائنا وأطفالنا بالإقامة إلى جواره ، فإنه بمنأى عن حنق ابن رشيد وسخطه .

أما نحن فسنبقى هنا ريثما تعود ، فنحن لا نريد أن نجر على آل مرة حرباً لا تحمد عقباها مع ابن رشيد الذي ربما تحدثه نفسه بغزوهم لإيوائهم لنا .

كان الفتى عبدالعزيز - أثناء ذلك - ناصباً قامته الفارعة بصمت واستحياء بين يدي والده ، مرهفاً سمعه لكل كلمة يوجهها إليه ، يهز رأسه إشعاراً منه لوالده بالسمع والطاعة .

والتفت الإمام يمنةً حيث يتربع مملوكهم « سلطان » هناك على الأرض على مقربة من مبارك الإبل الجاثمة أمام المخيم فناداه :

- يا سلطان . . عافاك الله . . عجل بتجهيز إحدى النوق لرحيل عبدالعزيز .

حينئذ استأذن عبدالعزيز والده بالانصراف ، ومضى مهرولاً تجاه خيمة والدته الأميرة سارة، ليودعها ويتسلح بدعواتها له :

- أماه . . . ! إنني راحل إلى البحرين .

- رافقتك السلامة يا ولدي . . . كن حريصاً على نفسك ، فإن الطريق من هنا إلى البحرين محفوفة بالمخاطر .

وامتشق الفتى سيفاً صقيلاً بالإضافة إلى بندقية من نوع « موزر » ثم اعتلى ظهر ناقته ومضى يطوي سباسب الأرض وقفارها وفيافيها حتى بلغ ميناء العقير على شاطىء الخليج العربي .

الفصل الثالث

لدى وصول عبدالعزيز ساحل الخليج العربي عانقت عيناه زرقة البحر ، وطرق مسامعه هدير أمواجه وتكسرها على شواطئه الرملية .

إنها المرة الأولى التي يشاهد عبدالعزيز البحر فيها . . ! . . وكيف لا وهو ابن الرياض ، تلك المدينة القابعة في صحراء اليمامة !!!

ومضى عبدالعزيز يتجول على الشاطىء بين أصحاب القوارب الشراعية لعله يجد من يقله إلى البحرين ، وكان الفتى يبدو غريباً بهيئته بين هؤلاء الناس الذين يراهم لأول مرة في حياته، وهم يرتدون ملابس قصيرة ، ويرمون بشباك صيد الأسماك في البحر وينصبون أشرعة سفنهم بحبال غليظة ، ويرفعون أصواتهم بالحداء وأغاني البحر وأهازيجه .

وأثناء تجواله صادفه أحدهم وهو رجل ممتلىء الجسم ذو بشرة سمراء ، يلف رأسه بعمامة بيضاء .

- هل لك حاجة يا فتى ؟

فأجابه عبدالعزيز :

- نعم . . إنني أريد البحرين .

- البحرين . . ! . . حسناً . . سأحملك إلى البحرين بهذا القارب ولكن . . .

- ولكن ماذا ؟ .

- سنأخذ عليك أجراً قدره خمس " روبيات " .

- وأنا موافق على هذا الأجر .

- اتكلنا على الله إذن .

واستقل عبدالعزيز القارب الشراعي برفقة صاحبه ، ومضى القارب يشق عباب البحر ، وهدير الأمواج العاتية ، وأصوات طيور النورس تملأ الأفق صخباً .

كان النهار في منتصفه حين رسا القارب على شاطىء جزيرة البحرين فنزل عبدالعزيز ، ونقد صاحب القارب أجره ، ومشى مترجلاً مسافة طويلة حتى بلغ مدينة « المنامة » .

وهناك سأل بعض المارة عن قصر الشيخ « عيسى آل خليفة » فأرشدوه إليه ، وعند بوابة القصر الخارجية رأى عبدالعزيز حارسين متسمرين على طرفي البوابة يقبض كل منهما على رمح طويل في رأسه حربة مدببة ، فسلم عليهما وردا عليه السلام وبادره أحدهما بالسؤال :

- ما حاجتك يا فتى ؟

- أريد مقابلة الشيخ عيسى .

- تريد مقابلة الشيخ . . ؟ . . هلاّ تفضلت علينا بالتعريف بنفسك ؟

- أنا عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، قادم من الأحساء ، وقد أرسلني والدي إلى الشيخ لأمر مهم .

ونادى الحارس أحد خدم القصر لإبلاغ الشيخ أن هناك زائراً يود مقابلته، وسرعان ما أتى إذن الشيخ لعبدالعزيز بالدخول عليه.

ولما دخل عبدالعزيز على الشيخ عيسى وثب عن كرسيه الذي كان متربعاً عليه مُرحِّباً، فأجلس عبدالعزيز إلى يساره وهو يقول:

- أهلاً وسهلاً بك بيننا يا ابن سعود.

- بارك الله فيك أيها الشيخ.

- كيف حال والدك الإمام عبدالرحمن؟

- بخير ولله الحمد ويبلغك السلام.

- عليك وعليه السلام.

وأدخل عبدالعزيز يده في جيبه، فأخرج منه رسالة خاصة من والده للشيخ فناولها إياه.

- هذه رسالة من والدي لجنابكم الموقر.

وتناول ابن خليفة الرسالة وقام بفضها وقراءة ما جاء فيها، حيث قال وهو يطويها بعد فراغه من قراءتها مبتسماً.

- نحن نرحب بكم يا بني، وأنتم منا وفينا وليس لدينا أي مانع من إقامة أسرتكم الكريمة بجوارنا.

وصاح ابن خليفة بـ «بمقهوي» القصر فأقبل يحمل في يده دلة ناولهما منها بعض الفناجين.

وكان ابن خليفة قليلاً ما يحيل نظره عن عبدالعزيز ، إعجاباً بشخصية هذا الفتى الذي يشد اهتمام كل من يقابله وينظر إليه ، وأنشأ يحدث نفسه بصمت :

- يا له من فتى مهيب قوي الشخصية ، فصيح اللسان ، يا إلهي . . إنه حديث السن . . لابد أن يكون لهذا الفتى مستقبل مشرق . . إنه . . وقطع عبدالعزيز على ابن خليفة شروده الذهني قائلاً :

- أستأذنك يا شيخ عيسى بالعودة إلى أهلي ، فإنهم بانتظاري .

- معاذ الله أن تغادرنا - يا ابن سعود - قبل أن نكرمك بضيافتنا ، فالليل يا ولدي - كما ترى - قد أرخى سدوله ، والصباح رباح .

ولم يمانع عبدالعزيز من أن يبيت ليلته تلك بضيافة ابن خليفة في قصره بعد أن تناول طعام العشاء على مائدة مضيفه .

لم تكن تلك الليلة قد مرت مرور الكرام على عبدالعزيز الذي ظل يتقلب طوال الليل على سريره في إحدى غرف القصر ، ومضت تعصف به زوابع التفكير بماضيه وحاضره ومستقبله ، وما وصل إليه حال أسرته وما حل بالرياض وأهلها من دمار الحروب وخرابها .

وما كاد الفجر ينبلج حتى نهض من فراشه فتوضأ وأدَّى صلاة الفجر مع مضيفه « ابن خليفة » في مسجد القصر ، واستأذنه بالمغادرة .

فغادره قاصداً شواطىء البحرين الغربية ، حيث استقل أحد القوارب الشراعية إلى ميناء « العقير » على الساحل الشرقي لجزيرة العرب .

ولما بلغها امتطى ناقته التي كان قد استودعها أحد صيادي الأسماك ، وعاد أدراجه إلى منزل والده بين « يبرين » و « الأحساء » .

وبينما كان الإمام عبدالرحمن وأبناؤه محمد وسعد وابن عمه عبدالله بن جلوي جالسين في خيمة إعداد القهوة كعادتهم يتحدثون في شؤونهم الخاصة فإذا بالخادم « سلطان » يهرول نحوهم من مبارك الإبل قرب المخيم وهو ينادي ولسانه يتعثر بالكلمات :

- عمي . . عمي . . ثمة بعير قادم نحونا يمتطيه شخص ما يبدو . . يبدو أنه الأمير عبدالعزيز .

وأطل الإمام من باب الخيمة وهو يمد عنقه ليتغلب على قصر قامته وليتسنى له رؤية الشخص المشار إليه ، فاصطبغت سحنته بلون وضيء ثم قال معلقاً على ما يراه :

- نعم . . نعم . . إنه عبدالعزيز .

وظل الإمام واقفاً مسدلاً راحته على أسفل جبينه لتحجب قدراً يسيراً من أشعة شمس العصر التي تسطع في عينيه ، وهو دائم النظر إلى نجله الذي ظل ينتظر عودته على أحر من الجمر ، في حين رفع الابن محمد ثوبه حتى كاد يجاوز ركبتيه وأطلق ساقيه للريح نحو أخيه القادم ليعانقه عناقاً أخوياً حاراً ، قبل وصوله إلى منازلهم .

وأقبل الأخوان عبدالعزيز ومحمد معاً حيث يقف أبوهما وأخوهما سعد وعمهما عبدالله بن جلوي في ساحة المخيم ، فتعانقوا بشغف ، وما كاد عبدالعزيز يهم بالجلوس حتى بادره أبوه بالسؤال :

- بشرنا يا ولدي . . ! عسى الأمور على ما يرام؟

وأطرق عبدالعزيز قليلاً ، وقد بدت على وجهه علامات التعب والإرهاق واسمرَّت بشرته من لفح السموم والهجير ثم قال :

- أبشركم بخير إن شاء الله .

ثم رنت العيون للفتى الذي استطرد قائلاً وهو يلتفت إلى أبيه :

- يبلغكم السلام الشيخ ابن خليفة ، وقد أذن لأسرتنا بالإقامة إلى جواره .

وما أن سمع الأب ذلك حتى مسح وجهه براحته ، وقد نضّ من جبينه عرق بارد أطفأ لهيب مخاوفه المتوقدة ، التي أقلقته طيلة الأيام السابقة على ابنه ومستقبل أسرته ، فنهض متثاقلاً وهو يقول :

الحمد لله . . . الحمد لله الذي جعل لنا فرجاً بعد كربة .

ولأن عبدالرحمن كان دائماً يعود أبناءه - لا سيما عبدالعزيز ـ على تحمل الشدائد وقسوتها مهما كانت الظروف ، ولأنه لا يحب أن يثني عليهم كثيراً في مجالسه أو يمتدحهم على ما يقومون به من أعمال أو أفعال - وإن كانت عظيمة وتستحق الإشادة - فقد مضى يحدث نفسه بصمت ، وهو يسرق نظره إلى عبدالعزيز :

ـ إيه يا عبدالعزيز . . ! . . ستلقى الذي لقيه أبوك وأجدادك من قبل يا بني في سبيل تمسكهم بمجدهم وكفاحهم المستميت دون حرمة دينهم وأرضهم . . إيه ستصقلك الحياة كما صقلتني وتريك ما أرتني من الرخاء والشدة والرأفة والقسوة والحلاوة والمرارة . . ليتك تعلم ما أكن لك في نفسي من حب عظيم يا ولدي .

كان الإمام لا يصرح بحبه لولده إلا نادراً حتى لا يفقده الحنان شعوره بالمسؤوليات والمهام الجسام التي كان كثيراً ما يلقي بها على عاتقه ، على الرغم من حداثة سنه ، وإمعاناً من الأب لابنه في ذلك فقد أومأ إليه قائلاً :

- ولكن . . ولكن الأمر لم ينته بعد يا عبدالعزيز .

ولما تناهى ذلك إلى عبدالعزيز نبذ إناء الماء الذي كان يتجرع منه قطرات ليرطب بها جفاف حلقه جانباً ، ونهض واقفاً يتابع باهتمام والده الذي مضى يقول :

- لا بد يا ولدي أن نستعجل بالأمر ، فالوقت يسرقنا . . كن مستعداً لمرافقة الأسرة غداً إلى البحرين ، للإقامة هناك .

وهز الابن رأسه ايجاباً ، وفي الحال أرسل الإمام مندوباً لشيخ آل مرة يعلمه بأن أسرته سترحل إلى البحرين .

ولما بزغت شمس الصباح تحركت قافلة الأسرة متجهة إلى العقير على شواطىء الخليج ، يتقدمها عبدالعزيز على ناقته ، أما الإمام عبدالرحمن فقد بقي ومن معه من رجاله في ديار آل مرة .

كانت الأميرة سارة لا يهدأ لها بال ، ولا تنفك عن التفكير فيما وصل إليه حال زوجها وأولادها وهي في هودجها الذي يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال على ظهر الناقة ، وكانت كثيراً ما تطل من فتحة الهودج الأمامية لتراقب ابنيها «عبدالعزيز» و « محمداً » في مقدمة القافلة لتطمئن عليهما ، وعلى سير القافلة بأمان ، ولتبدد مخاوفها التي تنتابها بمهاجمة اللصوص وقطاع الطرق لهم في هذه الصحراء القفر .

و لما بلغت قافلة الأسرة شاطىء الخليج ، استقلت إحدى السفن الشراعية التي مضت تمخر بهم عباب الخليج إلى البحرين .

كانت الأسرة منبهرة أيما انبهار بالخليج الذي تشاهده أول مرة وبزرقته ، وتلاطم أمواجه ، ورفرفة شراع السفينة المنصوب على « الصاري (*)» حين تهب الرياح وتثير زمجرة الأمواج العاتية .

وانتصب عبدالعزيز واقفاً في مقدمة السفينة المبحرة واضعاً يده اليمنى على مقبض سيفه تحت عباءته ، بينما قبض بيده اليسرى على مقدمة إزاره ليحافظ على اتزانه من تيارات الرياح التي تعصف به وبملابسه .

كان منهمكاً بالتفكير في نتائج مهمته إلى البحرين حين طرق مسامعه وقع خطوات أقدام تقترب منه على ظهر السفينة ، فلما التفت وجد أخاه « محمداً» ، يتقدم نحوه بخطى وئيدة ، وقد لف رأسه بعمامة تدلت من تحتها خصلات شعر صغيرة تداعبها نسائم الهواء على جبينه ، وكان « محمد» يحاول مقاومة حركة السفينة التي تؤرجحها الأمواج للمحافظة على ثبات جسمه من السقوط .

- انتبه يا محمد . . ! لا تقترب من حافة السفينة .

قالها عبدالعزيز وهو يسرق خطواته تجاه أخيه ، حتى أمسك بيده فاتخذا مكاناً آمناً في منتصف المركب بالقرب من « الصاري » .

عندها سأله محمد ببراءة :

- متى نصل البحرين هذه يا عبدالعزيز ؟ يبدو أنها بعيدة .

فأراد أن يبدد دهشة السؤال على وجه أخيه ، حيث أجابه على سبيل الملاطفة والمداعبة :

- بل قل : متى نعود إلى الرياض يا محمد ؟

(*) الصاري : هو العمود الكبير الذي ينصب عليه شراع السفينة .

وأدار عبدالعزيز وجهه في الاتجاه الذي تبحر فيه السفينة وهو يقول :

- على أي حال ، البحرين ليست بعيدة من هنا ، وسنصلها الليلة إن شاء الله .

ولما أوشكت الشمس على الغروب كانت السفينة الشراعية قد رست على شاطىء البحرين الغربي حيث استقلت الأسرة عربة تجرها الخيول إلى قصر ابن خليفة ، الذي كان قد أعد لها منزلاً خاصاً داخل سور قصره ، حيث أقامت الأسرة بجواره .

كانت الأسرة في البحرين تبدو أحسن حالاً من ذي قبل ، ولو أنها كانت تعاني - في بداية الأمر - من صعوبة التكيف في مدينة ذات بيئة بحرية كالبحرين ، حيث الهواء المشبع بالرطوبة ، والأرض الندية بالطل وقطرات الندى ، وضجيج العربات التي تجرها الخيول والحمير في الشوارع الصغيرة وأصوات الباعة المتجولين في الأحياء المجاورة .

لكن إقامتها هنا - على أي حال - أفضل من إقامتها في صحراء «يبرين» و«الأحساء» تلك المناطق الصحراوية الجرداء ذات الرمال الصفراء الملتهبة بحرارة القيظ ولفح السموم ، وذات الرياح المتقلبة التي تثير الغبار والأتربة في معظم الأوقات .

هذا فضلاً عن الوضع السياسي الخطير الذي تشكله الأسرة على جيرانها آل مرّة .

أما الإمام عبدالرحمن فقد عاوده الحنين إلى « الرياض » بعد رحيل أسرته ، وأخذ يفكر بالنزوح إليها ، فحملته روح المغامرة على أن يجمع حوله نفراً من رجاله وأتباعه وبعض أعراب البادية ، حيث تحرك بجيشه خفية من ديار آل مرة متوجهاً إلى الرياض .

كان عبدالرحمن قد خطر بباله في حينه التوجه إلى القصيم أولاً لنجدتهم لكنه علم ما حل بهم من هزيمة على يد ابن رشيد في معركة « المليداء» .

ولذلك فقد شعر بفوات الأوان وأن عليه التوجه إلى الرياض بأسرع وقت ممكن لاستدراك الأمر .

وقد اصطحب الإمام معه في تحركه هذا ابن عمه الأمير عبدالله بن جلوي ورجلاً آخر يدعى « إبراهيم الصالح » معروفاً بحنكته ، وحصافة رأيه ، وخبرته بطرق الصحراء ومسالكها .

كان جيش الامام يتحرك ليلاً في طريقه إلى « الرياض » أما في النهار فقد كان ينزوي في بطون الأودية ، والشعاب ، والأماكن المنخفضة بعيداً عن المراقبة وأنظار الجواسيس .

ولما شارف على « الرياض » ذات مساء نزل في أحد الأودية الواقعة في جنوبها الشرقي ، وأخذ يتجول بين رجاله ، يتفقدهم ، ويشاورهم في كيفية مهاجمة أتباع «ابن رشيد» في الرياض والخرج وتوابعها .

وتحلق الرجال في جلسة دائرية حول قائدهم الإمام عبدالرحمن ، وهو يخطط لهم على الرمل بعصا في يده على ضوء سراج زيتي ، وكان الإمام يشير بتخطيطه إلى « الدلم » للاستيلاء عليها أولاً دون غيرها .

عندئذ علق ابن جلوي على هذا التخطيط بقوله : أنا أرى أن هذه الخطة صائبة ، فإذا تمكنا من الاستيلاء على «الدلم» ، والقضاء على أتباع «ابن رشيد» فيها سوف ندخل « الرياض » مسالمين لكون « محمد بن فيصل » أميراً عليها من قبل «ابن رشيد» .

واستأنف التعليق على التخطيط « إبراهيم الصالح » حيث أضاف قائلاً :

- وبالتالي فإن دخولنا « الرياض » من السهولة بمكان حيث لا يشكل علينا أي خطر يذكر ، هذا فضلاً عن أن دخولنا « الرياض » قبل الدلم في بادىء الأمر سيكون له صدى بعيد وسريع تتلقفه الآذان والألسن مما ينبه « ابن رشيد » وأتباعه لوجودنا والتصدي لنا ، ونحن نريد المفاجأة والمباغتة في الحرب نظراً لقلة عددنا مقابل كثرة جيش العدو .

حينئذ اكتفى الإمام بما سمعه من آراء رجاله ووجهات نظرهم ، وبيّت النية لاقتحام « الدلم » في الصباح الباكر .

ولما كان الصباح تحرك الجيش يتقدمه الإمام عبدالرحمن ، وشن غارة على الدلم حيث تمكن بسهولة من الاستيلاء عليها وطرد عامل ابن رشيد منها .

وفي غضون ذلك كان الأمير محمد بن فيصل في الرياض قد أتاه من يبشره على عجل بعودة أخيه عبدالرحمن من ديار آل مرة والعجمان ودخوله الدلم فاتحاً فغمره الفرح والسرور لهذه البشرى ، إلا أنه لم يكن مطمئناً لصحة هذا الخبر الذي انتشر بين الناس حتى كان حديثهم وشغلهم الشاغل في كل مكان ، إلى أن بلغ ذلك ابن رشيد في حائل .

ومضى محمد يتلقف الأخبار ، وينتظر قدوم أخيه إلى الرياض بفارغ الصبر ولذلك فقد ترك عبدالرحمن الدلم متوجهاً إلى الرياض بعد أن أبقى فيها ابن جلوي ليتولى أمرها ريثما يعود ، تحسباً لأي رد فعل متوقع من ابن رشيد ورجاله .

كانت ليلة هادئة تطرز سماءها نجوم لامعة في الأفق البعيد حين توقف الإمام عبدالرحمن بجواده لدى إحدى البوابات الخارجية لسور مدينة الرياض ، وظل

يسرح نظره تحت الظلام بما حوله من معالم المدينة من أشجار النخيل وأسوار البساتين ، وأضواء السُّرج الخافتة في بيوت الطين فنبش ذلك في قلبه وذاكرته ذكريات ا لشوق الدفين ، والحنين الشجي للرياض التي لم يرها منذ أشهر طويلة إلا هذه الليلة .

وحينما ولج البوابة التي فتحها له أحد حراس السور قصد أخاه محمداً في قصر الحكم ، فدخل عليه مجلسه ، ولم يكد محمد يصدق عينيه ، حيث وثب من مقعده وهو يصيح بصوت عال :

- عبدالرحمن . . ! عبدالرحمن . . ! يا إلهي . . لا أكاد أصدق ما تراه عيناي .

وتعانق الأخوان بلهفة وشوق عارم ، وأقبل بعض رجال القصر من الحاضرين يعانقون الإمام ويصافحونه ابتهاجاً بعودته بعد غيبة طويلة .

ومن ثم جلس الأخوان جنباً إلى جنب ممسكاً كل منهما بيد الآخر فسأل محمد عبدالرحمن وقد ترقرقت دموع الفرح في عينيه :

- بشرونا عنكم يا أبا عبدالعزيز . . !! كيف حالكم وحال الأبناء والأهل والرفاق .

فأجابه عبدالرحمن وهو يتنفس الصعداء :

- نحن بخير ولله الحمد ، ولا ينقصنا يا أخي إلا وجودنا بينكم ، ونرجو من الله تعالى أن يلم شملنا ويجمعنا في القريب العاجل ، إنه على كل شيء قدير .

- سمعنا منذ أيام قلائل خبر انتقال الأسرة إلى البحرين .

- نعم ، الأسرة الآن في البحرين برفقة الابن عبدالعزيز ، بعد أن أذن الشيخ ابن خليفة بإقامتها إلى جواره .

- وما حملكم على الهجرة هناك يا أبا عبدالعزيز .

وأطرق عبدالرحمن قليلاً وهو يشبك ما بين أصابعه ثم قال هامساً :

يبدو أننا نحارب أكثر من عدو يا محمد ، وليس عدواً واحداً ، وهذا ما حملني على تهجير الأسرة إلى البحرين كي لا نجر على آل مرة حرباً مع ابن رشيد لايوائهم لنا .

وتلفت محمد يمينه ويساره خوفاً ممن يسترقون السمع في مجالسهم أو ممن يتلصصون من وراء الأبواب والنوافذ ، خاصة وأن حديثهم بدأ ينحى منحى سياسياً له طابع سري ، فانفرد بعبدالرحمن في غرفة مغلقة آمنة وهويقول :

- عرفت ما تقصده بقولك إننا نحارب أكثر من عدو يا أبا عبدالعزيز ، فالعدو الأول ظاهر وبلا شك هو محمد بن رشيد ، أما العدو الباطن فهو الأتراك .

- هذا ما أقصده بالضبط يا أخي ، وليس ببعيد أن يتطور العدو الباطن إلى عدو ظاهر أيضاً في أي وقت من الأوقات .

- الحقيقة أن محمد بن رشيد قد وطد علاقته بالأتراك في المنطقة في الآونة الأخيرة ، وقد علمت ممن أثق بهم أن الأتراك قد جعلوا له خفارة الحج على الحجاج القادمين من العراق والخليج ، وهو يتقاضى عليها راتباً شهرياً تدفعه له ولاية بغداد والبصرة .

- أأنت متأكد من ذلك يا محمد ؟

- نعم . . . . بكل تأكيد يا عبدالرحمن .

- إذن هذا يعني أن الأتراك قد استفادوا من ابن رشيد من ناحية أمنية في بسط نفوذ دولتهم خاصة وأن لحائل موقعاً استراتيجياً مهمًا على طريق حجاج العراق والخليج ، وفي الوقت ذاته فقد استفاد ابن رشيد أيضاً من الأتراك استفادة مادية . . يعني - ببساطة - أن العملية قد أصبحت مقايضة يا محمد بين الطرفين .

- بلا شك يا أخي ، ومما لا يختلف عليه اثنان أن الأتراك لا يؤيدون عودة حكم دولة آل سعود هنا في الرياض لأسباب عدة أهمها - كما تعرف - العداء القديم بيننا وبينهم منذ عهد سعود الكبير رحمه الله ، الذي دخل مكة ووجه رسالة إلى السلطان العثماني سليم الثالث ، أخبره فيها بأنه قد قام بهدم أشباه الوثنية فيها ، وإلغاء الضرائب التي تتقاضاها الدولة العثمانية على الحجاج ، مما كان له أثر كبير في قيام حروب طاحنة بين الأتراك وآل سعود امتدت إلى سنوات طويلة .

- هذا صحيح ، أضف إلى ذلك أن الأتراك أصلاً لا يؤيدون اتحاد الإمارات العربية في شبه جزيرة العرب ، حتى لا يسبب لهم اتحادهم مضايقة تكسر شوكتهم وتحد من نفوذهم ، بل إنهم يعملون على تفريقهم وخلخلة صفوفهم .

والأهم من ذلك يا أبا عبدالعزيز أن ابن رشيد لا يمكنه الاستغناء عن مساعدة الأتراك فهو بحاجتهم بقدر ما هم بحاجته ، لأنه باعتقاده أن باستطاعته من خلال الأتراك أن يوسع دائرة حكمه لتشمل أجزاء كبيرة من جزيرة العرب .

صدقت يا عزيزي ، كما أننا لا ننسى أيضا أن الأتراك قوم غرباء عن منطقتنا جاؤوا إليها كغيرهم من الشعوب الأخرى ليتصارعوا جميعاً على جزيرة العرب لمصالحهم الخاصة ، ويتسابقوا إلى استمالة أمراء المدن ، وزعماء القبائل ، وإغرائهم بالمال والجاه والوعود الزائفة .

وهكذا ظل الأخوان ، عبدالرحمن ومحمد يتحاوران ساعات طويلة إلى وقت متأخر من الليل ، بحثا خلالها شؤون دولتهم ووضعها السياسي في المنطقة .

وفي اليوم التالي - حين كان عبدالرحمن ومحمد جالسين في قصر الحكم يبحثان شؤونهما الخاصة - سمعا رجلاً يجهر بصوته على نحو مخيف في الشارع القريب من القصر :

يا أهل الرياض ! . . . يا أهل الوطن ! . . اسمعوا وعوا ! . . . ابن رشيد قد فتك بأهل القصيم . . . ابن رشيد قد فتك بأهل القصيم وهو في طريقه إلينا !

وفي الحال أسرع الأمير محمد إلى إحدى نوافذ القصر ، فأطل منها لاستيضاح الأمر ، في حين تهافت عليه من رجاله في القصر من يؤكد له صحة هذا الخبر الذي نادى به النذير ، فلحق بأخيه الإمام عبدالرحمن لدى ساحة القصر الخارجية ، وهو يعتلي صهوة جواده على عجل ، فودعه بقوله :

في أمان الله أيها الأخ ، والى لقاء قريب إن شاء الله . . لا تشغلوا بالكم ، فنحن سنتدبر أمرنا .

وأرخى عبدالرحمن رأسه من على ظهر جواده إلى محمد وهو يقول :

حفظكم الله يا عزيزي . . . أوصيك بالرياض وأهلها خيراً . . . أغلقوا جميع بوابات السور حتى لا يدخل جيش العدو المدينة فيما لو هزمنا ، وإن كتب الله لنا النصر فسنعود إليكم سالمين غانمين إن شاء الله .

ووقف محمد وهو يراقب عبدالرحمن الذي انطلق بجواده بسرعة البرق حتى توارى عن نظره .

كانت الشمس قد غربت حين وصل الإمام « الدلم » فوجد في استقباله ابن جلوي الذي كان ينظم الجيش ويعده للتحرك ، حين بلغه خبر فتك ابن رشيد بأهل القصيم وتقدمه زاحفاً إلى الرياض .

عندئذ تقدم الإمام عبدالرحمن جيشه متحركاً في الليلة نفسها وعلى يساره ابن جلوي والصالح ، وأخذوا يتشاورون وهم يحثون السير على ظهور ركائبهم .

لا بد لنا الليلة من النزول في حريملاء .

قالها عبدالرحمن وهو يلتفت يساره ، فبادره ابن جلوي بقوله :

نأمل أن يكون لدينا وقت كافٍ لبلوغها قبل أن يسبقنا ابن رشيد بالوصول إليها .

واستدارت دفة الحوار لإبراهيم الصالح حيث قال :

إننا إن تمكنا من بلوغ حريملاء هذه الليلة فسيكون لدينا من الوقت ما يكفي لأن نستريح ونريح ركائبنا وخيولنا ، ونبحث عن أماكن نتحصن فيها ونوزع رجالنا على جبهة القتال .

وختم عبدالرحمن نهاية الحديث بقوله :

وبالطبع فإن جيش ابن رشيد سيكون منهكاً ، وبحاجة إلى وقت أطول ليستعيد أنفاسه من عناء الترحال مسافات طويلة ، وهذا سيكون له أثر بالغ في تصدينا له والوقوف ضد زحفه إلى الرياض .

والتف عبدالله بن جلوي بناقته من مقدمة الجيش إلى الخلف ليتفقده في أثناء المسير ويحث المتأخرين على اللحاق بركبهم .

ومضى الجيش يجوب الديار تحت الظلام الدامس حتى حط رحاله في حريملاء قبيل شروق الشمس بقليل ، وكـــان أهلها من الموالين للإمام عبدالرحمن حيث استقبلوه ، وانضم كثير منهم للقتال بصفه .

وأخذ الإمام يتجول بين أفراد جيشه المتمركز في حريملاء ينظمه ، ويعده للقتال ، ويتفقد مؤونته من الطعام والشراب والدواء ، وحاجة الإبل والخيول من الماء والعلف .

وفي عصر اليوم نفسه كان الجيش قد استعد استعداداً تاماً لملاقاة خصمه الذي يتوقع مجيئه في أي لحظة من اللحظات .

لكن يبدو أن ابن رشيد لا يحبذ القتال في الليل ، حيث بات جيش الإمام ليلته بسلام مع قيام ابن جلوي بوضع خفارات ليلية على أطراف الجيش ، وإبقاء بعض الرجال على أطراف حريملاء من جهاتها الأربع ليكونوا نذراء ينذرون بجيش ابن رشيد بمجرد رؤيتهم له .

وفي صباح اليوم التالي كان الإمام وابن جلوي يتجولان بين أفراد الجيش وخيامه ، حيث قال ابن جلوي مخاطباً الإمام عبدالرحمن وهو يسير إلى جانبه :

- إنني أخشى من أن ابن رشيد قد غير خطته في الحرب ياعبدالرحمن .

- وكيف يكون ذلك ؟ معذرة فأنا لم أفهم ما تقصده يا عبدالله .

- أقصد أنه ربما تراجع إلى حائل ليؤجل غزو الرياض إلى أجل غير مسمى ، أو ربما تجنب حريملاء خاصة إذا علم بوجودنا فيها ، وأننا نشكل حجر عثرة في طريقه الى الرياض .

- قد تكون مصيباً في حدسك يا عبدالله . . ولكن لماذا لا نقول إن ابن رشيد يريد ضرب عصفورين بحجر ؟

- عصفوران بحجر ؟

- نعم عصفوران بحجر ، فهو يريد أن يدخل الرياض ليبطش بأهلها من جديد ويلقنهم درساً قاسياً لا سيما محمد بن فيصل وأتباعه ، لسماحهم لنا بدخول الرياض مسالمين وفي الوقت ذاته فإنه لا يرى أن من مصلحته تجنب تمركز جيشنا هنا في حريملاء لسببين :

- وما هذان السببان ؟

- السبب الأول هو رغبته في القضاء على كبار آل سعود وأتباعهم الذين أقضوا مضطجعه ، وصاروا بمثابة كابوس مرعب يهدده بضياع الرياض من يديه بين كل حين وآخر وعودتها إلى أهلها .

- والسبب الثاني ؟

- السبب الثاني هو أنه إذا تجنب مواجهة جيشنا فإنه سيواجه باللوم من قبل حلفائه الأتراك ، وربما اتهم بالجبن من قبل زعماء القبائل الموالين له لعدم مقدرته على إثبات شخصيته كرجل حرب ، وأنه لا يستطيع السيطرة والهيمنة على خصومه .

واستدار ابن جلوي بوجهه إلى عبدالرحمن وهو يقول :

- إذن لا بد لنا من الحرب مع ابن رشيد يا أبا عبدالعزيز .

- الحرب شر لا بد منه يا عبدالله حتى وإن كلفنا ذلك أرواحنا وأموالنا في سبيل استعادة ملكنا .

ولما كاد النهار ينتصف فإذا بأحد النذراء يجأر بصوته :

- جيش ابن رشيد قادم . . ! . . جيش ابن رشيد قادم .

وهرع عبدالرحمن إلى امتشاق سيفه وامتطاء صهوة جواده حاملاً راية آل سعود، في حين اتخذ رجاله أماكنهم المناسبة من جبهة القتال .

وحمي وطيس المعركة بين الطرفين ساعات طويلة من النهار عانق فيها الغبار عنان السماء ، واختلطت فيها قرقعة السيوف بأزيز رصاص البنادق ، وصهيل الخيول ورغاء الإبل ، وأصوات أنين الجرحى .

وتراجع جيش الإمام إلى الوراء نتيجة لكثرة جيش ابن رشيد ، وتدفقه إلى ساحة المعركة من كل حدب وصوب .

إنها حرب غير متكافئة كانت نتيجتها سقوط عدد كبير من رجال آل سعود بين قتيل وجريح ، وحسمت نهايتها لصالح ابن رشيد، حيث تمكن عبدالرحمن من النجاة بنفسه وبالأحياء من رجاله، فقفل عائداً إلى مخيمه في أطراف الدهناء، في حين واصل ابن رشيد فتكه بأهالي حريملاء، ثم زحف إلى الرياض ، فوجدها قد تحصنت ، فقام بهدم جزءمن سورها ، وبعض بيوتها ، وأشعل النيران في كثير من أشجارها، ثم أبقى محمد بن فيصل أميراً عليها، وعاد أدراجه إلى حائل .

وقبل دخول محمد بن رشيد بجيشه حائل عائداً من الرياض استقبله على مشارفها ابنه عبدالعزيز يهنئه بالنصر ، وعودته سالماً .

كان محمد بن رشيد داهية من دهاة أهل زمانه، شجاعاً، كريماً ، إلا أنه كان يتصف بالقسوة والغلظة ، وحدة المزاج، وكان كثيراً ما يلجأ إلى العنف والبطش بالناس ، وبمن يقع تحت رحمة يديه من أعدائه .

وقد بلغت به القسوة حد التهور الأهوج حين قام بقتل أبناء أخيه الخمسة بعد وفاته توصلاً لكرسي الحكم في حائل .

وفي قصر الحكم انفرد محمد بابنه عبدالعزيز ، فتحدث إليه بشيء من الأسى قائلاً :

- لم أتوقع يا ولدي أن يفلت ابن سعود ورجاله من يدي بهذه السهولة .

قالها محمد بن رشيد وهو يشدُّ قبضته على مقبض سيفه ، وقد عن لخياله - عندئذ - المنظر الذي رأى عليه الإمام عبدالرحمن في ساحة معركة حريملاء منذ بضعة أيام حين كان الإمام على صهوة جواده الأدهم يصول ويجول ، والسيوف والرماح تحيط به من كل جانب ، وكان محمد يحاول الوصول إليه للإيقاع به لولا حيلولة فرسان المعركة بينهما ، أما عبدالعزيز فقد اكتفى بهز رأسه أسفاً على ما يعانيه أبوه من الشعور بخيبة الأمل .

ومن المفارقات العجيبة في شخصية محمد بن رشيد أنه كان معجباً بينه وبين نفسه بشخصية خصمه عبدالرحمن الفيصل على الرغم مما بينهما من عداء إلا أنه كان يخفي إعجابه هذا حتى عن أقرب الناس إليه ، لئلا يتحول إعجابه إلى نوع من التواطؤ أو الاعتراف المبدئي بحق آل سعود في حكم الرياض وتوابعها .

وفي أثناء ذلك كان عبدالعزيز في البحرين قد بلغه نبأ هزيمة جيش والده في معركة حريملاء فأبقى أخاه « محمداً » إلى جانب الأسرة ، وغادرها إلى مخيم والده في الدهناء ، فاستقبله والده ، وطمأنه الابن على أحوال الأسرة ووضعها .

هذا وقد أصيب الإمام عبدالرحمن بجرح بليغ في ساقه قام بحشوه بمادة مسحوقة من « الصّبر (*) » وتضميده ببعض الخرق، بينما أصيب عبدالله بن جلوي بجراح طفيفة في صدره وكتفه.

قال إبراهيم الصالح:

- المهم الآن يا جماعة أن نعيد النظر في بقائنا هنا في ديار بني مرة والعجمان.

ـ وتحدث ابن جلوي قائلاً وهو يمسّد شعر لحيته:

- إن سمح لي الإمام عبدالرحمن فسأطرح وجهة نظري في أمرنا:

- تفضل يا عبدالله.

قالها الإمام وهو يهز رأسه إيجاباً في حين استطرد عبدالله قائلاً:

- إن ما أراه هو أن نبقى هنا أياماً ريثما تهدأ الأمور، ومن ثم نفاوض « عاكف باشا» متصرف الأحساء لعلنا نجس من خلال هذه المفاوضة نبض الدولة العثمانية، ورأيها بحكم آل سعود في الرياض، ومدى علاقتها بابن رشيد، وزعماء القبائل الأخرى، وهل لها أي علاقة تذكر بإمارات الخليج كالبحرين وقطر والكويت حتى وإن كانت هذه العلاقات بسيطة؟

واستحسن عبدالرحمن وجهة نظر عبدالله، وقدرها، ثم قال بإسهاب وهو يخاطب الجميع:

- إن ما قاله أخي الأمير عبدالله قد صادف شيئاً في نفسي كنت أفكر فيه ليلة البارحة، وهو أن الأتراك قوم تهمهم مصلحتهم الخاصة في شبه الجزيرة العربية، ولأن دولتهم عبارة عن « إمبراطورية » كبيرة مترامية الأطراف تمتد من تركيا إلى

(*) الصبّر: مادة شديدة المرارة.

الشام، إلى مصر فالخليج ، فإنه من الصعوبة بمكان لحكامها أن يحكموا سيطرتهم على هذه المنطقة الشاسعة .

ولذلك فإنه ليس ببعيد أن تنقسم دولتهم إلى دويلات تنفرد كل منها بمصلحتها الخاصة . . وكما تعلمون فإن متصرفي الدولة العثمانية هنا في منطقتنا عادة ما يلجأون للمسالمة عن شيء من الضعف لا عن قوة، وذلك للحصول على مآربهم وأطماعهم عن طريق دس الدسائس ، وزرع الفتن بين حكام الإمارات العربية ليتسنى لهم بالتالي تحقيق أهدافهم دون أن يكلفهم ذلك قوة أو مالاً أو عتاداً .

وأنا على يقين أيها الإخوة من أن دخولنا الرياض الأسابيع الماضية واستيلاءنا على الدلم ، ومعركتنا في حريملاء مع ابن رشيد قد ضايق الأتراك كثيراً ، وبدأوا يخافون على مصالحهم في المنطقة، ويخشون إيقاعنا بواحد من أكبر عملائهم فيها، ألا وهو ابن رشيد، ولذلك فأنا أتوقع أن تسفر مفاوضاتنا لهم عن شيء في صالحنا .

ولما فرغ الإمام من حديثه اتجه الجميع إلى خيمة الضيافة حيث تباحثوا أمرهم من جديد، واتفقوا على أن يغادرهم الأمير الفتى عبدالعزيز إلى الأحساء في الصباح الباكر ، ليفاوض متصرفها « عاكف باشا » ، ويبحث معه إمكانية موافقة الدولة العثمانية على انتقالهم من صحراء الدهناء إلى الإقامة في الأحساء .

الفصل الرابع

كان الفتى عبدالعزيز بُعَيد عودته من البحرين تلك الليلة منهكاً يبدو عليه الإرهاق والإعياء.

وفي صباح اليوم التالي أحس الوالد أن ابنه قد تأخر في مجيئه إليه في خيمة الضيافة كما هي عادته كل صباح، لا سيما وأن اليوم هو موعد رحلته إلى الأحساء بشأن مفاوضة متصرفها.

عندئذ نادى الإمام خادمه الذي كان يفك عن الإبل عقلها (*) في مباركها قرب المخيم.

- يا سلطان.

- لبيك يا عمّي.

- إمْضِ إلى عمك عبدالعزيز في خيمته وأخبره أنني أريده حالاً.

- سمعاً وطاعة يا عمي.

ودلف سلطان إلى خيمة عبدالعزيز فوجده متمدداً على فراشه، شاحب الوجه ينض منه العرق بغزارة، فاقترب منه حتى جثا على ركبتيه عند رأسه وكلمه برفق.

(*) العُقُل: مفردها عقال وهو ما يشد به يد البعير إلى عضده حين يبرك لمنعه من الحركة.

- عمي . . عمي عبدالعزيز .

ولما رأى سلطان أنه لم يجب سل يده فتحسس رأس الفتى وجبهته ، فأحس بارتفاع درجة حرارة جسمه تلتهب كالقدر في باطن كفه ، فأدرك أنه مريض ، ثم كرر مخاطبته همساً :

- عمي .

واستدار عبدالعزيز على جنبه الآخر ببطء وكأنه يقتلع جسمه اقتلاعاً من الأرض ، فرمق سلطان الذي كان يطل بوجهه بعينين محمرتين ، ثم همس له بصوت خافت :

- أنا مريض يا سلطان . . أحس أن جسمي مشدود بأوتاد إلى الأرض .

- لا بأس عليك إن شاء الله .

قالها الخادم ثم خرج إلى الإمام وأخبره بما وجد عليه الابن .

ولم يلبث الإمام أن ولج على ابنه الخيمة فوجده يرتجف تحت لحاف غطى به سائر أعضاء جسمه ، فأزال جزءاً من اللحاف عن وجهه ثم همس بالقرب من أذنه :

- عبدالعزيز !!

وفتح الابن عينيه بألم وهو في غيبوبته على وجه أبيه ، وكأنه في حالة أشبه ما تكون بالحلم ، وأخذت تنقشع عن عينيه غشاوة الحمى شيئاً فشيئاً حتى ميّز وجه أبيه الذي كان يتفحصه بنظرات مفعمة بالعطف والشفقة .

فاستجمع الابن قواه العقلية والجسدية ، وهمّ بالنهوض ، إلا أن والده شد على كتفه وهو يقول :

- لا . . لا . . كن مستريحاً يا بني .

ولزم الابن فراشه وهو على مضض لكون هذه هي المرة الأولى في حياته التي يرى فيها والده يدخل عليه دون أن يكون باستطاعته النهوض احتراماً له ، وخرج الإمام من خيمة ابنه وهو يلف عباءته حول أحد ذراعيه ، ويحدث نفسه بصمت :

- خيرها بغيرها يا عبدالعزيز . . لم يشأ الله خروجك اليوم إلى الأحساء .

ثم نادى الإمام بخادمه فيروز :

- يا فيروز . . ! . . . هَلُمَّ إليَّ .

فأقبل هذا مهرولاً :

- أمرك يا عمَّي .

- بلِّغ سلطان أن يبقى عند الإبل في المرعى ، أما أنت فعجِّل بالإسراع إلى من بجوارنا من آل مرة والعجمان لعلهم يساعدوننا في الاستدلال على أحد المعالجين في البادية وإرساله إلينا لمعالجة الابن عبدالعزيز شفاه الله وعافاه .

ومضى فيروز كما أوصاه سيده ، وَجدَّ في البحث عن معالج في حين بقي الإمام في مخيمه يفكر فيما وصل إليه حالهم في هذه الصحراء . . . أشياء كثيرة تزدحم في مخيلته ، وتشغل باله . . ! . . الأسرة في البحرين . . أخوه الأمير محمد ابن فيصل في الرياض ، وما لحق بها من جراء غزو ابن رشيد لها ، وهدمه لسورها ، وإحراقه نخيلها المثمرة وأشجارها . . مرض عبدالعزيز . . عزمه على إجراء مفاوضات مع متصرف الأحساء . . و . . و . .

وفي ظهر اليوم نفسه قدم الخادم فيروز إلى المخيم مصطحباً معالجاً من أهل البادية ، إلى خيمة عبدالعزيز الذي لا يزال في غيبوبة مرضه فقام المعالج بفحص أعضائه الساخنة ، فلحظ على المريض ازدياد ألمه كلما لمسه في ساقيه .

عندئذ سأل الإمام عبدالرحمن :

- هل من خطر عليه أيها المعالج؟

وأجاب المعالج بنغمة متحشرجة :

- إن الفتى مصاب بـ « حمى المفاصل » .

فتساءل الجميع عن هذا المرض وأسبابه وامكان علاجه ، حيث تابع المعالج قوله :

- إن « حمى المفاصل » داء ينتشر بين أهل البادية أكثر من الحاضرة ، أما أسبابه فأهمها السير على القدمين مسافات طويلة ، وخاصة عندما يكون الإنسان حافياً دون نعل ، بحيث تلهب الرمال الحارقة باطن القدمين في حرارة الصيف أو تلسعها برودة هذه الرمال في الشتاء القارس ، وربما كان من أسبابه أيضاً شرب المياه المجلوبة من الآبار الآسنة أو الغدران والجداول الراكدة .

وسأل أحدهم :

- عرفنا هذا المرض وأسبابه أيها المعالج ، فهل لنا أن نعرف إمكانية علاجه؟

وأطرق المعالج قليلاً ثم قال وهو يخرج صرة من حقيبة كانت في حوزته :

- ليس عندي لمريضكم أيها السادة غير هذه الصرة التي تحتوي على خليط مسحوق من الأعشاب البرية ، وأرجو أن يستعملها الفتى « سفوفاً » بحيث يستف منها مرتين أو ثلاثاً بحجم راحته يومياً ، وسيعافى إن شاء الله خلال أيام قلائل .

ومن ثم غادر المعالج المخيم في حين اجتمع الإمام عبدالرحمن ورجاله تلك الليلة في خيمة الضيافة يتشاورون في أمرهم كعادتهم، ويستعرضون الحلول المناسبة لوضعهم.

أما الأسرة في البحرين فقد شغلها تأخر عبدالعزيز في عودته إليها، وإن كانت حالتها من الناحيتين المعيشية والأمنية على ما يرام، حيث كان الشيخ ابن خليفة مهتماً بأمرها اهتماماً كبيراً لايقل عن اهتمامه بأبنائه وأهل بيته، هذا فضلاً عن تقصيه لأخبار كبيرها الإمام عبدالرحمن، وابنه عبدالعزيز، وطمأنة أسرتهما المقيمة إلى جواره على حالهما.

وفي ليلة من الليالي كانت الأميرة سارة قلقة مضطربة طوال الليل لم يغمض لها جفن، تعتمل في ذهنها هواجس غامضة لا تستطيع التنبؤ بحقيقتها.

لقد شغل تفكيرها تأخر ابنها عبدالعزيز عن عودته إليهم، وانتابها القلق على زوجها ورجاله.

وبينما هي كذلك فإذا بأصوات المآذن ترتفع بالنداء لصلاة الفجر، فاستغفرت الله كثيراً واستعاذت به من وساوس الشيطان، ونهضت من فراشها فتوضأت، واستقبلت القبلة، وأدت الصلاة، ثم لهجت بالدعاء لله وطلبه العفو والمغفرة وتيسير الأمور.

ولما أشرقت الشمس طرق عليها ابناها الصغيران محمد وسعد باب غرفتها، ففتحت لهما وتسابقا إلى تقبيل رأسها.

وهنا شعر الابن محمد أن في نفس والدته شيئاً تريد قوله فبادرها بالسؤال:

- بودي يا أمي لو تخبريني عن أسباب الكآبة التي لمحتها ليلة البارحة على وجهك ؟

- ليلة البارحة يا ولدي كان شغل تفكيري غياب أخيك عبدالعزيز ، وكنت أسأل نفسي عن أخبار أبيك ، ورجاله ووضعهم في الدهناء ، فليتك تمضي اليوم إلى الشيخ ابن خليفة في قصره وتسأله عن آخر ما توصل إليه من الأخبار عنهم .

ولما كان الضحى دلف محمد إلى قصر ابن خليفة يجوب ما بين غرفه ودهاليزه وصالاته الكبيرة إلى أن بلغ قاعة استقبال كبار الزوار في القصر حيث كان يجلس الشيخ وإلى جانبه أحد أبنائه ، وثلة من كبار الشخصيات ووجهاء البحرين .

- أهلاً وسهلاً ، حييت يا ولدي محمد .

قالها الشيخ مبتسماً حين رأى محمداً يتقدم إليه في صدر المجلس فأفسح المجال له ليجلس بينه وبين أحد أبنائه الذي كان جالساً إلى جانبه ، وانصرف الشيخ عن حديث مجالسيه ، وهو يلتفت إلى محمد ويسأله على سبيل الملاطفة والدعابة :

- هل أعجبتكم البحرين يا محمد ؟

فأجابه محمد بأسلوب لا يخلو من المجاملة المحببة :

- البحرين جميلة يا شيخ عيسى ، نشعر فيها وكأننا بين أهلنا وذوينا ، أدامكم الله وأطال في عمركم .

- أبلغني أحدهم أمس أنك قد جئت تريدني حين كنت خارجاً للإشراف على سفن تجار البحرين القادمة من الهند ، فهل من حاجة أستطيع تلبيتها لكم ؟

- كنت أمس قد لحظت أن والدتي متضايقة بعض الشيء ، فدار في خلدي أن ما يضايقها هو حيرتها بشأن تأخر أخي عبدالعزيز عن العودة إلينا ، وانشغالها لتحري

أخبار والدي الإمام، ورجاله في الدهناء . . وقد كانت ملاحظتي في محلها حين سألتها اليوم فتأكدت من ذلك .

وانفرجت شفتا الشيخ عن ابتسامة عريضة ، ثم قال وهو يربت على ظهر محمد :

- اطمئن يا بني غاية الاطمئنان ، فإن هذا الأمر محل اهتمامي . . أترى ذلك الرجل الجالس في أقصى المجلس ؟

ومد محمد عنقه حيث يشير الشيخ إلى رجل أشعث الشعر متغضن الوجه ، يبدو من مظهره أنه ليس من أهل البحرين في حين مضى الشيخ قائلاً :

هذا الرجل قادم للتو من الدهناء، وهو رسول والدك الإمام عبدالرحمن الينا، وقد أخبرني هذا الرجل حسب ما نقله عن لسان والدك شفهياً أنهم جميعاً بخير ، وأنهم بصدد إجراء مفاوضات مع متصرف الأحساء .

- ومما أبلغني به على لسان والدك أيضاً أن أخاك الأمير عبدالعزيز كان مصاباً بداء المفاصل طيلة الأيام الماضية، وقد شفي الآن من هذا الداء تماماً ، ولعل هذا هو السبب في تأخر عودته .

ولم يكن من الأمير الصغير « محمد » إلا أن أطلق من صدره زفرة خفية ، وكأنما قد سكب على جسمه ماء بارد أطفأ لهيب حيرته على والده وأخيه، وأحس براحة نفسية غمرت روحه بالبهجة والسرور ، ثم استأذن الشيخ بالانصراف قائلاً :

- استأذنك يا شيخ عيسى، وأشكركم على هذه البشرى .

وقبل أن ينصرف همس الشيخ في أذنه :

- أرجو أن تطمئن والدتك الأميرة سارة يا ولدي ليهدأ بالها .

ومن ثم انصرف محمد من المجلس إلى والدته حيث أخبرها بهذه البشرى التي بددت مخاوفها وسكنتها بالطمأنينة .

أما الإمام عبدالرحمن ورجاله في الدهناء فقد توصلوا في نهاية الأمر إلى أن يشدوا رحالهم إلى الأحساء للنزول على مقربة من مركز الحكم فيها .

وفي صبيحة أحد الأيام نزحوا إليها فنزلوا على مقربة منها في حين أرسل «عاكف باشا » نفراً من فرسانه لاستيضاح أمر هذا النزول ، فعرّفهم الإمام بنفسه وأخبرهم أنه يرغب في مقابلة المتصرف لمفاوضته .

وفي اليوم التالي أقبل أحد الفرسان إلى مخيم الإمام ، فالتقاه فإذا هو مندوب متصرف الأحساء الذي يحمل إليه موافقة المتصرف على مفاوضته بواسطة الدكتور « زخور العازار » قرب « عين نجم » في الهفوف .

ولما كان الصباح تحرك الإمام مصطحباً ابنه عبدالعزيز وابن عمه الأمير عبدالله ابن جلوي إلى عين نجم وأبقى رجاله لدى مخيمه .

ولدى بلوغ الإمام عين نجم استقبله المعالج « زخور عازار » هاتفاً :

- مرحباً . . مرحباً يا ابن سعود .

وبادله الإمام التحية حيث جلس الوفدان المتفاوضان حول طاولة المفاوضات ، ولكون المعالج «زخور عازار» تركياً في لسانه لكنة أعجمية على الرغم من اجادته اللغة العربية ، فقد استعان باحد المترجمين العرب ممن يجيدون اللغة العربية والتركية اجادة بالغة ؛ وذلك ليسهل التفاهم بين اعضاء الوفدين المتفاوضين .

تحدث الإمام عبدالرحمن مبتدأ المفاوضة بقوله :

- إن ما دعانا لمفاوضة جنابكم الموقر يا دكتور زخور هو الضرورة الملحة التي تحتمها الظروف السياسية الصعبة التي تعيشها منطقتنا ، فلا بد لنا من إيجاد حل مشترك للخلافات فيما بيننا ، تلك الخلافات التي كانت من نتائجها إشعال الحروب والفتن في المنطقة وسفك الدماء ، وهلاك الحرث والنسل .

وأجاب المعالج زاخور وهو يشير إلى الإمام :

- نحن لا نريد منكم - أيها السيد الفاضل - أكثر مما تريدون منا .

- نحن نعرف ماذا نريد منكم يا دكتور ، لكن . . هل لنا أن نعرف ماذا تريدون أنتم منا ؟

- الإرادة شيء وتحقيقها شيء آخر يا سيد عبدالرحمن .

- هذا صحيح يا سيد زاخور ، وما هذه المفاوضات التي نجريها معكم إلا وسيلة للوصول إلى غاية . ثم قاطعه السيد زاخور قائلاً : وليكن معلوماً لديكم - أيها السيد الفاضل - أننا لاننكر حقكم في الولاية على الرياض . . هذا أولاً ، أما ثانياً فإننا - كشعب - حريصون على التمسك بمصالحنا هنا في شبه الجزيرة ، مثلنا في ذلك مثل الشعوب الوافدة إلى المنطقة ، كالإنجليز والألمان والروس وغيرهم ، هذه الشعوب التي تحاول إقصاءنا عنها ، وتولي الأمور فيها .

نحن - على الأقل - شعب مسلم ، ومجيئنا لشبه الجزيرة أصلاً كان ولا يزال سببه خوفنا من سيطرة هذه الشعوب المسيحية على أراضي المقدسات الإسلامية في مكة والمدينة .

- ونحن لا ننكر كونكم شعباً مسلماً يا سيد زاخور ، ولكن ما دمتم لا تنكرون حقنا في الرياض فما الداعي إذن لأن يحاربنا ابن رشيد تحت حمايتكم .

- نحن لا نحارب أحداً في هذه الجزيرة يا سيد عبدالرحمن ، وابن رشيد رجل تربطنا به علاقة تفرضها طبيعة وضعنا في هذه البلاد ، فهو يساعدنا في حماية طريق الحجاج القادمين من العراق وأطراف الخليج ، والقضاء على من يتعرضون لهم من اللصوص ، وقطاع الطرق ، ونحن لا ندري عما إذا كان ابن رشيد يستغل مسألة توليتنا له على الحجاج فيحاربكم باسمنا .

- إن ما يهمنا في نهاية المطاف يا دكتور أن تعرفوا أننا لن نتنازل عن حقنا في الولاية على الرياض ـ ما دمتم لاتنكرون حقنا فيها كما ذكرتم ، وأرجو أن تسمحوا لنا بالإقامة هنا في الأحساء كي نشعر ابن رشيد بسحب بعض جنده المتمركزين على حدود الرياض ، وعودتنا إليها ، وتعهده بعدم مهاجمته لنا مرة أخرى .

وأطرق الدكتور زخور قليلاً وهو يعتصر مقدمة رأسه بين يديه ثم قال :

- حسناً إذن . . لكن هذا بثلاثة شروط .

- وما هذه الشروط ؟

- الشرط الأول أن تعترفوا بسيادة الدولة العثمانية في المنطقة .

- وما الشرط الثاني ؟

- الشرط الثاني أن تكون ولايتكم على الرياض تحت ولاية الدولة ، فيرفع علم العثمانيين على قصر الأمير .

- وما شرطكم الأخير؟

- شرطنا الأخير أن تدفعوا مالاً سنوياً للدولة .

وتريث الإمام عبدالرحمن قليلاً وهو ينظر شزراً إلى السيد زاخور ثم قال :

- هذه شروط يصعب تحقيقها .

- هذا يعني أنكم غير موافقين عليها .

- نعم ، نحن غير موافقين عليها إذا لم يكن لديكم غيرها .

- إذن . . . نحن يؤسفنا عدم موافقتنا على إقامتكم في الأحساء ، وسنمهلكم أسبوعاً واحداً لتتدبروا أمركم .

وانفض مجلس المفاوضة حيث عاد الإمام ورجاله إلى مخيمهم .

لم يبت الإمام عبدالرحمن ليلته تلك بعد انتهاء مفاوضته مع متصرف الأحساء بل ظل يفكر طوال الليل في وضعه ، ومستقبل دولته ، وإيجاد حل مناسب للخروج من تأزم هذا الموقف قبل انتهاء المهلة التي حددها له المتصرف بأسبوع واحد .

ولما أشرقت شمس يوم جديد قام عبدالرحمن بإرسال ابنه إلى الشيخ محمد الصباح « شيخ الكويت » لعله يأذن لهم بالإقامة فيها إلى جانبه .

ولسوء الحظ فقد خشي شيخ الكويت ، إذا وافق على هذا الطلب من ابن رشيد ، يريد كسب ود الأتراك « عملاء آل رشيد » لتقوية دعائم حكمه ، فاعتذر عن إيواء آل سعود ـ ولو أنه لا يمانع من ذلك بينه وبين نفسه ـ حتى لا يثير حفيظة ابن رشيد عليه فيقف الأتراك ضده بدلاً من أن يكونوا معه تبعاً لمصلحتهم الخاصة .

وعاد عبدالعزيز إلى والده ، وأخبره بتردد ابن صباح ، فلم يجد الإمام بداً من العودة إلى الدهناء حيث أقام هناك من جديد .

وبعد مضي عدة أشهر قام الإمام بإرسال ابنه إلى شيخ قطر « قاسم بن ثاني » برسالة يخبره فيها عما وصل إليه حالهم ويستأذنه بالإقامة مع أسرته إلى جانبه .

ولدى بلوغ الفتى عبدالعزيز قطر - تلك الإمارة العربية الهاجعة بهدوء على شاطىء الخليج كلؤلؤة جميلة - اندهش لطبيعة الحياة فيها ، ومناظر سفن تجار اللؤلؤ ، وقوارب صيادي الأسماك على شواطئها ، ثم تجول مترجلاً في أحيائها

الداخلية وهو يسأل المارة لإرشاده إلى قصر « ابن ثاني » ، ولما بلغ القصر استأذن حرسه بالدخول إلى الشيخ فاستقبله هذا بترحيب ومودة .

كان ابن ثاني رجلاً جواداً أريحياً ، وعلى جانب كبير من الثراء يضاف إلى ذلك ورعه وعلمه وفصاحة لسانه .

- يبلغكم السلام والدي الإمام عبدالرحمن بن سعود، وهذه رسالة منه إليكم .

قالها عبدالعزيز وهو يخرج رسالة والده ، ويمدها إلى الشيخ الذي تناولها، وفضها وقام بقراءتها :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالرحمن آل فيصل آل سعود إلى جناب الأخ الأفخم قاسم بن ثاني ، حاكم قطر سلمه الله تعالى آمين .

بعد مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام لا زلتم بخير وسرور أحوالنا بحمد الله جميلة، بعده نعرفكم أننا خرجنا من الرياض العام الماضي مضطرين - كما تعلمون - وذلك لمهاجمة ابن رشيد مركز حكمنا بالرياض بمساعدة أعوانه الترك ومن هم على شاكلتهم من زعماء القبائل النجدية ، وقد ألجأنا أسرتنا إلى البحرين للإقامة بجوار شيخها ابن خليفة الذي لم يقصر في شيء تجاهنا حسب ما تقتضيه الشهامة والإنسانية والكرم العربي ، وهي لا زالت بجواره إلى الآن .

ولأننا لا نريد أن يتخذ الترك موقفاً سلبياً من ابن خليفة لإيوائه أسرتنا التي هي على خلاف وعداء مع عميلهم ابن رشيد فقد فكرنا في نقلها إلى الكويت إلا أن شيخها ابن صباح قد اعتذر خوفاً من أن تؤثر موافقته على علاقته مع الترك.

أما الآن فإننا لا نجد بداً من استئذانكم بنقل أسرتنا من البحرين إليكم بقطر للإقامة إلى جواركم، وبذلك نرجو أن ينصر الله دينه ويعلي كلمته، ويوفقنا وإياكم للخير آمين.

هذا ما لزم تعريفه، بلغ السلام العيال ومنا الإخوان والعيال يسلمون ودمتم محروسين والسلام ٤ صفر ١٣١٠هـ.

ولدى فراغ الشيخ من قراءة رسالة الإمام اشتعلت في نفسه جذوة النخوة والشهامة العربية، فالتفت إلى عبدالعزيز وهو يقول:

- بكل سرور يا ولدي، ونحن نرحب بكم جميعاً أنت الآن ضيف عزيز علينا فأقم هذه الليلة بضيافتنا، وغداً بإمكانك العودة إلى والدك وإخباره بموافقتنا على إقامتكم إلى جوارنا.

وفرجت الكربة على يد شيخ قطر حيث عاد عبدالعزيز إلى والده ورجاله في الدهناء يحمل إليهم الإذن، فارتحلوا هناك.

وبعد استراحتهم بقطر بضعة أيام انتقل الإمام وابنه إلى البحرين لنقل الأسرة، وفي تلك الليلة ابتهجت الأسرة السعودية بعودة كبيرها، وأقام الشيخ عيسى وليمة عظيمة بهذه المناسبة.

وفي قاعة الضيوف لاحظ الشيخ عيسى أن عبدالعزيز يجلس إلى جوار والده ، وكأنه يفكر في شيء ما ، فأراد أن يمازحه ويفضفض عما يجول في خاطره فقال :

- إن لم يخني حدسي فإنك تفكر في قطر يا عبدالعزيز . . يبدو أنها قد أعجبتك أكثر من البحرين .

فأجاب عبدالعزيز بصدق وشفافية :

- أنا لا أفكر في قطر ولا في البحرين يا شيخ عيسى .

- إذن بم تفكر ؟

- في الرياض . . في الرياض التي هي أحب إليَّ من غيرها .

واهتز الشيخ طرباً مصفقاً بيديه لسماعه ما قاله عبدالعزيز ، ثم قال على مسمع الإمام عبدالرحمن :

- أتوقع أن يكون لعبدالعزيز شأن كبير . . هذا الفتى يشعرني بالعظمة والأنفة والعزة كلما نظرت إليه يا عبدالرحمن .

وبعد مضي يومين استأذن الإمام الشيخ عيسى للخروج بأسرته إلى قطر شاكراً له كل ما قدمه له ولأسرته من كرم الضيافة ، وحسن الجوار ، والمعاملة الطيبة .

وشاءت الأقدار مع مرور الأيام أن تغير الدولة العثمانية سياستها تجاه ابن سعود ، وأن تحسن من علاقتها معه خاصة بعد أن شمت رائحة خلاف على الحكم في بيت أعوانهم « آل رشيد» في حائل ، وذلك نتيجة مرض زعيمهم الأمير « محمد ابن رشيد » الذي يكابد آلام داء ألم به على فراش الموت ، يضاف إلى ذلك المكانة العظيمة لابن سعود في نفوس الكثيرين من زعماء قبائل نجد .

ولذلك فقد استدعى متصرف الأحساء « عاكف باشا» الإمام عبدالرحمن مرة ثانية ليجدد مفاوضته معه، فلبى الإمام الدعوة، وتم خلالها الاتفاق بينهما على أن يقيم الإمام وأسرته في الكويت بعد استئذان شيخها ، وعلى أن تدفع الدولة مبلغاً قدره مائة وعشرون ليرة شهرياً، يتم اقتسامها مناصفة بين ابن سعود وابن صباح، وهذا مبلغ يندر أن تدفعه الدولة العثمانية لأحد إلا إذا رأت أن مصلحتها تحتم عليها ذلك .

عندئذ استأذن الامام عبدالرحمن حاكم قطر بالنزوح بأسرته إلى الكويت فأذن له وخرج من قطر بعد شهرين من إقامته فيها، واستوطن الكويت هو وعائلته .

وهناك استقبل الشيخ محمد الصباح أسرة آل سعود بالحفاوة والتكريم ، وأعدّ لهم مسكناً مكوناً من ثلاث أو أربع غرف داخل سور قصره .

وفي الكويت تفتحت عينا الفتى عبدالعزيز على عالم جديد وحياة جديدة، وبيئة كانت مجالاً خصباً لتفتق ذهنه ، ونضوج شخصيته ، وصقل تجاربه، وتنمية مداركه .

وتمضي الأيام سراعاً ، ويعجب الشيخ محمد الصباح إعجاباً شديداً بعبدالعزيز ، وذلك لما توسمه في شخصيته من نجابة وصفاء ذهن، ولباقة ، وحدة ذكاء .

وقد زاد من إعجاب الشيخ به ما رآه منه من أدب جم تجاه أبيه الإمام ، وبره به وإحسانه إليه، فأخذ يقربه منه ويدعوه لحضور جلساته ومنتدياته الخاصة .

ذات ليلة كان عبدالعزيز جالساً إلى جانب الشيخ محمد بن صباح بحضور عدد من رجاله وعدد قليل من أصدقائه الإنجليز والفرنسيين ، فطرق والده المجلس عليهم واستقبله الشيخ كعادته بالمودة والترحيب ، فأفسح عبدالعزيز المجال لوالده

ليجلس مكانه إلى جانب الشيخ ابن صباح في صدر المجلس، وتحدث الجميع مع بعضهم حديثاً عاماً يتداولون فيما بينهم أخبار التجارة الخليجية، وعلاقة تجار المنطقة بتجار « الهند » و « فارس » والبلدان الأخرى، ثم توسعوا في الحديث عن أخبار المجتمع، والأخبار السياسية والظروف التي تعيشها منطقتهم.

وقد لحظ عبدالعزيز أن ابن صباح كان متحفظاً حين يتحدث عن السياسة، وكان يتجنب الخوض فيها، والغوص في أعماقها وأساليبها الدبلوماسية المعقدة، إلا ما كان من حديثه عنها على سبيل التلميحات والإيماءات.

وانفض المجلس، وأوى عبدالعزيز إلى فراشه تلك الليلة متذكراً سلسلة الأحداث التي عايشها منذ خروجهم من الرياض إلى الدهناء ثم البحرين حتى قطر ثم الكويت أخيراً.

كان يقارن بين مراحل حياته منذ أن كان طفلاً صبياً حتى أصبح - كما هو عليه الآن - شاباً فتياً في مقتبل العمر.

وقضى ساعات طويلة من ليلته تلك مع ذكرياته الخالية، وما هو عليه الآن وما يجب عليه فعله مستقبلاً، شارد الذهن، ساهم التفكير كمن يعيد ترتيب أوراقه:

- سبحان الله العظيم، شتان ما بين اليوم والأمس.. أطال الله في عمرك يا أبتاه، لقد علمتني كيف تكون مرارة الحياة وقسوتها قبل أن أذوق حلاوتها ورغد عيشها.. حتى تجاوزت نعيم الطفولة وعبثيتها إلى صرامة الرجولة وجديتها.

وأحسن الله إليك يا أماه، لقد سهرت على راحتي أياماً طويلة من عمرك المديد، لا تغمض لك عين.. قسوتما عليَّ أنت ووالدي لتعلماني أن هناك جانباً آخر في الحياة يسمى الرحمة والرأفة لا بد لي أن أبحث عنه بنفسي وأتوصل إليه، لأشارك به غيري من الناس، ولكي أعرف أنه لولا معاناتي من القسوة لما عرفت

الرحمة، وألقيتماني في معترك الحياة وقسوتها ومخاوفها وأنتما أخوف الناس عليَّ . . . رحمكما الله يا شيخ عبدالله الخرجي ويا شيخ محمد بن مصيبيح فقد رطبتما لساني بتلاوة القرآن ، واسكنتما نفسي وقلبي بذكر الله منذ الصغر . . . سقى الله دياركم غيثاً مدراراً يا آل مرة، فقد كنتم لنا نعم الجيران، وبيض الله وجهيكما ياشيخ عيسى ويا شيخ قاسم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، فقد كنتما لنا خير أخوين على الرخاء والشدة.

وهكذا ظل عبدا لعزيز يسرح خواطره ويناجيها بينه وبين نفسه، فتخيل مدينة الرياض :

- الله . . كم نحن مشتاقون إليك يا رياض المجد والسؤدد . . تُرى كيف أنت الآن ؟ . . وماذا عن أهلك وسورك الذي هدمه الأعادي وأشجارك التي أحرقوها.

وبينما كان عبدالعزيز كذلك إذا بآذان صلاة الفجر يرفع من المساجد ، وتتردد أصداؤه في الأحياء والشوارع المجاورة ، فنهض وتوضأ للصلاة، ورافق والده إلى المسجد . . ولما قضيت الصلاة عاد للسكن ، فلحظ الأب أن ابنه يبدو مكتئباً شاحباً ، محمر العينين :

- كأنك لم تبت ليلة البارحة يا عبدالعزيز.

- أطال الله في عمرك يا أبي ، لقد كنت أعاني من صداع أقض مضطجعي.

وأحس الأب من تعابير وجه ابنه ونبرة كلامه أن هناك ما يشغل باله ، ويؤرق هاجسه ، فأحجم عن سؤاله كي لا يحرمه متعة الخلو بنفسه، وانصرافه بجوارحه لمراجعتها ومحاسبتها.

والتفّتْ الأسرة حول بعضها في إحدى غرف السكن ، يتحدثون كعادتهم كل صباح حيث تنحنح الأمير عبدالله بن جلوي قائلاً :

- إن الأمور تبشر بخير يا عبدالرحمن .

فتمتم عبدالرحمن متفائلاً :

- يفرجها الله يا عبدالله .

فأضاف عبدالله وهو يعدل من وضع جلسته على التكية التي كان يسند عليها جسمه قائلاً :

- يظهر أن الأتراك قد أمسكوا بابن رشيد لحماً ، وهاهم الآن يرمون به عظماً .

وأطلق ضحكة خفيفة ثم قال :

- لا إله إلا الله « وتلك الأيام نداولها بين الناس » صدق الله العظيم .

فوقع الاستشهاد بهذه الآيه القرآنية في نفس عبدالعزيز ، فأخذ يرددها :

- « وتلك الأيام نداولها بين الناس » . . والله لقد كانت هذه الآية ولا تزال على لساني يا عماه ، وكنت أتدبر معانيها ليلة البارحة . . إنها حكمة الله وسنته في خلقه .

وأحجم الإمام قليلاً ثم قال :

- ابن رشيد يا جماعة رجل كغيره من أمراء شبه الجزيرة العربية أراد أن يؤسس دولته لكنه لم يحسن سياسته فعاش ليومه أكثر مما يعيش لغده .

ثم قال عبدالعزيز بنوع من الفراسة وعمق البصيرة :

- الأتراك الآن يريدون بديلاً لابن رشيد .

وشد عبدالعزيز انتباه مجالسيه بهذه العبارة ثم مضى يقول :

- الآن لم يعد للأتراك حاجة ذات أهمية لدى ابن رشيد . . إنهم يحاولون خطب ود آل صباح من أجل بترول « الكويت » .

وأحاط الإمام عبدالرحمن ابنه بنظرة فخر واعتزاز ، فصوب كلامه طالباً المزيد :

- أحسنت يا ولدي . . وماذا بعد ؟

واستمر عبدالعزيز قائلاً والجميع ينصتون إليه :

- الأتراك ليسوا وحدهم ، وإنما هناك من يشاركهم الطمع في هذه البلاد كغيرهم من الشعوب الأخرى من إنجليز وفرنسيين وألمان ، وروس ، وإيطاليين ، كل أولئك انبروا في التهافت على كسب ود آل صباح طمعاً في ثروة الكويت .

وصمت عبدالعزيز قليلاً ثم قال مشيراً إلى والده :

- لقد لاحظت يا أبي أثناء جلوسنا ليلة البارحة في مجلس الشيخ محمد الصباح أن المجلس كان قد ضم بعض الأجانب من الأتراك والإنجليز والفرنسيين الذين يتوددون للشيخ ، ويتملقونه بالحديث محاولين جذب اهتمامه بهم ، وكان الشيخ حذراً ، عندما شعرت أنه يتجنب الخوض في أمور سياسة دولته ، والإسهاب في الحديث عنها إلا ما كان على سبيل التعريض أو التلميح .

عندئذ أضاف الإمام مستقرئاً الواقع المعاش :

- نحن جميعاً مستهدفون يا عبدالعزيز ، ولا أرى أننا - نحن آل سعود - خارج دائرة اهتمام هؤلاء الأجانب ، فالأتراك مثلاً يرون أن من مصلحتهم أن نناصب ابن رشيد العداء كي نبقى نحن - دائماً - الخطر الأكبر الذي يؤرق ابن رشيد في شبه الجزيرة العربية ، ويهدده بسقوط إمارته ، مما يضطره إلى الاستعانة بهم ، وتلبية رغباتهم كما يشاؤون ، وليس بالضرورة أن يهتموا باستعادة ملكنا .

أما الفرنسيون والإنجليز فهم على العكس من الأتراك - يرون في صالحهم استعادة حكمنا في الرياض على حساب نفوذ الأتراك وحليفهم ابن رشيد في المنطقة ، وبالتالي فإنهم سينفردون بصداقة الشيخ ابن صباح دون غيرهم لتحصيل غايتهم ، لعلمهم أن ابن صباح على خلاف مع ابن رشيد على حدود إمارتيهما .

الفصل الخامس

وتمضي الأيام وآل سعود في كنف آل صباح، ولا يزال الإمام عبدالرحمن وابنه عبدالعزيز من المقربين لهم. وكان بيت آل صباح قوامه ثلاثة أخوة هم: محمد «كبير الأسرة وشيخ الكويت»، ومبارك وجراح.

وذات مرة تحدث عبدالعزيز إلى الشيخ محمد بن صباح في مجلسه:

ما لنا لا نرى الشيخ مبارك هذه الأيام يا شيخ محمد؟

وبدا على وجه الشيخ السأم حيث قال:

- الشيخ مبارك خرج في رحلة صيد في بادية الكويت منذ أيام لكنه لم يعد.

وتوجس عبدالعزيز خيفة من كلام الشيخ وارتاب في الأمر، وظل يفكر في ما قاله الشيخ بضعة أيام فأدرك أن بين الشيخين الأخوين «محمد ومبارك» خلافاً ينذر بالشر.

وما كادت تمضي بضع ليال حتى استيقظ عبدالعزيز ووالده وأخواه محمد وسعد وعبدالله بن جلوي في الهزيع الأخير من الليل على أصوات تتعالى بالصياح والنواح والعويل، فوثبوا من مراقدهم ممتشقين سيوفهم، ثم هرعوا إلى قصر الشيخ محمد مصدر تلك الأصوات، وكانت الفاجعة حين رأوا شيخ الكويت مضرجاً بدمائه وإلى جانبه أخوه الشيخ جراح الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقد

أغمدت في صدره حربة حادة في حين كان الشيخ مبارك وابنه جابر واقفين يقطر سيفاهما دماً ، ويحيط بهما عدد من رجال القصر .

ومضى الشيخ مبارك يقول وهو يهز سيفه :

- الآن كل شيء انتهى يا محمد .

وكان مبارك يريد أن يهوي بسيفه على رقبة أخيه محمد وهو في رمقه الأخير في حين قفز الإمام عبدالرحمن بينهما وهو يصرخ في وجه مبارك بصوت يسمعه كل من في القصر :

- استعذ بالله ! . . . استعذ بالله من الشيطان يا شيخ مبارك ! . . الرجل جثة هامدة .

إنها ليلة مشؤومة ضُرج بها البيت الكويتي بالدم ، وترددت أصداء النواح والعويل بين زواياه ، وصعد أهل الأحياء المجاورة على سطوح منازلهم في تلك الليلة يجأرون لبعضهم بأصواتهم ويتساءلون بهلع ورعب شديدين عما حدث في بيت آل صباح .

لقد انعكست آثار هذا الحادث الرهيب على نفس عبدالرحمن وأصحابه وجميع من شاهدوه أو سمعوا به ، واكتسح الحزن والأسى وجوه أفراد المجتمع الكويتي لمقتل الشيخ محمد غيلة على يد أخيه مبارك .

وفي اليوم التالي بدا عبدالعزيز واجماً تكسو محياه غشاوة من حزن عميق ، وتنهد قائلاً :

- رحمك الله يا شيخ محمد .

- رحمك الله أيها الشيخ ، وألهمنا جميعاً الصبر والسلوان .

وبادر عبدالله بقوله وهو يعض على شفتيه بمقدمة أسنانه حزناً وجزعاً :

- إنها فتنة ، والفتنة أشد من القتل .

ولما تولى الشيخ مبارك الحكم في الكويت استتب له الأمن ، وأرغم معارضيه على موالاته ، والانصياع لأوامره ، واستطاع أن يعيد توازن كرسي الحكم في الكويت من جديد ، لتعود المياه إلى مجاريها الطبيعية ، وليمحو آثار جريمته الشنيعة من نفوس المجتمع الكويتي .

إلا أن التعتيم على هذه الجريمة ، ومحاولة نزع ما خلفته من ضغائن في النفوس لم يكن من السهولة بمكان حيث دأب «يوسف آل إبراهيم» خال أبناء الشيخين القتيلين « محمد وجراح» يستنفر أمراء نجد والحجاز والخليج ، ويحرضهم على قتال مبارك طالبًا الثأر والانتقام منه لأبناء أختيه ، وذلك لفعلته الشنيعة بأبويهما .

وكان يوسف هذا معروفاً عنه أنه من أكبر تجار اللؤلؤ في الخليج ، وأغناهم مما جعل لدعوته هذه صدى كبيراً ، ورواجاً بعيد المدى .

لقد أهدر يوسف آل إبراهيم جزءاً كبيراً من ثروته الطائلة خلال رحلاته وتنقلاته بين أمراء شبه الجزيرة ، وزعماء القبائل لعله يجد من يسانده ، ويقف إلى جانبه ضد مبارك .

في آخر الأمر هداه تفكيره إلى الاستنجاد بأمير حائل « محمد بن رشيد » لعلمه أنه على عداء شبه مستمر مع آل صباح ، وأن بينهما مناوشات على حدود إمارتي حائل والكويت .

ولدى دخول يوسف حائل استقبله الأمير عبدالعزيز بن رشيد « ابن أخ الأمير محمد الحاكم وكبير الأسرة » ، فأخبره أن عمه الأمير محمداً يعاني من مرض عضال ألم به ، فأقعده على فراش الموت ، وأنه ربما يعتذر عن مقابلته له لبحث ما جاء من أجله نظراً لتدهور حالته الصحية .

وأقام يوسف في ضيافة آل رشيد بضعة أيام ظل خلالها يباحث عبدالعزيز الرشيد في إمكانية مساعدته له ، ودعمه له بقوة عسكرية لمهاجمة آل صباح في عقر دارهم ، على أن يتكفل يوسف بالإمدادات والمؤن التي يحتاجها الجيش ، إضافة إلى مبلغ من المال يودع في خزينة دولة آل رشيد .

واستهوى عبدالعزيز هذا العرض المادي المغري ، فأسرع إلى عمه مصطحباً يوسف للسلام عليه فقط دون أن يتم عرض الموضوع عليه كما اتفق عليه الاثنان ، وذلك لعلم عبدالعزيز أن عمه ربما لا يوافق على هذا الموضوع مبدئياً .

ولما دخل عبدالعزيز ويوسف على الأمير محمد سلما عليه ، فانصرف يوسف وبقي عبدالعزيز مختلياً بعمه ليفاتحه في الأمر :

- يا عماه ، إن يوسف آل ابراهيم رجل موتور ، أتى يستنجدنا طالباً الثأر من مبارك بن صباح ، لترميله أختيه زوجتي الشيخين محمد وجراح ، وتيتيمه أبناءهما في سبيل الوصول إلى كرسي الحكم في الكويت .

فتحدث محمد بلسان ثقيل ، وهو يلتقط أنفاسه تحت وطأة المرض :

- لا يا عبدالعزيز . . إياك أن تفعل .

- ولكن . . . ولكن يا عماه . . .

فقاطعة محمد بتأوه :

- أنا أعرف ما تريد قوله يا ولدي . . إن يوسف رجل ثري يعرض علينا أمواله مقابل مساندتنا له بالقوة العسكرية ، للثأر من مبارك أليس كذلك ؟

وهز عبدالعزيز رأسه حيث أردف محمد بقوله :

- أوصيك يا عبدالعزيز ألا تطمح إلى الكويت ، ومناصبة شيخها العداء ، وهذه وصية أرجو أن تضعها نصب عينيك حتى بعد وفاتي .

وانصرف عبدالعزيز من عمه كاسف البال ، غير مقتنع بما قاله ، ولا بما أوصاه به ، إلا أنه أبطن ذلك لئلا يتسبب بمضايقة عمه وهو في هذه الحالة المزرية من المرض ، وأجَّل التفكيرفي الموضوع مع يوسف إلى أجل غير مسمى .

وبعد مضي عامين وبداية العام الثالث من تولي مبارك الحكم في الكويت استطاع أن يوطد علاقته بالانجليز والأتراك ، وبعض أمراء الخليج وشبه الجزيرة العربية ، فقويت شوكته وعظم شأنه بين كل من تربطهم به علاقة .

وكان مبارك داهية من دهاة العرب في زمانه ، يتصف بقوة الشخصية والشجاعة والحكمة والقدرة على التخلص من المأزق السياسية ، والمواقف الحرجة .

وقتئذ خالج الدولة العثمانية شك في ولاء مبارك لها وميله إلى الإنجليز ، فبذلت جهدها للتحري عنه ، حيث علمت أنه عقد اتفاقية سرية مع الإنجليز لتقوية دعائم حكمه مقابل حصة يبذلها لهم من بترول الكويت .

وفي خضم هذه الأحداث توفي الأمير محمد بن رشيد ، فخسرت الدولة العثمانية بذلك واحداً من أكبر حلفائها العرب حيث تولى الحكم في حائل عبدالعزيز الرشيد « ابن أخ محمد » الذي أوصى له عمه بالولاية من بعده .

وكان عبدالعزيز - على العكس من عمه محمد - قد غرته الأماني والطموحات طمعاً في غزو الكويت ، والاستيلاء عليها ، وإمعاناً منه بالانسلاخ عن تبعية الأتراك .

فكر في ذلك وصمم على تنفيذه على الرغم مما أوصاه به عمه من عدم غزو الكويت ، أو مصاولة أهلها ، وقد فسر عبدالعزيز وصية عمه له على أنها مؤقتة فرضتها ظروف سياسية عاشتها دولته ، وأنها لا تعني بالضرورة تثبيط عزيمته دون ما يطمح إليه مستقبلاً .

وفي حينه التجأ يوسف آل ابراهيم إلى ابن رشيد من جديد عارضاً عليه ما سبق أن بحثاه معاً حول موضوع غزو الكويت .

ليس هذا فحسب ، وإنما طرح ابن رشيد على يوسف فكرة غزو الرياض أيضاً وتنحية محمد بن فيصل عن ولايتها .

وكان ابن رشيد يقصد من وراء ذلك كله تفكيك وحدة آل صباح وآل سعود ليشغل كلاً منهم بنفسه دون الآخر كي يتسنى له بالتالي تحقيق غايته .

أما الشيخ مبارك فقد أدرك أن الأتراك قد كشفوا أمر اتفاقيته مع الإنجليز ، وأنه لا بد له من أخذ الحيطه والحذر لكونه قد وقع بين فكين مفترسين أحدهما عبدالعزيز بن رشيد بتحريض من يوسف آل ابراهيم لغزوه ، والآخر الأتراك الذين خابت آمالهم بخذلان ابن رشيد لهم ، والذين هم في تنافس جشع مع الإنجليز على الكويت . وكان مبارك - على الرغم من هذا كله - يعتد بنفسه ، وبوجود كبار آل سعود إلى جانبه ، وهم رجال صقلتهم الحياة ، وعلمتهم كثيراً مما يجهله غيرهم ، خاصة فيما يتعلق بالحروب وخوض غمارها ، وفن قيادة الجيوش ألا وهم الإمام عبدالرحمن وابنه عبدالعزيز وعبدالله بن جلوي ، هذا إلى جانب افتخاره

بصلة نسبه من جهة أمه بآل سعود، لكون أمه هي « لولوة بنت محمد بن ثاقب بن وطبان بن مرخان » أي أنهم أخواله.

وقد تكهن الشيخ مبارك بموقف آل رشيد والأتراك منه ودسهم الدسائس وزرع بذور الفتنة بين الناس لعلها تواتيهم الفرصة المناسبة للظفر ببغيتهم.

إلا أن مثل هذه الحيل والدسائس والحبائل لا تنطلي على رجل كمبارك، حيث أدرك خطورة الوضع بعمق بصيرته فاجتمع برجاله ثم قال وهو يصوب نظره إلى الإمام عبدالرحمن:

- يا أبا عبدالعزيز.. ألا ترى معي أن مبادرتنا لغزو ابن رشيد أنجع من انتظارنا له بين كل حين وآخر؟.. فلنفاجئه قبل أن يفاجئنا.

فأجاب الإمام بتروٍّ:

- نحن لا نريد البقاء على شفا حفرة من المباغتة، ولا نريد أن نلعب مع ابن رشيد لعبة حظ ربما كنا - نحن - طرفها الخاسر. لقد آن الأوان لأن ينقلب السحر على الساحر يا شيخ مبارك، وبما أن ابن رشيد يتوقع منا مثل ما نتوقع منه، ولأنه ينوي تشتيت قوتنا عن طريق غزو الكويت بجيش يقوده هو بنفسه، وجيش آخر لغزو الرياض فإنني أرى أن تخرج - أنت - بجيش تقوده بنفسك، فتقطع الدهناء حتى تصل شعيب « الشوكي » فتقيم هناك لترى ردة فعل ابن رشيد بينما يبقى الابن «جابر» هنا في الكويت لتولي أمورها.

أما أنا والأمير عبدالله بن جلوي فعلينا الخروج من هنا ببعض الرجال لغزو عشائر من « قحطان » الموالية لابن رشيد في نجد، ومحاولة إعادتهم إلى صفنا وبذلك نكون قد شتتنا قوة عدونا نتيجة اضطراره لقتالنا في مكانين مختلفين.

وصرف مبارك نظره إلى عبدالعزيز وكأنه أراد أن يفسح له المجال للإدلاء برأيه حيث تحدث قائلاً :

- أنا أرى - والرأي يعود للجميع - أن أرافق الشيخ مبارك فأنتهز فرصة انشغال ابن رشيد بحربه معه ومع والدي لاجتياز «الشوكي» إلى « الرياض » فأقاتل حاميتها في طريقي إليها ، وفي هذه الحالة ستكون لنا ثلاث قوى تشغل بال ابن رشيد وتشتت قواه بدلاً من قوتين اثنتين .

ومن ثم رحب الحاضرون بهذه الخطة الحربية التي تمخض عنها اجتماعهم ، وعزم كل من مبارك والإمام وعبدالعزيز وعبدالله على تنفيذ أولى خطوات خطتهم ابتداء من صباح الغد المقبل .

ولما تنفس الفجر في غسق الدجى أسرع الشيخ مبارك ليتفقد جيشه ، ويعمل على إعداده وتجهيزه للتحرك .

ولم تمض ساعات قلائل حتى تحرك جيش عرمرم قوامه عشرة آلاف مقاتل بقيادة مبارك يرافقه كل من عبدالرحمن وابنه عبدالعزيز وابن جلوي .

وانبرى الجيش العرمرم يطوي قفار صحراء « الصمان » والدهناء حتى شارف على شعيب « الشوكي » في الجزء الغربي من صحراء الدهناء في حوالي ثلاثة أيام من السير الشاق ، والجهد المضني .

وهناك استأذن الإمام عبدالرحمن وابن جلوي الشيخ مبارك بالانفراد بعدد من رجالهما لشن غارات على بعض عشائر قبيلة « قحطان » النجدية ، بينما بقي مبارك وعبدالعزيز بجيشهما مخيمين على جنبات شعيب الشوكي حيث صاح الشيخ بخدمه وجنده :

- اتركوا الإبل والخيول ترعى في الوادي على مهلها، واجلبوا لنا الماء والحطب لعمل « القهوة » وطبخ الطعام.

ثمة شعور غامض دب في أعماق الفتى عبدالعزيز لم يستطع سبر كنهه وهو يجيل نظره بما حوله من خيام الجيش ، وأشجار الطلح الظليلة في الشعيب ، والسهول الممتدة على مرأى النظر ، ويفرك عينيه براحتيه ليتأكد أنه يعيش واقعاً حقيقياً ، وليس حلماً زائفاً.

إن لهفته وشوقه الجارف للرياض - على مدى السنين الماضية التي عاشها بعيداً عنها - جعلت منه رجلاً ذا نزعة ذهنية، وشرود يسكنه حنين إلى مجد آبائه وأجداده في الرياض متجاوزاً بخياله الجامح وطموحه المتوثب جميع الحدود الدولية والأحلاف السياسية التي فرضتها ظروف الواقع المعاش في زمن احتدم فيه الصراع بين الناس ، فتهافتوا على مراكز الحكم والسلطة وتكالبوا على حب الدنيا ومغرياتها من مال وجاه.

- إن الرياض الحلم ستصبح حقيقة ياعبدالعزيز . . لقد هجرتها مكرهاً، لكنها سكنتك حباً إلى الأبد.

قالها الفتى وهو يشيح بنظره إلى الأفق جهة الرياض ، ثم اتجه إلى خيمة الشيخ، ورافقه بجولة قاما بها بين أفراد جيشهما.

ولفت نظر عبدالعزيز ثلاثة رجال يستلقون هناك بعيداً عن المخيم، وقد ألصق كل منهم أذنه بالأرض ، فارتسمت على وجهه دهشة مما يراه ، شعر بها الشيخ حيث قال وهو يشير بسبابته إلى الرجال :

- أولئك الرجال يا عبدالعزيز يسترقون السمع من باطن الأرض لإنذارنا بسماعهم أصوات حوافر الخيول وأخفاف الإبل التي يمتطيها جيش العدو .

واكتفى عبدالعزيز بابتسامة التعجب لهذه الطريقة التي يستخدمها أهل الصحراء لمتابعة تحرك الجيش المعادي ، ثم دنا من الشيخ فقال له هامساً :

- كنت أفكر بالنزوح إلى الرياض يا شيخ مبارك .

- لكني أخشى عليك من حاميتها يا ولدي .

- لأغامر هذه المرة ، فربما حالفني الحظ بدخولها .

- إنني لم أنس أن نزوحك للرياض جزء من خطتنا ياعبدالعزيز ، ولكنني الآن أرى السماء ملبدة بالغيوم ، والجو ينذر بهبوب رياح عاتية ، وهذا كله سيؤثر على سير رحلتك .

- ليكن يا شيخ مبارك ، المهم أن ننفذ ما اتفقنا عليه قبل أن ينتبه ابن رشيد لأمرنا .

فاستدار الشيخ مبارك بوجهه إلى عبدالعزيز قائلاً وهو يشد على كتفيه :

- ما دمت مصراً على ذلك فإنني أتمنى من الله لك التوفيق ، وكن مستعداً للنزوح على رأس ألف رجل من رجالنا بقيادتك .

وتعانق الاثنان عناقاً حاراً ، حيث قال مبارك وهو يشد على ساعدي عبدالعزيز :

ـ أيها الفتى المغوار . . إنني من أشد الناس بك فخراً واعتزازاً .

كانت الشمس قد جنحت للمغيب حين تقدم عبدالعزيز جيشه زاحفاً إلى الرياض، فمضى جاداً بالسير تحت ستارالليل ، وكان يتجنب بطون الأودية والشعاب خوفاً من مداهمة السيول ومحاصرتها له .

ولما اجتاز نصف المسافة فيما بين الشوكي والرياض نزل ليلاً في أحد المواضع البعيدة عن مسارب مياه السيول ، واستدعى رجلين من موالي آل سعود هما « محمد المعشوق » و « سعيد بن بخيت » وأمرهما أن يتسللا خفية لاستطلاع حامية الرياض .

كانت تلك الليلة من ليالي شهر « شباط » ليلة باردة ظلماء ، والسماء تلبدها الغيوم ، والرياح الشمالية تهزُّ الأشجار هزاً ، وعواؤها يثير رغاء الإبل وصهيل الخيول في الساحة التي يتمركز فيها الجيش .

وقضى عبدالعزيز ليلته تلك يسترخي ساعة، ويستيقظ أخرى ليتفقد جيشه ومعداته وتجهيزاته العسكرية .

ولما ارتفعت شمس الضحى أقبل المعشوق وابن بخيت وأخبرا أن ابن رشيد قد علم بأمرهم، وأنه سيزحف للشوكي لملاقاة مبارك ، كما أنه قد قام أيضاً بإرسال عامله « عبدالرحمن بن ضبعان » بجيش آخر لحماية الرياض .

فما كان من عبدالعزيز - حينئذ - إلا أن تحرك زاحفاً إلى الرياض رافعاً راية آل سعود في مقدمة الجيش .

أما ابن رشيد فقد تحرك بجيشه من حائل قاصداً الشيخ مبارك على الشوكي ، إلا أنه قد حبذ الإقامة في أحد المواضع على مسيرة ليلة واحدة منه .

ولما رأى مبارك أن طلائع جيش ابن رشيد بصدد توجهها إليه أراد أن يشاغله عن الإمام عبدالرحمن ، وشن غاراته على عشائر قحطان في نجد، وأن يشد انتباهه

إليه ليصرف نظره عن عبدالعزيز وتقدمه إلى الرياض، فأرسل مفاوضيه إلى ابن رشيد للصلح.

وفي الوقت ذاته كان بعض زعماء قبائل نجد يفدون إلى مبارك على الشوكي مرحبين، لعلمهم أنه حليف آل سعود.

وفي أثناء ذلك كان عبدالعزيز قد داهم الرياض، فتصدت له حاميتها بقيادة ابن ضبعان، ونشب القتال بين الطرفين بحيث حسمت المعركة لصالح آل سعود، وتمكن عبدالعزيز من دخول الرياض.

ولما رأى ابن ضبعان وبعض رجاله أنه لا حيلة لهم بالحرب فقد لجأوا للتحصن بقصر « المصمك » داخل المدينة فاستولى عبدالعزيز على الرياض، وأمر رجاله بحفر نفق تحت القصر للظفر بمن بقي من عملاء ابن رشيد.

وانشرح صدر الفتى لنتيجة باكورة غزواته المتوجة بالنصر، وسكنه ارتياح عميق بالعودة إلى أحضان الرياض بعدما يقارب ثمان سنوات من بعده عنها، والتقى عمه الأمير محمد بن فيصل إلتقاء غامراً بالفرح والسرور، فطمأنه على أحوال أبيه وأسرته، وتحدث محمد إلى عبدالعزيز في مجلسه بشيء من الفرح الذي يمازجه حزن شجي:

- لقد كبرت ياعبدالعزيز، وتغيرت ملامحك الشخصية، ولون بشرتك عما كنت أعهده.

- سبحان الذي يغير ولا يتغير يا عمي..!.. هاهي السنون قد مرت وكأنها أيام، وها أنا أعود إلى الرياض اليوم وكأنني قد غادرتها بالأمس القريب.

- أخبرني يا ولدي عن أبيك وعمك عبدالله بن جلوي.

- هما بخير، إلاأنني لاأدري عنهما شيئاً منذ ليلتين مضتا حين غادرانا قرب الشوكي لقتال عشائر قحطان.

- وماذا عن الشيخ مبارك؟

- يبدو لي أن الشيخ مبارك الآن بين ثلاثة أمور لا رابع لها.

- وما هي ؟

- إما أن يدخل في حرب طاحنة مع ابن رشيد، أو أن ينسحب إلى الكويت تفادياً لسفك الدماء إذا رأى أنه لا طاقة له بحربه، أو أن يعقد معه صلحاً وهذا احتمال ضعيف.

- إنه تصور معقول جداً يا عبدالعزيز، ونحن هنا في الرياض مستهدفون أيضاً من قبل ابن رشيد، ولسنا ببعيدين عن محط أنظاره.

- ولكنه مهما أوتي من القوة فإنه ليس بإمكانه محاربتنا في ثلاثة أمكنة مختلفة في آن واحد، وإن استطاع ذلك - على أسوأ الاحتمالات - فإنه لن يظفر منا بشيء لكون قوته العسكرية ستخور لتبديدها في أكثر من موضع.

وتدرج الحوار ليتوغل في الحديث عن الأمور الشخصية، حيث سأل محمد عبدالعزيز بروح المفاكهة :

- سعدت كثيراً حين بلغني قبل أشهر أنك ستتزوج ، فما مدى صحة ذلك ؟

- نعم، هذا صحيح، ولكن لن تكتمل فرحتي بالزواج إلا بوجودنا بينكم يا عمي.

وأراد محمد أن يضفي على الحوار جواً من الملاطفة والتودد فسأله :

- ومن هي سعيدة الحظ . . . . يا عبدالعزيز؟

- لقد قال لي أبي ذات مرة : إنك كبرت في السن ياعبدالعزيز ، وأريد أن أمتع عيني وأطمئن قلبي برؤية أبنائك يا ولدي ، فأشار علي أن يخطب لي ابنة الشيخ محمد بن برغش الخالدي كبير أسرة « بني خالد » في الأحساء فوافقت .

- بارك الله لك يا عزيزي فيما آتاك ، ووفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه .

واختتم الحوار بأن أشار محمد على عبدالعزيز بالخروج من القصر للقيام بجولة حول المدينة للتنزه وتفقد أحوال أهلها .

أما الشيخ مبارك فقد باءت محاولته للصلح مع ابن رشيد بالفشل ، فأخذ يستدرجه إلى قلب نجد حتى بلغ موضع يسمى « الصريف » وهناك اشتعل أوار الحرب بين الجيشين ، وأصبحت ساحة المعركة جحيماً لا يطاق ، وهبت على إثر ذلك رياح شتائية باردة وعاتية أثارت تراب ساحة المعركة ، فتصاعد الغبار في الأفق حاجباً أشعة الشمس فوق الرؤوس .

لقد كانت معركة ضارية أبادت كثيراً من الخلق ، وأسفرت عن تغلب جيش ابن رشيد ، وانهزام من بقي على قيد الحياة من رجال الشيخ مبارك ، وقد ساعد على فك الاشتباك بين الطرفين هيجان الرياح ، وتصاعد الغبار الذي يحجب الرؤية مما أشغل الكثير من المقاتلين بأنفسهم دون غيرهم ، وبذلك استغل مبارك فرصة تلمس طريقه للنجاة بنفسه في هذا الجو الذي اختلط به الحابل بالنابل فتقهقر منسحباً بعدد من رجاله إلى الكويت .

وتناهت إلى مسامع عبدالعزيز وهو في الرياض أخبار انهزام مبارك أمام ابن رشيد، وما فعله ابن رشيد بالأسرى الذين سلموا أنفسهم وأسلحتهم إليه، حيث قام بقتلهم وسفك دمائهم بأسلوب وحشي لا يعرف الرأفة ولا الرحمة.

كما علم من المقربين له أن ابن رشيد في طريقه إليه يفتك بالقبائل الموالية لآل سعود، وينكل بزعمائها أشد تنكيل، فأدرك حجم الفارق بينهما بالقوة والرجال والعتاد، وأن حربه معه ضرب من المغامرة المتهورة التي ستؤدي به إلى الهلاك والعواقب الوخيمة والتجني الفادح.

ولم ير عبدالعزيز أن من الحكمة إثارة نعرة ابن رشيد ورجاله وهم في نشوة النصر، فتريث قليلاً ليترقب هدوء عاصفة الحرب.

حينئذ أرسل إليه أبوه يطالبه بالعودة إلى الكويت حفاظاً على أرواحهم وأرواح رجالهم من الهلاك، فرأى الابن أنه لا بد له من التخلي عن الرياض بانتظار فرصة أخرى يراوده فيها حلم مستقبل زاهر، ومضى يجر جيشه الذي أضناه السير الشاق، وأنهكه الترحل من بلاد إلى أخرى عن الرياض وهو يلتفت إليها، ويشعر وكأنه نبتة قد اجتثت من عروقها من تربة تلك البقعة من الأرض التي لا يطيب لها النماء والخضرة إلا فيها، وتمتم مناجياً نفسه بحسرة وألم تشبه عزيمة صارمة لا تثنيها الخطوب:

- وداعاً يا رياض المجد.. سنعود إليك قريباً بإذن الله، وإن غداً لناظره قريب.

لقد خلف فراقه الرياض للمرة الثانية جراحاً دامية في جوانحه أكبر بكثير من أن يشفيها تأوه أو أنين أو تعلل بقريب أو حبيب.

وانفجر عبدالعزيز الرشيد غضباً عندما علم بلجوء عامله « عبدالرحمن بن ضبعان » ورجاله إلى قصر « المصمك » احتماء به من عبدالعزيز بن عبدالرحمن ، وأمر بإحضارهم إليه مكبلين بالأصفاد ، وهو يصرخ في وجوههم :

- تباً لكم أيها الجبناء . . تباً لكم . . كيف يجروء فتى ناشىء ، حديث السن على قهركم ، والانفلات من أيديكم ، وأنتم جميعاً تكبرونه سناً، وتفوقونه عدداً، وخبرة ، وحنكة في الحرب وشؤونها ؟ كيف . . ؟ كيف ؟ . . الويل لكم أيها الحمقى .

فصاح بعضهم بهلع يتوسلون إليه :

- الرحمة والعفو يا طويل العمر .

وفي الكويت التقى عبدالعزيز بوالده وعمه عبدالله بن جلوي والشيخ مبارك يسأل كل منهم الآخر عن نتيجة غزوته، ويحصون ضحايا جيشهم، وما تكبده من خسائر فادحة على إثر حربهم مع ابن رشيد .

وعلى الرغم مما حققه ابن رشيد من نصر حسم المعركة لصالحه، وردع خصومه عن بغيتهم إلا أن ذلك لم يثبط عزيمة عبدالعزيز بن عبدالرحمن ، ولم يحل دون جماح طموحه المتوثب ، بل زاد من توقده وإصراره على الكفاح والاستبسال، وعدم التواطؤ أو التنازل عن كل ما من شأنه أن يحقق أهدافه وآماله في استعادة ملك آبائه وأجداده مهما كانت النتائج ، ومهما كلفه ذلك من نفائس الأرواح والأموال .

وبدأ عبدالعزيز يُعرِّض لأبيه ويلمح له بمحاولة غزو الرياض من جديد ، إلا أن أباه كان يعْرض عنه ، ويتحاشى أن يناقش معه هذا الموضوع .

وأدرك بحدسه أن أباه لا يريد أن يخسره ، كما خسر أخويه « عبدالله وسعود » من قبل اللذين لقيا مصرعهما في إحدى معاركهم مع ابن رشيد ، وهو في الوقت ذاته لا يريد أن يشعره بالإحباط ، وكبت آماله والحيلولة دون تحقيق حلمه باستعادة ملكهم السليب .

ولحق ذات مرة بأبيه وهو يتنزه خارج المدينة ففاتحه بالأمر هذه المرة بجرأة وصراحة :

- إني على استعداد تام لغزو الرياض يا أبي .

فأعرض أبوه وزجره :

- قلت لك لا يا عبدالعزيز . . لا تفاتحني بهذا الأمر مرة ثانية .

وانتفضت أطراف الفتى ، وتعرق جسمه فألقى بعباءته أرضاً ، وشد على كتفي أبيه قائلاً بنبرة جريحة :

- اسمع يا أبتي . . .

وحدق الأب لحظات بوجه ابنه ليسبر غوره ، ويدرك مرامه ، فبادره عبدالعزيز قائلاً بانفعال :

- أنت الآن بين أمرين أحلاهما مر ، إما أن تأمر أحد رجالك بانتزاع رأسي من جسدي بسيفه فأفارق هذه الدنيا ، أو أن تأذن بخروجي من الكويت إلى الرياض .

وأطرق عبدالرحمن لحظات ثم قال متململاً :

- أنت تعرف ياعبدالعزيز أنني لا أقف حائلاً بينك وبين ما تعزم عليه ، ووالله ما منعني من الموافقة على خروجك إلاخوفي عليك من أن تلقي بنفسك أنت ومن معك إلى التهلكة ، كما أن حالنا الراهنة توجب علينا أن نتريث في الأمر ونتروى قليلاً ، ولا نستعجل كي نتدبر أمرنا ونحدد موقفنا إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً . . وما دمت مصراً على ذلك فإني أسأل الله لك التوفيق والسداد، وأن يكلل مساعيك بالنجاح والظفر .

عندئذ هرع الإمام عبدالرحمن إلى الشيخ مبارك في قصره، وأخبره بما دار بينه وبين ابنه فابتسم مبارك ابتسامة عريضة حتى بدت نواجذه ثم قال :

- هذا الفتى يا عبدالرحمن فتى رائع عظيم يندر وجوده بين أقرانه ، وإني على ثقة من أنه لا يقدم على الدخول إلى شيء قبل أن يعرف كيف يخرج منه .

وليس بمستغرب من فتى كعبدالعزيز أن يحن لمهده ومرابع صباه وأرض آبائه وأجداده .

وليكن بعلمكم يا أبا عبدالعزيز أنني موافق على ما ترونه، وما يتطلبه خروج الفتى من مال ورجال .

الفصل السادس

لما وافق الإمام عبدالرحمن والشيخ مبارك على خروج عبدالعزيز أقدم عبدالعزيز في صباح ذلك اليوم ممتشقاً سيفاً فارسياً طويل النجاد ، يقود حصانه بعناية مترجلاً ، حيث كان في توديعه كل من والده والشيخ مبارك الذي كان قد أمده بأربعين ذلولاً وثلاثين بندقية ، ومائتي ريال بالإضافة إلى ما يحتاجه من زاد ومؤن أخرى .

وتحرك عبدالعزيز من الكويت على رأس رجاله ومن أبرزهم عبدالله بن جلوي يقطع المسافات ، ويعد الليالي والأيام ، متجهاً إلى واحة « يبرين » في طريقه إلى الرياض التي تبعد عنها ما يقارب أربعمائة كيلومتراً ، ولاقى هو ورجاله من رحلتهم نصباً وضنكاً ، وقاسوا من العناء والمشقة وأهوال الطريق مالا يوصف .

وكان في طريقه يضم إليه بعض من أيّده من قبائل آل مرة والعجمان والسهول ، ولدى بلوغهم يبرين بعد مسيرة أيام أقاموا فيها وأسرع عبدالعزيز إلى تفقد رجاله ، والنظر في أحوالهم ومدى استعدادهم .

ولما علم عبدالعزيز بن رشيد بخروج عبدالعزيز بن عبدالرحمن إلى الرياض تظاهر بعدم الاكتراث واللامبالاة ، فأراد أن يظهر لخصومه أنه لا زال يحتفظ بقوته ، وأنه على استعداد لإثبات وجوده على ساحة الأحداث ، فأخذ يناوش الشيخ مبارك ويتحرش به فانقطع بذلك آخر سلك يربطه بالأتراك حيث نفضوا أيديهم منه ، وقاموا بقطع المعاش الشهري الذي تدفعه الدولة العثمانية مناصفة بين

أسرتي آل صباح وآل سعود، ووقفوا مكتوفي الأيدي يتفرجون على ساحة الأحداث من بعيد ليروا ما سوف تؤول إليه نتائجها التي ربما ترجح كفتهم بالإمساك بزمام الأمور والتصرف بإدارة دفتها كيفما يحلو لهم.

وكان شهر رمضان قد أدرك عبدالعزيز ورجاله في يبرين، فأقاموا بضعة أيام ليلتقطوا أنفاسهم، ويستريحوا من عناء الترحال، وليعيدوا ترتيب صفوفهم.

وبينما هم كذلك فإذا برجل يحث مطيته نحو مخيمهم، فأرسل عبدالعزيز إليه من يعترض طريقه قبل وصوله المخيم لاستطلاع أمره، فعلم أنه رسول أبيه إليه يحمل كتاباً.

ولما تسلم الكتاب من الرسول قام بقراءة ما جاء فيه علناً على مرأى ومسمع من رجاله، ثم قال وهو يحاول استطلاع الروح المعنوية لرجاله، ومدى استعدادهم لمرافقته:

- هذا كتاب والدي إليّ قرأته عليكم كما سمعتم ينصحني هو والشيخ مبارك بالعودة إلى الكويت، والآن.. أنا أترك لكم حرية الاختيار فيما ترونه، فمن أراد منكم العودة إلى أهله وذويه، وآثر الراحة والاسترخاء والأكل والشرب و النوم فإلى يساري، ومن أراد مرافقتي على الخير والشر، وعلى المصير الواحد بحلوه ومره فإلى يميني، فأنا لا أقبل أن أكون موضع ازدراء وتهكم من قبل أهل الكويت كبيرهم وصغيرهم، ووالله لن أحيد عما رسمته لنفسي من نهج سأظل عليه حتى آخر رمق من حياتي.

وتراجع بعض صحبه من أبناء القبائل بينما وثب الأربعون الأولون إلى يمينه مصلتين سيوفهم، وقد ثارت بنفوسهم العزة والأنفة والنخوة وهم يهتفون:

- نحن « أهل العوجاء » . . . نحن « أهل العوجاء» .

وهم يقصدون بـ « العوجاء » العارض التي عرف اعتزازهم وافتخارهم بها لدى وقوع الملمات والخطوب ، وبرز أحدهم من بين الصفوف وهو ينتفض حماساً قائلاً :

ـ والله لن نخذلك ياعبدالعزيز ، ولن نتراجع عما عاهدناك عليه من السمع والطاعة في كل صغيرة وكبيرة ، وليس هناك ما يجبرنا على ترك أهلنا وديارنا إلاّ محبتك في الله تعالى ، واقتناعنا بنبل أخلاقك وسمو هدفك ، وصدق نيتك وإخلاصك لله في القول والعمل .

وقد انضم إلى « أهل العوجاء» عشرون آخرون أو يزيدون من أبناء القبائل ، ومن ثم اتفق هؤلاء جميعاً ألا يفارقوا عبدالعزيز أو ينشقوا عنه مهما كانت الظروف والأحوال .

عندئذ التفت عبدالعزيز إلى رسول والده قائلاً :

- بلغ الوالد الإمام السلام . . وأخبره بما رأيت وما سمعت ، واسأله أن يدعو لنا بالتوفيق ، وقل له : إننا سنلتقي قريباً إن شاء الله في الرياض .

من هنا انطلق عبدالعزيز برجاله من يبرين متوجهاً إلى الرياض ، يجد بالسير ليلاً تحت ستار الظلام ، ويركن في بطون الأودية والشعاب نهاراً ليأمن عدم مراقبته أو اكتشافه من قبل عيون الجواسيس .

كانت ليلة من ليالي الشتاء الباردة حين ألقى عبدالعزيز ورجاله بعصا الترحال في موضع يدعى « أبا جفان » .

وكانت تلك الليلة هي ليلة عيد الفطر . . ليلة حالكة السواد تطرز سماءها نجوم فضية متلألئة غاية في الجمال والروعة ، فأقاموا ليلتهم تلك بـ « أبي جفان » وعيَّدوا فيه أول أيام العيد ، ثم قام عبدالعزيز بإرسال رجلين من رجاله هما « إبراهيم النفيسة» و « منصور بن حمزة » من أهالي الرياض لينطلقا متسللين تحت جلباب الظلام لعلهما يأتيانه بتفاصيل شاملة عن « عجلان العجلان » عامل ابن رشيد على الرياض ، وعن حرسه الشخصي وكيفية توزيعه في قصره ، وعن حراس البوابات الخارجية لسور المدينة ، وعن « العسس » الذين ينتشرون ليلاً بين الأحياء .

وقد اختار هذين الرجلين بالذات دون غيرهم لكونهما من أهالي المنطقة ، فهما أدرى بها وبمسالكها من غيرهم من رجاله .

وفي اليوم التالي أقبل رسولاه إليه يحملان إليه ما حصلا عليه من تفاصيل وأخبار عن الرياض وحاميتها ، فاجتمع بأبناء عمومته عبدالله وفهد وعبدالعزيز أبناء جلوي بن تركي ، وجميع الرجال المرافقين له ، وتحدث إليهم وهو يخطط بعصا دقيقة في يده على كومة من الرمل بقوله :

- بعد ساعات من الآن - أيها الرفاق - سنغادر « أبا جفان » من هنا إلى « ضلع الشعيب » على مقربة من المدينة ، ونبقي فيه عشرين رجلاً منا ينصبون خيامهم على شكل دائرة تناخ الإبل والخيول في إطارها الداخلي تفادياً لأي خطر مفاجىء ، ثم أمضي - أنا - بالأربعين الباقين منا إلى بساتين النخيل التي تقع هنا شرقي المدينة ، ولدى بلوغنا إياها فإننا سنبقي أيضاً ثلاثة وثلاثين رجلاً فيها بقيادة الأخ الأمير «محمد بن عبدالرحمن» وسأمضي بمن تبقى من الرجال خفية تحت الظلام لعلنا نجد موضعاً من سور المدينة المتهدم يمكننا من خلاله التسلل إلى حصن «المصمك» الذي تتحصن فيه الحامية .

فتحدث عبدالله بن جلوي معلقاً على ما أدلى به عبدالعزيز قائلاً :

- الحقيقة أن هذا توزيع جيد لقوتنا لا سيما وأننا قليلو العدد ، ولكن الشيء الذي أخشاه ، وآمل أن يكون بالإمكان تحقيقه هو مداهمتنا لعجلان وحرسه الخاص خارج الحصن الداخلي .

ومن ثم اغتنم فرصة مداخلة الحديث فهد بن جلوي حيث مضى قائلاً :

- أظنه ليس من السهولة بمكان أن ندخل الحصن الداخلي مباشرة إلا بطريقة واحدة .

وتساءل الجميع على لسان واحد :

- وما هذه الطريقة ؟

فاستطرد فهد معتمداً على معرفته الدقيقة بخارطة المدينة والجميع ينصتون إليه :

- الطريقة هي أن نتسلل في ساعة متأخرة من الليل بمحاذاة الحصن الخارجي ومن ثم نقوم بتسلقه إلى الداخل ، ونكون على حذر ويقظة من أن ينتبه لوجودنا صاحب البيت الطيني الواقع بمحاذاة السور والذي يدعى « جويسر » ، وهو فلاح يتاجر بالأبقار ، اعتاد عجلان ورجاله أن يتعاملوا معه .

وشارك بالحديث حول الموضوع عبدالعزيز بن جلوي الذي أضاف قائلاً :

- إضافة إلى ما قاله الإخوة فإنني أريد أن أقول إننا نحن معروفون لدى أهل الرياض جميعهم وبالأخص الأمير عبدالعزيز بن عبدالرحمن نظراً لطول قامته ،

وهيئته المتميزة التي تمكن الناس من تمييز شخصيته حتى في ظلام الليل، ولذلك فإنني أرى أن نحيط - نحن الستة أو السبعة المرافقين - بالأمير من اليمين واليسار لئلا يعرف شخصه ، وألا نستخدم إلا فوانيس خافتة الأضواء لتنير لنا الطريق إلى السور .

واكتفى الأمير القائد بما سمعه من آراء ومقترحات من رجاله حول مهمتهم ، فختم النقاش بقوله :

- شكراً لكم أيها الإخوة على ما تفضلتم به من آراء ستكون محل اهتمامنا جميعاً . . بقي لدي شيء واحد أريد قوله ألا وهو أننا سنلجأ إلى استخدام ثلاثة أساليب حربية في مهمتنا هذه أولها : توزيع قوتنا في أماكنها الصحيحة كما ذكرت آنفاً، وثانيها : لجوؤنا - نحن السبعة المتقدمين - إلى تسلق السور الخارجي ليلاً لعلنا نتمكن من الوصول إلى « عجلان » في قصره والإيقاع به ، وثالثها : أننا إذا لم نستطع العثور على «عجلان» نائماً في القصر فهذا يعني أنه قد بات في الحصن الداخلي كما يعتاد عليه أحياناً ، ولذلك فإنه يتوجب علينا - في تلك الساعة - أن ننتظر خروجه من الحصن صباحاً متخفين بين زوايا القصر حتى تتسنى لنا فرصة مهاجمته لدى خروجه على حين غرة .

ولدى انفضاض مجلس النقاش هرع الرجال للتحرك من « أبي جفان » ليلة الثالث من شوال تحت عباءة الظلام .

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساء ليلة الخامس من شوال حين بلغوا «ضلع الشعيب» على مسيرة ساعة ونصف للراجل من المدينة .

وهبت نسمة شتائية باردة داعبت أغصان الشجر وأعراف الخيول، وفاحت رائحة بساتين الرياض وبيوتها الطينية في أنفاس الرجال وهم يحطون خيامهم عن ظهور إبلهم وينصبونها على شكل دائري لتناخ الإبل والخيول داخلها.

وحسب ما اتفق عليه فقد أبقى الأمير القائد عبدالعزيز عشرين رجلاً عند الخيام في هذا الشعيب في حين مضى بالأربعين مترجلين سيراً على الأقدام حتى كانوا على مقربة من بساتين النخيل الواقعة بمحاذاة سور المدينة، فأبقى القائد لديها ثلاثة وثلاثين منهم بقيادة أخيه الأمير محمد، فتصافح الجميع وتعانقوا مودعين بعضهم، وقال الأمير القائد لأخيه محمد وهو يرخي عن فمه طرف عمامته التي تلثم بها لاخفاء ملامحه:

- الآن نترككم هنا في رعاية الله، فإذا لم يأتكم رسول منا غداً فاعلموا أننا استشهدنا في سبيل الله، وعليكم حينئذ أن تسرعوا للنجاة بأنفسكم، ولا تخاطروا بأرواحكم من أجلنا.

وتقدم الأمير القائد على حذر بالستة الباقين من رجاله إلى السور وهم عبدالعزيز وفهد وعبدالله أبناء جلوي وناصر بن سعود واثنان من خدمهم هما المعشوق وسبعان.

- خفوا أقدامكم بالوطء على الأرض.

- احذروا التعثر في أعجاز النخل الميتة.

- انحرفوا يميناً.. يميناً قليلاً.

- يا إلهي . . إنه ظلام دامس لا يرى أحدنا حتى يده .

- أرْخِ الفانوس قليلاً عن وجوهنا .

- اللهم ثبت أقدامنا وقلوبنا وخذ بيدنا .

- بمحاذاة السور . . بمحاذاة السور يا جماعة .

كانت هذه وشوشات وتمتمات يتهامس بها القائد عبدالعزيز ورجاله وهم يجرون خطاهم بتؤدة بمحاذاة السور بحذر شديد .

وكان عبدالعزيز يشير إلى رجاله إلى بيت « جويسر » صاحب البقر الذي لا يبعد عنهم إلا أمتاراً قليلة ، ليقوموا بولوجه ، لكونه يمثل حلقة الوصل بينهم وبين الحصن الخارجي .

وفجأة انطلق سرب من الحمام في الجو كان على فروع إحدى النخيل القريبة منهم ، فأحدث ذلك صوت خشخشة في سعف النخل أثار خوار بقرة من أبقار جويسر في الزريبة ، فتريث الرجال قليلاً إلى أن هدأ الجو ، وخيم الصمت ، ولم يلبث عبدالعزيز أن قفز سور البيت إلى داخله ، فطرق الباب فكلمته من ورائه امرأة :

- من بالباب ؟

فأجاب عبدالعزيز وهو يحاول أن يغير من نبرة صوته :

- أنا « ابن مطرف » أرسلني الأمير عجلان لشراء بقرتين من العم جويسر .

- عجباً لأمرك ! والله ما جئتنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل إلا لسوء .

- لا تظني بي ما ليس فيَّ يا « بنت الحلال » ومعاذ الله إن كنت قد جئت لريبة ، وإنما جئت أبغي صاحب البيت بأمر من الأمير .

- يا هذا . . . ؟ . . إذهب إلى حال سبيلك وإلا صحت بأهل الحي ليجتمعوا عليك ، ويريحونا من شرك .

ولما أدرك أنه لا جدوى من بقائه وراء الباب خاطب المرأة بلهجة أشد وبلسان حاد :

- الويل لك ولأبيك يا امرأة من الأمير عجلان ، إذا لم تفتحي الباب فإنه سيسلخكما سلخاً ، ويلقي بجثتيكما في العراء لتلتهمكما السباع والطيور .

فارتجفت المرأة ذعراً ، واستيقظ الفلاح جويسر على سماع أصوات تتبادل عبارات التقريع والوعيد ، فنهض من فراشه ودلف إلى الباب ففتحه نصف فتحة مطلاً بمقدمة رأسه في حين استغل عبدالعزيز ذلك فركل الباب بقوة بإحدى قدميه ثم ولج بجسمه كاملاً إلى الداخل مكمماً فم جويسر بإحدى يديه وهو يقول :

- إياك أن تتفوه بكلمة واحدة أيها الرجل وإلا انتزعت رأسك من بين كتفيك بهذا السيف .

وتتابع رجال عبدالعزيز من ورائه بدخول البيت ، وأغلقوا الباب بإحكام ، وأنشأت النساء تولول ، يسمع لهن غطيط ونشيج دون أن يرفعن أصواتهن بذلك ، فزجرهن الرجال .

- كفى ولولة .

- لا ترفعن أصواتكن ، ولن يلحق بكن أذى .

ولمحت إحداهن وجه عبدالعزيز على ضوء فانوس البيت المعلق بسلسلة طويلة تتدلى من السقف فصاحت مندهشة :

- من . . . ! . . . عمنا عبدالعزيز ؟

فأجابها وهو يشد وثاق أبيها :

- كوني على اطمئنان أيتها الفتاة ، ولن نمسكم بأذى .

حينئذ دفع بجويسر مشدود الوثاق إلى إحدى الغرف ، وأوصد عليه الباب ، في حين هرع الرجال إلى استياق الفتاتين إلى بيت مجاور مهجور وأغلقوه عليهما .

وأخذ الرجال المغامرون يفكرون - وهم في بيت جويسر - بكيفية تسلقهم السور ، فاتفقوا جميعاً على أنه لا يمكنهم ذلك إلا من خلال بيت آخر ملاصق لبيت جويسر ، فتسلقوا سطح هذا البيت .

عندئذ اطمأن الأمير القائد أن الخطة تسير على ما يرام كما خطط لها من قبل فأومأ للأميرين عبدالعزيز وفهد ابني جلوي بصوت خافت :

- أسرعا بالمضي إلى الأمير محمد ورفاقه ، ليأتونا حالاً هنا ، فإن الوقت يسرقنا .

وتريث القائد برجاله الأربعة الباقين يهيئون أنفسهم لتسلق السور ، وبعد مضي ما يقارب ساعة أو أقل من الزمن أقبل محمد ورفاقه ، فأبقاهم الأمير القائد في ذلك البيت ثم تواثب هو ورجاله خارج البيت إلى الحصن الخارجي ، وبقي محمد ورفاقه .

وكان الحصن عالياً يصعب على الرجل بمفرده تجاوزه ، فأرخوا سواعدهم وكواهلهم لبعضهم ، هذا يرتقي على متن ذاك حتى تجاوزوه إلى الداخل ، فكانوا على قاب قوسين أو أدنى من قصر الأمير عجلان .

- تفقدوا أسلحتكم جيداً وأضيئوا لنا الطريق .

قالها الأمير القائد مخاطباً رجاله الستة بصوت خافت ، وهم ينزوون بقرب بوابة القصر استعداداً لدخوله .

كان القائد متسلحاً بسيف بالإضافة إلى بندقية من نوع « موزر » أطلق عليها مسمى « عوافي » لأنه كان قليلاً ما يلجأ لاستخدامها في حروبه التي كان يخوضها معتمداً على السيف والرمح ، وكذلك كان بعض رجاله المرافقين يتسلحون بالسيوف والخناجر والحراب فقط باستثناء الأمير عبدالله بن جلوي الذي تسلح ببندقية أخرى كنوع من الاحتياط إلى جانب سيفه وحربته .

عندئذ تقدم الأمير القائد ورجاله وإلى جانبه أحدهم الذي كان يحمل شمعة صغيرة مضاءة ، فولجوا باب القصر يجوبون الغرف الداخلية ، وهم يجوسون الأرض بأقدامهم جوساً لئلا يفتضح أمرهم ، ففتحوا إحدى الغرف التي ينام فيها بعض الخدم ، فتنبه هؤلاء على صرير الباب المنفتح عليهم .

ومن ثم أخبرهم الخدم بمكان عجلان ، ومضوا يجرون خطاهم نحو آخر غرفة في القصر حتى وقفوا على بابها ، حيث أماط القائد عبدالعزيز لثامه عن وجهه ، وتحسس سيفه وحزام وسطه ، وكان قد حشا بندقيته بالرصاص تهيؤاً للدخول ، بينما وقف رجاله الستة على أهبة الاستعداد عن يمينه وعن يساره .

كان الرجال يتخطفون ملامح وجه قائدهم على ضوء الشمعة الخافت . . شرر مفعم بروح المغامرة يتطاير من عينيه . . عرق يسح من جبينه على قسمات وجهه كتفان عريضان ينوءان بحمالة البندقية وحمائل السيف بثبات وصرامة .

عندئذ اندفع القائد بكامل قوته على الباب فانفتح ، وانطلق كالبرق يتبعه أحد رجاله بالشمعة ، ولكنه لم يعثر على عجلان بل وجد امرأته لولوة بنت محمد بن حماد ، كان والدها أحد خدم الإمام عبدالرحمن فسألها عبدالعزيز عن عجلان فقالت :

ـ . . زوجي متحصن هو وثمانون من رجاله في الحصن الداخلي .

- في الحصن الداخلي ؟ . . ومتى يخرج ؟

- إن كان على عادته فسيخرج بعد طلوع الشمس بساعة ليستعرض خيوله في الساحة الواقعة ما بين القصرين ، ثم يأتي هنا ليتناول طعام الإفطار ، ومن ثم يتوجه للقيام بأعمال الإمارة والنظر في شؤونها ، أما المكان الذي يخرج منه فهو بوابة القصر الداخلي التي تتوسطها البوابة الصغيرة المسماة بـ « الخوخة » .

- حسناً . . . هذا كل ما نريد معرفته باختصار .

وانطفأت الشمعة لافظة آخر أنفاسها بعد ذبول فتيلتها في يد حاملها وهو يقول بأسف :

- يا الله . . لقد انطفأت شمعتنا . . أين نحن ؟

فابتسم عبدالعزيز وهو يهمس لصاحبه بدعابته المعهودة :

- ولكن نور الله لا ينطفىء أبداً يا صاحبي .

وأثناء ذلك كان رجال عبدالعزيز قد أحدثوا فجوة في طرف الجدار الذي يوصل إلى البيت الذي يقبع فيه الأمير محمد وصحبه خارج السور .

كان الليل في ربعه الأخير حين اجتمع القائد عبدالعزيز برجاله جميعهم داخل قصر الأمير عجلان، فانتشروا بين أرجائه ، وكسروا حدة جوعهم بما وجدوه من تمر وزاد ، ورطبوا جفاف حلوقهم ببعض الماء ، وشراب « القهوة » واستراحوا قليلاً يستردون أنفاسهم ، وقد لاحت خيوط الفجر الأولى في أطراف الدجى المدلهم :

- الله أكبر . . . الله أكبر .

كان هذا النداء لصلاة الفجر تشنف له الآذان وتطمئن به القلوب ، وتسكن به النفوس ليسري في أعماقها نوراً ربانياً يعتقها من الوحشة وغياهب الظلمات ، فعادت الذاكرة بعبدالعزيز إلى الوراء منذ أكثر من عشرين سنة عندما كان صبياً صغيراً يوقظه أبوه مبكراً لأداء صلاة الفجر معه في المسجد الجامع بالرياض .

فنهض ورجاله متضرعين لله بالدعاء، فتوضأوا واستقبلوا القبلة مؤدين لصلاة الفجر .

ولما انقضت الصلاة تحدث إليهم القائد فيما يخص مهمتهم ، وانتظروا سويعات قلائل مترقبين لظهور عجلان بفارغ الصبر .

وقد اتفقوا على أن يصعد بعضهم لغرفة علوية في القصر تشرف إحدى نوافذها مباشرة على باب الحصن الذي سيخرج منه عجلان لإشعار القائد وخمسة من رجاله الذين يتأهبون لملاقاة عجلان وقت خروجه لدى الباب الرئيس للقصر الذي يتمركزون فيه .

وطلعت الشمس صباح الخامس من شوال، وارتفعت في السماء قدر ثلاثة رماح ، وكانت لحظات عصيبة حين فُتحَ باب الحصن ، فخرج عجلان ومعه عشرة من خدمه قاصداً القصر الذي يتمركز فيه عبدالعزيز ورجاله ، وأخرج عبيده من ورائه بعض الخيول من الحصن لتشميسها في الساحة الواقعة بين القصرين فاغتنم القائد ورجاله فرصة انفتاح بوابة الحصن ، وانطلقوا كالسهام باتجاه عجلان وهم يصرخون بصوت عال :

- الله أكبر . . . الله أكبر .

فذهل عجلان في حينه، واندهش لهول المفاجأة ، ونكص على عقبيه بقصد اللجوء إلى الحصن ، فانقض عليه القائد عبدالعزيز بسيفه يتبعه خمسة عشر رجلاً من رجاله بينهم أخوه محمد وعبدالله وفهد أبناء جلوي ، فأسرع عجلان بالركض في حين أطلق عليه عبدالعزيز رصاصة من بندقيته أصابته في غير مقتل ، فمضى يجر خطاه لعله يتمكن من الوصول إلى البوابة ، ولكن لسوء حظه فقد أغلقت البوابة الكبيرة باستثناء البوابة الصغيرة التي تتوسطها والمسماة « الخوخة » فتداركه عبدالعزيز وهو يهم بإدخال جسمه إلى بوابة الخوخة ، ويرفع عقيرته بالصياح لرجاله ، فأمسك برجله محاولاً سحبه إلى الخارج ، ولكن عجلان سدد ركلة قوية أصابت عبدالعزيز في شاكلته وجعلته يهوي ساقطاً على الأرض ، لكنه سرعان ما نهض متنكباً بندقيته وهو يرفع صوته لرجاله لاستدراك عجلان :

- أنا أخو نورة (*) . . . أدركوه .

ولم يكن من فهد بن جلوي إلا أن قذفه بحربته التي أخطأته مستقرة في الباب حيث اندفع إليه عبدالله بن جلوي وثلاثة آخرون بقوة ليحولوا بينه وبين البوابة فبادر عبدالله في حينه إلى سيفه وأهوى به عليه حيث أرداه قتيلاً يتخبط في دمائه .

(*) نورة : هي أخت عبدالعزيز ونخوته التي يعتز بها .

وفي أثناء ذلك صعد رجال عجلان إلى برج الحصن ينهالون برصاص بنادقهم على من تحتهم من رجال آل سعود ، ويقذفونهم بالحجارة في حين أقدم من تبقى من رجال عبدالعزيز على اقتحام الحصن ، والنيران تحيط بهم ذات اليمين وذات الشمال .

ودارت معركة داخل الحصن ، فقتل رجال عجلان باستثناء عشرين منهم تحصنوا في أعلى البرج حيث جهر عبدالعزيز لهم بصوته :

- أيها الرجال . . لا تغامروا بأرواحكم ، فإنكم واقعون لا محالة ، وها هو أميركم قد لقي حتفه متمدداً في الساحة ، فعليكم أن تسلموا أنفسكم ، ونحن نعدكم ونعاهدكم على أن نؤمنكم على أرواحكم ، ولن نمسكم بأذى .

ولما رأوا أنه ليس هناك جدوى من قتالهم ، وأنه لا مهرب ، ولا منجى إلا بالاستسلام نزلوا من البرج ، وسلموا أنفسهم لآل سعود دون أن يمسوهم بأذى أو إساءة .

أما بالنسبة لرجال آل سعود فقد جرح منهم ثلاثة ، هم عبدالعزيز بن جلوي وإبراهيم النفيسة وصالح بن سبعان ، وقتل منهم اثنان هما زيد بن زيد وفهد بن الوبير .

عندئذ رفعت راية آل سعود خفاقة فوق القصر ، وخرج المنادي يجوب أحياء الرياض بصوت جهوري :

- الحكم لله ثم لعبدالعزيز بن عبدالرحمن . . . الحكم لله ثم لعبدالعزيز بن عبدالرحمن .

وخرج أهل الرياض في الشوارع الصغيرة ، وعلى سطوح بيوتهم الطينية يهللون ويكبرون مستبشرين بفتح مدينتهم ، واستئصال شأفة آل رشيد منها ، وعودة آل سعود إلى أرضهم بين أهليهم وذويهم .

وأقبل الأهالي جماعات نحو القصر للسلام على عبدالعزيز وتهنئته بما حققه من نصر ومبايعته على الحكم وعلى السمع والطاعة، وتجلت مظاهر فرحة الرياض وأهلها تلك الليلة البهيجة بخروج مئات الناس إلى الشوارع والأزقة وأصواتهم تتعالى بالتهليل والتكبير حيناً ، وبأناشيدهم وأهازيجهم الشعبية ، ورقصات العرضة النجدية حيناً آخر .

وأقبلت ثلة من العلماء والخطباء والشعراء على الأمير عبدالعزيز في قصره يهنئونه على هذا النصر المؤزر ، ويشيدون بمآثره ومفاخره ، وما حققه من نصر حاسم على خصومه وأعدائه ظلوا ينتظرونه سنوات طوالاً .

ولم ينس عبدالعزيز أبداً وهو في نشوة النصر أن يأمر رجاله بإعادة ترميم وبناء السور المتهدم تحسباً لأي ردة فعل متوقعة من عبدالعزيز بن رشيد ، وتم ذلك خلال خمسة أسابيع تقريباً .

كما أنه قام مسرعاً بإعادة تنظيم جنده تنظيماً شبه عسكري ، ومن ثم أرسل لأبيه في الكويت خطاباً يبشره بأنه وفق لدخول الرياض واستعادة ملكهم السليب ، ويرجو منه أن يأذن لأخيه سعد بالقدوم إليه ومن معه من أنصار آل سعود في الرياض لمؤازرته في أمره ريثما تلحق بهم بقية الأسرة .

الفصل السابع

لم يرد عبدالعزيز بُعَيْد استعادته للرياض ، واستتباب الأمر له فيها أن يستثير حفيظة عبدالعزيز بن رشيد أو نزقه أو استفزازه لئلا يصطدم بقوته التي تفوقه عدداً وعدة .

وهو يعلم أن معظم أهالي المناطق المجاورة كـ« سدير » و « الوشم » و«حريملاء» من الموالين لآل سعود ، وليست هناك صعوبة في تجديد ولائهم لهم ، فرأى أنه ليس من الحكمة أن يسعى - وهو في الحالة الراهنة - بتوسيع سلطانه شمالاً تجنباً لمجابهة ابن رشيد ، بل ركز اهتمامه على التوسع جنوباً ، فاستولى على «الخرج» و « الحوطة » و « الحريق » و « الأفلاج » وضمها تحت حكمه .

ثم ما لبث أن واصل فتوحاته حتى بلغ « وادي الدواسر » المتاخم لصحراء «الربع الخالي» .

ووصلت الأخبار عبدالعزيز بن رشيد في حائل الذي لم يبال كثيراً بالأمر للوهلة الأولى لكونه منشغلاً بالتفكير بغزو الكويت ، واحتلالها لعلمه أن الكويت هي القيادة المركزية الرئيسة لخصومه من الأسرتين الصباحية والسعودية ، وأنه بمجرد سقوطها في يديه فإنها ستنقطع جميع شرايين القوى الأخرى المضادة له ، والتي تمدها هذه القيادة بالحركة والحيوية والنشاط .

وفي الكويت كان الإمام عبدالرحمن وابنه سعد جالسين إلى جانب الشيخ مبارك في قصره يتجاذبون أطراف الحديث ، فإذا برسول عبدالعزيز يدخل عليهم ملقياً السلام فتناول الإمام الخطاب منه وقام بقراءته :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل إلى الوالد الإمام عبدالرحمن بن فيصل حفظه الله تعالى آمين

بعد مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام مع السؤال عن حالكم لا زلتم بحال خير وسرور ، أحوالنا من كرم الله جميلة . بعد ذلك نعرفكم ونبشركم بدخولنا الرياض بعون الله تعالى فاتحين صباح الخامس من شوال عام ١٣١٩هـ ، ونحن ورجالنا جميعاً بخير ولله الحمد ، ولم ينقصنا إلا وجودكم بيننا ، ولذلك فإننا نأمل منكم حفظكم الله أن تأذنوا لأخينا الأمير سعد ومن معه من أنصارنا بالقدوم إلينا في الرياض لمؤازتنا .

أحببنا بشارتكم بذلك راجين أن ينصر الله دينه ويعلي كلمته ويوفقنا وإياكم للخير آمين .

هذا ما لزم تعريفه فتفضلوا بتبليغ السلام خاصة نفسكم وللأهل والإخوان ومنا جميع الإخوان والرفاق يسلمون ودمتم محروسين .

ابنكم عبدالعزيز

وكاد الإمام يطير من كرسيه الذي يتربع عليه فرحاً لما جاء في خطاب ابنه البطل المنتصر في حين قذف الشيخ مبارك بعباءته التي يرتديها عن ظهره عالياً وهو يردد بفرح وسرور غامر لم يستطع أن يتمالك نفسه حياله :

- عشت يا عبدالعزيز !! عشت يا عبدالعزيز !!

ومن ثم رفع الإمام ومجالسوه أيديهم لاهجين بدعاء الله وشكره على ما منَّ به عليهم من نصر وظفر على أعدائهم ومناوئيهم .

وفي صباح اليوم التالي قام الإمام بإرسال ابنه سعد على رأس عدد من أتباعهم إلى الرياض فودعه قائلاً :

- بلغ أخاك السلام، وأخبره أننا بخير، وبشره بأن زوجته قد وضعت مولوداً أسميناه « سعود» .

ثم قال الشيخ مبارك وهو يعانق سعداً :

- بلغ الأمير عبدالعزيز السلام يا ولدي ، وهذه رسالة مني إليه .

ومضى سعد مغادراً الكويت برجاله إلى الرياض .

وفي أثناء ذلك كان الأمير المنتصر عبدالعزيز يفكر بضم ما تبقى من أقاليم نجد تحت سلطانه بعد أن أحكم قبضته على ما بين الرياض والربع الخالي ، فراح ينضم تحت لوائه بعض زعماء القبائل النجدية ، وتوالى بعضهم الآخر يتقربون إليه راغبين في كسب وده وصداقته لحمايتهم من ابن رشيد وقسوته عليهم .

لقد رأى عبدالعزيز أن فتحه الرياض والاستيلاء على ما جاورها ليس إلا بداية لسلسلة طويلة من المعارك والصراع والحروب التي يجب عليه أن يخوض غمارها ويعد لها ما استطاع من قوة، ليوسع سلطانه خارج الرياض ليشمل أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة العربية .

وذات يوم وبينما كان جالساً في قصر الحكم كعادته للنظر في أمور دولته ، فإذا بأخيه سعد يدخل عليه برفقته بعض رجالهم قادماً من الكويت ، فعانقه وضمه إلى صدره بشغف :

- أهلاً وسهلاً ومرحباً بك وبمن معك يا سعد . . إن سعادتنا لا توصف لرؤيتنا وجوهكم الطيبة .

وجلس سعد إلى جانب أخيه قائلاً ودموع الفرح تترقرق في عينيه :

- أدامك الله وحفظك يا أخي ، ونحن نحمد الله على ما تفضل به علينا إذ وحد كلمتنا ، وأمدنا بنصره وعونه ولمّ شتاتنا .

- كيف حال الوالد الإمام ، والوالدة العزيزة والإخوان ؟

- كلهم بخير ويبلغونكم السلام ، ونبشرك بأن زوجتك قد وضعت مولوداً .

- مولوداً ؟!

- نعم . . . نعم مولوداً أسميناه « سعود » .

وتهلل وجهه بالفرح ثم رفع يديه :

- اللهم بارك لنا فيما رزقتنا . . . الحمد لله . . . الحمد لله .

ثم سأله :

- وماذا عن الشيخ مبارك وأبنائه ؟

- الشيخ مبارك يبلغك السلام .

ثم أخرج سعد من جيبه رسالة ناولها عبدالعزيز وهو يقول :

- هذه رسالة الشيخ لك .

فقام عبدالعزيز بفضها وقراءة ما جاء فيها :

- ولدي العزيز ، تولاك الله وعافاك وقواك ، وجعل النصر دائماً أخاك .

فابتسم عبدالعزيز وقد اطمأن كثيراً لسماعه آخر ما توصل إليه من أخبار عن أبيه وأهله وذويه ، ونادى خدمه في القصر :

- عجلوا بإعداد وليمة عظيمة، فإننا سنحتفل هذه الليلة بمناسبة قدوم أخينا الأمير سعد ورجاله، وادعوا لحضورها كبار أهالي الرياض وأعيانها.

وبعد أيام فكر عبدالعزيز بالخروج لغزو قبائل قحطان الموالية لابن رشيد، وبإرسال أخيه الأمير محمد لغزو قبائل «عتيبة» على مقربة من موضع يدعى بـ«الشَّعْراء».

ولم ينطلق تفكير عبدالعزيز من هذه النقطة إلا بعد أن رأى أن الأمور قد استقرت له، و أنه قد آن الأوان لتوسعه شمالاً، على الرغم مما يتوقعه من مجابهة ابن رشيد له، إلا أنه لم يتراجع عما عزم عليه مهما كانت نتائج هذه المجابهة خاصة بعد أن أرسل إلى أبيه في الكويت يستوفده إلى الرياض هو ومن معه من أفراد الأسرة وبقية أنصارهم لمؤازرته والوقوف إلى جانبه.

حينئذ تحرك عبدالعزيز على رأس جيشه زاحفاً من الرياض لغزو قحطان، بينما انطلق أخوه محمد بجيش آخر لغزو «عتيبة».

ووصل ابن رشيد وهو نازح إلى «الحفر» من حائل خبر استفحال أمر عبدالعزيز في أطراف نجد، وأخذت الأخبار تتوارد إليه بين الحين والآخر تتناقلها الناس وتتحدث فيها عن تحركات ابن سعود، وغاراته وصولاته وجولاته على كل من يعترض طريقه أو يحاول الوقوف دون الهدف الذي نذر لتحقيقه حياته وسيفه وجواده وعنفوان شبابه.

وأحال عبدالعزيز بن رشيد نظره عن الكويت إلى الرياض بعد إدراكه خطورة أمر عبدالعزيز بن سعود، وكأنه قد وخز للتو بإبرة حادة في رأسه أفاقته من غيبوبة

أحلامه، وأعادته إلى رشده وصوابه، ليعلم ويدرك في رابعة النهار أن جهوده وسعيه لاحتلال الكويت والقضاء على خصومه فيها قد باتت ضرباً من الأوهام الزائفة، وذهبت أدراج الرياح، وأنه لا بد له من أن ينصرف بتفكيره كلية إلى الرياض التي أصبحت بالنسبة له هي الهدف الأول والأخير الذي لا ينبغي عليه أن يغض طرفه عنه ولو لحظة واحدة.

وقفل عبدالعزيز بن رشيد، بجيشه عائداً إلى حائل بعد أن أيقن بضرورة إعادة النظر في الأمور من زاوية تختلف عما كان من قبل، وأخذ يعزز قواه ويجمع حوله أعداداً كبيرة من قبيلة «شَمَّر» وبعضاً من أهالي «القصيم» ممن يتبعونه مكرهين إتقاء شره وبطشه.

والحقيقة أن عبدالعزيز بن رشيد لم يكن ممن يستهان بقوته أبداً، وإنما كان رجلاً شجاعاً، وفارساً صنديداً يحسب له خصومه ألف حساب، إلا أنه كان مكابراً، متهوراً، مستبداً برأيه، خشناً ينقصه التروي في الأمور، وعدم إحسانه معاملة الناس، وانتهاجه السياسة المثلى لكسب ود زعماء القبائل بدلاً من نفورهم منه لسوء معاملته وتجنباً لبطشه وجبروته.

جمع ابن رشيد كبار رجاله وقال لهم:

- ليكن بمعلومكم أيها الرجال أننا سنزحف غداً إلى الرياض.

أما عبدالعزيز بن سعود في الرياض فقد كان يهيىء نفسه استعداداً لملاقاة عبدالعزيز بن رشيد الذي يتوقع هجومه بين حين وآخر.

وكان ابن سعود على العكس من خصمه ابن رشيد، وعلى رغم ما بينهما من فارق كبير في السن رجلاً يتصف بالحكمة والحنكة، والتأني في الأمور وسعة

الصدر، إضافة إلى ما يتحلى به من أخلاق فاضلة تمثلت بحسن معاملته لرجاله وأصدقائه والموالين له، وإكرامهم وتجاوزه لأخطائهم، والعفو عنهم، لا سيما إذا كانت هذه الأخطاء صادرة عن حسن نية.

وبينما كان عبدالعزيز يعد العدة لمجابهة ابن رشيد فإذا برجل يزف إليه خبر قدوم والده من الكويت إلى الرياض، فخرج بمحفل كبير لاستقباله على مسيرة ثلاث ليال منها حيث التقى الوالد وولده يضمان بعضهما بحرارة وشغف وشوق عظيم، وعاد الإمام وأسرته إلى الرياض بعد غيابهم عنها ما يقارب أحد عشر عاماً.

وأطلق الإمام تنهيدة حرّى من صدره وهو يتجول بين أحياء الرياض برفقة ابنه عبدالعزيز في طريقهما إلى قصر الحكم ثم قال بفرح يعتريه شيء من ألم الماضي:

- آه يا عبدالعزيز.. ها نحن قد عدنا إلى الرياض يا ولدي بعد سنين طوال مرت بنا.

وأعلن الإمام عبدالرحمن أمام الملأ البيعة لعبدالعزيز بالحكم وعانق الابن أباه، فاستغل الأب هذه المناسبة حيث قام بإهداء ابنه سيف «سعود الكبير» وهو سيف درج على توارثه مجموعة من أمراء آل سعود له نصل دمشقي وقراب مرصع بالفضة ومقبض مُحلّى بالذهب.

وبلغ عبدالعزيز بن رشيد - وهو في طريقه إلى الرياض - خبر عودة الإمام وأسرته إليها من الكويت، وما حدث بشأن مبايعة عبدالعزيز بن سعود أميراً عليها، فثارت ثائرته، وأسرع بتحريك جيشه زاحفاً إلى الرياض.

ولم يكن ابن سعود أقل من خصمه ابن رشيد حيطة وحذراً حيث وصلت إليه أنباء تحركه وتعسكره في «بنبان» أحد المواضع القريبة من الرياض.

فاجتمع عبدالعزيز برجاله اجتماعاً طارئاً ، ثم قال مخاطباً والده الإمام :

- يا له من متهور هذا الرجل . . إنه ما زال يحلم بدخول الرياض على جثث أهلها ، وفي كل يوم يأتي إلينا من أبناء القبائل من يشكو قسوته واضطهاده .

فقال الإمام وهو يستقرىء الأحداث السياسية الراهنة على الساحة :

- لقد خذله الأتراك منذ مدة وتخلوا عنه ، ولم يلق من مراسلته لهم ومحاولة استمالتهم إليه من جديد إلا الصد والجفاء ، وها هو الآن يحاول أن يعوض ما يشعر به من نقص ليهاجمنا ، ويحاول النيل منا . . لكننا سنسد الطريق في وجهه ، ولن نتركه يعبث كيفما يحلو له .

ولجأ عبدالعزيز وأبوه إلى استحداث إشاعه ستتناقلها الناس حتى تبلغ ابن رشيد ، وهي أنه قد حدث خلاف بين عبدالعزيز وأبيه مضمونه أن الأب قد وعد أهالي الرياض بأن يأخذ لهم الأمان من ابن رشيد ، بينما خالفه الابن في الرأي وخرج إلى الدلم عن الرياض التي هي مركز قيادتهم لئلا يلحق بها دمار الحروب وخرابها .

وإبعاداً للشكوك التي تحوم حول صحة هذه الإشاعة فقد خرج عبدالعزيز بجيشه من الرياض ، ولم ينس قبيل خروجه أن يبقي حامية على حدودها قوامها ألف رجل مسلح .

والتف حول عبدالعزيز عدد كبير من أهالي « الخرج » و « الحوطة » الذين كان قد ذَكرهم بما كان عليه أسلافهم الموالون لآل سعود وعاهدهم على حمايتهم والحفاظ على سلامة أرواحهم وأموالهم إن هم انضموا اليه ، فازداد جيشه حتى أصبح ألفا وخمسمائة مقاتل .

وتحقق الهدف المنشود من هذه الإشاعة حيث تحرك ابن رشيد متجنباً الرياض إلى الدلم للإيقاع بعبدالعزيز ، ولم يعلم أنه قد وقع في الفخ الذي نصب له .

وفي غضون ذلك كان عبدالعزيز قد وزع جيشه توزيعاً جيداً على جبهة القتال في نواح متفرقة من الدلم ، وأمضى نحو ليلتين يتفقد جيشه ويعزز مواطن الضعف فيه مرتقباً هجوم ابن رشيد .

وبينما كان عبدالعزيز يتجول بين البساتين القريبة من الدلم في ظهيرة اليوم التالي فإذا بمناد ينادي :

- ابن رشيد يتقدم نحونا . . ابن رشيد يتقدم نحونا .

فقفز معتلياً ظهر جواده متقدماً جيشه وإلى جانبه الأمير عبدالله بن جلوي وحامل راية آل سعود « ابن مطرف » حيث نشب قتال عنيف بين الجيشين حتى غياب الشمس .

ولم ير ابن رشيد بداً من التقهقر إلى الوراء باتجاه « السلمية » وذلك بعد أن خارت قواه ، وانكسر جيشه فلاحقه عبدالعزيز في السلمية إلا أن ابن رشيد كان أسرع منه في الانهزام إلى الشمال حيث قفل عبدالعزيز عائداً إلى الرياض بعد أن أسفرت المعركة عن نصره وانكسار خصمه .

ومضت أشهر وابن رشيد يعاني من ألم مرارة الهزيمة التي لحقت به على يد ابن سعود في الدلم فكانت سبباً في خفوت لمعان نجمه بين أهالي نجد ، باديتهم وحاضرتهم ، فراودته فكرة الغزو وإعادة الكرة مرة ثانية ، حيث أرسل سرية بقيادة عامله « حسين بن جراد» إلى القصيم ، ليؤدب بعض أهلها ممن خذلوه ، وانصرفوا عن ولائه لابن سعود ، فنزل هذا بسرية في بلدة « السر » جنوبي القصيم ، فنهض عبدالعزيز بقوة من الرياض حتى شارف على « السر » .

وهناك احتدم القتال بينه وبين ابن جراد قرب قرية تدعى « الفيضة» مما أدى إلى مقتل ابن جراد، ومعظم رجاله وهروب من تبقى منهم لائذين بالفرار بأرواحهم.

ولما عاد عبدالعزيز إلى الرياض عاودته فكرة الرجوع إلى القصيم ودخولها مرة ثانية قبل أن يسبقه ابن رشيد في النزوح إليها.

كما أنه قد راودته فكرة استخدام الإشاعة كما فعل من قبل لعله يوهم ابن رشيد بأنه ينوي الرحيل إلى الكويت، وليس في نيته دخول القصيم.

عندئذ خرج برجاله يحث السرى تحت الظلام الدامس حتى دخل القصيم من الناحية الجنوبية فعسكر على مقربة من «عنيزة» التي كانت تحتلها سرية تابعة لابن رشيد بقيادة رجل يدعى « فهيد السبهان».

وانتظر عبدالعزيز طلوع شمس الصباح لينال هو ورجاله قسطاً من الراحة كي يستعدوا لمهاجمة ابن سبهان.

ولما كان الصباح هاجم السرية، وتمكن بسهولة من إيقاع الهزيمة بها وقتل قائدها، حيث رفع أهل عنيزة رايات الاستسلام، وأعلنوا تجديد ولائهم لآل سعود.

ثم عرج على بريدة، فأعلن أهلها استسلامهم وتحصنت حاميتها من قبل ابن رشيد في إحدى القلاع إلا أنهم لم يلبثوا أن سلموا أمرهم له في نهاية المطاف.

أما عبدالعزيز الرشيد في حائل، فقد بدأ وضعه السياسي والأمني يسوء يوماً بعد يوم لا يدري ماذا يفعل حتى ينقذ نفسه من هذا الخطر الداهم الذي يحيط به، وينذر بانهيار دولته، إلا أنه ـ كعادته ـ لم يكن يبدي لأحد من رجاله شعوره بالأسى وخيبة الأمل، بل كان يظهر اعتداده بنفسه، وعدم استسلامه للواقع المرير، وإن كان يعرف في قرارة نفسه أنه واقع لا محالة.

الفصل الثامن

لقد كان لتوالي انتصارات عبدالعزيز بن سعود على خصومه صدى بعيدٌ في أطراف نجد ملفتٌ للنظر خاصة من قبل الدولة العثمانية التي أقلقها سطوع نجمه وامتداد سلطته ونفوذه إلى أنحاء متفرقة من شبه الجزيرة العربية مما يهددها بضياع مصالحها في المنطقة ، ويحول دون تحقيق أهدافها وأطماعها التي قضت سنين طويلة من عهودها في سبيل الوصول إليها والاستئثار بها دون غيرها من شعوب الأمم الأخرى التي تنافسها في ذلك كالإنجليز والفرنسيين والروس والألمان وغيرهم .

وعلى رغم أن الدولة العثمانية قد ضعفت روابط علاقاتها بآل رشيد عما كانت عليه في السابق ، ولأنها كانت في حيرة من أمرها لعدم مقدرتها - في آن واحد - على مناوأة آل سعود الذين أصبحوا طرفاً لا يستهان به من أطراف النزاع على المنطقة واستمالة حلفائهم آل صباح الذين توثقت علاقتهم بالإنجليز ، ولذلك فقد عمدت إلى خطب ود الشيخ مبارك والاستئثار بصداقته تجنباً للوقوع في مجابهة مع الإنجليز ، وإعادة النظر في علاقتها بابن رشيد من جديد لمساندته خفيةً ومساعدته في استعادة قوته للقضاء على دولة آل سعود .

أي أنهم يريدون - ببساطة - أن يشعلوا نار الفتنة بين الأطراف الأربعة : آل سعود وآل رشيد من جهة ، وآل صباح والإنجليز من جهة أخرى ليظلوا متفرجين على ساحة النزاع والصراع من بعيد ، وبالتالي فإنه سيتحقق لهم تفكيك هذه القوى

وانهيارها مما يفسح لهم المجال - في حينه - لإثبات شخصيتهم، واستعادة نفوذهم بالاستيلاء على المنطقة.

ولما رأى ابن رشيد أنه لا طاقة له بحرب آل سعود من جهة، ومناوأة آل الصباح وحلفائهم الإنجليز من جهة أخرى، انطلق من حائل متنقلاً بين أطراف «العراق» يستنهض بعض قبائل «شمر» هناك، ويستنجد بكبار قادة الدولة العثمانية لمناصرته.

وبالطبع فقد رحب «الباب العالي» - في اسطنبول - بهذه الدعوة التي جاءت في وقتها المناسب، واستجاب لها بإمداد ابن رشيد بكل ما يحتاج إليه من الرجال والسلاح والمال والمؤن نكاية بآل سعود وآل الصباح والإنجليز.

ثم رجع ابن رشيد من العراق يجر أحد عشر طابوراً من جنود الدولة، بالإضافة إلى عدد كبير من شمر متجهاً إلى القصيم في طريقه إلى الرياض.

وكان عبدالعزيز - حينئذ - في «بريدة» عندما علم أن ابن رشيد يزحف إليه، فعقد اجتماعاً عاجلاً بحضور ابن جلوي وكبار قادته ورجاله:

- تعلمون أيها الإخوة أن ابن رشيد قادم إلينا يجر طوابير العثمانيين، وما التف عليهم من قبائل شمر، ولكننا لن نترك له الفرصة ليهاجمنا في بريدة مركز قيادتنا الحالي، وسنحاول أن نستدرجه خارجها إلى سهل «البكيرية».

فبادره ابن جلوي بقوله:

- مرنا أيها الأمير القائد بما تراه، ولن نخالف لك أمراً.

فتريث عبدالعزيز قليلاً ثم قال:

- إنني أرَى ضرورة تقسيم جيشنا إلى قسمين على جبهتين ، بحيث يكون القسم الأول هم أهل « العارض » وسأتولى - أنا - قيادتهم مباشرة لقتال ابن رشيد وقبائل شمر .

أما القسم الثاني فهم أهل القصيم ومن لحق بهم ، وسأولِّي قيادتهم للأمير عبدالله بن جلوي لقتال طوابير الجيش العثماني .

وأذعن الجميع لفكرة قائدهم حول توزيع قوتهم العسكرية على جبهة القتال فتحركوا حسب خطتهم المرسومة إلى سهل البكيرية في حين حط ابن رشيد بجيشه على مقربة منها .

كانت ليلة صيفية ظلماء رغم اعتدال جوها بين البرودة والدفء حين التحمت الجيوش ، فتقدم عبدالعزيز بأهل الرياض لقتال ابن رشيد ، في حين تقدم ابن جلوي بأهل القصيم لقتال جنود الجيش النظامي العثماني الذي كان قد نصب المدفعية من وراء تل عال يحول بينهما .

ولكن من الأخطاء العفوية التي وقع فيها ابن جلوي ورفاقه أنهم قد ضلوا طريقهم للالتفاف من وراء التل العالي الذي يحتمي به العثمانيون ليرسلوا قذائف مدفعيتهم باتجاه هدفهم .

وكان الظلام دامساً حين ترك ابن جلوي ورفاقه المتسللون تحت الظلام ذلك التل على يسارهم ليجدوا أنفسهم فجأة خلف خيام ابن رشيد ورجاله من شمر ، فحدثت بينهم مناوشات خفيفة لكون قائدهم ابن رشيد مشغولاً في تولي قيادة مقدمة جيشه ضد عبدالعزيز .

وكان عبدالعزيز قد علم بتورط ابن جلوي ومن معه خلف خيام ابن رشيد فأخذ يشاغله حتى تمكن ابن جلوي من الالتفاف من جهة أخرى منضماً إلى صفوف جيش آل سعود ليكون القتال بين الجيشين وجهاً لوجه .

واستمر القتال ساعات طويلة من تلك الليلة، لا يرى فيها إلا قدح نيران البنادق، ولا يسمع فيها إلا أزيز الرصاص وصليل السيوف ، وزمجرة المدفعية وأصوات قذائفها المدوية ، وأنين الجرحى وصهيل الخيول ورغاء الإبل .

كان كل من القائدين ابن سعود وابن رشيد يتحين الفرص للإيقاع بالآخر من على ظهر جواده، وهما يصولان ويجولان بين صفوف الجيشين المتقاتلين ، لكن الظلام الحالك ، وتصاعد غبار المعركة في الجو لا يساعدان على الرؤية الجيدة .

ولكن عبدالعزيز ابن سعود تمكن من رؤية ابن رشيد عن بعد، رؤية غير واضحة ميّزها وجود راية ابن رشيد التي كان يحملها رجل يدعى « الفريخ » والذي عادة ما يكون قريباً جداً من القائد .

فهَمّ ابن سعود بالاقتراب منه لكونه على مسافة تقصر دونها رمية الرمح ، وبينما هو كذلك فإذا بقذيفة مدوية تسقط على مقربة منه هو وحامل رايته « ابن مطرف » مما أدى إلى سقوطه أرضاً وانقلاب جواد ابن مطرف على ظهره وسقوط الراية .

وقد نتج عن ذلك إصابة عبدالعزيز بشظايا القذيفة في يده ، وكان ابن جلوي على مقربة منه حين صاح به عبدالعزيز :

- الراية . . الراية يا عبدالله .

فهرع إليه عبدالله ثم سأله وهو يتحسس جسمه بيدين مرتعشتين لشدة خوفه على قائدهم :

- يا أبا تركي . . هل أصبت بشئ (*) ؟

(*) أبو تركي هي كنية عبدالعزيز .

فنهض عبدالعزيز متثاقلاً وهو يرفع يده المصابة ليكف نزيف الدم ثم قال بهدوء أعصاب :

- لم أصب بشيء يا عبدالله ، لكن أسرعوا بحمل الراية ورفعها عن الأرض .

واختطف عبدالله الراية من الأرض ثم قفز على ظهر جواده في حين قرب له أحد رجاله جواداً آخر امتطى صهوته بدلاً من جواده الذي سقط أرضاً فاندقت عنقه ، وحمي وطيس المعركة حتى طلع الفجر ، مما أسفر عن رجحان كفة ابن رشيد ، وتقهقر ابن سعود بجيشه إلى عنيزة ، لعله يعزز قوته من جديد ويجمع فلول جيشه .

وفي أيام قلائل استطاع ابن سعود أن يجمع حوله من قبائل عتيبة ومطير وغيرهما عدداً كبيراً ضمهم إلى جيشه الذي أصبح عدده يفوق عشرة آلاف مقاتل .

وفي الوقت ذاته تحرك ابن رشيد من البكيرية قاصداً « الخبراء» للقضاء على من فيها من حامية آل سعود ، فتحصنت هذه الحامية ، وما كان من ابن سعود إلا أن استغل فرصة خروج ابن رشيد من البكيرية فهاجمها ، ولما علم ابن رشيد بذلك قام بأمر « سلطان الحمود » أحد كبار قادته بمحاصرة « الخبراء » على رأس ألف وخمسمائة رجل ، ومن ثم عاد إلى البكيرية بمن تبقى من جيشه للتصدي لابن سعود دون مركز قيادته وذخائر جيشه ومؤنه .

وهناك في البكيرية احتدمت المعركة من جديد حيث حسمت نهايتها لصالح ابن سعود مما اضطر ابن رشيد لمغادرتها إلى الخبراء ، فلحق به ابن سعود ، ولما علم سلطان الحمود الذي كان مرابطاً بجيشه لمحاصرة الخبراء تركها منضماً إلى ابن

رشيد الذي نزل بكامل جيوشه على قرية صغيرة تدعى « الشنانة » في الجهة الجنوبية من « الرس » في حين عسكر خصمه ابن سعود بجنده على مقربة منها .

وعلى هذا النحو ظل الجيشان يتناوشان ويتقاتلان حيناً ويلجآن للمهادنة حيناً آخر مدة ثلاثة أشهر .

ومن الطبيعي أن يُخيّم على الجيشين طابع الملل والرتابة والشعور بالسأم ، وسير الأحداث على وتيرة واحدة دون ترجيح كفة أي منهما على الآخر بشكل يحسم هذا الصراع طيلة هذه الشهور الماضية .

ولأن الربيع قد بدأ ينشر خضرته ورونقه على وجه الأرض فقد عمد كثير من أبناء القبائل البدوية المنضم إلى الجيشين بمغادرة ساحة المعركة بعد أن ملوا القتال والكرّ والفرّ ، وذلك للحاق بأهليهم وذويهم المربعين بمواشيهم ودوابهم في أماكن متفرقة من نجد حيث الخضرة والمرعى والماء والكلأ .

ولم يكن من ابن رشيد - حينئذ إلا أن قام بالنزوح إلى « قصر ابن عقيِّل » شمال الرس محاولاً أن يستدرج ابن سعود شيئاً فشيئاً ، كي يتمكن من إيغاله في ديار قبائل شمر .

وهكذا تابع ابن سعود تقفيه لأثر ابن رشيد ، فأجلاه عن « قصر ابن عقيِّل » حتى أوصله « وادي الرمة » فأناخ فيه ابن رشيد بجيشه ، وذخائره ومؤنه ، وأمر بنصب المدافع ، وإعداد الجند وبناء الخيام استعداداً للطوارىء .

ولما كان ضحى أحد الأيام شن ابن سعود ورجاله غارة شعواء على ابن رشيد المخيم على ضفاف « وادي الرمة » ومضت مقدمة الجيش السعودي تصدح بأعالي أصواتها لتشعل الحماس في نفوس مقاتليها :

- صبحناكم لا صبَّحتكم العافية . . صبحناكم لا صبَّحتكم العافية ! !

ودارت رحى الحرب الضروس بين الفريقين من الصباح حتى منتصف النهار مما أدى إلى تخلخل في بناء صفوف الجيش النظامي العثماني ، وتراجع مقدمة جيش ابن رشيد إلى الخلف ، وعدم تمكن ابن رشيد من السيطرة على تفكك وحدات جيشه التي أصبحت كحزمة الحطب المتناثرة في كل اتجاه .

وهذا ما كان له الأثر الكبير في ترجيح كفة الجانب السعودي على أرض المعركة حيث اضطر العثمانيون للتخلي عن المدافع ، وأماكنهم من الجبهة ، ونيران البنادق تنهال عليهم من كل حدب وصوب ، فلاذوا بالفرار ، ولحق بهم قائدهم ابن رشيد ، ومن بقي معه من رجاله على قيد الحياة ، تاركين وراءهم غنائم كثيرة من مدافع وأسلحة وذخائر ومؤن وخيول وإبل كانت كلها من نصيب الجيش السعودي .

وكان من بين هذه الغنائم صناديق ذهب قام ابن سعود بتقسيمها بين رجاله . لقد كان لمعركة « الشنانة » والمعارك الأخرى التي كانت امتداداً لها أثر كبير في ترسيخ قدم ابن سعود في نجد ، وانحسار النفوذ التركي ، ورفع يد ابن رشيد عنها وذلك بتحطيم آخر معاقله فيها .

وعلى رغم ما لحق بابن رشيد من هزائم نكراء ، ونكسات حربية مؤلمة على يد خصمه ابن سعود إلا أنه ما زال يحدوه أمل بكسر شوكة خصمه ، وتحطيم قاعدة حكمه في الرياض ، وتعويض ما فقده من هيبته ، ونفوذ سلطانه في القصيم على الأقل .

ومن هنا استطاع أن يتصل بكرسي الخلافة العثمانية في « الآستانة » يطلبه التدخل في الأمر ، ويخبره أنه غير قادر بمفرده على مواجهة الواقع المرير الذي

يحيط به ، فأمر السلطان العثماني والي« البصرة » أن يستدعي الإمام عبدالرحمن بن سعود لمفاوضته في « الزبير » بالعراق بشأن حربه مع ابن رشيد .

ولم يكن الشيخ مبارك الصباح - حينئذ - بعيداً عن ساحة الأحداث ، حيث كتب إلى عبدالعزيز بن سعود طالباً منه اقناع والده بالموافقة على السفر إلى العراق لبحث هذه المفاوضة ، وفكر الإمام ملياً بهذا الموضوع ، فسافر إلى الكويت ليبحث الموضوع مع الشيخ مبارك وجهاً لوجه ثم انتقل الاثنان « عبدالرحمن ومبارك » للاجتماع بوالي « البصرة » في « الزبير » .

وهناك تحدث إليهما الوالي بقوله :

- إن السلطان العثماني قد رغب بالوساطة بين آل سعود وآل رشيد ، لفك نزاعهما والإصلاح بينهما .

فسأله الشيخ مبارك ، وهو يعرف أن هذا الكلام ما هو إلا « مخدر » يخدر الأوجاع لكنه لن يزيلها :

- ولكن هلاّ وضحتم لنا - أيها الوالي - مضمون هذه الوساطة ؟

فأجابه الوالي وهو يرسل نظره إلى الإمام عبدالرحمن :

- نعم . . . نعم بكل تأكيد . . لقد اقترح السلطان أن تكون القصيم منطقة عسكرية محايدة بين حائل « قاعدة حكم ابن رشيد » وبين الرياض « قاعدة حكم آل سعود » على أن تتولى الدولة أمر هذه المنطقة المحايدة ، والإشراف عليها إلى أن تقوم الدولة - بنفسها - بإخلاء هذه المنطقة من قواتها العسكرية ، وإعادتها إلى أهلها أو أصحاب الحق فيها .

فاستشف الإمام من حديث الوالي أن الدولة لا تنوي فك النزاع، كما تتظاهر به، وإنما تريد أن يكون لها نفوذ قوي، يغذي الصراع المحلي، ويضمن لها البقاء في المنطقة.

فتحدث الإمام إلى الوالي، وهو يكتم عدم قناعته بمبدأ هذه المفاوضة قائلاً:

- لن نعدكم بالموافقة على هذا الاقتراح - أيها الوالي - قبل أن نعرضه على أهل القصيم ونجد ونستشيرهم في أمرهم.

وانفض مجلس المفاوضة حيث عاد الشيخ مبارك إلى الكويت بينما اتجه الإمام عبدالرحمن إلى نجد.

وبعد مضي أشهر قلائل أيقنت الدولة أن مفاوضتها تلك مع آل سعود وآل صباح لم تسفر عن شيء، وأن أولئك لم يعيروا دعوتها للصلح - كما تزعم - أي اهتمام فأرسلت اثنين من كبار قادتها هما «أحمد فيضي باشا» و «صدقي باشا» وبرفقتهما طوابير من الجند التركي لعلهما يستأنفان المفاوضات مع الإمام عبدالرحمن وابنه عبدالعزيز من جديد.

وكانت الذريعة التي يتذرع بها الأتراك هي أنهم قد أتوا كطرف محايد للسلم، ولم يأتوا محاربين أو مقاتلين.

وكان هذان القائدان قد التقيا بابن رشيد من قبل فعرض عليهما أن يستولي على القصيم بالقوة والإكراه، إلا أنهما لم يوافقاه على ذلك.

ومن هنا انطلق أحمد فيضي باشا لمفاوضة عبدالعزيز المعسكر بقوته في «العمار» جنوب عنيزة، بينما طلب صدقي باشا من عبدالعزيز أن يستدعي والده للقدوم من «الوشم» لمفاوضته في عنيزة أيضاً.

ودارت المباحثات حول طاولة المفاوضات من جديد ، ومضت أشهر أخرى دون أن تسفر عن شيء فيما يتعلق بالصلح ، وجلس الأتراك بين آل سعود وآل رشيد لا يحركون ساكناً ولا يسكنون متحركاً .

ولما أدرك ابن رشيد أنه ليس هناك جدوى من تذرعه وتوسطه بالأتراك عزم في قرارة نفسه على استخدام القوة والسلاح معتمداً على أساليب المناورات العسكرية من كر وفر ، وتراجع وانسحاب ، ومباغتات نظراً لقلة جنده ، حيث تخلى الكثيرون منهم عن صفوفه .

لقد أصيب بخيبة أمل لدى علمه بانقطاع المفاوضات بين الأتراك وآل سعود ، وكان في حينه - معسكراً بجنده بقرية تسمى « الكهفة » إحدى القرى التابعة لحائل ، وكان يتلقط أخبار ابن سعود ، ويراقب حركاته وسكناته ، ليقتنص الفرص المناسبة للنكاية به .

ولقد علم أن الشيخ قاسم بن ثاني « شيخ قطر » قد استعان بخصمه عبدالعزيز ابن سعود لمساعدته في إخماد ثورة اندلعت في قطر ، وأن والده الإمام قد بقي في القصيم ، فاستغل فرصة غيابه وهاجمها ، فتصدى له الإمام ومن معه من أهل القصيم ، وتقهقر ابن رشيد حيث نزل في « روضة مهنا » على مقربة من بريدة في حين عاد عبدالعزيز من قطر إلى القصيم .

والتقى عبدالعزيز بوالده فحدثه قائلاً :

- لقد استغل ابن رشيد فرصة غيابك يا ولدي فهاجمنا غير أنه لم يظفر بشيء ، وهو يعلم تماماً أنه يسير في طريق مسدود .

لكننا لا بد أن نضع حداً لهذه المأساة التي جرها ابن رشيد على نفسه وعلى من هم معه بعد أن هجره حلفاؤه الأتراك .

- نحن لا نريد أن نسيء لأحد يا أبي، كل ما نريده أن يعود ابن رشيد إلى رشده.

فأحجم الإمام قليلاً ثم قال :

- كنت قد أرسلت الأسبوع الماضي عدداً من العلماء والدعاة إلى أنحاء متفرقة من القصيم، وحائل لتوعية أهاليها بأمور دينهم ودنياهم، حتى تتفتح عيونهم وقلوبهم على ضرورة التمسك بالدين وتحكيم شرع الله في كل صغيرة وكبيرة من حياتهم، وترك الفتن والتناحر وسفك الدماء، ومجانبة الأهواء.

- جعل الله ذلك في موازين حسناتكم يا أبتاه، وأعاننا على جمع صفوف المسلمين وكلمتهم تحت راية التوحيد والجهاد.

ثم رفع بصره إلى السماء واستطرد :

- حسبنا الله ونعم الوكيل .. كنت قد نويت الحج هذا العام غير أنني شغلت بحربنا مع ابن رشيد والأتراك.

وبعد أيام أتى عبد العزيز من أهالي القصيم أن ابن رشيد لا يزال معسكراً في «روضة مهنا» وأنه يرسل جواسيسه بين الأهالي والمدن والأسواق لتقصي أخباره وأنبائه، مرتقباً أقرب الفرص المواتية للهجوم.

وما أن علم عبدالعزيز بذلك حتى خرج برجاله في ليلة شتوية باردة، مظلمة، عاصفة ممطرة إلى حيث يعسكر ابن رشيد.

وكان ابن رشيد قد شدد من حراساته حول معسكره في حين تسلل عبدالعزيز ومن معه إلى أحد جوانب المعسكر، مستغلين سوء الأحوال الجوية، إلا أنه قد تنبّه لوجودهم بعض الذين رفعوا أصواتهم :

- ابن سعود يداهمنا ... أفيقوا من سباتكم ياقوم !!

والتحم الفريقان في معركة ضارية ضرباً بالسيوف وطعناً بالحراب والخناجر ورمياً بالبنادق وكراً وفراً على ظهور الجياد تحت هزيم الرعد ووميض البرق الذي يكشف بعضاً من ملامح الوجوه في ظلام تلك الليلة .

حينئذ كان ابن رشيد يتنقل بين صفوف جيشه على جواده الأدهم بمهارة الفارس المقدام وجرأة القائد المحنك ليحث جنده ، ويشعل في نفوسهم الحماس للصمود على أرض المعركة .

وكان حامل راية ابن رشيد هو « عبدالله الفريخ » بينما كان حامل راية آل سعود هو « ابن مطرف » .

كان ابن سعود على جواده الأشقر المحجل ، يحاول الاقتراب من ابن رشيد ليسدد إليه ضربة من رمحه لولا أن هناك مجموعة من الفرسان حالت بينهما .

وكانت الكارثة لابن رشيد حين تبدلت مواقع الجيشين على ساحة القتال ، فرأى ابن رشيد راية السعوديين التي يحملها ابن مطرف على بعد مرمى الرمح منه ، فظن أنه حامل رايته عبدالله الفريخ ، ولم يستطع أن يميز رؤيته تحت الظلام ، وثوران الغبار ، فالتبس عليه الأمر وانطلق نحوه بسرعة البرق على ظهر جواده الأدهم وهو يصيح به ويسأله عمن حوله من فرسانهم :

- « من هنا يالفريخ ؟ من هنا يالفريخ ؟ » .

وفجأة وجد ابن رشيد نفسه محاطاً بهالة من فرسان آل سعود ، فعرفوا صوته واستبشروا بهذا الصيد السمين الذي وقع في فخهم فتنادوا :

- ابن رشيد . . ابن رشيد .

وسرعان ما انهالوا عليه برصاص بنادقهم، ونصال سيوفهم وحرابهم، حتى خر قتيلاً من على ظهر جواده.

فصار جيش ابن رشيد كالرعية بلا راع لدى علمهم بمقتل قائدهم، لا يعرفون كيف يلمون شتاتهم على ساحة القتال يناورون ويراوغون لتجنب مواجهة آل سعود، ولم يلبثوا أن تركوا الساحة، ونكصوا على أعقابهم منسحبين، وقد ذاقوا مرارة الهزيمة، والشعور بالإحباط وخيبة الأمل.

وسار الركبان بالأخبار يتناقلونها بين بادية العرب وحاضرتهم عن مقتل ابن رشيد في « روضة مهنا » وهزيمته النكراء على يد خصمه ابن سعود، فجن جنون الدولة العثمانية لسماعها هذا الخبر الذي لم تستطع تحمل مجرد الحديث فيه، أو ذكره بين الناس، إلا أنها كتمت غيظها، وقامت بإرسال « سامي الفاروقي » أحد كبار قادتها لمفاوضة عبدالعزيز في « البكيرية » بشأن إقرار السلم في المنطقة.

وكان متعب بن عبدالعزيز بن رشيد قد خَلَف أباه بعد مقتله على إمارة حائل، واعترف هذا بسلطان آل سعود في القصيم ونجد على أن ينحصر حكم الرشيد في حائل وجبل شمر فقط.

ومن ثم التقى ابن سعود بالفاروقي في البكيرية، فتحدث الفاروقي بكلام ينم عن عدم لباقته، وألقى الكلام على عواهنه دون تفكير قائلاً:

- إن أهل القصيم قد استنجدوا بالدولة لحمايتهم، وكثرت شكاواهم وتذمرهم من فقدان الأمن.

فأحجم عبدالعزيز لحظات وهو يتفحص وجه الفاروقي ثم أشار إلى الحاضرين قائلاً:

- هؤلاء أعيان القصيم يا سامي باشا عن يميننا وعن يسارنا ، فإن كانوا قد استنجدوا بكم - كما تزعم - فإنهم أدرى بمصلحتهم ، ولن نجبرهم على مالا يرتضونه لأنفسهم، لا أنا ولا أنت .

فنهض « ابراهيم الرشودي» أحد أعيان بريدة من مقعده ، وهو يقول مخاطباً الجميع :

- هذا الكلام غير صحيح أيها السادة ، وما يزعمه سامي باشا ليس له شيء من الصحة، ونحن - أهل القصيم - لم ولن نتبع بولائنا إلا لآل سعود، ولن نرتضي عنهم بديلاً مهما كانت الأحوال .

فنظر عبدالعزيز إلى سامي وهو يقول :

- ها أنت قد رأيت بعينك ، وسمعت بأذنك يا باشا .

فلم يكن من سامي - حينئذ- إلا أن قال ببجاحة وحمق ورعونة :

- أنتم أناس تجهلون مصلحتكم ، وتعلمون أننا لم نأت لسلب حقوقكم أو إنكارها - كما تظنون - بقدر ما نحن آتون لإثباتها وحمايتها من عبث أشراركم .

وأظن أن « الدولـــة العلية » كفيلة باستخدام السيف لإخضاعكم لأوامرها و . . . و . . .

فقاطعه عبدالعزيز بنبرة حادة وقد اتسعت حدقتا عينيه غضباً :

- « يؤسفني أن توكل الدولة أمورها إلى مثلك ، وما كان العرب يا سامي ليطيعوا صاغرين، لا والله، ولولا أنك ضيف عندنا ما تركناك تقوم من مكانك» .

فاستشاط الباشا غضباً، وغادر مجلس عبدالعزيز وهو يتأفف متضجراً.

وفي مساء ذلك اليوم نفسه أرسل عبدالعزيز في أثر سامي باشا من ينذره بقتال ابن سعود إن كان مصراً على استخدام السيف كما تفوه به في مجلسه، غير أن الرسول عاد ليخبر عبدالعزيز أن الباشا لا يريد حربه، وإنما يريد الإقامة في القصيم مسالماً.

وسكت عبدالعزيز على الأمر أياماً حتى علم أن سامي باشا الفاروقي ينوي أن يشد رحاله إلى حائل ليستنجد بمتعب الرشيد ضده، فأرسل إليه ليخيره بين أمرين: أولهما: أن يغادر بجيشه ليعسكر في «السر» كي تنقطع صلته بمتعب، وثانيهما: أن يتولى عبدالعزيز بنفسه ترحيل جيشه بالقوة، وإبعاد العراقيين الذين قدموا مع موكب فيضي باشا إلى العراق، والشاميين الذين جاءوا بمعية صدقي باشا إلى المدينة.

وليس هناك خيار ثالث لهذين الأمرين إلا الحرب.

وفكر الفاروقي ملياً في الموضوع، فوافق مرغماً على ترحيل جيشه إلى السر، واختار لنفسه مسالمة ابن سعود تجنباً لحربه.

وبلغ السلطان العثماني «عبدالحميد» في الأستانة موقف عبدالعزيز من القادة الأتراك وجنودهم، واحترامه مبادىء السلم والمفاوضات السياسية، وعلاقات الجوار، فأرسل إليه خطاباً يشكر فيه قيادته المحنكة، وزعامته الفذة، وبعد نظره السياسي.

وبعد أيام أوعزت الدولة إلى الفاروقي أن ينتدب أحد رجاله ليعرض على عبدالعزيز أن يعترف بسيادتها مقابل عشرين ألف ليرة، وبعض المخصصات المالية التي تدفع له سنوياً فنهر عبدالعزيز المندوب وزجره بقوله:

- أغرب عن وجهي أيها الخبيث، وبلغ أسيادك أننا لا نقبل الرشوات والمساومات على بلادنا، فالمسألة ليست بيعاً وشراء، وإنما هذه البلاد وأهلها أمانة في عنقي سيسألني الله عنها حياً وميتاً، ولن نتنازل عن شبر واحد من أراضينا حتى لو دفعتم لنا كنوز الأرض، ولن نسلم أمرنا إليكم، ولو أنني أعتبرك ضيفاً في بيتي لقطّعْتُك بهذا السيف إرباً إرباً.

وانصرف المندوب إلى سيده الفاروقي الذي كتب بدوره إلى السلطان العثماني عن حكاية مندوبه مع عبدالعزيز مما أزعجه وأقلقه كثيراً بشأن عدم اعتراف ابن سعود بسيادة الدولة.

ولما صفا ملك القصيم ونجد لآل سعود، وبعد خروج الأتراك منها أراد عبدالعزيز أن يزيل ما بين العائلتين (آل سعود، وآل رشيد) من ضغائن وأحقاد خلفتها تلك الحروب الطاحنة التي دارت بينهما ردحاً من الزمن.

إلا أن ذلك الصفو قد عكره قيام «سلطان بن حمود الرشيد» هو وأبناء عمومته باغتيال ابن عمهم متعب الرشيد، وتولي سلطان الحكم في حائل، ونقض الصلح الذي كان قد اتفق عليه متعب مع عبدالعزيز ابن سعود.

عندئذ خرج سلطان الرشيد يستنهض قبائل شمر، وأهالي القصيم ضد ابن سعود من جديد، وقد لبى دعوته هذه، والوقوف إلى جانبه زعيمان كبيران خرجا عن طاعة عبدالعزيز هما «فيصل الدويش» زعيم مطير، و«نايف بن هذال» أحد رؤساء عنزه.

وكانت المصيبة أدهى وأمر حين لمس عبدالعزيز من الشيخ مبارك الصباح - أقرب أنصاره إليه - ميولاً لمصالحة ابن رشيد، إلا أنه لم يقطع الشك باليقين بما يخالجه ويدور في خلده، لا سيما أنه لا يزال يراسل الشيخ مبارك بين حين وحين فيخاطبه على عادته بـ«يا والدي» ويجيبه الشيخ بـ«يا ولدي».

ومن هنا اندلعت المعارك من جديد بين سلطان بن رشيد ، وعبدالعزيز بن سعود، واستمرت شهوراً طويلة حتى كانت المعركة الفاصلة بينهما في موضع يدعى « الأشعلي » قرب « النفود» حين انكسر جيش سلطان أمام جيش آل سعود وعاد يجر أذيال الهزيمة إلى حائل .

ودبت الخلافات والفتن في بيت آل رشيد على إمارة حائل ، حيث ثار «سعود ابن حمود الرشيد» على أخيه سلطان فقتله ، غير أن سعود هذا لم تطل مدة حكمه، فقد قتله ابن عمه « سعود بن عبدالعزيز الرشيد» مستولياً على الإمارة في حين هرب « فيصل الرشيد » ومن معه من آل رشيد وأتباعهم من « الجوف » التي كان أميراً عليها والتابعة لإمارة حائل لاجئاً إلى عبدالعزيز بن سعود في الرياض الذي عفا عنه، وقابله بالصفح ، وأكرمه وأحسن إليه .

الفصل التاسع

كانت الدولة العثمانية ، بعد أن أوشكت إمارة حلفائها آل رشيد على الانهيار قد وضعت عيونها وآذانها على جميع تحركات ابن سعود وسكناته، وكان يغيظها كثيراً ما تراه بين حين وحين من توسع نفوذه، وبسط سلطانه في شبه الجزيرة، والتفاف كثير من زعماء القبائل وأبنائها حوله ، وخاصة القبائل النجدية كعتيبة ومطير وغيرهما .

ولأن مفاوضاتها معه قد باءت بالفشل الذريع ، ولم تستطع استمالته كما استمالت كثيراً من زعماء العرب ، فقد لجأت إلى أساليب أخرى تمثلت في تحريضها لخصومه عليه ، ومحاولة انفضاض القبائل البدوية من حوله ، ونفور مناصريه منه .

وكان عبدالعزيز - في الوقت ذاته - يدرك ما تحمله الدولة عليه من حقد وبغض وكراهية ، وما تضمره له من عداوة ، تجلت في تأييدها لحكم « الأشراف » في « الحجاز » ، ودعمها لولاية « الأحساء » التي يقوم عليها أحد متصرفيها ، ليكون ذلك بمثابة العقبة التي تقف في وجهه ، وتعرقل مسيرته الرامية إلى تأسيس دولة مستقلة قاعدتها الرياض ، وحكامها آل سعود .

ورنا عبدالعزيز بنظره إلى الأحساء لتحقيق غايتين أولاهما : تخليص أهلها من استبداد عناصر الترك الذين عاثوا في الأرض فساداً ، ولم يأبهوا بسلب حقوق الناس ، وضياع ممتلكاتهم على أيدي اللصوص ، وقطاع الطرق حتى انعدم الأمن ،

وخاف التجار من أهل المنطقة على تجارتهم وأموالهم، فانتقلوا إلى مناطق أكثر أمناً مما كان له أثر في حدوث المجاعات، ونقص الغذاء وارتفاع أسعاره. وثانيهما: إيجاد منفذ له على البحر لاستخدامه عسكرياً وتجارياً.

من هنا قرر عبدالعزيز أن يقوم بإرسال مندوبه «أحمد بن ثنيان» إلى والي «بغداد» جمال باشا الملقب بـ «السفاح» ليفاوضه بشأن الأحساء، وما وصل إليه حال أهلها من سوء الظروف المعيشية والأمنية.

فلم يكن من جمال باشا إلا أن رد على ابن ثنيان بغلظة، وغرور وحقد أعمى بقوله:

- «إن ابن سعود لا يعرف مقامه، وقد غره أن صفح عنه المشير فيضي باشا، فإذا كان لا يقبل بما تطلبه الحكومة فإن في إمكاني أن أخترق بلاد نجد من الشمال إلى الجنوب بطابورين فقط».

ولما بلغ عبدالعزيز ذلك كتب إلى جمال قائلاً:

- «قلتم إنكم تستطيعون بطابورين أن تخترقوا نجداً من الشمال إلى الجنوب، ونحن نقول: سنقصر لكم الطريق، وذلك قريباً إن شاء الله تعالى...».

وما كادت تمضي أشهر قلائل حتى خرج عبدالعزيز بجيش قوامه تسعمائة مقاتل زاحفاً إلى الأحساء، حيث نزل موضع يسمى «السيفة» لا يبعد إلا ميلاً واحداً عن «الهفوف».

وكان قد أرسل قبيل زحفه من رجاله من يقوم بإخبار أصدقائهم من أهلها مثل «آل سويلم» و « القصيبي » و « العجاجي » و « الغنيم » كي يطمئنوا ويلزموا بيوتهم إلا عند الضرورة حتى تضع الحرب أوزارها .

كان الليل قد أرخى سدوله حين فكر عبدالعزيز بـ « الهجاد » ـ وهو الهجوم ليلاً ـ فقام بإرسال دفعة من رجاله إلى « الكوت » الذي تتحصن فيه حامية الترك ليمحصوا الطريق أمامه ، وكان قد أوصاهم قبيل انطلاقهم بأن يلزموا الصمت ، وأن يتحركوا مترجلين متسللين خفية تحت الظلام .

ولدى بلوغهم الكوت فإن عليهم الدخول من بابه والفتك بمن يتعرض لهم من الحرس ، وإن كان مغلقاً فعليهم أن يتريثوا قليلاً حتى يلحق بهم قائدهم وبقية الرجال حسب ما يسمح به الوقت ليتعاونوا جميعاً على تجاوز الخندق الذي تم حفره حول الكوت ، ومن ثم القيام بتسلق جدرانه إلى الداخل .

كما أوصاهم أيضاً بعدم التعرض بأذى للأطفال والنساء والشيوخ والمسالمين .

وفعلاً تحركت الدفعة الأولى كما خطط لها القائد في حين تقدم القائد بدفعة أخرى إلى قصر المتصرف العثماني لأسره أو القضاء عليه ، بينما أمر الدفعة الثالثة بأن تقتفي أثر الدفعة الأولى لتحيط بأسوار الحصن من الخارج وتكون مساندة لها .

وكانت الدفعة الأولى ، قد حملت معها بعض جذوع النخيل ، ولدى وصولها الكوت وجدته مغلقاً ، فتجاوزت الخندق وهناك تم شد الجذوع إلى بعضها بحبال متينة لتكون بمثابة السلالم على أسوار الكوت الخارجية حيث بدأ الرجال التسلُّق في حين أخذ حرس الأبراج يرفعون أصواتهم ويسألونهم :

- من هناك ؟ من أنتم ؟

ولكن المتسلقين لم يجيبوا على هذه التساؤلات ، بل مضوا بالتسلق صامتين كما اتفقوا عليه مما حمل الحرس على إطلاق نيران بنادقهم عليهم .

وقد استطاع المتسلقون بعد عناء من الهبوط على من بداخل الكوت والاشتباك مع من فيه من الحامية .

وأحدث ذلك ضجة وصخباً تنبه إليه أهل المدينة وحاميتها ، وكان عبدالعزيز - إذ ذاك - قد توجه إلى منزل المتصرف ، لكنه لم يعثر عليه لكونه قد احتمى هو ومن معه من الأتراك بحصن آخر فحاصروهم .

وبينما هم كذلك فإذا برجل من آل سعود ينادي من على برج الكوت :

- الملك لله ثم لابن سعود . . من أراد العافية يلزم مكانه .

وخرج الأهالي في تلك الليلة يهللون ويكبرون ، ويرحبون بابن سعود وهم يرددون :

- أهلاً وسهلاً . . سمعاً وطاعة .

أما المتصرف ومن معه فقد بقوا متحصنين يحاصرهم عبدالعزيز من الخارج حتى بزغ الفجر .

كان الوقت يمضي سريعاً حين فكر المتحصنون بالخلاص من هذا الطوق الرهيب الذي يحاصرهم من الخارج ، فأطلقوا رصاص بنادقهم وقذائف مدافعهم من داخل الحصن على غير هدى ، وبعشوائية طائشة محاولين إرهاب محاصريهم ، وتفريقهم .

إلا أن ذلك لم يُجْدِ شيئاً حيث بعث عبدالعزيز إليهم أحد الضباط الأتراك ليخبرهم أن إصرارهم على التحصن ، وإطلاق النيران لن ينفعهم شيئاً ، وأن عليهم أن يسلموا أنفسهم ليضمنوا سلامة أرواحهم ، والعودة إلى أهليهم دون أن يتعرضوا لأذى أو ضرر ، وإلا فإنهم سيكونون الطرف الخاسر في هذه المعركة لا محالة وضحية تعنتهم وعنادهم .

عندئذ وافق المتصرف والمتحصنون معه على تسليم أنفسهم لا سيما وأن عبدالعزيز قد وعدهم بأن يؤمنهم على أرواحهم ، هذا وهم يعلمون أن ابن سعود قد عرف بين الناس بالوفاء بوعده ، وعدم نقضه ما يلتزم به لغيره ، على عكس ما عرف به بعض قادة الحروب من عدم البر بالوعد ، واللجوء إلى البطش والعنف في كثير من الحالات .

ولما استسلم المتحصنون أمر عبدالعزيز رجاله ألا ينتزعوا من الأتراك أسلحتهم الشخصية كالسيوف والخناجر والبنادق ، أما المدافع والذخائر فلا ينبغي أن يأخذ المستسلمون منها شيئاً ، بل يجب أن تبقى في مكانها .

وهكذا استولى ابن سعود على الأحساء وتوابعها ، وأمر بإحضار الركائب لترحيل الأتراك بعائلاتهم عنها يرافقهم أحمد بن ثنيان ليقوم بخفارتهم وحمايتهم ممن يتعرضون طريقهم حتى يصلوا أحد موانىء الخليج العربي ليستقلوا من هناك المراكب والسفن إلى ديارهم .

وقد رضخت الدولة العثمانية للأمر الواقع ، ورأت ضرورة تغيير سياستها تجاه آل سعود ، ومعاملتهم بالتودد والتحبب ، وإلا فإنهم سيقفون في وجهها سداً منيعاً ليس من السهولة اجتيازه أو تخطيه .

عندئذ قامت بإرسال السيد « طالب النقيب » إلى ابن سعود ليفاوضه بإمكانية موافقته على أن يكون هناك معتمدون للدولة في « القطيف والأحساء » وتبادل علاقات الصداقة والمصالح العامة، ولم يكن من عبدالعزيز إلا أن بادر السيد «طالب» بقوله :

- إننا غير موافقين أبداً على وجود معتمدين من قبل الدولة في الأحساء ، إلا أننا في الوقت ذاته لا نمانع من أن تكون علاقتنا بكم علاقة ولاء وصداقة وإخاء على أن تمدونا بما نحتاجه من ذخائر وأسلحة وأموال .

فأجابه السيد طالب :

- ولكن لا بد لنا من أن نعرض ذلك على الحكومة - أيها الأمير - فأمهلونا أياماً كي نراجع « الباب العالي » بشأن ما طلبتموه منا .

وبعد أيام قليلة أتى أمر السلطان العثماني بالموافقة على منح ابن سعود لقب «والي نجد ومتصرف الأحساء» وتقليده « النيشان العثماني » ورتبة الوزارة .

ولم يكن « الشريف حسين » في الحجاز حينئذ بعيداً عما يحدث بين العثمانيين وآل سعود، بل ركز اهتمامه ، وجل تفكيره فيما ينبغي عليه فعله تجاه تجاهل الدولة له، وتضاؤل حجمه في الوقت الذي تعير فيه كل اهتمامها وحرصها لآل سعود، وتدعم كيانهم السياسي في شبه الجزيرة بالقوة والمال .

وبذلك كان الشريف حسين قد اتخذ موقفاً عصيباً من آل سعود من قبل ، كان سببه اختلافهما على بلدتي « تربة » و « الخرمة » الواقعتين على حدود إمارتيهما مطالباً بضمهما إلى مكة .

وعلى الرغم من أن عبدالعزيز كان قد أرسى دعائم حكمه على قاعدة متينة من رجاله ومناصريه إضافة إلى ما تبذله الدولة في سبيل إرساء دعائم هذا الحكم إلا أنه لم يأمن موقعه بين قوتين لا زالتا تسعيان جاهدتين للتربص به ومحاولة إسقاطه إلى القاع قبل اعتلائه القمة.

كانت هاتان القوتان هما الشريف حسين « ملك الحجاز » غرباً وابن رشيد في الشمال الغربي، ولذلك فقد كان عبدالعزيز ـ وهو في هذه الحالة ـ بحاجة إلى مؤازرة الشيخ مبارك الصباح له، الذي كان كثيراً ما يراسله باعتبارهما صديقين حميمين تجمع بينهما وبين أسرتيهما « آل الصباح » و«آل سعود » مواثيق وعهود قديمة على الهدف المشترك والمصير الواحد.

وكان مبارك قد أرسل إلى عبدالعزيز قبيل اتفاقه وعقده صلحاً مع الأتراك رسالة قال فيها:

- «من حقي عليك يا ولدي ألا تقبل وساطة هؤلاء إلا في بلدك الكويت...».

إلا أن عبدالعزيز - إذ ذاك - قد وافق مبدئياً على الصلح مع الأتراك، ولم يغير رأيه حول هذا الاتفاق على رغم من إلحاح مبارك عليه.

ذلك لأنه قد أدرك خطورة وضعه لا سيما وأنه قد وضع اللبنات الأولى لأساس حكمه في شبه الجزيرة، كما أن الظروف السياسية التي تعيشها المنطقة تحتم عليه أن يوطد علاقته بالأتراك ليساعدوه، ويقفوا إلى جانبه بدلاً من أن يكونوا ضده.

ثم إن « إنجلترا» قد تنبهت للنفوذ « الألماني » وهيمنته على أجزاء كبيرة من «العراق » و « الخليج » مما جعلها تخاف على مصالحها في الطرق البحرية والمنافذ المائية التي تربط « الخليج » بـ « الهند »، فكان عليها أن تستميل ابن سعود، وتنفرد بصداقته عن الأتراك والألمان، وغيرهم ليكون لها عضداً تشد به أزرها، وتشحذ به

بأسها .

وتعدد من يخطبون ود عبدالعزيز ، فأرسل مبارك إليه رسالة أخرى يحذره من الإنجليز :

- « كن صلباً معهم يا ولدي ، ولا تمكنهم من شيء ، ولا تصدق ما يقولون ، إنهم كذابون خداعون . . . » .

وحمل السيد طالب النقيب خبر اتفاق عبدالعزيز مع الأتراك إلى الشيخ مبارك في الكويت قائلاً :

- « أبشر يا شيخ ، قد اتفق ولدك مع الحكومة . . . » .

فاستشاط الشيخ غضباً ، ونهر طالباً ، ولما سكنت رياح غضبه أرسل إلى عبدالعزيز مرة أخرى يهنئه ويلومه في نفس الوقت على عدم أخذ رأيه فيما يتعلق باتفاقه مع الأتراك ، فأجابه برسالة من ضمن ما جاء فيها قوله :

- «الحمد لله أن الأمور كانت على ما يرام فليهنأ الوالد بعز ولده والسلام» .

هذا وقد كان الشريف حسين تراوده فكرة الاستيلاء على تربة والخرمة ، وضمها إلى حكمه بالقوة ، إلا أن اندلاع الحرب العالمية الأولى ، وانشقاق العالم إلى فريقين « دول تحالف ودول اتفاق » قد جنح به إلى التفكير بمستقبل مملكته واضطراب هذا الكيان الدولي الكبير الذي يحيط به من كل جهة بحيث لا يدري من يوالي ؟ ومن يحارب ؟ ومن يناوئ ؟

وحاق الخطر الداهم بالعرب سواء من كان منهم في شبه الجزيرة العربية أوفي أصقاع متفرقة من شمال أفريقيا نتيجة اشتعال نيران الحرب العالمية الأولى التي انطلقت شرارتها الأولى من قلب « صربيا» و « النمسا» حتى اجتاحت معظم بلدان أوروبا وسائر الأقطار البعيدة .

فمضى عبدالعزيز - إذ ذاك - بالكتابة إلى الزعماء العرب لشحذ هممهم ، وبث النخوة والحماس في نفوسهم للدفاع عن أنفسهم وأراضيهم وممتلكاتهم .

وخص بالكتابة تلك ثلاثة من الزعماء العرب هم ابن رشيد والشريف حسين والشيخ مبارك ؛ كي يتفقوا جميعاً على اختيار أقوى الفريقين العالميين المتصارعين للانضمام إليه بإماراتهم .

ثم إنه قد طلب في كتابته من أولئك الزعماء أن يجتمعوا لتدارس وضعهم وإعادة النظر في أمرهم ، ومناقشة ما تقتضيه مصلحة الأمة مناقشة موضوعية متجردة من الذاتية وبعيدة عن المآرب الشخصية ، والخلافات الجانبية .

وأتت الردود على ما دعا إليه حيث كانت رسالة ابن رشيد تفيد بأنه لن يخرج عن أمر الأتراك ، فإن حاربوا حارب وإن سالموا سالم معهم .

أما الشريف حسين فقد أرسل ابنه الأمير « عبدالله » لمقابلة مندوب عبدالعزيز على حدود إمارتيهما بين الحجاز ونجد لبحث ما تهدف إليه هذه الدعوة إلا أن تلك المقابلة قد جنحت إلى الحديث عن أصول الخلافات بين الأشراف وآل سعود ، متخذة منحى آخر دون تحقيق الهدف الذي عقدت من أجله .

أما الشيخ مبارك فقد رد رداً مبهماً يكتنفه غموض المعنى ، وعدم وضوحه مفيداً أنه مع ابن سعود ، ولا يمانع من إقامة علاقات مع الإنجليز والأتراك لردم الهوة بين أطراف النزاع على المنطقة .

على أن دعوة عبدالعزيز لم تفلح بتكاتف العرب ولم تؤت أكلها كما خطط لها إلا أنها - على الأقل - قد فتحت عيونهم على واقعهم السياسي ، وكان لها نصيب من القبول والتقدير لدى بعضهم .

ولزم عبدالعزيز بن سعود الحياد ريثما تتضح الأمور حتى يتمكن من معرفة

موقعه تماماً من هذا النسيج السياسي المعقد الذي كثرت فيه الأحلاف والاتفاقيات والأحزاب بشكل متناقض ومتباين يصعب تمييزه أو التنبؤ بمكنوناته .

إنه لا يريد الوقوف إلى جانب الأتراك ضد الشريف حسين رغم ما بينهما من خلاف ولا يريد محاربة الأتراك بأهل العراق كما تسعى إليه إنجلترا ، كما أنه لا يريد أن يكون مع الأتراك على حساب تمسك الشيخ مبارك بالإنجليز للاستعانة بهم ضد خصومه في المنطقة .

وشغل تفكيره نقض سعود الرشيد الصلح المعقود بينهما ، وإقدام والي البصرة العثماني سراً على إمداد ابن رشيد بعشرة آلاف بندقية وذخائر وأموال كثيرة لحرب ابن سعود ، مما تأكد لديه أن العثمانيين لم يلتزموا تماماً باتفاقهم معه .

وهم يقصدون من وراء ذلك أن تنشب الحرب بين آل رشيد وآل سعود من جديد فيتدخل الشيخ مبارك بالإنجليز لصالح آل سعود مما يسهم باقتتال هذه الأطراف وتعاظم الصراع فيما بينها حتى تهلك نفسها بنفسها ، وبالتالي فإنهم - أي العثمانيين - سيتمكنون من ترسيخ أقدامهم في المنطقة واستعادة نفوذهم فيها .

وكان ابن رشيد قد بعث برسالة استفزازية لعبدالعزيز قال فيها :

- « . . . إن أنور باشا قد أرسل إليَّ عشرة آلاف بندقية ، وبعد أن أكسرها عليك وعلى رجالك أفكر في الصلح معك ، والقيام على الترك » .

وانصرف عبدالعزيز إلى أبيه يشاوره ويحدثه :

- إن ابن رشيد لا يزال يتخبط في جهله ، ولا يعي أبعاد المأساة التي حاقت بالعرب . . إنه لا يهتم إلا بمصلحته الشخصية وقد أغراه الأتراك بالمال ووعدوه بما ليس من حقه ، ونعوذ بالله أن تكون الدنيا أكبر همنا .

فأجابه والده وهو يشعر بالأسف تجاه موقف ابن رشيد، ونقضه للصلح، وإصراره على حرب هم في غنى عنها :

- افعل ما بدا لك يا عبدالعزيز، فابن رشيد يريد أن يمسك بأي طرف منا ليسقطنا معه في النار ونحن نمسك بيده لنخرجه منها، وها هو الآن ينوي الزحف بجيشه على الرياض بدلاً من أن يزحف به على أعداء العرب والمسلمين.

وبعد أيام قلائل جاء عبد العزيز خبر تأهب ابن رشيد للزحف، فنهض بجيشه من الرياض، والتف حوله جماعة من بدو « العجمان » و « مطير » و«الرشايدة» وطلب مرافقته ضابط إنجليزي يدعى « شكسبير » ولكنه رفض قائلاً :

- إنني أعتذر عن مرافقتك لنا يا كابتن شكسبير، فمن غير المستحسن أن يقاتل رجل إنجليزي الأصل مسيحي الديانة تحت رايتنا التي تحمل عبارة «لاإله إلا الله محمد رسول الله » ولكن إذا أصررت على ذلك فعليك أن ترافقنا حتى نصل «الزلفي » لتبقى هناك ريثما نعود إليك بعد المعركة إن شاء الله.

فأجابه الكابتن شكسبير ملحاً بطلبه :

- أرجو أن تقبلني محارباً ضمن جنودك أيها الأمير، فإننا لا نحب - نحن الإنجليز - أن يقال عنا إننا جبناء نكصنا على أعقابنا دون ساحة القتال بين آل سعود وآل رشيد.

حينئذ وافق عبدالعزيز على خروج شكسبير مع الجيش إلى « ماء جراب » الواقع شرقي الزلفي وشمالي « الأرطاوية ».

وهناك احتدم القتال حيث أطلق أعراب جيش ابن سعود أصواتهم في مقدمته :

- صبَّحناكم لا صبَّحتكم العافية !!

وفي ذروة توهج نار الحرب أصيب الكابتن شكسبير بطلقة أودت بحياته وسقط عدد لا بأس به من الطرفين قتلى على أرض المعركة في حين انتهج أعراب البادية من الجانبين أسلوب نهب الخيام، وما فيها من أموال وذخائر وما يجدونه في طريقهم من إبل وخيول فاختل نظام الجيشين ، وتغير طابع المعركة من القتال إلى السلب والنهب والفرار، فَشُغِلَ الزعيمان عن بعضهما وراح كل منهما يحمي نفسه من عبث الأعراب وتمردهم وطمعهم ، ويقوم بمطاردة الناهبين لاسترداد ما فروا به من الغنائم .

وهكذا كانت نهاية المعركة بتكافؤ الفريقين دون تغلُّب أحدهما على الأخر .

وكامتداد لموقعة « جراب » راح عبدالعزيز يطارد خصمه ابن رشيد الذي فر لاجئاً إلى « البصرة » في العراق ، طالباً حماية الأتراك .

وبعد مدة قصيرة أحس ابن رشيد بجفوة الأتراك وصدهم، وعدم اكتراثهم بأمره مما لم يشجعه على المكوث في العراق بعيداً عن حائل، وعلى الاستمرار بعداء آل سعود .

حينئذ أرسل إلى عبدالعزيز طالباً الصلح ، فوافق حيث قام ابن رشيد بتجديد الولاء له .

لقد شُغِلَ عبدالعزيز - في حينه - بخلافه مع الشريف، وسعي الحكومة البريطانية لعقد معاهدات مع زعماء العرب - خاصة مع الشريف في الحجاز والإدريسي في إقليم عسير - محاولة الضغط على العرب لطرد الأتراك من المنطقة .

في غضون ذلك أخذ الشيخ مبارك يكتب إلى عبدالعزيز وهو في « شقراء » مستعيناً به على حرب « العجمان » وتأديبهم لكونهم قد قاموا بدخول الأراضي

الكويتية وشن غارات على جماعة من « آل صباح » ونهب مواشيهم .

والعجمان هؤلاء يستوطنون قرية « الصرار » قرب حدود نجد من الكويت ، وقد سبق وأن أعلنوا ولاءهم وطاعتهم للملك عبدالعزيز .

وقد احتار عبدالعزيز لا يدري بماذا يجيب مباركاً ؟ خاصة في مثل هذه الظروف الصعبة التي يمر بها وتستهلك جزءاً كبيراً من وقته وجهده للنهوض بأعباء دولته الجديدة التي لازالت في أطوار تأسيسها الأولى .

ولم يكن منه إلا أن عاد إلى الرياض حيث التقاه أبوه وأخواه محمد وسعد ، فطرح عليهم ما طلبه منه مبارك قائلاً :

- لقد ألحَّ عليَّ الشيخ مبارك طالباً مني معاقبة العجمان لاعتدائهم على آل صباح ونهب مواشيهم .

فقال الوالد الإمام :

ـ إننا لن نخذل آل صباح في يوم من الأيام ، فهم منا ونحن منهم ، وصديقنا صديقهم وعدونا عدوهم ، ولكن رجلاً مثل الشيخ مبارك لا يمكننا التنبؤ بنتائج حروبه مع القبائل البدوية مثل « العجمان » على حدود دولتنا معه ، ومثل « ابن السعدون » و « ابن سويط » في بادية العراق ، وهذا ياولدي مما يبدِّد قوتنا في وقت نحن فيه بحاجة إلى من يساندنا ضد الأشراف والإنجليز .

وأطلق تنهيدة حرَّى مصعداً وجهه إلى السماء وهو يقول :

ـ إيه . . كان الله في عوننا وفي عون الشيخ مبارك على ما نحن فيه .

ثم تحدث الأمير محمد قائلاً :

ـ لكن طلب الشيخ جاء في وقت غير مناسب، فالحر شديد، وديرة العجمان بعيدة من هنا، ويشق علينا الزحف إليها بجيشنا في حرارة القيظ ، هذا فضلاً عن النفقة المادية الكبيرة التي يتطلبها هذا الزحف .

وهناك أمر آخر ألا وهو خوفنا من أن ينكث ابن رشيد معاهدته لنا بالصلح كسابق أسلافه فيهاجم أهالي نجد مستغلاً انشغالنا بحرب العجمان .

فتنفس عبدالعزيز الصعداء ثم قال :

- ليس لنا إلا الكتابة إلى الشيخ مبارك بالموافقة المبدئية على طلبه، واعتذارنا عن تنفيذه حالياً ، وتأجيلنا له إلى وقت آخر .

وحين تلقى مبارك كتاب عبدالعزيز إليه لم يقبل اعتذاره بل كتب إليه مرة أخرى يلح عليه، مما أشعر عبدالعزيز بالحرج ، فاستحيى وقام بالكتابة إلى الشيخ مرة أخرى يخبره أنه على استعداد لتلبية طلبه بحرب العجمان ؛ على أن يمده الشيخ مبارك بكل ما يحتاجه من رجال ومؤن ، وألاَّ يستقبل العجمان فيما إذا طاردهم وهموا باللجوء إليه ، وألاَّ يتوسط بالصلح بينه وبينهم . عندئذ قبل الشيخ مبارك بذلك ، وأرسل إلى عبدالعزيز رسالة مشفوعة بموافقته على ماطلبه منه .

حينئذ تحرك عبدالعزيز بجيشه من الرياض ، وبرفقته نفر من آل سعود على رأسهم أخواه محمد وسعد متوجهاً إلى موضع يدعى « كنزان » قرب الأحساء حيث يتمركز العجمان هناك .

كان الحر شديداً ، ولهيب السموم يلفح الوجوه حين أناخ جنود عبدالعزيز

ركائبهم نهاراً على مشارف « كنزان » وقد انضمت إليهم جماعة من أهل الأحساء .

وعندما علم عبد العزيز بقيام ابن رشيد بنقض الصلح بينهما وزحفه على بريدة ترك جيشه في الأحساء بقيادة أخيه الأمير محمد ، وتوجه إلى الرياض ليزحف بجيش آخر على ابن رشيد في بريدة ، إلا أنه قد تناهى إلى علمه وهو في طريقه إليها انسحاب ابن رشيد من القصيم دون أن يظفر بشيء ، فعاد أدراجه إلى الأحساء .

الفصل العاشر

عاد عبدالعزيز من الكويت إلى الرياض بعد انتهاء معاركه في مناصرته للشيخ مبارك ضد «العجمان» وانشغل بأمور دولته محاولاً الحفاظ على توازنه السياسي والأمني داخلياً وخارجياً .

وفي السنة نفسها بلغ عبدالعزيز خبر وفاة الشيخ مبارك ، فكان لهذا الخبر وقع أليم وعنيف في نفسه مما جعل الدموع تنهمر من عينيه حزناً وأسى على « والده » الذي آواه في صباه ورعاه في شبابه ورجولته ، وأعطاه من الثقة والمواثيق والوفاء ما لم يعطه لأحد غيره حتى لأقرب الناس إليه .

- إنا لله وإنا إليه راجعون . . رحمك الله يا شيخ مبارك وتغمدك بواسع رحمته .

قالها عبدالعزيز مترحماً على الشيخ وهو يمسح دموعه بأطراف أنامله ثم أسرع بكتابة رسالة إلى الشيخ جابر الذي خلف أباه مباركاً على الحكم في الكويت ، وعزاه فيها بوفاته .

وخلا عبدالعزيز بنفسه تلك الساعة منفرداً عن الناس يتذكر الشيخ مبارك ، ومواقفه وجميع ما تربطه به من ذكريات جميلة ورائعة لن ينساها مدى حياته .

ولما بلغت الحرب العالمية الأولى أوجها وعظمتها ضعف الأتراك ، وخارت قواهم وكان ذلك نذيراً بسقوط الخلافة العثمانية بتركيا ، فاستغل الإنجليز هذا الضعف وراحوا يوعزون لزعماء العرب بالتخلص من الأتراك ، واجتثاث شجرتهم

من البلاد العربية على أن يتعهد لهم الإنجليز - أنفسهم - باستقلال العرب في جميع الأقطار العربية .

وما كان من الشريف حسين إلا أن ثار على الأتراك ، وشن عليهم حرباً حطمت معاقلهم في الحجاز ، وكسرت شوكتهم ، وشتتهم شذر مذر مستحوذاً على ما خلفوه من أموال وذخائر ومعدات حربية .

ومن ثم اتجه الشريف إلى حسم النزاع والخلاف بينه وبين آل سعود ، فجهز جيشاً عسكرياً نظامياً قوامه ألفا جندي بقيادة ابنه الأمير « عبدالله » الذي زحف على « تربة » التي تستوطنها قبائل « البقوم » وعدد من الأشراف الموالين لآل سعود حيث تمكن من احتلالها بسهولة ، فعاث جنوده فيها فساداً ينهبون ويسلبون ويقتلون كل من له أدنى مقاومة .

ولما وصل ذلك إلى علم عبدالعزيز انطلق على رأس جيش يناهز عدده اثني عشر ألف مقاتل لإنقاذ « تربة » وأهلها من براثن الشريف .

كما أمر قائده « سلطان بن بجاد » أن يسبقه بسرية مساندة إلى تربة ، في حين كان الشريف خالد بن منصور بن لؤي - أمير الخرمة وتربة والموالي لآل سعود - يجمع شتات الأهالي ، ويهدىء من روعهم ، ويشد على أيديهم لمواجهة الأمر الواقع بثقة وشجاعة .

ولما ازورّت الشمس للمغيب ، وخيّم الظلام تحرك الشريف خالد برجاله ، وانقض على جنود الشريف حسين المتمركزين في تربة على حين غرة ، وفتك بهم ، ومزقهم كل ممزق .

وكان بعضهم قد استيقظ من نومه مذعوراً مرتبكاً لا يعرف كيف يتصرف ، ولا يدري ما له وما عليه ، مما جعلهم يفتكون ببعضهم دون تمييز ، وكأنهم النار التي تأكل بعضها حتى تنطفىء تماماً متحولة إلى رماد تذروه الرياح .

ولما أشرقت شمس الصباح كانت قوات الشريف حسين قد دمرت تدميراً شنيعاً ، ولحقت بها خسائر فادحة بالأرواح والأموال لا يعوضها مال ولا يشفي غليلها ثأر .

أما السعوديون فقد قتل منهم عدد قليل مقارنة بقتلى خصومهم الأشراف ، وقاموا برفع راية آل سعود فوق المنازل ، كما قاموا أيضاً بجمع الغنائم وإحصاء الأسرى والقتلى ، وإعداد أنفسهم للطوارىء المفاجئة .

ووصل عبدالعزيز من نجد إلى تربة ، وقد انتهت المعركة ، وانجلى غبارها .

كان عبدالعزيز يكره الحرب لما تجره على الناس من هلاك وخراب ودمار ، وكان لا يلجأ إليها إلا إذا اضطره خصومه إلى استخدام قوته ضدهم ، وكان كثيراً ما يردد بين مجالسيه :

- « لست من المحبين للحرب وشرورها ، وليس أحب إليَّ من السلم والتفرغ للإصلاح » .

وبعد استيلاء السعوديين على تربة استاء عبدالعزيز كثيراً لكثرة شكاوى رعايا «عسير» وأهاليها من استبداد أمير « أبها» « حسن بن عايض » وما نجم عن ذلك الاستيلاء من ظلم وهضم للحقوق حتى لاذ به وهو في الرياض نفر منهم طالبين منه رفع الظلم عنهم .

عندئذ قام بإرسال مندوب لابن عايض ليرشده وينصحه ليتجنب ظلم الناس ، ويتوخى العدل والإنصاف ، ويصلح ما بين رعاياه ، ويخاف الله لأن مخافة الله رأس الحكمة .

ولكن ابن عايض لم يهتم كثيراً بما جاء به مندوب عبدالعزيز إليه، فدفع إليه بقوة توجهت إلى عسير، وتمكنت من الإيقاع به والقبض عليه حياً ومن ثم إرساله إلى الرياض، واقبل رجال عبدالعزيز بابن عايض وأحضروه بين يديه :

ـ فكوا الوثاق من يديه .

قالها عبدالعزيز لرجاله الذين فعلوا ما أمرهم به حيث وقف ابن عايض أعزل أمام عبدالعزيز الذي أخذ يلومه على تصرفه ويؤنبه :

ـ ما هذا يا ابن عايض ؟ أما تخاف الله في رعاياك ، وما أئتمنك الناس عليه يارجل ؟!

وطأطأ ابن عايض رأسه حياءً ثم قال :

ـ أنا . . . أنا لم أظلم أحداً .

فقال عبدالعزيز يخاطبه بأسف :

ـ يؤسفني أن أراك وقومك يا ابن عايض على هذه الحال .

ولم يجب ابن عايض بل استكان على حرج في حين أضاف عبدالعزيز وهو يتفحص وجهه :

- سنعفو عنك هذه المرة شريطة أن تعاهدني بالله ألا تعود لظلم الناس، والبطش بهم، وأن تعود إلى رشدك ، وتخلص لله بالنية والقول والعمل، وأن تتنازل عن الولاية .

وعاهده ابن عايض، وأقصاه عن الولاية مولياً عليها أحد رجاله، وأخلى سبيله وأمر بتجهيزه بعدد من الركائب والمال والطعام ليعود إلى ذويه في عسير .

لكن ابن عايض قد قام بنقض ما عاهد عليه عبدالعزيز حين ثار على الوالي السعودي، فقبض عليه وارتهنه ناصباً نفسه والياً على عسير قسراً ، ولذلك أمر عبدالعزيز ابنه الأمير « فيصل » أن يجهز جيشاً بقيادته للزحف على ابن عايض في عسير لوضع حد لتجاوزاته، وتطاوله على الناس ، وتمرده على سيادة آل سعود .

والتقى فيصل بابن عايض ، وقامت الحرب بينهما على قدم وساق مستمرة أياماً طويلة حتى استطاع فيصل دخول أبها، وإقامة حامية سعودية عليها، وإلقاء القبض على ابن عايض حياً، ومن ثم حمله إلى الرياض مرة ثانية حيث حظي بعفو عبدالعزيز وعطفه وكرمه مرة أخرى وعاش في كنفه بعزة وكرامة وكأنه واحد من أبنائه .

بعد ذلك استرعى انتباه عبدالعزيز نشاط حركة آل رشيد في الشمال بعد خمودها ما يقارب خمس سنوات شُغل خلالها باندلاع الحرب العالمية الأولى ، وانقسام الصفوف العربية على نفسها، ودعوته إلى ضرورة « الوحدة العربية » لمواجهة هذا الخطر الداهم .

وانتهى إلى علمه أن الأمير « محمد بن طلال بن رشيد » الذي قد آلت إليه إمارة حائل - شن غاراته على القبائل البدوية النجدية الموالية لآل سعود كمطير وبعض عشائر حرب وعتيبة والرشايدة وغيرها .

ففكر ملياً بالأمر ، وكان عليه أن يسرع إلى والده الإمام عبدالرحمن في الصباح الباكر ليزوره في قصره كما هي عادته صباح كل يوم ومن ثم يستشيره فيما ينبغي عليه فعله .

وفي ذلك الصباح دخل الابن على أبيه وهو يتكىء على أريكة في مجلسه فحنى قامته وقبّل رأسه، وجلس على الأرض واضعاً يديه على ركبتي أبيه ومضى يحدثه :

- ليس لي غنى أبداً عن رأيك - يا والدي العزيز - فيما ينبغي عليَّ فعله تجاه تهجم ابن رشيد على من والانا من القبائل .

- يبدو أن الأمور لا تحتاج إلى التريث يا عبدالعزيز ، وأخشى إن أشرت عليك بالتأني أن يحدث مالا تحمد عقباه .

فلنطفىء الشرارة يا ولدي قبل أن تتحول إلى نار ملتهبة ، وابن رشيد الآن قد تركه الأتراك منذ زمن، ولا أظنه سيشكل علينا خطراً كما كان من قبل .

واستأذن عبدالعزيز أباه بالانصراف مسرعاً بتوجيه قوة لردع محمد بن طلال ابن رشيد بقيادة « فيصل الدويش » حيث انطلق هذا يجر جيشه حتى اصطدم بجيش الخصم متجشماً عناء هذا الاصطدام بعنف .

وكان محمد بن طلال من أشجع رجال آل رشيد . . فارساً مقداماً لا يشق له غبار .

ولم يطمئن عبدالعزيز لصمود الدويش في وجهه مما اضطره للتحرك بجيش آخر لاحقاً بجيش قائده الدويش ليضم الجيشين تحت لواء واحد يقوده هو بنفسه .

وذهل ابن رشيد على رغم شجاعته وبسالته حين رأى تراجع مقدمة جيشه إلى الخلف ، وانكسار صفوفه التي اخترقها السعوديون كالسهام المارقة، وهم يصيحون كعادتهم :

- « صبحناكم لا صبحتكم العافية » .

ورأى ابن رشيد عبدالعزيز على جواده المحجل متلثماً بطرف عمامته، وغبار المعركة يحجب الرؤية.

وكلما أراد ابن رشيد تسديد رمحه إليه حيل بينهما، فاندهش لخفة حركة عبدالعزيز على فرسه وهو يخترق صفوف المقاتلين يمنة ويسرة، ويشهر سيفه بثبات دون أن تهتز يده.

وأحس ابن رشيد أن عبدالعزيز يبحث عنه ليجندله صريعاً لا سيما وأنه لاحظ كثرة صولاته وجولاته وتحركاته بخفة مدهشة بين جموع المقاتلين.

وبينما هو كذلك تفاجأ ابن رشيد بتقهقر جيشه، وانهياره، وأن المعركة قد أنذرته بالهزيمة النكراء في لحظاتها الأخيرة.

ولم يكد يصدق عينيه حين رأى عبدالعزيز ماثلاً أمامه، واضعاً يده اليسرى على بطنه الذي انغرزت فيه طلقة نارية طائشة، شاهراً سيفه بيده اليمنى وهو يقول:

- ليس ثمة ما يجبرك على القتال يا ابن رشيد.

فارتجَّ ابن رشيد لهول ما يسمعه وما يراه، وجمد في مكانه دون حركة حيث مضى عبدالعزيز قائلاً وهو يمد قامته ليتغلب على ألم إصابته:

- جيشك هُزِمَ، ومن لم يقتل منه لاذ بالفرار، ولا نرى معك إلا قلة من آل رشيد ونحن نحيطُ بكم من كل جهة فألقوا أسلحتكم ولكم الأمان.

فالتفت محمد بن طلال حوله، ولم يرَ إلا قلة من كبار آل رشيد، فقذف بسيفه ورمحه من يده بغيظ حتى سمع لهما رنين وهما يرتطمان بالأرض، وكذلك فعل من معه من أقاربه، فأمر عبدالعزيز بنقلهم إلى الرياض.

حينئذ استدعى عبدالعزيز طبيبه الخاص الدكتور «رشاد فرعون» ليستخرج الرصاصة التي استقرت في بطنه، فأقبل الدكتور يحمل مبضعاً وقنينة تحتوي على مادة مخدرة فسأله:

- ماهذا الذي تحمله يا دكتور رشاد ؟

- هذا « بنج » يا أبا تركي .

- ولماذا « البنج »؟ .

- مسكن للألم حتى أتمكن من انتزاع الرصاصة دون أن أؤلمك .

فضحك عبدالعزيز ثم سأله :

- وماذا تريد أن تفعل بعد « البنج » . ؟

- بعد أن يسكن الألم سأشق الجلد ، وأنتزع الرصاصة ثم أخيط الجرح .

- سأريحك يا دكتور رشاد من ذلك كله . . ناولني المبضع .

فناوله الدكتور المبضع حيث قام عبدالعزيز بشق جلد بطنه مستخرجاً الرصاصة ، فذهل الدكتور لقوة احتماله وصبره على الألم .

- الآن يمكنك أن تخيط الجرح دون الحاجة إلى « البنج » .

قالها عبدالعزيز لطبيبه الذي قام بخياطة جرحه وهو جامد دون أن تصدر منه حركة تدل على تألمه أو شعوره بوخز إبرة الخياطة .

هذا وقد أمر عبدالعزيز بتخصيص سكن لآل رشيد بجوار قصره هم ومن معهم من عائلاتهم ، وأكرمهم وأشعرهم وكأنهم بين أهليهم وذويهم .

وقد اتفق علماء البلاد وأهل الحل والربط فيها على تلقيب عبدالعزيز بعد ضمه حائل وعسير إلى الرياض بـ « عظمة سلطان نجد وملحقاتها » .

ومن ثم أمَّرَ عبدالعزيز على حائل رجلاً من أهلها يدعى « إبراهيم السبهان » وقد عهد عبدالعزيز إلى هذا الرجل لأنه كان على مستوى المسؤولية والكفاءة .

ولم ينعم السلطان عبدالعزيز بن سعود « سلطان نجد وملحقاتها » براحة بال بعد ضم حائل ، وإنما راح يبحث قضايا حدود سلطنته مع الكويت والعراق والأردن ويطارد القبائل التي تقطن هذه المناطق الحدودية المحايدة .

وقد رأى السلطان أن هذه القبائل لا يربطها ببعضها رابط ، وهي منبتة الصلة بالدول المجاورة ، وترفض كل قبيلة منها تبعيتها للقبائل الأخرى معتمدة على نفسها بالاستعانة على مثيلاتها بقوة السلاح والنار التي لا تعرف لغة سواها .

ومما زاد تعكير صفاء السلطان عبدالعزيز قيام ملك الحجاز « الشريف حسين » منذ مدة ليست بقصيرة بعرقلة طريق أهل نجد إلى مكة كلما حان موسم الحج ، بل بلغ به الأمر أن يمنعهم من أداء فريضة الحج الواجبة على كل مسلم بالغ عاقل مستطيع .

واستغل الشريف الجانب الإعلامي ليصرح للصحف المصرية والسورية والعراقية بأباطيل وادعاءات لا تنطلي إلا على السفهاء والبسطاء من الناس مفادها أن سلطان نجد يقول مالا يفعله ، وأنه قد استغل حسن نوايا عرب الجزيرة فجمعهم حوله ، وأوهمهم بأنه يسعى لتأسيس ما يسمى بـ « الوحدة العربية » التي من أهدافها الأساسية لمّ الشمل العربي واستقلاله عن تبعية الشعوب الأخرى استقلالاً يليق بمكانته كشعب عربي مسلم له تاريخه وأمجاده الضاربة في أعماق التاريخ .

ثم واصل الشريف تصريحاته الباطلة مفيداً أن سلطان نجد لا يسعى - في الحقيقة - إلا مدافعاً عن نفسه ، وعن منزلته كحاكم لنجد وملحقاتها ، وأنه يسعى لتأسيس دولة لا يرى أحداً غيره أصلح منه لتولي سيادتها .

واستاء عبدالعزيز من موقف الشريف حسين تجاهه ، وتحامله عليه ظلماً وبهتاناً ، فلزم الهدوء والسكينة بينما راح الأمير فيصل وهو في الأحساء يكتب إلى جريدة «الأهرام» المصرية رداً على الشريف ، كان مفاده أن الشريف طالما كتب إلى

سلطان نجد عن استعداده للتنازل عن الحكم في الحجاز، وتسليم زمام الأمر لمن يشهد علماء العرب وزعماؤهم بصلاحه وكفاءته لتولي زعامة الدولة العربية الموحدة المزمع تأسيسها مستقبلاً.

والشريف غير صادق فيما يزعمه من استعداد للتنازل عن الحكم، بل إن قوله يخالف فعله، وهو يظهر غير ما يبطن، وإنما أراد بذلك أن يوحي للناس بأنه ليس هناك زعيم عربي واحد في البلاد العربية يستحق تولي زعامتها إلا هو نفسه.

هذا ما قاله الأمير فيصل في حين اجتمع نفر من أعيان نجد بالسلطان عبدالعزيز في الرياض يشكون إليه تمادي الشريف بمنعهم من دخول مكة لأداء فريضة الحج، وتعمده وضع العراقيل والعوائق في طريقهم إليها.

فلم يكن من السلطان إلا أن أمر بعقد اجتماع برئاسة والده الإمام عبدالرحمن الذي خاطبه سلطان بن بجاد أمير «الغطغط» بقوله:

- لقد عيل صبرنا - يا أبا عبدالعزيز - ولم نعد نصبر على تكرار إساءة الشريف لنا، ونحن مسلمون نريد الحج كغيرنا من المسلمين الذين يأتون إلى مكة من مختلف أصقاع الأرض، فإن منعنا الشريف هذه المرة فإننا سنضطر لدخولها بالقوة.

فأراد الإمام أن يهدئ من امتعاض الأعيان، وإحساسهم بالضيق قائلاً:

- يا إخوتنا في الله، لا تقنطوا من رحمة الله تعالى، الأمر هيِّن إن شاء الله، ولا تتجشموا عناء دخول مكة بالقوة، فإن علماءنا قد أفتوا بعدم جواز دخول مكة بنية القتال.

وران الصمت لحظات ثم قال السلطان عبدالعزيز:

- حسبنا الله ونعم الوكيل..!.. إن الشريف حسين يكرهنا على حربه ليجرنا معه إلى الهاوية.. إنه يستفزنا لنهاجمه حتى يشاع بين الناس أننا قاتلناه في البيت الحرام، ولكن هذا لن يكون.

ويشهد الله أنني قد بذلت كل ما في وسعي لتسوية الخلاف ما بيننا، وظللت زمناً طويلاً أولّيه وجهي وهو يولّيني ظهره.

ورفع ابن بجاد يده مستأذناً الإمام بالتحدث، فأذن له حيث مضى يقول:

« إذا كنتم ترون أن من المصلحة تأجيل الحج هذا العام، فلا بد من غزو الحجاز، لنخلص البيت الحرام من أيدي الظالمين والمفسدين ».

وانفض مجلس الاجتماع، وقد عقد السلطان عبدالعزيز في نفسه نية غزو الحجاز، إلا أنه تريث قليلاً حتى ينتهي موسم الحج لئلا يتعرض الحجاج القادمون من كل مكان لأذى، أو يصابوا بمكروه، فيزعزع ذلك في نفوسهم السكينة والطمأنينة التي يستشعرونها في البلد المقدس الذي لا يدخله إلا آمن على دمه وعرضه وماله.

ولما انسلخ شهر « المحرم » ودخل « صفر » كان عبدالعزيز قد أعد خطة حربية اتسمت بالدقة والمهارة، والتكتيك الحربي الرائع حيث أوعز إلى « الإخوان » كالدويش وابن بجاد والشريف خالد بن منصور بن لؤي ومن معهم بالمرابطة على حدود « تربة » و « الخرمة » بقصد استثارة الهاشميين ليخرجوا من مكة بحيث يكون القتال بعيداً عن البيت الحرام.

كما أمر السلطان عبدالعزيز بخروج ثلاث حملات أخرى أولاها تزحف شمال المدينة المنورة، وثانيتها تقتحم شرقي الأردن، وثالثتهما تتمركز على طول امتداد الحدود العراقية للحيلولة دون تحرك أي قوة مساندة.

ومن الواضح أن السلطان قد عمد إلى تقسيم قواته على هذا النحو ليشتت اهتمام خصومه، وينحى بأنظارهم عن حملة جماعة « الإخوان » التي هي رأس الحربة الموجهة للهاشميين « الهدف الرئيس » في الحجاز.

أما بقية الحملات فإنها وإن قاتلت ستكون عرضة لقوى كبيرة يساندها الطيران الإنجليزي ، إلا أنه يكفيها القيام بدور مشاغلة هؤلاء عن « الإخوان » .

ولما أحس الهاشميون أن الخطر قد بدأ يتسلل إليهم ، ويطرق أبوابهم خرجوا بجيشهم النظامي من « الطائف » لمجابهة الإخوان .

غير أن الإخوان قد أسرعوا بالتحرك حتى خيموا في « الحويَّة » وهناك وقع الاشتباك بين الفريقين حيث مضى الهاشميون يطلقون قذائف مدافعهم ، ونيران بنادقهم على الإخوان الذين يحاصرونهم ، ويضيقون عليهم الخناق حتى خرج الأمير « علي » ابن الشريف حسين من مكة لفك الحصار عن الطائف متمركزاً في «الهدا» .

وبعد أيام قلائل سقطت الطائف وتلتها الهدا في أيدي السعوديين الذين واصلوا زحفهم حتى كانوا على مشارف مكة المكرمة ، فبعث السلطان عبدالعزيز ببرقية عاجلة إلى زعماء الإخوان يأمرهم فيها بعدم دخول مكة ، وقتال من فيها من المسلمين والمسالمين ، وأن يكتفوا فقط بضرب الحصار على حدودها .

ولم يكن من ابن بجاد والشريف خالد إلا أن ساقهما حماسهما لبعث رسالة إلى السلطان يستأذنانه بدخول الحرم الشريف مغمدين سيوفهم وخناجرهم ، ومنكسين لبنادقهم ، فإن وجدوا من يعترض سبيلهم قاتلوه ، وإن لم يجدوا فالسلم أولى .

غير أن السلطان قد أصر على عدم الموافقة ، فأرسل إليهم للمرة الثانية بأن يلزموا أماكنهم ، وألا تخطر ببالهم فكرة القتال في الحرم ، ولا يستعجلوا أمرهم حتى يأتيهم أهل مكة مسالمين .

حدث كل هذا وملك الحجاز يضرب أخماساً بأسداس لا يعرف كيف يوجد لنفسه مخرجاً من ورطته التي أوقع نفسه فيها .

وعاد ابنه « علي » إليه في مكة بُعَيْدَ هزيمة جيشهم في الطائف وتمزقه وتشرذمه، وأخذا يقلبان أيديهما ويستعرضان الآراء والحلول للخروج من هذا المأزق.

وانطلق علي إلى « جدة » حيث قامت ثلة من وجهائها وأعيانها بالإبراق إلى الشريف حسين للتنازل عن عرش الحجاز لابنه الأمير علي.

وتواردت الضغوط على الشريف حتى اعتزل العرش متنازلاً عنه لابنه علي ثم غادر مكة إلى جدة بحرمه وخدمه حيث استقل سفينته المسماة بـ « الرقمتين » مبحراً تجاه « العقبة » في حين تم إعلان علي ملكاً للحجاز.

ولم يكن علي بأطول نفساً، وأنفذ عزماً من أبيه فاضطر إلى مغادرة مكة تحت حصار السعوديين متجهاً إلى جدة بعدد من أتباعه ومناصريه.

ودخل الإخوان مكة محرمين، ونادوا في الناس:

- يا أهل مكة.. إننا جئنا مسالمين لا محاربين، نطوف في البيت العتيق، فاخرجوا من منازلكم آمنين.

- إن ابن سعود قد آمنكم على دمائكم وأعراضكم وأموالكم.

وخرج أهالي مكة مهلِّلين، وعادت الحركة في الشوارع والمتاجر والأحياء من جديد، ودبت فيها الحياة بعد هدوء وصمت ران عليها بضعة أيام لمحاصرة الإخوان لها.

أما السلطان عبدالعزيز فقد استبشر خيراً لما بلغه خبر دخول السعوديين مكة مسالمين غير محاربين، وإقبال أهاليها عليهم بالغبطة و المودة والترحيب، فقام بإصدار بيان خاطب فيه الأمة الإسلامية كان مما جاء فيه قوله:

- « . . . لقد دخلت جيوشنا مكة في السابع عشر من ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ وإننا مغتبطون أشد الاغتباط للاحترام الذي بدا نحو الأماكن المقدسة ، وكان بمقدور الفاتحين لو أرادوا أن يشقوا لهم طريقاً بالقوة، ويدخلوا البلاد عنوة، ولكنهم أبوا إلا احترام الأماكن المقدسة، فلم يسفكوا دماء أحد، احتراماً لتراثنا المقدس .

ولقد قضينا على الظلم ، ونشرنا العدل في ربوع البلاد ، وليس أشهى إلى قلوبنا من إقبال المسلمين على الحج من أنحاء العالم الإسلامي . . . » .

الفصل الحادي عشر

انبرى السلطان عبدالعزيز بعد دخول رجاله مكة يكتب إلى زعماء العرب ورؤساء الدول الإسلامية ليبعثوا بوفودهم ومفوضيهم إلى مكة ليلتقي بهم هناك حيث سيتم عقد مؤتمر إسلامي يهدف إلى نشر السلام، ووضع القواعد الأساسية لنظام إسلامي عالمي يضم الدول الإسلامية، ويلتمس مشكلاتها وحلولها، ويحترم في مبادئه تعاليم الشريعة الإسلامية ومنهجيتها.

وانتهز السلطان فرصة زيارته والده الإمام عبدالرحمن في قصره صباحاً كما اعتاد عليه حيث قام بتقبيل رأسه ويديه ثم قال:

- بودي لو تأذن لي - يا والدي العزيز - بالسفر إلى مكة لا لحرب، ولا لغرض من أغراض الدنيا، لا والله، وإنما لأطمئنَّ على حال أهلها، وبسط أحكام الشريعة على أرضها، ولرفع الظلم عمن فيها من المسلمين بالإرشاد والموعظة الحسنة.

واحتار الإمام في طلب ابنه، فهو لا يريد أن يرفض طلبه لدخول البلد الأمين لكنه يخشى أن يستثير دخوله إليه غضب الأشراف اللاجئين إلى جدة، فيؤلبوا عليه أتباعهم وأنصارهم مما قد ينذر بقيام حرب تسيء إلى حرمة البيت وقدسيته فقال:

- يا ولدي، ليس أحب إليَّ من دخولك البيت الحرام، ولكني أخشى عليك من الوقوع في صدام وعراك مع الأشراف الذين ما زالوا يتربصون بنا، وهذا يتنافى شرعاً مع قدسية البيت، وما دمت مصراً على ذلك فأرجو من الله تعالى لك التوفيق والثبات.

وانصرف عبدالعزيز بعد استئذانه والده ثم انطلق من الرياض إلى مكة بموكب عظيم وجمع غفير من رجاله وكبار قادته وحاشيته وخدمه .

إنه موكب الفرح والسرور المنتشي بلذة النصر والإحساس بالأمن والاستقرار ، وعادت الذاكرة بعبدالعزيز إلى الماضي البعيد منذ ما يقارب ستة وثلاثين عاماً مضت عندما غادر الرياض هو ووالده وأسرتهما تحت ظلام الليل نازحين إلى الدهناء على إثر مداهمة ابن رشيد لهم في نجد .

فشعر بالمفارقة العجيبة ، والتباين الباعث على الدهشة بين ما هو عليه الآن وما كان عليه في الماضي وحدث نفسه صمتاً :

- إيه يا عبدالعزيز . . . لقد ولى زمن الحروب إلى غير رجعة ، وارتفعت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله خفاقة على أرض السلام ، وها أنت تخرج بموكبك في وضح النهار مولياً وجهك شطر المسجد الحرام منكساً سلاحك .

وهكذا مضى الموكب يشق طريقه إلى مكة حتى شارف على بطاحها بعدما يقارب أربعة أسابيع ، فترجل عبدالعزيز عن حصانه ، وارتدى ملابس الإحرام مكشوف الرأس حافي القدمين ، متجرداً من سلاحه .

ولما بلغ الحرم طاف حول الكعبة ، وسعى بين « الصفا والمروة » واعتمر كسائر المسلمين الذين تكتظ بهم ساحات الحرم ، وتتردد أصداؤهم في رحابه بالتلبية والتكبير والتهليل ، وحذا المرافقون له حذوه .

ولما فرغ من ذلك أقبل عليه قادته السعوديون ، وأهالي مكة جماعات جماعات للسلام عليه ، وتهنئته بسلامة الوصول .

وكان بعض الأهالي من مستقبليه يندفعون لتقبيل يده، فيسحبها مستنكراً، قائلاً:

- استغفر الله العظيم . . . يكتفى بالمصافحة لأنها سنة المصطفى ﷺ.

وكان هناك اثنان من الأهالي يقفان إلى جانب بعضهما ينتظران دورهما للسَّلام على السلطان حيث أسرّ أحدهما إلى الأخر بصوت خافت:

- ألا ترى معي أن ابن سعود رجل بسيط في غاية التواضع؟

- صهْ . . صهْ . . اخفض صوتك . . لا تقل « ابن سعود » هكذا مجردة بل قل « السلطان » فربما يؤذيه ذلك لو سمعه منك.

وفجأة تقدم الصفوف رجل بدوي تبدو على ملامحه البساطة والعفوية فسلم على السلطان رافعاً صوته:

- مرحباً بك يا عبدالعزيز بين إخوانك وفي بلدك.

فاندهش الرجلان اللذان كانا يتهامسان بصوت خافت حينما شاهدا السلطان يبتسم ملء وجهه لهذا الرجل البدوي الذي خاطبه باسمه مباشرة دون ألقاب.

وفي اليوم التالي اجتمع عبدالعزيز بعدد من علماء الحجاز فتحدث إليهم بصراحة تامة:

- يا أهل الحجاز، والله ما دخلت مكة إلا حرصا على الإسلام والمسلمين لاأريد إلا وجه الله تعالى، والعمل بما جاء في كتابه وسنة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ونحن جميعاً لا نختلف على أصول الشريعة الإسلامية، أما فيما يتعلق بالفروع فإن للعلماء فيها اجتهادات لا تخفى على كثير منكم، كاستنباط بعض الأحكام الشرعية والقياس والمسائل الفقهية الأخرى فإن ذلك لا يتعارض مع وحدة العقيدة الإسلامية وما جاء في الكتاب والسنة ما دامت الأصول ثابتة.

وتريث السلطان قليلاً لعل هناك من العلماء من يريد التحدث، ورفعاً للحرج عمن يريد ذلك فقد مضى يقول:

- ليس عليكم من حرج يا إخوتنا الأفاضل، فمن أراد التحدث فليتحدث كما يشاء، وها أنذا موجود بينكم، وما أنا في ـ الحقيقة - إلا واحد منكم، وكل واحد منا في ذمة الآخر، ومرجعنا جميعاً الكتاب والسنة.

أستحلفكم بالله ألا تكتموا عني شيئاً، وأن يقول كل منكم رأيه في المبايعة بكل صراحة مجردة من التواطؤ أو المجاملة، وهذه يدي أبسطها لكم... خذوا بها وأرشدوني إلى ما فيه صالحكم وصالح المسلمين.

فتعالت الأصوات: نبايعك ياعظمة السلطان.

وبعد أيام قلائل اجتمع عدد من علماء الحجاز بعدد من علماء نجد، وتناقشوا معاً في أصول الشريعة وفروعها، وتطرقوا في اجتماعهم إلى المبايعة وأسسها وضوابطها في الشرع فخلصوا من ذلك إلى أن دولة آل سعود أصلاً ليست كغيرها من الدول الأخرى لكونها قد قامت على أساس الدين منذ ما يقارب قرنين من الزمن حيث نهض الشيخ محمد بن عبدالوهاب بدعوته الإصلاحية مستنجداً بالإمام محمد بن سعود في الدرعية، الذي سانده وآزره بالقوة والسلاح والرجال، حيث اتحدت قوة الإيمان بالله بعدالة السيف.

وصرف عبدالعزيز اهتمامه في التفكير بموقفه من الأشراف حيث قام بدعوة العلماء مرة أخرى ليستمع إلى فتواهم، ويستشيرهم فيما ينبغي عليه فعله حيال استنجاد الأمير علي في جدة بأبيه الشريف حسين الذي دأب على إرسال كميات كبيرة من الذخائر والمؤن لابنه عن طريق ميناء العقبة وقيام الابن الآخر عبدالله بجمع « المتطوعين » حوله ، وإعدادهم وتجهيزهم بما يحتاجونه من الأسلحة والذخائر .

هذا بالإضافة إلى تحليق بعض الطائرات الإنجليزية في سماء مكة وقيامها بإلقاء المنشورات من الجو، التي تدعو إلى تحريض أهل مكة والحجاز على الإنسحاب من صفوف ابن سعود، وولائه ، وإنذارهم بسوء العاقبة .

وأخيراً قرر هذا الاجتماع ضرورة زحف السلطان إلى جدة قبل أن يتفاقم الخطر ، فتولى قيادة الجيش معسكراً في « الوزيرية » ثم واصل سيره حتى تمركز في « الرغامة » قرب المدينة .

وكان موسم الحج قد اقترب فخاف على الحجاج القادمين ، وكان همه الأول أن يؤمن لهم الطريق إلى مكة حيث أصدر أمراً بخروج بعض سرايا جيشه إلى ساحل « البحر الأحمر » .

وهناك استطاعت هذه السرايا أن تحتل « الليث » و « القنفذة » و «رابغ » و«ينبع» و « العلا» فأصدر السلطان بياناً - في حينه - أعلن فيه للحجاج استتباب الأمن واستقراره في جميع الطرق المؤدية إلى مكة ولذلك فقد استطاع الحجاج تأدية مناسك حجهم ، ومن ثم عادوا إلى بلدانهم بأمان وسلام دون أن يتعرضوا لأية إساءة أو مضايقة من أحد .

وكانت جماعة الإخوان بقيادة فيصل الدويش قد توجهت لحصار « المدينة المنورة » بأمر من السلطان ، حيث قام هؤلاء بتضييق الحصار عليها شهوراً طويلة .

فأرسل قائد حاميتها إلى السلطان عبدالعزيز يعرض عليه تسليم المدينة المنورة إلى الأمير محمد بن عبدالرحمن ، فأجابهم على طلبهم ، واستسلمت الحامية للأمير محمد بعد أن أعلن للأهالي والجنود والضباط الأمان والسلامة .

أما في جدة فقد دارت الدوائر على الملك علي الذي أخذ يضرب يمينه بشماله ، ويقلب وجهه وكفيه غير قادر على الخروج من الحفرة التي حفرها لأخيه فوقع فيها ولم يكن منه إلا أن أصدر أمراً - وهو في لحظة ارتباك ووجل - بمجابهة السيارات المصفحة والطائرات للسعوديين الذين يشددون الحصار على مدينة جدة .

ولكن يبدو أن جنوده وطياريه قد سئموا ، وأصابهم الملل والكلل لطول مدة الحصار ، فأخذوا يتقاعسون عن تنفيذ الأوامر ، ويتكاسلون عن أداء مهماتهم التي كلفوا بها .

وكان ذلك نذيراً بانهيار مملكة الهاشميين ، وانقضاض صرحها في الحجاز . حينئذ قامت المعركة بين الطرفين حيث أبلى السعوديون بلاء حسناً في تفوقهم على ساحة القتال ، وتصديهم للسيارات المصفحة بنيران بنادقهم ، ومراوغتهم للقنابل التي يلقيها على رؤوسهم الطيران ، وقد استدعى السلطان ابنه الأمير فيصل ، فقدم مسرعاً إليه من الرياض على رأس قوة كبيرة من أهل العارض .

وطفق أهل جدة يتذمرون ويتضجرون لهذا الحصار الذي ضيق عليهم أسباب معيشتهم ، وأفقدهم الإحساس بالراحة والأمن ، فتسلل السأم والملل والنزق إلى نفوس الجنود الهاشميين الذين أصابهم ما أصاب الأهالي من الضجر والإحساس

بالخوف والهلع ، ورمى كثير منهم بسلاحه أرضاً في حين هدد بعضهم بالعصيان ، والخروج عن الامتثال لأوامر القيادة إن استمرت الحال كما هي عليه .

ولما التمس عبدالعزيز ذلك وَجَّهَ نداءً ، أعلن فيه الأمان والحماية للهاشميين ، وأهل جدة من عسكريين ومدنيين ، باستثناء من سوَّلتْ له نفسه بالعنف واللجوء ألى المقاومة فإن مصيره الهلاك والدمار .

حشود من العسكريين السعوديين كان يراها الطيار الروسي « تشاريكوف » من تحته وهو يحلق بطائرته فوق « الرغامة » وكان هذا قد تلقى أمراً من القيادة الهاشمية بإلقاء بعض القنابل على التجمعات السعودية لتفريقها .

وعندئذ أعطى تشاريكوف الإشارة لمساعدة « عمر شاكر » لإسقاط القنابل ، ولسوء حظ الطيار ومساعده فقد أمسك المساعد بإحداها في يده ، ولما هم بإلقائها انفجرت في « كبينة الطائرة » مما أدى إلى احترافها وانفجارها في الجو وتطاير أشلائها في كل مكان ومقتل طياره ومساعديه وهذا من لطف الله تعالى ونصره لأوليائه .

وأخيراً قرر الملك علي إرسال المعتمد البريطاني لدى جدة للتوسط في الصلح بينه وبين السلطان عبدالعزيز فقبل عبدالعزيز بهذه الوساطة وأملى شروط قبوله لهذا الصلح ، التي تتضمن ضرورة مغادرة الملك علي الحجاز بأسرع وقت ممكن وله أن يأخذ ممتلكاته الشخصية وأفراد عائلته وألا يخرج بشيء من المعدات الحربية أو الأسلحة أو السفن والقوارب باستثناء سفينة واحدة تقله هو ومن معه خارج الحجاز .

هذا مع العلم بأن السلطان يتعهد بحماية من يسلمونه أمرهم من الهاشميين والموظفين من عسكريين ومدنيين والأجانب المعتمدين من قبل الدول الأخرى والأهالي .

وسيقوم السلطان بترحيل من يرغب من هؤلاء إلى أوطانهم وديارهم على نفقته الخاصة ومساعدتهم بكل ما يحتاجونه من المال والمعونات التي تخفف عليهم من أعباء الهجرة ومشقتها .

ووافق الملك على قبول شروط الصلح التي أملاها عليه السلطان عبدالعزيز ، ومن ثم غادر الحجاز على ظهر إحدى السفن بعد أن سلم جدة للسعوديين ورفع العلم السعودي فوق مبانيها .

وبذلك انتهى العهد الهاشمي الذي حكم الحجاز حقباً من الزمن وأصدر السلطان بذلك بياناً لأهالي الحجاز يحمد الله فيه على ما منَّ به عليهم من نصر وظفر واجتماع بعد فرقة ، وأمن بعد خوف ، وعلى توحيد كلمة المسلمين ولم شملهم وتكاتفهم وتعاونهم على البر والتقوى .

كما أوضح خلال هذا البيان حقوق المواطنين وواجباتهم ، وما يجب عليهم ، تجاه المجتمع الإسلامي والإسهام في بنائه .

وبعد صلاة الجمعة من الأسبوع نفسه اجتمعت وفود أهل الحجاز بمكة وبايعوا عبدالعزيز ملكاً عليهم وأطلق عليه لقب « جلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها » .

حينئذ سمعت أصوات المدافع مدوية من على قلاع مكة وجبالها ابتهاجاً بهذه المناسبة . لقد استهوت جلالة الملك عبدالعزيز - بعد اجتماعه بعلماء الحجاز

ونجد بمكة ومبايعته على الحجاز - فكرة تأسيس مجلس يضم مجموعة من الأعضاء المشهود لهم بالصلاح والكفاءة يرأسهم ابنه الأمير فيصل .

وقد أطلق على هذا المجلس اسم «مجلس الشورى » تناط به مهمات القيام بتوجيه شؤون الدولة ومتابعتها والنظر في مصالحها كإلزام المسئولين بتنفيذ ما يصدر من أوامر وتعليمات ومتابعتها ومراقبة من تسند إليهم هذه المسئوليات للتأكد من تنفيذها وسلامتها من التقصير ، أو التهاون بأدائها .

كما أن من واجبات المجلس أن يستقبل ما يعرضه عليه المواطنون من آراء ومقترحات ووجهات نظر فيما يتعلق بتوفير خدمات التعليم ، والمرافق الصحية وتسهيل المعاملات التجارية ووسائل النقل والمواصلات ، ووضع نظام محدد للأمن والمحاكم الشرعية ، ومن ثم إحالة ذلك إلى الجهات المختصة لاعتماده وتنفيذه .

وقد استند الملك عبدالعزيز إلى قوله تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) لإنشاء هذا المجلس وتحديد صلاحياته ومدى سلطته ووضع الأسس والضوابط التي تقوم عليها سياسته والغرض من إنشائه .

وعاد الملك عبدالعزيز إلى الرياض بعد مبايعته ملكاً على الحجاز وتأليفه لمجلس الشورى فاستقبله عدد من علماء نجد وأعيانها ، وجموع من الأهالي للسلام عليه وتهنئته على ما حققه - بفضل الله - من فتح عظيم فقاموا بمبايعته ملكاً على نجد فأصبح لقبه « جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها » .

من هنا التقى عبدالعزيز بابنيه الأمير سعود وفيصل وتحدثوا عن نوايا ملك اليمن « الإمام يحيى » وسعيه للتقدم بجيشه زاحفاً إلى جبال « جازان » طمعاً في ضمها إلى ملكه حيث أثار النقاش حول هذه النقطة الأمير فيصل بقوله :

- إن الإمام يحيى قد استغل لجوء « الأدارسة » إليه ، وها هو الآن بصدد التقدم نحونا بحجة أن الأدارسة قد استنجدوا به لاستعادة حكمهم .

فقام الملك عبدالعزيز حين بلغه ذلك بإرسال قوة سعودية بقيادة ابنه الأمير فيصل متوجهاً إلى سواحل البحر الأحمر وقوة أخرى بقيادة الأمير سعود إلى جبال «السراة» و «نجران» .

وتأججت نار الحرب بين السعوديين واليمنيين حتى تقهقرت صفوف اليمنيين إلى الخلف وانهارت قوتهم واعتصم بعض جنودهم بالجبال من الحرب ، في حين واصل الأمير فيصل تقدمه تدريجياً باتجاه الأراضي اليمنية يوماً بعد يوم حتى توغل فيها محتلاً « الحديدة » ثم « باجل » إلى أن هم بدخول « تعز » .

وانصدم الإمام يحيى صدمة نفسية عنيفة حين رأى فلول جيشه وتمزقه في كل ناحية واتجاه وسقوط المدن اليمنية واحدة تلو الأخرى في أيدي السعوديين .

حين ذاك أعلن الإمام يحيى عن رغبته بقبول الصلح وبعث بممثله السيد «عبدالله الوزير» للالتقاء بالأمير خالد بن عبدالعزيز ممثلاً لوالده الملك عبدالعزيز لبحث الاتفاق على الصلح .

من هنا تم التوصل إلى اعتراف ملك اليمن بأن إقليم عسير وجازان ونجران جزء لا يتجزأ من الدولة السعودية ، وتعهده بسحب جنوده اليمنيين من نجران إلى الحدود المتفق عليها .

كما تعهد الجانب السعودي بسحب قواته من داخل اليمن وتسليم المدن اليمنية المحتلة وإطلاق الرهائن والأسرى اليمنيين والعفو عنهم ومنحهم الأمان ، حتى يعودوا إلى أهاليهم وذويهم .

الفصل الثاني عشر

وكان « التحضير » - أي الانتقال من البادية إلى الحاضرة - من أهم القضايا التي أولاها عبدالعزيز اهتماماً كبيراً في بداية إرسائه دعائم حكمه، وكانت من التطلعات التي تشغل هاجسه ، وذلك للقضاء على التعصب القبلي القائم على وحدة القبيلة، وعلى أساس الجنس أو العرق أو اللون، وعيش أفراد المجتمع على شكل فرق وشيع منغلقة على نفسها .

ولذلك فقد عمد إلى دمج أهل البادية ببعضهم لإزالة النعرات القبلية ، ورواسب الجهل والتخلف الاجتماعي، واستئناسهم من خشونة الطبع إلى رقته وليونته ، ومن قساوة الحياة إلى نعومتها ورخائها .

كما عهد أيضاً إلى دمج أهل البادية بأهل الحاضرة للقضاء على النزعة الإقليمية، وذلك كله للتأكيد على أن الولاء ليس للقبيلة، وليس للإقليم ، وليس لأي طائفة من طوائف الناس، وإنما لله تعالى ثم للدولة وللوطن الواحد .

وبعد أن قضى عبدالعزيز على فتنة « الإخوان » وقام بإحكام قبضة الأمن على بلاده تلقى دعوة من الملك فيصل بن الحسين « ملك العراق » يدعوه فيها لعقد اجتماع بينهما يهدف إلى توثيق عرى الصداقة ، وعلاقات حُسن الجوار بين البلدين الشقيقين ، وتوقيع معاهدة تقضي بطرد أهل الفتن ومثيري الشغب والعنف ، وتسليم المجرمين الخارجين على سلطة النظام والقانون .

من هنا بدأ الملك عبدالعزيز بالتوسع في سياسته الخارجية لإثبات دور دولته، وإبراز موقفها للمشاركة بالرأي العام، والإسهام بمواكبة تطور الأحداث السياسية العالمية.

وكان أكثر ما يشغل باله ويستحوذ على تفكيره هو « القضية الفلسطينية » وسعي الحكومة البريطانية سعي المجتهد من أجل حصولها على موافقة « ملك الحجاز وسلطان نجد » بشأن توقيع إتفاقية تهدف إلى إقامة مراكز معتمدة لبريطانيا في «فلسطين».

إلا أن الملك عبدالعزيز قد رفض توقيع هذه الاتفاقية رفضاً قاطعاً، أو حتى مجرد بحث المفاوضات حولها، مذكراً بريطانيا بما اتفقت عليه معه مسبقاً من احترام البلدان العربية وحقوق شعوبها في استقلالها وسيادتها على أراضيها.

ولم يغب عن ذهنه أن هذه إحدى بوادر الأطماع التوسعية للاستعمار الصهيوني في المنطقة.

وعلى رغم فشل مساعي بريطانيا للحصول على موافقة عبدالعزيز إلا أنه لا يزال يلوح لعينيها بصيص من الأمل لأن يقف من أهد افها في فلسطين موقفاً محايداً على الأقل.

إلا أنه كان كثيراً ما ينتهز فرص عقد المؤتمرات والاجتماعات والمناسبات العالمية للتنديد بسياسة بريطانيا، واستنكار ما تعزم على تنفيذه من مشاريع في بلد عربي مقدس.

وكانت هناك عدّة أسباب جوهرية يجابه بها عبدالعزيز موقف بريطانيا أولها: أن بريطانيا سبق وأن وعدت العرب باستقلالهم عن تبعية دول الاستعمار الأوروبي

وبخاصة الحكومة البريطانية نفسها التي تسيطر على معظم البلاد العربية، وثانيها : أن فلسطين جزء لا يتجرأ من بلاد العرب بالإضافة إلى مكانتها في نفوس المسلمين بلداً مقدساً تتمثل حرمته بوجود « المسجد الأقصى » على أرضه، وثالثها : أن فلسطين هي قضية العرب والمسلمين عموماً، ولن يقبل أي حاكم أو زعيم عربي أو مسلم بالتخلي عنها أو المساومة عليها، لأن الإسلام دين يفرض على المسلم التمسك بالمقدسات الإسلامية، والمحافظة عليها واحترام قدسيتها ، والدفاع عن حرمتها، ورابعها : أن إقحام بريطانيا لمشاريعها في فلسطين سيؤدي إلى نزاعات وصراعات دامية بين العرب والمسلمين ودول أوروبا، وهذا يؤدي بدوره إلى اختلال نظام الأمن العالمي ، وقيام الحروب التي تهدد بدمار الشعوب وفنائها .

وذات يوم نقلت الأخبار إلى عبدالعزيز قيام ثلة من اليهود بإلقاء قنابل على المسلمين الذين كانوا يؤدون صلاة الجمعة في المسجد الأقصى بفلسطين ، فاجتمع بأبنائه وعدد من أصحاب الرأي والمشورة وتطرقوا للحديث عن هذه الجريمة البشعة حيث بدأ الملك قائلاً :

- ما ذنب هؤلاء المسلمين الآمنين حتى يُقتلوا وهم يؤدون الصلاة خاشعين لله بقلوبهم وأبدانهم .

فأجاب الأمير سعود على هذا التساؤل المستنكر لوالده :

- إنهم اليهود المصابون بوباء الحقد المرير على العرب والمسلمين .

ثم قال الأمير فيصل :

- ليس في الأمر شك أن الحكومة البريطانية هي اليد القذرة التي تمد الصهاينة من وراء ظهور الناس بآلة التدمير والخراب .

وهذا يعني أن بريطانيا قد رضخت لمطالب الصهاينة المسيطرين على توجيه سياستها ، فضاقت بهم ذرعاً وأرادت التخلص منهم بتلبية رغبتهم الملحة في إيجاد وطن لهم في فلسطين .

حينئذ تحدث أحد العلماء بقوله :

- وبالطبع فإن الحجج الواهية التي يتذرع بها اليهود ويتشدقون بها هي أنهم قوم مستضعفون في الأرض ، ومغلوبون على أمرهم ، وأن فلسطين - كما تزعم بروتوكولاتهم وأساطيرهم الأولى - هي « أرض الميعاد » وموطن أجدادهم ومقام « هيكل سليمان » .

وهذا يذكرنا جميعاً بما أشار إليه « تيودور هرتزل » - الأب الروحي للحركة الصهيونية الحديثة - في كتابه الذي ألفه عن « الدولة اليهودية » عارضاً على الحكومات الأوروبية إمكانية قيامها في فلسطين .

فأطرق الملك عبدالعزيز لحظات ثم قال :

- ليس ذنبنا - نحن - بوصفنا عرباً ومسلمين حتى نتحمل تبعية اضطهاد يهود أوروبا . . أوروبا هي المسؤولة عن ذلك كله . . أراضيها أوسع من أراضينا ، وثرواتها أكثر من ثروتنا ، فعليها أن تبني ليهودها مستوطنات على أرضها ، وأن تتكفل بصرف مخصصات مالية لهم من ثرواتها .

وختم الاجتماع بكتابة الملك عبدالعزيز خطاباً وجهه إلى الملك البريطاني مستنكراً وقوع الحادث الأليم بالمسجد الأقصى ، ومعرباً فيه عن أسفه البالغ لعدم تمكن الحكومة البريطانية من اتخاذ الإجراءات الأمنية المشددة لردع مرتكبي جرائم العنف والإرهاب ، ومشدداً فيه على ضرورة محاكمة المجرمين ومعاقبتهم لمنع تكرار مثل هذا الحادث المؤسف مستقبلاً .

ومن ثم قام الملك عبدالعزيز سراً بإرسال معونات مادية ضخمة للمجاهدين الفلسطينيين الذين ثاروا منتفضين على اليهود احتجاجاً على حادث « الأقصى » ، وذلك إسهاماً منه لدعم كفاحهم وجهادهم دون أراضيهم وحرماتهم .

وهكذا ظل الملك عبدالعزيز - منذ توليه الحكم في شبه الجزيرة العربية - يعمل ليل نهار من أجل دينه وأرضه وشعبه ، وانتهاج السبل المثلى التي تحددها سياسة دولته الحديثة ، والسعي لراحة المواطنين بما يكفل لهم العيش الهنيء والشعور بالأمان ، وتوعيتهم بأهمية التكاتف والتعاون وتضافر الجهود لكون ذلك من المظاهر الاجتماعية الدالة على وعي المجتمع ، وتطوره ورقيه إلى مصاف المجتمعات الحضارية في العالم .

كما أنه عمد إلى التنظيم والتنسيق بين سياسته الداخلية والخارجية ، والموازنة بينهما وتحري الدقة والإتقان والوضوح في كل ما يقدم عليه من عمل ، وما يطمح إليه من أهداف سامية وغايات عظمى تنمّ عن عظم شخصيته كزعيم عربي مسلم .

فهو لا يوافق على توقيع اتفاقية أو معاهدة أومشروع قبل أن يعرف أهداف هذا الإتفاق أو المشروع ومضامينه ، ولا يصدر أمراً إلا بعد دراسة عميقة ومتأنية للتأكد من صحته وسلامته ، ومدى تأثيره وتطبيقه على الغرض الذي أصدر من أجله ،

ولاينفرد برأيه عن أصحاب الرأي والمشورة، بل كان يستشيرهم ويفسح لهم المجال لإبداء آرائهم ووجهات نظرهم ليستمع إليهم برحابة صدر وبشاشة وجه وصفاء نفس وسلامة نية.

هكذا كان عبدالعزيز في طفولته وصباه، وفي شبابه ورجولته، وفي سلمه وحربه، وفي عروبته وإسلامه، رجلاً عظيماً يندر أن تنجب الأمة العربية والإسلامية مثيلاً أو نظيراً له.

هذا وقد اجتمع عدد من العلماء وأعيان البلاد في « الطائف » مقررين في اجتماعهم الرفع إلى الملك عبدالعزيز باقتراح بجعل اسم المملكة العربية السعودية مكان الحجاز ونجد وملحقاتها، بحيث يكون اللقب الرسمي للملك هو « صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية ».

وقد رحب الملك عبدالعزيز بهذا الاقتراح، ووافق عليه وأصدر أمراً للجهات المختصة لاعتماده وتنفيذه، وتعميمه على كافة الدوائر الحكومية التابعة للمملكة في الداخل والخارج.

كما أصدر أمراً بوضع نظام للحكم في المملكة، وبتوارث العرش موصياً بولاية العهد لكبير أبنائه الأمير سعود الذي تمت مبايعته بذلك.

ملاحظات هامة لقاريء رواية شوال الرياض

١ ـ إن هذه الرواية تستمد أحداثها ووقائعها من حياة الملك الراحل عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود طيب الله ثراه .

٢ ـ اعتمدت هذه الرواية على تسلسل الأحداث والوقائع تسلسلاً زمنياً تاماً مرتباً حسب أولوية حدوثها أو وقوعها مع إسقاط التاريخ الزمني لها إسقاطاً تاماً ، اللهم إلا فيما ندر جداً كأن يحدث تصريح غير مباشر بزمن الحدث من خلال الرسائل المتبادلة بين الشخصيات الروائية .

٣ ـ سيرة الملك عبدالعزيز رحمه الله مليئة بالأحداث والوقائع والمواقف الكفاحية الكثيرة ، وقد ركزت هذه الرواية على معظمها وأهمها اختصاراً للوقت والجهد بالنسبة للكاتب والقارئ .

٤ ـ جميع أحداث هذه الرواية فيما بين عام ١١٥٨هـ بداية تأسيس الدولة السعودية الأولى ، وعام ١٣٥١هـ « ضم شبه الجزيرة العربية وتوحيدها تحت اسم المملكة العربية السعودية » .

٥ ـ اعتمد في ضبط سلسلة الأحداث وتتبعها على عدة مراجع تاريخية لا يستغني الكاتب عنها وهي :

أ ـ ملحمة عيد الرياض ، بولس سلامه .

ب ـ من حياة الملك عدالعزيز ، عبدالعزيز محمد الأحيدب .

جـ ـ مرآة جزيرةالعرب ، أيوب صبري باشا .

د ـ موعد مع الشجاعة ، قدري قلعجي .

هـ ـ الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز ، خير الدين الزركلي .

و ـ لسراة الليل هتف الصباح ، عبدالعزيز التويجري .

٦ ـ ما يوضع بين علامتي الإقتباس « . . . . . » كالحوار بين الشخصيات أوالرسائل المتبادلة بينها أو العبارات والجمل القصيرة هو مقتبس من المراجع التاريخية المذكورة أعلاه دون تحريف في هذا الإقتباس أو تغيير وذلك لإضفاء نوع من المصداقية المباشرة والواقعية التي يأنس بها القارئ ، أو لكون ما يجيء بين هاتين العلامتين مشهوراً ودارجاً ليس في المراجع فحسب ، بل حتى على ألسنة العامة .

٧ ـ ما لم يرد بين علامتي الإقتباس سواء ما يتعلق بالحوار أو الرسائل أو غيره هو من وحي خيال الكاتب حسب ما توحي به طبيعة الموقف الذي تتعرض له الشخصية ومستنبط من سياق الأحداث ، هذ مع الإشارة إلى أن الاقتباسات في هذه الرواية قليلة عموماً .

٨ ـ المراجع :

(١) مرآة جزيرة العرب ، أيوب صبري باشا ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ص١٠٤ .

(٢) ملحمة عيد الرياض ، بولس سلامة ، الحاشية ص ٧٠ .

(٣) لسراة الليل هتف الصباح ، عبدالعزيز ، التويجري ص ٤٧ .

(٤) ملحمة عيد الرياض ، بولس سلامة ، الحاشية ص ١٧٨ .

(٥) الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز ، خير الدين الزركلي ، الطبعة السادسة ص٢٣ .

(٦) من حياة الملك عبدالعزيز ، عبدالعزيز محمد الأحيدب ، الطبعة الثالثة ص١٢٣ .

(٧) الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز ، خير الدين الزركلي ، الطبعة السادسة ص٤٤ ـ ٤٥ .

(٨) المصدر السابق نفسه ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٩) المصدر السابق نفسه ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(١٠) ملحمة عيد الرياض ، بولس سلامه ص ٣٢٢ « الحاشية » .

(١١) المصدر السابق نفسه ص ٣٢٤ .

(١٢) المصدر السابق نفسه ص ٣٢٦ .

(١٣) المصدر السابق نفسه ص ٣٢٦ .

(١٤) المصدر السابق نفسه ص ٣٥٨ .

(١٥) المصدر السابق نفسه ص ٣٥٨ .

(١٦) الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز ، خير الدين الزركلي ص ٤٨ .

(١٧) المصدر السابق نفسه .

(١٨) موعد مع الشجاعة ، قدري قلعجي ص ٢٩٤ ـ ٢٠٥ .

المبحث الأول

دعوة صالح ـ عليه السلام ـ لقومه

هذه القصة الثالثة تصور مشهدًا من مشاهد الصراع بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا** ﴾ [١] أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا، فقوله: ﴿ **أَخَاهُمْ** ﴾ منصوب بهذا الفعل المحذوف، والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿ **لقد أرسلنا نوحا** ﴾ وقوله: ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودا** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **أَخَاهُمْ صَالِحًا** ﴾ بيان لعلاقته بهم وحرصه عليهم، وأنه كان من أشرفهم نسبًا، وأنه كان معروفًا فيهم بالأخلاق والفضل، وأنه كان مرجوًا لسيادتهم لو لم يخرج عن دينهم وما ورثوه عن آبائهم، أو أنه كان مقصدًا لكل ذي حاجة منهم، مستشارًا مؤتمنًا في إظهار جليات ما خفي عليهم أو اضطرب رأيهم فيه.

يدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ ﴿ **قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا** ﴾ [٢] أي: قبل هذا الذي جئتنا به فخالفتنا فيه ولم نعهده. من آبائنا وأسلافنا. ولذلك حسن أن تخبرنا سورة الأعراف بدعوة قومه مباشرة إلى عبادة الله وحده بعد هذا التعريف الموجز، قال تعالى: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [٣] دعاهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مناديًا لهم بقوله: ﴿ **يَا قَوْمِ** ﴾

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٢) سورة هود: الآية (٦٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

استمالة لهم، وتوددًا يذكرهم بالأواصر التي تجمعهم لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم وثقتهم به.

ولقد دعاهم ـ كما دعا بذلك الرسل أجمعون ـ إلى عبادة الله وحده لا شريك له الواحد القهار، كما قال تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[1] والملاحظ في دعوة نوح وهود وصالح ـ عليهم السلام ـ أنهم قالوا جميعًا لأممهم أول ما قالوا: ﴿ **اعبدوا الله** ﴾ ولم يُتْبعوا ذلك بذكر أسمائه ـ سبحانه وتعالى ـ كلها أو بعضها دليلاً على أنهم كانوا يعرفون الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه وحده المستحق للألوهية، وأن ذلك هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأن كفر هذه الأمم وغيرها كان ضلالاً عن الفطرة، فالعلم به ـ سبحانه وتعالى ـ مستقر في الروح غير أن الحجب الناشئة عن سوء الأعمال جعلت هذا العلم ينزوي.

وقوله: ﴿ **ما لكم من إله غيره** ﴾ استئناف مسوق لتعليل العبادة المذكورة أو الأمر بها، أي: مالكم من إله غيره مطلقًا يستحق أن يعبد، أو: إني أمرتكم بعبادة الله لأنه الإله الحق الذي لا إله سواه، ولذا جيء بـ ﴿ **من** ﴾ هنا لبيان بطلان عبادة غير الله بالكلية؛ لأن حرف الجر الزائد في سياق النفي يفيد الاستغراق. والمعنى: ليس لكم من إله سواه ـ سبحانه وتعالى ـ فتأليهكم أصنامكم خروج بكم عن الفطرة السليمة، وتسفيه لعقولكم، ووصف ما لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر بما لا يستحق، وذا من البديهات التي لا يصح أن يختلف عليها قط.

كما أنه ـ عليه السلام ـ علم أن هذه الحجة العقلية لا تنقذهم من ضلالهم وحدها فزادهم تذكيرًا بأنعم الله عليهم التي لم يفضلها عليهم غيره، وهم لا

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

يشكون في ذلك أدنى شك، ولا يستطيعون أن ينسبوها لأحد غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأن السبب في ضلالهم هو النسيان والغفلة، ولذا قال لهم ما حكاه الله في سورة الأعراف: ﴿ **واذْكُرُوا إذْ جعلكُمْ خُلفاء من بعْد عاد** ﴾[١] وقد علمتم ما حل بهم من العذاب لما أصروا على تكذيب نبيهم هود ـ عليه السلام ـ وأنه ما كان لكم وجود لولا أنكم نسل الصالحين الذين آمنوا بهود ـ عليه السلام ـ.

ثم إن صالحًا ـ عليه السلام ـ لما علم أن هذه النعمة التاريخية قد لا توصلهم إلى المطلوب زادهم تذكيرًا بما مكّنهم الله من فعله وما بوّأهم به من الأرض، يتخذون من سهولها قصورًا، أي: يبنون فيها قصورًا لسكناهم في الصيف حيث يطيب الهواء في هذه السهول مما يخفف عليهم حرارة الصيف، وأنهم ينحتون في الجبال بيوتًا بما أقدرهم عليه وأعطاهم إياه من الوسائل، وكانوا ينحتون هذه البيوت في الجبال ليسكنوا بها أيام الشتاء[٢] وتأميلاً في الدنيا فقد رُزقوا فيها طول العمر مما سهل عليهم نسيان الموت والظن بالخلود في الدنيا، كما أن نحت البيوت في الجبال لا يحوجهم إلى تجديدها من حين لآخر.

قال تعالى: ﴿ **وبوّأكُمْ في الأرْض** ﴾[٣] أي: أنزلكم فيها وأسكنكم، أرضهم بين الحجاز والشام، وهي المسماة بالحجر[٤] في سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿ **ولقدْ كذّب أصْحابُ الْحجْر الْمُرْسلين (٨٠) وآتيْناهُمْ آياتنا فكانُوا عنْها**

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٤.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٣/ ٢٤٣).

(٣) سورة الأعراف: آية (٧٤).

(٤) قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: وكانت منازلهم ـ قوم ثمود ـ بالحجر وهو بين تبوك والحجاز، قوله تعالى: ﴿ **هذه أنعام وحرث حجر** ﴾ سورة الأعراف، الآية (١٣٨) أي: حرام، قوله كل ممنوع فهو حجر، ومنه حجرًا محجورًا، أي: حرامًا محرمًا (٧/ ١٨٨).

مُعْرِضِين ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾[٢] أي: تبنون في سهولها قصورًا أو: تتخذون من هذه السهول لبنات تلك القصور ﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ أي: تجعلون منها بيوتًا صالحة لسكناكم واستقراركم - كما أشرت إلى ذلك آنفًا - ولم يُرِدْ صالح - عليه السلام - أن يعدد لهم كل ما أوتوا من نعمة فذلك لا يقدر عليه أحد، ولا يحيط به إلا الواحد الأحد.

ولذا قال ما حكاه الله: ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ﴾ والآلاء جمع إلْى، وألْو، وإلَى. قاله الواحدي[٣] وقال ابن عباس: «آلاء الله، أي: نعم الله عليكم»[٤].

والمعنى: اذكروا نعم الله الكثيرة عليكم النادة عن الحصر، فكيف تكفرون بالرحمن بعد هذه الدلائل؟ وقد أشارت سورة الشعراء إلى بعض ما حبوا به من النعم العظيمة، قال تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ[٥] ﴾[٦] كما نبههم إلى نعمة إنشائهم من الأرض، فإن أباهم آدم الذين هم من نسله، خلقه الله من التراب، وأن أجسامهم القوية تستمد قوتها مما أنبته الله لهم من الزروع والحبوب والفواكه، قال تعالى في سورة هود: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ

---

(١) سورة الحجر: الآيتان (٨٠، ٨١).

(٢) سورة الأعراف الآية (٧٤).

(٣) تفسير الرازي (١٤/ ١٥٨).

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) فارهين: حاذقين أو أشرين بطرين من غير حاجة لسكناها؛ انظر: تفسير النسفي، (٣/ ١٩٢) بتصرف.

(٦) سورة الشعراء: الآيات من (١٤٦) إلى (١٤٩).

﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي: أسكنكم وأنزلكم، فهو تكرار لقوله تعالى: ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ والتكرار لمتبلدي الأحاسيس، أو: جعلكم فيها أطول عمرًا من غيركم، وهذه نعمة عظمى فالبشر من قديم الزمن يتمنون طول العمر ويدعو بعضهم لبعض به، والدعاء من المؤمنين بطول العمر وصلاح العمل شرع ودين.

وقد ذكرت سورة هود أنه دعاهم إلى استغفار الله ـ تعالى ـ عن ما اقترفوا، والتوبة النصوح من كل ما هم عليه من سوء، فقال تعالى: ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾[1] وما أحسن التعبير بـ (الفاء) و(ثم) وما أبدعه! وكذلك باسميه الكريمين: القريب والمجيب.

أما حسن التعبير بـ (الفاء) فهو راجع إلى حفزهم على الإسراع بالتخلص مما هم فيه عقيب قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ فإلهٌ هذا صُنعه بهم؛ حقيق بأن يذوبوا أسفًا على كل لحظة مرت عليهم وهم كافرون به، وإنه لحقيق بأن يستغفروه قبل أن تحل نقمته عليهم، فإنه الغني عن العالمين والكل في غاية الافتقار إليه.

وأما حسن التعبير بـ (ثُمَّ) فهو لبيان أن توبتهم لا تكون إلا بالمجاهدة الشديدة، المؤسسة على الإيمان، وأنهم لن يصلوا إليها إلا بذلك.

وأما حسن التعبير باسميه الجليلين: (القريب والمجيب) فهو لتعطيفهم نحو ربهم، وإشعارهم بقرب رحمته منهم ومن العالمين كافة، وأنه يجيب من لجأ إليه متى أناب إليه ورجع قبل أن يعاين العذاب، وأنه لا يجعل ماضي الكافرين وعصيانهم حاجبًا عن رحمته مع أنهم به ـ الماضي ـ حقيقون بألا يُرحموا. قال أبو

(١) سورة هود: الآية (٦١).

السعود ـ رحمه الله ـ: «وقد روعي في النظم الكريم نكتة؛ حيث قدَّم ذكر العلة الباعثة المتقدمة على الأمر بالاستغفار والتوبة، وأخّر عنه ذكر الغائبة المتأخرة عنهما في الوجود؛ أعني: الإجابة»[١].

وأعود إلى سورة الأعراف لاستكمال أسس دعوة صالح ـ عليه السلام ـ فإنه ـ عليه السلام ـ زجرهم عما هم عليه من فساد وعتو في الأرض، يفعلون ما يحلو لهم دون تذكر للمحاسبة والمعاقبة من الله لهم على عتوهم وفسادهم، فقال تعالى على لسانه ـ عليه السلام ـ: ﴿ **وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴾[٢] والعثو[٣] هو الفساد في الأرض، لكنه جاء مؤكدًا بالحال لبيان ما كانت عليه ثمود من شدة الفساد في الأرض، ومجيء هذا النهي بعد تذكيرهم بأنعم الله عليهم له موقعه، فهو بمثابة العقاب لمن لم يثمر فيه الإحسان، وهو منهج قويم للدعاة يتعلمون منه ألا يشتدوا إلا بعد المبادأة بالدعوة والتذكير بالأمر الجميل ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ وألا يفضحوا أخلاق المدعوين إلا بعد أن يتأكدوا بأن الرفق لم يثمر ولم يُجد معهم ولا يوصل إلى زوال الأخلاق السيئة منهم.

كما نهى عامتهم عن طاعة المسرفين منهم على أنفسهم، والذين يفسدون في الأرض ولا يكون منهم صلاح البتة، وذلك بعد أن دعاهم إلى تقوى الله وطاعته ـ عليه السلام ـ فيما دعاهم إليه. وقد ساق إليهم من الترغيب والترهيب ما يحملهم على تلك الطاعة، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا**

---

(١) تفسير أبي السعود، (٤/ ٢٢١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٤).

(٣) قال ابن منظور: ﴿ **ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾ من عثي يعثى عثوًا وهو أشد الفساد. بتصرف، انظر: لسان العرب (١٥/ ٢٨، ٢٩).

تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾[١].

قال النسفي: «﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ بالظلم والكفر ﴿ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ بالإيمان والعدل، والمعنى: أن فسادهم مصمت[٢] ليس معه شيء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح»[٣].

❊ ❊ ❊

(١) سورة الشعراء: الآيات من (١٥٠) إلى (١٥٢).

(٢) أي: دائم.

(٣) تفسير النسفي، (٣/ ١٩٢).

المبحث الثاني
موقف ثمود من دعوة نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ

مما سبق بيانه عن دعوة صالح ـ عليه السلام ـ لقومه يتضح لنا أنه ـ عليه السلام ـ دعا قومه إلى إخلاص العبادة لله ـ جل وعلا ـ واجتهد في نصحهم، وذكَّرهم بآيات الله ونعمه عليهم، وأقام لهم الأدلة القاطعة على صدقه وأمانته، ولكن قومه استحبوا العمى على الهدى، وأبدوا غاية الجحود والعناد والكفر، وأصروا على تكذيبه وعداوته. فيما يلي نتعرف على موقفهم من دعوة نبيهم ـ عليه السلام ـ.

أولاً: استنكروا دعوته إلى عبادة الله وحده وكذبوا رسالته:

لقد استحوذ عليهم الشيطان، وزين لهم الكفر بالله، وحببه إلى نفوسهم، وأعمى أبصارهم عن الاهتداء إلى الحق، وأصمَّ آذانهم فأنكروا على نبيهم نهيه لهم عن عبادة ما كان آباؤهم يعبدونه من الأصنام، وما استحلوه من الذنوب والآثام، فقالوا له على سبيل الإنكار: ﴿ **قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا** ﴾ وقد سبق أن تعرضت لصدر هذه الآية في أول هذا المبحث، ويهمني الكلام عن قوله تعالى: ﴿ **أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ...؟** ﴾[1] إنه التقليد الذميم للباطل القديم، الذي كان عليه الآباء والأجداد، دون تبصر للحق ودون تمييز!

---

(١) سورة هود: الآية (٦٢).

فالاستفهام فيها إنكاري بمعنى النفي، أي: لا يصح لك يا صالح أن تتعرض لهذه القضية المألوفة لنا الموروثة عن آبائنا، فإن التعرض لها يصرفنا عن قبول دعوتك؛ لأن قلوبنا مستقرة على ما نحن عليه، لو كان آباؤنا على باطل فيها لجاءتهم الرسل تنهاهم عن ذلك كما نهيتنا، والقوم في هذا مغالطون لأنهم خلفاء عاد، وقد بعث الله إليهم نبيهم هودًا ـ عليه السلام ـ بهذه الدعوة التي هي دعوة صالح ـ عليه السلام ـ.

وقوله تعالى: ﴿ **وإنّنا لفي شكّ ممّا تدعُونا إليه مُريب** ﴾[1].

﴿ **وإنّنا لفي شكّ** ﴾ قد عمّنا ولفنا، وحيرنا وأرابنا في أمرك بدعوتك إيّانا إلى التوحيد وترك عبادة الأوثان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة. وهذا دليل على تأثير دعوة نبيهم فيهم، وهز عقائدهم الباطلة في نفوسهم، ولا يعني أنهم أكدوا شكهم فيما دعاهم إليه بـ (إن) و(اللام) وكونهم في هذا الشك جميعًا لأن عقائدهم لو لم تهتز في نفوسهم لقالوا: وإننا لفي يقين من بطلان ما تدعونا إليه وهكذا الباطل مهما تشبث به أصحابه، وحاولوا إظهاره، فإن نفوسهم لا تطمئن إليه، وقوله: ﴿ **مُريب** ﴾ أي: موقع في الريبة، من: أرابَه: أوقعه في الريبة، أي: قلق النفس وانتفاء الطمأنينة.

وقد بيّنت سورة الأعراف بطلان دعواهم، والإجماع على التشكك والارتياب في دعوته، حيث يقول تعالى: ﴿ **قال المَلأُ الّذين استكبَروا من قومه للّذين استُضعِفُوا لمن آمن منهُم أتعلمُون أنّ صالحًا مُرسلٌ من ربّه قالُوا إنّا بما أُرسل به مؤمنُون (٧٥) قال الّذين استكبَروا إنّا بالّذي آمنتُم به كافرُون** ﴾[2].

---

(١) سورة هود: الآية (٦٢).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (٧٥، ٧٦).

ونأخذ من هذه الآية جملة حقائق :

أولها : أن الملأ المستكبرين في كل أمة هم سبب شقائها .

ثانيها : أن ملأ ثمود قد راعهم إيمان بعض المستضعفين بصالح ـ عليه السلام ـ مع أن هؤلاء المستضعفين خاضعون لهم ، وما كانوا ملأ إلا بهم ، وقد يقوي هؤلاء المستضعفون بنبيهم صالح ـ عليه السلام ـ فيسلبون هؤلاء الملأ قوتهم .

ثالثها : محاولة ثَنْي المستضعفين عن إيمانهم بما قصه الله عنهم ﴿ **أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ** ﴾ ؟! فالاستفهام هنا ليس على حقيقته ، بل هو للتعجب من إيمان هؤلاء المستضعفين وإنكاره عليهم ، وقد أرادوا بقولهم هذا محاربة دعوة صالح ـ عليه السلام ـ والفتّ في عضد المستضعفين .

رابعها : أن الإيمان يزيل ضعف النفوس ، ويجعل المستكبرين المتجبرين غاية في الهوان في نظر المؤمنين ، ولذا لم يرهبهم المؤمنون ولم يخافوهم على أنفسهم ، مع كونهم مستضعفين كما حكته الآية ، بل قالوا مؤكدين إيمانهم بنبيهم بـ (إن) التي هي لتوكيد الخبر ﴿ **إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ** ﴾ وغرضهم من ذلك أن يُقنطوا الملأ من الطمع في كفرهم بعد أن هداهم الله للإيمان حيث عمموا الإيمان بكل ما أرسل به صالح ـ عليه السلام ـ مما يستغر به الملأ كدعوتهم للتوحيد ، ومما قد يسلمون به كدعوته إلى مكارم الأخلاق ، فإن مكارم الأخلاق تجذب الإنسان إليه وإن كانت عقيدته منحرفة ، ولذا جاء قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ** ﴾ ماضيًا مبنيًا لما لم يُسمَّ فاعله ليترجم عن قصد هؤلاء المستضعفين ، ولذلك قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ** ﴾ ولو قال تعالى : قال الملأ الذين استكبروا من قومه لمن آمن منهم . لفاتت هذه المعاني ولَظُن أن بعض الملأ قد آمن بصالح ـ عليه السلام ـ .

ولما يئس الملأ من تَوْهين إيمان المستضعفين واجهوهم بالإعلان عن كفرهم بما جاء به صالح ـ عليه السلام ـ وبما آمنوا به، وقد وصف الله ـ جل وعلا ـ ملأ صالح ـ عليه السلام ـ بالكبر مرتين في هاتين الآيتين لبيان أن سبب إعراض مَن أعرض عن دعوة صالح ـ عليه السلام ـ هو الاستكبار، لا عدم وضوح دعوته، أو مجيئه بما هو مستغرب في نفسه.

وهذا الكبر الذي وُصف به ملأ صالح ـ عليه السلام ـ هو داء سائر الأمم المكذبة، وإنك لتجده منصوصًا عليه في أغلب الأحيان، وفي بعضها تستشعره من حال بعض المستكبرين الذين لم يوصفوا به صراحة؛ لأنهم قد وصفوا بأوصاف أخرى تستدعي وتدل عليه كالكفر والترف والتكذيب بيوم الدين، وغير ذلك من الأوصاف.

وقد أسلفت الكلام عن الكِبْر بإيجاز في قصة آدم ـ عليه السلام ـ في بيان الوسائل التي يستخدمها الشيطان في إغواء بني آدم وإضلالهم[(١)].

ومن لطيف ما علّق به الفخر الرازي على تفسير هذه الآية: ﴿**قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا**﴾ قال: «إن وصف أولئك الكفار بكونهم مستكبرين فعل استوجبوا به الذم، ووصف أولئك المؤمنين بكونهم مستضعفين معناه أن غيرهم يستضعفهم ويستحقرهم وهذا ليس فعلاً صادرًا عنهم بل غيرهم، فهو لا يكون صفة ذم في حقهم، بل الذم عائد إلى الذين يستحقرونهم ويستضعفونهم»[(٢)].

وأشار أبو السعود إلى فائدة عظيمة في تأويل الآية، فقال ـ رحمه الله ـ:

---

(١) انظر: من ص (١٧٧) إلى ص (١٧٩) من بحثنا هذا.

(٢) بتصرف من تفسير الفخر الرازي (١٤/ ١٦٥).

«وقوله: ﴿ أتعلمون أنَّ صالحًا مُرْسلٌ مِّن رَّبِّه ﴾؟! وإنما قالوا ذلك بطريق الاستهزاء بهم ﴿ قالُوا إنَّا بما أُرْسل به مُؤْمنون ﴾ عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا: نعم، أو: نعلم أنه مرسل منه ـ تعالى ـ، مسارعةً إلى تحقيق الحق، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذي تنبيء عنه الجملة الاسمية، وتنبيهًا على أن أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغي أن يسأل عنه، وإنما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به.

وقوله: ﴿ قال الْملأُ الَّذين اسْتكْبرُوا ﴾ أعيد الموصول مع صلته مع كفاية الضمير إيذانًا بأنهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار.

وقوله: ﴿ إنَّا بالَّذي آمنتُم به كافرُون ﴾ وإنما لم يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون، إظهارًا لمخالفتهم إياهم، وردًا لمقالتهم». ا. هـ[1].

ثانيا: استنكروا بشريته واتهموه بالكذب والكبر:

استبعدت ثمود أن يبعث الله إليها رسولاً من أنفسهم، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من الأمم، مثل قوم عاد ونوح، وقد تناولتُ هذه الشبهة عند حديثي عن قوم نوح وما ذكر هناك[2] ينطبق على ما هنا.

وإليك بيان قولهم كما حكاه القرآن على لسانهم بعد أن كذبوا بالأنبياء ﴿ فقالُوا أبشرًا مِّنَّا واحدًا نَّتَّبعُهُ إنَّا إذًا لَّفي ضَلالٍ وسُعُرٍ ﴾[3].

قولهم: ﴿ أبشرًا ﴾ إنكار لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية، ، طلبوا أن يكون من الملائكة لأن الملائكة في نظرهم أشد مهابة وأكمل طهارة . . . إلخ.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٣/ ٢٤٣).

(٢) انظر: من ص (٢٢٦) إلى ص (٢٢٩) من بحثنا هذا.

(٣) سورة القمر: الآية (٢٤).

وقولهم ﴿ مَنَّا ﴾ ما دام منَّا فلمَ خُص من بيننا بالرسالة؟ ولذلك قالوا: أبشرًا منا، وقولهم: ﴿ واحدًا ﴾ إنكار لأن تتبع الأمة رجلاً واحدًا. أو المراد إنكار أن تتبع الأمة شخصًا واحدًا من أوسطهم وليس من أشرفهم وأفضلهم، يدل عليه قولهم: ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ أي: أنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة؟ ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾[1] أي: بطر متكبر، حمله بَطَره وطلبه التعظيم علينا على ادعاء ذلك[2].

ثالثًا: كذَّبوا بالبعث وأنكروا وقوعه:

لقد امتنّ الله على ثمود بالنعم الوفيرة، فكانوا في رغد من العيش، أمدهم خالقهم بالقوة وبطول العمر[3] فضلاً عما حبوا به من الزروع والثمار، وفجَّر لهم العيون والأنهار، فكان اللائق بهم أن يزدادوا إيمانًا بالله وشكرًا لما أفاض عليهم لكنهم كفروا وجحدوا تلك النعم، وأعماهم حب الدنيا عن الإيمان باليوم الآخر فأنكروا وقوعه، واطمأنوا إلى دنياهم واستأنسوا بها، وقد أنكر عليهم نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ ذلك، وقال ما قصه القرآن على لسانه: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾[4]. أي: إنه ـ عليه السلام ـ أنكر عليهم أن يُتركوا خالدين في نعيم لا يزالون عنه؛ لأن ركونهم

---

(١) سورة القمر: الآية (٢٥).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٤/ ٢٠٤).

(٣) قال الألوسي نقلاً عن ابن إسحاق عند ذكر قصة ثمود: «إن عادًا لما هلكوا عمرت ثمود بعدها، واستخلفوا في الأرض وعمروا حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتًا، وكانوا في سعة من معايشهم . . . الخ» (تفسير الألوسي ٨/ ١٦٦).

(٤) سورة الشعراء: الآيات من (١٤٦) إلى (١٤٨).

إلى ما حباهم الله به من النعم زين لهم حب دنياهم، أضف إلى ذلك ما دأبوا عليه من طول العمر، كما قال تعالى في معرض تذكيرهم بالنعم التي منّ الله بها عليهم: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ وذلك بأن أطال أعمارهم، كل ذلك جعلهم ينسون الآخرة، ومع تطاول الأزمان كذبوا بالبعث وأنكروا وقوعه.

وقوله: ﴿ آمِنِينَ ﴾ من العذاب والزوال والموت، تتمتعون في جنات وعيون ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ الطلع هو ما يخرج من النخل كنصل السيف ﴿ هَضِيمٌ ﴾ ليّن نضيج، والمعنى: أمدكم بالنخيل الذي قد أرطب ثمره[1].

ثم حثهم على تقوى الله، واجتناب محارمه، وتذكر الموت الذي لا مفر منه لأنه سيُجازي كلاً منهم بعلمه، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أي: أطيعوني فيما جئتكم به، فإن في طاعتكم لي سعادتكم في دنياكم وآخرتكم.

رابعاً: رموه بالسحر:

عندما يعجز المكذبون للرسل عن مواجهتهم، ويشعرون أنهم قد غلبوا وهزموا وقد ألقموا الحجة، ليس هناك مخرج لهم إلا أن يتهموا نبيهم بالسحر، وبعضهم يتهمونهم بالجنون والعته.

فلقد حاجّ صالح ـ عليه السلام ـ قومه بالحجة والبرهان القاطع على صدق رسالته[2] فما كان لهم سبيل للخروج من مأزقهم الذي أوقعهم فيه إلا اتهامه بالسحر، كما قصه القرآن الكريم على لسانهم: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾[3].

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٣/ ١٩٢).

(٢) إتيانهم بالمعجزة وهي الناقة العشراء أكبر برهان قاطع على صدق رسالته.

(٣) سورة الشعراء: الآية (١٥٣).

والمُسَحَّر: الذي سحر كثيرًا حتى غلب على عقله[١] فلا يستطيع تمييز الحسن من القبيح والخير من الشر والصالح من الطالح، وقصدهم بذلك الطعن في رسالته.

خامسًا: طلبهم المعجزة الحسية:

قال تعالى في بيان إنكارهم دعوتهم، وتعنتهم معه بطلب الخوارق الحسية، والعجائب الخارجة عن المألوف: ﴿ **ما أنت إلاَّ بشرٌ مِّثْلُنا فأْت بآية إن كُنت من الصَّادقين** ﴾[٢] أي: بآية حسية خارجة عن نطاق العادة ﴿ **إن كُنت من الصَّادقين** ﴾ في دعوى النبوة والرسالة، وقد أعطاهم الله ـ تعالى ـ معجزة الناقة، وجعلها فتنة عظيمة لهم، حيث كانت سببًا في هلاكهم واستئصالهم لعدوانهم عليها.

ومن سنن الله ـ تعالى ـ في الأمم المكذبة أنهم إذا اقترحوا آية فأعطوها ثم لم يؤمنوا حل بهم عذاب الله ـ تعالى ـ، ولذلك لم تُجَبْ قريش في ما اقترحت على سيد الخلق ﷺ لأن الله لم يرد إهلاك هذه الأمة، ومعاملتها بما عومل به الأولون.

قال تعالى: ﴿ **وما منعنا أن نُرْسل بالآيات إلاَّ أن كذَّب بها الأوَّلون وآتينا ثمُود النَّاقة مُبْصرة فظلَمُوا بها وما نُرْسلُ بالآيات إلاَّ تخْويفًا** ﴾[٣] والمراد بالآيات في هذه

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٣/ ١٩٢).

(٢) سورة الشعراء: الآية (١٥٤).

(٣) سورة الإسراء: الآية (٥٩).

أخرج الواحدي بسنده عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعون، فقيل له: إن شئت تستأني بهم لعلنا نجتبي منهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم، قال: لا، بل أستأني بهم فأنزل الله: ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ...** ﴾ الآية. انظر أسباب النزول للواحدي، بتحقيق السيد أحمد صقر ص (٢٩٥، ٢٩٦)، ص (٢٧٧، ٢٧٨).

الآية الخوارق الحسية، وقد توزع الحديث عن ناقة صالح في السور التي تناولت هذه القصة ففي سورة الأعراف التي هي موضوع بحثي يقول تعالى: ﴿ **قَدْ جاءتْكُم بيِّنَةٌ** ﴾[1] أي: معجزة حسية واضحة مستغربة غير مألوفة، وقد فسر الله ـ تعالى ـ هذه البينة بقوله: ﴿ **هذه ناقةُ اللهِ لكُمْ آيَةً** ﴾ أي: جعلها الله معجزة خاصة بكم، ودليل صدقي في أن الله أرسلني إليكم، وقد أضاف الله الناقة إليه ليستقر في قلب ثمود خطر العدوان عليها، فإنها ناقة خلاَّق القوى والأقدار الذي يحمي ماله وينزل النقمة بالمعتدى عليه، وليمهد بذلك إلى بيان أحوال هذه الناقة التي قد لا يطيقونها ولا يصبرون عليها، وقد بينت سورة الأعراف بعض ما لهذه الناقة من الصفات والخصال، قال تعالى: ﴿ **فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ** ﴾ والمعنى: كل أرضكم كلأ مباح لها، لا تمنع من ارتياد ما تشاؤه منها، ولذا قال: ﴿ **فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ** ﴾ وفي الآية إشارة للمالك الحقيقي للكون كله، المتصرف فيما يشاء وكيف شاء، وله الحكمة البالغة، لا معقب لحكمه؛ فثمود عباد الله يأكلون في أرض الله، والناقة خلق الله تأكل في أرض الله، وإذا كان من مشيئة الخالق ـ عز وجل ـ توزيع ملكية أرضهم بينهم، فقد شاء أن تكون كل هذه الأرض مباحة لتلك الناقة، فتقسيمها بينها وبينهم بإرادته، وإباحتها للناقة بإرادته ﴿ **وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ** ﴾ فإنكم إن فعلتم هذا أخذكم عذاب أليم، ونكّر السوء مبالغة في النهي.

﴿ **ولا تمسُّوها بسُوءٍ فيأْخُذكُمْ عذابٌ أليمٌ** ﴾[2] وقد بيّن هذا النص حلول العذاب عليهم عقب مسها بسوء، بلا تراخٍ، وأن هذا العذاب عام شامل لا يقتصر على من مسها، وأن هذا العذاب بالغ الهول والشدة، ويلاحظ أنه ـ جل

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

وعلا ـ نهاهم عن مسها بسوء إكرامًا لها، فنهيُهم عن نحرها أو عقرها أو منعها من الكلأ والماء من باب أولى، فالجملة وعيد شديد لمن يمسها بسوء[١] وإذا كانت سورة الأعراف قد بينت أن الأرض كلها لها مرتع: ﴿ **فذروها تأكل في أرض الله** ﴾ فقد بينت سورة الشعراء أن ماء ثمود مقسم بينهم وبينها، لها شرب يوم، ولهم شرب يوم معلوم، فلا يشربون في يومها ولا تشرب في يومهم، قال تعالى: ﴿ **قال هذه ناقةٌ لها شربٌ ولكم شربُ يومٍ معلوم** ﴾[٢].

وأشار إلى ذلك ـ جل وعلا ـ في سورة القمر فقال تعالى: ﴿ **إنا مرسلوا الناقة فتنةً لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمةٌ بينهم كلُّ شربٍ محتضر** ﴾[٣].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ **إنا مرسلوا الناقة** ﴾ أي: مخرجوها من الهضبة التي سألوها، فروي أن صالحًا صلى ركعتين ودعا، فانصدعت الصخرة التي عينوها عن سنامها، فخرجت ناقة عُشراء وبراء ﴿ **فتنةً لهم** ﴾ أي: اختبارًا وهو مفعول له ﴿ **فارتقبهم** ﴾ أي: انتظر ما يصنعون ﴿ **واصطبر** ﴾ أي: اصبر على آذاهم ﴿ **ونبئهم** ﴾ أي: أخبرهم ﴿ **أن الماء قسمةٌ بينهم** ﴾ أي: بين آل ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم كما قال تعالى: ﴿ **لها شربٌ ولكم شربُ يومٍ معلوم** ﴾.

قال ابن عباس: كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئًا من الماء وتسقيهم لبنًا، وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تبق لهم شيئًا. وإنما قال: ﴿ **بينهم** ﴾ لأن العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم غلَّبوا بني آدم.

---

(١) انظر: تفسير سورة الأعراف لفضيلة الدكتور/ أحمد السيد الكومي، والدكتور/ محمد سيد طنطاوي، ص (١١٩).

(٢) سورة الشعراء: الآية (١٥٥).

(٣) سورة القمر: الآيتان من (٢٧، ٢٨).

وروى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحجر في مغزى رسول الله ﷺ تبوك قال: «**أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات؛ هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة، فبعث الله - عز وجل - إليهم الناقة، فكانت ترد من ذلك الفج فتشرب ماءهم يوم وردها، ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون يوم غبها**»[1] وهو معنى قوله تعالى: ﴿**وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ**﴾.

﴿**كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ**﴾ الشرب - بالكسر - الحظ من الماء وفي المثل: آخرها أقلها شربا، وأصله في سقى الإبل لأن آخرها يرد وقد نزف الحوض، ومعنى ﴿**مُّحْتَضَرٌ**﴾ أي: يحضره من هو له، فالناقة تحضر الماء يوم وردها، وتغيب عنهم يوم وردهم. قاله مقاتل، وقال مجاهد: «إن ثمود يحضرون الماء يوم غبها فيشربون، ويحضرون اللبن يوم وردها فيحتلبون»[2].

ومن الملاحظ في الآثار التي أوردها القرطبي من خلال علاقة ثمود بالناقة أن الناقة وهي عجماء قد التزمت بأمر ربها فلم تشرب الماء في يومهم، على حين أنهم مع ما لهم من العقل والتمييز الحاصل بتكريم بني آدم، وتفضيلهم على كثير ممن خلق، لم يمتثلوا أوامر الله بشأن هذه الناقة، فكانوا من الهالكين.

وتكميلاً للفائدة، أنقل للقارىء الكريم ما رواه علماء التفسير والتاريخ في بسط قصة ثمود لمكان العظة والاعتبار، وإلاّ فجلي أن ما أجمله التنزيل الكريم لا غاية وراءه في ذلك، وما سكت عن بيانه من تلك القصص فلا حاجة إلى السعي وراءه لفقد القطع والجزم به، اللهم إلا لزيادة الاتعاظ، وتقوية العبرة فإنه لم يرد

---

(١) انظر: المستدرك للحاكم ذكر نحوه (٢/ ٥٦٧).
وانظر: الفتح الرباني شرح مسند الإمام أحمد، (٢٠/ ٤٤).
(٢) انظر: تفسير القرطبي، (١٧/ ١٤٠، ١٤١).

حديث صحيح يسلم بصحته ويعوّل عليه، وإنما هي قصة ذكرها المؤرخون ونقلها بعض المفسرين ولا يخفى ما فيها، والله أعلم.

وقصة ثمود على ما ذكر ابن إسحاق وغيره أن عادًا لما هلكوا عمرت ثمود بعدها، واستخلفوا في الأرض، وعمروا حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتًا، وكانوا في سعة من معاشهم، فعتوا في الأرض وعبدوا غير الله ـ تعالي ـ فبعث الله ـ تعالى ـ إليهم صالحًا، وكانوا قومًا عربًا وكان صالح ـ عليه السلام ـ من أوسطهم نسبًا، وبُعث إليهم وهو شاب فدعاهم إلى الله ـ تعالى ـ حتى شمط وكبر، ولم يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون، فلما ألح عليهم بالدعاء والتخويف سألوه أن يريهم آية تصدق ما يقول فقال لهم: أية آية تريدون؟ فقالوا: تخرج غدًا معنا إلى عيدنا، وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم، فتدعوا إلهك وندعو آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك، وإن استجيب لنا اتبعتنا، فقال لهم صالح: نعم، فخرجوا وخرج معهم، فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به، ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود: يا صالح آخرج لنا من هذه الصخرة ـ لصخرة منفردة ناحية الحجر يقال لها: الكاثبة ـ ناقة مخترجة، أي تشاكل البخت، أو: مخرجة على خلقة الجمل جوفاء[1] وبراء[2]، فإن فعلت صدقناك وآمنا بك، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم: لئن فعلت لتصدقني ولتؤمنن بي؟ قالوا: نعم، فصلى ركعتين ودعا ربه، فتمخضت الصخرة تمخض النتوج لولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء[3] جوفاء وبراء: ما وصفوا، لا يعلم ما بين

(١) جوفاء: عظيمة الجوف. أي: البطن.

(٢) وبراء: الوبر صوف الإبل، وناقة وبراء، أي: كثيرة الصوف.

(٣) عُشراء: كفُقَهاء وهي الناقة التي أتى عليها من وقت الحمل عشرة أشهر.

جنبيها إلا الله ـ تعالى ـ عظمًا، وهم ينظرون، ثم نتجت ولدًا مثلها في العظم، فآمن به جندع ورهط من قومه، وأراد أشرافهم أن يؤمنوا به فمنعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب ـ صاحب أوثانهم ـ ورباب ابن صعر ـ كاهنهم ـ فلما خرجت الناقة قال لهم: هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، فمكثت الناقة ومعها سقبها[1] في أرضهم ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترده غبًا[2] فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال له الآن: بئر الناقة، فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها، ثم ترفع رأسها وتنفحج لهم فيحلبون ما شاءوا من اللبن فيشربون ويدخرون، ثم تصدر من غير الفج الذي وردت منه لا تقدر تصدر من حيث ترد لضيقه عنها، حتى إذا كان الغد يومهم فيشربون ما شاءوا ويدخرون ما شاءوا ليوم الناقة، ولم يزالوا في سعة ورغد، وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادي، فتهرب منها مواشيهم وتهبط إلى بطن الوادي في حره وجدبه، وتشتوي في بطن الوادي، فتهرب مواشيهم إلى ظهره في برد وجدب، فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله ـ تعالى ـ بهم والبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم، فأجمعوا على عقرها، وكانت امرأتان من ثمود يقال لإحداهما: عنيزة بنت غنم بن مجاز وتكني بأم غنم، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزًا مسنة ذات بنات حسان، وذات مال من إبل وبقر وغنم، ويقال للأخرى: صدوق بنت المختار، وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح ـ عليه السلام ـ وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرت من مواشيهما، فدعت صدوق رجلاً يقال له: الحباب، لعقر الناقة، وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبى فدعت ابن عم لها يقال به: مصدع بن

(١) سقبها: السقب ولد الناقة، وقيل: الذكر من ولد الناقة.

(٢) غبًا: بالكسر في سقي الإبل يوم ويوم.

مهرج وجعلت له نفسها إن هو فعل فأجابها إلى ذلك، ودعت عنيزة أم غنم قدار بن سالف وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه لزانية، ولم يكن لسالف لكنه ولد على فراشه، فقالت: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة، وكان عزيزاً منيعًا في قومه فرضي، وانطلق هو ومصدع فاستغويا غواة ثمود فأتبعهم سبعة فكانوا تسعة رهط، فانطلقوا ورصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى، فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها، وخرجت أم غنم فأمرت إحدى بناتها وكانت من أحسن الناس وجهًا فسفرت عن وجهها ليراها قدار، ثم حثته على عقرها فشد على الناقة بالسيف، فكشف عن عرقوبها، فخرت ورغت رغاة[1] واحدة فتحدر سقبها من الجبل، ثم طعن قدار في لبتها[2] فنحرها، فخرج أهل البلدة فاقتسموا لحمها فلما رأى سقبها ذلك انطلق هاربًا حتى أتى جبلاً منيعًا يقال له: قارة، فرغا ثلاثًا وكان صالح ـ عليه السلام ـ قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يدفع عنكم العذاب فخرجوا في طلبه فرأوه على الجبل، وراموه فلم ينالوه، وانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: لكل رغوةٍ أجلُ يوم، تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، ذلك وعد غير مكذوب.

وعن ابن إسحاق أنه تبع السقب من التسعة أربعة وفيهم مصدع، فرماه بسهم فأصاب قلبه ثم جر برجله فأنزله، وألقوا لحمه مع لحم أمه، وقال لهم صالح: انتهكتم حرمة الله ـ تعالى ـ فأبشروا بعذابه ونقمته، فكانوا يهزأون به ويقولون:

---

(١) رغت رغاة: الرغاء صوت ذوات الخف.

(٢) لبتها: بوزن الحبَة، أي: المنحر.

متى هو؟ وما آيته؟ فقال: تصبحون غداً - وكان يوم الخميس - ووجوهكم مصفرة، وبعد غد ووجوهكم محمرة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب، فهمّ أولئك الرهط بقتله فأتوه ليلاً فدفعتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح: أنت قتلتهم. ثم هموا به فمنع عنه عشيرته، ثم لما رأوا العلامات طلبوه ليقتلوه، فهرب ولحق بحي من ثمود يقال لهم: بنو غنم، فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبي هدب، فطلبوه منه فقال: ليس لكم إليه سبيل، فتركوه وشغلهم ما نزل بهم، ثم خرج - عليه السلام - ومن معه إلى الشام، فنزل رملة فلسطين، ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وهلكوا جميعًا إلا جارية مقعدة يقال لها: ذريعة بنت سلف، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح - عليه السلام - فأطلق الله - تعالى - رجليها بعد أن عاينت العذاب، فخرجت مسرعة حتى أتت وادي القرى، فأخبرتهم الخبر، ثم استسقت ماءً فسُقيت، فلما شربت ماتت، وكان رجل منهم يقال له: أبو رغال - وهو أبو ثقيف - في حرم الله - تعالى - فمنعه الحرم من عذاب الله - تعالى - فلما خرج أصابه ما أصابهم، فدفن ومعه غصن من ذهب. وروي أن النبي ﷺ مر بقبره فأخبر بخبره، فابتدره الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - بأسيافهم، فحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن. وروي أنه - عليه السلام - خرج في مائة وعشرين من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى الدخان ساطعًا، فعلم أنهم قد هلكوا[1].

❊ ❊ ❊

(١) تفسير الألوسي، (٨/ ١٦٦، ١٦٧).

المبحث الثالث
مصير الكافرين المكذبين
انتقام الله من ثمود

لما جرت سنة الله في خلقه أن يبعث إلى كل أمة رسولاً، يدعوهم إلى إخلاص العبادة له، وإلى ما فيه نجاتهم وسعادتهم، فإذا ما أصروا على كفرهم وضلالهم، ولا سيما بعد طلبهم المعجزة فإن الله - جل وعلا - ينتقم منهم شر انتقام، لتكذيبهم وتعنتهم أولاً، ثم لاستخفافهم بما طلبوه من البينة، قال تعالى: ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ﴾[1].

لم يبال قوم ثمود بما حذرهم الله به من أمر الناقة، وعدم مسها بسوء فضلاً عن عقرها، والعقر هو بمعنى القتل، قال الأزهري: «أصل العقر عند العرب قطع عرقوب البعير، ثم استعمل في النحر لأن ناحر البعير يعقره، ثم ينحره»[2].

﴿ فعقروا الناقة ﴾ وقد بينت سورة القمر أن الذي عقرها واحد منهم هو - على ما رُوي - قدار بن سالف، قال تعالى: ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾[3] أي: فتعاطي الأمر العظيم الذي لا يجترىء على فعله أحد، وإسناد الفعل إلى الكل ﴿ فعقروا ﴾ مع أن المباشر البعض: مجاز لملابسة الكل لذلك؛ لأنهم كانوا جميعًا

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٧).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٨/ ١٦٥)؛ وانظر: تهذيب اللغة للأزهري (١/ ٢١٥).

(٣) سورة القمر: الآية (٢٩).

راضين به، راغبين فيه، وقد تسببوا فيه بالنداء والتحريض، فكانوا في الجرم كالمباشر له سواء بسواء، ولذا أسندته سورة الأعراف إليهم جميعًا و«أل» في الناقة للعهد، أي: فعقروا الناقة العظيمة التي نصبها الله ـ تعالى ـ آية لهم على قدرته، ووجوب الإيمان به، ونبذ الشركاء والأنداد، ولم يفرضها الله عليهم بل هم الذين ألحوا في طلبها، وكانت آية عظيمة من آيات الله بحق، فهي لم تكن نتاجًا لناقة أخرى كسائر النوق، بل انشقت عنها الصخرة، فخرجت ناقة قوية لم تمر بأطوار كل مولود متدرجة من الصغر إلى الكبر، كما أنها ولدت فصيلها دون أن ينزو عليها فحل ـ كما قيل ـ أضف إلى ذلك أنها كانت تعطيهم لبنًا بقدر ما شربته من الماء في يومها، فهي لا محالة آية عظيمة، ومع ذلك أقدم أشقاهم على هذا الفعل العظيم، قال تعالى: ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا** ﴾[1] أي: اجترأ على عقر الناقة، فتعاطى قدار بن سالف الأمر العظيم واجترأ عليه، وهو عقر الناقة، أو تعاطي السيف فعقر به الناقة، فالمفعول به مسكوت عنه لتهويل الأمر وتفظيعه.

﴿ **وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ** ﴾ أي: استكبروا عن امتثال أمره، مع أن طاعته واجبة عليهم لأنه قادر على معاقبة من خالف أمره، لأنه إله لا يعجزه شيء والملك كله خلقه وفي قبضته، وقد استقر في قلوب الناس أن من كان بهذه المثابة لا يجترىء أحد على مخالفة أمره، فإذا انضم إلى ذلك أنه ربهم، أي: المدبر لشئونهم، والمتولي تربيتهم، والمصلح لاعوجاجهم، والناقل لهم من الطفولة العاجزة واليفوعة الضعيفة إلى الشباب والقوة، والمطعم لهم من خيره في الأرض، ومن مائه من السماء، فكيف يستكبرون عن أمره وهو بهذه المثابة؟ وقد ألف وعرف أنك أسيرُ مَن يغمرك بإحسانه من الخلق، فكيف بإحسان الخالق؟ فالإضافة في

(١) سورة الشمس: الآيتان (١١، ١٢).

قوله: ﴿ **ربهم** ﴾ تدل على كل ما ذكرت، وتسوق إليه.

﴿ **وقالوا يا صالح** ﴾ مخاطبين له ـ عليه السلام ـ بطريق التعجيز والإفحام ﴿ **ائتنا بما تعدنا** ﴾ من العذاب، وأطلق للعلم به، والأمر هنا للإعجاز لأنهم يعتقدون أنه لا يتأتى له ذلك، وعبر بقوله: ﴿ **تعدنا** ﴾ أي: أكثرت من ذكره على مسامعنا فلو كان حقًا كما تزعم لوقع.

ولقد غرّهم حلم الله عليهم، فبدلاً من أن يشكروه على الإمهال فيثوبوا ويتوبوا، اتخذوا الإمهال سبيلاً للتكذيب، ولذا قالوا لنبيهم: ﴿ **إن كنت من المرسلين** ﴾[1] مستخدمين كلمة ﴿ **إن** ﴾ التي غالبا للشك في وقوع ما بعدها، والمعنى: لست من المرسلين، وإنا لنشك كثيرًا في رسالتك، ولذا نستعجلك في نزول ما توعدتنا به، لأننا نعلم أنه لا يكون.

ولقد كان صراعًا مريرًا بين الحق والباطل، فإن الإنسان إذا قسا قلبه، وعميت بصيرته؛ سدَّت منافذه إلى الحق فغدا اليقين عنده باطلاً، أو شيئًا مشكوكًا فيه، ولقد عانى الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من أممهم أشد المعاناة، ولقوا من العنت ما يزول معه كل حلم، ويطيش له كل عقل، ولقد تحملوا من صنوف البلاء من أممهم ما لا يطيقه غيرهم، فالله يعلم حيث يجعل رسالته، وصدق الله إذ يقول: ﴿ **الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس** ﴾[2] ولا تعجب إذا سمعت ربك يقول لسيدهم وإمامهم: ﴿ **ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا** ﴾[3] لصبره على أعدائه، وما تحمله في سبيل الدعوة من الأذى، والمعنى:

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٧).

(٢) سورة الحج: الآية (٧٥).

(٣) سورة الإسراء: الآية (٧٤).

لم تركن إليهم لأننا ثبتناك، وإن حصل الركون منك فلن تستمر فيه، ولن يكون إلا شيئًا قليلاً، وإنا فطرناك على أكمل الصفات، وجعلناك جعلاً خاصًا، فمثلك ـ بدون التثبيت ـ لا يكون منه ركون إلا شيئًا قليلاً، فكيف وقد ثبتناك ومكنا لك بما قضيناه في علمنا الأزلي من نصرك ودحر أعدائك؟.

وسيمر بك من هذا الصراع في المستقبل من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة، ما يجعلك تعتصر شفقة لما لقيه الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من عنت وضيق وغم للعتو عن الحق، والمكابرة فيه مع ظهوره.

ولذلك لم يمهلهم الله بعد قولهم: ﴿ **ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين** ﴾[1] بل عجل لهم ما استبطأوه من العذاب، ولذا قال تعالى: ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ أي: استولت عليهم وملكتهم، ولم تدع منهم أحدًا، وهي نهاية عذابهم، والمراد بالرجفة الزلزلة الشديدة، ونتيجةً لذلك قال تعالى معقبًا: ﴿ **فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾[2].

وقال ـ جل وعلا ـ في سورة هود: ﴿ **وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين** ﴾[3] وتلاحظ تعدد التعبير القرآني في وصف العذاب الذي حل بقوم صالح[4] وبعض المفسرين يرى أن الرجفة والصيحة شيء واحد[5] وأنهم لما زلزلوا كان لزلزلة الأرض بهم صوت قوي شديد، بحيث لو سمعه غيرهم لخلع

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٨).

(٣) سورة هود: الآية (٦٧).

(٤) جاء في الأعراف بوصفه بالرجفة، وفي هود والعنكبوت بالصيحة، وفي الذاريات بالصاعقة، وفي الحاقة بالطاغية.

(٥) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٦٢).

به قلبه، فما بالك بهم؟

وبعضهم يرى أن جبريل ـ عليه السلام ـ صاح بهم صيحة شديدة أخرست ألسنتهم وأصمَّت آذانهم، ثم رجفت بهم الأرض، وطغى عليهم العذاب وهم ينظرون، فلا يملكون خلاصًا مما هم فيه لأن عقولهم التي يهتدون بها قد ذهبت، وألسنتهم التي ينذر بها بعضها بعضًا بخطورة ما دهمهم قد خرست، ولعلك تلمح هذه المعاني في قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿ **وفي ثمُود إذْ قيل لهُمْ تمتَّعُوا حتَّىٰ حينٍ (٤٣) فعتوْا عنْ أمْر ربِّهمْ فأخذتْهُمُ الصَّاعقةُ وهُمْ ينظُرُون (٤٤) فما اسْتطاعُوا من قيامٍ وما كانُوا مُنتصرين** ﴾[1].

وأنا أرجح أن تكون الصيحة عذابًا غير الرجفة وغير الصاعقة، فالصيحة في هود صوت جبريل ـ عليه السلام ـ والرجفة في الأعراف صوت زلزلة الأرض بهم، والصاعقة في الذاريات مجموع ما حصل لهم من الأمرين، أو أنها نار سقطت عليهم من السماء مع اضطراب الأرض بهم، والطاغية في سورة الحاقة معناها الطامة العظيمة والعذاب الشديد، والداهية التي لم يجدوا لهم منها مخلصًا لأن الطغيان مجاوزة الحد، فلا غرابة بعد ذلك من تسمية عذاب ثمود رجفة مرة، وصيحة وصاعقة وطاغية مرة أخرى، لأن ما حل بهم قابل لأن يسمى بتلك الأسماء على رأي من يراه شيئًا واحدًا، أو أنها أنواع مستقلة من العذاب كما رجحته سابقًا، وأن كل تلك الأنواع قد حلّت بهم، ولا تناقض فيه فالتعبير بهذه الأنواع سائغ ومقبول، ولا يؤدي إلى الطعن في القرآن بدعوى التناقض والاضطراب في تسمية الشيء الواحد بعدة أسماء كما يعزم الملاحدة الطاعنون في القرآن بتصيد هذه الأشياء التي يشوشون بها على قلوب

(١) سورة الذاريات: الآيات من (٤٣) إلى (٤٥).

الضعفاء[١].

﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾[٢] أي: ساقطين على وجوههم، هامدين لا يتحركون، وهذا دليل على شمول العذاب لهم، إلا ما كان من أمر الجارية ـ على ما قيل ـ التي أخبرت عنهم، كما سلف في قصتهم، وقد هلكت هي الأخرى.

و(الفاء) تشير إلى سرعة أخذ العذاب لهم، وأن الله لم يجعل لهم مهلة يراجعون أنفسهم فيها ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ فتولى عنهم ﴾ أي صالح ـ عليه السلام ـ بعد أن أعلمه الله بهلكتهم، وقال موبخًا ومؤنبًا لهم ومظهرًا بلوغه في دعوتهم المدى الممكن: ﴿ وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ﴾ واجتهدت في هذا الإبلاغ أيما اجتهاد، وقابلتم ذلك مني بالصدود والعناد، ولا تقل كيف خاطبهم بذلك، وهم موتى هالكون؟ والجواب أنه قال لهم ذلك في أول المهلة التي أعطوها، أو أنه قال لهم ذلك بعد ما ماتوا فعلاً، ولا غرابة فيه، فأهل القبور يسمعون وإن كانوا لا يجيبون[٤] ﴿ ونصحت لكم ﴾ أي: محضت النصحية خالصة لكم، واجتهدت

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ١٦٥، ١٦٦) وتفسير الألوسي (٨/ ١٦٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٨).

(٣) سورة هود: الآية (١٠٢).

(٤) كما خاطب رسول الله ﷺ المشركين بعد قتلهم يوم بدر: «يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟» قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٣٠٤).

=

فيما يصلحكم، ولكن لا تحبون الناصحين، أي: تكرههم قلوبكم مع حرصهم عليكم، ومن هذا الباب كان هلاكهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ أي: لا تحبون الأنبياء، فنُصح كل نبي سبق لأمته هو نصح للأمة اللاحقة، وهذا لا يعني عموم رسالتهم، ويجوز أن يكون المعنى: ﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ من المؤمنين الذين آمنوا بصالح ـ عليه السلام ـ فإنهم كانوا يشاركونه في نصح الضالين من قومه، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

= وانظر: السيرة النبوية لابن هشام، فقد أورد القصة مع اختلاف يسير، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، المجلد الثاني، ص ٣٩٢).

خلاصة ما جاء في الفصل الرابع

١ ـ المعروف أن قوم ثمود هم من نسل الصالحين من قوم عاد، وأن قوم عاد هم من نسل الصالحين من قوم نوح، ولكن البشر يتطاول عليهم العهد فينسون ما حل بمن قبلهم من العذاب، ويستولي عليهم الشيطان فيغيرون شرع الله.

٢ ـ قامت أسس دعوة نبي الله صالح لقومه على أمور، أهمها.

* أن يعبدوا الله ما لهم من إله غيره.

* أن يذكروا إذ جعلهم الله خلفاء في الأرض من بعد عاد.

* أن يذكروا أن الله بوأهم في الأرض وأسكنهم فيها، يتخذون من سهولها قصورًا، وينحتون الجبال بيوتًا.

* أن يذكروا دومًا نعم الله وآلائه عليهم المتعددة التي لا تحصى.

* أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه من سوء أفعالهم.

* أن لا يعثوا في الأرض مفسدين.

٣ ـ كان موقف قوم ثمود من نبيهم كموقف الأمم السابقة ويتمثل فيما يلي:

* استنكروا دعوته إلى عبادة الله وحده، وكذبوا رسالة صالح ـ عليه السلام ـ.

* استنكروا بشريته واتهموه بالكذب والكبر.

* كذبوا بالبعث وانكروا وقوعه.

* رموا نبيهم صالحًا ـ عليه السلام ـ بالسحر.

* طالبوه بالمعجزة الحسية، فجاءهم بناقة الله آية، يذروها ولا يمسوها بسوء.

٤ ـ هناك حقائق تبرزها قصة صالح ـ عليه السلام ـ منها:

* أن الملأ المستكبرين في كل أمة سبب شقائها.

* أن ملأ ثمود قد راعهم إيمان بعض المستضعفين بصالح ـ عليه السلام ـ.

* محاولة ثني هؤلاء المستضعفين عن إيمانهم.

* أن الإيمان يزيل ضعف النفوس، ويجعل المستكبرين المتجبرين غاية في الهوان في نظر المؤمنين.

٥ ـ كان من رد قوم ثمود على دعوة نبيهم ما يلي:

* عقروا الناقة وقتلوها.

* عتوا عن أمر ربهم وكفروا واستكبروا عن امتثال أمره.

* استعجلوا عذاب ربهم فيهم وطلبوه على سبيل التعجيز والإنكار له.

٦ ـ كان جزاؤهم بالصيحة وهي صوت جبريل ـ عليه السلام ـ وكذا الرجفة وهو صوت زلزلة الأرض بهم، وكذلك الصاعقة وهي مجموع ما حصل لهم من هذه وتلك.

* * *

الفصل الخامس

الصراع بين

لوط - عليه السلام -

وزوجته خاصة وقومه عامة

الفصل الخامس

الصراع بين لوط ـ عليه السلام ـ وزوجته خاصة وقومه عامة

مقدمة: التعريف بلوط ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

المبحث الأول: الصراع بين لوط وزوجته وقومه.

وفيه شرح للأساليب التي اتخذها لوط ـ عليه السلام ـ في دعوة قومه مع بيان نوع المعصية التي كانوا عليها مع ذكر أضرارها على المجتمع.

المبحث الثاني: أسباب موقف الكافرين المعاندين لدعوة لوط ـ عليه السلام ـ.

المبحث الثالث: مصير الكافرين المعاندين المُصرِّين على الفاحشة.

الأبحاث الطبية الحديثة عن أضرار فاحشة اللواط.

لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ

مقدمة:

القصة الرابعة من قصص الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ التي تجسد الصراع بين الحق والباطل في سورة الأعراف؛ قصة لوط ـ عليه السلام ـ وقد أجملتها سورة الأعراف في خمس آيات، بينّ الله فيها دعوة لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقومه بترك الفاحشة التي عرفوا بها بين سائر البشر، وموقفهم من هذه الدعوة، ونهايتهم لما أمعنوا في تكذيبه والتبرم بدعوته.

قال تعالى: ﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾[1].

وينبغي قبل أن أشرع في تفسير هذه الآيات وتحليلها أن أذكر نبذة مختصرة حول نسب لوط ـ عليه السلام ـ وعلاقته بقومه لحاجة البحث إلى ذلك، وإليك بيان ذلك.

التعريف ـ بلوط ـ عليه السلام ـ:

اختلف العلماء والنسابون في نسب لوط ـ عليه السلام ـ وفي صلة القرابة

(١) سورة الأعراف: الآيات من (٨٠) إلى ٨٤٠).

التي بينه وبين أبي الأنبياء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قال الحاكم في مستدركه: «قد اتفقت الروايات في أنه من بيت إبراهيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم اختلفوا: أهو من ولده أو من ولد أخيه؟»[١].

وجمهور العلماء[٢] والنسابون ذهبوا إلى أنه ابن أخي إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويؤيد ذلك ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «ولوط النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان ابن أخي إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ قال الذهبي معقبًا: صحيح»[٣] وعليه فلوط هو ابن هاران بن تارح[٤] وهو: آزر.

ولقد تأثر لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعمه إبراهيم الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليهما ـ ولمس في عمه قدوة حسنة، وإيمانًا راسخًا، فصدقه في جميع ما جاء به، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة: ﴿**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ**﴾[٥] أي: صدَّق لوط إبراهيم في جميع ما جاء به عن ربه، ولازم لوط عمه إبراهيم ـ عليهما الصلاة

---

(١) المستدرك للحاكم (٢/ ٥٦٠).

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، (١/ ١٧٦).

انظر: البدء والتاريخ للبلخي، (٣/ ٥٦).

انظر: روح المعاني للألوسي، (٨/ ١٦٨).

انظر: فتح القدير للشوكاني، (٢/ ٢٢٢، ٤/ ١٩٩).

انظر: أخبار الدول وآثار الأول للقرماني، (ص ٣٠).

انظر: لوط ﷺ وقومه على ضوء الكتاب والسنة، رسالة ماجستير للزميل/ ناصر النصار، من ص (٣٢ ـ ٣٥).

(٣) المستدرك للحاكم، (٢/ ٥٦١).

(٤) انظر: تاريخ الطبري، (١/ ٢٩٢).

(٥) سورة العنكبوت: الآية (٢٦).

والسلام ـ متحملاً معه مشاق الدعوة، حيث كان المجتمع ـ بلاد الرافدين العراق حاليًا ـ متعصبًا للوثنية، مصرًا عليها، حتى أذن الله لهما بالهجرة من العراق ـ أرض بابل ـ إلى الأرض المباركة، قال تعالى: ﴿ **ونجَّيناهُ ولُوطًا إلى الأرْضِ الَّتي باركْنا فيها للْعالمين** ﴾[1] ولما هاجر إبراهيم ولوط إلى أرض الشام، هيأ الله ـ جل وعلا ـ لوطًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ للنبوة، وأرسله إلى قومه في ناحية الأردن، وإلى ذلك يشير قوله ـ تعالى ـ على لسانه: ﴿ **وقَال إنِّي مُهاجرٌ إلىٰ ربِّي** ﴾[2] أي: قال ذلك لعمه ـ عليه السلام ـ ولما تخوّف عمه عليه من أهل الناحية التي يبغي الهجرة إليها، لما كانوا عليه من سوء الخلق، وأنه وحده لا يستطيع مقاومتهم، والثبات لهم، قال لعمه ما حكاه الله: ﴿ **إنَّهُ هُوَ الْعزيزُ الْحكيمُ** ﴾ أي: الغالب الذي ينصر من اعتز به وإن كان وحيدًا ﴿ **الْحكيمُ** ﴾ فيما هيأني له وبعثني إليه، واستقر لوط ـ عليه السلام ـ في الأرض المباركة ـ فلسطين؛ في قرية سدوم ـ وكانت سدوم أعظم وأجمل قرى قوم لوط، التي اخْتُلف في ضبطها اختلافٌ كثير ليس هناك مجال لبسطه، والذي عليه المفسرون[3] والمؤرخون[4] هو ما جاءت به الرواية التي أخرجها ابن أبي حاتم في تفسير بسند حسن من طريق محمد بن كعب القرظي: «إن المؤتفكات ـ قرى لوط ـ كُن خمسًا: صيغة، وصفرة، وعمرة، ودوما، وسدوم وهي القرية العظيمة»[5]. وكان موقع بلاد قوم لوط كما تشير المراجع والكشوف الجغرافية بين الحجاز والشام، وعلى وجه التقريب ما يعرف بالبحر الميت والذي

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٧١).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢٦).

(٣) تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٥٥) وتفسير ابن جرير، (١٥/ ٤٢٢).

(٤) انظر: أخبار الدول وآثار الأول ص (٣١) للقرماني.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ـ سورة هود ـ رقم الأثر (٥٧٥) ص (٣٢٥).

كان يسمى فيما سبق ببحيرة زغر أو البحيرة الممتنة[١].

وأشار القاسمي في تفسيره نقلاً عن صاحب كتاب مرشد الطالبين أن بحر لوط هو بحر سدوم، ويدعى أيضًا بالبحر الميت، وهو بركة مالحة في فلسطين طولها خمسون ميلاً وعرضها أثنا عشر ميلاً، وهي أوطأ من بحر الروم بنحو ١٢٥٠ قدمًا وموقعها في الموضع الذي كانت عليه سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم[٢] ا. هـ.

ولقد أشارت كتب التاريخ أن بلاد قوم لوط كانت من أبدع بلاد الله وصفًا وجمالاً، مليئة بالخيرات، غنية بالمياه، كثيرة الأشجار والحبوب والثمار[٣] وكان جديرًا بأهلها أن يشكروا الله ـ جل وعلا ـ ويخلصوا له العبادة لما حباهم الله به من النعم الكثيرة لا سيما وقد بعث إليهم نبيهم لوطًا ـ عليه السلام ـ ناصحًا لهم ومنقذًا لهم من الكفر والجهل الذي خيم عليهم، ولابد قبل أن أتطرق لدعوة لوط ـ عليه السلام ـ لقومه أن أشير باختصار إلى صلة لوط ـ عليه السلام بقومه.

---

(١) لوط ـ ﷺ ـ وقومه على ضوء الكتاب والسنة، رسالة مقدمة من الزميل/ ناصر أحمد نصار لنيل درجة الماجستير، ص (١٥١).

(٢) تفسير القاسمي (٧/ ٢٠٢).

(٣) انظر: آثار البلاد للقزويني ص (٢٠٢) وأخبار البلاد للقرماني ص (٤٥٥) وجاء في تقويم البلدان: إن بحيرة زغر جنوبي مدينة أريحا على بعد شوط فرس، وتعرف هذه البحيرة بالبحيرة الممتنة وليس فيها حيوان ولا سمك ولا غيره . . . وعلى القرب من البحيرة الممتنة كانت ديار قوم لوط، وهي ديار تسمى بالأرض المقلوبة، وليس بها زرع ولا حشيش وهي بقعة سوداء فرش بها حجر كلها متقاربة في الكبر ويروى أنها من الحجار المسمومة التي رمي بها قوم لوط؛ انظر: تقويم البلدان لعماد الدين إسماعيل، ص (٢٢٨).

صلة لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقومه:

إن الدارس لدعوة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يلاحظ أن غالب الأنبياء كان مبعثهم في وسط ذويهم وعشيرتهم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في بحثنا عند دراستنا لنوح وهود وصالح ـ عليهم الصلاة والسلام ـ . . . إلخ.

أما لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلم يكن يربطه بقومه أي نسب، ولقد هاجر ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع عمه من بلاد بابل بالعراق ـ كما سبق أن أشرت إلى ذلك ـ إلى بلاد الشام حيث بعثه الله فيها نبيًا لهؤلاء القوم، لذلك نلاحظ اختلاف السياق القرآني في قصة لوط عما سبقها من قصص الأنبياء الذين سبقوه، والتي أشارت إليهم سورة الأعراف.

قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ** ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ** ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ** ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾[4].

ولم تذكر أخوة لوط لقومه اللَّهمَّ إلا في سورة الشعراء، وسورة ق، أما في الشعراء فقال تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ** ﴾[5].

وللبقاعي كلام نفيس في بيان معنى الأخوة المرادة من الآية:

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٥٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٨٠).

(٥) سورة الشعراء: الآية (١٦١).

قال ـ رحمه الله ـ: «أخوهم في السكنى في البلد لا في النسب؛ لأنه ابن أخي إبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وهما من بلاد المشرق من بابل، وكأنه عبر بالأخوة لاختياره لمجاورتهم، ومناسبتهم بمصاهرتهم، وإقامته بينهم في مدينتهم مدة مديدة، وسنين عديدة، وإتيانه بالأولاد من نسائهم . . .»[(١)].

أما في سورة ق قال تعالى: ﴿ **وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ** ﴾[(٢)] وقد فسر البيضاوي الأخوة بقوله: «سمَّاهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره»[(٣)].

* * *

(١) نظم الدرر للبقاعي، (١٤/ ٨٠).

(٢) سورة ق: الآيتان (١٣، ١٤).

(٣) تفسير البيضاوي، ص (٦٨٧).

المبحث الأول

دعوة لوط ـ عليه السلام ـ لقومه

وأشرع الآن في دعوة لوط ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقومه وموقفهم منه وعاقبتهم، فأقول وبالله التوفيق:

قال تعالى: ﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ** ﴾[١].

وقبل الشروع في تفسير هاتين الآيتين أقول للقاريء الكريم: إن قوم لوط كانوا كفاراً بالله ورسله، ولقد دعاهم لوط ـ عليه السلام ـ كسائر الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من قبله ومن بعده إلى توحيد الله ـ تعالى ـ والإيمان به لأن توحيد الله يقود الإنسان إلى تطبيق سننه وشرعه، ويزجره عن ارتكاب الفواحش والرذائل، ولكن القرآن لم يصرح بذلك لأنه معلوم معروف، لكنه ركز على ذكر فاحشتهم التي انفردوا بها من بين سائر العالمين لتفشِّها واستحكامها فيهم، فنَبْذُها وتقبيحها والإنكار بها عليهم أهم في الذكر من دعوته إياهم لعبادة الله وحده، فلم يكن قوم لوط ـ عليه السلام ـ كما قد يُظن موحدين عصاة بل الواقع أنهم كانوا كافرين، كما قال تعالى: ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[٢].

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٨٠، ٨١).

(٢) سورة الذاريات: الآيتان (٣٥، ٣٦).

فهاتان الآيتان مصرحتان بكفر قوم لوط، وأنه لم يكن فيهم بيت مؤمن إلا بيت لوط ـ عليه السلام ـ ولذلك دارت قصته في القرآن الكريم على تقبيح تلك الفاحشة التي شاعت فيهم، وانفردوا بها، ولم تعرف إلا لهم، ولم تورث في بعض الناس إلا من بعدهم، فهذا هو السبب في انفراد هذه القصة بهذا الأسلوب عما قبلها وعما بعدها في سورة الأعراف، بل وفي سائر القرآن الكريم كما ذكرت.

فقوله تعالى: ﴿ **وَلُوطًا** ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره واذكر، أي: يا محمد ﷺ الوقت الذي قال فيه لوط لقومه ما قال، وتسلّ به عما تلقاه من بلاء قومك ومعاندتهم وإنكارهم، فإن لوطًا ـ عليه السلام ـ كان يتصدى وحده لقوم ذوي هلع واندفاع فيما يأتون من فاحشتهم التي لم يخالجهم أي شك في استحسانها، مما جعلهم يتهكمون بلوط وآله المؤمنين الذين يتبرأون من تلك الفاحشة، بما حكاه الله عنهم أكثر من مرة ﴿ **إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾[1] وذكر الوقت متضمن لما يقع فيه من أحداث، وقوله تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ** ﴾ أي: بلا خوف منهم، متوكلاً على ربه معتزًا به.

ولم يمنعه أن قومه لم يكن فيهم عاقل من أن يقول لهم ما قال، فإن من سبقه من الرسل ومن لحقوه لا يعدمون أن يجدوا في أقوامهم عاقلاً أو عقلاء، يصغون لدعوتهم، ويستجيبون لهم إلا لوطًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فإنه لم يجد في قومه عاقلاً قط، ولا مستجيبًا سوى أولاده ـ عليه السلام ـ وحتى امرأته التي الشأن فيها أن تتعصب لزوجها، فإن لم تعنه لا تنقلب عليه، قد خانته(*) وقوله

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٢).

(*) ومرادي بقولي: (خانته) أي: بإفشاء سره فكانت تدل قومها على الضيف، قال تعالى: ﴿ **ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما** =

تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ جيء به بأسلوب الاستفهام، لشديد إنكاره عليهم وتوبيخهم على إتيانه ما يستنكره كل ذي طبع سليم، ومعنى ﴿أَتَأْتُونَ﴾ أي: تفعلون ذلك، وتستعلنون به في نواديكم، وتفتخرون بفعله، والمراد بالفاحشة إتيانهم الذكور بدل الإناث، كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾[(٢)] أي: بهذه الفاحشة القبيحة التي سلف ذكرها ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ أي: من أصناف المخلوقات التي لا تعقل[(٣)]، فضلاً عن الأناس العقلاء، والمعنى: ما رأيتم من الحيوانات ذكرًا ينزو على ذكر ويترك أنثاه، مع كثرة أصناف الحيوانات وتنوعها، وما سمعتم بأحد من الناس غيركم يعملها، فما لكم لا تقلعون عنها بعد هذا التقبيح؟ وما لكم تخالفونني وتنازعونني فيما لا يقبل النزاع؟ وقد قرر المفسرون[(٤)] في ﴿مِنْ﴾

= من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ سورة التحريم: الآية (١٠). انظر: تفسير الألوسي، (٢٨/ ١٦٢)، والنسفي، (٤/ ٢٧٢).

(١) سورة الشعراء: الآيتان (١٦٥، ١٦٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٠).

(٣) ذكر القرطبي في تفسيره نقلاً عن محمد بن سيرين: ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار (٧/ ٢٤٥). وأشار إلى ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان وخلاصته: ليس من البهائم من يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار، وإن فعل ذلك فغايته الشهوة فقط، ليس يخطر بباله أن ذلك الماء يُخلق منه شيء، ثم ذكر قول ابن سيرين الآنف الذكر. انظر بتصرف من الحيوان للجاحظ (١/ ١١٠).

(٤) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ١٦٨).

انظر: تفسير القرطبي، (٧/ ٢٤٥).

انظر: تفسير الألوسي، (٨/ ١٦٩).

انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٤٥).

الأولى: بأنها مزيدة في سياق النفي، ليفيد العموم والاستغراق، وفي الثانية: بأنها للتبعيض.

والمعنى: أن تلك الفاحشة لم تصدر من بعض العالمين منذ خلقوا فضلاً عن جميعهم إلا ما كان منكم، والمراد بالعالمين: بنو آدم، فكيف لا تنزجرون عنها؟

قال أبو السعود: والجملة مستأنفة، مسوقة لتأكيد النكير، وتشديد التوبيخ والتقريع، فإن مباشرة القبح قبيح، واختراعه أقبح، فأنكر تعالى عليهم أولاً إتيان الفاحشة ثم وبخهم بأنهم أول من عملها، ثم استأنف بيان تلك الفاحشة تأكيداً للإنكار السابق، وتشديداً للتوبيخ [١] بقوله سبحانه: ﴿**إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً**﴾ أي: رغبة مفرطة في هذا الإتيان كأنه أمر سليم لا يلام عليه، قال الألوسي: شهوة مفعول له، أو مصدر في موقع الحال، وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمة الصرفة، وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد، وبقاء النوع، لا قضاء الشهوة[٢].

و«أل» في الرجال يمكن أن تكون عوضًا عن مضاف إليه، بمعنى: إنكم يأتي بعضكم بعضًا، تاركين نساءكم اللائي أعدهن الله لقضاء الوطر، واستنبات الولد، أو: إنكم عازفون عن النساء بالكلية إلى هذه الفاحشة التي تأتونها. ويجوز أن تكون «أل» جنسية، والمعنى: إنكم تأتون جنس الرجال منكم ومن غيركم إذا أمكنكم ذلك، وفي إيراد لفظ «الرجال» دون الغلمان والمردان ونحوهما مبالغة في التوبيخ[٣]. قال الحسن: كانوا ينكحون الرجال في أدبارهم

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٤٥).

(٢) تفسير الألوسي، (١٤/ ١٧٠).

(٣) انظر: الألوسي، (٨/ ١٧٠).

وكانوا لا ينكحون إلا الغرباء[١].

وقد صرح القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى في سورة هود: ﴿ **ولَمَّا جاءتْ رُسُلُنا لُوطًا سيءَ بهِمْ وضاقَ بهِمْ ذرْعًا وقالَ هذا يومٌ عصيبٌ (٧٧) وجاءهُ قومُهُ يُهْرَعُونَ إليْهِ ومِن قَبْلُ كانُوا يعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قومِ هؤُلاءِ بناتي هُنَّ أطْهرُ لكُمْ فاتَّقُوا اللَّهَ ولا تُخْزُونِ في ضيْفي أليْسَ منكُمْ رجُلٌ رَشيدٌ (٧٨) قالُوا لقدْ علِمْتَ ما لنا في بناتِكَ منْ حقٍّ وإنَّكَ لتعْلَمُ ما نُريدُ** ﴾[٢].

وإنما سيء بهم لوط وضاق بهم ذرعًا، لأنهم ملائكة جاءوه في صورة بشر حسان وضاء الوجوه، ولوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعلم ما سيكون من قومه عندما يعلمون بمجيئهم، ولذلك لما قال لقومه: ﴿ **قالَ لوْ أنَّ لي بكُمْ قُوَّةً أوْ آوي إلَىٰ رُكْنٍ شديدٍ (٨٠) قالُوا يا لُوطُ إنَّا رُسُلُ ربِّكَ لنْ يصِلُوا إليْكَ ...** ﴾[٣] الآيات وسأعود إلى هذه الآيات مرة أخرى عند كلامي عن عذابهم.

ولما لم يصغوا لدعوته ـ عليه السلام ـ بعد هذا الأسلوب القوي أضرب عنهم فقال ما قصه الله: ﴿ **بلْ أنتُمْ قومٌ مُسْرِفُونَ** ﴾[٤] أي: متجاوزون الحد فاعلون مالا يقركم عليه أحد، كما وصفهم بالعدوان والجهل في الشعراء والنمل: ﴿ **بلْ أنتُمْ قومٌ عادُونَ** ﴾[٥] ﴿ **بلْ أنتُمْ قومٌ تجْهلُونَ** ﴾[٦] وقوم اجتمع فيهم الإسراف والعدوان والجهل لا يرجى منهم أن يستجيبوا لله ولرسوله لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

---

(١) انظر: الفخر الرازي، (١٤/ ١٦٨).

(٢) سورة هود: الآيات من (٧٧) إلى (٧٩).

(٣) سورة هود: الآية (٨٠ ـ ٨١).

(٤) سورة الأعراف: (٨١).

(٥) سورة الشعراء: الآية (١٦٦).

(٦) سورة النمل: الآية (٥٥).

هذا ولم يكتف قوم لوط بما استحدثوه من إتيان الذكور، بل كانوا يتخبطون في كل ما استهوته نفوسهم من أنواع الفساد والمنكر، وقد جمع الله ـ سبحانه ـ ما هم عليه من المعاصي في قوله تعالى: ﴿ **أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ** ﴾[(١)].

فقوله تعالى: ﴿ **أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ** ﴾ أي: تفعلون اللواط، وعبر سبحانه هنا بلفظ ﴿ **الرِّجَالَ** ﴾ كما سبق أن ذكرت دون الذكران زيادة في بيان مدى قبحهم وفسادهم، وإلى ذلك أشار الألوسي في تفسيره: «وإيراد المفعول بعنوان الرجولية دون الذكورية لتربيته التقبيح . . .»[(٢)].

وقوله: ﴿ **وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ** ﴾ ورد في تفسيره عدة معان:

أحدها: كانوا يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم[(٣)].

ثانيها: كانوا يأخذون الناس من الطرق لفعل الفاحشة بهم[(٤)].

ثالثها: كانوا يقطعون سبيل النسل بإتيانهم ما ليس بحرث[(٥)].

رابعها: كانوا يقطعون الطريق بقبح الأحدوثة[(٦)].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٢٩).

(٢) تفسير الألوسي (١٩/ ٢١٦).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤١١).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير، (٣/ ٤١١)؛ والقرطبي (١٣/ ٣٤١)؛ والكشاف للزمخشري، (٣/ ٢٠٤).

(٥) انظر: المراجع السابقة.

(٦) انظر: تفسير أبي حيان (٧/ ١٥٠)؛ وتاريخ الأنبياء للنجار، (ص ١١٢) وانظر: تفسير الألوسي، (٢٠/ ١٥٣).

قال القرطبي: «ولعل الجميع كان فيهم . . .»[١].

أما قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ النادي والندى والمنتدى: مجلس القوم ومتحدثهم[٢].

والمنكر: ما تنكره العقول والشرائع والمروءات[٣].

أخرج الترمذي[٤] وحسنه والحاكم[٥] وصححه وأحمد[٦] في مسنده عن أم هانيء بنت أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله سبحانه: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ قال: «كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم»، وقد ذكر المفسرون أقوالاً أخرى مثل أنهم كانوا يأتون بعضهم بعضًا في الملأ، وكانوا يتضارطون ويتضاحكون، وكانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك، ولا مانع أنهم كانوا يفعلون كل تلك المنكرات[٧].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: تفسير القرطبي، (١٣/ ٣٤١).

(٢) تفسير الشوكاني، (٤/ ٢٠١).

(٣) انظر تفسير ابن حبان، (٧/ ١٥٠).

(٤) سنن الترمذي في تفسير سورة العنكبوت، حديث رقم (٣١٨٩).

(٥) المستدرك للحاكم، (٢/ ٤٠٩) وصححه ووافقه الذهبي.

(٦) مسند الإمام أحمد، (٦/ ٣٤١، ٤٢٤).

(٧) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤١١).

المبحث الثاني

موقف قوم لوط من دعوته ـ عليه السلام ـ

اعلم أن موقف قوم لوط من دعوته لهم إلى الفضيلة والخير كموقف سائر الكفار والمعاندين، هو الإباء والاستكبار والإمعان في معارضة دعوة نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ غير أن القرآن الكريم لم يصفهم بالتكذيب والاستكبار كما وصف قوم نوح بقوله: ﴿ **فكذَّبوهُ فأنجيْناهُ والَّذين معهُ في الْفُلْك وأغْرقْنا الَّذين كذَّبوا بآياتنا إنَّهم كانُوا قوْما عمين** ﴾[1].

كما وصف قوم صالح بقوله تعالى: ﴿ **قال الْملأُ الَّذين اسْتكْبرُوا من قوْمه** ﴾[2] الآية . . . إلى آخر ما ذكر من سائر أوصاف الأمم الكافرة.

بل ذكر لهم جوابًا عجيبًا كرره الله ـ سبحانه وتعالى ـ في القرآن الكريم ثلاث مرات: مرة في سورة الأعراف، ومرة في سورة النمل، ومرة في سورة العنكبوت، لتستدل بهذا التكرار على سوء ما كانوا عليه، وما شاع فيهم من خلق ذميم، ينفر كل كافر وكل مكذب إلا من كان على شاكلتهم بعد أن صدر ذلك منهم وكانوا هم أساسه.

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ **وما كان جواب قوْمه إلاَّ أن قالُوا أخْرجُوهُم من قرْيتكُمْ إنَّهمْ أُناسٌ يتطهَّرُون** ﴾[3] والمعنى: وما كان جواب قومه الذي أجمعوا

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٥).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٢).

عليه، واتفقوا على مواجهته به، إلا هذا القول السيء والتهديد السخيف، الصادر من قوم بلغوا في الحقارة والخسة منتهاها، ولذا قدم خبر كان هنا على اسمها لأن كلمة ﴿ **جواب** ﴾ قرئت بالنصب. واسمها جملة ﴿ **إلاَّ أن قالوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ** ﴾ وقد ذكر جوابهم أولاً عامًا ثم حدده ـ تعالى ـ وبينه، لتستقبله أتم استقبال فلا يكون هناك ثم اعتذار عنهم، ولا أي قبول لخلقهم الذي كانوا عليه.

وقال في سورة الأعراف: ﴿ **وما كان جواب قومه** ﴾ بالواو وفي سورة النمل[1] والعنكبوت[2] (بالفاء) لملحظ لطيف قد استنتجته بفضل الله، وهو أنه ذكر (بالواو) في الأعراف لبيان أنهم ما كانوا يجدون قولاً يخففون به حنقهم على لوط ـ عليه السلام ـ إلا هذا الجواب، وهذا دليل إمعانهم في تلك الرذيلة، فناسب لأجل هذا الفهم أن يذكر بالواو التي هي للاستئناف.

أما في النمل والعنكبوت، فالمقصود من ذكر الفاء فيهما أنهم كلما دعاهم نبيهم لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الإقلاع عن تلك الرذيلة، أسرعوا في الرد عليه بهذا الجواب، وتواصي بعضهم بعضًا لإخراجه وآله من قريتهم لئلا يفسد عليهم ما هم فيه؛ فكان ذكر الفاء فيهما أنسب.

وقد ذكر الألوسي ـ رحمه الله ـ وغيره لذلك تعليلات، تقوم كلها على الناحية اللفظية لا المعنوية، كقول الألوسي مثلاً: ذكر ﴿ **وما كان جواب قومه** ﴾ في الأعراف بالواو لأن تلك الجملة مسبوقة بجملة اسمية هي قوله تعالى: ﴿ **بل أنتم قومٌ مُّسْرِفُون** ﴾ أما في النمل والعنكبوت فالآية مسبوقة بفعلين. والفاء أدخل في

---

(١) سورة النمل: الآية (٥٦).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢٩).

عطف الأفعال بعضها على بعض من الواو. قال الألوسي: وإنما جيء بالواو في ﴿ **وما كان** ﴾ إلخ . . . دون الفاء كما في النمل والعنكبوت لوقوع الاسم قبل هنا والفعل هناك، والتعقيب بالفعل بعد الفعل حسن دون التعقيب به بعد الاسم. وفيه تأمل. ا. هـ[1].

ومع احترامي وتقديري له، فلا أرى ما رأى، لأن الواو والفاء تذكران بحسب المعنى المقصود لا بحسب الصناعة اللفظية، ولعله قولٌ لبعض النحويين لا أعرفه، وهو ـ رحمه الله ـ أردفه بقوله: «وفيه تأمل» هذا من دقته وسعة فهمه، وقوله تعالى: ﴿ **أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ** ﴾ معناه: تواصوا به وأجمعوا على فعله، واحذروا أن يكون فيكم من يرى غير هذا الرأي.

وضمير الغيبة هنا يرجع إلى لوط ومن آمن به «من أهله» وقد قصد لوط بذلك تحقيرهم وتهوين شأنهم، وأرادوا بإخراجه مصادرة أمواله وطرده من مجتمعهم، وقوله تعالى: ﴿ **مِّن قَرْيَتِكُمْ** ﴾ أي: من بلدكم التي نشأتم فيها وورثتموها عن آبائكم، وفي إضافة قريتهم إليهم إشارة إلى أن لوطًا وافد عليهم، ليس بأصيل فيهم، وليس له قبيل منهم يحميه ويدفع عنه.

وما كنا نعرف هذا التسفيه وذلك الإنكار علينا إلا بعد أن جاءنا وأسكناه بيننا، فعَلامَ نبقي عليه بيننا وحاله كما عرفتم؟! وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾[2] أي: يتنزهون عن تلك الفاحشة وغيرها مما نراه حسنًا، ويرونه قبحًا وسوءًا، وهم لا يقصدون الثناء عليهم ولا مدحهم، بل قصدهم التهكم والاستهانة والاستهزاء، شأنهم شأن قوم وعظهم واعظ وهم ضائقون بكلامه

---

(١) الألوسي، (٨/ ١٧١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٢).

فقالوا له: وعظك يعجبنا، تهكمًا به، وهذا أسلوب شائع في العربية.

وهو على كل حال يدل على سفاهة قوم لوط. فما ظنك بمن يتهكم بالخير، ويريدك على تركه إلى الشر بعامة، بَلْهَ تلك الفاحشة التي شاعت فيهم بخاصة؟.

وقد تتساءل لماذا قال الله تعالى في الأعراف: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ وفي النمل: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾[1].

وقد أجاب المفسرون عن ذلك: بأن بعضهم قال: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ وبعضهم قال: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ فحكى الله القولين في موضعين مختلفين من كتابه، إيذانًا بسخطه على كل من قال ذلك؛ وللمفسرين تأويلات خلاف ذلك[2].

وعندي أن الله ـ جل وعلا ـ راعى أحوالهم النفسية عندما صدر منهم هذا القول، فكانوا إذا ذكروا آل لوط بالتحقير قال: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾، وإذا ذكروهم بالغيظ وشدة الحنق قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾.

كقولك لمن تزدريه: إنه لا يستحق كذا، فإذا اشتد غضبك عليه قلت: إن فلانًا حقيق بالتقل، فمبعث التسمية شدة الغضب. وليس قولهم ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ بالقول الوحيد الذي صدر عنهم في الرد على دعوة لوط عليه الصلاة والسلام، بل قد حكى الله عنهم في العنكبوت أنهم لما أنكر عليهم لوط ما أنكر، تحدوه بأن يأتيهم بما توعدهم من العذاب إن لم يقلعوا عن تلك الفاحشة، قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ

(١) سورة النمل: الآية (٥٦).

(٢) انظر: الألوسي (٨/ ١٧١).

من الصَّادقين (٢٩) قال ربِّ انصُرْني على القوْم الْمُفْسدين ﴾[١]. وقد سبق تفسير أول هذه الآيات بما يغني عن إعادتها[٢]، أما قولهم: ﴿ **ائْتنا بعذاب اللَّه إن كُنت من الصَّادقين ﴾** فصريح بأن نفوسهم الأمارة بالسوء حدثتهم بأن لوطًا ليس صادقًا، ولن يحل بهم عذاب، أو تنزل بهم قارعة، ولن تتغير أحوالهم، وسوف تستمر لهم الأيام كما يريدون.

ودعاء نبيهم عليهم بقوله: ﴿ **ربِّ انصُرْني على الْقوْم الْمُفْسدين ﴾** كان بعد علمه أنه لا خير فيهم وأنهم لا يؤمنون.

وقد ركَّزَ القرآن الكريم على ذكر قوم لوط بالفاحشة، مع أنهم جمعوا إليها الكفر كما ذكرت في أول هذه القصة، لبيان أن عذاب الاستئصال في الدنيا لا يقع فقط بسبب الكفر، بل يقع أيضًا بسبب الانهماك في المعاصي، واقتراف الذنوب، ليتحامى العقلاءُ أهلُ الإيمان المعاصي، وليستفظعوها ولا يسمحوا بانتشارها وشيوعها، وأن يجتهدوا في الضرب على أيدي فاعليها. ولقد نوهت سورة الشعراء بموقف أضيفه إلى ما ذكرته سابقًا، وهو أنهم نهوه عن التحدث معهم في شأن تلك الفاحشة، وأنه إن لم يكف عن ذلك فيكون مصيره الإخراج والطرد من بينهم، وقد بين لهم عليه السلام أنه لعملهم من المبغضين، وسيظل ينكره عليهم مادام حيًا، وما داموا مقيمين على هذه السوء ﴿ **قالُوا لئن لَّمْ تنته يا لُوطُ لتكُونَنَّ من الْمُخْرجين (١٦٧) قال إنِّي لعملكُم مِّن الْقالين ﴾**[٣] أي: من المبغضين غاية البغض كأنه يقلي الفؤاد والكبد لشدته[٤].

---

(١) سورة العنكبوت: الآيتان (٢٩، ٣٠).

انظر كتاب: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله لمحمد سرور بن نايف زين العابدين، (١٦٥).

(٢) انظر: ص: (٣٤٢) من بحثنا هذا.

(٣) سورة الشعراء: الآيتان (١٦٧، ١٦٨).

(٤) تفسير أبي السعود، (٦/ ٦٢١).

ولما كان الأنبياء عليهم السلام في أتم أحوال العبودية لله تعالى، وأنهم ما أهلوا للنبوة إلا بفضل الله، وأنه لا مانع من أن يسلبوا ما أعطوا وما به شرفوا، إذ الفضل منه وإليه، تضرع لوط لربه أن ينجيه الله وأهله مما يعمله قومه من الفاحشة ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[1] فهذا القول منه من باب إظهار العبودية والتذليل لله تعالى، لا أنه يمكن أن يقع منه ذلك، لأنه من المستحيل عليه ما دام نبيًا معصومًا.

❊ ❊ ❊

(١) سورة الشعراء: الآية (١٦٩).

المبحث الثالث

نجاة لوط وأهله ومصير الكافرين المعاندين

قال تعالى في ختام الآيات التي في سياق قصة لوط في سورة الأعراف: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[١].

وقوله: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ ﴾ أي: برحمتنا وقدرتنا، وهذا اللفظ يحتمل نجاته وأهله من أذى قومه، ويحتمل نجاته وأهله من العذاب الذي نزل بقومه. والرأي الثاني وإن كان أقرب إلى ما تقصده هاتان الآيتان إلا أن المعنى الأول أيضًا قوي، لا سيما إذا عرفت أن لوطًا كان يجاهد فيهم وحده، ولم تكن له فيهم عصبية ولم يؤمن معه أحد منهم كما قررته في أول القصة.

والمراد «بأهله» بناته عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَهُ ﴾ استثناء متصل مما قبله، والمعنى: إلا امرأته كانت في علم الله من الغابرين، أي: الباقين مع هؤلاء المهلكين أو الغابرين أي: هالكة مع الهالكين، لأن غبر تأتي بمعنى: بقي، وبمعنى: ذهب، فهو من الأضداد[٢] وقوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أي: كثيرًا شديدًا مخالفًا لما عُهد من مطر السماء، لأنه كان حجارة من سجيل مطبوخ، لا بنار البشر بل بنار

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٨٣، ٨٤).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٨/ ١٧١).

خلاق القوى والقدر، مخصوصًا بهم، معدًا لهم من عند الله تعالى كما بينته سورة هود[١] والذاريات[٢].

وقوله تعالى: ﴿ **فانظُرْ كيْف كان عاقبةُ الْمُجْرمين** ﴾ خطاب لكل من يتأتى منه الخطاب ويوصف بالفهم، والغرض من هذا الفهم الاتعاظ بما وقع لقوم لوط والانزجار عن فاحشتهم، والمقصود أن عذابهم كان شديدًا فظيعًا مميزًا من بين ما عذب به المكذبون من قبلهم ومن بعدهم، وهذا هو الأقرب لسياق الآية، ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ **فانظُرْ كيْف كان عاقبةُ الْمُجْرمين** ﴾ تعقيبًا على ما مضى في سورة الأعراف من قصص نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط.

وعلى التفسير الأول: يكون تسمية قوم لوط بالمجرمين موافقًا لما كانوا عليه من سوء لأنهم أخذوا من الإجرام أرذله وأخسه، فكانوا جديرين بهذه التسمية، وقد بينت سورة الأعراف نجاته وأهله، وهلاك امرأته، ونوعًا مما عذب به قوم لوط، سالكة في ذلك مسلك الإجمال، محيلة على ما فصل من أمر هذا العذاب ومقدماته في سورة أخرى كهود، والحجر، والعنكبوت، والذاريات، والقمر، عدا ذكر المؤتفكات في التوبة، والنجم، والحاقة.

وقد اخترت آيات سورة هود لنقف على ذكر هذا العذاب بالتفصيل ومقدماته التي سبقته.

قال تعالى: ﴿ **فعقرُوا النَّاقة وعتوْا عنْ أمْر ربِّهمْ وقالُوا يا صالحُ ائْتنا بما تعدُنا**

(١، ٢) قال تعالى في سورة هود: ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾ الآيتان (٨٢، ٨٣) وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿ **قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين * مسومة عند ربك للمسرفين** ﴾، الآيتان من (٢٢) إلى (٣٤).

إن كنت من المرسلين (٧٧) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٧٨) فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين (٧٩) ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (٨٠) إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون (٨١) وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (٨٢) فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾[1].

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة إلى نبيه لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد جاءوه في صورة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله للوط ولقومه، إذ مجيئهم على هذه الصورة جعل لوطًا لا يعرفهم، فكان منه ما قصَّه الله عنه وعن قومه في هذه الآيات ليعرف مدى ما عليه قومه من سوء الأخلاق، وذميم الفعال، وكيف أنه دافع عن ضيوفه مع هذا الموقف الحرج، ولله الحكمة والحجة البالغة، فلما رأى لوط قومه وقد جاءوه يحث بعضهم بعضًا مسرعين، ساءه مجيئهم، وضاقت نفسه بسببهم لأنه خاف على ضيوفه منهم، وقد خفي عليه حقيقتهم أخرج الطبري بسنده عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «لما جاءت الرسل لوطًا أتوه وهو في أرض له يعمل فيها، وقد قيل لهم، والله أعلم: لا تهلكوهم حتى يشهد لوط. قال: فأتوه فقالوا: إنا متضيفوك الليلة، فانطلق بهم، فلما مضى ساعة التفت فقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض أناسًا أخبث منهم، قال: فمضى معهم، ثم قال الثانية مثل ما قال، فانطلق بهم، فلما بصرت بهم عجوز السوء امرأته، انطلقت فأنذرتهم»[2].

---

(١) سورة هود: الآيات من (٧٧) إلى (٨٣).

(٢) تفسير القرطبي، (١٣/ ٨١).

وفي رواية أخرى للسدي: وقالت لهم: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط، فجاءة قومه يهرعون إليه[١]. وقوله: ﴿ **وقال هذا يوم عصيب** ﴾ أي: شديد، وقوله: ﴿ **وجاءه قومه يهرعون** ﴾[٢] أي: يسرعون كأنما يدفعون دفعًا مما بهم من طلب الفاحشة.

﴿ **ومن قبل كانوا يعملون السيئات** ﴾ ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش، حتى مرنوا عليها، وانعدم عندهم استقباحهم فلذلك جاءوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء[٣] وقوله: ﴿ **قال يا قوم هؤلاء بناتي** ﴾ فتزوجوهن أراد أن يقي أضيافه ببناته وذلك غاية الكرم، وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزًا في ذلك الوقت.

وقوله تعالى: ﴿ **هن أطهر لكم** ﴾ قال القرطبي: أي: أزوجكموهن فهو أطهر لكم مما تريدون، أي حل، والتطهر التنزه عما لا يحل، وقال ابن عباس: كان رؤساؤهم خطبوا بناته فلم يجبهم، وأراد ذلك اليوم أن يفدي أضيافه ببناته، وليس ألف (أطهر) للتفضيل حتى يتوهم أن في نكاح (الرجال) طهارة، بل هو كقولك: الله أكبر وأعلى وأجل ولم يكابر الله ـ تعالى ـ أحد حتى يكون الله ـ تعالى ـ أكبر منه[٤].

﴿ **فاتقوا الله** ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بالإيمان به وترك

---

(١) تفسير القرطبي، (١٣/ ٨٢).

(٢) يهرعون: يقال: أهرع الرجل: خف وأرعد من سرعة أو خوف أو حرص أو غضب، وفي التنزيل: ﴿ **وجاءه قومه يهرعون إليه** ﴾ أي: يستحثون إليه كأنهم يحث بعضهم بعضًا.
انظر: لسان العرب، بتصرف (٨/ ٣٦٩).

(٣) بتصرف: تفسير النسفي، (٢/ ١٩٨، ١٩٩).

(٤) انظر: تفسير القرطبي، (٩/ ٧٦).

الفواحش، ﴿ **لا تخزون في ضيفي** ﴾ أي: لا تهينوني وتفضحوني في حق ضيوفي، فإنه إذا أخزى ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل وذلك من عراقة الكرم، وأصالة المروءة.

﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾ أي: رجل واحد يهتدي إلى طريق الحق، وفعل الجميل، والكف عن السوء[١].

والآيات الكريمة السابقة واللاحقة تصور لنا مدى تشبث أهل الباطل بباطلهم واستحسانهم له في نفوسهم، وإصرارهم عليه، وذلك يتمثل في قوم لوط وكيف أنهم أمعنوا في باطلهم أو بالغوا في فحشهم.

وفي الوقت نفسه يبرز موقف أهل الحق، واستنكارهم باطل أهل الباطل. ﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾ يتبع الحق ويهتدي إليه، ويرعوي عن الباطل القبيح، لكنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، لذلك أجابوه بمحض ما ترمي إليه أهواؤهم وشهواتهم.

﴿ **قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق** ﴾ حاجة؛ لأن نكاح الإناث أمر خارج عن مذهبنا، فمذهبنا إتيان الذكور.

قال الشوكاني: أي: ما لنا فيهن من شهوة ولا حاجة، لأن من احتاج إلى شيء كأنه حصل له فيه نوع حق[٢].

وقوله: ﴿ **وإنك لتعلم ما نريد** ﴾ إشارة خبيثة منهم، وأنهم يعنون إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة.

---

(١) تفسير النسفي، (٢/ ١٩٩).

(٢) فتح القدير للشوكاني، (٢/ ٥١٤).

﴿ **قال لو أن لي بكم قوة أو ءاوي إلى ركن شديد** ﴾ أي: لما أصروا على مرادهم تمنى أن يكون له قوة تدفع الخزي عن ضيوفه، أو أن يكون له حصن من عشيرة تنصره عليهم.

قال الفخر الرازي رحمه الله: قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ **لو أن لي بكم قوة أو ءاوي إلى ركن شديد** ﴾ يدل على أنه كان في غاية القلق والحزن بسبب إقدام أولئك الأوباش على ما يوجب الفضيحة في حق أضيافه.

فلما رأت الملائكة تلك الحالة بشرّوه بأنواع من البشارات:

أحدها: أنهم رسل الله.

ثانيها: أن الكفار لا يصلون إلى ما هموا به.

ثالثها: أنه ـ تعالى ـ يهلكهم.

رابعها: أنه ـ تعالى ـ ينجيه من ذلك العذاب.

خامسها: أن ركنك شديد وأن ناصرك هو الله، فحصلت له هذه البشارات[1].

وقال النسفي رحمه الله: جواب «لو» محذوف أي: لفعلت بكم ولصنعت والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي، أو أويت إلى قوي أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم، فشبه القوى العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته.

روي أنه أغلق بابه حين جاءوا وجعل يردهم ما حكى الله عنه ويجادلهم فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب قالوا: يالوط. إن ركنك لشديد[2] أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ

---

(١) الفخر الرازي، (١٨/ ٣٥).

(٢) تفسير النسفي (٢/ ١٩٩) وانظر: تفسير القرطبي (٩/ ٧٨) والكشاف (٢/ ٢٨٤) وانظر تفسير =

قال: «**يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد**»[١] أي: إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ومراد النبي ﷺ أن لوطًا ـ عليه السلام ـ كان يطلب ركنًا شديدًا من البشر ليستعين به على مقاتلتهم على حد قوله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده**»[٢] وإلا فلوط ـ عليه السلام ـ كان آويًا إلى ربه ـ جل وعلا ـ على الدوام، موقنًا بنصرته له في الوقت الذي أراد الله ـ جل جلاله.

ولما كان ربنا ـ جل شأنه ـ حليمًا لا يعجل ويستحيل عليه أن يستخفه كفر كافر، أو فجور فاجر، وأن قوم لوط قد يعتدون على الرسل الذين لم يعرفهم لوط في أول الأمر، وقد يكون من قدر الله أن يؤخر عنهم العقاب مع استفظاع ما أصروا عليه، من أجل ما قدمته قال لوط ما قصّة الله: ﴿**أو ءاوي إلى ركن شديد**﴾.

وقوله: ﴿**إنا رسل ربك**﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم، فدخلوا، فاستأذن جبريل ـ عليه السلام ـ ربه في عقوبتهم فأذن له، فضرب بجناحه وجوههم، فطمس أعينهم، فأعماهم كما قال تعالى: ﴿**ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر**﴾[٣] فصاروا لا يعرفون الطريق، فخرجوا وهم يقولون: النجاءَ ـ النجاء، فإن في بيت لوط سحرة[٤].

= السورة التي يذكر فيها الأعراف لابن أبي حاتم الرازي، دراسة وتحقيق الزميل الشيخ/ أحمد بن أبي بكر. رسالة ماجستير، جامعة أم القرى (١/ ٣٥٣).

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري، (٧/ ٢٢٦).

(٢) صحيح مسلم بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، (١/ ٦٩)، حديث رقم (٧٨)، كتاب الإيمان.

(٣) سورة القمر: الآية (٣٧).

(٤) انظر: تفسير النسفي (٢/ ١٩٩؛ وانظر: تفسير القرطبي، (٩/ ٧٨)؛ والكشاف، (٢/ ٢٨٤) وتفسير سورة الأعراف لابن أبي حاتم، (١/ ٣٥٣).

وقوله: ﴿ **لن يصلو إليك** ﴾ أي: لن يمسوك بما تكره.

وقوله: ﴿ **فأسر بأهلك** ﴾ أي: فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل، والمراد بأهله: قيل: أنصاره وأتباعه الذين قبلوا دينه، وقال ابن عباس: ابنتاه[1].

والسري: السير في الليل. وقوله تعالى: ﴿ **بقطع من الليل** ﴾ أي: في وقت معلوم من الليل وقد بينه قوله تعالى: ﴿ **إنَّا أرسلنا عليهم حاصبا إلاَّ آل لوط نَجَّيْناهُم بسحر** ﴾[2] والسحر هو الثلث الأخير من الليل فيما يبدو لي والله أعلم، ومن الواجب علينا أيها القاريء الكريم أن نعرف أهمية الوقت الذي اختاره الله لنجاة نبيه لوط ـ عليه السلام ـ وأهله، حتى يأتي هذا الوقت ونحن في تضرع وابتهال إلى الله ـ تعالى ـ، لنصون أنفسنا بإحياء هذا الوقت من كل مكروه يصيبنا، فالقرآن ليس كتاب تاريخ بقدر ما هو كتاب علم وهداية وعبرة ﴿ **لقدْ كان في قصصهمْ عبْرةٌ لأُوْلي الألْباب** ﴾[3] وما نكب المسلمون بما نرى وما مضى مما سطرته كتب التاريخ إلا لقلة أهل السَّحَر فيهم، وانشغال أغلبهم في هذاالوقت العظيم بالغفلة الشديدة، والنوم العميق. فإذا أضفت ما يفعله البعض من سهر في هذا الوقت مع اللهو والطرب، كانت النكبة أكبر والبلية أعم، نسأل الله السلامة.

ثم قال تعالى: ﴿ **ولا يلتفت منكم أحد** ﴾ نهي عن الالتفات هو ومن معه.

ورجح الرازي أن المراد أنه كان لهم في البلدة أموال وأمتعة، فأمروا أن يخرجوا أو يتركوا تلك الأشياء ولا يتلفتوا إليها البتة، وكأن المراد منه قطع تعلق

---

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ١٧١).

(٢) سورة القمر: الآية (٣٤).

(٣) سورة يوسف: الآية (١١١).

القلب عن تلك الأشياء، وقد يراد النهي عن التخلف وعدم التباطؤ في الخروج[١].

وقوله: ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ بالنصب وعليه فالاستثناء متصل. بتأويل أن الله ـ جل وعلا ـ أمر لوطًا أن يسري بأهله سوى زوجته فإنه نهي أن يسري بها، وأمر بتخليفها مع قومها، فإنها هالكة مع الهالكين.

وعلى القراءة بالرفع ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ فيكون الاستثناء منقطعًا. ويكون المعنى أن لوطًا ـ عليه السلام ـ قد أخرجها معه، وأنه نهي ومن معه ممن أسرى معه أن يلتفت سوى زوجته، وأنها التفتت. لذلك أدركها حجر فقتلها[٢] وقوله: ﴿ **إنه مصيبها ما أصابهم** ﴾ من العذاب والهلاك.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: إنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها تمالئهم عليه، وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط ـ عليه السلام ـ ليسري بأهله، أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول إنها اتبعتهم، فلما جاء العذاب التفتت هي، فأصابها ما أصابها. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم، ولهذا قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** ﴾[٣] أي: الباقين في الهلاك[٤].

روي أن لوطًا ـ عليه السلام ـ سأل الملائكة عن موعد هلاكهم فقالوا له: ﴿ **إن**

---

(١) بتصرف من تفسير الرازي، (١٨/ ٣٦).

(٢) انظر: تفسير الرازي، (١٨/ ٣٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٣).

(٤) تفسير ابن كثير، (٢/ ٢٣١).

موعدهم الصبح ﴾ فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿ **أليس الصبح بقريب** ﴾ وإنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع . . .[١].

وقوله تعالى: ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾[٢].

هاتان الآيتان تصوران عاقبة الصراع، وعاقبة الكفر، وأن الباطل مهما طال أمده فنهايته وخيمة، وفي النهاية لابد أن ينتصر الحق وتعلو كلمته، لقد أصر قوم لوط على فاحشتهم وتمادوا في منكرهم، واستكبروا عن امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وعَتوا كبيراً.

قال تعالى: ﴿ **فلما جاء أمرنا** ﴾ أي: عذابنا أو الأمر به ﴿ **جعلنا عاليها سافلها** ﴾ جازيناهم بالعذاب الذي يناسب شناعة جرمهم وفحشهم، فإنهم لما خالفوا الفطرة الإلهية، وقلبوا الأوضاع، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، أهلكهم الله بالعقوبة التي قلبت عليهم قريتهم، ومزقتهم شر ممزق فجعل أعلاها أسفلها، وذلك بأن قلعها جبريل ـ عليه السلام ـ بجناحه من أسفلها، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم، كما ذكر ذلك المفسرون[٣] رحمهم الله تعالى، وأتبعوا الحجارة من فوقهم وذلك قوله: ﴿ **وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود** ﴾ أو ذلك لمن كان منهم خارج القرية.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٤/ ٢٣٠)، وانظر: تفسير النسفي (٢/ ٢٠٠).

(٢) سورة هود: الآيتان (٨٢ ـ ٨٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٥٥)؛ وتفسير القرطبي، (٩/ ٨١)؛ وتفسير الرازي (١٨/ ٣٨).

قال الألوسي رحمه الله: ظاهر الآية أنه أمطر عليهم كلهم، وجاء في بعض الآثار أنه خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم حتى إن تاجرًا كان في الحرم فوقف له حجر أربعين يومًا حتى قضى تجارته وخرج من الحرم، فوقع عليه[١].

وقوله: ﴿ **من سجيل** ﴾ اختلف في معنى الـ ﴿ **سجيل** ﴾ فقيل: الطين المتحجر بطبخ وغيره، وقيل: هو الشديد الصلب من الحجارة[٢] وقيل غير ذلك.

وقوله ﴿ **منضود** ﴾ نعت لسجيل أي متتابع، أو مجموع معد للعذاب[٣] والمعنى: أمطرنا عليهم حجارة شديدة غاية في الصلابة والقوة تهلكهم، ولا تتفتت بل تبقى عبرة للمعتبرين وذكرى للمتذكرين.

وقوله: ﴿ **وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾ وما هي أي الحجارة التي أهلك بها قوم لوط ببعيدة من الظالمين، وهم قريش الذين أمعنوا في تكذيب النبي ﷺ فالله قادر على أن يعاقب بتلك الحجارة، لأنها لم تستنفذ قوتها بصبها على قوم لوط، أو يأتي بأمثالها، وهو تهديد للمشركين. أو الضمير راجع إلى ديار قوم لوط. أي: ليست هذه الديار ببعيدة عمن كذبك ولم يؤمن بك يا محمد ﷺ، فهي بين الشام والمدينة، فكان الأجدر بقومك أن يعتبروا بما حل بالأقوام السابقة من العذاب والهلاك، عندما كذبوا رسلهم، ولم يؤمنوا بك وبما جئت به.

فالقصة بلا ريب صراع مرير بين الحق والباطل، وقد تبين لنا مآل من تنكبوا

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي (٨/ ١٧٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٨١، ٨٢)، والرازي (١٨/ ٣٨)، وأبي السعود (٤/ ٢٣٠).

(٣) تفسير النسفي؛ (٢/ ٢٠٠) . . قال في الصحاح: يقال نضدت المتاع: إذا جعلت بعضه على بعض. فهو منضود ونضيد؛ انظر: الصحاح للجوهري (نضد ٢/ ٥٤٤).

عن جادة الحق، وأصروا على فحشهم وباطلهم، وكيف أن الله نصر الحق وحزبه وأخذل الباطل وأهله، وقد كشفت الأبحاث الطبية الحديثة في عصرنا هذا عن الأمراض الخطيرة المعدية للمصابين بالشذوذ الجنسي، فكان انتقام الله لهم ودفنهم في باطن الأرض هم وممتلكاتهم أفضل حل لتتخلص البشرية من شرهم وخطرهم، ولكن بقي أن يعتبر من هم مصابون بمثل دائهم في زماننا هذا، وينسلخوا عن جرمهم، فقد ختم الله قصة لوط في سورة الأعراف بنعت قوم لوط بأنهم مجرمون، قال تعالى: ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾[1] وأي إجرام أكبر وأشنع من تلك الفاحشة؟ ويكفي في فحشها أنها مواطن القذارة !!

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٤).

الأبحاث الطبية الحديثة كشفت عن أضرار فاحشة اللواط

لقد كشف العلم الحديث خطورة تلك الفاحشة وأضرارها، لا على الفاعل والمفعول فقط بل على المجتمع بعامة. ومن أحسن ما طالعت في هذا الموضوع كتاب «الأمراض الجنسية» للدكتور/ محمد علي البار. وألخص لك بعضًا من الأضرار والأمراض التي تنجم من تلك الفاحشة منها أنه يسبب ارتخاء عضلات المستقيم، ويمزقه، ويفقد الشخص القدرة على السيطرة على المواد البرازية، وعدم استطاعته الإمساك عليها.

ولا يخفى أن الأمراض التي تنتشر بالزنا ـ والعياذ بالله ـ يمكن أن تنشر بطريق اللواط، وتصيب أصحابه، وتفتك بهم فتكًا ذريعًا، مثل مرض (الإيدز) وهو مرض فقدان المناعة المكتسبة الذي يعتبر الآن هو الشاغل الأول لوزارة الصحة في الولايات المتحدة الأمريكية[١]. بل العالم أجمع والذي ـ حتى يومنا هذا ـ لا يوجد له أي علاج، وقد تعدى انتشاره إلى أوروبا واستراليا وكندا . . . وغيرها. ومن الأمراض الجنسية الفاتكة التي تنتشر نتيجة هذه الفاحشة (مرض الهربس)[٢]

---

(١) انظر كتاب: الأمراض الجنسية للدكتور محمد علي البار، ص (١٣١) نقلاً عن مجلة التايم الأمريكية في ٤ يوليه سنة ١٩٨٣م.

(٢) (الهربس) مرض فطري جلدي. وترجم باسم القوباء المنطقية، ويصيب الجنب على هيئة بثور كما يصيب الفم والشفة. انظر: كتاب الأمراض الجنسية للدكتور محمد علي البار، ص (٢٣١).

وينتشر هذا المرض في الدول الإباحية بصورة مرعبة وتبلغ إصابة (الشاذين جنسيًا) بهذا المرض عدة أضعاف ما هي عليه عند الزناة، وحتى الآن لا يوجد له علاج يقطع شأفته نهائيًا.

وهذا المرض غالبًا ما يكون مصحوبًا بأمراض الزنا واللوط الأخرى مثل: (السيلان)، و(الكلاميديا) وهو التهاب مجرى البول من غير سيلان، والزهري، بالإضافة إلى الكثير من الأمراض، والأورام، والسرطانات الخبيثة[١] أضف إلى ذلك ما يسببه اللواط من الأمراض النفسية، والاكتئاب، والأمراض العصبية.

ومن العجيب رغم ما يعرفه العالم أجمع عن ما ينجم من تلك الفاحشة من أمراض فتاكة لازلنا نسمع في المجتمعات الغربية الإباحية الدعوة إلى الحرية الجنسية، وإقامة النوادي الخاصة باللواط.

ولقد أوضحت آخر الإحصائيات الأمريكية أن عدد الشاذين جنسيًا في الولايات المتحدة وصل إلى ١٢ مليون شاذًا وشاذة[٢].

* * *

(١) تشير الدراسات الحديثة إلى أن سرطان الكبد منتشر بصورة خاصة في المجتمعات الغربية لدى الشاذين جنسيًا، انظر: المرجع السابق ص (٤٧، ٤٨).

(٢) مجلة (المجلة)، لندن، ٣١ ديسمبر ١٩٨٧م، العدد ٣٦٠.

خلاصة ما جاء الفصل الخامس

١ ـ ذهب جمهور العلماء والنسابون إلى أن لوط ـ عليه السلام ـ من بيت إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأنه ابن أخيه فهو لوط بن هاران بن تارح، وهو آزر.

٢ ـ لم يكن لوط ـ عليه السلام ـ يرتبط بقومه من أي نسب، ولكنه صاهرهم فهو أخوهم في السكن وفي البلد لا في النسب، وهو بذلك يختلف عن سائر الأنبياء، لأن غالب الأنبياء كان مبعثهم في وسط ذويهم وعشيرتهم.

٣ ـ لم يكن قوم لوط ـ عليه السلام ـ موحدين عصاة ـ كما قد يُظن ـ بل كانوا كافرين، لأن توحيد الله يقود إلى تطبيق شرعه.

٤ ـ كانت ذنوب قوم لوط ومخالفاتهم متعددة، منها:

* أنهم كانوا يأتون الفاحشة المنكرة، يأتون الرجال شهوة من دون النساء.

* أنهم كانوا يقفون في طريق الناس ويقتلونهم ويأخذون أموالهم.

* أنهم كانوا يأخذون الناس من الطرق لفعل الفاحشة بهم، أو كانوا يقطعون سبيل النسل بإتيانهم ما ليس بحرث.

* وكانوا يقطعون الطريق بقبح الأحدوثة، بل كانوا يأتون بعضهم بعضًا في الملأ.

* وكانوا يتضارطون ويتضاحكون في ناديهم المنكر.

٥ ـ كان رد قوم لوط على دعوته أن قالوا: أخرجوهم من قريتكم لأنهم أناس

يتنزهون عن تلك الفاحشة ويتطهرون .

٦ ـ لما جاءت الرسل إلى لوط ـ عليه السلام ـ وجاءه قومه يهرعون إليه ، بشرته الملائكة بأنواع من البشارات .

* أنهم رسل الله .

* أن الكفار لن يصلوا إلى ما هموا به .

* أن الله تعالى ينجيه من العذاب النازل بقومه .

* أن ركنك شديد ، وأن الله ناصرك .

٧ ـ كشفت الأبحاث الطبية الحديثة عن أضرار فاحشة اللواط وثبت أنها سبب في أمراض كثيرة منها :

* ارتخاء عضلات المستقيم وتمزيقه ـ فقدان القدرة على السيطرة على المواد البرازية وعدم الاستطاعة على إمساكها .

* مرض الإيدز والهربس والسيلان ، والكلاميديا ، والزهري وبعض الأورام السرطانية وغيرها .

٨ ـ لما خالف قوم لوط بفعلتهم الفطرة السليمة ، وقلبوا الأوضاع ، كان جزاؤهم أن قلب جبريل قريتهم وجعل عاليها سافلها بل وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود من طين متحجر متتابع .

* * *

الفصل السادس

الصراع بين

شعيب - عليه السلام - وقومه

الفصل السادس

الصراع بين شعيب ـ عليه السلام ـ وقومه

مقدمة: نبذة عن نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ .

المبحث الأول: دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه .

المبحث الثاني: موقف قومه من شعيب ودعوته .

المبحث الثالث: عاقبة قوم شعيب .

نبذة عن نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ

اسمه ونسبه:

اختلف المؤرخون والنسَّابة في نسب نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ اختلافًا كثيرًا، والذي عليه الأكثرون هو: شعيب بن ميكييل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام[١].

ولقد أرسل ـ عليه السلام ـ إلى أهل مدين، وهم قوم عرب[٢] من بني مدين ابن إبراهيم الخليل ويربطه بهم نسب وإلى ذلك أشار تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾[٣] قال صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب: إن مدين بن إبراهيم عاش عمرًا طويلاً، وكان قد تزوج من العمالقة[٤]. فولدت له أربعة بنين ونسلوا فكثر

---

(١) محمد، الصادق المنَّا: نبي الله شعيب، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى بمكة المكرمة، بإشراف فضيلة الدكتور: مسعد عبد المعطي الحفني النبراوي.

(٢) شعيب وقومه من العرب، وقد أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: «الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح، وهود، ولوط، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وعيسى، ومحمد ﷺ».

الهيثمي، مجمع الزوائد. (بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت)، ٨/ ٢١٠، قال فيه الهيثمي: «رواه الطبراني موقوفًا ورجاله ثقات».

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

(٤) العمالقة: يرجع أصلهم من قبائل العرب البائدة، وقد كان لهم ملوك ودول حيث امتد ملكهم إلى الشام ومصر، ويذكر المؤرخون أن هذه القبائل كانت تسكن قديمًا في آسيا الصغرى، ثم هاجروا إلى جزيرة العرب حيث سكنوا شمال الحجاز مما يلي جزيرة سيناء، وقد فتحوا مصر مدة الفراعنة وأسسوا فيها أسرة ملكية. =

عددهم في حياته، فلما رأى كثرة عقبه جمعهم، وأشار عليهم أن يبنوا مدينة ويحصنوها من العمالقة، ففعلوا ذلك، وجعلوا أبوابها من الحديد، وسموها (مدين) باسم أبيهم، وجعلوها محال قبائلهم. فرغب العمالقة في مجاورتهم وعندئذ امتلأت المدينة بهم وبأهلها حتى ضاقت، فخرج العمالقة من مدين، ونزلوا الأيكة وهي غيضة عن يمينها، فبنوا هناك الدور لأنفسهم[١].

موقع مدين:

قال صاحب معجم البلدان: (مدين) على بحر القلزم[٢] محاذية تبوك على نحو ست مراحل، وهي أكبر من تبوك[٣].

وتسمى حديثًا مدينة «العقبة» الميناء المعروف بالأردن[٤]. قال القزويني: «مدين: مدينة قوم شعيب ـ عليه السلام ـ بناها مدين بن إبراهيم الخليل جد شعيب، وهي تجارة تبوك بين المدينة والشام»[٥]. وتقع بالقرب من بحيرة لوط، وهذا يفسر لنا معنى قوله ـ تعالى ـ على لسان نبيه شعيب ﴿ **وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ** ﴾[٦] وقد فسر المفسرون القرب المعني بالقرب المكاني والزماني.

= وجدي، محمد فريد. دائرة معارف القرن العشرين. الطبعة الثالثة، (بيروت: دار المعرفة) ٦/ ٢٣٢.

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، (١٣/ ١٦٧).

(٢) البحر الأحمر حاليًا.

(٣) الحموي، ياقوت. معجم البلدان. (بيروت: دار صادر، . . .)، ٥/ ٧٧.

(٤) انظر: مراصد الاطلاع، (٤/ ١٢٤٦).

(٥) القزويني، زكريا. آثار البلدان وأخبار العباد. (بيروت: دار بيروت، . . .)، ص ٢٦١.

(٦) سورة هود: الآية (٨٩).

شهرته ـ عليه السلام ـ.

ولقد اشتهر شعيب ـ عليه السلام ـ بفصاحته، وبلاغته، وقوة حجته، وحسن مراجعته لقومه.

قال الفيروزي آبادي: «ولم يكن من الأنبياء بعد نبينا محمد ﷺ أفصح ولا أبلغ من شعيب ـ عليه السلام ـ، قرأ رسول الله ﷺ قصته وما كان منه ومن قومه، وتأمل في ألفاظ تذكيره لقومه فقال: «**رحم الله أخي شعيبا ذاك خطيب الأنبياء كان يحسن مراجعة قومه**»[1].

❊ ❊ ❊

(١) الفيروز آبادي. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. (تحقيق) عبد العليم الطحاوي، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية)، ٦/ ٥٧.

والحديث الذي ذكره الفيروز آبادي ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٨٥) وأخرجه الحاكم في المستدرك بلفظ: «وكان رسول الله ﷺ إذا ذكره قال: **ذاك خطيب الأنبياء لمراجعته قومه**» المستدرك، (٢/ ٥٦٨) وأورده الألوسي نقلاً عن ابن عساكر عن ابن عباس بنفس اللفظ السابق، (٨/ ١٧٥).

المبحث الأول
دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه

هذه القصة السادسة في هذه السورة الكريمة، والتي تصور مشهدًا جديدًا وصراعًا مغايرًا للصراعات السابقة، فرغم أنها تتفق مع سالفتها من الصراعات في قضية التوحيد والحض عليه وترسيخ العقيدة؛ إلا أنها عالجت نمطًا جديدًا، وخلقًا وضيعًا، وطغيانًا ماديًا استفحل في قلوب الملأ من أهل مدين ومن تخلقوا بأخلاقهم، وقد ساعد على تفشيه بينهم بسبب ما تتمتع به مدين من موقع جغرافي استراتيجي، فهي كما أسلفت مركز تجاري هام يربط بين الحجاز والشام، وتمر عليها القوافل التجارية من مختلف الأقطار، مما أكسب أهل مدين معرفة واسعة بأصول التجارة، ومهارة فائقة في البيع والشراء، فأصبحوا في ثراء عظيم ونعم لا تحصى.

ولقد طغى عليهم حب المال، وأصبحوا لا هَمّ لهم إلا في جمعه، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾[1] لا يعنيهم من أي الوجوه أتى الربح، فهم يرون أنفسهم أنهم أحرار في أموالهم، يفعلون فيها ما بدا لهم ـ وإن ظلموا غيرهم، فليس لديهم أي بأس أو حرج عندما ينقصون الكيل والميزان إذا هم باعوا لغيرهم، وأن يطففوه إن هم اشتروا لأنفسهم.

ومن هذا المنطلق كانت دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ لذلك المجتمع الذي

---

(١) سورة العلق، الآيتان (٦، ٧).

طغت عليه المادية، وذلك بإعادة التوازن في البيع والشراء، والعدل في الكيل والميزان، وعدم بخس الأخرين حقهم حتى تسود روح المحبة والإخاء بين أفراده، ويتلاشى طغيان المادة التي تسبب اشتعال نار الحقد والكراهية في نفوس بعض الأفراد ضد بعض.

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾[١].

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبًا، وهذا المحذوف معطوف على المقدر في نظائره فيما مضى من قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾[٢]، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾[٣] فالتقدير: وأرسلنا هودًا إلى عاد، وأرسلنا صالحًا إلى ثمود، وأرسلنا شعيبًا إلى مدين. وشعيب ـ عليه السلام ـ من أبناء مدين كما أسلفت[٤] فالأخوة نسبية.

وتتلخص دعوة شعيب لقومه بما يلي:

١ ـ أمرهم بإخلاص العبادة لله تعالى وحده:

ولقد دعا شعيب قومه إلى عبادة الله وحده، ونبذ ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ ناداهم ـ عليه السلام ـ بـ ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ تذكيرًا لهم بأواصر الأخوة والنسب، وأنه ـ عليه السلام ـ حريص على هدايتهم وإنقاذهم من الهلاك الذي يتربص بهم، لذلك كان أول نداء وجهه إليهم ـ شأنه في ذلك شأن الأنبياء الذين سبق ذكرهم ـ هو حثهم على

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٤) انظر: ص (٣٧١ ـ ٣٧٢) من بحثنا هذا.

عبادة الله وحده؛ فليس هناك إله يستحق العبادة سواه، ولم يحتج ـ عليه السلام ـ إلى إثبات وحدانيته ـ جل وعلا ـ بأدلة حسية أو غيرها لأن أهل مدين هم من أحفاد إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ كما سبق أن أسلفت، ولم يكن أمر التوحيد بالغريب عليهم. لكن لتطاول الأزمان بين دعوة شعيب ودعوة إبراهيم ـ عليهما السلام ـ اجتالتهم الشياطين، وأنسوهم ذكر الله، وحادوا عما كان عليه آباؤهم، واتبعوا أهواءهم، وزين لهم الشيطان الشرك والكفر بالله، فعكفوا على عبادة الأصنام والأوثان، واتخذوها آلهة تعبد من دون الله.

وقوله تعالى: ﴿ **ما لكُم مَنْ إله غيرُهُ** ﴾ معناه أن شيئًا مما ألهتموه لم تأمركم بذلك ولم تدعكم إلى تأليهها، لأنها جمادات لا تسمع، ولا تبصر، ولا تغني عنكم شيئًا، ولا تحس بتوجهاتكم إليها، ومن العجيب أن الأمم الكافرة قد عكفت على عبادة الجمادات التي لا تشعر بعابديها، ولم يُعرف تأليه البشر إلا على لسان اليهود والنصارى، وهم لم يتجرأوا على جعل من ألهوا من البشر آلهة مستقلين، بل جعلوهم أبناء لله الواحد.

قال تعالى: ﴿ **وقالت اليهودُ عُزيرٌ ابنُ اللَّه وقالت النَّصارى المَسيحُ ابنُ اللَّه ذلك قولُهُم بأفواههم يُضاهئُون قولَ الَّذين كفرُوا من قبلُ قاتلَهُمُ اللَّهُ أنَّى يُؤْفكُون (٣٠) اتَّخذُوا أحبارَهُم ورُهبانَهُم أربابًا من دُون اللَّه والمَسيحَ ابنَ مريمَ وما أُمرُوا إلاَّ ليعبُدُوا إلهًا واحدًا لاَ إله إلاَّ هُو سُبحانَهُ عمَّا يُشركُون** ﴾[1].

وهذا كله متأخر عن عصر شعيب، ولعل الكافرين الذين شابههم اليهود والنصارى هم المصريون القدماء الذين انطلت عليهم فرية فرعون حيث قال لهم: ﴿ **أنا ربُّكُمُ الأعلى** ﴾ ومما يقوي ذلك أن اليهود كانوا يعيشون في مصر في ذلك

(١) سورة التوبة: الآيتان (٣٠، ٣١).

الوقت وقد اقتبسوا عن المصريين الكثير من أحوالهم، فإذا قال شعيب لقومه: ﴿ **ما لكُم مِّنْ إله غيرُهُ** ﴾ فقد نبه قومه أنهم هم الذين افتعلوا تأليه مبعوداتهم لا أنها أمرتهم بذلك، ولأن أحداً لم يتجرأ على دعوى ألوهية هذا الكون وتدبيره وحفظه. وغاية ما ادعاه فرعون أنه قال لقومه: ﴿ **أنا ربُكُم** ﴾ ولم يقل لهم أنا رب الخلائق ﴿ **قدْ جاءتْكُم بيِّنةٌ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ أي: دلالة وحجة واضحة، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني، والمقصود من هذا القول الكريم حملهم على التوحيد ونبذ الشركاء.

ولقد اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في بينة شعيب ـ عليه السلام ـ أهي معجزة حسية كناقة صالح ـ عليه السلام ـ؟ أم هي معجزة قولية؟ أم هي مجموع الأمرين؟ وسبب هذا الخلاف أن القرآن الكريم لم يقص علينا معجزة حسية لشعيب كناقة صالح، وعصا موسى ـ عليهما السلام ـ وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه خطيب الأنبياء بسبب قوة حجته وإفحامه قومه ـ عليه السلام ـ مما اضطرهم أن يقولوا له: ﴿ **قالُوا يا شُعيْبُ ما نفقهُ كثيرا مِّمَّا تقُولُ وإنَّا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهْطُك لرجمْناك وما أنت علينا بعزيز** ﴾[1].

قال الألوسي: جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبل التخليط والهذيان الذي لا يفهم معناه، ولا يدرك فحواه، مع أنه كما ورد في الحديث الشريف (خطيب الأنبياء)[2].

لما قدمته قال بعضهم: كانت له ـ عليه السلام ـ معجزة حسية، ولا يضر عدم ذكرها ـ بل يكفي أن نعلم أنه أوتي بينة من ربه.

---

(١) سورة هود: الآية (٩١).

(٢) بتصرف من تفسير الألوسي، (١٢/ ١٢٣).

وقال فريق آخر: بل بينته حجته ـ لما أسلفته من سبب هذا القول، وقد لخص الألوسي ـ رحمه الله ـ الخلاف فقال:

﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: معجزة عظيمة ظاهرة من مالك أموركم، ولم تذكر معجزته ـ عليه السلام ـ في القرآن العظيم كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ والأنبياء ـ عليهم السلام ـ فيه.

والقول بأنه لم يكن له ـ عليه السلام ـ معجزة غلط؛ لأن الفاء في قوله سبحانه: ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾ لترتيب الأمر على مجيء البينة، واحتمال كونها عاطفة على ﴿ اعْبُدُوا ﴾ بعيد، وإن كانت عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس، فكأنه قيل: قد جاءتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتي، أوجبت عليكم الإيمان بها، والأخذ بما أمرتكم به فأوفوا إلخ . . . ولو ادَّعى مُدَّعٍ النبوة بغير معجزة لم تقبل منه؛ لأنها دعوى أمر غير ظاهر، وفيه إلزام للغير، ومثل ذلك لا يقبل من غير بينة، ومن الناس من زعم أن البينة نفس شعيب، ومنهم من زعم أن المراد بالبينة الموعظة، وأنها نفس ﴿ فَأَوْفُوا ﴾ إلخ . . . وليس بشيء كما لا يخفى. ا. هـ[1].

٢ ـ أمرهم بإيفاء الكيل والميزان:

قال تعالى: ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾: الفاء تفيد الترتيب، وهذا يؤكد وجود المعجزة، فإن عطف هذا الأمر بالفاء لا يصح إلا إذا كان مبنيًا على ما هو سبب له، وهو البينة على صدقه ووجوب طاعته، ولو كان معطوفًا على قوله: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ لعطف بالواو[2].

---

(١) تفسير الألوسي، (٨/ ١٧٦).

(٢) انظر: تفسير المنار، (٨/ ٥٢٥).

قال الفخر في بيان الحكمة من ابتداء شعيب ـ عليه السلام ـ بتحذير قومه من البخس والتطفيف في الكيل: «اعلم أن عادة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إذا رأوا أقوامهم مقبلين على نوع من أنواع المفاسد إقبالاً أكثر من إقبالهم على سائر أنواع المفاسد، بدأوا بمنعهم عن ذلك النوع، وكان قوم شعيب مشغوفين بالبخس والتطفيف، فلهذا السبب بدأ بذكر هذه الواقعة فقال: ﴿ **فأوفوا الكيل والميزان** ﴾[1] وأهل مدين ـ كما أسلفت ـ بحكم موقع مدينتهم على ممر القوافل التجارية بين الحجاز والشام أهل تجارة وبيع وشراء، وقد أنعم الله عليهم بالنعم والرخاء في العيش كما أشارت إلى ذلك سورة هود: ﴿ **ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير** ﴾[2] أي: في ثروة واسعة ورغد في العيش يغنيكم عن التطفيف وأكل أموال الناس بالباطل.

وكان اللائق بهم أن يعرفوا ويؤدوا حق شكر هذه النعم، لا أن يقابلوها بالكفر والجحود والعصيان؛ لأن المال الحرام لا بركة فيه، وسرعان ما يزول عن صاحبه بدون أن يشعر، بينما المال الذي يكسبه الإنسان عن طريق الحلال المشروع فإن الله يبارك فيه، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في سورة هود: ﴿ **بقيت الله خير لكم إن كنتم ...** ﴾[3] أي: ما أبقاه الله لكم، وأنعم به عليكم من الحلال، خير مما تجمعونه من الحرام الذي يذهب هباء، فضلاً عن أنه يكون وبالاً على صاحبه. والمراد بالكيل في الآية: آلة الكيل وهو الميكال.

وأمرُ شعيب قومه بإيفاء الكيل والميزان يحتمل أن آلاتهم التي كانوا يكيلون بها ويزنون سليمة، وأن النقص كان في المكيل والموزون. ويحتمل أن آلاتهم

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، (١٤/ ١٧٣).

(٢) سورة هود: الآية (٨٤).

(٣) سورة هود: الآية (٨٦).

كانت على خلاف ما تعورف عليه، فكانوا يرتكبون الجريمتين: نقص المكيل والموزون ونقص آلاتهما، فلفظ الكيل في الآية يحتمل هذين المعنيين، إذ قد يكون الكيل بمعنى الميكل، أو هو اسم للآلة التي يكال بها، وقد شاع فيهما الأمران قال تعالى: ﴿ **ولا تنقُصُوا المكْيال والْميزان** ﴾[1] فحملهما على الآلة في هذه الآية واضح ظاهر.

٣ ـ نهاهم عن بخس الناس حقوقهم:

ولما أمرهم بإيفاء الكيل والميزان، نهاهم عما يؤدي إلى نقص الحقوق بعامة فقال: ﴿ **ولا تبْخسُوا النَّاس أشْياءهُمْ** ﴾ أي: لا تبخسوا الناس أشياءهم كافة أوجه البخس والنقص، فيدخل فيه المنع من الغصب، والسرقة، وأخذ الرشوة، وقطع الطريق، وانتزاع الأموال بطريق الحيل[2].

٤ ـ نهاهم عن الإفساد في الأرض:

ثم نهاهم عن الفساد في الأرض بعامة، بعد أن أصلحها الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بالشرائع الإلهية، فيدخل فيه كل فساد وكل ظلم ـ وهذا النهي من قبيل ذكر العام بعد الخاص الذي ينتظم الخاص المذكور، وما لم يذكر من أنواع الفساد والجور، فيدخل فيه النهي عن الزنا، والقتل، وقطع الطريق، وظلم الضعيف، وغير ذلك من المناهي التي جاءت بها الشرائع، على اختلافها في الفروع والأصول، قال تعالى: ﴿ **ولا تُفْسدُوا في الأرْض بعْد إصْلاحها ذلكُمْ خيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمنين** ﴾[3].

---

(١) سورة هود: الآية (٨٤).

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي، (١٤/ ١٧٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

وخلاصة القول : إن المباشرة الحرة للمال من غير قيود، ومن غير عدل تنتهي حتمًا إلى الفساد في المجتمع، بسبب فساد المترفين عن طريق الربح غير المحدود بل وغير المشروع، الربح الحرام الذي يسبب الشقاء والظلم للآخرين.

﴿ **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ إشارة إلى ما مضى من نبذ عبادة الأصنام، وأمرهم بإيفاء الكيل والميزان، والنهي عن البخس والفساد في الأرض، وقد جاء بلفظ الجمع في الإشارة ﴿ **ذَلِكُمْ** ﴾ لأنه أراد عموم ما ذكره لهم، وجمع في الخطاب ليعلمهم أن هذه الخيرية حاصلة لكل واحد منهم على حده، أي: هي حاصلة للأفراد وللجماعة. وهذه نكتة الجمع في الخطاب.

﴿ **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ أي: موقنين مصدقين لي فيما جئتكم به فإنكم حينئذ تدركون قبح ما أنتم عليه، وأن صلاحكم في توحيد ربكم، والالتزام بما أمرتكم به، وترك ما نهيتكم عنه.

وهذا بيان إلهي عظيم، هُدينا به إلى أن القبح لا يعرف ولا يدرك قبحه إلا بالإيمان بالله - عز وجل - وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره ومما يؤكد لك هذه الحقيقة أن ما نستقبحه في البيئة الإسلامية ونتحاماه كل التحامي، نجد الكفار ينكبون عليه، وينهمكون في فعله، ويسنون القوانين الحامية لمن يفعله، والفرق بيننا وبينهم هو الإيمان بالله - عز وجل - ويستحيل على العقل أن يدرك قبح الأشياء وحده بدليل أنك ترى أكبر المفكرين والفلاسفة من غير المؤمنين - يأتون من قبائح الأفعال، والكفر بالله عز وجل ما يجعل المؤمن في حيرة ودهشة من صدور ذلك عن هذا المفكر المشهود له بقوة العقل، لكن إذا تذكرنا قوله تعالى لقوم شعيب: ﴿ **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ فلا حيرة ولا غرابة.

٥ ـ نهاهم عن القعود على طريق الدين ومناهج الحق لأجل أن يمنعوا الناس عن قبوله :

ثم إنه عليه السلام أخذ ينهاهم عن رذائل أخرى استحسنوها، وتعاقبوها، وهي أنهم تشبهوا بإبليس في توعده لبني آدم، وأخذه العهد على نفسه بإغوائهم: ﴿ **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾، وذلك أنهم كانوا يتربصون بالطرقات كل من أراد الذهاب إلى شعيب فيمنعونه بشتى الأساليب.

قال تعالى: ﴿ **ولا تقْعُدُوا بكُلِّ صراط تُوعدُون وتصُدُّون عن سبيلِ اللَّه منْ آمن به** ﴾[1] أي: ولا تقعدوا بكل طريق يسلكه الناس، تحولون بين شعيب ومن آمن به، أو من كان يقصده من الغرباء والمسافرين، وقصدهم بذلك عزل شعيب عن كل من يريد الاتصال به، حتى لا يجد لمواعظه مكانة في قلوب الناس فيتأثرون به، ويؤمنون بما جاءهم به ﴿ **تُوعدُون** ﴾ من التوعد بمعنى التهديد والتخويف، أي أنهم يهددون ويخوفون كل من أراد الإيمان بشعيب بأنواع الأذى.

﴿ **وتصُدُّون عن سبيلِ اللَّه منْ آمن به** ﴾ أي: وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن به ﴿ **وتبْغُونها عوجًا** ﴾ أي: تبغون طريق الله عوجًا تقركم على ما أنتم عليه من السوء، أو تأتون بالشبه التي تلبس على المؤمنين فتحيرهم، أو تصرفهم عن الدين بعد أن آمنوا به، لأنه صار عندهم معوجًا بما ألقيتموه من الشبه، كما أنكم بعلمكم هذا تصرفون من يميل إلى دين الله ويحاول الاهتداء، وهذه قبائح لا ينبغي أن تقيموا عليها، لأن الله توعد من يتصف بها بالهلاك في الدنيا، وسوء المصير في العقبى، ومهما حاولتم أن يكون دين الله عوجًا فلن تصلوا.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٦).

والخلاصة: إنه نهاهم عن القعود على صراط الله حال كونهم موعدين[١] وصادين عن سبيل الله، وحالة كونهم طامعين في أن تكون طريق الله عوجًا تبيح لهم ما هم عليه.

٦ ـ ذكرهم بنعم الله عليهم:

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾: وقد غاير نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ في أسلوب دعوته، فترك تذكيرهم بما هم عليه من فساد، وذكرهم بما أفاض الله عليهم من نعمة، واختار من بينها نعمة لا يشكون فيها، ولا يجحدون وقوعها، وهي أنهم كانوا قليلين فيما مضى، يطمع فيهم الطامعون، وينال منهم من يشاء من نيل فلا يمتنعون عليه، ثم نقلهم الله من هذا الحال، فجعلهم أمة عظيمة مرهوبة الجانب، لها على غيرها من السيادة والسلطان بما أوتيت من وفرة المال الذي من شأنه أن يخضع لهم الناس.

فقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾[٢] أي: قليلاً في عددكم فأصبحتم كثرة كاثرة، وفي هذا الأسلوب نهج قويم للدعاة بألا يكثروا من ذكر المثالب[٣] بل يخلطوا دعوتهم ببيان الخطأ والصواب، فإن النفس إذا سيست بأسلوب واحد سئمت وعميت عن الحق مهما كان واضحًا، ولذلك نجد القرآن الكريم إذا توعد يردف بالوعد، وإذا وعد يردف بالتوعد، لأن النفس البشرية لا تصلح ولا تقام عليها الحجة إلا بهذا الأسلوب.

---

(١) من التوعد: بمعنى التهديد والتخويف.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٦).

(٣) العيوب.

٧ ـ ثم حذرهم من الإفساد :

وإنه سوف يكون مصيرهم مصير من سبقهم من الأمم السابقة قال تعالى : ﴿ **وانظُرُوا كيْف كان عاقبةُ الْمُفْسدين** ﴾[١] أي : تذكروا كيف كان مآل المفسدين وما أصابهم من الخزي والنكال ، وليكن ذلك حافزاً على طاعة الله ، والابتعاد عن معاصيه ، وما نهيتكم عنه وحذرتكم منه ، وإلى ذلك أشارت آية هود ﴿ **ويَا قَوْمِ لا يجْرمنَّكُمْ شقاقي أن يُصيبكُم مَثْلُ ما أصاب قَوْمَ نُوحٍ أوْ قَوْمَ هُودٍ أوْ قَوْمَ صالحٍ وما قَوْمُ لُوطٍ مِنكُم ببعيد** ﴾[٢] .

* * *

(١) سورة الأعراف : الآية (٨٦) .

(٢) سورة هود : الآية (٨٩) .

تعقيب

وقوله تعالى: ﴿ **وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفةٌ لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** ﴾[1].

لقد أثمرت دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ ثمارها، ودخلت طائفة من قومه في دين الله، وبقدر ما أفادتنا هذه الآية الكريمة من إيمان طائفة من قومه فقد أفادتنا أيضًا حرصه ـ عليه السلام ـ على إيمان قومه عن بكرة أبيهم، لأنه ـ عليه السلام ـ بذل لقومه من الحجة، ووضوح البينة، ما لم يبق عذرًا لمعتذر أو سببًا لكفر كافر منهم.

وقوله تعالى: ﴿ **فاصبروا حتى يحكم الله بيننا** ﴾ يحتمل معنيين:

المعنى الأول:

أنه وعيد للمكذبين من قومه المصرين على معاندته كقوله تعالى: ﴿ **فتربصوا إنا معكم متربصون** ﴾[2] أي: تربصوا هلاككم وخذلانكم، وإنا معكم متربصون وقوع ذلك لكم. فقوله: ﴿ **فاصبروا** ﴾ خرج من معنى الأمر بالصبر إلى تهديد المكذبين وقوله: ﴿ **حتى يحكم الله بيننا** ﴾ غاية لهذا الأمر، أي: فحينئذ تعلمون المبطل منا من المحق، وهذا هو المعنى الأقوى في نظري، وله في القرآن نظائر كثيرة لا أطيل بذكرها[3] وقوله تعالى: ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ أي: هو العدل

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٧).

(٢) سورة التوبة: الآية (٥٢).

(٣) مثل قوله تعالى: ﴿ **فانتظروا إني معكم من المنتظرين** ﴾ سورة يونس: الآية (١٠٢).

الذي لا يجور في حكمه، لذا فلن يعاقب إلا من هو أهل للعقاب، ولن ينصر إلا من هو أهل للنصرة.

المعنى الثاني:

أنه أمر بالصبر للطائفة المؤمنة على ما يلقون من عنت الكافرين والمكذبين، وقوله تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** ﴾ تبشير لهم بالنصر، وأن معاناتهم من المكذبين لن تدوم، والله أعلم بالصواب.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني
موقف الكافرين
من دعوة شعيب عليه السلام

إن الدارس للآيات الكريمة الواردة في سورة الأعراف حول موقف الكافرين من دعوة شعيب يجد أنها لا تتعدى الثلاث آيات التالية:

وهي قوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾[1].

والمتمعن في الآيات السابقة مع الآيات الأخرى من كتاب الله مثل سورة الشعراء وسورة هود اللتين تحدثتا عن موقف الكافرين من دعوة شعيب يجد أن الآيات الواردة في سورة الأعراف جاءت لبيان خاتمة الموقف الذي سلكه قوم شعيب مع نبيهم شعيب ـ عليه السلام ـ ولما كان القرآن الكريم بأسلوبه المعجز، الذي أعجز بلغاء العرب وفصحاءهم، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يعتبر في الواقع وحدة متكاملة مترابطة، فهو يفسر بعضه بعضًا، فما يجمله في مكان، يبسطه في موضع آخر، وهو في الإجمال والبسط في أعلى

(١) سورة الأعراف: الآيات من (٨٨) إلى (٩٠).

درجات الفصاحة، بحيث يأسرك إجماله وتفصيله، وذلك سر من إعجازه، لذلك أحب أن أوضح للقاريء الكريم أنني سوف أذكر موقف الكافرين من دعوة شعيب من خلال بعض الآيات في سورة الشعراء أولاً، ثم سورة هود ثانيًا اللتين فصلتا الموقف، ثم أعرج في النهاية على ذكر ما توصل إليه الملأ من قوم شعيب، حين أصروا على تعنتهم، وأبوا اتباع الحق، واستهووا الباطل، وقرروا طرد شعيب ومن آمن معه من قريتهم، إن لم يقلع عن دعوتهم إلى التوحيد، وترك ما ألفوه من أكل أموال الناس بالباطل، وهذا ما أفصحت عنه آيات سورة الأعراف.

وغرضي من هذا بيان الصراع الذي واجهه شعيب ـ عليه السلام ـ من قومه، وكيف أنه بذل كل ما في وسعه من طاقة لهدايتهم متحملاً المهانة والاستهزاء والتهديد والوعيد من قومه، ثم نتعرف بمشيئة الله في الفصل الذي يليه نتيجة تلك المكابرة، وما حل بهم من العذاب الأليم.

لقد كان نبي الله شعيب حريصًا كل الحرص على هداية قومه، وانتشالهم من الكفر والفساد والظلم الذي خيم عليهم واستقر في نفوسهم، ويتلخص موقف قوم شعيب من نبيهم ـ عليه السلام ـ فيما يلي:

١. اتهموه بالسحر والكذب:

ولقد قابل قوم شعيب ـ عليه السلام ـ دعوته بالاستنكار والتكذيب فضلاً عن السخرية والتهكم، لقد فاجأتهم دعوته وهزت مشاعرهم، وأقلقت نفوسهم، ولم يجدوا ما يردون عليه به، إلا أن يطعنوا في دعوته، وينسبوه إلى السحر، ويصفوه بأنه من الكاذبين، قال تعالى: ﴿ **قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾[١] فقد اتهموه بأنه مسحور قد أفسد السحر عقله وتفكيره، فأصبح يتفوه بما لا يعرف مما جعله ينهاهم عن ترك عقائد

(١) سورة الشعراء: الآيتان (١٨٥، ١٨٦).

عزيزة في نفوسهم، راسخة في قلوبهم، توارثوها عن آبائهم وأجدادهم، وقد جاءوا بلفظ «الواو» في قولهم: ﴿ **وما أنت** ﴾ للدلالة على أنه جامع بين وصفين منافيين للرسالة مبالغة في تكذيبه، ثم اتهموه بالكذب ﴿ **وإن نَظُنُّك لمن الْكاذبين** ﴾ أي: في دعواك[١].

٢. تهكموا عليه واستهزأوا بدعوته:

ثم كرر القوم استهزاءهم بنبيهم مستكبرين عن قبول دعوته، ساخرين منه، متهكمين عليه، قائلين له: كيف تؤثر عليك صلاتك يا شعيب فتأمرك بأن تحملنا على ترك ما درجنا عليه، وألفناه من تقاليد، وما نشأنا عليه من عبادات ورثناها عن آبائنا؟

وكيف تطالبنا أن نتصرف في أموالنا بما تراه وتعتقده مع أنه يؤثر على تجارتنا ومصالحنا ويقيد حرياتنا؟ وكان شعيب ـ عليه السلام ـ كثير الصلاة فلذلك خصوها بالذكر: ﴿ **قالُوا يا شُعيْبُ أصلاتُك تأْمُرُك أن نَتْرُك ما يعْبُدُ آباؤُنا أوْ أن نَفْعل في أمْوالنا ما نشاءُ إنَّك لأنت الْحليمُ الرَّشيدُ** ﴾[٢] تهكموا به، وقصدوا وصفه بضد ذلك. وقيل: إنهم عللوا إنكار ما سمعوه منه واستبعاده بأنه موسوم بالحلم والرشد، المانعين عن المبادرة إلى أمثال ذلك[٣].

أما آيات سورة الأعراف التي بينت موقف الكافرين من دعوة شعيب فسوف أتحفك بشرحها في مبحث «موقف شعيب ـ عليه السلام ـ من اتهام قومه له بالضعف»[٤].

---

(١) البيضاوي. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. (بيروت: مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع)، ٤/ ١٠٩.

(٢) سورة هود: الآية (٨٧).

(٣) انظر: تفسير البيضاوي، (٤/ ١١٨).

(٤) انظر: ص (٣٩٤) من بحثنا هذا.

موقف شعيب ـ عليه السلام ـ من قومه

ثم بينت الآيات الثلاث التالية موقف شعيب ـ عليه السلام ـ من هذا الاستهزاء والتهكم:

ورغم تهكمهم واستهزائهم بنبيهم، وإصرارهم على باطلهم، لم تبدُ منه ـ عليه السلام ـ أي جفوة أو قسوة، بل تلطف في جدالهم، وآثر استمالتهم باللين، واجتذابهم بالرفق، وذكَّرهم بما بينه وبينهم من صلة، فكان يناديهم: (يا قوم) ليشعرهم بأواصر القرابة والنسب، وبأنه منهم وأنهم منه، قائلاً لهم: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾[1].

والمعنى: يا قومي الذين أحب لهم ما أحبه لنفسي من الخير والسعادة والنفع والصلاح، إنني مرسل إليكم ببينة وحجة واضحة من ربي الذي خلقني وخلقكم، وما جئتكم به إنما هو وحي من الله لا رأي مني، وقد أنعم الله علي بالرزق الطيب الحلال، ولست أقول لكم، وآمركم بشيء، وأخالفه إليه من ورائكم، خفية عنكم مؤثراً نفسي عليكم، بل أنا مستمسك به قبلكم، لأنه لو كان صواباً لآثرته ولم أعرض عنه فضلاً عن أن أنهي عنه، وما أريد إلا أن أصلحكم بأمري لكم بالمعروف ونهيي لكم عن المنكر، وليس لي فيما أقول هوى

---

(١) سورة هود: الآية (٨٨).

أو منفعة ذاتية تعود بالخير علي، فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه، وما توفيقي لإصابة الحق والصواب إلا بهدايته ومعونته ـ جلّ وعلا ـ عليه توكلت وإليه أنيب، فهو المعين لي في أداء الرسالة التي شرفني بإبلاغها.

وبعد هذا الأسلوب الهادىء الذي ينطوي على ترغيبهم في عمل الخير، واتباع الحق، يتدرج شعيب ـ عليه السلام ـ إلى أسلوب الترهيب، حتى يبصرهم عواقب المخالفة والزيغ عن الحق والهدى إلى الباطل والضلال، وكل ذلك حرصًا منه على هدايتهم، قائلاً لهم ما قصَّة الله على لسانه: ﴿ **ويا قوْم لا يجْرمنَّكُمْ شقاقي أن يُصيبكُم مثْلُ ما أصاب قوْم نُوحٍ أوْ قوْم هُودٍ أوْ قوْم صالحٍ وما قوْمُ لُوط منكُم ببعيد** ﴾[1].

أي: لا تحملنكم عداوتكم لي على الإصرار على ما رضيتموه لأنفسكم من الفساد والمنكر، وعلى التمادي في الكفر والباطل، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق، وقوم هود من الريح، وقوم صالح من الرجفة والنقمة والسخط والعذاب.

﴿ **وما قوْمُ لُوطٍ منكُم ببعيدٍ** ﴾ زمانًا أو مكانًا، فإن لم تعتبروا بمن قبلكم فاعتبروا بمن هم ليسوا ببعيد عنكم، فقد علمتم أنهم هلكوا بالأمس بسبب استكبارهم على نبيهم وموقفهم العدائي من دعوته، وقد قال المفسرون بأن هذه الآية لها أكثر من دلالة.

فقيل: إن معناها أنهم ليسوا ببعيد عنهم في الزمان، إذ كان شعيب عليه السلام أقرب الأنبياء الذين جاءوا بعد لوط، وكان البلاء الذي أصاب قوم لوط لا تزال ترويه الأجيال التي سبقتهم.

---

(١) سورة هود: الآية (٨٩).

وقيل: إن معنى البعد المقصود هو البعد المكاني، فلقد كانت أرض مدين قريبة من أرض «سدوم» قرية قوم لوط.

وقيل: إن معنى البعد المراد أنهم ليسوا ببعيد منهم في الصفات أي أن ما يفعلونه من الموبقات والمنكرات، يتشابه في كثير من نواحيه مع ما كان يرتكبه قوم لوط، إذ كانوا مثلهم يقطعون الطريق، ويؤذون الرفيق، ويأتون القبائح من الأفعال جهاراً نهاراً.

قال ابن كثير - رحمه الله -: والجمع بين هذه الأقوال ممكن، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم، لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات[1].

ثم دفع شعيباً - عليه السلام - إشفاقه عليهم، إلى أن يطلب منهم أن يتجهوا إلى الله تعالى بطلب المغفرة والتوبة مما هم فيه من الشرك والضلال، وأكل أموال الناس بالباطل، فإن الله رحيم بعباده، فهو الغفور الودود وسعت رحمته كل شيء.

قال تعالى: ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ﴾[2].

٣. اتهامه بالضعف في منطقة فلم يفهموا دعوته وتهديده برجمه بالحجارة:

كان اللائق بقوم شعيب بعد ذلك النصح الذي يتسم بالإشفاق والحرص الشديد على هدايتهم، كان اللائق بهم أن ينصاعوا لما يأمرهم به، ويَدَعوا كل ما فيه سخط الله عليهم، لكنهم أخذتهم العزة بالإثم، ولم يجدوا سبيلاً إلى مواجهته ومجادلته غير الشتم والتهديد، لا سيما وأنهم أحسوا أنه قد غلبهم بالحجة، وقهرهم بالبيان، وعزهم بالخطاب، فادعوا أنهم لم يفهموا قوله لهم.

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، تحقيق عبد الغفور عطار، (١/ ٢٩٥).

(٢) سورة هود: الآية (٩٠).

ومن العجيب أن يتضح الحق أمامهم بما أدلى به شعيب من الحجج والبينات ثم يأبون إلا الجحود والإنكار؛ واتهموا نبيهم بالضعف في منطقه، والقصور في بيانه، وأنه لا قوة له تنصره، ثم هددوه بأنهم كانوا سيرجمونه بالحجارة ليقضوا على دعوته، لولا خوفهم من رهطه وخاصته ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا**[1] **وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ** ﴾[2] أي: إنك لست محترمًا، أو صاحب شأن وكلمة بيننا حتى نمتنع عن قتلك.

❊ ❊ ❊

(١) قال الألوسي - رحمه الله - في تفسير قوله: «﴿ وإنا لنراك ﴾ أي: فيما بيننا ﴿ ضعيفا ﴾ لا قوة لك ولا قدرة على شيء من الضر والنفع والإيقاع والدفع» وروي عن ابن عباس وابن جبير وسفيان الثوري وأبي صالح تفسير (الضعيف) بالأعمى وهي لغة أهل اليمن. وذلك كما يطلقون عليه ضريرًا. وهو من باب الكناية على ما نص عليه البعض، وإطلاق البصير عليه كما هو شائع من باب الاستعارة تمليحًا.

وضعف هذا التفسير بأن التقييد بقولهم: ﴿ فينا ﴾ يصير لغوًا لأن من كان أعمى يكون أعمى فيهم وفي غيرهم، وإرادة لازمه وهي الضعف بين من ينصره ويعاديه ولا يخفى تكلفه.

ومن هنا قال الإمام: «جوز بعض أصحابنا العمى على الأنبياء - عليهم السلام - لكن لا يحسن الحمل عليه هنا، وأنت تعلم أن المصحح عند أهل السنة أن الأنبياء - عليهم السلام - ليس فيهم أعمى، وما حكاه الله - تعالى - عن يعقوب - عليه السلام - كان أمرًا عارضًا وذهب» ا. هـ. تفسير الألوسي (١٢/ ١٢٣).

(٢) سورة هود: الآية (٩١).

موقف شعيب من اتهامه بالضعف

ولكن شعيبًا ـ عليه السلام ـ لم تهن عزيمته أمام تهديدهم، بل واصل مدافعة باطلهم، مبينًا لهم أن رهطه ليسوا بأعز من الله ولا أشد قوة منه، والرهط: هو الجماعة. قال الراغب: هم ما دون العشرة[١]. وقال الزمخشري: الرهط: من الثلاثة إلى العشرة. وقيل إلى السبعة[٢]، وقال موجهًا إياهم إلى أن الحق يجب أن يسمو على كل شيء، وأن الخوف يجب أن يكون من الله وليس من المخلوقين.

هكذا كانت ثقة شعيب بربه، وأنه على يقين من أن الحق سيعلو ويظهر، ويدحض الباطل وأهله، وفي هذا درس للدعاة إلى الله، وأن عليهم أن يتحملوا المشاق والشدائد في سبيل نصرة الحق وإحقاقه، وقد أيقن شعيب عليه السلام بقدرة الله التي لا تعلو عليها قدرة، وبعظمته التي فاقت كل عظمة، وتوكل على الله حق التوكل، قائلاً لهم ما قصَّه الله على لسانه ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ** ﴾[٣].

أي أنه تحداهم أن يعملوا ما بدا لهم، وما هو في مقدورهم عليه لعرقلة مسيرة دعوته، وهو من جانبه سيسعى جاهدًا لرفعة شأن دعوته ما استطاع إلى ذلك

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني، ص (٢٠٤).

(٢) الكشاف للزمخشري، (٢/ ٢٨٩).

(٣) سورة هود: الآيتان (٩٢، ٩٣).

سبيلاً، وهددهم بأنهم سيعرفون في النهاية أي الفريقين كان على الحق، ومن الذي سينتقم الله منه، ودعاهم إلى ترقب هذه النتيجة وانتظارها، وما هي من الظالمين ببعيد.

وأعود بالقاريء الكريم إلى آيات سورة الأعراف:

وإزاء هذا التهديد، وهذه الحجج التي تفصح عن حسن مراجعته لقومه، واستخدامه لحسن منطقه، وبعد نظره وحكمته في دعوته لقومه، ونصحه لهم، وتحذيرهم لهم من عاقبة المخالفة ـ مع ذلك كله ـ لم تثمر جهوده معهم لا سيما الملأ أصحاب الأموال والثروات، بل ازدادوا له عداوة وكراهية وقد ضاقوا به ذرعًا، لاسيما وأنه تطرق إلى أعز وأنفس ما تصبوا إليه نفوسهم، ألا وهو جمع المال، لأنه استحكم على قلوبهم، حتى صاروا عبيدًا له، كما جاء في الحديث: «تعس عبد الدينار»[1]. كل ذلك جعل الملأ أصحاب الأموال والنفوذ وهم الحجب الكثيفة في كل أمة تجابه دعوة الرسل وتوجه التحذير لشعيب ومن آمن معه بالنفي والطرد من البلاد كلية، حتى تهنأ نفوسهم، ويمارسوا باطلهم كيف شاءوا، إن لم يترك دعوته إلى التوحيد، وتدخله في التضييق عليهم في معاملاتهم المالية، ولم يكتفوا بهذا الحد، بل طالبوه بالعودة إلى عقيدة مجتمعة، والتخلص بأخلاقهم، وممارسته لما ألفوه من الظلم والفسق والفساد.

﴿ **قال الْملأُ الَّذين اسْتَكْبرُوا من قوْمه لنُخْرجنَّك يا شُعيْبُ والَّذين آمنُوا معك من قريتنا أوْ لتعُودُنَّ في ملَّتنا قال أو لوْ كُنَّا كارهين** ﴾[2].

فأجابهم عليه السلام بقوله:

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١٤/ ٢٩، ٣٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٨).

﴿ **قد افترينا على الله كذبا إن عُدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾[1].

والمتأمل في جواب شعيب ـ عليه السلام ـ على ما قاله المستكبرون من قومه يلمس فيه أسمى ألوان الحكمة وحسن البيان، مع توخي المنطق الذي لا يقبل الجدل، ويتلخص في أمرين:

أولا: أن الإيمان بأي مبدأ لابد أن يكون مع الاقتناع التام، لأن الدخول في العقائد اختياري محض، فاستبعد هو ومن آمن معه ما يتمنونه لهم، ﴿ **قال أو لو كنا كارهين** ﴾ أي: تجبروننا على العودة إلى ملتكم حتى ولو كنا كارهين لها لاعتقادنا أنها باطلة وقبيحة ومنافية للعقول السليمة، لا لن نعود إليها مهما كانت الظروف، فالهمزة لإنكار الوقوع ونفيه.

ثانيا: أنه قابل تهديدهم ووعيدهم بالرفض التام والكراهية المتناهية، واعتبر أن رجوعه عن عقيدة التوحيد خيانة للرسالة، وبهتانٌ على الله ـ جلّ جلاله ـ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿ **قد افترينا على الله كذبا إن عُدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها** ﴾[2] لأن الذي يذوق حلاوة الإيمان من أتباع الرسل، يستحيل أن يرجع إلى الكفر، والأمثلة على ذلك لا تحصى، والتاريخ سطر لنا الكثير من البطولات والتضحيات، فهؤلاء آل ياسر، وهذا سيدنا بلال الحبشي، عذبوا وقاسوا ألوان العذاب، لكنهم أبوا أن يرجعوا عن دين الله، وهؤلاء ـ كما أسلفت ـ هم من أتباع الرسل فكيف يكون الأمر مع الرسول نفسه؟

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٩).

ولقد طلب المشركون من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا الطلب نفسه، وهو الرجوع عن دين الله، وهم على كامل الاستعداد أن يجعلوه سيداً عليهم، يغدقون عليه ما شاء من الأموال، ويزوجونه مَن أحب من النساء، ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم رفض كل تلك الإغراءات، وقال قولته التي دوت في مشارق الأرض ومغاربها وسطرها التاريخ «**يا عم. والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ـ تعالى ـ أو أهلك فيه ما تركته**»(١).

وقد بلغ صلى الله عليه وآله وسلم غاية الإفصاح عن استحالة تركه الدعوة، حتى يظهرها الله ـ سبحانه ـ أو يموت دون ذلك.

ونعود إلى الآيات من سورة الأعراف:

ثم إن شعيبًا عليه السلام كرر رفضه مؤكدًا ذلك بأبلغ وجه ﴿ **وما يكُونُ لنا أن نَعُود فيها إلاَّ أن يشاء اللَّهُ ربُّنا وسع ربُّنا كُلَّ شيْء علْما** ﴾(٢).

أي أنه يستحيل علينا، وتأبى ذلك نفوسنا أن نعود إلى ما كنا عليه من الباطل، وظلم الناس، وأكل أموالهم سحتًا في حال من الأحوال، إلا في حال أن يشاء الله ـ جل جلاله ـ فهو المتصرف في جميع الأحوال وله الحكمة البالغة، فهو القادر على ذلك، لأننا نحن على يقين كامل بأن ملتكم باطلة، وعن حلية الحق عاطلة، وملتنا هي الحق، ولا نستطيع أن نحول عن ذلك ولا نغيره، وإنما الذي بيده التغيير هو الله مقلب القلوب، الذي أحاط علمه كل شيء.

والآية الكريمة تترجم المستوى الكبير، والخلق العظيم الذي عليه الأنبياء من الأدب مع خالقهم ـ جل وعلا ـ فشعيب ـ عليه السلام ـ مع ثقته المطلقة في أنه لن

(١) الحلبي، علي بن إبراهيم. السيرة الحلبية. إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون. (مكة المكرمة: دار الباز للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ)، ١/ ٤٦٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٩).

يعود وأتباعه إلى ملة الكفر أبدًا، ومع ذلك هو يرجع الأمر إلى الحق - جل وعلا - تأدبًا معه، فلا يجزم بمشيئته هو، بل يفوض الأمر لله، فقد يكون في علمه - سبحانه - ما يخفى على البشر مما تقتضيه حكمته وإرادته، ونظير هذه الآية قوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل - عليه السلام -: ﴿ **ولا أخافُ ما تُشْرِكُون به إلاَّ أن يشاء ربِّي شيئًا وسع ربِّي كُلَّ شيْءٍ علْمًا أفلا تتذكَّرُون** ﴾[١].

وبعد ذلك التهديد والتخويف الذي وجهه قوم شعيب لنبيهم ومن معه من المؤمنين، فما كان من شعيب إلا أن يتوجه إلى الله بالاعتماد والدعاء قائلاً: ﴿ **على اللَّه توكَّلْنا ربَّنا افْتحْ بيْننا وبيْن قوْمنا بالْحقِّ وأنت خيْرُ الْفاتحين** ﴾[٢] وفي ذلك إظهار لعبوديته وفقره وعجزه، وأنه - جل وعلا - بإعانته عليهم ستضمحل أمامه كل قوى العدوان، وستكون النهاية النصر لأهل الحق، يندحر أهل الباطل مع باطلهم، وفي الآية إشارة إلى أنه أعرض عن مجادلتهم بعد أن تبين له عنادهم وسفههم، وإصرارهم على غيهم وعتيهم.

﴿ **وأنت خيْرُ الْفاتحين** ﴾ أي: الحاكمين لخلو حكمك عن الجور والحيف[٣] ثم تخور عزائم أهل الكفر بعد أن يئسوا من التأثير في شعيب وأتباعه، وينتهون إلى تحذير الناس من السير على نهجه، مؤكدين لهم أن مَن اتبعوا شعيبًا ستلحق بهم الخسارة في شرفهم، وفي أموالهم وثرواتهم، ﴿ **وقال الْمَلأُ الَّذين كفَرُوا من قوْمه لئن اتَّبعْتُم شُعيْبًا إنَّكُمْ إذًا لَخاسرُون** ﴾[٤] أي: مغبونون لاستبدالكم الضلالة بالهدى، ولفوت ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف[٥].

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٨٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٩).

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٥).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٩٠).

(٥) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٦٥).

المبحث الثالث
عاقبة قوم شعيب

وبعد تلك المجادلات والمحاورات التي تمت بين شعيب ـ عليه السلام ـ وقومه، جاءت الخاتمة التي تؤكد فيها خسران أهل الباطل واضمحلالهم. وهذه هي نهاية كل من انحاز عن منهل أهل الحق واتبع هواه، قال تعالى: ﴿ **فأخذتهم الرَّجْفَةُ فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾[1] أي: استولت عليهم وباغتتهم وشدتهم شدًا، فلم تبق منهم أحدًا، والرجفة هي الزجرة الشديدة والصوت القوى الناتجين عن الزلزلة الشديدة، ولذا حرص القرآن الكريم على بيان تسلط الرجفة عليهم وحدهم فقال: ﴿ **فأخذتهم الرَّجْفَةُ** ﴾ وهذا من أقوى الأدلة على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن تكون جماعتان متجاورتان في قرية فيصيب إحداهما ما لم يلحق الآخرى، وهو دليل على علمه ـ تعالى ـ بكل شيء، وأن ما لا يمكن في قدرة البشر ممكن في قدرته ـ تعالى ـ.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ **فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ أي: خامدين هامدين موتى ليس فيهم حركة ولا اقتدار على شيء.

قال النسفي: ﴿ **جاثمين** ﴾ ميتين قعودًا، يقال: الناس جثم، أي: قعود لا حراك بهم ولا يتكلمون[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٩١).

(٢) تفسير النسفي، (٢/ ٦٢).

ومعنى قوله: ﴿ **فأصْبحُوا** ﴾ أي: فصاروا، و«الفاء» تدل على حصول حالهم هذا بعد أخذ الرجفة لهم مباشرة.

ثم قال تعالى: ﴿ **الَّذين كذَّبُوا شُعيبًا كأن لَمْ يغْنوا فيها** ﴾ أي: الذين أصروا على تكذيبه وأمعنوا في ذلك إمعانًا حجبهم عن الحق بادوا، وكأنهم لم يخلقوا في ديارهم هذه، وكأن لم تكن لهم بها قوة ومجتمع.

والكلام في ﴿ **كأن لَمْ يغْنوْا فيها** ﴾ يدور على التشبيه، ويبين مدى ما حل عليهم من العذاب الأليم، أي شبهت حالهم بحال الذين لم يوجدوا أصلاً. ثم قال: ﴿ **الَّذين كذَّبُوا شُعيْبًا كانُوا هُمُ الْخاسرين** ﴾[1] أي: كانوا هم بأعينهم الخاسرين لدنياهم التي ظلوا يحرسونها، ومن أجلها كذبوا بالحق لما جاءهم. وفيه بيان سلامة المؤمنين ونيلهم لصلاح الدنيا والآخرة.

وكرر قوله تعالى: ﴿ **الَّذين كذَّبُوا شُعيْبًا** ﴾ إمعانًا في العظة، وتنبيهًا لعتات قريش الذين يعاندون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا سيما وأن قوم شعيب عرب مثلهم. ونظير ذلك قوله تعالى في قصة لوط: ﴿ **وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾[2].

ثم أثنى تعالى على نبيه شعيب بتوليه عن قومه بعد علمه بأنهم لم يؤمنوا، وذكر آخر قوله لهم لبيان أنه ـ عليه السلام ـ ظل ينصحهم إلى آخر لحظة، وأنه لم يصرفه علمه بعدم إيمانهم باختيار النصح الذي يؤثر فيهم لو بقيت فيهم بقية من حق، وأنه لم ييأس ولم يحزن على كفرهم لأنه لم يقصر في نصيحتهم.

قال تعالى: ﴿ **فتولى عنهم** ﴾ أي: قبل حلول الهلاك. وهذا هو الراجح

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٩٢).

(٢) سورة هود: الآية (٨٣).

عندي ليعلموا بهذا التولي أن العذاب واقع عليهم لا محالة، وليحمل بتوليه عنهم المؤمنين على كثرة التضرع لربهم ومزيد حمده أن نجاهم مما سيحل بهؤلاء الهالكين.

وبعض المفسرين يقول: تولى عنهم بعد موتهم، ولا أرى فيه فائدة كبيرة إلا أن يقال: إنه ظل ينصحهم إلى آخر لحظة في حياتهم.

﴿ **وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي** ﴾ وهذه الجملة العظيمة بمثابة الدفاع عن دعوته لهم، والتذكير الأخير لو ينفعهم، وأنه ـ عليه السلام ـ لم يكن مصلحًا اجتماعيًا استهوته رئاستهم فأراد أن يظهر فيهم بما لم يألفوه، بل هو مبلغ عن ربه رسالاته التي جاء بها هو ومن قبله من الرسل.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ **رسالات ربي** ﴾ فلم يقل ربكم لأنهم بمجافاتهم قد جحدوا آثار الربوبية فيهم، فلم يؤمنوا بربهم، فكان اللائق أن يضيف نفسه إلى الله ـ تعالى ـ تشريفًا له ـ عليه السلام ـ واعترافًا بآثار ربوبية الله ـ تعالى ـ عليه.

﴿ **ونصحت لكم** ﴾ أي: كثيرًا، وسلكت في نصحي كل مسلك أراه يوصلكم إلى الاهتداء، فالآن ألقي عن كاهلي عبأكم مُشهدًا ربي على بلوغ جهدي في استنقاذكم، لذا لا أجد في نفسي أسى على مصيركم هذا.

﴿ **فكيف ءاسى على قوم كافرين** ﴾ وأنا رسول الله إليكم، وقد كذبتموني، إنكم بكفركم بربكم لم تستبقوا مودة تستدعي الأسف على مصيركم. وللإمام الفخر في تفسيره كلام نفيس في تفسير قوله تعالى: ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ قال: «وهي الزلزلة الشديدة المهلكة، فإذا انضاف إليها الجزاء الشديد المخوف على ما ذكره الله ـ تعالى ـ من قصة الظلمة كان الهلاك أعظم، لأنه أحاط بهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم».

﴿ **فأصبحوا في دارهم** ﴾ أي: في مساكنهم.

﴿ **جاثمين** ﴾ أي : خامدين ساكنين بلا حياة .

ثم قال تعالى : ﴿ **الَّذين كذَّبوا شُعيبًا كأن لَّمْ يغْنوْا فيها** ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول :

في قوله : ﴿ **كأن لَّمْ يغْنوْا فيها** ﴾ قولان : الأول : يقال : غني القوم في دارهم إذا طال مقامهم فيها ، والثاني : المنازل التي كان بها أهلوها ، واحدها مغنى قال الشاعر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل مُلك ثابت الأوتاد

أراد : أقاموا فيها . وعلى هذا الوجه كان قوله : ﴿ **كأن لَّمْ يغْنوْا فيها** ﴾ كأن لم يقيموا بها ولم ينزلوا فيها . والقول الثاني : قال الزجاج : ﴿ **كأن لَّمْ يغْنوْا فيها** ﴾ كأن لم يعيشوا فيها مستغنين . يقال : غنى الرجل يغنى إذا استغنى ، وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر .

وإذا عرفت هذا فنقول : على التفسيرين ، شبه الله حال هؤلاء المكذبين بحال من لم يكن قط في تلك الديار . قال الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يسمر بمكةَ سامرُ

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ

البحث الثاني :

قوله : ﴿ **الَّذين كذَّبوا شُعيبًا كأن لَّمْ يغْنوْا فيها** ﴾ الذين يدل على أن ذلك العذاب كان مختصًا بأولئك المكذبين ، وذلك يدل على أشياء :

أحدها : يدل على أن ذلك العذاب إنما حدث بتخليق فاعل مختار ، وليس ذلك أثر الكواكب والطبيعة ، وإلا لحصل في أتباع شعيب كما حصل في حق الكفار .

الثاني: يدل على أن ذلك الفاعل المختار عالم بجميع الجزئيات، حتى يمكنه التمييز بين المطيع والعاصي.

الثالث: يدل على المعجزة العظيمة في حق شعيب؛ لأن العذاب النازل من السماء لما وقع على قوم دون قوم مع كونهم مجتمعين في بلدة واحدة كان ذلك من أعظم المعجزات، ثم قال تعالى: ﴿ **الَّذين كذَّبُوا شُعيبًا كانُوا هُمُ الْخاسرين** ﴾ وإنما كرر قوله: ﴿ **الَّذين كذَّبُوا شُعيبًا** ﴾ لتعظيم المذلة لهم، وتفظيع ما يستحقون من الجزاء على جهلهم. والعرب تكرر مثل هذا في التفخيم والتعظيم، فيقول الرجل لغيره: أخوك الذي ظلمنا، أخوك الذي أخذ أموالنا . . .

وأيضًا، إن القوم لما قالوا: ﴿ **لئن اتَّبعْتُمْ شُعيبًا إنَّكُمْ إذًا لَخَاسرُون** ﴾ بين تعالى أن الذين لم يتبعوه وخالفوه هم الخاسرون[1] فقال: ﴿ **الَّذين كذَّبُوا شُعيبًا كانُوا هُمُ الْخاسرين** ﴾.

قلت: وهي نهاية كل من ضل عن طريق الهدى، وسلك سبيل الشيطان، نسأل الله العافية والهداية.

* * *

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، (١٤/ ١٨١، ١٨٢) بتصرف.

خلاصة ما جاء في الفصل السادس

١ ـ نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ هو شعيب بن ميكييل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام، أرسل إلى أهل مدين، وهم قوم من العرب، ويربطه بهم نسب، ومدين هي الآن: العقبة، الميناء المعروف بالأردن.

٢ ـ اشتهر شعيب بفصاحته وبلاغته، وقوة حجته، وحسن مراجعته لقومه.

٣ ـ تتلخص دعوة شعيب فيما يلي:

* الأمر بإخلاص العبادة لله تعالى وحده.

* الأمر بإيفاء الكيل والميزان.

* النهي عن بخس الناس حقوقهم.

* النهي عن الإفساد في الأرض.

* النهي عن القعود على طريق الدين ومناهج الحق لأجل أن يمنعوا الناس عن قبوله.

* التحذير من الإفساد وعاقبته.

٤ ـ يظهر موقف قومه من دعوته من خلال أمور، أهمها:

* اتهموه بالسحر والكذب.

* تهكموا عليه واستهزؤا بدعوته.

* اتهموه بالضعف في منطقة، فلم يفهموا دعوته، وهددوه برجمه بالحجارة.

٥ ـ لم يتأثر شعيب برفض قومه للدعوة، ولم توقفه اتهاماتهم وظل على

دعوته، ورد حجتهم ورفض تهديدهم ووعيدهم.

٦ ـ كان عاقبة قومه أن أخذتهم الرجفة، وهي الزجرة الشديدة، والصوت القوي الناتجان عن الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم خامدين هامدين موتى لا حركة لهم ولا قدرة على شيء.

❊ ❊ ❊

الفصل السابع

الصراع بين

موسى - عليه السلام -

وفرعون وبني إسرائيل

الفصل السابع

القسم الأول

الصراع بين موسى - عليه السلام - وفرعون

القسم الثاني

الصراع بين موسى - عليه السلام - وبني إسرائيل

القسم الأول

الصراع بين موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون

مقدمة موجزة: عن صراع موسى ـ عليه السلام ـ في سورة الأعراف.

وفيه مباحث:

المبحث الأول : دعوة موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون وملئه.

المبحث الثاني : ظهور بينه موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون وقومه.

المبحث الثالث : موقف فرعون وملئه من دعوة موسى.

المبحث الرابع : شعور السحرة بأهميتهم في هذا الوقت العصيب على فرعون.

المبحث الخامس : موقف السحرة من موسى ـ عليه السلام ـ.

المبحث السادس : موقف موسى ـ عليه السلام ـ من السحرة.

المبحث السابع : موقف السحرة من معجزة موسى ـ عليه السلام ـ.

المبحث الثامن : موقف فرعون من سحرته «تهديد فرعون للسحرة وتوعدهم».

المبحث التاسع : موقف الملأ من موسى وقومه.

المبحث العاشر : وصية موسى لقومه.

المبحث الحادي عشر : تضجر بني إسرائيل من وصية موسى ـ عليه السلام لهم.

المبحث الثاني عشر : معاقبة الله لفرعون وقومه قبل إغراقهم .

المبحث الثالث عشر : نبذهم العهد الذي عاهدوا موسى عليه وإغراقهم في اليم .

المبحث الرابع عشر : عاقبة الصراع ونهاية فرعون وقومه .

المبحث الخامس عشر : منة الله ـ تعالى ـ على بني إسرائيل بتمكينهم من أرض آبائهم أو أرض مصر ـ على ما قيل

❊ ❊ ❊

مقدمة موجزة

هذه هي القصة السابعة التي تحدثت عنها سورة الأعراف، والمتمعن في السورة الكريمة وما حوته من القصص، يجد أنها اختصت بوجه عام بالحديث عن مصارع المكذبين، ونهاية إمعانهم في تكذيبهم لأنبيهائهم - عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم - وكيف أن الحق أزهق الباطل فكانت كلمته هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى، وقصة موسى[1] - عليه السلام - كسابقتها من القصص التي مرت علينا في هذه السورة الكريمة، جاءت لترسيخ معنى الألوهية الحقة، وتحرير الناس من العبودية الزائفة، فنلاحظ أنها افتتحت في أول آية بالهدف الذي سيقت من أجله وهو التمعن والتفكر في مآل المفسدين من الكفرة الملحدين، ولم تذكر هذه السورة قصة موسى - عليه السلام - كما ذكرتها سورة القصص، بل ابتدأت بإرسال موسى - عليه السلام - إلى فرعون، ودعوته إلى توحيد الله - تبارك وتعالى - كما سيتضح لك من الآية التالية قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ بعثنا من بعدهم مُوسىٰ بآياتنا إلىٰ فرْعوْن وملئه فظلموا بها فانظُرْ كيْف كان عاقبةُ الْمفْسدين** ﴾[2].

* * *

(١) هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - وهو من أولى العزم من الرسل. انظر: البداية والنهاية لابن كثير، (١/ ١٣٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠٣).

المبحث الأول
دعوة موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون وملئه

عاش الفراعنة في مصر بحكمون القبط وبني إسرائيل، معلنين أنفسهم أربابًا من دون الله، منكرين أن يكون لهذا الكون إله، وأجبروا الناس على تأليههم من دون الله، وانقاد لهم وزراؤهم وأعوانهم على الظلم والاستبداد، واستعملوا بني إسرائيل في أشق الأعمال وأردئها، فضلاً عن القتل والتعذيب الذي أوشك أن يبيدهم.

وتخليصًا مما كان عليه بنو إسرائيل أرسل الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ إلى فرعون ـ قال تعالى ـ: ﴿ **ثُمَّ بعثْنا من بعْدهم مُوسىٰ بآياتنا إلىٰ فرْعوْن**[1] **وملئه فظلموا بها فانظُرْ كيْف كان عاقبةُ الْمُفْسدين** ﴾[2].

فقوله: ﴿ **ثُمَّ بعثْنا من بعْدهم مُوسىٰ** ﴾ أي: من بعد الأنبياء الذين قصصنا عليك يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليك ـ قصصهم وهم آدم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب ـ عليهم السلام. ﴿ **بآياتنا** ﴾ أي: بالمعجزات الدالة على صدقه فيما أتاهم به، ﴿ **إلىٰ فرْعوْن** ﴾ فرعون لقب لملوك مصر القدماء كلقب قيصر لملوك الروم، ولقب كسرى لملوك الفرس. ﴿ **وملئه** ﴾ وهم أشرف قومه والوجهاء أصحاب النفوذ، وليست رسالة موسى مختصة بفرعون وملئه بل هي

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٠٣).

(٢) فرعون موسى، واسمه الوليد بن مصعب. انظر: الأنابكي؛ جمال الدين أبي يوسف بن تغري بردي. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٨هـ)، ١/ ٥٨.

لهما وللمصريين كافة، فإنها إذا كانت لخاصتهم فهي لعامتهم من باب أولى، وإنما نص القرآن على فرعون وملئه؛ لأنهم هم العقبة الكأداء في سبيل دعوة موسى - عليه السلام - فإذا تغلب عليهم سهل عليه أن يوصل دعوته إلى سائر المصريين. كل ذلك على تفسير الملأ بأشراف قوم فرعون وخواصهم، ولا مانع أن يراد بالملأ كل المصريين؛ لأنهم يمالئون فرعون على ضلاله وادعائه الألوهية، وبطلان ذلك منه لا يخفى على من له أدنى عقل.

﴿ **فظلموا بها** ﴾ الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، والمعنى ﴿ **فظلموا بها** ﴾ أي: بسببها حيث جعلوا ما هو سبيل للهداية سبيلاً للغواية والضلالة، لأن الآيات جاءتهم لتساعدهم على الإيمان بالله - عز وجل - وتصديق موسى - عليه السلام - في دعواه ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ أي: انظر أيها الرسول الكريم كيف كانت نهايتهم، حيث أغرق فرعون وملؤه. وموسى وقومه ينظرون إليهم.

ونلاحظ أن هذه الآية سارعت بالتنبيه في كيفية عقاب فرعون وملئه وتسميتهم بالمفسدين، كأن هذا الاسم فيهم حقيقة، وفي غيرهم مجاز؛ ليعلم السامع لهذه القصة من أول الأمر، أن فرعون وقومه مع ما رأوا من الآيات الكفيلة بصرفهم عن باطلهم، لم ينتفعوا بما أوتوا، وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾[1].

ثم بدأ موسى - عليه السلام - في بيان حقيقته لفرعون؛ فقال تعالى: ﴿ **وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين** ﴾[2] أي: إنني مرسل لكم لكي أدعوكم إلى من يستحق العبادة وحده، وهو الله رب العالمين الذي له في كل عالم

(١) سورة البقرة: الآية (٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠٤).

من العوالم تربية ظاهرة، ورعاية مستمرة، فهو الحقيق بأن يكون ربًا، وهو الحقيق بأن يكون إلهًا وهذه الآية تعريض بفرعون الذي قال لقومه كما في آية أخرى ﴿ **فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾[1]. وإنما سلك موسى ـ عليه السلام ـ معه مسلك التعريض من أول الأمر، لأنه الأمثل في أسلوب الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ ولعل فرعون يتنبه بقول موسى: ﴿ **إني رسول من رب العالمين** ﴾ الذي هو واحد منهم، فينظر في حال نفسه، ويصغي بقلبه إلى دعوة موسى ـ عليه السلام ـ وقد استشعر موسى ـ عليه السلام ـ أن فرعون بحاجة إلى معرفة بعض أوصاف الكليم، حتى يفكر فيما يلقى عليه، وحتى لا يتسرع بالإباء والمعاندة كشأن السابقين عليه، فقال ما قصه الله عنه: ﴿ **حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق** ﴾[2].

قال النسفي في تفسير الآية: «أي: أنا حقيق على قول الحق، أي: واجب عليه قول الحق أن أكون قائله والقائم به. وعلى قراءة نافع ﴿ **حقيقٌ عليّ** ﴾ أي واجب عليّ ترك القول على الله إلا الحق أي الصدق، وعلى هذه القراءة تقف على ﴿ **العالمين** ﴾ وعلى القراءة الأولى يجوز الوصول على جعل ﴿ **حقيق** ﴾ وصف الرسول.

وعلى قراءة أُبيّ تكون ﴿ **على** ﴾ بمعنى الباء أي: إني رسول خليق بأن لا أقول. أو يعلق ﴿ **على** ﴾ بمعنى الفعل في الرسول أي: إني رسول حقيق جدير بالرسالة، أرسلت على أن لا أقول على الله إلا الحق»[3].

ثم وصف نفسه لفرعون بوصف ثان هو قوله تعالى: ﴿ **قد جئتكم ببينة من ربكم** ﴾ أي: بمعجزة تدل على صدقي في أني رسول من رب العالمين ربكم، لأنكم بعض العالمين، فلا تجعلوا ربوبيته ورحمته سببًا في كفركم وعنادكم،

---

(١) سورة النازعات: الآية (٢٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٠٥).

(٣) بتصرف من تفسير النسفي، (٢/ ٦٨).

ولأجل ذلك أضاف اسمه ـ تعالى ـ إليهم، ولم يقل قد جئتكم ببينة من ربي، لأنهم هم المقصودون بهذا الإرسال، ولم يسم لهم هذه البينة، ولم يحددها لأن من حصافة الحصيف أن لا يكشف عما معه حتى يرغب السامع إليه في كشفه وفي طلبه، حتى يكون له وقع في نفس السامع. فما ظنك بعقل موسى الكليم الذي قال الله له: ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾[1]؟ بما مضى مهد موسى ـ عليه السلام ـ لما سيطلبه من فرعون وهو قوله: ﴿ **فأرسل معي بني إسرائيل** ﴾ أي: خلهم واتركهم لي، لأصلح إفسادك لهم، ولأردهم إلى توحيد الله الحق، فإنهم أبناء الأنبياء إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب ـ عليهم السلام ـ.

وكان فرعون قد فتن بني إسرائيل فتنة عظيمة، أثرت على عقائدهم وعلى نفسياتهم، فهانوا هوانًا عظيمًا، وأصبحوا في مصر كالسجناء، لا يملكون الفكاك من قبضة فرعون، وقد استخدمهم في أسوأ الأعمال، وأحقرها، وأشقها: كالزراعة، وقطع الطوب، والخدمة في البيوت. وقد أدى خوفه من كثرتهم وتعاظمهم إلى تذبيح أبنائهم، واستيحاء نسائهم، ليبقى الرجال في الخدمة في الحقول، والنساء للخدمة في البيوت، ولا يكثر نسلهم حتى يأمن سطوتهم عليه في وقت من الأوقات، قال ـ تعالى ـ: ﴿ **وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾[2] وقد تكرر ذلك المطلب في سورة طه، وفي سورة الشعراء، مما يدل على أنه أول طلب طلبه موسى ـ عليه السلام ـ من فرعون.

قال تعالى: ﴿ **فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى** ﴾[3].

---

(١) سورة طه: الآية (٤١).

(٢) سورة البقرة: الآية (٤٩).

(٣) سورة طه: الآية (٤٧).

وقال تعالى: ﴿ فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين (١٦) أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾[١] وهنا أمر جدير بالبحث وهو أن القصص السابق في هذه السورة بين لنا أن أول مطلب كان الرسول يتوجه به إلى قومه هو دعوتهم إلى التوحيد.

قال تعالى: ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾[٤]... الآية.

وقال تعالى: ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾[٥]... الآية.

وقد لاحظت مخالفة هذا المنهج في قصة لوط وموسى - عليهما السلام - وقد بينت سببه في قصة لوط - عليه السلام - وها أنا أبين سببه في قصة موسى - عليه السلام -. وهو باختصار أن الظلم قرين الشرك، قال تعالى: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾[٦] وأن من يظلم ويتمرس على الظلم كفرعون يصعب عليه قبول أي حق، فكان المناسب تجريده من ظلمه أولاً لبني إسرائيل، فإذا سلم بذلك أمكن مخاطبته في الوحدانية. على أن موسى - عليه السلام - قد بدأ دعوته إليه بقوله:

---

(١) سورة الشعراء: الآيتان (١٦، ١٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٩).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

(٦) سورة لقمان: الآية (١٣).

﴿ إني رسولٌ من ربِّ العالمين ﴾[١] . فهو نوع اشتراك في المناهج السابقة في قصة نوح، وهود، وثمود.

ولقد ضاق فرعون بهذا المطلب ولكنه لم يشأ أن يظهر ضيقه بالرفض والإباء على سنن الملوك في كبريائهم، ولاطمئنانه من داخله أن موسى - عليه السلام - ليس برسول.

فقال ما قصه الله عنه: ﴿ قال إن كُنت جئْت بآيةٍ فأْت بها ﴾ عملاً وظهوراً كما ذكرتها قولاً: ﴿ إن كُنت من الصَادقين ﴾[٢] في دعواك أنك رسول من رب العالمين، وهنا شرطان جوابهما واحد، وقع الجواب بينهما، وهو أسلوب عربي مألوف، ونوع من الإيجاز طريف، إذ لولا هذا الإيجاز لكان التركيب هكذا: إن كنت جئت بأية فأت بها إن كنت من الصادقين فأت بها. ولما كان الإتيان بها هو المقصود، وهو الدليل على أنه جاء بها، وأنه صادق، سلك القرآن هذا المسلك اللطيف.

وقد اختصرت سورة الأعراف ما بُسط في القصة قبل المجيء بالآيات كما هو في سورة الشعراء[٣]. وهو مسلك عظيم دقيق، ودليل عظيم من أدلة الإعجاز. وددت لو كان بحثي متمحضًا[٤] لقصة موسى - عليه السلام - حتى لا أترك من لطائفها شيئًا، لكن طول البحث فرض عَلَيّ الاختصار.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٠٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠٦).

(٣) انظر الآيات من قوله تعالى: ﴿ فقولا إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بني إسرائيل * قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ الآيات من (١٦) إلى (١٨) إلى قوله: ﴿ قال فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ الآية (٣١) من سورة الشعراء.

(٤) متمحض: المحض من كل شيء الخالص. قال الأزهري: كل شيء خلص حتى لا يشوبه شيء يخالطه فهو محض؛ انظر: لسان العرب، (٧/ ٢٢٧).

المبحث الثاني
ظهور بينة موسى ـ عليه السلام ـ المرئية لفرعون وقومه

قال تعالى: ﴿ **فألقىٰ عصاهُ فإذا هي ثُعبانٌ مُبينٌ** ﴾[١] لم يتريث موسى عليه السلام في إظهار بعض معجزاته التي أيده الله بها، وهي انقلاب عصاه الجامدة التي هي على مرأي العين كسائر العصي ثعبانًا مبينًا، وحية تسعى كما جاء في سورة طه[٢]. ونلاحظ أن القرآن الكريم عطف قوله تعالى: ﴿ **فألقىٰ عصاهُ** ﴾ بـ (الفاء) لبيان قلة المهلة بين الطلب وحصول المعجزة، كما استخدم القرآن ﴿ **إذا** ﴾ الفجائية، والضمير ﴿ **هي** ﴾ لبيان تأثير ذلك على فرعون وملئه، وأنهم أصيبوا بالدهشة عندما رأوا العصا التي كانت في يد موسى ـ عليه السلام ـ هي بعينها ثعبانًا مبينًا، والثعبان: الحية الضخم الذكر، وهو أعظم الحيات. ﴿ **مبينٌ** ﴾ أي حية حقيقية لا لبس فيها ثم ثنَّى بمعجزته الثانية ﴿ **ونزع يدهُ فإذا هي بيضاء للنَّاظرين** ﴾ أي: ونزع يده من جيبه فإذا هي بيضاء لامعة، ذات نور متوهج، مع بقائها يدًا آدمية يجري الدم في عروقها أمام جميع الناظرين الحاضرين والقادمين عليهم، فكلما جاءت فئة من أهل مصر رأت ذلك دون أن تصاب يد موسى ـ عليه السلام ـ بأذى، لأن النور لا يكون إلا من حرارة شديدة تنعكس على زجاج أو نحوه، وتلك الحرارة نتاج شيء محترق. أما موسى ـ عليه السلام ـ فيده كما هي.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٠٧).

(٢) قال تعالى: ﴿ **قال هي عصاي أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هي حية تسعى** ﴾ سورة طه: الآيات من (١٨) إلى (٢٠).

قال القرطبي: ﴿ونزع يده﴾ أي: أخرجها وأظهرها. قيل: من جيبه أو من جناحه كما في التنزيل: ﴿وأدْخلْ يدك في جيْبك تخْرُجْ بيْضاء منْ غيْرِ سُوءٍ﴾[1] أي: من غير برص. وكان موسى أسمر شديد السمرة، ثم أعاد يده إلي جيبه فعادت إلى لونها الأول.

قال ابن عباس: «كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض»[2].

❊ ❊ ❊

(١) سورة النمل: الآية (١٢).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٢٥٧).

المبحث الثالث
موقف فرعون وملئه من دعوة موسى ـ عليه السلام ـ

لقد أيد الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ بحجج كثيرة، منها ما حكته لنا الآيتان السابقتان وهما:

أولاً: قلب العصا ثعبانًا ضخمًا عظيمًا يبعث الرعب في قلوب الكافرين.

ثانيًا: أخرج يده السمراء من جيبه بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس ﴿ **من غير سوء** ﴾ أي: من غير برص أو أذى أو تشويه.

ومعلوم أن الله ـ جل وعلا ـ أيد كل نبي بمعجزة تفوق أضعاف أضعاف ما كان مشتهر به قومه الذين أرسل إليهم.

ولقد كان السحر غالبًا في ذلك الزمان وله علومه الخاصة، وفنونه المختلفة، ولا شك أن مراتب السحرة كانت متفاضلة متفاوتة، فمنهم المبتديء، ومنهم الماهر، ومنهم العالم، ومنهم المتمكن المتمرس.

فعندما شاهد الملأ ما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ من الآيات العظيمة التي أذهلتهم زعموا أن موسى ـ عليه السلام ـ قد بلغ النهاية في علم السحر، ووصفوه بما حكاه الله عنهم: ﴿ **قال الملأ من قوم فرعون إنَّ هذا لساحرٌ عليمٌ** ﴾[1] وقد أتى بذلك السحر رغبة في الملك والرياسة، وقد يتساءل القاريء الكريم: إن إطلاق هذا الوصف على موسى ـ عليه السلام ـ كان في سورة الشعراء من قبل فرعون

(١) سورة الأعراف: الآية (١٠٩).

وليس من قبل الملأ.

قال تعالى: ﴿ **قال للملأ حوله إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ** ﴾[١] فكيف الجمع بينهما؟

فالجواب عن ذلك من وجهين:

الأول: إنه لا يمتنع أنه قد قاله فرعون أولاً ثم قاله الملأ، فحكى الله قول فرعون في الشعراء وقول الملأ في الأعراف.

الثاني: أو أنه لعل فرعون قاله ابتداءً، فتلقاه الملأ منه، فقالوا لغيرهم، أو قالوه لسائر الناس عن طريق التبليغ، فإن الملوك إذا رأو رأيًا قالوه للخاصة... وهم يذكرونه للعامة[٢].

والمراد بالملأ من قوم فرعون خاصته وبطانته المقربة إليه، الذين يستشيرهم في النوازل. وقد مر بك أكثر من مرة أن الملأ في كل أمة هم كبراؤها ومترفوها وأصحاب النفوذ، وكانوا هم سبب نكبتها.

وقول الملأ لفرعون: ﴿ **إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ** ﴾ ملق ونفاق وتهوين لشأن موسى - عليه السلام - ولعل فرعون بعد ما رأى معجزة موسى ملكه الدهش، فأخذ يفكر فيما يصنع، فأجابه الملأ بهذا الجواب.

ويمكن كما قررت سابقًا أنه هو الذي بدأ بهذا القول، ثم أخذ الملأ من قومه يرددونه تقربًا إليه بذلك، وإظهارًا لاقتناعهم بقوله.

وقولهم: ﴿ **إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ** ﴾ أي: ماهر متمرس في هذه الصنعة، لا يبطل سحره إلا من هو أقوى منه، فكان ذلك منهم توطئة لجمع أقوى السحرة من جهات مختلفة من نواحي مصر، ليحصل لهم الغلب على موسى - عليه السلام - وإذا ضعف أحدهم عن مقارعة موسى - عليه السلام - تقوى بإخوانه.

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٣٤).

(٢) تفسير الرازي بتصرف، (١٤/ ١٩٦، ١٩٧).

وقوله تعالى: ﴿ **يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ** ﴾ أي مصر. والمعنى يريد أن يسلبكم ملككم ﴿ **فَمَاذَا تَأْمُرُونَ** ﴾ أيها الملأ؟ وبماذا تشيرون علي لتلافي هذا الأمر الجلل؟ فأجابه الملأ بما قصه الله عنهم ﴿ **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ** ﴾.

قال صاحب الكشاف: أي: أخرهما وأصدرهما عنك، حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما[1].

﴿ **وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ** ﴾ جمع مدينة، أي: أرسل في مدائن مصر رجالاً يحشرون إليك ويجمعون ما فيها من السحرة، فيأتوك بكل ﴿ **سَاحِرٍ عَلِيمٍ** ﴾ أي: ماهر حاذق في أصول السحر... قال تعالى: ﴿ **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** ﴾[2].

* * *

(١) الكشاف للزمخشري، (٢/ ١٠٢).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (١١١، ١١٢).

المبحث الرابع
شعور السحرة بأهميتهم لدى فرعون في هذا الوقت العصيب

وما إن بلغ الخبر إلى آذان السحرة بطلب فرعون في حضورهم حتى بادروا بالامتثال مسرعين ملبين قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ بعد أن أرسل إليهم الحاشرين ﴿ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ استئناف منوط بسؤال نشأ من حكاية مجيء السحرة. كأنه قيل: فماذا قالوا له عند مجيئهم إياه؟

فقيل: قالوا مدلين بما عندهم، واثقين بغلبتهم، وكانوا يثقون بأنفسهم ثقة لا يحدها حد والدافع لهذه الثقة المفرطة عدة أمور:

١ ـ أنهم كانوا من أمهر السحرة الذين بلغوا النهاية في علم السحر.

٢ ـ أنهم كانوا كثرة. والنفس بطبعها تستأنس عند حصول الكثرة، وفي نفس الوقت كانوا يواجهون شخصًا واحدًا، ليس مشهورًا أو معروفًا بالسحر.

٣ ـ أنهم كانوا يظنون أن ما قام به موسى سحرٌ وقد غفلوا عن أنه معجزة وقد دفعتهم ثقتهم ويقينهم الكامل بتفوقهم أن ساوموا فرعون على تعيين مكافأة وأجر إذا انتصروا على موسى. والتنكير في قوله: ﴿ أَجْرًا ﴾ للتعظيم.

﴿ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾[1].

فأجابهم فرعون إجابة المتشوق معرفة النتيجة، المتعجل لوقوعها: ﴿ قَالَ

(١) سورة الأعراف: الآية (١١٣).

نعم﴾ . وقوله : ﴿ وإنكم لمن المقربين ﴾[1] عطف على محذوف سد مسد حرف الإيجاب ، كأنه قال : إن لكم لأجرًا جزيلاً إذا انتصرتم عليه ، فضلاً عن ذلك فأنتم تكونون من الظافرين بقربي ، أي : من رجال حاشيتي ، مبالغة في ترغيبهم وتشجيعهم على الإجادة والإتقان لعملهم .

وقد غاب عن السحرة حقيقة الأمر ، فظنوا أن الموقف موقف احتراف ومهارة ، وهو في الواقع موقف إعجاز ورسالة .

❊ ❊ ❊

(١) سورة الأعراف : الآية (١١٤) .

المبحث الخامس
موقف السحرة من موسى ـ عليه السلام

اتفق فرعون مع نبي الله ـ عليه السلام ـ على موعد يجتمع فيه وسحرته ليعلم موسى بما يشاهده من عمل سحرته أن ما أتاه به سحر لا معجزة كما يقول، وقد بين الله ذلك بقوله: ﴿ **قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى (٥٧) فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى (٥٨) قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى** ﴾[1].

والمتأمل في الآيات السابقة يلاحظ أن فرعون اشترط شرطين، وأن موسى ـ عليه السلام ـ اشترط شرطين. وقد رضي فرعون بشرطي موسى ـ عليه السلام ـ اطمئنانًا إلى نصرته عليه بسحرته.

فأما شرطا فرعون فقوله تعالى: ﴿ **فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى** ﴾.

الشرط الأول:

أن يحدد موسى ـ عليه السلام ـ زمانًا ملائمًا يجتمع فيه الناس ليشاهدوا بأنفسهم كذبه وافتراءه ـ عليه السلام ـ وحاشاه ـ وهذا الشرط يشعر أن فرعون كان متيقنًا تمامًا من انتصار السحرة وغلبتهم على موسى، فهو لا يبالي أيًا كان زمن الاجتماع، فالنهاية بالنسبة له واضحة كوضوح الشمس في أن أمهر السحرة سيتفوقون في النهاية وبالتأكيد على موسى الفرد الذي لا يملك إلا عصاته الصغيرة التي لا حول لها ولا قوة.

---

(١) سورة طه: الآيات من (٥٧) إلى (٥٩).

الشرط الثاني:

أن يحدد موسى ـ عليه السلام ﴿ **مكانا سُوى** ﴾ أي: هو في المنتصف[١] بين قصر فرعون والمكان الذي يقيم فيه موسى حيث لا يرهق الطرفان في الوصول إليه، وقد أراد فرعون بهذا الشرط أن يفهم موسى بأن هزيمته ـ المتيقن منها ـ لو حصلت لا لكونه موجودًا في ساحة قصر فرعون ـ وكما يقال: الأرض تضرب مع أصحابها. فالزمان والمكان أنت يا موسى الذي حددتهما، ولا دخل لهما في هزيمتك، وإن انتصارنا وغلبتنا عليك لكونك خارجًا عن طاعتنا، ومكذبًا لربوبيتنا، ومفتريًا علينا.

وقد رضي موسى ـ عليه السلام ـ منه ذلك؛ فقال ما قصه الله ـ تعالى ـ: ﴿ **موعدكُم يومُ الزِينة** ﴾ ـ **وهذا شرط موسى الأول** ـ أي: مكان الاجتماع هو المكان الذي تجتمعون فيه يوم عيدكم، وقد لزم من تحديد الزمان تحديد المكان، لأنهم يحتفلون بعيدهم في وقت مخصوص في مكان مخصوص، وقد قلب موسى بشرطه الأول على فرعون مقصده، فإن مكان يوم الزينة هو مكان لهم، ولا يضر موسى ـ عليه السلام ـ أن يلقى فرعون في أي مكان، وقد أراد ـ عليه السلام ـ بهذا الاختيار للزمان والمكان أن تصل معجزته إلى آذان كثير من المصريين، لأنهم يجتمعون في يوم زينتهم حتى يكاد أن لا يتخلف منهم أحد، فإذا ما شاهدوا معجزة موسى ـ عليه السلام ـ كانت نكبة فرعون أشد، وتزعزت هيبته ومكانته في نفوسهم، وظهر بطلان ادعائه للربوبية، إذ لو كان له من الأمر شيء ما أصابته هذه الهزيمة على يد موسى ـ عليه السلام ـ ولتنبه إليها قبل وقوعها، فاحتاط لنفسه من هذا الشرط.

وكان **الشرط الثاني لموسى** ـ عليه السلام ـ قوله تعالى: ﴿ **وأن يُحشر النَّاسُ ضُحى** ﴾ حتى لا يداخل الناس ريبة في معجزة موسى ـ عليه السلام ـ إذ وضوح

---

(١) انظر: تفسير الكشاف، (٢/ ٥٤٢).

الرؤيا في هذا الوقت لا ينازع فيه أحد.

قال الزمخشري: «وإنما وعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور دينه، وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد في المجمع الغاص، لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حد المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر العام في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر». ا. هـ[1].

وهكذا تحدد مكان وزمان الحفل العظيم، وحضر فرعون ورجاله وسحرته، واحتشد الناس، والكل مشدود لمعرفة من يظفر من الفريقين.

ولم يأل موسى - عليه السلام - جهدًا في إسداء النصيحة للسحرة، وتنبيههم إلى ما يفعلونه من السحر لا يمكن أن يجابه ما معه من البينة.

قال تعالى: ﴿ **قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ** ﴾[2].

والمعنى: أيها السحرة لا تضلوا بسحركم، فتصرفوا الناس عن حجة الله وبينته التي أرسلني الله بها إليكم وإلى فرعون، فإنكم إن بقيتم على ذلك ولم تصغوا لنصحي، ولم تؤمنوا بالله ربكم، وبقيتم تفترون على الله الكذب بعدما وضح الحق لكم، فستهلكون هلاكًا بعذاب شديد من الله، لا يمكنكم دفعه لأن مصير من افترى على الله الكذب الخيبة والخسران في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ **فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ** ﴾ أي: إنهم تشاجروا فيما بينهم، واختلفوا في حقيقة موسى - عليه السلام - فقائل يقول: إنه ساحر مثلهم، وآخر يقول: إنه نبي، ﴿ **وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ** ﴾ أي: إنهم تشاوروا في السر، حتى لا يبلغ

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري، (٢/ ٥٤٢).

(٢) سورة طه: الآية (٦١).

ذلك فرعون، ولا سيما أنه قد أغراهم بالمال والجاه والقرب منه لكنهم خلصوا إلى رميه بالسحر قائلين ما قصه الله عنهم: ﴿ **قالُوا إنَّ هذان لساحران** ﴾ أي: موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ.

﴿ **يُريدان أن يُخرجاكُم مِّنْ أرضكُم بسحرهما ويذهبا بطريقتكُم المُثلى** ﴾[1] أي: الفضلى، والمعنى: إن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه ـ يعنون موسى وهارون ـ ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم، ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم.

﴿ **ويذهبا بطريقتكُم المُثلى** ﴾ أي: يُستبدّان بهذه الطريقة وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها.

يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفرد بذلك وتمخضت لهما الرياسة بها دونكم[2].

﴿ **فأجمعُوا كيدكُم** ﴾ أي: كونوا مجتمعين على كيده ولا تختلفوا ﴿ **ثُمَّ ائتُوا صفًّا** ﴾ أي: مصطفين؛ لأنه أهيب في صدور المجتمعين، ويبعث الرعب في قلب الخصم.

﴿ **وقد أفلح اليوم من استعلى** ﴾[3] أي: قد فاز من غلب.

وقد طوت سورة الأعراف هذه المشاهد، لأن المنهج القرآني يقوم على عدم حشد مشاهد القصة في موضوع واحد، إمعانًا في التحدي، وإظهارًا للإعجاز، إلا ما كان من قصة يوسف ـ عليه السلام ـ فإن القرآن لم يفرق مشاهدها، لأن

---

(١) سورة طه: الآية (٦٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، (٣/ ١٥٧).

(٣) سورة طه: الآية (٦٤).

الغرض الأول من مجيئها مؤانسة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وضرب المثل له بصبر من سبقوه، وجلدهم في تحمل البلاء، فكان الإعجاز فيها توالي مشاهدها وفصولها في سورة واحدة.

وأعود إلي سورة الأعراف لاستكمال القصة منها باعتبار أنها موضوع بحثي الأصلي: ﴿ **قالُوا يا مُوسىٰ إمَّا أن تُلْقي وإمَّا أن نَكُون أوَّل من ألْقىٰ** ﴾[1].

﴿ **قالُوا** ﴾ أي: السحرة ﴿ **يا مُوسىٰ إمَّا أن تُلْقي** ﴾ أي: عصاك التي تزعم أنها آية ﴿ **وإمَّا أن نَكُون أوَّل من ألْقىٰ** ﴾ والمتأمل في قولهم هذا يلاحظ عليه أنهم يخاطبونه بلغة الواثق من نفسه، والمتمكن المتيقن من نصره، المتحدي لخصمه، وكأنهم يقولون له: في كلتا الحالتين نحن على ثقة من الفوز والظفر: فاستسلم لنا، ولا تكبد نفسك مشقة المنازلة.

و ﴿ **إمَّا** ﴾ شرطية، وجواب الشرط محذوف تقديره: إما أن تلقي أولاً فلا يكون لك اعتراض بعد ذلك، وإما أن نلقي نحن أولاً فلا يكون لنا اعتراض عليك إذا غلبتنا، ومع تحديهم له إلا أن الآية ﴿ **وإمَّا أن نَكُون أوَّل من ألْقىٰ** ﴾ يفهم منها رغبتهم في أن يكون ابتداء الإلقاء من جانبهم، لأنهم ذكروا الضمير المتصل وأكدوا بالضمير المنفصل، وجعلوا الخبر معرفة لا نكرة[2].

﴿ **قال ألْقُوا** ﴾ أي: افعلوا ما أمكنكم من السحر، فإنه لن ينفعكم في هذا الموقف، وإن الله سيبطله، لأنه ـ تعالى ـ لا يصلح عمل المفسدين، ولا يضرني أن تبدأوا قبلي بإلقاء ما معكم، وكان موسى ـ عليه السلام ـ واثقًا من نصرة ربه له كل الوثوق.

وقوله تعالى: ﴿ **فلمَّا ألْقوْا سحرُوا أعْيُن النَّاس** ﴾ يدل على أنهم ألقوا ما معهم

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١١٥).

(٢) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ٢٠٢).

من سحر فور إخبار موسى ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿ **ألقوا** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **سحروا أعين الناس** ﴾[1] يدل على تأثير سحرهم في الحاضرين، وأن السحرة أتوا بفنون من السحر كثيرة ومتوالية جعلت الأبصار تكل من متابعة ما جاءوا به، وقد خيل إليها أشياء نتيجة مهارتهم، وكلها ليست بحقيقية إلى حد أن موسى ـ عليه السلام ـ وهو مَن هو في قوة الحواس ـ لأن الله

---

(١) اختلفت المذاهب في حقيقة السحر، وقد فصّل القول الإمام القرطبي في تفسيره، وإليك ما قاله ـ رحمه الله ـ: «فذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة، وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الإسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له وإنما هو تمويه وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة؛ كما قال تعالى: ﴿ **يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ ولم يقل تسعى على الحقيقة، ولكن قال: ﴿ **يخيل إليه** ﴾ وقال أيضًا: ﴿ **سحروا أعين الناس** ﴾».

قلت: قال الرازي نقلاً عن القاضي: «لو كان السحر حقًا لكانوا قد سحروا قلوبهم لا أعينهم، فثبت أن المراد أنهم تخيلوا أحولاً عجيبة مع أن الأمر في الحقيقة ما كان على وفق ما تخيلوه» ا.هـ.، تفسير الرازي (١٤/ ٢٠٣) وأعود مرة أخرى إلى تكملة كلام القرطبي.

قال القرطبي: «وهذا لا حجة فيه لأننا لا ننكر أن يكون التخيل وغيره من جملة السحر، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع؛ فمن ذلك ما جاء في الآية من ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس. فدل على أن له حقيقة» قلت: وأراد ـ رحمه الله ـ بالآية قوله تعالى في سورة البقرة (الآية ١٠٢) قوله تعالى: ﴿ **يعلمون الناس السحر** ﴾. ثم قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «وقوله تعالى في قصة سحرة فرعون: ﴿ **وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ وسورة الفلق مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم، وهو مما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «سحر رسول الله ﷺ يهوديٌ من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم ... الحديث» وفيه أن النبي ﷺ قال لما حل السحر: «إن الله شفاني» صحيح البخاري على هامشه فتح الباري (١٢/ ٣٣٧) والشفاء إنما يكون برفع العلة وزوال المرض، فدل على أن له حقًا وحقيقة، فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه، وعلى هذا أهل الحل والعقد الذي ينعقد بهم الإجماع» ا.هـ.

انظر: تفسير القرطبي، (٢/ ٤٦)؛ وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٣٣).

اصطنعه لنفسه ـ قد خيل إليه أن حبال السحرة وعصيهم كانت تسعى، قال تعالى في سورة طه: ﴿ **قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ فلا غرابة أن تضعف أبصار الحاضرين فترى الأشياء على غير حقيقتها.

قال النسفي ـ رحمه الله ـ عند تفسير قوله: ﴿ **قال: بل ألقوا** ﴾[1]: أنتم أولاً ليُبرزوا ما معهم من مكايد السحر، ويظهر الله سلطانه، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، ، يسلط المعجزة على السحر فتمحقه، فيصير آية نيرة للناظرين، وعبرة بينة للمعتبرين[2].

وقال الفخر نقلاً عن الواحدي ـ رحمهما الله ـ في معنى قوله تعالى: ﴿ **سحروا أعين الناس** ﴾: المراد سحروا أعين الناس أي: قلبوها عن صحة إدراكها بسبب تلك التمويهات[3].

قلت: ومراد الواحدي بهذا القول أن السحر حقيقة موجودة لا تمويه ولا تخيل، وليس أنه لا حقيقة له كما يقول به المعتزلة.

﴿ **واسترهبوهم** ﴾ أي: إنهم بعثوا الرهبة في قلوب العامة لما رأوه من حركات تلك الحبال والعصى، قال الفخر: واسترهبوهم أي: أخافوهم. أو ﴿ **استرهبوهم** ﴾ أي: طلبوا واستدعوا رهبة الناس حتى رهبهم الناس، وكانوا على ما قيل بعثوا جماعة ينادون عند إلقاء ذلك: أيها الناس. احذروا[4].

﴿ **وجاءوا بسحر عظيم** ﴾[5] أي: عندهم لأنه كان كثيراً وليس بعظيم على الحقيقة.

---

(١) سورة طه: الآية (٦٦).

(٢) تفسير النسفي، (٣/ ٥٨).

(٣) تفسير الرازي، (١٤/ ٢٠٣).

(٤) نقل بتصرف من تفسير الرازي، (١٤/ ٢٠٣).

(٥) سورة الأعراف: الآية (١١٦).

المبحث السادس
موقف موسى ـ عليه السلام ـ من السحرة

قال تعالى: ﴿ وأوحينا إلىٰ موسىٰ أن ألق عصاك فإذا هي تلقفُ[١] ما يأفكون[٢] (١١٧) فوقع الحقُ وبطل ما كانوا يعملون (١١٨) فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾[٣].

قوله: ﴿ وأوحينا إلىٰ موسى ﴾ أي: كلمناه وناجيناه وكان ربه يكلمه بلا واسطة كما هو معروف معلوم[٤] أو ألهمناه أن يلقي عصاه، وأيًا ما كان فإن موسى ـ عليه السلام ـ لم يلق عصاه بهواه متكلاً عليها، وإنما انتظر أمر الله له بما يفعله في هذا الوقت فقد يؤتيه معجزة أخرى تدحض هذا الباطل.

وهكذا سائر الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لا يصدرون في شيء من الأشياء قلَّ أو كثر إلا بإلهام الله أو وحيه، وحتى ما صدر منهم مما كان لهم فيه اجتهاد فإنه لا يخرج عن إلهام في رأي، وهو من باب ترك ما هو صواب إلى ما هو أصوب، وذلك تعليمًا لرسله ـ عليهم الصلاة السلام ـ أن ما هو مستور في علم الله فوق اجتهادهم.

---

(١) اللقف: التناول بسرعة، يقال: لقف الشيء يلقفه لقفًا ولقفانًا أخذه بسرعة.

(٢) الإفك: في اللغة قلب الشيء عن وجهه. ومنه قيل للكذب إفك لأنه مقلوب عن وجهه. تفسير الرازي (١٤/ ٢٠٤).

(٣) سورة الأعراف: الآيات من (١١٧) إلى (١١٩).

(٤) ويؤيده قوله تعالى في سورة طه: ﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ الآيتان (٦٨، ٦٩).

وقول الله لنبيه إنما يكون عن طريق الوحي.

وقوله تعالى: ﴿ أنْ ألْقِ عصاك فإذا هي تلْقفُ ما يأفكُون ﴾.

﴿ أنْ ألْقِ عصاك ﴾ أمر منه تعالى لنبيه. والمعنى أن ألق عصاك التي عهدتها تنقلب حية تسعى وثعبانًا مبينًا لا يثبت أمامه شيء، فألقاها - عليه السلام - بأمر ربه فإذا هي تأخذ بسرعة خاطفة ما أفكه السحرة من الباطل الذي ضلوا به أهل مصر أزمنة طويلة، والذي كان يعتمد عليه فرعون في بعض سياسة المصريين؛ بدليل أنه لجأ إلى السحرة عندما ظن أن معجزة موسى - عليه السلام - من قبيل السحر، وقد أراد الله بذلك إبطال السحر وأنه مهما تفنن فيه لا يضر أحدًا إلا بإذن الله، - جل وعلا - وأن السحر غير محكوم بقدرته فلا يصح أن يعول عليه أحد إنما المعول على الله - سبحانه وتعالى -.

و﴿ إذا ﴾ في هذه الآية فجائية والمعنى أن الحضور أخذتهم تلك المفاجأة فأصابتهم بالدهش والغلب.

قال الفخر الرازي - رحمه الله -: قال المفسرون: لما ألقى موسى العصا صارت حية عظيمة حتى سدت الأفق، ثم فتحت فكها، فكان ما بين فكيها ثمانين ذراعًا، وابتلعت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، فلما أخذها موسى صارت عصًا كما كانت من غير تفاوت في الحجم والمقدار أصلاً. واعلم أن هذا مما يدل على وجود الإله القادر المختار، وعلى المعجزة العظيمة لموسى - عليه السلام - وذلك لأن ذلك الثعبان العظيم لما ابتعلت تلك الحبال والعصي مع كثرتها، ثم صارت عصًا كما كانت، فهذا يدل على أنه تعالى أعدم أجسام تلك الحبال والعصي، أو على أنه تعالى فرق بين تلك الأجزاء وجعلها ذرات غير محسوسة، وأذهبها في الهواء بحيث لا يحس بذهابها وتفرقها. وعلى كلا التقديرين فلا يقدر على هذه الحالة أحد إلا الله - سبحانه وتعالى[1].

---

(١) تفسير الرازي، (١٤/ ٢٠٤).

﴿ **فوقع الحقُ وبطل ما كانُوا يعملُون** ﴾[١] والمتمعن في الآيات السابقة يرى بوضوح كيف أن الباطل قد يسحر عيون الناس ببريقه الزائف لفترة من الوقت، ويستولي على أفئدتهم ومضة من الزمن، حتى ليخيل لضعاف القلوب أنه غالب وحق . . . ولكن ما إن يواجه الحق الثابت الذي لا يتزعزع حتى يضمحل ويزول. وإذا بأتباع الباطل يصيبهم الذعر والذل وهم يرون صروحهم تتهاوى، وآمالهم تتداعى أمام نور الحق المبين، وإذا بتحديهم الصريح وتطاولهم الأحمق يتحول إلى استسلام مهين وذل مشين. قال تعالى: ﴿ **فغُلبُوا هُنالك** ﴾ أي: غلبوا في ذلك المكان والزمان اللذين حددا من قبل في قوله تعالى: ﴿ **فاجعل بيننا وبينك موعدا لاَّ نُخلفُهُ نحنُ ولا أنت مكانا سُوى** ﴾[٢] وقد سبق تفسيرها[٣].

والمعنى - والله أعلم -: أن القوم بهتوا، ولم تستطع أقدامهم أن تبرح بهم ذلك المكان من شدة ما أصابهم، وأنهم لم يستطيعوا مبارحته إلا بعد مضي وقت التقطوا فيه أنفاسهم، وقد انقلبوا إلى بيوتهم وأهليهم بعد ذلك ﴿ **وانقلبُوا صاغرين** ﴾ أذلة لا يملكون ما يدفعون به حجة موسى - عليه السلام - إلى حد أنهم سئموا أن يكلم بعضهم بعضًا، وأنهم حسبوا لمسألة نسائهم ومن لم يحضر هذا المشهد من ذويهم حسابًا شديدًا.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية (١١٨).

(٢) سورة طه: الآية (٥٨).

(٣) انظر: ص (٤٢٩) من بحثنا هذا.

المبحث السابع
موقف السحرة بعد بطلان سحرهم من معجزة موسى ـ عليه السلام ـ

قال تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾[١].

بعد أن رأى السحرة بينة موسى ـ عليه السلام ـ وقد التهمت بسرعة مذهلة ما جاءوا به من السحر، ثم تحول ثعبان موسى ـ عليه السلام ـ إلى عصا كما كانت من قبل، أيقنت السحرة أن هذا الأمر خارج عن نطاق السحر، وهو أمر إلهي لا طاقة للبشر به، وتيقنوا أن الذي أمامهم ليس بساحر بل هو نبي صادق من عند الله.

قال الرازي رحمه الله: هذه الآية من أعظم الدلائل على فضيلة العلم، وذلك لأن أولئك الأقوام كانوا عالمين بحقيقة السحر، واقفين على منتهاه، فلما كانوا كذلك ووجدوا معجزة موسى ـ عليه السلام ـ خارجة عن حد السحر، علموا أنه من المعجزات الإلهية، لا من جنس التمويهات البشرية، ولو أنهم ما كانوا كاملين في علم السحر لما قدروا على ذلك الاستدلال، لأنهم كانوا يقولون: لعله أكمل منا في علم السحر، فقدر على ما عجزنا عنه، فثبت أنهم كانوا كاملين في علم السحر، فلأجل كما لهم في ذلك العلم انتقلوا من الكفر إلى الإيمان. فإذا كان حال علم السحر كذلك فما ظنك بكمال حال الإنسان في علم التوحيد[٢]؟

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (١٢٠) إلى (١٢٢).

(٢) تفسير الرازي، (١٤/ ٢٠٥، ٢٠٦).

قال تعالى: ﴿ وأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ وفي الآية دليل على أن فعل العبد من خلق الله ـ تعالى ـ وتدل الآية أيضًا على أن السحرة سجدوا فور رؤية معجزة موسى ـ عليه السلام ـ وأنهم اندفعوا ملقين أنفسهم للسجود لرب العالمين، فأعضاؤهم لم تكن مهيأة في تلك اللحظة لشيء سوى السجود، وأن هذا الشعور وتلك الرغبة العارمة تساوى فيها السحرة جميعهم فلم يتوقف منهم أحد. فـ (أل) في السحرة للاسغراق.

قال النسفي: «خروا سجدًا كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم، أو لم يتمالكوا مما رأوا، فكأنهم ألقوا، فكانوا أول النهار كفارًا سحرة وفي آخره شهداء بررة»[1].

وقوله: ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: آمنا بمالك أمر العالمين، ومدبر شئونهم، والمتصرف فيهم.

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾[2] بدل من الجملة التي قبلها. والغرض منها نفي توهم من يتوهم أن رب العالمين قد يطلق على غير الله ـ تعالى ـ كما قال فرعون: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾[3].

والظاهر عندي أنهم لما ألقوا ساجدين قالوا بحيث يسمع فرعون: ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ إمعانًا في كشف الحقيقة التي بدت لهم، وإعلانًا عن مخالفتهم له في عقيدته مخالفة لم تبق فيهم من تقدير لتلك العقيدة الضالة.

وأن فرعون هددهم بما سأذكره على سجودهم وعلى مقالتهم في سجودهم،

---

(١) تفسير النسفي، (٢/ ٧٠).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (١٢١، ١٢٢).

(٣) سورة النازعات: الآية (٢٤).

إذ لولا تلك المقالة لظُن بعض الظن أن السجود كان لفرعون، لمحاولة نصرته ببعض النصرة وتخفيف نكبته، لكن السحرة أرادوا بمقالتهم هذه أن يعلم كل من يراهم أنهم سجدوا للواحد الأحد، وأن ظهور الحق دفعهم إلى أن يأتوا بما هو أدل على خلوص التوحيد وهو السجود المشفوع بقولهم في سجودهم: ﴿**آمنَّا برب العالمين (١٢١) ربِّ موسىٰ وهارون**﴾.

وإنما نحوت هذا المنحى لأن السجود في الأمم السابقة كان شيئًا مألوفًا من الرعية لملوكها، ولأجل نفي ذلك أردف السحرة سجودهم بمقالتهم هذه، وإنما قالوا: ﴿**ربِّ موسىٰ وهارون**﴾ إتيانًا منهم بركني الشهادة التي لا تكون إلا بهما وهي توحيد الله ـ تعالى ـ والإيمان بالرسول الذي جاءهم بهذا التوحيد، كما أنهم أرادوا أن ينسبوا الفضل لمن كان سببًا في خلاصهم من الكفر إلى الإيمان.

❊ ❊ ❊

المبحث الثامن
تهديد فرعون للسحرة وتوعده لهم

قال تعالى: ﴿ قال فرعونُ آمنتم به قبل أن آذن لكم إنَّ هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون (١٢٣) لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾[١].

وبعد أن رأى فرعون أن أعلم الناس بالسحر قد أقروا بنبوة موسى - عليه السلام - أمام ذلك الجمع العظيم، لأنهم أدركوا أن ما جاء به موسي - عليه السلام - ليس من قبيل السحر، وتحولوا من تحديهم السافر إلى التسليم المطلق أمام نداء الحق الذي لا يجحده إلا مكابر ومتعال.

ولقد خشي فرعون أن يستولي الإيمان على قلوب العامة كما استولى على قلوب السحرة، لا سيما وقد اتضح ذلك على صفات وجوههم كما أخبر بذلك قوله تعالى: ﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾[٢] أي: أذلاء مبهوتين، فأخذ فرعون ينكر عليهم مُوبخًا ومقرعًا لهم فعلهم الشنيع الذي ارتكبوه وهو إيمانهم برب موسى وهارون، قائلاً لهم: آمنتم به قبل أن آمركم بذلك؟ فهو من غروره واستعلائه ظن أن الإيمان بالحق بعد ما تبين يحتاج إلى سبق موافقة واستئذان! فالضمير في ﴿ به ﴾ يعود إلى الله - عز وجل - ولم يصرح فرعون باسمه تعالى تحاميًا لجريان ذكر الله - تعالى - على لسانه، مما ينبه العامة إلى التشكك في ألوهية فرعون، خصوصًا بعد ما نابه من كرب على يد موسى - عليه السلام - بإيمان

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٢٣، ١٢٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١١٩).

السحرة، الذين كان يعتبرهم ملجأه وحصنه لإبطال معجزة موسى ـ عليه السلام ـ.

ويجوز أن يراد بالضمير موسى ـ عليه السلام ـ وقد قصد بذلك تحقيره وأنه أقل من أن يؤثر فيهم هذا التأثير.

قوله تعالى: ﴿ **قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ** ﴾ يريد به فرعون أن الخروج على كلمته والانتحال بنحلة لا يقرها، أمر يستدعي عقوبة فعلية؛ لأنهم أرادوا بذلك سلبه ملكه، وإخراج أهل المدينة منها، باستتباعهم إياهم فيكون لهم الغلب بميل الكفة إليهم، وأنه لا يقر لأهل المدينة بتلك التبعية للسحرة، وسيؤاخذهم على ذلك أشد المؤاخذة بالمحاربة والانتقام، مما يؤدي إلى إخراج أهل المدينة منها، والمدينة التي يتحدث عنها هي عاصمة ملكه وقصبته وحاضرته، ولعلها منف، أو منفيس، أو طيبة، فهذه الأسماء كانت لأشهر مدينة في ذلك العهد كما قيل. والله أعلم.

وما كان فرعون ليأذن لهم في الإيمان، ولو مالت نفسه إلى ذلك لما أنكره، ولكنه أراد أن يبين للسحرة أنه لا يزال صاحب السلطان، وإليه المرجع حتى فيما يدينون به ويعتقدونه؛ لذلك نراه في الحال قد ألقى إلى أسماع الحاضرين شبهتين لتصيرا حائلاً بين إيمان القوم وبما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ.

فالشبهة الأولى: قوله: ﴿ **إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ** ﴾ أي: فعلكم هذا أيها السحرة ما هو إلا حيلة احتلتموها أنتم وموسى وتواطأتم عليها، وغرضه من هذا التنقيص من قوة الحجة والتأثير الذي أحدثته المعجزة.

الشبهة الثانية: قوله: ﴿ **لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا** ﴾ أي: إن غرضكم من تواطئكم ذلك هو إخراج أهلها الأصليين ـ الأقباط ـ منها وإسكان بني إسرائيل مكانهم،

ومعلوم أن مفارقة الأهل والبلد والوطن من أصعب وأشق الأمور على النفس، فكانت هذه الشبهة من أقوى العوامل المؤثرة في النفوس، وغرضه من هذا إعلان العداوة على موسى والسحرة، ثم أتبع هذا الاتهام الباطل بالوعيد الشديد قائلاً لهم: ﴿ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** ﴾ وعيد مجمل موجه للسحرة الذين وصفهم بذلك التدبير والكيد. ﴿ **لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ** ﴾ أي: من كل شق طرفًا.

﴿ **ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ تنكيلاً وتفظيعًا.

وقد أراد بقوله: ﴿ **لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ أن يبين قدرته عليهم وأن يخيفهم بالتأثير على قوتهم الذاتية، لأن الذي قطعت يده ورجله من خلاف لا يحسن مشيًا، ولا يحسن إمساكًا بشيء، مما يجعله لا يستقل بعمل، ومما يستذله لغيره دائمًا فيكون عالة عليه. ومن وصل إلى هذا الحد لا يعتد برأيه ولا يعول على تأثيره. وكان فرعون من أوائل من سن تعذيب المؤمنين على إيمانهم، ومن أوائل من وضع لَبِنَات فنون تعذيب المؤمنين في كل عصر لانتصارهم لدينهم، ولمخالطة بشاشة الإيمان قلوبهم. وقوله: ﴿ **ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ أي: لن أبالي بأن لبعضكم قوة، بل كلكم معشر السحرة في التنكيل سواء، ولن أقبل شفاعة شافع فيكم، وإنما هددهم بالتقطيع والصلب ليعتبر غيرهم بهم، وليرجعوا بما هددوا به عن التوحيد. وقد حكى القرآن تأبّيهم على فرعون، واستخفافهم بما هددهم بأكثر من أسلوب، لنعرف بذلك قوة إيمانهم ورسوخه في قلوبهم، ولنتعلم مغالبة الصعاب والاستعلاء عليها بقوة الإيمان.

قال تعالى في سورة طه: ﴿ **قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا**

خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾[١].

والمعنى: أن السحرة قالوا لفرعون لما توعدهم بما توعدهم به: ﴿ **لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات** ﴾ أي: لن نختارك فنتبعك، ونكذب ما جاءنا به موسى من الحجج والأدلة القاطعة على حقيقة ما دعانا إليه. وقوله: ﴿ **والذي فطرنا** ﴾ عطف على ﴿ **ما جاءنا** ﴾ أي: لن نختارك على الذي جاءنا، ولا على الذي خلقنا. أو قسم وجوابه ﴿ **لن نؤثرك** ﴾ مقدم على القسم، والتقدير: والذي فطرنا لن نؤثرك على ما جاءنا به موسى فاقض ما أنت قاض. ﴿ **فاقض ما أنت قاض** ﴾ أي: اصنع ما أنت صانع من القتل والصلب.

﴿ **إنما تقضي هذه الحياة الدنيا** ﴾ أي: إنما تحكم فينا مدة حياتنا ثم لا سلطان لك بعد ذلك: ﴿ **إنا آمنا بربنا** ﴾ أي: إنا آمنا، وأقررنا بتوحيد ربنا، وصدقنا وعده ووعيده، وأن ما جاء به موسى حق. ﴿ **ليغفر لنا خطايانا** ﴾ أي: ليعفو عن ذنوبنا.

﴿ **وما أكرهتنا عليه من السحر** ﴾ أي: ما أكرهتنا على تعلمه والعمل به. روى أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً ففعل، فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر، الساحر إذا نام بطل سحره. فكرهوا معارضته خوف الفضيحة، فأكرههم فرعون على الإتيان بالسحر. وضر فرعون جهله به، ونفعهم علمهم بالسحر. فكيف بعلم الشرع[٢]؟

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ **قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون (٥٠) إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين** ﴾[٣].

---

(١) سورة طه: الآيتان (٧٢، ٧٣).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٣/ ٦٠).

(٣) سورة الشعراء: الآية (٥٠، ٥١).

قال النسفي: «أي: إن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به قالوا: ﴿ قالُوا لا ضَيْرَ ﴾ أي: لا ضرر علينا في ذلك بل لنا أعظم النفع، لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا، أو: لا ضير علينا فيما تتوعدنا به، إنه لابد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت، والقتل أهون أسبابه وأرجاها، أو: لا ضير علينا في قتلك إيانا، إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من طمع في مغفرته، ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان»[1].

وأعود إلى ما قاله القرآن عنهم في سورة الأعراف.

﴿ وما تنقمُ منَّا إلاَّ أنْ آمنَّا بآيات ربِّنا لَمَّا جاءتْنا ﴾[2].

أي: وما تكره منا، وتعيب علينا إلا الإيمان بآيات الله، الذي هو من أعظم المناقب وأفضل المحاسن، مما يجعلك لو كنت عاقلاً أن تمدحنا به لا أن تنقم منا، فكيف نترك صوابنا إلى جهلك وطغيانك؟

وقوله تعالى: ﴿ ربَّنا أفْرغْ علينا صبْرا وتوفَّنا مُسْلمين ﴾[3] فلما تبين لهم إصراره على تنفيذ ما توعدهم به، استعانوا على هذا البلاء العظيم بربهم، يتضرعون إليه، ويسألونه أن يفرغ على ذواتهم وقلوبهم صبرًا عظيمًا، لا يبالون معه بما يفعله بهم فرعون، ورجوا ربهم في ضراعة أن يثبتهم على الإسلام الذي هداهم إليه، وأن يتوفاهم عليه، لأن سعادة المسلم لا تستيقن إلا إذا خرجت روحه على الإيمان.

فقوله تعالى: ﴿ ربَّنا أفْرغْ علينا صبْرا ﴾ هو نداء واستنجاد، وهو مقول قول محذوف تقديره قالوا: يا ربنا، ومالك أمرنا وشئوننا، أفرغ علينا صبرًا عظيمًا يدافع هذا البلاء عنا، وتوفنا برحمتك مسلمين.

---

(١) تفسير النسفي، بتصرف (٣/ ١٨٤).

(٢، ٣) سورة الأعراف: الآية (١٢٦).

وهذا الدعاء الذي قصه الله علينا، تعليم لكل مسلم أن يستنجد بربه وقت الشدة، فلا مغيث له إلا هو، وأن يكون همه الأكبر الخروج من هذه الدنيا على الإيمان، وأن أي مصيبة مهمًا جلّت فهي دون مصيبة التوفي على الكفر، والعياذ بالله - تبارك وتعالى - وأن المؤمن لا يليق به أن ينسى الآخرة في غمرة صعوبة الأحداث وخطورتها، وأن يجعل رجاء الوفاة على الإيمان نصب عينيه، وموضع سؤاله ربه، وتضرعه إليه دائمًا، ولذا لم يسأل السحرة في هذا الموطن سوى هذين الأمرين.

ولقد اختلف المفسرون هل أوقع فرعون بالسحرة ما هدد به أوْ لا؟

والذي أميل إليه أنه أوقع بهم ما هدد به أو بعضه لهذا الدعاء. والله أعلم.

❊ ❊ ❊

المبحث التاسع
موقف الملأ من موسى ـ عليه السلام ـ وقومه وإجابة فرعون لملئه

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾[1].

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون ﴾ الجملة معطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ﴾[2].

والملأ: هم أصحاب النفوذ والسلطة والزعامة والوجاهة، والملأ في كل أمة هم سبب شقائها وهلاكها بعذاب الاستئصال المتنوع في الدنيا، كما بينه القرآن الكريم من خلال قصص الماضين، وقد ألمحت إلى ذلك مرارًا، وقد كان شأنهم مع فرعون شأن الجبان الذي يلتمس فرصة يظهر فيها بمظهر الشجاعة الكاذبة والغيرة المفتعلة.

وقوله تعالى: ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون ﴾ لا يدل على إيمان بني إسرائيل واستقامة حالهم، وامتناعهم من تأييد فرعون ونصرته، وإنما يدل على مهانتهم وأنهم لم يكونوا ذوي وزن عند فرعون. وسيتضح ذلك فيما سيأتي من أحوالهم ما يؤكد هذا الفهم، وكان فرعون لا يستشير إلا قومه ـ وهم المصريون الحقيقيون ـ لا بنو إسرائيل الدخلاء.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠٩).

وقوله: ﴿ أتذرُ موسىٰ وقومهُ ليُفسدُوا في الأرْض ويذرك وآلهتك ﴾ القصد منه تهييج فرعون على موسى وقومه، ومحاولة حمله على مغالبة خوفه وروعه، ولذا ذكر القرآن الكريم قولهم هذا بأسلوب الاستفهام الذي لا يقصد حقيقته بل القصد منه الإثارة - كما ذكرت - وقد استخدم الملأ في إثارتهم لفرعون سببين قويين في نظرهم، كل واحد منهما كفيل بأن يحمل فرعون على التصدي لموسى وقومه فكيف باجتماعهما؟

أولهما: إفساد موسى وقومه في أرض مصر على حد زعمهم، وذلك أن معجزة موسى - عليه السلام - هزت قلوب المصريين، وزعزعت علاقتهم بفرعون، وحملت الكثيرين منهم على التفكير في الإيمان بموسى - عليه السلام - وذلك ينقض ويهز ملك فرعون وهذا هو أقوى السببين. ولا غرابة في عرف أهل الباطل أن يسموا الحق والإيمان فسادًا، وضلالهم وكفرهم فلاحًا ورباحًا.

ولقد كان لموسى - عليه السلام في بعض المصريين تأثيره الظاهر قبل أن يرسله الله إلى فرعون، وقبل أن يشهد المصريون معجزته. ويؤكد هذا الفهم قوله تعالى: ﴿ وجاء رجلٌ من أقصا المدينة يسعىٰ قال يا موسىٰ إنَّ الملأ يأتمرُون بك ليقتلوك فاخرُج إني لك من الناصحين ﴾[1].

قال النسفي - رحمه الله -: «إن هذا الرجل كان ابن عم فرعون، وهو مؤمن من آل فرعون، الذي قص الله علينا خبره في سورة غافر»[2] فما بالك بعد مشاهدتهم معجزته - عليه الصلاة والسلام -؟

والسبب الثاني: هو قولهم: ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ فإن مما يشق على أصحاب الجاه والسلطان انحراف الناس عنهم إلي غيرهم، وهو تهييج آخر، أرادوا به إثارة

(١) سورة القصص: الآية (٢٠).

(٢) قال تعالى: ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ﴾ ... الآية (٢٨) من سورة غافر؛ انظر: تفسير النسفي، (٣/ ٢٣٠).

فرعون على موسى وقومه، ويحسن بي أن أتعرض لقضية تتعلق بقوله تعالى: ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ فإن ذلك يعني أن فرعون لم يكن إلهًا بل كان يعبد آلهة؛ وهذا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ وقال فرعونُ يا أيُّها الملأُ ما علمتُ لكُم مِن إله غيري ﴾[1].

والواقع لا تعارض بين آية الأعراف وآية القصص، لأن آلهة فرعون التي ذكرتها سورة الأعراف قد نصبها فرعون لتأكيد ألوهيته هو؛ وهي بمثابة التهيئة لمن يدخل عليه، فلا يليق بداخل عليه أن يدخل من أول الأمر، بل عليه أن يمر على تلك الآلهة التي صنعها خصيصًا لنفسه لتهيء الداخلين عليه لملاقاته؛ وقد فهمت ذلك من الإضافة في قوله تعالى: ﴿ وآلهتك ﴾ أي: المخصوصة بك، والتي تهيء بها رعيتك لقبول ألوهيتك، لأنها كانت آلهة جامدة لا تسمع، ولا تبصر فإذا سلم لها من مر عليها بالألوهية كان تسليمه بألوهية فرعون ألزم، لأنه يسمع، ويبصر، ويتكلم، ويعطي، ، يمنع باعتباره بشرًا زوده الله - تعالى - بما يمكنه من ذلك، ولم أجد هذا المعنى في كتب التفسير ولكن الله هداني إليه، فلله الحمد والمنة.

ومما يقوي فهمي هذا قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربُّكُم الأعلى ﴾[2] والمعنى - والله أعلم - أنه يقول: إن فوق تلك الألهة التي جعلتها تمهيدًا لتعريفكم بألوهيتي، بل وفوق رب موسى الذي يزعم أنه أرسله إليكم. تعالى الله عما يقول علوًا كبيرًا.

وقد اختلف المفسرون في آلهة فرعون فمن قائل: إنها الكواكب، ومن قائل إنها أصنام صغيرة، أمرهم بعبادتها، ومن قائل: إنه كان يعبد البقر، وقد شاعت عبادة البقر عند المصريين في بعض الأزمنة[3].

---

(١) سورة القصص: الآية (٣٨).

(٢) سورة النازعات: الآيتان (٢٣، ٢٤).

(٣) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ٢٢١)؛ وتفسير أبي السعود، (٣/ ٢٦٢)؛ وتفسير النسفي، (٢/ ٧٠)، وتفسير ابن كثير، (٢/ ٢٣٩)، وتفسير القاسمي، (٧/ ٢٣٤).

من كل ما أسلفت ذكره في هذا الموضوع يتضح لك - إن شاء الله - زوال هذا التعارض بين آية الأعراف وآية القصص. فقوله تعالى في آية القصص: ﴿ **ما علمتُ لكُم مَن إله غيري** ﴾ لا يقصد فيها نفي الآلهة الموطئة له، بل يقصد صرف قومه عن توحيد الله - تعالى - وعن اتباع موسى - عليه السلام - فإنهم إذا آمنوا بالله - تعالى - نبذوا ولا شك فرعون وألوهيته وآلهته.

ولقد عرف فرعون ما يدور في نفوس الملأ فأجابهم إجابة المخذول الذي يجتهد في كتمان خذلانه: ﴿ **قال سنُقتِّلُ أبناءهُم** ﴾[1] أي: سنستمر على ذلك كما كنا، ولن نكف عنه. والضمير يعود لبني إسرائيل.

﴿ **ونستحيي نساءهُم** ﴾ في المهانة والخدمة فلا تقوم لبني إسرائيل قائمة، ولن ينفعهم موسى بما جاءهم به على حد زعمه، لأن القوة في كل عصر أساسها الأول وفرة البنين، وكثرة الرجال والأموال. قال تعالى في شأن بني إسرائيل لما رد عليهم القوة على من استعبدوهم وجاسوا خلال ديارهم: ﴿ **ثُمَّ رددْنا لكُمُ الكرَّة عليهم وأمددْناكُم بأموال وبنين وجعلْناكُم أكثر نفيرا** ﴾[2] أي: عددًا مما كنتم. وهو تمييز، جمع نفر وهو مَن ينفر مع الرجل من قومه[3].

وقوله تعالى: ﴿ **وإنَا فوقَهُم قاهرُون** ﴾ هو مزيد طمأنة ملئه المستغرب لامتناعه عن معاقبة موسى وقومه، ومراد فرعون بقوله هذا أن ينبه ملأه أنه لا يزال هو الملك، وأن الرئاسة لا تزال بيده، وبني إسرائيل لا يزالون تحت قبضته، ولا يمكنهم الخروج من مصر في نظره بأي حال من الأحوال. وكأنه يقول لملئه: لماذا ارتعتم هذا الارتياع والأمر كما ذكرته لكم؟

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٧).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٦).

(٣) تفسير النسفي. (٢/ ٣٠٧).

وتلاحظ أن فرعون استخدم نون العظمة في: ﴿ نقتل ﴾ و﴿ نستحيي ﴾ و﴿ وإنا ﴾ بقصد إظهار قوته لملئه، وأن يستل هذا الاستغراب من نفوسهم.

والمتمعن في كلام الملأ من قوم فرعون يجده لا يختلف إطلاقًا عن منطق دعاة الباطل كافة في كل العهود، فهم يرون أن الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وتخليص الناس من براثن العبودية الزائفة إفساد في الأرض؛ لأنهم على يقين من أن هذه الدعوة ستدك حصونهم، وتكشف عوراتهم، وتحرر الناس من ظلمهم، وجبروتهم، وتحرمهم مما هو فيه من النعيم على حساب الآخرين.

أما ما قاله فرعون فهو منطق الطغاة المتجبرين، فقد لجأ إلى قوته المادية ونفوذه الواسع، ليبدد به دعوة الحق، وليظل ينعم في شهواته ويستبد بظلمه وقهره على الضعفاء البائسين.

* * *

المبحث العاشر
وصية موسى ـ عليه السلام ـ
لقومه بالاستعانة بالله والصبر على البلاء

قال تعالى: ﴿ **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾[1].

وبعد تهديد فرعون وملئه لقوم موسى، وقد بلغ موسى وقومه ذلك التهديد الذي أفزعهم، وهز مشاعرهم، وأقض مضاجعهم، حينئذ طلب موسى ـ عليه السلام ـ من وقومه أن يلوذوا بالصبر، وألا يجزعوا من وعيد فرعون لهم، وأفهمهم بأن الأرض ليست ملكًا لفرعون وملئه، بل هي لله الواحد القهار، ويورثها لمن يشاء من عباده، وأنه ـ جل وعلا ـ وعد بأن تكون العاقبة لمن خافه وآمن به.

وفي الآية إشارة إلى أن البلاد ومَن عليها ستكون في النهاية لهم، وهي بمثابة البشارة التي تزيد في عزيمة المؤمنين المعقودة على الصبر واحتساب البلاء النازل بهم لوجه الله ـ تعالى ـ.

قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «قوله: ﴿ **استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ فهاهنا أمرهم بشيئين، وبَشّرهم بشيئين: أما اللذان أمر موسى ـ عليه السلام ـ بهما:

فالأول: الاستعانة بالله.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٨).

والثاني: الصبر على بلاء الله.

وإنما أمرهم أولاً بالاستعانة وذلك لأن من عرف أنه لا مدبر في العالم إلا الله انشرح صدره بنور معرفة الله ـ تعالى ـ، وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء الله ـ تعالى ـ وتقديره، واستعداده بمشاهدة قضاء الله خفف عليه أنواع البلاء.

أما اللذان بشر بهما:

فالأول: قوله: ﴿ **إنَّ الأرْض للَّه يُورثُها من يشاءُ من عباده** ﴾ وهذا إطماع من موسى ـ عليه السلام ـ لقومه في أن يورثهم الله ـ تعالى ـ أرض فرعون بعد إهلاكه، وذلك معنى الإرث: وهو جعل الشيء للخلف بعد السلف.

والثاني: قوله: ﴿ **والعاقبةُ للْمُتَّقين** ﴾ فقيل: المراد أمر الآخرة فقط، وقيل: أمر الدنيا فقط، وهو الفتح والظفر والنصر على الأعداء. وقيل: المراد مجموع الأمرين.

وقوله: ﴿ **للْمُتَّقين** ﴾ إشارة إلى أن كل من اتقى الله ـ تعالى ـ وخافه فالله يعينه في الدنيا والآخرة»[1].

وقد دل موسى ـ عليه السلام ـ قومه على قانون الله، الذي ما تمسكت به أمة إلا هديت، وما قصرت وما تخلت عنه أمة إلا قهرت وخذلت، وهذا القانون يقوم أولاً على الاستعانة بالله القوى العزيز، الذي يقهر ولا يُقهر، والذي يذل ولا يُذل، والذي يجير ولا يُجار عليه، وقد استقر في فطر البشر أنهم إذا لجأوا إلى قوي منهم يثقون بقوته اطمأنت قلوبهم، وتعززت شوكتهم، فكيف بمن استعان بالله ـ تعالى ـ ولجأ إليه؟ فموسى ـ عليه السلام ـ بيّن لقومه أن مرد قوتهم في ثقتهم بربهم وصدق إيمانهم به، وفي طلب المعونة منه وحده.

---

(١) تفسير الرازي، (١٤/ ٢١٢).

والمادة الثانية لهذا القانون الصبر، وما عالج فرد أو أمة مشكلته بالصبر إلا حلت، وجنى أفضل العواقب، وإنما أمرهم - عليه السلام - بالصبر لأن أقدار الله - تعالى - لا يؤثر فيها استعجال مستعجل، وأن نقمته تنزل بعدوه بحسب مشيئته، وفي الوقت الذي يريده هو، لا في ما يريده القلقون لأن البلاء هو الذي يمحص المؤمنين، ويظهر صلابة معدنهم وقوة إيمانهم، قال تعالى: ﴿ **وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾[3].

مادته الثالثة أن الكون كله لله، والأمر كله لله، والأرض جزء من الكون، فهي لله يورثها ويعطيها من يشاء من عباده كافرين أو مؤمنين، فلا تيأسوا من أن تنالوها، بل هي واصلة إليكم ما استعنتم به وصبرتم على بلائه، والدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فليس التعزز بملكها، وليس الخير كل الخير التوسع فيها بالظلم والبغي، كلا بل إن العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة إنما هي للمتقين.

والمادة الرابعة لهذا القانون الإلهي أن ﴿ **الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ فعلى بني إسرائيل أن يدركوا أن سلامتهم في تقوى الله لا في الاعتزاز بالانتساب إلى الأنبياء وهم على غير منهجهم، فالمتقون لله أيًا كان نسبهم هم أهله وأولياؤه، وأما المبغضون عندهم فهم من فارقوا التقوى، وإن كانوا من سلالة الأنبياء، قال تعالى في شأن إبراهيم - عليه السلام - قال: ﴿ **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٤١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٤٢).

(٣) سورة التوبة: الآية (١٦).

(٤) سورة البقرة: الآية (١٢٤).

المبحث الحادي عشر
تضجر بني إسرائيل
من وصية موسى ـ عليه السلام ـ لهم

قال تعالى: ﴿ **قالُوا أُوذينا من قبْل أن تأْتينا ومن بعْد ما جئْتنا قال عسىٰ ربُّكُم أن يُهْلك عدُوَّكُمْ ويستخْلفكُمْ في الأرْض فينظُر كيْف تعْملُون** ﴾[1].

والمتأمل في جواب قوم موسى لنبيهم يدل على سوء أدبهم، وسفاهتهم مع نبيهم وبلادة عقولهم، حيث إنه ـ عليه السلام ـ بشرهم إذا صبروا بالظفر على أعدائهم لكنهم قالوا: ﴿ **أُوذينا من قبْل أن تأْتينا ومن بعْد ما جئْتنا** ﴾ أي أنهم قالوا له ردًا على نصيحته لهم بالاستعانة بالله وبالصبر على البلاء: لقد لاقينا يا موسى من فرعون صنوف العذاب وذلك قبل بعثتك بالرسالة؛ فقد قتل أبناءنا، واستحيا نساءنا وأنزل بنا ألوان الظلم والاضطهاد، وها نحن بعد بعثتك ومجيئك إلينا لم تتغير أحوالنا، فقد عاد فرعون إلى ظلمه وسفكه للدماء وإذلالنا، وقد قصدوا بقولهم هذا أنهم لم يستفيدوا بإيمانهم به وبرسالته شيئًا، فقد استبطأوا وعده لهم بالنصر، فأجابهم ـ عليه السلام ـ إجابة الحليم، فهدأ ثورتهم وطمأن روعتهم، ورجا من ربه أن يهلك عدوهم، ويستخلفهم في الأرض بعدهم.

قال تعالى على لسان موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ **قال عسىٰ ربُّكُمْ أن يُهْلك عدُوَّكُمْ ويستخْلفكُمْ في الأرْض** ﴾ أي: أن يجعلكم خلفاء فيها من بعد أهلها ـ قوم فرعون ـ والمراد بالأرض: أرض مصر، وهذا تحريض منه ـ عليه السلام ـ لهم على العزم على الشكر، والمداومة عليه عند حلول النعم وزوال النقم.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

﴿ فينظُر كيف تعملُون ﴾[١] أي: يرى ذلك بوقوع ذلك منكم، مَن منكم أحسن وأدى شكر النعم؟ ومَن منكم كفر بالله ونعمه؟ فيجازي كلاً بحسب عمله.

قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن النظر قد يراد به النظر الذي يفيد العلم وهو على الله محال، وقد يراد به تقلب الحدقة نحو المرئي التماسًا للرؤية وهو أيضًا على الله محال، وقد يراد الانتظار وهو أيضًا على الله محال، وقد يراد به الرؤية ويجب حمل اللفظ ههنا عليه.

قال الزجاج: أي يرى ذلك بوقوع ذلك منكم لأن الله ـ تعالى ـ لا يجازيهم على ما يعلمه منهم، وإنما يجازيهم على ما يقع منهم»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

(٢) تفسير الرازي، (١٤/ ٢١٣).

المبحث الثاني عشر
معاقبة الله لفرعون وقومه قبل إغراقهم

قال تعالى: ﴿ ولقدْ أخذْنا آل فرْعونْ بالسّنين ونقْصٍ مّن الثّمرات لعلّهُمْ يذّكّرُون ﴾[1].

مر علينا في الآية الكريمة السابقة أن موسى ـ عليه السلام ـ قال لقومه: ﴿ عسىٰ ربُّكُمْ أن يُهْلك عدُوّكُمْ ﴾[2] وفي هذه الآية التي نحن بصدد دراستها وتفسيرها، يخبرنا ـ جل وعلا ـ عما حل بفرعون وقومه من صنوف المحن والبلاء استجابة لرجاء نبيه ـ عليه السلام ـ لعلهم يثوبون إلى رشدهم، وكان هذا أول إنذار لهم.

قال تعالى: ﴿ ولقدْ أخذْنا آل فرْعونْ بالسّنين ونقْصٍ مّن الثّمرات ﴾ أي: بالجدب والقحط والجوع عامًا بعد عام، امتحانًا لهم، وتنبيهًا لهم، حتى يرجعوا عن غيهم وظلمهم، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم، أما نقص الثمرات فكان لأهل أمصارهم»[3].

﴿ لعلّهُمْ يذّكّرُون ﴾ أي: لعلهم يثوبون إلى رشدهم فيتعظوا، ويعلموا ضعفهم أمام خالقهم، ويرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي؛ لأن الشدائد في العادة تنبيه الغافل من غفلته، وترقق القلوب، وتزجر النفوس عن غيها، وتحثها على الضراعة إلى الله والتزام شرعه، كما قال تعالى: ﴿ وإذا مسّهُ الشّرُّ

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

(٣) الكشاف، (٢/ ١٠٥).

فذو دعاء عريض﴾[١] أي: كثير، أي: أقبل على الدوام يدعو ربه، وأخذ في الابتهال والتضرع[٢].

لكن ذلك لم يحدث لقوم فرعون، بل ازدادوا تمردًا وكفرًا، قال تعالى: ﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه** ﴾ أي: إنهم إذا أنعم الله عليهم بالخصب والقطر والرخاء نسبوا ذلك إلى أنفسهم، وأنهم أهل لهذا الخير الذي حل بهم، وأن ما جاءهم بكدهم واجتهادهم، ناسين المسبب الحقيقي لذلك، غافلين عن شكره على نعمائه.

﴿ **وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه** ﴾ وإذا حلت بهم حالة من القحط والجدب والجوائح النازلة من السماء التي تصيب الأموال والثمار بسبب ظلمهم نسبوا ذلك إلى موسى ومن معه من المؤمنين من باب التشاؤم، وقالوا: لولا موسى ومَن معه لما أصابنا القحط والجدب، وهذا من شؤمهم ولولاهم ما أصابنا ما أصابنا.

قال النسفي: «وإنما دخل ﴿ **إذا** ﴾ في الحسنة وعُرّفت الحسنة، و ﴿ **إن** ﴾ في السيئة ونُكّرت السيئة لأن جنس الحسنة وقوعه كالكائن لكثرته، وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها»[٣].

والتطير: أصله التفاؤل بالطير. ثم يستعمل في كل ما يُتفاءل به ويُتشاءم . . . قال تعالى: ﴿ **وإن تصبهم سيئة يطيروا** ﴾ أي: يتشاءموا به ﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله** ﴾ أي: شؤمهم وما قد أعد الله لهم بسوء أعمالهم[٤] ا. هـ. ﴿ **ألا إنما طائرهم** ﴾ استئناف مسوق للرد على أباطيلهم، والمراد به شؤمهم ـ كما أسلفت ـ.

---

(١) سورة فصلت: الآية (٥١).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٤/ ٩٨).

(٣) تفسير النسفي، (٢/ ٧١، ٧٢).

(٤) انظر: المفردات للأصبهاني، ص (٣٠٩، ٣١٠).

﴿ عند الله ﴾ أي: في حكمه ومشيئته، وصدر بلفظ ﴿ ألا ﴾ الذي يفيد التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمون هذا الخبر، أي: إنما سبب خيرهم وشرهم هو الحكيم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية، فيجازيهم بحسب أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وليس لموسى عليه السلام ومن معه أي تدخل في ذلك.

﴿ ولكنَّ أكثرهُمْ لا يعلمُون ﴾[1] أن ما لحقهم من القحط والجدب إنما هو في الحقيقة من عند الله - تعالى - بسبب ذنوبهم وظلمهم، لا من عند موسى وقومه، وكان أخذهم بالسنين والنقص من ثمراتهم كالإنذار لهم، وكان الأجدر بهم أن يتعظوا، ويؤمنوا بموسى وما جاء به.

ورغم قسوة ما لاقوه من هذه السنين وما عانوه من نقص ثمراتهم إلا أن ذلك إذا قيس بما سيمتحنون به بعد من العذاب قبل هلاكهم يعتبر رحمة ونعمة، وكان المتوقع من فرعون وقومه أن يذكروا بما نزل بهم فيؤمنوا بموسى - عليه السلام - لتسلم لهم دنياهم وأخراهم، لكن ذلك لم يحدث، وقد أنبأ عن عدم حدوثه قوله تعالى: ﴿ لعلَّهُمْ يذَّكَّرُون ﴾[2] (لعل) موضوعة لرجاء الأمر المحبوب، وفرق بين أن ترجو شيئًا لم يتأهل له من ترجوه منه، وبين مَن تأهل لفعله. وواضح لنا من خلال قصة موسى عليه السلام وفرعون تعنت فرعون وقومه، واستكبارهم عن الحق مع ظهوره واستبانته، ولذا لم يذعنوا لموسى - عليه السلام - ولم يؤمنوا به بعد حلول السنين بهم، بل قالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿ وقالُوا مهما تأْتنا به من آية لتسْحرنا بها فما نحْنُ لك بمُؤْمنين ﴾[3] والمراد: مهما جئتنا من آية جديدة هي في غاية العظم والكبر والقهر فإننا لن نخضع لها، ولن نؤمن بك ولا بما جئت به البتة.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٣٢).

والآية الكريمة تصور لنا مبلغ عنادهم ورفضهم للحق، وقد أسلمهم عنادهم هذا إلى أن سلط الله عليهم أنواعًا من العذاب[١] لم يعرف في الأمم السابقة ولا اللاحقة، فالحق - جل وعلا - يمهل ولا يهمل.

قال تعالى: ﴿ **فأرسلنا عليهمُ الطُّوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضَّفادعَ والدَّمَ آياتٍ مُفصَّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قومًا مُجرمين** ﴾[٢].

قوله: ﴿ **فأرسلنا عليهمُ** ﴾ أي: بقدرتنا وقهرنا وغلبتنا عليهم عقوبة لجرائمهم وتكذيبهم ﴿ **الطُّوفانَ** ﴾ قال الألوسي: «أي: ما طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل، فهو اسم جنس من الطواف»[٣].

فقد أمطروا أيامًا متوالية بلياليهن، وفاض عليهم النيل فعمت المياه جميع أراضيهم، فأتلفت عليهم مساكنهم ومزارعهم وتجاراتهم. والمعجز في هذه الآية والآيات التاليات أنها تلحق الضرر والأذى بالأقباط فقط دون الإسرائيليين، ومما يقوي ذلك ويؤكده قوله تعالى: ﴿ **فأرسلنا عليهمُ** ﴾ أي: لا على سواهم ممن خالطهم. وتأمل في قوم غمر الماء مساكنهم وما فيها من الفرش والأثاث، ومزارعهم وما فيها من الزروع والثمار والأنعام، ومتاجرهم وما فيها من البضائع والأموال، كيف يكون حالهم؟!

فلما اشتد عليهم الأمر لجأوا إلى موسى - عليه السلام - يتضرعون إليه، وقالوا له: لئن دعوت لنا ربك لنؤمنن لك، فلما دعا موسى - عليه السلام - الله - عز وجل - وكشف الله عنهم ما حل بهم، عادوا إلى كفرهم وضلالهم، لذلك عاقبهم الله - جل وعلا - بتسليط الجراد عليهم.

---

(١) وهو الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وهو ما سنُصّل فيه قريبًا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٣).

(٣) تفسير الألوسي، (٩/ ٣٣).

﴿ وَالْجَرَادَ ﴾ معطوف على الطوفان بتقدير: وأرسلنا عليهم الجراد، وهي الحشرة المعروفة. والجراد جمع جرادة وهو مما يستوي فيه المذكر والمؤنث، فإن أردت الفصل نعتّ، فتقول رأيت جرادة ذكرًا، وجرادة أنثى، كنملة وحمامة[١].

وكان إرسال الجراد عليهم بمثابة الإنذار الثاني لهم لعلهم يرجعون عن تكذيبهم، وكان نقمة كبيرة حلت عليهم لأن الله بعد أن كشف عنهم البلاء السابق وهو الطوفان سوّل لهم الشيطان أن ذلك الطوفان هو نعمة هم أهل لها، فقد أرتوت بساتينهم ومزارعهم وقفارهم، ونبت العشب في براريهم لرعي مواشيهم، وفرحوا بذلك، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل زروعهم وثمارهم إلا الشيء اليسير الذي استطاعوا أن يحصدوه قبل فساده، فقالوا: قد بقي لنا ما يكفينا فلن نؤمن لك، ولن نرسل معك بني إسرائيل. وكان اللائق بهم أن يرتدعوا ويؤمنوا بنبيهم، عليه السلام.

﴿ وَالْقُمَّلَ ﴾ واحدتها قُمَّلة، وهي عند أهل اللغة ضرب من القردان إلا أنها أصغر منها[٢] وقال أبو عبيدة: «القُمَّل عند العرب هي الحمنان. قال الأثرم الراوي عنه: والحمنان ـ يعني بالمهملة ـ ضرب من القردان»[٣] وهذا هو الابتلاء الثالث لقوم فرعون، وقد انتشر في بيوتهم وفرشهم، فأقض مضاجعهم، فلم يمكنهم من الغمض والقرار، وانظر إلى شدة هذا الابتلاء وعظيم هذه الآية فلو أن قملة واحدة تسلطت على إنسان وعجز عن قتلها لأفزعته، ولأقلقته، ولمنعته من

---

(١) انظر: تفسير القرطبي، (٧/ ٢٦٩)، ٢٧٠)؛ وتفسير الفتوحات الإلهية المسمى بالجمل، ص (٢/ ١٨٣).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٠) وقد روي عن سعيد بن جبير: كان إلى جنبهم كثيب أعفر فضر به موسى ـ عليه السلام ـ بعصاه فصار قملاً، فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم، ولزم جلودهم كأنه الجدري فصاحوا وصرخوا. انظر: تفسير الرازي، (٤/ ٢١٨)، وتفسير الطبري (٩/ ٣٩).

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، (٧/ ٢٤١).

النوم والراحة والهدوء، فما بالك بعدد لا حصر له، ولا يعلمه إلا الله؟ والمعجز في هذه الآية ـ كما سبق أن أسلفت ـ أن القمل يتسلط على الأقباط فقط دون الإسرائيليين ومن آمن من الأقباط.

وقد ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ نقلاً عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن المراد بالقمل السوس الذي يخرج من الحنطة[1] فقد انتشر في بيوتهم وأطعمتهم، ومن خصائصه أنه يطير مما يعجزهم عن مدافعته ومقاومته، وكانوا قد جمعوا بعض الأقوات ليغالبوا بها الجراد، وخزنوها في مخازنهم، فلما استجاب الله دعاء نبيه موسى، ورفع عنهم الجراد، سول لهم الشيطان أن ينكثوا عهدهم، فسلط الله عليهم ما أتلف هذه الأقوات لعلهم ينزجرون، ولا مانع من أن الله قد جمع عليهم الأمرين: القمل والسوس.

قال النحاس: «وليس هذا بناقض لما قاله أهل التفسير لأنه يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم، وهي أنها كلها تجتمع في أنها تؤذيهم»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ جمع ضفدع، وهي الحيوان المعروف الذي يعيش في الماء. فقد روي أنها ملأت فرشهم وأوعيتهم، وطعامهم وشرابهم، وتأمل ما في هذه الآية من العذاب حيث إن المعروف من هذه الحشرة بشاعة منظرها، وكراهة رائحتها، ولزاجة ملمسها، فضلاً عن ذلك كله نقيقها المزعج المتواصل، فكيف يكون الحال عند كثرتها واختلاطها بطعامهم وشرابهم وبين فرشهم؟ حتى إنه كان إذا تكلم أحدهم وثبت في أفواههم فمنعته الكلام[3].

---

(١) البداية والنهاية، (١/ ٢٦٥).

(٢) تفسير القرطبي، (٧/ ٢٧٠).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، (٢/ ٢٤١)؛ وتفسير الطبري، (٩/ ٣٤ـ٣٦)؛ وانظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٠، ٢٧١).

وقوله تعالى: ﴿ **والدَّم** ﴾ فأرسل الله عليهم الدم، فسال النيل عليهم دمًا عبيطًا[١] وكان المؤمنون منهم وبنو إسرائيل يغترفون منه الماء، والقبطي الدم[٢].

وتأمل ما في هذه الآية من العذاب، فحقًا إن كل آية أعظم من التي قبلها. فالماء الذي هو شريان الحياة وعمادها ولا يستطيع أن يستغني عنه أحد البتة أصبح دمًا عبيطًا نتنًا مليئًا بالأوبئة، وإن الناظر إلى الدم فقط تشمئز نفسه فكيف يكون حالهم وقد أصبح شرابهم ومغتسلهم؟

وقيل: المراد بالدم هنا الرعاف[٣] الذي سال من أنوفهم وهدد حياتهم، إذ إن كثرة الرعاف يؤدي بصاحبه إلى الهلاك ـ والله أعلم ـ.

والغريب أنهم في كل آية يطلبون من موسى أن يسأل ربه أن يكشف عنهم العذاب، فإذا ما كشف الله عنهم ما حل بهم رجعوا إلى ما كانوا عليهم من التكذيب والكفر، والمتمعن في الآيات السابقة وعظمها والتعبير بقوله: ﴿ **فأرسلْنا** ﴾ أي: وجهنا إليهم، ويقصد منه الدفع بالعقوبة في قوة، والتنصيص بقوله: ﴿ **عليهم** ﴾ أي: لا على غيرهم ممن خالطهم ـ كما أسلفت ـ ﴿ **الطُّوفان والْجراد والْقُمَّل والضَّفادع والدَّم** ﴾ وهي كما عبر عنها القرآن بـ ﴿ **آيات مُفصَّلات** ﴾ أي: واضحات لا يشك عاقل في كونها آيات إلهية، ومع ذلك لم يؤمنوا، بل في كل مرة ينكثون وعودهم لنبيهم، فالمتمعن في ذلك يستنتج ما يلي:

أولاً: تفريط أهل الباطل، واستكبارهم عن قبول الحق مع وضوح حجته، وعنادهم وإصرارهم على الكفر.

---

(١) الدم العبيط: أي الدم الطري. لسان العرب، (٧/ ٣٤٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤١) وتفسير الطبري (٩/ ٣٤ـ٣٦)، وانظ: تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٣) انظر: البداية والنهاية، (١/ ٢٦٦)، والكشاف (٢/ ١٠٨).

ثانيا : حرص نبيهم - عليه السلام - على إيمانهم واجتهاده في الدعاء لهم مع تكرار نقضهم لعهودهم.

ثالثا : صبر نبيه - عليه السلام - عليهم وترفقه بهم، ومع ذلك لم يُجد ذلك معهم، وفي ذلك تسلية للرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - مما يلاقيه من قَومه، من إصرارهم على الكفر وإمعانهم فيه، وأيضًا فيه توجيه للدعاة إلى الله بأن لا يقنطوا ولا يسأموا من مواقف مَن يدعونهم وإن تكرر تكذيبهم ورفضهم للحق، وتحمل ما قد يصادفهم من مشاق ومتاعب.

رابعا : أن الله - عز وجل - تدرج بهم في الآيات التي ابتلاهم بها لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ومع ذلك لم ينتبهوا من غفلتهم، ويؤيد فهمي هذا قوله تعالى: ﴿ **وما نُريهم مِنْ آية إلاَّ هي أكْبرُ من أُخْتها وأخذْناهُم بالْعذاب لعلَّهُم يرْجعُون (٤٨) وقالُوا يا أيُّها السَّاحرُ ادْعُ لنا ربَّك بما عهد عندك إنَّنا لمُهْتدُون (٤٩) فلمَّا كشفْنا عنْهُمُ الْعذاب إذا هُمْ ينكُثُون** ﴾[1].

خامسا : أن هذه الآيات لم يعرف أن الله عاقب بها أحدًا قبل فرعون ولا بعده، مما يدل على تناسبها بعناد وإصرار الذين عوقبوا بها على ما هم عليه من كفر واستكبار.

وقوله تعالى: ﴿ **آيات مُفصَّلات** ﴾ قيل: أي آيات مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل من أنها من عند الله، وقيل: ﴿ **مُفصَّلات** ﴾ أي: بين كل آية والآية الأخرى فترة من الزمن يمتحن فيه أحوالهم ويروي أنه كان بين كل آية ثمانية أيام، وقيل: أربعون، وقيل: شهر[2].

وقوله: ﴿ **فاسْتكْبرُوا** ﴾ أي: ترفعوا عن الإيمان بالله - تعالى - وأصروا على

---

(١) سورة الزخرف: الآيات من (٤٨) إلى (٥).

(٢) انظر: تفسير القرطبي، (٧/ ٢٧١).

كفرهم وضلالهم ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أي: مُصرِّين على الجرم والذنب، فإنهم لم يبالوا بما جاءهم من الآيات الواضحات الظَاهرات وما سبقها من المعجزات الباهرات[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ٢١٨).

المبحث الثالث عشر
نبذهم العهد الذي عاهدوا به نبيهم

قال تعالى: ﴿ ولَمَّا وقع عليْهمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسى ادْعُ لنا ربَّكَ بمَا عهِدَ عندكَ لئن كشفْتَ عنَّا الرِّجْزَ لنُؤْمننَّ لكَ ولنُرْسلنَّ معكَ بني إسْرائيل (١٣٤) فلَمَّا كشَفْنَا عنْهُمُ الرِّجْزَ إلىٰ أجلٍ هُم بالغُوهُ إذا هُمْ ينكُثُون ﴾[١].

قوله: ﴿ ولَمَّا وقع عليْهمُ ﴾ أي: ولما حل بهم ونزل عليهم ﴿ الرِّجْزُ ﴾ قال أهل اللغة: الرجز بكسر الراء العذاب.

وقال أبو إسحاق: «ومعنى الرجز في القرآن هو العذاب المقلقل لشدته، وله قلقلة شديدة متتابعة»[٢].

قال تعالى: ﴿ فأنزلْنا على الَّذين ظلمُوا رجْزًا مِّنَ السَّماءِ بِما كانُوا يفْسُقُون ﴾[٣].

وقال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: «قال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب»[٤].

وقد فسر سعيد بن جبير الرجز بالطاعون[٥].

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٣٤، ١٣٥).

(٢) لسان العرب (٥/ ٣٥٢).

(٣) سورة البقرة: الآية (٥٩).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٩٨).

(٥) الطاعون: قروح تخرج من الجسد فتكون في المَرَاقِّ أو الآباط أو الأيدي أو الأصابع وسائر البدن، ويكون معه ورم وألم شديد، وتخرج تلك القروح مع لهيب ويسود ما حوله أو يخضر =

ويؤيد قوله هذا الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**الطاعون آية الرجز، ابتلى الله ـ عز وجل ـ به ناسا من عباده، فإذا سمعتم به فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تفروا منه**»(١).

وفي رواية أيضًا لمسلم عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ: «**إن هذا الطاعون رجز سلط على من كان قبلكم، أو على بني إسرائيل، فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فرارًا منه، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها**»(٢).

وقد روى سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ تفسير الرجز بالطاعون عن ابن عباس حبر الأمة ـ رضي الله عنهما ـ وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «لما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل» والرجز: الطاعون(٣).

فعَليه فالمفسرون اختلفوا في تفسير هذه الآية، والأكثرون على أن المراد بالرجز هنا في هذه الآية هو تلك الآيات التي عذبوا بها ـ والتي سبق توضيحها ـ والتي كانوا في كل مرة يعاهدون فيها نبيهم ـ عليه السلام ـ إن كشف الله عنهم ذلك العذاب يؤمنوا به، ويرسلوا معه بني إسرائيل، فلما دعا نبيهم ـ عليه السلام ـ ربه بكشف العذاب عنهم عادوا مرة أخرى، ونكثوا وعدهم، وكفروا بالله وقوله ـ

= أو يحمر حمرة بنفسجية كدرة، ويحصل معه خفقان للقلب مع الرغبة في القيء. ا. هـ.
انظر: شرح صحيح مسلم للإمام النووي، (١٤/ ٢٠٤).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، (١٤/ ٢٠٥).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، (١٤/ ٢٠٥).

(٣) تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف من تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٥٨) دراسة وتحقيق الزميل/ د. حمد بن أحمد بن أبي بكر.

تعالى ـ: ﴿ **قالُوا يا مُوسى ادْعُ لنا ربَّك بما عهد عندك** ﴾ (ما) مصدرية، والمعنى: بعهده عندك وهو النبوة، وسميت النبوة عهدًا لأن لها حقوقًا، وقد عهد الله ـ سبحانه وتعالى ـ إكرام الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بها، وعهدوا إليه تحمل أعبائها[١].

﴿ **لئن كشفْت عنَّا الرِّجْز** ﴾ المراد إما تلك الآيات السابقة التي عذبوا بها، وإما آخرها وهو الدم، وإما الطاعون الذي سلط عليهم كما روي عن ابن عباس. ﴿ **لنُؤمننَّ لك ولنُرسلنَّ معك بني إسرائيل** ﴾ فقد ذهبوا إلى نبيهم ـ عليه السلام ـ يعاهدونه العهد المؤكد قائلين له: لئن كشفت عنا هذا الرجز لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل، وقد عاهدوه على الأمرين اللذين دعاهم موسى ـ عليه السلام ـ إليهما وكانوا يأبونهما كل الإباء:

الأمر الأول: إيمانهم واستسلامهم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ وانصياعهم لكل ما يأمرهم به ربهم ـ سبحانه وتعالى ـ.

الأمر الثاني: هو إرسال بني إسرائيل معه إلي الأرض المقدسة التي نزحوا منها إلى مصر أصلاً مع جدهم يعقوب أبي الأسباط[٢] ـ عليه وعليهم السلام ـ[٣].

وكان الله قد أمر موسى ـ عليه السلام ـ بإخراج بني إسرائيل من مصر حتى يمكن تقويمهم وعودتهم إلي الدين الصحيح؛ إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ وإلى لزوم الأوامر التي ستأتيهم من ربهم في التوراة لأنهم بخلطتهم للمصريين قد اكتسبوا جُلّ عاداتهم إن لم تكن كلها، فضلاً عن الذل الذي لحقهم على يد

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (٩/ ٣٦).

(٢) الأسباط: هم أبناء يعقوب الاثنى عشر؛ يوسف وإخوته ـ عليهم السلام ـ والموضوع فيه خلاف. وبنو إسرائيل الذين كانوا في عهد موسى هم أحفاد يعقوب المسمى في القرآن تارة بيعقوب وتارة بإسرائيل، أي: عبد الله.

(٣) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، (١/ ٣٢٠، ٣٦١).

فرعون واستخدامهم في أشق الأعمال مثل ضرب اللّبن، ونحت الطوب، ونقل التراب والحجارة وحمل الماء، وفي أمور الزراعة والفلاحة[١] وهم سلالة الأنبياء الكرام: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط من بعدهم، ويوسف ـ عليه السلام ـ فمهمتهم الحقيقية إذن هي نشر التوحيد، وهداية الخلق إلى الله ـ عز وجل ـ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لا الاشتغال بالبناء والفلاحة وما شابهها مما كان يستخدمهم فيه فرعون، ولذلك قال فرعون وقومه لموسى ـ عليه السلام ـ تلك المقالة التي ذكرتها هذه الآية، والتي أسلفت بيانها: ﴿ **ولنرسلنَ معك بني إسْرائيل** ﴾.

ولقد دعا موسى ـ عليه السلام ـ ربه عز وجل بدليل قوله تعالى: ﴿ **فلمَا كشفْنا عنهُمُ الرّجْز** ﴾ فما كان فرعون وقومه ليُكشف عنهم العذاب بمجرد ما قطعوه على أنفسهم من العهد لأنه عهد مشروط بكشف العذاب، والإيمان المشروط لا وزن له، ولو كانوا راغبين في الإيمان حقًا للجأوا إلى موسى ـ عليه السلام ـ مؤمنين بلا شرط حتى إذا ما ماتوا على هذا الإيمان نفعهم عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ودل على رغبتهم الحقيقية فيه، فكشف العذاب إذن كان لدعاء موسى ـ عليه السلام ـ وألفت النظر إلى معنيين جليلين في هذه الآية:

أولهما: قوله تعالى: ﴿ **ولمَّا وقع عليْهمُ الرّجْزُ** ﴾ فمعنى ذلك أن الذي ألجأهم إلى موسى ـ عليه السلام ـ هو تمكن العذاب منهم، ولولا ذلك ما أصغوا إليه، لا سيما وقد قالوا له ـ عليه السلام ـ ما حكاه الله عنهم قبل ذلك: ﴿ **وقالُوا مهْما تأْتنا به منْ آيةٍ لتسْحرنا بها فما نحْنُ لك بمؤْمنين** ﴾[٢] وكل ذلك يدل على غاية عنادهم وتعصبهم لباطلهم.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٢٠)، وتفسير الرازي (١٤/ ١٩٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٢).

والمعنى الثاني: أن العذاب الذي حل بهم ما كان في مقدور أحد من الخلق أن يرفعه عنهم مهما أوتي من القوة، ولتجلية هذا الذي أقرره نجد الحق - سبحانه وتعالى - يستخدم نون العظمة المنبئة عن قدرة لا تدانيها أية قدرة ﴿ **فلمَّا كشفْنا عنهُمُ العذاب** ﴾ وكان كشف العذاب عنهم لبلوغ الأجل الذي قدر الله أن يعيشوا إليه قبل أن يخلقهم، ولولا ذلك ما كشفه عنهم.

قال تعالى: ﴿ **فلمَّا كشفْنا عنهُمُ الرِّجْزَ إلىٰ أجلٍ هُم بالغُوهُ** ﴾ وقد ناط الله بهم أشياء لابد أن يفعلوها لأن الله قدر أن تقع منهم كالزراعة، والتجارة، وسائر الشئون التي ربطها الله بالعبد، وهذا يشعر بأنهم لن يؤمنوا إلا إذا رأوا العذاب الأليم، وهو الهلاك الدنيوي الذي يتلوه الموت الذي لا ينفع عنده إيمان.

وقد دعا عليهم نبيهم بذلك كما حكاه الله في سورة يونس - عليه السلام -: ﴿ **وقال موسىٰ ربَّنا إنَّك آتيت فرعونَ وملأَهُ زينةً وأموالاً في الحياة الدُّنيا ربَّنا ليُضلُّوا عن سبيلك ربَّنا اطمس علىٰ أموالهم واشدُدْ علىٰ قُلوبهم فلا يُؤمنُوا حتَّىٰ يروُا العذاب الأليم** ﴾[1].

أي: الذي لا ينفع عنده إيمان، ولذا كان جواب لما في هذه الآية ﴿ **فلمَّا كشفْنا عنهُمُ الرِّجْز إلىٰ أجلٍ هُم بالغُوهُ إذا هُمْ ينكُثُون** ﴾ جملة مُصدَّرة بـ ﴿ **إذا** ﴾ الفجائية، مصرحة بنكثهم واستمرارهم عليه بلا تذكر لما قطعوه على أنفسهم من قبل، وبلا روية وتريث بين النكث وكشف العذاب عنهم ﴿ **إذا هُمْ ينكُثُون** ﴾ أي: أسرعوا إلى النكث إسراعًا، وفاجأوا به مفاجأة، ولذا لم يمهلهم الله طويلاً بعد هذا النكث، بل عجل بنكبتهم بما قصه الله علينا في قوله تعالى: ﴿ **فانتقمْنا منهُمْ فأغرقْناهُمْ في اليمِّ** ﴾.

قال النسفي: «﴿ **فلمَّا كشفْنا عنهُمُ الرِّجْزَ إلىٰ أجلٍ هُم بالغُوهُ** ﴾ أي: إلى حد

---

(١) سورة يونس: الآية (٨٨).

من الزمان هم بالغوه لا محالة فمعذبون فيه، لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جواب ﴿لَمَّا﴾ فلما كشفنا عنهم أي: العذاب أو الطاعون ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي: إذا هم يفاجئون بالنكث وذلك برجوعهم إلى الكفر»[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٧٣)، وتفسير الكشاف (٢/ ١٠٩).

المبحث الرابع عشر
عاقبة الصراع ونهاية فرعون وقومه

قال تعالى: ﴿ **فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾[1].

قوله: ﴿ **فانتقمنا** ﴾: فـ (الفاء) الدالة على التعقيب أبانت سرعة حلول هذا العذاب بهم عقب النكث، وقد استخدم القرآن الكريم في هذه الآية أسلوبًا مشوقًا لطيفًا يرغب السامع في الحرص على تفاصيل ما حل بهم من العقاب؛ حيث أخبر - تعالى - أولاً بوقوع انتقامه - تعالى - منهم دون أن يبين نوع الانتقام، ناهيك عن إسناد الانتقام إليه مما يدل على شدة هذا الانتقام، وبعد أن بلغت النفوس غايتها في الشوق للتعرف عليه عَجّل لها ببيان نوعه فقال: ﴿ **فأغرقناهم في اليم** ﴾ وقد أسند هذا الإغراق إليه لأن النجاة منه كانت غير ممكنة، ولأنه تم بصورة مفاجئة معجزة.

وقوله: ﴿ **فأغرقناهم في اليم** ﴾ ولابد أن أقف وقفة لإلقاء الضوء على الأحداث التي صاحبت هذه الحادثة المحتمة لفرعون وقومه، الذين استكبروا عن اتباع الحق رغم وضوحه، فضلاً عن البينات والآيات المؤيدة له، لكنهم أصروا على الباطل رغم زيفه وبطلانه. ولما كانت سورة الأعراف - التي هي صميم الدراسة - لم تفصل أحداث هذه النهاية إلا أن القرآن الكريم قد تعرض بشيء من التفصيل لتلك الأحداث في سور أخرى كسورة يونس، وطه، والشعراء، والدخان . . .

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٦).

ومعلوم أن القرآن الكريم وحدة متكاملة يكمل بعضه بعضا، فما أجمل ذكره في موضع فصله في موضع آخر، ولما كان توضيح هذه النهاية وتفصيلها أحد الأسس الرئيسية المهمة التي انْبَنَت عليها هذه الرسالة، وهي عاقبة الصراع ونهاية أهل الباطل رغم ما يملكونه من النفوذ والقوى بمختلف أشكالها وصورها، لذلك فقد رأيت أن استعرض الآيات الواردة في سورة الشعراء حول نهاية فرعون وغرقه، لشمولها لمعظم تلك الأحداث، وأفصل القول فيها، والاستشهاد فقط إن لزم الأمر بآيات سور يونس وطه والدخان.

أقول ـ وبالله التوفيق والسداد ـ: لقد تمادى فرعون وقومه في ظلمهم وعنادهم رغم الآيات المتوالية التي ابتلاهم الله بها، ورغم وعودهم المؤكدة بأن يؤمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ وإرسال بني إسرائيل معه إلا أنهم عاودوا النكث ـ كما أسلفت ـ فعندئذ لم يبقَ لهم إلا العذاب والنكال، فأوحى الله ـ جل وعلا ـ إلى نبيه ـ عليه السلام ـ أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً دون أن يعلم أحد من الأقباط بذلك، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، وهذا هو ما يفهم من سياق القرآن الكريم عند قوله: ﴿ **وأوْحينا إلىٰ موسىٰ أنْ أسْر بعبادي إنَكُم مُتَبعُون** ﴾[1].

ورغم أن السرى معناه المشي ليلاً إلا أن الله ـ تعالى ـ نص على الليل كما في قوله تعالى: ﴿ **فأسْر بعبادي ليْلا إنَكُم مُتَبعُون** ﴾[2] لئلا ينازع فيه بنو إسرائيل متذرعين بالخوف والجهل بالمسالك، فبنوا إسرائيل وإن كانوا من سلالة الأنبياء إلا أنك سترى لهم عما قريب من العناد والكفر بعد ما رأوا الآيات البينات ما هو قبيح بشأنهم، وقد علل القرآن ذلك الاختيار بقوله: ﴿ **إنَكُم مُتَبعُون** ﴾ أي: من عدوكم فرعون وجنده، والليل من أعظم الحواجز التي يمكن أن يضلل به العدو عن مقصده. ولا يزال القتال الليلي في الحروب الحديثة مع تقدم الوسائل الحربية

(١) سورة الشعراء: الآية (٥٢).

(٢) سورة الدخان: الآية (٢٣).

غاية في الصعوبة، ولا شك في أن الله - تعالى - قد رسم لنبيه موسى - عليه السلام - كيفية مسراه والجهة التي يقصدها، والقرآن الكريم لم يتعرض للجهة المقصودة رأسًا؛ لأنها تفاصيل تخرج عن غرض القصة في القرآن من ناحية، إذ إن معرفة الجهة وتفصيل السير إليها ليس بالأهمية التي تستدعي أن ينزل بها وحي، فضلاً عن أنك ستعرفها من خلال مشاهد ستمر بك، وهذا من إعجاز القرآن المعجز؛ فهو كثيرًا ما يستغني بالإشارة عن كثرة العبارة، وبالكلمة عن القصة.

فعندما بلغ فرعون خبر خروجهم غاظه ذلك، وظن أنهم خرجوا ليجمعوا شملهم، ويستكملوا قوتهم ليعودوا إلى مهاجمته[1] واشتد غضبه على بني إسرائيل، وأمر في الحال بأن ينادي في مدائن مصر المشهورة.

قال تعالى: ﴿ **فأرسل فرعونُ في المدائن حاشرين** ﴾[2] وقد ضاق فرعون صدرًا بموسى وبني إسرائيل، ورغب في التخلص منهم بقتلهم والقضاء عليهم لئلا يتعرض في ظنه إلى نوع من أنواع العذاب الذي سلط عليهم فيما مضى، فإن ذلك العذاب ما كان يأتيهم إلا بمخالفتهم موسى - عليه السلام - وكلمة ﴿ **حاشرين** ﴾ توحي لك بإكراه فرعون المحشورين على مشاركته فيما يريد فعله[3] لأن معجزات موسى - عليه السلام - والنقم التي عوقب بها المصريون بسبب مخالفتهم له قد هزت قلوبهم جميعًا، وقلقلت مكانة فرعون عندهم، فأراد بهذا الفعل أن يبرهن على أنه هو المطاع طاعة مطلقة، وأن أحدًا من المصريين - باستثناء السحرة ومن آمن منهم - لم يشك في سلطانه، ولم يتأثر بما حدث، ثم قال فرعون لجنوده المحشورين ما قاله الله - تعالى -: ﴿ **إنَّ هؤلاء** ﴾ يعني بني إسرائيل

---

(١) النجار، محمد الطيب. تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية. (الرياض: مكتبة المعارف، ص ٢٠٨).

(٢) سورة الشعراء: الآية (٥٣).

(٣) انظر: تفسير النسفي، (٣/ ١٨٤).

﴿ لشرْذمةٌ ﴾ أي: جماعة قليلة، ثم بالغ في هذا التفصيل ﴿ قليلُون ﴾[١] ومراده بهذا القول أن ينزل من صدور جنوده الاستشعار بخطر القوم والتخوف من أن يصيبهم منهم أو بسببهم مكروه.

قال النسفي: «﴿ إنَّ هؤُلاء لشرْذمةٌ قليلُون ﴾: والشرذمة: الطائفة القليلة، وذكرهم بالاسم الدال على القلة، ثم جعلهم قليلاً بالوصف، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً واختار جمع السلامة الذي هو للقلة، أو أراد بالقلة الذلة لا قلة العدد أي: إنهم لقلتهم لا يُبالى بهم ولا تُتَوقع غلبتهم»[٢].

﴿ وإنَّهُمْ لنا لغائظُون ﴾[٣] لما يأتينا بسببهم مما قد يوحي بعجزنا أمامهم، وهذا أسلوب تحريض قصد به إيغار صدور جنوده على بني إسرائيل، ومحاولة تجنيبهم التفكير في ما يمكن أن يلحقهم من عذاب إلهي بدعوة موسى ـ عليه السلام ـ عليهم وكأن فرعون يقول لقومه: ليس خروجكم بهذه الكثافة وحشركم من كل مدينة لخوف من قوة بني إسرائيل بل لأننا قوم ﴿ حاذرُون ﴾ أي: يقظون مجددون حذرنا باستمرار، لا نسمح أن نُؤخذ على غرة، وفي ذلك من الكبر والغرور ما لا يخفى ﴿ وإنَّا لجميعٌ حاذرُون ﴾[٤].

وقد ذكر الله لنا ـ نحن المخاطبين من أمة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم مقدمة نهايتهم، وهي إخراج فرعون وجنده من بلدة ذات جنات وعيون، وأنهار جارية وكنوز وأموال كثيرة لا حصر لها، ومقام كريم، وعيش رغيد بهيج، ليعلمنا ـ تعالى ـ بذلك أن زوال النعم سببه الكفر وعدم الشكر، وأن فرعون وجنده ما كان لهم أن يخرجوا مما هم فيه من نعمة لمعركة ليسوا مضطرين إليها إلا

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٥٤).

(٢) تفسير النسفي، (٣/ ١٨٤، ١٨٥).

(٣) سورة الشعراء: الآية (٥٥).

(٤) سورة الشعراء: الآية (٥٦).

بتدبير من الله ـ تعالى ـ مما يدل على أن الحذر مع الكفر والمعاصي وشدة الاحتياط لا ينفعان فاعلهما شيئًا.

قال تعالى: ﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون (٥٧) وكنوز ومقام كريم** ﴾[١] وقال تعالى في سورة الدخان: ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون (٢٥) وزروع ومقام كريم (٢٦) ونعمة كانوا فيها فاكهين (٢٧) كذلك وأورثناها قوما آخرين** ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ **كذلك وأورثناها بني إسرائيل** ﴾[٣] أي: ملكناهم لهم تمليك الإرث[٤] والإيراث لا يكون إلا بعد زوال المالك الأصلي، وهو فرعون وقومه، أي بعد غرقهم. وعليه فالواو لمطلق الجمع، فلا تقتضي تعقيبًا.

ولقد اختلف المفسرون في زمن هذا الإيراث؛ فقد نقل الألوسي عن الواحدي أن الله ـ تعالى ـ رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لقوم فرعون من الأموال والعقار والمساكن.

وقد عقب عليه الألوسي بقوله: «وما ذكر عن الواحدي من أن الله ـ تعالي ـ رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه ظاهره وقوع ذلك من غير تطاول مدة»[٥]. ثم قال الألوسي: «وأظهر منه في هذا ما روي عن الحسن قال: لما عبروا البحر رجعوا، وورثوا ديارهم وأموالهم. ورأيت في بعض الكتب أنهم رجعوا مع موسى ـ عليه السلام ـ وبقوا معه في مصر عشر سنين، وقيل: إنه رجع بعضهم بعد إغراق فرعون، وهم الذين أورثوا أموال القبط وذهب الباقون إلى أرض الشام، وقيل: إنهم بعد أن جاوزوا البحر ذهبوا إلى الشام ولم يدخلوا مصر في حياة موسى ـ عليه السلام ـ وملكوها زمن سليمان ـ عليه السلام ـ.

(١) سورة الشعراء: الآيتان (٥٧، ٥٨).

(٢) سورة الدخان: الآيات من (٢٥) إلى (٢٨).

(٣) سورة الشعراء: الآية (٥٩).

(٤) تفسير الألوسي، (١٩/ ٨٣).

(٥) تفسير الألوسي، (١٩/ ٨٣).

والمذكور في التوراة التي بأيدي اليهود اليوم صريح في أنهم بعد أن جاوزوا البحر توجهوا إلى أرض الشام . . . »[١] .

قلت : وهناك وجه آخر في تفسير هذه الآية ﴿ **كذلك وأورثناها بني إسرائيل** ﴾ وهو أن الضمير في قوله : ﴿ **وأورثناها** ﴾ لا يعود على الجنات والعيون والكنوز التي في الآية بل أورثهم جنات وعيون وكنوز ومقام كريم عوضًا عنها حلت محل تلك الكنوز ، ففي الأرض التي بارك الله فيها ـ الأرض المقدسة ـ جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ، بل ربما فاقت ما في مصر[٢] .

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ : «ولا يُعرف أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة ، وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه لذلك يقول المفسرون : إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه ، فهي وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم»[٣] .

قلت : المسألة خلافية بين أهل التفسير ، وسأعود لتوضيح هذا الخلاف ، وأرجح ما أميل إليه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها** ﴾[٤] . . . الآية .

وهذا في القرآن له نظائر مثل قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾ وهو آدم ـ عليه السلام ـ ﴿ **ثم جعلناه نطفة في قرار مكين** ﴾[٥] فالضمير في ﴿ **جعلناه** ﴾ لا يعود على آدم ـ عليه السلام ـ بل يعود على جنس الإنسان باستثناء آدم ـ عليه السلام ـ .

---

(١) تفسير الألوسي ، (١٩/ ٨٣ ، ٨٤) .

(٢) انظر : تفسير سورة الأعراف . د/ محمد البهي .

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ، (٦/ ٢١٢) .

(٤) سورة الأعراف : الآية (١٣٧) وانظر من ص (٤٨٤) إلى ص (٤٩٢) من بحثنا هذا .

(٥) سورة المؤمنون : الآية (١٣) .

ونعود إلى تكملة تفسير آيات سورة الشعراء، وبيان نهاية فرعون وجنوده، ولما علم فرعون بخروج بني إسرائيل أتبعهم بجنوده قاصدًا أثرهم لئلا يفوتوه، وقد نص الله على وقت لحوقهم وهو وقت الإشراق - كما هو وارد في أحد الأقوال في معنى ﴿ مُشْرِقِين ﴾ - لبيان أن هذا الوقت لا تصلح فيه المعاصي وإنما المطلوب فيه التسبيح للواحد الأحد، الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، لكن فرعون وقومه من أهل الطغيان، لا من أهل الاعتبار فهم لا يفطنون لهذا المعنى، وكيف وقد كذبوا نبيهم - عليه الصلاة والسلام -؟

قال تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾[1] أي: فلحق فرعون وجنوده ببني إسرائيل وقت إشراق الشمس فقوله: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ أي: لحقوهم، يقال: تبعت القوم فأتبعتهم، أي: تلوتهم فلحقتهم، كأن المعنى: فجعلتهم تابعين لي بعد ما كنت تابعًا لهم، مبالغة في اللحوق.

وقال أبو عبيدة: «هو من أشرق: توجه نحو الشروق، كأنجد: توجه نحو نجد، وأعرق: توجه نحو العراق. والجمهور على الأول»[2] ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أي: تقاربا بحيث يرى كل واحد منهما صاحبه والجمعان هما القبط وبنو إسرائيل.

﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾[3] أي: بفرعون وجنوده وواقعون في قبضتهم إذ هم من خلفنا والبحر من أمامنا، فكيف، النجا؟ وهذا من بني إسرائيل يدل على ضعف يقينهم، وتزعزع إيمانهم، وأنهم لم يكونوا راغبين في الخروج مع موسى - عليه السلام -. إذ غاية ما يصيبهم لو وقعوا في قبضة فرعون الموت

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٦٠).

(٢) تفسير الألوسي، (١٩/ ٨٤)؛ وانظر: تفسير الرازي، (٢٤/ ١٣٨)؛ وانظر: ابن كثير (٣/ ٣٣٦)؛ وانظر: تفسير النسفي (٣/ ١٨٥).

(٣) سورة الشعراء: الآية (٦١).

والهلاك، وقد أنزله بأبنائهم مرارًا. فأي طعم للحياة بعد تقتيل الأبناء أمام الأعين؟ وأي ضرر عليهم في الموت لو ماتوا في مواجهة فرعون وجنده؟ إنهم حينئذ شهداء أحياء عند ربهم يرزقون. فأي الحياتين أولى: عند فرعون الجبار، أم عند العزيز الغفار؟

وقد استوحيت ذلك كله من قوله تعالى: ﴿ **قال أصحاب موسى** ﴾ فالإضافة في نظري تعني أن ما قالوه بعد ما عاينوا من نقم الله المنصبة على المصريين سابقًا ما كان يصح أن يصدر عنهم. فإن الله الذي أرسل على القبط الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطاعون - على قول من فسر الرجز بالطاعون - لهو قادر على إنجائهم رغم عدم تصورهم له بالسبل العادية، ولذا رد عليهم موسى - عليه السلام - ردًا فيه شدة وحدة وردع وزجر ﴿ **قال كلا** ﴾ أي: ارتدعوا عن ذلك القول ولا تعيدوه.

﴿ **إن معي ربي سيهدين** ﴾[1] ولم يقل معي ومعكم لأنهم بقولهم السالف لم يكونوا أهلاً للمعية[2].

وقوله: ﴿ **سيهدين** ﴾ أي: حالاً وعاجلاً إلى نجاتي ونجاتكم تبعًا لي مع أنكم لا تستحقونها، وقوله: ﴿ **فأوحينا إلى موسى** ﴾ أي: في هذه اللحظة الحرجة ﴿ **أن اضرب بعصاك البحر** ﴾ ﴿ **أن** ﴾ مفسرة إن جُعل الوحي بمعنى القول، أو مخففة من الثقيلة إن جعل الوحي بمعنى الإلهام، والمراد بقوله ﴿ **البحر** ﴾ أي: بحر القلزم[3] - المعروف حاليًا بالبحر الأحمر -، ولعله خليج السويس - فضرب موسى - عليه السلام - بعصاه البحر ﴿ **فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم** ﴾[4]

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٦٢).

(٢) انظر: تفسير الألوسي (١٩/ ٨٥).

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (١٩/ ٨٥)، وانظر: في ظلال القرآن، (٦/ ٢١١).

(٤) سورة الشعراء: الآية (٦٣).

فانفلق البحر طرقًا يابسة جامدة أرضًا طبيعية كأنها كذلك من ملايين السنين، والبحر على جانبي هذه الطرق ليطمئن بنو إسرائيل على اجتيازه بأمان، ولئلا يخالفوا نبيهم عندما يأمرهم باجتيازه، وحتى لا يزاحم بعضهم بعضًا في الاجتياز فإنها ولا شك لحظة رهيبة، قال الراغب الأصفهاني: «الفرق يقارب الفلق، لكن الفلق يقال اعتبارًا بالانشقاق، والفرق يقال اعتبارًا بالانفصال»[١].

وقال صاحب لسان العرب: «والفرق من الشيء إذا انفلق منه، ومنه قوله تعالى: ﴿ **فانفلق فكان كُلُّ فرْقٍ كالطَّوْدِ الْعظيم** ﴾ أراد: فانفرق البحر، فصار كالجبال العظام، وصاروا في قراره»[٢] وقوله: ﴿ **كالطَّوْدِ الْعظيم** ﴾ أي: كالجبل البالغ الشموخ في عنان السماء فكان كل فرق كالطود العظيم، وإنما فعل الله ذلك ليستوثق بنو إسرائيل من هذه الطرق فلا يخافوا من الاجتياز فهم أحرص على حياة، وليغري فرعون وجنوده بملاحقتهم والاطمئنان إلى الظفر بهم حتى يهلكوا عن آخرهم عندما يعود البحر إلى سيرته الأولى وينجو بنو إسرائيل.

ولذا قال تعالى: ﴿ **وأزلفْنا ثمَّ الآخرين** ﴾[٣] أي: قربنا فرعون وجنوده إلى البحر المحول ليحيط بهم عن آخرهم ﴿ **وأنجينا موسىٰ ومن معهُ أجمعين** ﴾[٤] من بني إسرائيل، ومَن خرج معه من المؤمنين المصريين، وقد طمأن الله قلب نبيه موسى - عليه السلام - بما قصه في سورة طه: ﴿ **لاَّ تخافُ دركًا ولا تخْشى** ﴾[٥] أي: لا تخاف أن يدركك عدوك، ولا تخشى أن ينالك الغرق. وانظر إلى هذه المعجزة العظيمة التي كانت كفيلة برد فرعون وجنده عن طغياهم ومع ذلك لم يستفيدوا منها لأن طرق الحق إلى بصائرهم قد طمست.

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، ص (٣٧٧).

(٢) لسان العرب، (١٠/ ٣٠٠).

(٣) سورة الشعراء: الآية (٦٤).

(٤) سورة الشعراء: (٦٥).

(٥) سورة طه: الآية (٧٧).

هذا وقد أراد موسى ـ عليه السلام ـ بعد مرور قومه أن يضرب البحر بعصاه ليعود كما كان فأمره ـ تعالى ـ أن يتركه ساكنًا على هيئته قال تعالى: ﴿ **واترك البحر رهوا** ﴾ أي: ساكنًا على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة ﴿ **إنهم جند مغرقون** ﴾ قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ بعد تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون** ﴾[1]: «فلما تركه على هيئته وحالته، وانتهى فرعون، فرأى ما رأى وعاين ما عاين، هاله هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنده تجليدًا، وعاملهم معاملة العدا، وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي الخارجين على طاعتي وبلدي، وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم، ويرجو أن ينجو ـ وهيهات ـ ويقدم تارة، ويحجم تارات»[2].

ثم إنه عزم على اللحاق بموسى وقومه، فنزلوا البحر ليلحقوا بهم حتي إذا تم نزولهم جاء أمر الله فانطبق البحر عليهم، وداهمتهم أمواجه العالية، وحق عليهم الغرق، وكانوا من الهالكين، وحينئذ صاح فرعون يلتمس النجاة من شدة الهول الذي أحاط به كما قصه الله ـ سبحانه ـ. ﴿ **حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾[3].

وقوله الذي حكاه الله عنه يحتمل أنه أراد به أن ينجو من الغرق كما تعود من قبل على النجاة من الطوفان وما تلاه من الآيات التي سبق تفصيلها فنجاته حينئذ

---

(١) سورة الدخان: الآية (٢٤).

(٢) قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير (٢/ ٨٠).

(٣) سورة يونس: الآية (٩٠).

بالإقرار بما جاد به موسى ـ عليه السلام ـ أولى في نظره لتحصيل النجاة له.

ويحتمل أنه قال ذلك ليكون من الناجين في الآخرة عند ربه بعد ما ذهب عنه ملكه وسلطانه فلا يخسر الآخرة كما خسر الدنيا. والاحتمال الثاني أرجح في نظري لقوله تعالى: ﴿ **وأنا من المسلمين** ﴾ وقد بيَّن الله له أن قوله هذا لا ينفعه في هذه اللحظة في العودة إلى الدنيا، لأن أجله قد انقضى ﴿ **ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها** ﴾[1] كما أنه لا ينفعه في الآخرة لأنه قاله بعد ما حضره الموت، فلم يقله اختيارًا بل اضطرارًا، والإيمان الاضطراري لا يقبل من صاحبه، قال تعالى: ﴿ **آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** ﴾ والمعنى: أتؤمن الآن وفي وقت لا ينفع فيه الإيمان؟! وقد فاتك عقلك وقت أن كنت تأتي المعصية ولا تستحي قبل أن يحل عليك الغرق، وكنت إمامًا للمفسدين في الأرض بتكذيب آياتي ورسلي وما كان يصدر منك من طغيان بلغ إلى حد ادعائك الربوبية[2] فوضعك ماضيًا وحالا يحول بينك وبين رحمتنا، فكيف ترجوها بعد أن فوّتَّ على نفسك أسبابها؟

ثم بين تعالى صنعه بفرعون من بين سائر المغرقين معه ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك** ﴾ أي: نلقي بك بعدوة من الأرض بدنًا لا روح فيه ليعلم من عبدوك ومن أضللتهم حقارتك وضعفك، أو ببدنك سليمًا لم يأكل منه السمك ولم تحطمه الأمواج ليعلم من رآك أنك أنت بعينك فلا يشك فيما نزل بك وأنك من الهالكين، وقيل: ببدنك، أي: بدرعك. وتعليل ذلك هو نفس التعليل السابق[3].

---

(١) سورة المنافقون: الآية (١١).

(٢) فقد قصَّ القرآن الكريم قوله: ﴿ **ما علمت لكم من إله غيري** ﴾ سورة القصص: الآية (٣٨). وهو الذي كان يحشر قومه وينادي بهم بقوله: ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ سورة النازعات: الآية (٢٤).

(٣) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ١٧٥).

وقد فعل الله به ذلك ليكون آية لمن خلفه، قيل: هم بنو إسرائيل، فإنهم تشككوا في قول نبيهم له إنه غرق، فألقى الله به على الشاطيء الذي يليهم ليعاينوا ذلك بأنفسهم فيزول عنهم الشك، أو ﴿ **لمن خلفك** ﴾ أي: لمن بعدك من القرون الآتية لعلهم يرتدعون بما فعل بك[1].

أو ﴿ **لمنْ خلْفك** ﴾ أي: للمصريين الذين لم يخرجوا معك، ليعلموا نهايتك، وليستشعرو المنة في تجنبهم ما نزل بك. وقلبي يميل إلى هذا الرأي والذي قبله خصوصًا إذا عرفنا براعة المصريين في فن التحنيط الذي يؤدي إلى بقاء الأجساد آلاف السنين كما نشاهده الآن.

قال تعالى: ﴿ **فالْيوْم نُنجّيك ببدنك لتكُون لمنْ خلْفك آية** ﴾ أي: آية دالة على عقاب الله للمكذبين وشديد انتقامه منهم، كما قال تعالى: ﴿ **ولقدْ جاء آل فرْعوْن النُّذُرُ (٤١) كذّبُوا بآياتنا كُلّها فأخذْناهُمْ أخْذ عزيز مُقْتدر** ﴾[2].

فكان ولا يزال عبرة على مر الليالي، ليعرف الناس جميعًا أن الباطل ليس له قرار، وأن الملك والعباد دائمًا لله الواحد القهار.

وكل ما فصلته في هذه النهاية هو الموجز المجمل في سورة الأعراف موضوع بحثي في قوله تعالى: ﴿ **فانتقمْنا منْهُمْ فأغْرقْناهُمْ في الْيمّ بأنّهُمْ كذّبُوا بآياتنا وكانُوا عنْها غافلين** ﴾[3].

* * *

(١) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ١٧٥).

(٢) سورة القمر: الآيتان (٤١، ٤٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٣٦).

المبحث الخامس عشر
منة الله - تعالى - على بني إسرائيل بتمكينهم من الأرض المباركة - بلاد الشام أو أرض مصر على ما قيل -

قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾[1].

فقوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ ﴾ أي: ملكناهم الأرض ومكناهم منها بقدرتنا، حيث قهرنا لهم أعداءهم بإغراق فرعون وجنوده في اليم، ونصرناهم على الجبارين في أرض الشام، الذين طغوا فيها وطمسوا معالم التوحيد الذي أظهره الله في هذه الأرض على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام -.

والإرث والإيراث: هو صيرورة الشيء إليك ملكًا بعد أن كان مملوكًا لغيرك إما بموت المورث، أو بالغلبة على المالك ونزع ما بيده[2].

وعَنْوَ لبني إسرائيل بكلمة ﴿ الْقَوْمَ ﴾ التي معناها الجماعة[3] الزائدة عن النفر والرهط التي تعني القلة والكثرة على السواء، لبيان لطفه - تعالى - بهم حيث غير حالهم من المذلة والمهانة إلى رفعة المكانة.

ولقد كان بنو إسرائيل بمصر كثيري العدد، ولكن تأثرهم بالمصريين

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٧).

(٢) انظر: لسان العرب (٢/ ١٩٩ - ٢٠١).

(٣) انظر: لسان العرب (١٢/ ٥٠٥).

وعوائدهم أفقدهم مكانتهم ومكن لعدوهم منهم، ولو كانوا على الجادة ما نكبوا على يد فرعون بما نكبوا به، ولو لزموا دين آبائهم؛ لأثّروا في غيرهم ولكانوا هم السادة، ولكن اليهود في كل عصر ينكبون بتركهم التوحيد، وخروجهم على شرائع الله - تعالى - فتلزمهم المهانة والخسة، ويستعبدهم غيرهم، ولقد أمهلهم الله كثيراً، فكلما نكبوا رحمهم وتاب عليهم، ورد لهم قوتهم ومكن لهم من أعدائهم، فلما علم الله أنه لا خير فيهم، وأنهم لا يعتبرون بما ضيهم ضرب عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله؛ لأنهم كانوا يكفرون بآيات الله دائماً، ويقتلون النبيين بغير الحق، ولا يمكن أن يكون قتل نبي بحق.

والتاريخ يعيد نفسه فها هم الآن يعيثون في أرض فلسطين فساداً، فبدلاً من أن يدخلوا في عداد الموحدين، ويؤمنوا بخاتم النبيين، استبدلوا ذلك بالإفساد في الأرض، والاجتهاد في الفسوق، والكفر بسائر الأنبياء، وقاصمتهم آتيةٌ لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً؛ فقد توعدهم الله - جل وعلا - بذلك حيث قال مخاطباً حبيبه ونبيه، ومسلياً قلبه مما سوف يحصل لليهود على يد أمته فقال: ﴿ **وإذْ تأذّن ربُّك ليبعثنّ عليهم إلىٰ يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب** ﴾[1] فهم أشبه بإبليس، هيهات أن يتوب الله عليهم كأمة، وإن آمن بالإسلام قليل منهم، قال تعالى: ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** ﴾[2].

وكلمة ﴿ **القوم** ﴾ - في نظري - توحي بأنهم ما كانوا ليغلبوا بفرعون لو لزموا التوحيد، ومعنى ﴿ **يستضعفون** ﴾ أي: يستذلون ويهانون على يد فرعون بالعذاب الشديد الذي تكرر ذكره مراراً في القرآن، والذي ذكر الله به اليهود في عهد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ليعلموا أن سلامتهم في اتباع هذه النبي

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٧).

(٢) سورة البقرة: الآية (٧٥).

العظيم كما كانت سلامتهم في اتباع الكليم، من قبل - صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا أفضلهما وأتمهما - ولكنهم لم يعتبروا بذلك ﴿ **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾[١].

ومن الطريف أنهم لما رغبوا في عبادة الأصنام في عهد نبيهم موسى - عليه السلام - وعظهم بهذه الموعظة التي ستأتيك عند التعرض لهذا الموضوع[٢].

وقوله تعالى: ﴿ **مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** ﴾ أي: مكناهم منها، وقد اختلف المفسرون في الأرض التي ورثوها، وسألخص هذا الخلاف مرجحًا ما غلب على قلبي أنه الصواب. والله الموفق وهو الفتاح العليم.

يرى كثير من المفسرين أن المراد بالأرض التي مكنوا من مشارقها ومغاربها هي أرض الشام؛ أرض آبائهم الأولين: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب. لما روي ذلك عن الحسن[٣] وقتادة، وزيد بن أسلم.

ويرى بعضهم أن المراد بذلك أرض الشام وأرض مصر كما نقل الألوسي ذلك عن محيي السنة، البغوي - رحمه الله -.

وهناك رأي ثالث: وهو أن المراد بتلك الأرض هي أرض مصر وإلى ذلك ذهب الجبائي، ورواه أبو الشيخ عن الليث بن سعد[٤].

والذين قالوا بهذا الرأي الأخير ومنهم الواحدي - كما أسلفت -[٥] استدلوا

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤٩).

(٢) انظر: ص (٤٩٥، ٤٩٦) من بحثنا هذا.

(٣) انظر: تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف من تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ الرازي، دراسة وتحقيق الزميل الشيخ/ حمد بن أحمد بن أبي بكر، (٢/ ٤٦١، ٤٦٢).

(٤) انظر: الألوسي، (٩/ ٣٧).

(٥) انظر: ص (٤٧٦) من بحثنا هذا.

بقوله تعالى: ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون (٢٥) وزروع ومقام كريم (٢٦) ونعمة كانوا فيها فاكهين (٢٧) كذلك وأورثناها قوما آخرين** ﴾[١] فالضمير يعود على الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم الذي كان لقوم فرعون، أورثه الله لبني إسرائيل.

قال الواحدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ **كذلك وأورثناها بني إسرائيل** ﴾[٢]: «إن الله - تعالى - رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لقوم فرعون من الأموال والعقار والمساكن»[٣]، وعلى هذا القول يكون معنى الآية: أورثنا المستضعفين أرض مستضعفيهم[٤].

والذين قالوا بإرث أرض مصر مع أرض الشام استشعروا أن بني إسرائيل لم يُعرف أنهم دخلوا مصر بعد أن خرجوا منها لأنهم استقروا بسيناء وحال البحر بينهم وبين الرجوع، كما أن الرجوع إليها لم يكن مقصودًا لموسى - عليه السلام - بل كان قصده كما صرح به القرآن الكريم دخول الأرض المقدسة، التي كتبها الله لهم ما داموا مسلمين موحدين، فإن حادوا فلا بقاء لهم فيها، قال تعالى: ﴿ **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين** ﴾[٥].

ولذا حاول هذا البعض أن يفسروا إرث بني إسرائيل بتفسير يمكن قبوله فقالوا: المراد أن مصر صارت تبعًا لملك بني إسرائيل بعد أن استقروا في الشام في عهد يوشع بن نون[٦] أو أنها كانت تابعة لملك داود وسليمان - عليهما السلام -

---

(١) سورة الدخان: الآيات من (٢٥) إلى (٢٨).

(٢) سورة الشعراء: الآية (٥٩).

(٣) تفسير الألوسي، (١٩/ ٨٣).

(٤) تفسير الألوسي، (٩/ ٣٧).

(٥) سورة المائدة: الآية (٢١).

(٦) يوشع بن نون: هو الخليل يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم =

وكلا التعليلين ضعيف؛ أما الأول فلأن المصريين كتبوا تاريخهم في هذه الحقب وما بعدها وما قبلها، فلم يوجد فيه تبعتهم لبني إسرائيل لا في عهد يوشع بن نون ولا في عهد سليمان بن داود، وعلى فرض حصول التعليل الثاني فكان ذلك لأحفادهم، ونص الآية التي بين أيدينا ﴿ **وأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ** ﴾ وبنو إسرائيل وإنْ استضعفوا قبل داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ إلا أن السياق في سورة الأعراف يدل على استضعاف فرعون لهم لا للجبارين بأرض الشام بعد يوشع بن نون ـ عليه السلام ـ.

والذي أرجحه أن المراد بالأرض التي أورثوا مشارقها ومغاربها أرض الشام لا غير، والذي يؤيد ما ذهبت إليه ما يلي:

أولا: لقوله ـ تعالى ـ في نفس الآية: ﴿ **الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** ﴾ ولقوله ـ تعالى ـ في سورة الأنبياء في قصة إبراهيم: ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ** ﴾[1] ولقوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾[2] فمجموع هذه الآيات يقضي بأن تلك الصفة التي في آية الأعراف هي لأرض الشام لا لأرض مصر، وإذا شاركت أرضُ مصر أرض الشام في الخصب والنماء وجريان الأنهار فإنها لم تشاركها في كونها مساكن لكثير من الأنبياء، ولم تشاركها في ضم بيت المقدس كما هو الحال بأرض الشام[3].

= ـ عليه السلام ـ وهو فتى موسى ـ عليه السلام ـ المذكور في قوله تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لفتاه ﴾ وقوله: ﴿ **فلما جاوزا قال لفتاه** ﴾ واختُلف في نبوته. انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ص(١٨٦) تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

(١) سورة الأنبياء: الآية (٧١).

(٢) سورة الإسراء: الآية (١).

(٣) أخرج ابن عساكر عن ضمرة بن ربيعة قال: «سمعت أنه لم يُبعث نبي إلا من الشام فإن لم يكن منها أسري به إليها» كما فعل الله بخاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٣٨).

ثانيا: لقوله ـ تعالى ـ في هذه الآية نفسها: ﴿ **ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾ فما معنى إرث أرض مدمرة، تعاقب عليها ألوان العذاب بتكذيبهم لنبيهم موسى ـ عليه السلام ـ، فلا شك أن القول بتفسير الأرض بمصر بعيد؛ وعليه فالقول الأول القائل بأن قوله: ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها** ﴾ المراد بها أرض الشام.

وقد ملت إلى ما رجحه الإمام الألوسي وغيره، فقال ـ رحمه الله ـ: «وأقول: قد يقال: المراد بالأرض هنا وفيما تقدم من قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ **عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض** ﴾[1] الأرض المقدسة التي طلب موسى ـ عليه السلام ـ من فرعون بني إسرائيل ليذهب بهم إليها، فإنها موطن آبائهم فيكون موسى ـ عليه السلام ـ قد وعدهم هلاك عدوهم المانع لهم من الذهاب إليها، وجعل الله ـ تعالى ـ إياهم خلفاء فيها بعد آبائهم وأسلافهم، أو بعد من هي في يده إذ ذاك من العمالقة، ثم أخبر ـ سبحانه ـ هنا أن الوعد قد نجز: وقد أهلكنا أعداء أولئك الموعودين، وأورثناهم الأرض التي منعوهم عنها، ومكناهم فيها وفي حصول بغية موسى ـ عليه السلام ـ وما ألطف توريث الأبناء مساكن الآباء!»[2].

وقوله: ﴿ **وأورثنا** ﴾ أورث يتعدى إلى مفعولين أولهما ﴿ **القوم** ﴾ وثانيهما ﴿ **مشارق الأرض ومغاربها** ﴾ ليبين تمكينه ـ تعالي ـ لبني إسرائيل في جميع نواحيها، وذكر الجهات الأصلية يستلزم الجهات الفرعية، وقد اختلف المفسرون في حدود الشام[3] وذكروا أحاديث في فضل الشام، ومن أفضل ما اطلعت عليه

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

(٢) تفسير الألوسي، (٩/ ٣٧).

(٣) حدد الجغرافيون حدود الشام بأنها يحدها من الشرق نهر الفرات ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط.

كتاب: ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام، تأليف الإمام أبي محمد عبد العزيز بن عبد السلام[١].

ومعنى: ﴿ **الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** ﴾ أي: باركنا بكثرة خروج الأنبياء منها، وبكثرة الخصب وجريان الأنهار، فالبركة فيها مادية ومعنوية.

وقوله: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا** ﴾[٢] يعني: تفضله ـ جلَّ وعلا ـ عليهم، وإكرامه لهم بردهم إلى أرض آبائهم وإهلاك عدوهم.

قال الألوسي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ ...** ﴾: أي مضت عليهم واستمرت، من قولهم: مضى على الأمر إذا استمر، والمراد من الكلمة وعده ـ تعالى ـ لهم بالنصر والتمكين على لسان نبيه ـ عليه السلام ـ وهو قوله: ﴿ **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ...** ﴾ الآية.

وذهب غير واحد إلى أنه الوعد الذي يؤذن به قوله ـ سبحانه ـ ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾[٣] قلت: والفرق بين الآيتين هو سبق الوعد لهم بجعلهم أئمة، والتمكين لهم في الأرض، والانتقام من فرعون بسببهم قبل ولادة موسى ـ عليه السلام ـ وبعثه.

---

(١) رسالة صغيرة طبعت حديثًا بتحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي الميادين، بيروت، مكتبة المنار. ترجمة: الإمام العلامة شيخ الإسلام عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام المغربي أصلاً، الدمشقي مولدًا، المصري داراً ووفاةً، المعروف بـ: العز بن عبد السلام ولد سنة ٥٧٧ هـ، برع في الفقه على مذهب الإمام الشافعي وله مؤلفات عديدة، وتوفي ـ رحمه الله ـ في العاشر من جمادي الأولى سنة ستين وستمائة من الهجرة ودفن في مصر. انظر: الأعلام للزركلي، (٤/ ٢١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٧).

(٣) سورة القصص: الآية (٥).

وعلى آية الأعراف فالوعد حاصل لهم من حين شكواهم لموسى ما يلقون من فرعون كما سبق تفسيره[١] ولا مانع من سبق الوعد لهم بذلك قبل ظهور سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ فيكون قوله تعالى: ﴿ **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ** ﴾ هو تكراراً لهذا الوعد.

وقيل: المراد بها علمه تعالى الأزلي، والمعنى: مضى واستمر عليهم ما كان مقدراً من إهلاك عدوهم وتوريثهم الأرض و ﴿ **الْحُسْنَىٰ** ﴾ تأنيث الأحسن، صفة للكلمة، ووصفت بذلك لما فيها من الوعد بما يحبون ويحسنون . . . والتفت من التكلم إلى الخطاب في قوله سبحانه: ﴿ **رَبِّكَ** ﴾ على ما قال الطيبي؛ لأن ما قبله من القصص كان غير معلوم له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأما كونه جل شأنه منجزاً لما وعد، ومجرياً لما قضى وقدر، فهو معلوم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقوله: ﴿ **بِمَا صَبَرُوا** ﴾ أي: بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه، وحسبك بهذا حاثاً على الصبر، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع وكّله الله ـ تعالى ـ إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله ـ تعالى ـ له الفرج.

وقوله: ﴿ **وَدَمَّرْنَا** ﴾ أي: خربنا وأهلكنا.

﴿ **مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ** ﴾ في أرض مصر من العمارات والقصور، أي دمرنا الذي كان يصنعه فرعون وقومه.

﴿ **وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** ﴾ من الجنات، أو: ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان»[٢].

* * *

(١) انظر: ص (٤٥٥، ٤٥٦) من بحثنا هذا.

(٢) نقل بتصرف من تفسير الألوسي (٩/ ٣٨، ٣٩).

القسم الثاني
الصراع بين موسى ـ عليه السلام ـ وبني إسرائيل[١]

وفيه مباحث:

المبحث الأول: جحود بني إسرائيل لنعم الله وطلبهم من نبيهم أن يجعل لهم صنمًا يعبدونه من دون الله.

المبحث الثاني: تهيئة الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ لتلقي التوراة.

المبحث الثالث: طلب موسى ـ عليه السلام ـ من ربه الرؤية.

المبحث الرابع: اختلاف أهل السنة والمعتزلة في وقوع رؤية الله.

المبحث الخامس: تسلية موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن مُنع من الرؤية وذكر بعض نعم الله عليه.

المبحث السادس: تحذير بني إسرائيل بتجنب مسالك الهالكين والضالين.

المبحث السابع: عبادة بني إسرائيل للعجل في غيبة موسى ـ عليه السلام ـ وعدم انتفاعهم بما وعظمه الله به.

---

(١) يرجع تسميتهم ببني إسرائيل إلى الأصل الذي ينسبون إليه وهو سيدنا يعقوب ـ عليه السلام ـ الملقب بإسرائيل حفيد إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإسرائيل: كلمة عبرانية مركبة من (إسرا) بمعنى عبد أو صفوة، ومن (إيل) وهو الله فيكون معنى الكلمة: عبد الله، أو: صفوة الله. انظر كتاب: بنو إسرائيل في القرآن والسنة د. محمد سيد طنطاوي. الطبعة الأولى، (القاهرة: دار حراء، ١٣٨٨هـ)، ص(١ ـ ٦).

المبحث الثامن : ندم قوم موسى على عبادتهم العجل .

المبحث التاسع : توبيخ موسى ـ عليه السلام ـ لقومه على عبادتهم العجل .

المبحث العاشر : لوم موسى ـ عليه السلام ـ لأخيه هارون ودفاع هارون عن نفسه .

المبحث الحادي عشر : اعتذار موسى لربه عما بدر منه لأخيه .

المبحث الثاني عشر : نقمة الله ـ جل وعلا ـ على من لم يعتذر إلى ربه عن عبادة العجل وتوبته على المعتذرين .

المبحث الثالث عشر : حرص موسى ـ عليه السلام ـ على الألواح وشدة تعلقه بها .

المبحث الرابع عشر : منة الله ـ جل وعلا ـ على صلحاء بني إسرائيل .

المبحث الخامس عشر : ثناء الله ـ تعالى ـ على صلحاء بني إسرائيل .

المبحث السادس عشر : نعم الله على بني إسرائيل في التيه وكفرانهم تلك النعم .

المبحث السابع عشر : مخالفة أخرى شنعاء من مخلفات بني إسرائيل .

المبحث الثامن عشر : جناية أخرى من جنايات بني إسرائيل في عهد موسى ـ عليه السلام ـ .

* * *

المبحث الأول
جحود بني إسرائيل لنعم الله

قال تعالى: ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون (١٣٨) إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون (١٣٩) قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين (١٤٠) وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾[١].

قوله: ﴿ وجاوزنا ﴾ أي: قطعنا ببني إسرائيل البحر، والنون في قوله: ﴿ وجاوزنا ﴾ نون العظمة ﴿ ببني إسرائيل البحر ﴾ المراد به بحر القلزم المعروف حاليًا بالبحر الأحمر عند خليج السويس.

وفي الآية تذكير لبني إسرائيل بنعم الله ـ تعالى ـ عليهم بعد أن أغرق عدوهم ونجاهم من أعدائهم، وكيف أنه سيرّهم في البحر بعدما صار يبسًا، فبماذا قابل بنو إسرائيل هذه النعم العظيمة؟

وقوله تعالى: ﴿ فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴾ الاعتكاف والعكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له[٢] ومعنى الآية: فبعد أن قطع بنو إسرائيل البحر مع نبيهم في سلامة واطمئنان وأمان مروا على قوم يلازمون ويواظبون على تعظيم وعبادة أصنام صنعوها بأيديهم، ونصبوها

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (١٣٨) إلى (١٤١).

(٢) انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ص (٣٤٢، ٣٤٣).

آلهة لهم يعبدونها من دون الله ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي: عندما شاهد ذلك بنو إسرائيل السائرين مع موسى - عليه السلام - ﴿ **يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** ﴾ هذه الآية الكريمة تصور جحود بني إسرائيل لنعم الله ونسيانهم لما كانوا فيه من ذل واستعباد، وكيف أنهم فضلوا عبادة الأصنام على عبادة خالقهم - جل وعلا -.

فقوله: ﴿ **اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا** ﴾ أي: اصنع لنا صنمًا نتخذه إلهًا ﴿ **كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** ﴾ الكاف متعلقة بمحذوف وقع صفة لإلهًا و(ما) موصولة و﴿ **لَهُمْ** ﴾ صلتها و﴿ **آلِهَةٌ** ﴾ بدل من الضمير المستتر فيه.

والتقدير: اجعل لنا إلهًا كائنًا كالذي استقر هو لهم[1].

وقوله: ﴿ **قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴾ وللألوسي كلام نفيس في تفسير هذه الآية، قال - رحمة الله -: «تعجب - عليه السلام - من قولهم هذا بعدما شاهدوه من الآية الكبرى والبينة العظمى، فوصفهم بالجهل على أتم وجه حيث لم يذكر له متعلقًا ومفعولاً لتنزيله منزلة اللازم، أو لأن حذفه يدل على عمومه، أي تجهلون كل شيء، فيدخل فيه الجهل بالربوبية بالطريق الأولى، وأكّد ذلك بـ (إن)، وتوسيط قوم، وجعل ما هو المقصود بالإخبار وصفًا له»[2].

ولم يكتف نبيهم - عليه السلام - بوصفهم بالجهل المطلق بل أخذ يبين لهم عاقبة من تمنوا أن تكون لهم آلهة مثل آلهتهم، فقال لهم - عليه السلام - لعل مَن به رشد منهم أن يثوب إلى رشده: ﴿ **إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾.

وإنما جَهَّل بني إسرائيل أولاً قبل أن يبين لهم عاقبة الأصنام وعابديها ليشعرهم بشديد غفلتهم عمن أنعم عليهم بجلائل النعم التي منها:

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (٩/ ٤٠).

(٢) تفسير الألوسي (٩/ ٤١).

تجاوزهم البحر وتحويله إلى طريق يبس، وتأمينهم من الغرق كما فعل بعدوهم - كما أسلفت - ولو استصحبوا ذكر هذه النعمة لما كفوا عن ذكر الله وشكره، ولما اشتهت أنفسهم هذا الانحطاط المخزي بأن يعبدوا الأصنام التي لا تشعر بعبادتهم، ولا تدبر من أمرهم شيئًا، ويكفرون بالرحمن الذي خلع عنهم ثوب الذل بتخليصهم من يد فرعون وإهلاكه، وبإكرامهم بموسى - عليه السلام - وبإرجاعهم إلى التوحيد دين آبائهم الكرام يعقوب وإسحاق وإبراهيم.

والواقع أن بني إسرائيل قد انسلخوا من دينهم في مصر تمامًا فيما أظن، وتعَّودوا عبادة ما يعبده المصريون من تأليه الهياكل والحيوانات كما عُرف في تاريخهم القديم، وما الذل الذي نزل عليهم من فرعون وقومه إلا نقمة منه - جل وعلا - لانحرافهم عن دين آبائهم، وما طلب موسى من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل إلا ليصلح فساد قلوبهم وليردهم إلى الصواب. فلا عجب إذن أن تراهم يطلبون من نبيهم هذا الطلب، وقد مر بنا قوله تعالى: ﴿ **قالُوا أُوذينا من قبْل أن تأْتينا ومن بعْد ما جئْتنا** ﴾[1] وهذا القول منهم يدل على تململهم وعدم صبرهم مع موسى - عليه السلام - حتى يأتي موعد هلاك عدوهم، فإنهم يعلمون تحقق نصرة الله لأنبيائه، وقد رأوا منها على يد موسى بانقلاب العصا حية، وبإيمان السحرة واستعلائهم على تهديد فرعون ما كان يكفيهم لو كانوا طلاب حق وأهل دين. وسنراهم فيما سيأتي من الآيات يقعون في عبادة عجل مصنوع، صنعه لهم السامري من حليهم التي كانوا يلبسونها، كما سيمر بنا تفصيله، مما يدل على أن هذا الجيل كان غاية في الفساد والاستعصاء والتمرد بدليل ما جاء في قصة البقرة من قولهم لنبيهم لما أخبرهم بأن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة: ﴿ **قالُوا أتتَّخذُنا هُزُوا** ﴾[2] وهذا يدلك على غاية جهلهم بالنبوة؛ إذ الأنبياء يستحيل أن يصدر

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

(٢) سورة البقرة: الآية (٦٧).

عنهم الهزء البتة لأنه نوع من الجهل والسفاهة وهم عن ذلك وغيره معصومون.

وقوله - تعالى - على لسانهم في آخر القصة: ﴿ **قالُوا الآن جئْت بالْحقّ فذبحُوها وما كادُوا يفعلُون** ﴾[1] فهذا اتهام صريح منهم لنبيهم - عليه السلام - بأن ما أخبرهم به ليس بحق مع أنه قوله - عز وجل - في كل مرة؛ إذ هم لما سألوا عن الماهيّة قال موسى - عليه السلام - لهم: ﴿ **إنّهُ يقُولُ إنّها بقرةٌ لاّ فارضٌ ولا بكْرٌ عوانٌ بين ذلك فافعلُوا ما تؤمرُون** ﴾[2] ولما سألوا عن اللون قال الله لهم: ﴿ **إنّها بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لوْنُها تسرُّ النّاظرين** ﴾[3] ولما تحيروا في ذوات اللون الواحد قال الله لهم: ﴿ **إنّها بقرةٌ لاّ ذلُولٌ تثيرُ الأرض ولا تسقي الْحرْث مُسلّمةٌ لاّ شيةَ فيها** ﴾[4] ولو ذبحوا من أول الأمر أي بقرة لأدوا ما أمروا به، ولكن حياتهم في مصر حولت قلوبهم عن الحق وطباعهم عن الخير.

وبدليل اعتذارهم عن دخول الأرض المقدسة حتى يخرج مَن فيها من الجبارين لأن طبائعهم تأبى الجهاد، وقد ألفوا الخنوع في مصر إلى حد يشبه الاستبعاد حتى قال نبيهم موسى - عليه السلام - لربه: ﴿ **قال ربّ إنّي لا أملكُ إلاّ نفسي وأخي** ﴾[5].

فقوم هذا حالهم لا يستغرب منهم هذا الطلب لأنهم كما قال نبيهم: قوم يجهلون، أي: متصفون بالجهل بعامة، وهم لا ينفكون عن هذا الوصف.

قال تعالى: ﴿ **قالُوا يا مُوسى اجْعل لّنا إلهًا كما لهُمْ آلهةٌ قال إنّكُمْ قوْمٌ**

---

(١) سورة البقرة: الآية (٧١).

(٢) سورة البقرة: الآية (٦٨).

(٣) سورة البقرة: الآية (٦٩).

(٤) سورة البقرة: الآية (٧١).

(٥) سورة المائدة: الآية (٢٥).

تجهلون ﴾[١].

فقوله: ﴿ إنَّ هؤلاء مُتبَّرٌ ما هُمْ فيه ﴾ أي: مدمر ومهلك ما هم فيه بسبب انحرافهم عن الفطرة، واتباعهم لعبادة آلهة هي عاجزة عن نفع ذاتها فكيف يأملون في نفعها؟

﴿ وباطلٌ ﴾ أي: زاهق ومضمحل بالكلية[٢].

﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الإشراك بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وعبادتهم لتلك الأصنام التي طلبوا عبادتها، ثم لم يكتف موسى ـ عليه السلام ـ بتذكيرهم بهلاك وبطلان ما فيه هؤلاء القوم بل ذكرهم بنعم الله عليهم مما يستدعي الإنكار عليهم غاية الإنكار في طلبهم أن يكون لهم إله كما لهؤلاء القوم الذين مروا عليهم آلهة.

ولذا ساق موسى ـ عليه السلام ـ القول لهم بأسلوب الإنكار الشديد عن هذا الطلب السخيف ﴿ قال أغيرَ اللهِ أبْغيكُمْ إلهًا ﴾ أي: أأطلب لكم إلهًا سواه؟ وكيف يكون ذلك مني وأنا رسوله أرسلني بدينه الحق والجهاد على توحيده؟ وكيف تطلبون أنتم إلهًا غيره وهو فضلكم على عالمي زمانكم بإرسالي إليكم، أو فضلكم على كثير من العالمين بأن جعل آباءكم أبناء أنبياء؟

قال الألوسي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قال أغيرَ اللهِ أبْغيكُمْ إلهًا ﴾: «قيل: هذا هو الجواب[٣] وما تقدمه مقدمة وتمهيد له، ولعله لذلك أعيد لفظ ﴿ قال ﴾ وقال شيخ الإسلام[٤]: هو شروع في بيان شؤون الله ـ تعالى ـ الموجبة

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٨).

(٢) انظر: الألوسي (٩/ ٤١).

(٣) أي: الجواب عن سؤالهم ﴿ واجعل لنا إلها كما لهم ءالهة ﴾.

(٤) المقصود به الشيخ العلامة محمد بن محمد العمادي، أبو السعود المتوفى سنة ٩٥١هـ ـ رحمه الله ـ.

لتخصيص العبادة له ـ سبحانه ـ بعد بيان أن ما طلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه أصلاً لكونه هالكًا باطلاً أصلاً، ولذلك وسّط بينهما ﴿ قَالَ ﴾ مع كون كل منهما كلام موسى ـ عليه السلام ـ»[١].

والمعنى: أمن غير المستحق للعبادة أطلب لكم معبودًا؟

وقوله: ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي: وهو فضلكم على جميع العالمين بتلك الآيات التي ظهرت لكم على يد نبيكم موسى ـ عليه السلام ـ فإنها ولا شك من خصائصهم، ومتعلقة بهم، فالتفضيل على العالمين كافة بهذا القيد لا مطلقًا حتى لا يلزم تفضيلهم على أمة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فتعارض هذه الآية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[٢].

والمراد بـ ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ عالم الإنس، والجن تبعٌ لهم باعتبار الفريقين أهل التكليف، قال الألوسي: «والجملة حالية مقررة لوجه الإنكار، أي: والحال أنه ـ تعالى ـ خص التفضيل والاختصاص بأن قصدوا أن يشركوا به أخس مخلوقاته، وهذا الاختصاص مأخوذ من معنى الكلام وإلا فليس فيه ما يفيد ذلك»[٣].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ يحتمل أنه من كلام الله ـ عز وجل ـ وأنه ـ تعالى ـ تمّم به حجة موسى ـ عليه السلام ـ وعلى قراءة ابن عامر ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مَّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ يكون ذلك من كلام موسى وأنه قال لهم: اذكروا صنع ربكم بكم وهو إنجاؤه إياكم من آل فرعون، في هذا الوقت الذي حصل فيه هذا الصنيع، فيكون الظرف وقتًا للمفعول المحذوف وهو الصنيع، أو: اذكروا نفس التوقت نفسه أنجاكم فيه ربكم، وذكر الوقت يستلزم ذكر ما فيه.

---

(١) تفسير الألوسي، (٩/ ٤١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

(٣) تفسير الألوسي، (٩/ ٤٢).

ويرى البعض أن قوله تعالى: ﴿ **وإذْ أنجيْناكُم مِنْ آل فرعونْ** ﴾ من كلام موسى ـ عليه السلام ـ حتى على هذه القراءة وأن النون في ﴿ **أنجيناكم** ﴾ له ولهارون ـ عليهما السلام ـ والمعنى: حصل الإنجاء لكم بسببنا. وإن كنت لا أقوى ذلك.

﴿ **مِنْ آلِ فرعونْ** ﴾ وعبر بآل فرعون؛ لأنهم كانوا أداته في سومهم سوء العذاب وتقتيل الأبناء، فالنتيجة منهم نتيجة منه، ومعنى ﴿ **يسومونكم سوء العذاب** ﴾ أي: يحلّون وينزلون بكم أشده، والجملة إما حالية وإما استئنافية؛ فعلى كونها حالية فهي حالٌ من ضمير بني إسرائيل، والمعنى: أنجيناكم حال نزول العذاب عليكم فلا يصح أن تعولوا على غيرها، ويجوز أن تكون حالاً من آل فرعون، أي: أنجيناكم منهم حال تعذيبهم لكم، والمعنيان متقاربان، وأما على كونها استئنافًا فكأن سائلاً سأل: ماذا فعل بهم آل فرعون؟ فجاءت هذه الجملة وما بعدها جوابًا لهذا السؤال.

وأرجِّح كونها حالية لضمير الخطاب في ﴿ **يسُومُونكُمْ** ﴾ ولو كانت استئنافًا لقال: (يسومونهم) لتتوافق مع السؤال الذي تقديره وماذا فعلوا بهم؟ وقوله تعالى: ﴿ **يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم** ﴾ تفصيل للإجمال في ﴿ **يسُومُونكُمْ سُوءَ العذاب** ﴾ وإن أمرَّ شيء على النفس أن يقتل ولدك أمامك وأنت عاجز عن الدفاع عنه، وأن تُستحيا امرأتك لتخدم غيرك رغمًا عنك، والمعنى: أن الله الذي خلصكم من ذلك كله هو الحقيق بالعبادة والتأليه لا تلك الأصنام العاجزة؛ فكيف نسيتم صنعه بكم؟

والإشارة في قوله: ﴿ **وفي ذلكُم** ﴾ راجعة إلى العذاب، والخطاب لبني إسرائيل، والمعنى: فذلكم العذاب الذي شهدتم أحداثه امتحان عظيم حلّ بكم، فَمن خلصكم منه أولى بأن يُعبد، ويجوز أن ترجع الإشارة إلى الإنجاء وهو الأقوى والأقرب لقوله تعالى: ﴿ **بلاءٌ مِن ربِّكُمْ** ﴾ والمعنى: وفي إنجائكم من هذا

العذاب اختبار عظيم لكم من ربكم ليظهر به شكركم من كفركم، فهل يليق بكم وأنتم حديثو عهد بهذه النعم أن تطلبوا من نبيكم أن يُجيز لكم الكفر بمن هذا شأنه معكم؟ وهل يجوز أن تعكفوا على عبادة ذلك الإله المقترح منكم؟ إن ذلك الخزي عظيم لكم في الدنيا، وهوان شديد لكم في الآخرة إن لم تتوبوا وتستشغروا قبح طلبكم.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني
تهيئة الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ لتلقي التوراة

قال تعالى: ﴿ وواعدنا مُوسىٰ ثلاثين ليْلة وأتممناها بعشْرٍ فتمَّ ميقاتُ ربِّه أربعين ليْلةً وقال مُوسىٰ لأخيه هارون اخلُفْني في قومي وأصلح ولا تتَّبع سبيل الْمُفْسدين ﴾[1].

لقد انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى ـ عليه السلام ـ التي أرسل لها، انتهت مرحلة تخليص بني إسرائيل من حياة الذل والهوان والنكال والتعذيب من فرعون وملئه، وإنقاذهم من أرض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة في طريقهم إلى الأرض المقدسة . . . ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى . . . مهمة الخلافة في الأرض والقيام بدين الله . . . ولقد رأينا في الآيات السابقة كيف اشرأبت نفوسهم إلى الوثنية والشرك بمجرد أن رأوا قومًا يعكفون على أصنام لهم، وتخلخلت عقيدة التوحيد التي جاءهم بها موسى ـ عليه السلام ـ في قلوبهم، ولم يمض إلا القليل على نجاتهم من ذل فرعون، وتحويل البحر لهم إلى طريق يبس، وإغراق عدوهم أمام أعينهم لما أصر على ملاحقتهم . . . فلم يكن بد من رسالة مفصلة لتربية هؤلاء القوم وإعدادهم لما هم مقبلون عليه من الأمر العظيم . . . ومن أجل هذه الرسالة المفصلة كانت مواعدة الله ـ تعالى ـ لعبده موسى ـ عليه السلام ـ ليلقاه ويتلقى عنه، وكانت هذه المواعدة بمثابة التهيئة لموسى ـ عليه السلام ـ استعدادًا لذلك الموقف العظيم[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٢).

(٢) بتصرف من (في ظلال القرآن) لسيد قطب، (٩/ ٦٣١).

فقوله تعالى: ﴿ **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة** ﴾ بمعنى وعدنا، وبذلك قرأ أبو عمرو ويعقوب، ويجوز أن تكون الصيغة على بابها بناءً على تنزيل قبول موسى - عليه السلام - منزلة الوعد، ويجوز أن يكون ﴿ **وواعدنا** ﴾ من باب الموافاة وليس من الوعد[1] قال الألوسي - رحمه الله -: «روي أن موسى - عليه السلام - وعد بني إسرائيل وهم بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى - عليه السلام - ربه الكتاب، فأمره أن يصوم ثلاثين يومًا وهو شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فمه فتسوك، فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله أن يزيد عشرة أيام من ذي الحجة».

ثم قال - رحمه الله -: «أخرج الديلمي[2] عن ابن عباس يرفعه لما أتى موسى - عليه السلام - ربه - عز وجل - وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين وقد صام ليلهن ونهارهن، كره أن يكلم ربه - سبحانه - وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه: لم أفطرت؟ - وهو أعلم بالذي كان - قال: أي رب، كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح، قال: أومَا علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك؟ ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتني ففعل موسى - عليه السلام - الذي أمره ربه، وذلك قوله سبحانه: ﴿ **وأتممناها بعشر** ﴾[3]».

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (١/ ٢٥٧)، (٩/ ٤٣).

(٢) انظر: الفردوس بمأثور الخطاب لأبي شجاع شيرويه الديلمي، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول (٣/ ٤٢٧) ذكره بنحوه مع اختلاف في بعض الألفاظ. الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ) ٣/ ٤٢٧.

(٣) تفسير الألوسي (٩/ ٤٣) وانظر: ابن أبي حاتم لسورة الأعراف، تحقيق الأخ الزميل/ حمد بن أحمد بن أبي بكر (٢/ ٤٧٠) وقد حقق إسناد الحديث وقال: إسناد حسن؛ وانظر: الدر المنثور، (٣/ ٥٣٥، ٥٣٦).

«وعبر ـ جل وعلا ـ بالليالي في قوله: ﴿ثلاثين ليلة﴾ لأن الليالي غرر الشهور، أو إشارة إلى مواصلة الصوم ليلاً ونهارًا، ولو قال ثلاثين يومًا لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلما نص على الليالي فهم من قوة الكلام أنه واصل المدة المشار إليها في الآية أربعين ليلة بأيامها»[(١)].

قلت: وإلى ذلك أشارت رواية الديلمي: «وقد صام ليلهن ونهارهن» ولا يستغرب ذلك من موسى ـ عليه السلام ـ وليس لقائل أن يقول: إن الامتناع عن الأكل والشرب هذه المدة قد يؤدي إلى هلاك الإنسان، أو إلى إضعاف قواه بحيث لا يكون مستعدًا لتلقي شيء أو فهمه، فإن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قد أعطوا من القوة الروحية ما يمكنهم من ذلك وأكثر منه، وهذا يدلنا على قوة موسى ـ عليه السلام ـ وعظيم معرفته بربه حيث استحيا أن يلقي ربه بجوف فيه أثر الطعام لعلمه أن الطعام وإن كان فيه قوة البدن إلا أنه حجاب كثيف يعطل الروح عما تريد الوصول إليه لو تخففت من الطعام بتركه بعض الوقت، ولذلك كان نبي الله داود ـ عليه السلام ـ يصوم يومًا ويفطر يومًا، وقد سماه الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أفضل الصيام، ولا يصح أن نقيس أحوالنا بأحوال الأنبياء فيما هو من خصائصهم لأن ذلك تجاوز واعتداء يؤديان إلى صرف العبد في النهاية عن الطاعة أو إلحاق أضرار بالبدن لا يطلبها الشرع، ولذا نهى الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عن الوصال، فلما قال أصحابه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: إنك تواصل، قال لهم: «**وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**»[(٢)] وأخرج الإمام مسلم أيضًا عن ابن عمر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ نهى عن الوصال، قالوا: إنك تواصل، قال: «**إني لست**

---

(١) تفسير الألوسي، (١/ ٢٥٧).

(٢) صحيح مسلم، تحقيق وتصحيح وتعليق/ محمد فؤاد عبد الباقي (٢/ ٧٧٤)، بيروت دار إحياء التراث العربي.

كهيئتكم، إني أطعم وأسقى»[١] فإني بهذا الحال مستغن عما لا تستغنون عنه ولا تقدرون في الاستمرار عليه، وقد ضعف الألوسي القول بأن وعد موسى كان لقيام الليل.

فقال - رحمه الله -: «والقول بأن ذكر الليلة كان للإشعار بأن وعد موسى - عليه السلام - كان بقيام الليل ليس بشيء لأن المروي أن المأمور به الصيام لا القيام»[٢].

وقوله: ﴿ **وأتممناها بعشر** ﴾ تفصيل لما أجمل في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿ **وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** ﴾[٣] وإنما أمره الله - سبحانه - أن يتم الثلاثين بعشر ليتخلص مما تناوله من نبات الأرض ليدفع به خلوف فمه حتى لا يلقى ربه بفم متغير، فأخبره الله بأن حاله التي كان عليها أولاً هي الأحب إلى الله - عز وجل - ولذا أمره أن يتمها بعشر لتعود إليه الحالة أتم ما كانت عند صيام الثلاثين، وغني عن الإيضاح ما لخلوف فم الصائم من مزية عند الله - عز وجل - ففي الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: «**والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب من ريح المسك**»[٤].

فإن قيل: ما معنى ﴿ **فتم ميقات ربه أربعين ليلة** ﴾ مع أن المتبادر للسامع من ضم العشرة إلى الثلاثين هو أن الميقات كان أربعين ليلة؟ والجواب علي ذلك:

---

(١) صحيح مسلم، تحقيق وتصحيح وتعليق/ محمد فؤاد عبد الباقي (٢/ ٧٧٤)، بيروت دار إحياء التراث العربي.

(٢) تفسير الألوسي (١/ ٢٥٧).

(٣) سورة البقرة: الآية (٥١).

(٤) صحيح البخاري مع شرح عمدة القاري، للشيخ الإمام العلامة ابن محمد محمود بن أحمد العيني (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ١٠/ ٢٧٧).

لإزالة التوهم من أن تلك العشر ليست من الثلاثين لأنه يحتمل أتممناها بعشر من الثلاثين، كأنه كان عشرين ثم أتمه بعشر فصار ثلاثين فأزال هذا الإبهام»[١]، هذا ما نُقل عن المفسرين. والذي أراه ـ والله أعلم ـ أن المقصود من ذكر هذا المعلوم هو الإشادة بموسى عليه السلام؛ وبطاعته إذ مَن صام ثلاثين يومًا فقد بلغ به الجهد، فإذا أمر بفعل عشر بعد هذا الجهد فامتثل وفعل فذا يدل على شدة يقينه وأن رغبته في مرضاة ربه لا فيٍّ مطلوب نفسه.

وهذا درس لنا لنتعلم منه العزم والقوة على طاعة الله ـ تعالى ـ التي كلفنا بها على قدر طاقتنا، فلا نتهاون بشيء أمرنا به، مُستَّنين في الأخذ بالعزائم بسنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد يتساءل متسائل عن الوقت الذي صامه موسى ـ عليه السلام ـ وقد تكفل المفسرون ببيانه، وقد اخترت منه ما قاله الحافظ ابن كثير:

قال ـ رحمه الله ـ: «اختلف المفسرون في قوله: ﴿ **وأتممناها بعشر** ﴾ والأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر: عشرُ ذي الحجة، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكلم لموسى ـ عليه السلام ـ وفيه أكمل الله الدين لمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما قال تعالى: ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾[٢]».

ولما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور استخلف موسى ـ عليه السلام ـ على بني إسرائيل أخاه هارون، ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد قال تعالى: ﴿ **وقال موسىٰ لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾[٣].

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٤٣)، وانظر: فتح القدير للشوكاني، (٢/ ٢٤٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٣)، وانظر: تفسير الألوسي (٩/ ٤٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٤٢).

ولقد خصص موسى أخاه هارون بالخلافة من بين سائر الصالحين من بني إسرائيل لأسباب منها:

١ ـ أن هارون نبي ولا تخفى أفضلية النبي على غيره.

٢ ـ أن هارون كان وزيراً لموسى ـ عليه السلام ـ قال تعالى على لسان موسى: ﴿ **واجعل لي وزيرا من أهلي (٢٩) هرون أخي** ﴾[١] ولا شك أن الوزير بالنسبة للأمير يكون من أقرب الرعية إليه، لا سيما وأنه تربطه به صلة قرابة، فيكون الحرص على القيام بتبعة الخلافة أشد وأقوى.

والمراد بقوله: ﴿ **وأصلح** ﴾ أي: ما يحتاج إلى الإصلاح من أمور دينهم إذا ظهر منهم ما يخالف ما تركهم عليه نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ.

عن ابن عباس أن المراد: الرفق بهم والإحسان إليهم[٢].

وقوله: ﴿ **ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾ أي: ولا تتبع سبيل من سلك الإفساد[٣] وهذا من باب التذكير والتنبيه والتأكيد لأن الأنبياء ـ عليه السلام ـ معصومون من فعل الفساد، ومعصومون من متابعة فاعليه.

وقد أتى بنو إسرائيل في غيبة موسى بعظيمة هي غاية في القبح لم تعرف إلا لهم في الموحدين وهي عبادة العجل، ولقد حاولوا حمل هارون ـ عليه السلام ـ على أن يعبد معهم ما عبدوه، فكانت العصمة ومقالة موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ **ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾ مؤججين لاستدامة يقينه، وعدم تأثره بمخالفة بني إسرائيل بما هو عليه وأخوه موسى ـ عليهما السلام ـ.

---

(١) سورة طه: الآيتان (٢٩، ٣٠).

(٢) تفسير الألوسي (٩/ ٤٤).

(٣) المصدر السابق.

وسيمر بنا [١] دفاع هارون عن نفسه لما لقي ما لقي من غضب موسى ـ عليه السلام ـ لعدم اللحوق به لإخباره بما فعل بنو إسرائيل: ﴿ **وأخذ برأس** [٢] **أخيه يجره إليه قال** [٣] **ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين** ﴾ [٤].

* * *

(١) انظر ص (٥٥١ ، ٥٥٢) من بحثنا هذا.

(٢) أي موسى ـ عليه السلام ـ.

(٣) أي هارون ـ عليه السلام ـ.

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).

المبحث الثالث
طلب موسى من ربه الرؤية

قال تعالى: ﴿ ولَمَّا جاء مُوسىٰ لميقاتنا وكلَّمهُ ربُّهُ قال ربِّ أرني أنظُرْ إليْكَ قال لن تراني ولكن انظُرْ إلى الْجبل فإن استقرَّ مكانهُ فسوْف تراني فلمَّا تجلَّىٰ ربُّهُ للْجبل جعلهُ دكًا وخرَّ مُوسىٰ صعقًا فلمَّا أفاق قال سُبْحانك تُبْتُ إليْك وأنا أوَّلُ الْمؤْمنين ﴾[1].

وقوله: ﴿ ولَمَّا جاء مُوسىٰ لميقاتنا ﴾ أي: للوقت الذي وقّتنا له، أي تمام الأربعين لتلقي ما سنمليه عليه من الشرائع التي بها يستقيم حال أمته، وقوله: ﴿ وكلَّمهُ ربُّهُ ﴾ أي: أسمعه كلامه ولم يكن فيما بينه وبين الله ـ عز وجل ـ وفيما سمع واسطة، ولذلك سمي بموسى الكليم، وذلك بعدما هيَّأه الله ـ تعالى ـ لذلك الموقف العظيم بالصيام والانقطاع عن الناس.

ولقد كلم الله ـ عز وجل ـ نبيه موسى ـ عليه السلام ـ قبل هذا الموقف مراراً كما جاء في سورة طه[2] والنمل[3]

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٣).

(٢) قال تعالى: ﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله: امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى. فلما أتاها نودي يا موسى. إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ... ﴾ سورة طه: الآيات من (٩) إلى (١٤).

(٣) قال تعالى: ﴿ إذ قال موسى لأهله: إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون. فلما جآءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم. وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جآن ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ... ﴾ سورة النمل: الآيات من (٧) إلى (١٠).

والقصص[١] ولم يسبق هذا الكلام بهذه التهيئة ولا بهذا الميعاد لأن الفرق بين ما مضى من كلام الله له وميقاته ـ تعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ في سورة الأعراف أنه في هذه المرة سينزل عليه كتابه التوراة جملة واحدة كما سيمر بنا[٢] ولا شك أن للوحي ثقله الذي يحتاج إلى تهيئة خاصة، قال الله ـ تعالى ـ لحبيبه ونبيه محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿ **إنَّا سنُلْقي عليْك قوْلا ثقيلا** ﴾[٣] ومعلوم أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، ومع تقطيعه نجومًا وصفه الله بالثقل، فما بالك بتلقي كتاب بأكمله يُسمعه الله ـ جل وعلا ـ بنفسه كليمه موسى ـ عليه السلام ـ؟ إن الأمر ولا شك يحتاج إلى إعداد خاص، وكون هذا الإعداد قد تم بالصوم لا باستدامة الصلاة والذكر يدل على ما للصوم من منزلة رفيعة عند الله ـ عز وجل ـ ويدل على ما له من أثر عظيم في ترقية الروح إلى معارج القدس، وترقية البدن الذي هو قالب هذه الروح فيحتمل ما لا تحتمله الأبدان الكثيفة التي حجبت أرواحها بالشهوات سيما شهوة الطعام والشراب اللذين للنفس بهما تعلق شديد.

ولما اطمأن موسى ـ عليه السلام ـ على أن خاصيته التي خصه الله بها من بين سائر الأنبياء ـ إلا نبينا محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم ـ هي كلامه مباشرة طمح قلبه إلى رؤية ربه ـ تبارك وتعالى ـ لفرط شوقه إليه، فإن من تمام الفضل أن ترى من تكلمه، ولذا أجيبت ﴿ لَمَّا ﴾ بقوله تعالى: ﴿ **قال ربِّ أرني أنظُرْ إليْك** ﴾ قال الإمام البخاري: «قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ **أرني** ﴾ أعطني[٤]».

---

(١) قال تعالى: ﴿ **فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين. وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جآن ولّى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ...** ﴾ سورة القصص: الآيتان (٣٠، ٣١).

(٢) انظر: من ص (٥٢٢) إلى ص (٥٢٣) من بحثنا هذا.

(٣) سورة المزمل: الآية (٥).

(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب التفسير ـ سورة الأعراف ـ (٩/ ٣٧٢) وقوله: ﴿ أرني ﴾ أعطني، يعني: أعطني قدرة تمكنني من النظر إليك، وإنما فسرها ابن عباس بذلك لأن الرؤية =

وقد سلك موسى ـ عليه السلام ـ بقوله هذا مسلك الاستعطاف وغاية الأدب حيث قدم لطلبه بقوله: ﴿ **ربِّ** ﴾ أي: يا مَن أنت حَفي بي، وتفضلت على بتكليمي مباشرة، ويا من ربيتني في بيت عدوك، ويا من رددتني على أمي، ويا من نصرتني على فرعون وقومه، فعهدي بك دوام فضلك عليَّ ورعايتك لي رعاية خاصة ﴿ **أرني أنظُرْ إليْك** ﴾ أي: أرني ذاتك الجليلة أنظر إليك، ومكني من رؤيتك بأن تتجلى لي حتى أراك.

وما خطر ببال موسى ـ عليه السلام ـ أن سؤاله هذا فوق طاقته، وأن بشريته وروحه مهما كان من قوتهما لا يُمكِّنانه من ذلك إذ الأمر أجل وأعظم، ولو خطر على باله أن ذلك محظور ما طلبه، لكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد ظن أن إباحة تكليمه مسوغ لهذا الطلب، ولذا طلبه بقوله: ﴿ **قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ** ﴾ فأجابه بقوله: ﴿ **لن تراني** ﴾ أي: في دار الدنيا، إذ المؤمنون جميعًا سيرون ربهم في الآخرة كما يرون البدر متكاملاً لا يُضامون في ذلك، أي لا يشق عليهم فيه، بل يمكنهم ربهم ـ سبحانه وتعالى ـ من ذلك بفضله، فنفي الرؤية منصب على الحالة الدنيوية، أما في الآخرة فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن المؤمنين يرون ربهم في روضات الجنات.

أخرج البخاري في صحيحه ـ في كتاب الأذان، باب فضل السجود ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن الناس قالوا: «يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: **فهل تمارون**[1] **في الشمس ليس دونها سحاب؟** قالوا: لا، قال: **فإنكم ترونه كذلك** . . .»[2] الحديث.

= هي النظر، والمطلوب هو القدرة على النظر.

انظر: تفسير ابن عباس، تأليف الدكتور/ عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، (١/ ٤٣٠).

(١) تمارون: من المماراة وهي المجادلة.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري (٢/ ٤٣٦) وانظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١/ ٤٢).

وأخرج مسلم في صحيحه عن صهيب أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ـ عز وجل ـ**»[1] فإذا وقع ذلك للمؤمنين فوقوعه للأنبياء ولاشك أحق، ووقوعه للكليم الذي برح به الشوق إلى ربه متأكد، ولكي يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن ذلك فوق طاقته، وأنه ليس مسموحًا له به في الدنيا قال ـ تعالى ـ له استدراكًا على قوله تعالي: ﴿ **لن تراني** ﴾ ﴿ **ولكن انظُرْ إلى الْجبل فإن اسْتقرَّ مكانهُ فسوْف تراني** ﴾ أي. لن تطيق رؤيتي يا موسى وأنت في هذه الحياة الدنيا بحالتك التي أنت عليها ﴿ **ولكن انظُرْ إلى الْجبل** ﴾ الذي هو أقوى وأشد صلابة منك.

وفي هذ الاستدراك ﴿ **ولكن انظُرْ** ﴾ تسلية لموسى ـ عليه السلام ـ وتلطف معه في الخطاب وتكريم له، وتعظيم لأمر الرؤية وأنه لا يقوى عليها إلا من قواه الله بمعونته[2] ﴿ **فإن اسْتقرَّ مكانهُ** ﴾ أي: إن ثبت مكانه حين أتجلى له ولم يتفتت ويندك لعظمتي ﴿ **فسوْف تراني** ﴾ أي: تثبت لرؤيتي إذا تجليت لك وإلا فلا طاقة لك برؤيتي، وعبر بكلمة ﴿ **سوْف** ﴾ لبيان أن ذلك لو وقع فلن يتحقق لك في الدنيا إلا بعد أن تتهيأ تهيئة خاصة لأن ﴿ **سوْف** ﴾ إذا دخلت على المضارع تفيد وقوعه في المستقبل البعيد، فكيف والأمر على خلاف ما تظن؟ فلا بقاء للجبل حال تجلى له فكيف تطلب الرؤية؟ ولو زاد التجلي عليك حال الكلام ما كان لك

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ١٧) باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم ـ سبحانه وتعالى ـ.

(٢) انظر: تفسير الأعراف للدكتور/ أحمد السيد الكومي، والدكتور/ محمد سيد طنطاوي، ص(٢١٥).

بقاء، ولذهبت منك كل استطاعة، والمراد بالجبل على ما قاله الألوسي هو طور سيناء[١].

قال تعالى: ﴿ **فلمَّا تجلَّىٰ ربُّهُ للْجبل** ﴾ والتجلي هنا: هو الظهور بالكيفية التي تليق بجنابه - تعالى -[٢]، فظهر - جل وعلا - للجبل ظهوراً بلا كيف[٣] قال الحافظ ابن كثير: «ما تجلى منه إلا قدر الخنصر»[٤] وساق - رحمه الله - آثاراً أكتفي منها بما أخرجه الحاكم في مستدركه والترمذي في سننه عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في قوله - عز وجل -: ﴿ **فلمَّا تجلَّىٰ ربُّهُ للْجبل جعله دكًا . . .** ﴾ قال حماد: هكذا، ووضع الإبهام على مفصل الخنصر الأيمن قال: فقال حميد لثابت: تحدث بمثل هذا؟! قال: فضرب ثابت صدر حميد ضربة بيده وقال: رسول الله ﷺ يحدث به وأنا لا أحدث به[٥] قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

وفي رواية للترمذي أيضًا عن أنس أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قرأ هذه الآية: ﴿ **فلمَّا تجلَّىٰ ربُّهُ للْجبل جعلهُ دكًا** ﴾ قال حماد: هكذا، وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة أصبعه اليمنى قال: فساخ الجبل[٦] ﴿ **وخرَّ مُوسَىٰ صعقا** ﴾[٧] وقوله: ﴿ **دكًا** ﴾ أي: ترابًا مهشمًا مدقوقًا مفتتًا.

قال الألوسي: ﴿ **جعلهُ دكًا** ﴾ أي مدكوكًا متفتتًا، والدك والدق أخوان كالشك والشق»[٨] فنبه - سبحانه وتعالى - على أن الجبل مع شدته وصلابته ما دام

(١، ٢) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٤٥).

(٣) النسفي، (٢/ ٧٥).

(٤) تفسير ابن كثير، (٢/ ٢٤٤).

(٥) المستدرك للحاكم، (٢/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٦) أي: غاص في الأرض وغاب فيها.

(٧) سنن الترمذي، (٥/ ٢٦٥).

(٨) تفسير الألوسي، (٩/ ٤٥).

لم يستقر عند هذا التجلي فالآدمي مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر، وفيه تسكين لفؤاد موسى بأن المانع من الانكشاف الإشفاق عليه[١].

قال الألوسي: «وهذا كما لا يخفى من المتشابهات التي يسلك فيها طريق التسليم وهو أسلم وأحكم»[٢] «وقوله: ﴿ **وخرَّ موسى** ﴾ أي: وقع وقوعًا شديدًا من هول التجلي فارتطم على الأرض ارتطامًا أحدث صوتًا شديدًا؛ إذ الخرور هو الوقوع المصاحب للصوت الشديد؛ كما فرق بعض اللغويين بين السقوط والخرور بأن السقوط مطلق، والخرور سقوط له صوت كالخرير»[٣].

﴿ **وخرَّ موسىٰ صعقًا** ﴾ أي: سقط من هول ما رأى من الأنوار التي بهرته وأسقطته على الأرض مغشيًا عليه كمن أصابته صاعقة، وهذا رأي ابن عباس والحسن - رضي الله عنهما -. وعن قتادة أنه مات ثم أحياه الله بعد ذلك، وعلى هذا الرأي يكون موسى قد ذاق الموت في الدنيا مرتين، ويكون ذلك استثناء من قوله تعالى: ﴿ **لا يذوقون فيها الموت إلاَّ الموتة الأولىٰ ووقاهم عذاب الجحيم** ﴾[٤] وقد ذاق الموت في الدنيا أكثر من مرة جماعات منهم مَن أحياهم موسى - عليه السلام - معجزة له ودليلاً على نبوته - عليه السلام - ومنهم أيضًا من ذكرهم الله - تعالى - في قوله: ﴿ **ألم تر إلى الَّذين خرجُوا من ديارهم**[٥] **وهُم أُلوفٌ حذر الْموْت فقال لهُم اللَّهُ موتُوا ثُمَّ أحْياهُم إنَّ اللَّه لذُو فضْلٍ على النَّاس ولكنَّ أكْثر**

---

(١) انظر: تفسير القاسمي - محاسن التأويل، (٥/ ٢٤٧).

(٢) تفسير الألوسي (٩/ ٤٥).

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٤٦)، والمفردات للراغب الأصفهاني، ص (١٤٤).

(٤) سورة الدخان: الآية (٥٦).

(٥) قيل هي: (واسط) وقع فيها الطاعون فخرج أهلها هاربين، فأماتهم الله ثم أحياهم بدعاء حزقيل - عليه السلام - وقيل: هم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذرًا من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم. انظر: تفسير النسفي، (١/ ١٢٣).

النَّاس لا يشكُرُون ﴾[١] ورغم وقوع ذلك فالرأي الأول عندي أرجح لقوله تعالى: ﴿ فلمَّا أفاق ﴾ إذ الإفاقة تكون من الغشية والإحياء يكون بعد الإماتة، فلو كانت الصاعقة موتًا لقال تعالى: (فخر ميتا) ولقال: (فلما أحييته قال سبحانه) وقوله: ﴿ فلمَّا أفاق ﴾ الإفاقة رجوع العقل والفهم إلى الإنسان بعد ذهابهما عنه بسبب من الأسباب[٢].

وقوله: ﴿ قال سُبْحانك ﴾ أي تنزيهًا لك من مشابهة خلقك في شيء، وبدأ بالتسبيح لاستشعاره بأنه طلب ما لاحقّ له فيه، وهو أمر عظيم لا يكفِّره إلا التسبيح، كما أنه ـ عليه السلام ـ أراد أن يمهد به لبيان توبته الصادقة عن طلب ما لا قدرة له عليه.

﴿ تُبتُ إليك ﴾ من الإقدام على السؤال بغير إذن، ولم يقل: تبت إليك عن هذا الطلب ليبين ـ عليه السلام ـ توبته الشاملة عما بدر منه وعرفه، وعما قد يظن أنه بدر منه ولم يعرفه، والغرض من قوله: ﴿ تُبْتُ إليْك ﴾ إظهار الافتقار والمسكنة لربه، والرضا التام بمقدوراته.

﴿ وأنا أوَّلُ المُؤْمنين ﴾ بعظمتك وجلالك، أو: أنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد من خلقك في حالته الدنيوية[٣] فالأولية هناك ليست على إطلاقها بل هي مقيدة بما ذكرت لأنه ـ عليه السلام ـ قد تقدمه مؤمنون كثيرون أنبياء وغير أنبياء.

* * *

(١) سورة البقرة: الآية (٢٤٣).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٤٦).

(٣) انظر: تفسير الألوسي (٩/ ٤٦).

المبحث الرابع
مسألة اختلاف أهل السنة والمعتزلة
في وقوع رؤية الله

اختلف علماء أهل السنة والمعتزلة في وقوع رؤية الله ـ تعالى ـ في الدنيا والآخرة فيرى أهل السنة جواز وقوع رؤية الله ـ تعالى ـ في الدنيا عقلاً، إذ لا مانع منها إلا عدم تحملها، كما يقطعون بوقوعها في الآخرة للمؤمنين لقوله تعالى: ﴿ **وجوهٌ يومئذ ناضرةٌ (٢٢) إلىٰ ربها ناظرةٌ** ﴾[١] وهي وجوه المؤمنين قطعًا بقرينة ﴿ **ووجوهٌ يومئذ باسرةٌ** ﴾[٢] وبقوله ـ تعالى ـ في شأن الكفار كما يدل عليه السياق، والسياق ﴿ **كلاَّ إنهم** ﴾ أي: الكفار ﴿ **عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾[٣] ولما أسلفته من الحديث الصحيح عن مسلم في تفسير قوله تعالى: ﴿ **قال لن تراني** ﴾[٤] أما المعتزلة فيرون استحالة وقوعها في الدنيا والآخرة لأنها علقت في الدنيا على مستحيل والمستحيل لا يتصف بالوقوع، فما علق عليه فهو مستحيل مثله، وقد أوجزت شيئًا من رد أهل السنة، قالوا: إن قوله تعالى: ﴿ **قال ربِّ أرني أنظرْ إليك** ﴾ يدل على إمكان وجواز الرؤية وذلك من وجهين:

أولهما: أن نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ سألها بقوله: ﴿ **ربِّ أرني أنظرْ إليك** ﴾ ولو كانت مستحيلة ما سألها موسى ـ عليه السلام ـ وهو كما هو معلوم من أولي العزم من الرسل ولا يتصور أن يسأل موسى ـ عليه السلام ـ المحال، فإن

(١، ٢) سورة القيامة: الآيات من (٢٢) إلى (٢٤). وقوله: ﴿ باسرة ﴾ أي: كالحة شديدة العبوس، انظر: تفسير الجلالين ص (٤٩٤).

(٣) سورة المطففين: الآية (١٥).

(٤) انظر: ص (٥١٢) من بحثنا هذا.

قيل: إن موسى - عليه السلام - لم يكن عالمًا بالاستحالة؟ فالجواب أن يلزم من ذلك أن يكون آحاد المعتزلة ومن حصل على طرف من علومهم أعلم بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز من النبي الصفي، والقول بذلك غاية الجهل والرعونة، وحيث بطلَ القول بالاستحالة تعيّنَ القول بالجواز[١] ولا شك أن اعتقاد ما لا يجوز ولا سيما في الأمور العقائدية كفر، ولا يجوز أن يجهل موسى - عليه السلام - مثل ذلك لأن معرفة الأنبياء ليس فيها نقص، ومما يقوي ما ذهب إليه أهل السنة من جواز الرؤية أن الله - تعالى - لم ينكر عليه المسألة وإنما منعه من الرؤية، ولو استحالت عليه لقال: (لا أرى) ألا ترى أن نوحًا - عليه السلام - لما قال: ﴿ **إنَّ ابني من أهْلي** ﴾[٢] أنكر عليه - جل وعلا - بقوله: ﴿ **إنَّهُ ليْس من أهْلك** ﴾[٣]؟

ولقد سبق أن بينا معنى ﴿ **لن تراني** ﴾ وقلنا: إنها مستأنفة استئنافًا بيانيًا، كأنه قيل: فماذا قال الله حين قال موسى ذلك؟ فكان الجواب ﴿ **لن تراني** ﴾ أي: لن تطيق رؤيتي وأنت على هذه النشأة والحالة الدنيوية التي أنت عليها[٤].

ثانيهما: ومما يدل على جواز الرؤية ويقوي ما ذهب إليه أهل السنة أنه - جل وعلا - علقها على استقرار الجبل وذلك ممكن في نفسه، وما علق على الممكن ممكن، فدل على أنها جائزة، ألا ترى أن دخول الكفار إلى الجنة لما استحال علّقه بمستحيل فقال: ﴿ **إنَّ الَّذين كَذَّبُوا بآياتنا واسْتَكْبَرُوا عنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أبْوَابُ السَّماء ولا يدْخُلُونَ الْجنَّةَ حتَّىٰ يلجَ الْجَملُ في سَمِّ الْخيَاط وكَذَلكَ نَجْزي الْمُجْرمين** ﴾[٥]؟ فلما استحال دخول المكذبين والمستكبرين إلى الجنة علق ذلك

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٤٦، ٤٧).

(٢) سورة هود: الآية (٤٥).

(٣) سورة هود: الآية (٤٦).

(٤) انظر: ص (٥١٢) من بحثنا هذا.

(٥) سورة الأعراف: الآية (٤٠).

على المستحيل[١].

والحق الذي أدين به أن رؤيته ـ تعالى في الآخرة متحققة للمؤمنين لا محالة لما أسلفته من الآيات والأحاديث، وأن المعتزلة في هذه المسألة مخفقون محجوجون، وأدلتهم واهية، وتوهمهم أنها علقت في الدنيا على مستحيل قد رَددتُ عليه في خلاصتي، وهَبْهَا عُلِّقت على مستحيل في الدنيا فهل تقاس أمور الآخرة بالدنيا؟ وهل يقاس الغائب على الشاهد؟ اللهم لا.

وقد ذكرت هذه المسألة لأنها تصور الصراع بين الحق والباطل في أجلى صورة إذا النصوص ثابتة بثبوت الرؤية في الآخرة، ولا ينفع المعتزلة قتالهم على العقل مع وجود النص.

قال شارح العقيدة الطحاوية: «وهذه المسألة من أشرف مسائل الدين وأجلها وهي الغاية، شمّر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مردودون»[٢] والله أعلم.

* * *

(١) وقد توسع الألوسي في بيان وجهة كل فريق، ومن أراد التوسع فليرجع إلى تفسيره (٩/ ٤٦ ـ ٥٣).

(٢) وقد بسط الشارح الإمام علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي الكلام في هذه المسألة، ومن أراد التوسع فليراجع كتابه شرح العقيدة الطحاوية ص، (٣٠٣ ـ ٢١٤).

المبحث الخامس
تسلية موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن منع من الرؤية وذكر بعض نعم الله عليه

قال تعالى: ﴿ **قال يا موسىٰ إنّي اصطفيتك على النّاس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشّاكرين (١٤٤) وكتبنا له في الألواح من كلّ شيء موعظة وتفصيلا لكلّ شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين** ﴾[(١)].

فقوله تعالى: ﴿ **قال يا موسىٰ** ﴾ استئناف مسوق لتسلية موسى ـ عليه السلام ـ من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل: إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما أعطيتك فاغتنمه وثابر عليه[(٢)].

وقد ناداه ـ جل وعلا ـ باسمه تكريمًا له ومؤانسة ومباسطة فإن مما يسر عبد الملك أن يذكره الملك باسمه للدلالة على التقارب والتآلف وقوله: ﴿ **إنّي اصطفيتك على النّاس** ﴾ أي: اخترتك، وهو افتعال من الصفوة، وأكد الحق ـ جل وعلا ـ ذلك بـ (إنّ) لبيان شدة اعتنائه ـ سبحانه وتعالى ـ بموسى فلقد كان هارون ـ عليه السلام ـ نبيًا ومع ذلك لم يصل إلى هذه المرتبة، والمعنى: أني اخترتك من بين عالمي زمانك لرسالاتي ولكلامي مع أن في عالمي زمانك من لو هيأته لهذا الاصطفاء لصلح كأخيك هارون ـ عليه السلام ـ فليكن ذلك مني مدعاة لمزيد شكرك لي، ومزيد استشعار منتي عليك، وقال تعالى: ﴿ **إنّي اصطفيتك على**

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٤٤، ١٤٥).

(٢) تفسير الألوسي، (٩/ ٥٥).

النَّاسِ ﴾ دون أن يقول على الخلق؛ لأن الملائكة يسمعون كلام ربهم بلا واسطة فلو قال الحق ـ تعالى ـ اصطفيتك على الخلق لشاركته الملائكة في هذه المزية.

واختيار الله له واصطفاؤه بالرسالة وبالكلام ـ كما سيأتي ـ هو كتفضيله قومه على عالمي زمانهم بقوله تعالى: ﴿ **يا بني إسْرائيل اذْكُروا نعمتي الَّتي أنعمتُ عليْكُمْ وأنِّي فضَّلْتُكُمْ على العالمين** ﴾[1].

وقوله: ﴿ **برسالاتي** ﴾ أي: بأسفار التوراة، وجاءت بصيغة الجمع نظرًا إلى أن التوراة التي أوتيها ـ عليه السلام ـ كانت أسفارًا متعددة، كل سفر منها رسالة، أو لأن الله أوحى إليه مرة بعد مرة وكلمه كثيرًا، وفي كل مرة يفيض عليه ويعطيه، فهي بمثابة رسالة فصحّ الجمع بهذا المعنى.

وقرأ نافع وابن كثير: ﴿ **برسالاتي** ﴾ بالإفراد، وهذه القراءة لا تعارض قراءة الجمع لأنها صيغة من صيغ العموم، وصيغ العموم يصح إحلالها محل الجمع، أو لأنها مصدر كما قال الفخر الرازي. «وكثيرًا ما يُعَبَّر عن المعاني المتعددة بالمصدر مفردًا»[2] وقد يسأل سائل: أيّ مزية لموسى ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: ﴿ **إنِّي اصْطفيْتُك على النَّاس برسالاتي** ﴾ وقد سبقه في هذا الاصطفاء رسل كما لحقه آخرون؟ والجواب عن هذا التساؤل: أن مزية موسى ـ عليه السلام ـ حصلت بمجموع الأمرين بالاصطفاء بالرسالة وبالكلام مباشرة بينما غيره اصطُفي بالرسالة وجاءه الوحي بالواسطة، ولا شك أن تكليم الحق لموسى مباشرة فيه مزية عظمى له؛ إذ الفرق عظيم بين أن يخاطبك الملك بنفسه وبين أن يخاطبك بوزيره. ﴿ **فخُذْ ما آتيْتُك** ﴾ أي: احرص عليه غاية الحرص ولا يهوّنه عليك أني منعتك رؤيتي لعدم تهيئك لها، وحاشا لموسى ـ عليه السلام ـ أن يكون هان عليه ما أتاه ربه إياه، أو أن يكون قد توقف في أخذه، فليس ذلك هو المقصود من

(١) سورة البقرة: الآية (٤٧).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٣٦).

الأمر، وإنما المقصود تهيجه على مزيد الشكر، وتخفيف وطأة منع الرؤية عليه بمؤانسة قلبه بالتشبث بما آتاه وخلع عليه، وقد حذف المفعول في قوله تعالى: ﴿ **ما آتيتك** ﴾ إما للعلم به وهو التوراة، أو لأن الله آتاه أسرارًا وعطيات تخصه، فيكون المعنى: فخذ ما آتيتك مما هو بيني وبينك والذي لم أطلع عليه غيرك في زمانك، والتوراة التي بعثتك بها لإصلاح بني إسرائيل.

ولا غرابة في حذف هذا المفعول لأنه عائد على اسم موصول، والعائد كثيرًا ما يحذف، وإذا حملنا (ما) الموصولة على معناها الخاص وهو التوراة فالتعبير عنه بـ (ما) إشادة به وبعلو شأنه إذ هو لظهوره لا يحتاج إلى ذكر اسمه.

﴿ **وكن من الشاكرين** ﴾ أي: دُم على الشكر، وقم بموجبه علمًا وعملاً، فالأمر هنا ليس لطلب ما لم يكن موجودًا، بل هو للثبات على ما تخلّق به موسى - عليه السلام من شكره لربه وعبوديته له، ثم فصّل - جل وعلا - بعض النعم التي منحها لنبيه موسى - عليه السلام - فقال تعالي: ﴿ **وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء** ﴾[1].

والمراد بالألواح ألواح التوراة، واختُلف في عددها وفي ماهيّتها، ولم يرد نص صريح عن النبي - ﷺ - في عددها وما هيتها، فالأفضل تفويض معرفة ذلك إلى الله - تعالى -.

وهذه الألواح هي الصحف التي أخبر عنها - جل وعلا - في قوله تعالى: ﴿ **أم لم ينبأ بما في صحف موسى** ﴾[2] وهي الكتاب والفرقان التي ذكرتها آية البقرة في قوله تعالى: ﴿ **وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون** ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٥).

(٢) سورة النجم: الآية (٣٦).

(٣) سورة البقرة: الآية (٥٣).

والمعنى المراد من قوله: ﴿ **وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا** ﴾ أي: كتبنا لموسى - عليه السلام - في ألواح التوراة من كل شيء يحتاجون إليه؛ من الحلال والحرام، والحكم والعبر، والمحاسن والقبائح.

﴿ **موعظة وتفصيلا لكل شيء** ﴾ بدل من الجار والمجرور أي: كتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام[١].

﴿ **فخذها بقوة** ﴾ أي: بجد وحزم وعزيمة[٢] وليس معنى هذا أن موسى - عليه السلام - سيقصِّر في القيام بها، فهذا منتف في حقه بمقتضى العصمة، وإنما المقصود والغرض من ذلك تنبيه بني إسرائيل على الاستمساك بما في هذه الألواح والحرص التام على العمل بها فيها، لأن أمر الله لكليمه أن يأخذها بقوة - والشأن فيه أنه كذلك بمقتضى العصمة - يقتضي أن يوجه هذا الأمر لقومه لأن التفريط متوقَّع منهم بل قد حصل كما سنعرفه قريبًا[٣].

﴿ **وأمر قومك يأخذوا بأحسنها** ﴾ أي: بأحسن ما فيها كالعفو والصبر فكان فيها القود والعفو فأمروا بالعفو . . . إلخ. فأفعل التفضيل إذن على بابه، ويجوز أن يكون أفعل التفضيل ليس على بابه وأنه جيء به لثبوت الوصف في نفسه، فيكون المراد من قوله: ﴿ **يأخذوا بأحسنها** ﴾ أي: بحسنها إذ كل ما فيها حَسن، فليس في هذه الألواح شيء إلا وهو حسن، وجعل أحسن على بابها أقوى وأظهر.

وقوله تعالى: ﴿ **سأريكم دار الفاسقين** ﴾[٤] المخاطبون هنا هم بنو إسرائيل، وقد التفت القرآن من أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿ **وأمر قومك يأخذوا**

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٠)، وتفسير الألوسي، (٩/ ٥٧).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٥٨).

(٣) انظر: ص (٥٣١) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٤٥).

بأحسنها ﴾ إلى أسلوب الخطاب حملاً لبني إسرائيل على الجد في الامتثال بما أمروا به. والمقصود بقوله ـ تعالى ـ لبني إسرائيل: ﴿ **سأُريكُمْ دار الفاسقين** ﴾ إما الوعيد والتهديد على أن المراد بدار الفاسقين أرض مصر ودار عاد وثمود وأضرابهم، أي: إنكم إن نأيتم عما أمرتكم به، وكفرتم بما أنزل عليكم، فعلت بكم مثل ما فعلته بهؤلاء الذين أريتكم ديارهم، وقد خَلت منهم وحلَّ بهم من العذاب ما لا يخفى عليكم؛ وإما على جهة الوعد، وأن المقصود بهذا القول الكريم تمكينهم من أرض فلسطين التي كانت ديار العمالقة والجبارين في ذلك الوقت، مع أنها كانت في السابق موطن الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ عليهم السلام ـ كما كانت ديار توحيد وطاعة لله ـ عز وجل ـ والمعنى على هذا الرأي: إنكم إن التزمتم بما أنزل إليكم وأخذتم بأحسن ما جاءكم هديتكم وسلكت بكم سبيل الرشاد، ومكنت لكم من عدوكم. ولبيان هذين المعنيين بيَّن لهم في الآيتين التاليتين حال المتكبرين والمكذبين بآيات الله ـ تعالى ـ حمانا الله وحفظنا، إنه سميع مجيب[1].

* * *

(١) بتصرف من تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧١).

المبحث السادس
تحذير بني إسرائيل
بتجنب مسالك الهالكين والضالين

قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[(١)].

قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ استئناف مسوق لتحذير بني إسرائيل عن التكبر الموجب لعدم التفكر في الآيات التي كتبت في ألواح التوراة المتضمنة للمواعظ والأحكام أو ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية، التي من جملتها ما وُعدوا إراءته من دار الفاسقين، ومعنى صرفهم عنها: منعهم بالطبع على قلوبهم فلا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ[(٢)] ﴾[(٣)].

والآية الكريمة تصور لنا بوضوح مسالك الذين أعمى الله بصيرتهم وطمس على قلوبهم بأسلوب معجز، فهم عاجزون عن فهم الحجج والأدلة على عظمتها، والآيات التنزيلية التي فيها هدايتهم ورشدهم، وذلك بسبب تكبرهم

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٤٦، ١٤٧).

(٢) سورة الصف: الآية (٥).

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٦٠).

وجحودهم وظلمهم.

ومعنى قوله: ﴿ **يتكبَّرُون** ﴾ أي: يرون في أنفسهم أنهم أفضل الخلق، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم، وصفة التكبر صفة ذم في جميع العباد وصفة مدح في الله - جل جلاله - لأنه يستحق إظهار ذلك على مَن سواه، لأن ذلك في حقه حق وفي حق غيره باطل.

وقوله: ﴿ **بغير الْحقّ** ﴾ إما حال، أي: يتكبرون غير محقين لأن التكبر بالحق لله وحده[1] ويجوز أن تكون جملة ﴿ **بغيْر الْحقّ** ﴾ صلة للتكبر، أي: يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل وظلمهم المفرط[2].

وصرف أهل الباطل عن الحق من أعظم المحن لأن هؤلاء المتكبرين المصروفين عن الحق يرون الحق باطلاً والباطل حقًا - أسأل الله لي ولك العافية والسلامة - وقد شاهد بنو إسرائيل أمثلة واضحة جلية لأمثال أولئك، وهم قوم فرعون الذين ابتلاهم الله - جل وعلا - بالآيات العظيمة المخيفة، التي لم يُبتلَ بها أحدٌ من الأمم التي سبقتهم بما ابتلاهم الله به، والتي وصفها الحق - سبحانه وتعالى - في كتابه بقوله: ﴿ **وما نُريهم مِّنْ آية إلاَّ هي أكْبرُ من أُخْتها وأخذْناهُم بالْعذاب لعلَّهُمْ يرجعُون** ﴾[3] ومع ذلك كانوا كلما أتتهم آية ينكثون وعدهم، ويعودون إلى كفرهم وضلالهم، وقد أشرت إلى ذلك سابقًا[4].

فهل ذلك يكون رادعًا لبني إسرائيل وزاجرًا لهم؛ فيتجنبوا الباطل ويكفوا عن كفرهم؟ وفي أيامنا هذه ما أكثر مَن يرون الحق واضحًا جليًا، ومع ذلك يصرون على الباطل حتى طبع على قلوبهم، ونسوا خالقهم ومدبر أمرهم، كما

---

(١) تفسير النسفي، (٢/ ٧٧).

(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ٢٧٢).

(٣) سورة الزخرف: الآية (٤٨).

(٤) انظر: من ص (٤٠٦) إلى ص (٤١٤) من بحثنا هذا.

قال تعالى: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾[1] وليس ذلك لعلم امتازوا به عن غيرهم، أو لأن الحق ملتبس عليهم، بل لنسيانهم قانون الله الذي لا يتبدل والمذكور في هذه الآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ هو نتيجة لصرف المتكبرين في الأرض بغير الحق عن آياته ـ تعالى ـ لأنهم بالصرف قد حيل بينهم وبين تدبرها، والمراد بالآيات ما يعم المُنزَّلَة والكونية، فهم لصرفهم لا يصغون للآيات التنزيلية عند سماعها ولا يعتبرون بالآيات الكونية عند رؤيتها، فهم مصروفون عن الإيمان بكل آية على حدة، ولا يتوقع منهم التأثر بأية آية تنزيلية أو كونية وفي التعبير بـ ﴿ إِن ﴾ و ﴿ كُلَّ آيَةٍ ﴾ إعجاز ظاهر وتصوير دقيق لنفسية أولئك المتكبرين، فرؤويتهم للآيات لا تقع منهم إلا على قلة، وهي وإن وقعت لا يستفيدون منها بحال، والعجيب في الأمر في إنسان زماننا الحاضر أنه مُكِّن له بالصعود إلى القمر ورؤية هذا الكون العجيب وما فيه من الآيات الباهرة التي تدل على الخالق العظيم، والوقوف عليها من قرب، ومع ذلك نراه ممعنًا في كفره وباطله، والسبب في ذلك ما أشارت إليه خاتمة الآية الكريمة: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ ﴾ أي: الهدى ﴿ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ في أي وقت من الأوقات، ولا ينحازون إليه بحال لأن سبل الهدى لا تُعرف إلا من الآيات المُنَزَّلَة أولاً، فلا سبيل للاهتداء إلا بذلك، والتفكير بالآيات الكونية معضد لما جاءت به الآيات التنزيلية، فكيف يسلكون سبيل الرشاد وقد استولى الشيطان عليهم، وطبائعهم منجذبة إلى الباطل، منصرفة كل الانصراف عن الحق؟ إن ذلك لا يكون منهم أبدًا فهم مصروفون حتى عن محاولة ذلك، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ ﴾ أي: الضلال وعدم الاهتداء ﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ يلازمونه ولا ينفكون عنه بحال من الأحوال على حد

(١) سورة الحشر: الآية (١٩).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾[1] فكيف يستجيب المصروفون عن الحق وينأون عن الباطل وقد صرفهم الله المالك لقلوبهم التي لا تميل إلى الاهتداء أو تنصرف إليه، وقد حجبهم الله عن الاهتداء، فلا يكون منهم إلا سلوك سبيل الغواية؟

وقوله تعالى: ﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ يدل على شدة تشبثهم بسبيل الضلالة والدفاع عنه بكل وسيلة، ولذا نرى أهل الكفر ودعاة الباطل يستعذبون في سبيل باطلهم إزهاق أرواحهم مع ظهور بطلان باطلهم!!

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ بيان لسبب صرف المتكبرين في الأرض بغير الحق، وعدم إيمانهم بآيات الله - تعالى - ونأيهم عن سبل الرشد، واستمساكهم بسبل الغواية.

والإشارة بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ راجعة إلى كل ما ذُكر من أحوالهم في هذه الآية، والمعنى: أن ما وصفوا به من تلك الأوصاف راجع إلى تكذيبهم بآيات الله المنزلة على ألسنة رسله - عليهم الصلاة والسلام - إن قلنا: إن الآيات هي التنزيلية، وإن قلنا بما يعم التنزيلية والكونية يكن المعنى: إنهم لفرط كفرهم وتكذيبهم بكل آية ينسبون الآيات الكونية لغيره - سبحانه وتعالى - أو: لا يرون أنه المنفرد بخلقها.

وكلمة ﴿ كَذَّبُوا ﴾ تدلك على أنهم أبعدوا في التكذيب بهذه الآيات غاية الإبعاد، ولم يتركوا للتصديق بها مجالاً في قلوبهم، فهم عنها في غاية الغفلة، ولذا ختمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أي: هم غافلون عنها باستمرار، وجيء بـ (كان) لبيان تحقق هذه الغفلة واستمرارها.

ثم آيس تعالى الذين كذبوا بآيات الله وبلقاء الآخرة من أن يقبل منهم أي

---

(١) سورة يونس: الآيتان (٩٦، ٩٧).

عمل صالح جرى على يديهم في الدنيا وصلة رحم، أو إغاثة ملهوف، أو إحسان إلى مسكين؛ لأنهم لم يعملوها لله ـ عز وجل ـ وإنما عملوها بدوافع نفسية أملتها عليهم بيئتهم المحيطة بهم.

فقال تعالى: ﴿ **والَّذين كذَّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالُهم** ﴾[1] أي: الصالحة، أي: أزيلت وذهبت، فلا ينتفعون بها أيَّ انتفاع على حد قوله تعالى: ﴿ **وقدمْنا إلىٰ ما عملُوا من عملٍ فجعلْناهُ هباء مَنْثورا** ﴾[2] والهباء يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيهًا بالغبار[3] وهو رغم ضآلته التي يستحيل معها تجميعه وُصف بالمنثور، أي: المفرق، بقصد تيئيس الكفار من الانتفاع بأعمالهم الصالحة.

﴿ **هلْ يُجْزوْنَ إلاَّ ما كانُوا يعْملُون** ﴾[4] معناه: ما يجزون إلا بالجزاء الذي يناسب أعمالهم في الدنيا، من التكبر في الأرض بغير الحق، والكفر بآيات الله كلها، وإهمال سبل الرشد، وسلوك سبل الضلالة، أي أن عملهم من الصالحات لا ينتفعون به كما ينتفع المؤمنون، وما عملوا من السيئات لا يغفر لهم بل يجازون عليه بالعذاب الأليم، وقد عبر عن ذلك بأسلوب الاستفهام إمعانًا لتأكيد معاقبتهم على سوء أعمالهم، وعدم انتفاعهم بصالحها، ولما له من أثر في نفوس السامعين، وحتى لا يغتّر بأعمالهم المؤمنون، ولا يركن إليهم ذو عقل سليم.

ورغم تحذير بني إسرائيل بهاتين الآيتين الكريمتين اللتين بيَّنتا فعل الحق ـ سبحانه ـ بالمتكبرين في الأرض بغير الحق، فإن بني إسرائيل من عهد موسى ـ عليه السلام ـ وإلى أن تقوم الساعة لم ينتفع منهم بهذا التحذير إلا فريق منهم

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٧).

(٢) سورة الفرقان: الآية (٢٣).

(٣) تفسير النسفي، (٣/ ١٦٣).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٤٧).

على حد قوله تعالى: ﴿ **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾[١] ومنهم أمم كثيرة أعرضت عن الحق، وكفرت بالواحد الأحد، وناصبت أهل التوحيد العداء، وحاربتهم بألوان شتى من المحاربة تحدث القرآن الكريم عنها في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾[٢].

وسترى في الآيات التالية كفر قوم موسى بربهم، واتخاذهم العجل معبوداً لهم من دون الله - تعالى - وموقف نبيهم منهم، وتوبتهم ثم تكرر معصيتهم، وإذا وقع ذلك منهم في عهد موسى - عليه السلام - فوقوعه منهم بعده أشيع وأكثر كما فصّله القرآن وبيّنه في آيات كثيرة لا يتسع لذكرها موضوعي هذا.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٩).

(٢) سورة البقرة: الآية (٦١).

المبحث السابع
عبادة بني إسرائيل للعجل
في غيبة موسى ـ عليه السلام ـ
وعدم انتفاعهم بما وعظهم الله به

قال تعالى: ﴿ واتَّخذ قومُ موسىٰ من بعده من حُليِّهم عجلا جسدا لَهُ خُوارٌ ألم يروْا أنَّهُ لا يُكلِّمُهُمْ ولا يهديهم سبيلا اتَّخذُوهُ وكانُوا ظالمين ﴾[1].

على الرغم من النعم التي حباها المولى الكريم بني إسرائيل، وقلدها رقابهم، وأغدقها عليهم، وذلك في تخليصهم من الذل الذي عاشوا فيه قرونًا عديدة تحت وطأة حكام مصر وملوكها الفراعنة، وإنجائهم من الغرق في البحر وإغراق عدوهم أمام أعينهم، وغير ذلك من النعم العظيمة، مع ذلك جحدوا نعم الله عليهم، ومالت نفوسهم إلى الشرك بالله بعد خروجهم من مصر وهم في طريقهم إلى الطور، فما إن شاهدوا أناسًا يعكفون على أصنام لهم حتى قالوا لنبيهم موسى ـ عليهم السلام ـ: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، فقال لهم نبيهم: ﴿ إنكُم قومٌ تجهلُون (١٣٨) إنَّ هؤلاء متبَّرٌ مَا هُم فيه وباطلٌ مَا كانُوا يعملُون (١٣٩) قال أغير اللَّه أبْغيكُمْ إلها وهُو فضَّلكُمْ على العالمين ﴾[2] ثم ذكرهم في الآية التي تلى الآيات السابقة بنعم الله عليهم[3] ﴿ وإذْ أنجيناكُم مِنْ آل فرعوْن يسومُونكُم سُوء العذاب يُقتِّلُون أبناءكُمْ ويستحيُون نساءكُمْ وفي ذلكُم بلاءٌ مِّن رَّبكُمْ عظيمٌ ﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

(٢) سورة الأعراف: الآيات من (١٣٨) إلى (١٤٠).

(٣) انظر: ص (٤٩٥) من بحثنا هذا في بحث (جحود بني إسرائيل).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٤١).

ثم إنهم انتهزوا انقطاع وغياب موسى عنهم عند ذهابهم للقاء ربه، فصنع لهم السامري[١] من حليهم عجلاً عبدوه من دون الله - سبحانه وتعالى - وتبجحوا بتلك العبادة غاية التبجح، حتى إنهم كادوا يقتلون هارون - عليه السلام - لما نصحهم ببطلان ما هم عليه: ﴿ **قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي** ﴾[٢] ثم زعموا أن العجل هو إلههم وإله نبيهم موسى ﴿ **فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ** ﴾[٣].

وقد بدأت سورة الأعراف بالحديث عن اتخاذ بني إسرائيل العجل معبودًا لهم، وتركت الحديث عمن صنعه وأغراهم بعبادته لسورة طه ولذا أجدني مضطرًا قبل تفسير آية الأعراف ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ ...** ﴾ وما بعدها أن أتعرض لما أحالته سورة الأعراف على سورة طه لسببين:

أولاً: لأنه يجلي الصراع بين الحق والباطل الذي هو موضوع هذه الرسالة.

ثانيًا: لكي تكون القصة مكتملة بين يدي القارىء حتى لا يبقى مشغوفًا بالبحث عن مقدماتها.

وسأحاول الإيجاز فيه ما استطعت، وتبدأ قصة هذا الصراع في سورة طه بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ﴾[٤] والاستفهام في هذه الآية إنكاري قصد به معاتبة

---

(١) السامري: هو موسى بن ظفر. ينسب إلى قرية من قرى بني إسرائيل تدعى سامرة، وكان منافقًا، وهو الذي أضل بني إسرائيل، وقد جُوزي على ذلك بأن منع مخالطة الناس منعًا كليًا، وحُرِّم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته، وإذا اتفق أن مس أحدًا حمَّ الماس والممسوس، وكان يهيم في البرية يصيح: لا مساس، قال تعالى: ﴿ **قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس** ﴾ سورة طه: الآية (٩٧). انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٨٤)؛ وتفسير النسفي (٣/ ٦٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).

(٣) سورة طه: الآية (٨٨).

(٤) سورة طه: الآيتان (٨٣، ٨٤).

موسى ـ عليه السلام ـ لتقدمه على قومه؛ لأن تقدمه عليهم أوقعهم في إضلال السامري وفتنته إياهم بالعجل الذي صنعه لهم.

والمراد بالقوم في قوله: ﴿ **عن قومك** ﴾ هنا إما السبعون المختارون لمصاحبته أثناء تكليم الله له كما صرحت به آية الأعراف والتي سيأتيك نبأها[١] وإما بنو إسرائيل بعامة.

وعلى التفسير الأول لكلمة القوم، يكون المختارون من بني إسرائيل لمصاحبة موسى قد أصابهم إضلال السامري كما أصاب عامة بني إسرائيل، وقد اعتذر موسى ـ عليه السلام ـ لربه باعتذارين.

أولهما: قوله تعالى: ﴿ **قال هُمْ أُولاء علىٰ أثري** ﴾ أي: ليس بيني وبينهم مكان شاسع، أو زمان متطاول، أي: هم قريبون مني، وتقدمي عليهم بمثابة تقدم إمام القوم إلى الملك ليهيئ لهم المكانة عنده.

والاعتذار الثاني: هو قوله تعالى: ﴿ **وعجلْتُ إليْك ربِّ لترضىٰ** ﴾ أي: ليدوم رضاك عليّ، وليظهر عظيم شوقي إلى لقائك، واقعًا كما علمته مستترًا في قلبي، ولعل سبب هذا العتاب هو اجتهاد موسى ـ عليه السلام ـ في العجلة إلى ربه دون أن ينتظر الوحي الذي يحدد له ميعاد مفارقته قومه لمناجاة ربه ـ تعالى ـ فلم يقره الله على هذا الاجتهاد[٢].

وقد بيَّن الله سر هذه المعاتبة فقال: ﴿ **قال فإنَّا قدْ فتنَّا قومك منْ بعْدك** ﴾[٣] أي: أوقعناهم في الفتنة، وهي عبادة العجل من دوننا، وهذا يرجح أن المراد بالقوم هم الذين خلف عليهم موسى أخاه هارون، وهم عامة بني إسرائيل لا المختارون، وقوله تعالى: ﴿ **وأضلَّهُمُ السَّامريُّ** ﴾ أي: بإغوائه إياهم بعبادة

---

(١) قال تعالى: ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ﴾ سورة الأعراف: الآية (١٥٥).

(٢) بتصرف من تفسير الفخر الرازي، (٢٢/ ٩٨، ٩٩).

(٣) سورة طه: الآية (٨٥).

العجل، وصرفهم عن عبادة الواحد الأحد، واستخفافه بعقولهم، وعلمه بأنهم مهيأون لعبادة غير الله بما تعودوه في مصر، وتأثرهم بعبادة المصريين للأشخاص أو الحيوانات على ما تذكره كتب تاريخ مصر القديم[١].

وقد اختلفوا في أن السامري من بني إسرائيل أو من غيرهم، وهذا لا يعنينا كثيرًا، إنما المهم المقصود هو إضلاله بني إسرائيل، وكيف راجت عندهم خدعته، وقد وجدوا من عناية ربهم بهم وإفاضته نعمه العظام عليهم ما يحول بينهم وبين ما وقعوا فيه، لو تأملوها وتذكروها، لكنهم كانوا قليلي التأمل والتذكر.

وقوله تعالى: ﴿ **فرجع موسىٰ إلىٰ قومه** ﴾ أي: المفتونين بما صنعه السامري، من حيث كان يناجي ربه، وقد أعلمه ربه بما أحدث قومه من عبادة العجل ﴿ **غضبان** ﴾ ممتلئًا غضبًا ﴿ **أسفا** ﴾ أي شديد الحزن - كما روي عن ابن عباس[٢] - من كفر قومه بالله - عز وجل - وعكوفهم على عبادة العجل في غيبته، ولذا عاتبهم العتاب الشديد، ووبخهم أشد التوبيخ على ما وقعوا فيه.

﴿ **قال يا قوم ألم يعدكم ربكم** ﴾ الواحد الأحد الذي أنجاكم من عدوكم، وجعل لكم البحر طريقًا يبسًا «والهمزة لإنكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده، أي: وعدكم»[٣].

﴿ **وعدا حسنا** ﴾ يأتيكم على يدي أثناء غيبتي عنكم، وهو مجيء التوراة التي فيها صلاح دينكم ودنياكم وآخرتكم، أو الثواب على طاعاتكم بينما العجل الذي عبدتم لا يعرفكم ولا يشعر بتقربكم له بالعبادة، ثم زاد في توبيخه وإنكاره عليهم، قال تعالى: ﴿ **أفطال عليكم العهد** ﴾ والمراد بالعهد هنا: الزمان، أي: لم

---

(١) انظر: الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث لميخائيل شاروبيم بك (١/ ٩٣ - ٩٨) والديانات والعقائد في مختلف العصور لأحمد عبد الغفور عطار ص (٣٠٧) مكة المكرمة: ١٤٠١هـ.

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (١٦/ ٢٤٤).

(٣) تفسير الألوسي، (١٦/ ٢٤٤).

تطل غيبتي عنكم حتى تنسوا عبادة الواحد الأحد، وتعبدوا ما لا يملك لكم ضرًا ولا نفعًا، والاستفهام هنا إنكاري بمعنى النفي، أي: لم تطل غيبتي عليكم حتى تعتذروا بها عما وقعتم فيه، وقد خلفت عليكم، أخي هارون، نبي الله - تعالى - فكيف عصيتموه؟

ثم أضرب عن هذا التوبيخ إلى بيان دخائل نفوسهم، وما رغبوا فيه، وهو الوقوع في غضب الله - تعالى - باكتسابهم ما يؤدي بهم إليه ﴿ **أم أردتُم أن يحلَّ عليكُم غضبٌ مِن ربِّكُم فأخلفتُم مَوعدي** ﴾ الذي وعدتموني أثناء غيبتي عنكم باستقامتكم وثباتكم على الدين الحق.

وقد استشعر بنو إسرائيل قبح ما صنعوا فحاولوا أن يتعذروا لموسى - عليه السلام - بما لا يصلح اعتذارًا ﴿ **قالُوا ما أخلفْنا موعدك بملكنا** ﴾ أي: برغبتنا وإرادتنا ﴿ **ولكنَّا حُمِّلْنا أوزارا مِن زينة القوْم** ﴾ أي: حملنا حلي المصريين التي استعرناها منهم لنتجمل بها في يوم عيد لنا، ثم خرجنا بها من مصر ولم ندر ماذا نفعل فيها. فأشار علينا السامري بإلقائها في حفرة، وقد ألقى ما معه من حلي في تلك الحفرة ليغرينا بإلقائها لئلا ننتظر توجيهك فيها، فأوقد عليها النار، وصنع منها عجلاً جسدًا له خوار أضلنا به، وأغرانا بعبادته، قال تعالى: ﴿ **ولكنَّا حُمِّلْنا أوزارا مِن زينة القوْم فقذفْناها فكذلك ألْقى السَّامريُّ** ﴾[1].

والآن أعود إلى سورة الأعراف - موضوع رسالتي - لأتناول آيات هذه القصة بالتفسير وبذلك الجهد فيها. والله المستعان وعليه الاتكال.

قال تعالى: ﴿ **واتَّخذ قوْمُ موسىٰ مِن بعْده مِن حُليِّهِم عجْلاً جسدًا لَّهُ خُوارٌ ألم يروْا أنَّهُ لا يُكلِّمُهُمْ ولا يهْديهِمْ سبيلاً اتَّخذُوهُ وكانُوا ظالمين** ﴾[2] أي: اتخذوه إلهًا

---

(١) سورة طه: الآية (٨٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

معبودًا، والتضعيف في كلمة ﴿ **اتَّخذ** ﴾ يدل على أنهم تكلفوا ذلك وافتعلوه، ولو فكروا أدنى تفكر لما حامت نفوسهم حول هذا الاتخاذ ولكن شهوة تقليدهم للمصريين الذين عاشروهم دهرًا طويلاً هي التي حملتهم على هذا الاتخاذ، وهي التي جعلتهم يقولون لموسى ـ عليهم السلام ـ: ﴿ **اجعل لنا إلها كما لهم ءالهة** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **من حليهم** ﴾ بيانٌ أن ما عبدوه أصله عندهم معروف، وهو معدن من معادن الأرض، فكيف عبدوه من دون الله ـ تعالى ـ؟ وهل يليق في العقل أن تَحوُّل الحلي والزينة إلى شكل آخر ـ مهما ظهرت له من صفات مستغربة ـ يستدعي أن يكون إلهًا؟.

وقوله: ﴿ **عِجْلاً جَسَدًا** ﴾ اختلف المفسرون في معناه، وسأنقل لك نصوصهم في ذلك مرجحًا ما غلب على قلبي، والله أعلم بالصواب.

قال الفخر ـ رحمه الله ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوارٌ** ﴾ ما نصه: «اختلفوا في أنه هل كان ذلك الجسد حيًا أم لا؟

فالقول الأول: لا ـ أي ليس ذلك الجسد حيًا ـ لأنه لا يجوز إظهار خرق العادة على يد الضال، بل السامري صوّر صورة على شكل العجل، وجعل فيها منافذ ومخارق بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل.

والقول الثاني: أنه صار حيًا، وخار كما يخور العجل، واحتجوا عليه بوجوه:

أ ـ قوله: ﴿ **فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ** ﴾[1] ولو لم يَصِر حيًا لما بقي لهذا الكلام فائدة.

ب ـ أنه ـ تعالى ـ سماه عجلاً، والعجل حقيقة في الحيوان، وسماه جسدًا وهو إنما يتناول الحي.

---

(١) سورة طه: الآية (٩٦).

جـ- أثبت له الخوار، وأجابوا عن حجة الأولين بأن ظهور خوارق العادة على يد مدعي الألوهية جائز لأنه لا يحصل الالتباس، وهاهنا كذلك فوجب أن لا يمتنع»[١].

والراجح عندي - والله أعلم - أنه كان عجلاً حقيقيًا لقوله تعالى: ﴿ **عجلا** ﴾ والعجل حقيقة في ولد البقر، ولو صفه له - جل وعلا - بقوله: ﴿ **جسدا** ﴾ والجسد إنما يطلق على ما فيه الروح ولا غرابة في ذلك، فتحويل الحلي إلى عجل حقيقي على يد السامري ليس خلقًا من السامري إنما وقع بخلق الله ومراده لاختبار بني إسرائيل الذين غفلوا عن نعمه، واشتهوا عبادة غيره - كما ذكرته مرارًا - فجَعْلُ الحلي عجلاً حقيقيًا أظهر في وقوعهم في تلك الفتنة من القول الأول القائل بأنه صور الحلي بصورة عجل وجعل فيه مجاري يمر فيها الريح فيحدث الصوت، ولو كان هذا الرأي قويًا لقال الله - عز وجل -: (عجلاً جسدًا له صوت) ولكنه قال: ﴿ **لَهُ خُوارٌ** ﴾ والخوار حقيقة في صوت البقر، ومما يزيدني استمساكًا بما رجحته قال الألوسي: «وإلى القول بالحياة ذهب كثير من المفسرين»[٢] ومما يؤيد كون العجل كان قد نفخ فيه الروح ما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده قال: حدثنا أبي[٣] ثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني[٤] ثنا محمد بن ثور[٥]

---

(١) تفسير الرازي (٢٢/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) تفسير الألوسي (٩/ ٦٤).

(٣) وهو: أبو حاتم محمد بن إدريس بن المنذر بن مهران الحنظلي الرازي، أحد الأئمة الحفاظ، ولد سنة ١٩٥ هـ، وهو من الطبقة الحادية عشر.
انظر: الجرح والتعديل، (١/ ٣٤٩)؛ وسير أعلام النبلاء، (١٣/ ٢٤٧)؛ وتذكرة الحفاظ، (٢/ ٥٦٧)؛ وتهذيب التهذيب، (٩/ ٣١)؛ وتقريب التهذيب، (٢/ ١٤٣).

(٤) محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، البصري، ثقة من الطبقة العاشرة، مات سنة خمس وأربعين.
انظر: التهذيب، (٩/ ٨٧)؛ وتقريب التهذيب (٢/ ١٨٤).

(٥) محمد بن ثور الصنعاني أبو عبد الله العابد، ثقة، من التاسعة، مات سنة تسعين ومائة تقريبًا
انظر: تهذيب التهذيب، (٩/ ٨٧)؛ وتقريب التهذيب (٢/ ١٤٩).

عن معمر[١] عن قتادة[٢] في قوله: ﴿ **مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ** ﴾ قال: استعاروا حليًا من آل فرعون فجمعه السامري فصاغ منه عجلاً، فجعله الله جسدًا لحمًا ودمًا له خوار[٣].

وقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ** ﴾ توبيخ لهم وتقريع، والمقصود أنه لا يتأتى منه الكلام، فهو خالٍ من آية صفة تصلح لجعله إلهًا.

وقد اختار القرآن نفي صفة الكلام عن هذا العجل بالذات دون السمع والبصر وغيرهما لأن بني إسرائيل كانوا يعلمون يقينًا أن الله - تعالى - يكلم موسى - عليه السلام - وأنه يتلقى من ربه بلا واسطة، فكيف يعرضون عن عبادة هذا الإله إلى عبادة عجل لا يتكلم؟

ثم نفى اتصاف هذا العجل بأية صفة تستدعي التباس الأمر عليهم فيه فقال: ﴿ **وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً** ﴾ بوجه من الوجوه، لأنه عارٍ عن سائر الصفات التي تمكّنه من ذلك.

ولذلك ختمت هذه الآية ببيان طبيعة بني إسرائيل، وهي استمرارهم على الظلم بوضع الشيء في غير موضعه، وتعاميهم عن الحق مع ظهوره ﴿ **اتَّخَذُوهُ**

---

(١) معمر بن راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري، نزيل اليمن، ثقة ثبت فاضل، من كبار السابعة، مات سنة أربع وخمسين، انظر: التهذيب، (١٠/ ٢٤٣)؛ وميزان الأعتدال، (٤/ ١٥٤).

(٢) قتادة: قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت، وهو رأس الطبقة الرابعة، مات سنة مائة وبضع عشرة، انظر: ابن سعد، (٧/ ٢٢٩)؛ والجرح والتعديل، (٢/ ٣/ ١٣٣)؛ والميزان (٣/ ١٨٥)؛ والتهذيب، (٨/ ٣٥١)؛ والتقريب، (٢/ ١٢٣). درجة الأثر: (صحيح الإسناد) ورجاله ثقات.

(٣) الدر المنثور للسيوطي، (٩/ ٥٦٣)؛ وانظر: تفسير ابن أبي حاتم - سورة الأعراف - تحقيق/ حمد بن أبي بكر، (٢/ ٥٢١).

وكانوا ظالمين﴾[١] أي: إن المعصية دأبهم، فليس اتخاذهم العجل بأول منكر فعلوه.

وهكذا تصور لنا الآيات السابقة ضلال وكفر بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي يذبحونه بأيديهم ليأكلوه، وكونه منقلبًا عن ذهب ـ كما رجحته سابقًا ـ لا يخرجه عن كونه عجلاً يتلذذ الإنسان بأكل لحمه، وكان عليهم أن يجتهدوا في عبادة ربهم الذي حول ذهبهم إلى عجل جسد له خوار، فالسامري لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بقبضة من أثر جبريل عليه السلام[٢] وما كان لأثر جبريل هذا التأثير إلا لكونه عبدًا لباريء السماوات والأرض.

أخرج ابن أبي حاتم قال: «حدثنا أبي[٣] ثنا أبو صالح[٤]، حدثنا معاوية بن صالح[٥]

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

(٢) قال تعالى في سورة طه: الآية (٩٦): ﴿قال ما خطبك يا سامري: قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي﴾ فالمراد: فقبضت قبضة من التراب الذي مر عليه فرس جبريل كما صرحت بذلك الروايات في كتب التفسير. انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٦٤).

(٣) سبقت ترجمته ص (٥٣٧).

(٤) أبو صالح: هو أبو عبد الله بن صالح بن محمد بن مسلم الجهني مولاهم المصري، قال عبد الملك حفيد الليث: ثقة مأمون، وقال أحمد: كان أول أمره متماسكًا ثم فسد بآخره، وقال أبو زرعة: لم يكن عندي ممن يتعمد الكذب في الحديث، وقال ابن عدي: هو عندي مستقيم، وقال ابن حجر: صدوق كثير الغلط ثبت في كتابة وكانت فيه غفلة، من الطبقة العاشرة، مات سنة اثنتين وعشرين وله خمس وثمانون سنة.

انظر: الميزان، (٢/ ٤٤٠)، والتهذيب، (٥/ ٢٥٦)، والتقريب (١/ ٤٢٣).

(٥) معاوية بن صالح بن حدير بن سعيد بن فهد الحضرمي من أبو عمرو وقيل أبو عبد الرحمن الحمصي، وثّقه ابن مهدي والعجلي والنسائي وأبو زرعة وابن سعد والبزار، وقال مرة: ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن عدي وابن خراش: صدوق، قال ابن حجر: =

عن علي بن أبي طلحة[١] عن ابن عباس[٢] قال: وكان السامري قد أبصر جبريل - عليه السلام - على فرس، وأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب فقال حين مضي ثلاثون ليلة: يا بني إسرائيل إن معكم حليًا من حلي آل فرعون وهذا حرام عليكم، فهاتوا ما عندكم نحرقها، فأتوه ما كان عندهم فأوقدوا نارًا فألقى الحلي في النار، فلما ذاب الحلي ألقى تلك القبضة من تراب في النار فصار عجلاً جسدًا له خوار، فخار خوارة لم يثن»[٣].

❊ ❊ ❊

= صدوق له أوهام، من الطبقة السابعة، مات سنة ثمان وخمسين وقيل بعد السبعين.
انظر: تهذيب التهذيب، (١٠/ ٢٠٩)، والتقريب (٢/ ٢٥٩).

(١) علي بن أبي طلحة واسمه سالم بن المخارق الهاشمي، يكنى أبا الحسن وقيل غير ذلك، أصله من الجزيرة وانتقل إلى حمص، أخذ تفسير ابن عباس عن مجاهد فلم يذكر اسم مجاهد بل أرسله عن ابن عباس، وثقه العجلي، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال: له أشياء منكرة، وقال ابن حجر: صدوق قد يخطيء، من الطبقة السادسة، مات سنة ثلاث وأربعين، انظر: ميزان الاعتدال (٣/ ١٣٤) والتهذيب (٧/ ٣٣٩) والتقريب (٢/ ٣٩).

(٢) ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن وابن عم رسول الله ﷺ ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، وتوفي سنة سبع أو ثمان وستون، انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٣١).

(٣) درجة الأثر: هذا أصح الأسانيد عن ابن عباس في التفسير، وما يرويه ابن أبي حاتم بهذا السند هو النسخة المشهورة لعلي بن أبي طلحة.
قال أحمد بن حنبل: «بمصر صحيفة في تفسير القرآن رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدًا ما كان كثيرًا» ولولا صحة هذه النسخة لما قال فيها أحمد ما قال.
قال ابن حجر: «وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، وهي عند البخاري عن أبي صالح وقد اعتمد عليها في صحيحه كثيرًا فيما يعلقه عن ابن عباس».
انظر: الإتقان (٤/ ٢٠٧) في النوع الثمانين طبقات المفسرين.

المبحث الثامن
ندم قوم موسى على عبادتهم العجل

قال تعالى: ﴿ ولَمَّا سُقط في أيديهم ورأوا أنَّهم قد ضلُّوا قالُوا لئن لَم يرحمنا ربُّنا ويغفر لنا لنكُونَنَّ من الخاسرين ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ ولَمَّا سُقط في أيديهم ﴾ كناية عن شدة الندم الذي حل بهم بعد عبادتهم للعجل، وبالغ تأسفهم على مخالفتهم أوامر نبيهم ـ عليه السلام ـ.

وقد عبر عنه بالسقوط في اليد؛ لأن النادم يعض على يده فتصير يده مسقوطة فيها لأن فَاه قد وقع فيها[٢] ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ ويوم يعضُّ الظَّالمُ علىٰ يديه يقولُ يا ليتني اتَّخذتُ مع الرَّسول سبيلا ﴾[٣] أو يضرب بإحدى يديه على الأخرى من الندم كما قال تعالى: ﴿ وأُحيط بثمره فأصبح يُقلِّبُ كفَّيه علىٰ ما أنفق فيها وهي خاويةٌ علىٰ عُروشها ويقولُ يا ليتني لم أُشرك بربِّي أحدا ﴾[٤].

وقوله: ﴿ ورأوا أنَّهم قد ضلُّوا ﴾ أي تبينوا ضلالهم باتخاذهم العجل، وأيقنوا أنهم جاروا عن قصد السبيل، وانحرفوا عن دين الله الحق إلى عبادة ما لا ينفع ولا يضر، وقد تبينوا ذلك كأنهم قد أبصروه بعيونهم وعاينوه.

وفي تقديم الندم على الرؤية مع كونه متأخراً عنها للمسارعة إلى بيانه، والإشعار بغاية سرعته[٥].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٩).

(٢) انظر: تفسير الرازي، (١٥/ ٧، ٨).

(٣) سورة الفرقان: الآية (٢٧).

(٤) سورة الكهف: الآية (٤٢).

(٥) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٦٤، ٦٥).

ولفرط ندمهم وتأسفهم على ما وقع منهم قالوا مبتهلين إلى الله ـ جل وعلا ـ وجلين: ﴿ **قالوا لئن لَمْ يرحمنا ربُّنا** ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء فيتوب علينا ويكفر عنا سيئاتنا.

﴿ **ويغفرْ لنا** ﴾ بتجاوزه عن خطيئتنا.

﴿ **لنكونَنَّ من الْخاسرين** ﴾ جواب قسم محذوف تقديره: والله لئن لم يرحمنا ربنا، وتوبتهم هذه كانت بعد رجوع موسى ـ عليه السلام ـ من ميقات ربه، وإنكاره لما وجدهم عليه، وتأنيبهم وتوبيخهم، بدليل قوله ـ تعالى ـ حكاية عنهم عندما نهاهم هارون عن عبادة العجل: ﴿ **قالوا لن نَّبرحَ عليْه عاكفين حتَّىٰ يرْجع إلينا موسىٰ** ﴾ (١) وبدليل الوهلة والغضب الذي أصاب موسى ـ عليه السلام ـ عندما رآهم عاكفين على عبادة العجل، فطرح الألواح على الأرض ﴿ **ولَمَّا رجع موسىٰ إلىٰ قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعْدي أعجلْتم أمْر ربِّكُمْ وألقى الألواح** ﴾ (٢) وسوف يمر عليك بعد هذا المبحث تفصيل ذلك.

قال بنو إسرائيل: ﴿ **لئن لَمْ يرْحمْنا ربُّنا ويغْفرْ لنا لنكُونَنَّ من الْخاسرين** ﴾ أي: الهالكين لا محالة، مُقدِّمين الرحمة على المغفرة لبيان قبح ذنبهم وأنه لا يغفر إلا برحمة عظيمة من الله ـ تعالى ـ فهل رحمهم وغفر لهم؟

سأرجيء الجواب عن هذا السؤال إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ **إنَّ الَّذين اتَّخذُوا الْعجْل سينالُهُمْ غضبٌ من ربِّهمْ وذلَّةٌ في الْحيَاة الدُّنْيا وكذلك نجْزي الْمُفْترين** ﴾ (٣).

* * *

(١) سورة طه: الآية (٩١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٥٢).

المبحث التاسع
توبيخ موسى ـ عليه السلام ـ لقومه على عبادتهم العجل

قال تعالى: ﴿ ولَمَّا رجع موسىٰ إلىٰ قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمُوني من بعدي أعجلتُم أمر ربكُم وألقى الألواح ﴾[1].

وقوله: ﴿ ولَمَّا رجع موسىٰ إلىٰ قومه ﴾ بعد أن استوفى الميقات الذي ضربه له ربه ليكلمه بعده، ولينزل التوراة التي فيها موعظة وتفصيل لكل شيء مما يحتاج إليه بنو إسرائيل، وقد أعلمه ربه بما أحدثه قومه من عبادة العجل في غيبته أثناء هذا الميقات ـ كما بينته سابقًا ـ[2] رجع ـ عليه السلام ـ إلى قومه وهو غضبان عليهم أشد ما يكون الغضب لما أحدثوه في غيبته ﴿ أسفا ﴾ أي: حزينًا أشد ما يكون الحزن على فعلة قومه النكراء، وعلى أنهم لم يذكروا ما أنعم الله ـ تعالى ـ به عليهم مما أشرت إليه أكثر من مرة، وأنهم لخفة عقولهم وقلة يقينهم تقبلوا خدعة السامري لهم برغبة وحب، إلى حد أنهم قطعوا الطريق على هارون ـ عليه السلام ـ لما بيَّن لهم بطلان ما هم عليه من عبادة العجل، بما قصَّه الله عنهم: ﴿ قالُوا لن نَبْرح عليْه عاكفين حتَّىٰ يرْجع إلينا مُوسىٰ ﴾[3] بل لقد هَمّوا بقتله كما ستقف عليه في آخر هذه الآية الكريمة، ولذا عبرت الآية عن غضب موسى وحزنه بصيغتين من صيغ المبالغة (فعلان وفعل).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).

(٢) انظر: ص (٥٣١) من بحثنا هذا.

(٣) سورة طه: الآية (٩١).

فقوله ﴿ **غضبان** ﴾ أي: ممتلئًا غضبًا، وشدة الغضب في الله من خصال الخير، وشدة الحزن كذلك، وكان نبينا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا يغضب لنفسه، فإذا انتهكت حرمات الله غضب لذلك غضبًا لا يقوم معه شيء، وأن قرابة بني إسرائيل لم تغن عنهم شيئًا عنده لما حادوا عن الحق، وقد اشتد حزنه عليهم لكفرهم بالله وهو بين أظهرهم، ولأنهم أبناء أنبياء كرام، فانحرافهم عن الحق يستتبع انحراف غيرهم عنه غالبًا، ولا تستغرب إذا قلت لك: إن اليهود أو بني إسرائيل ـ سمِّهم كما شئت ـ هم سبب نكبة أغلب العالم قديمًا وحديثًا.

وقوله ﴿ **أسفا** ﴾ قال الإمام الفخر الرازي: «في الأسف قولان:

الأول: أن الأسف الشديد الغضب، وهو قول أبي الدرداء وعطاء عن ابن عباس، واختيار الزجاج، واحتجوا بقوله: ﴿ **فلمَّا آسفُونا انتقمْنا منهُمْ فأغرقْناهُمْ أجمعين** ﴾[1] أي: أغضبونا.

والثاني: وهو أيضًا قول ابن عباس والحسن والسدي: أن الآسف هو الحزين، وفي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «إن أبا بكر رجل أسيف» أي: حزين.

قال الواحدي: «والقولان متقاربان؛ لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب، فإذا جاءك ما تكره ممن هو من دونك غضبت، وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنت، فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزنًا والأخرى غضبًا، فعلى هذا كان موسى غضبان على قومه لأجل عبادتهم العجل، أسفًا حزينًا لأن الله فتنهم، وقد كان ـ تعالى ـ قال له: ﴿ **قال فإنَّا قدْ فتنَّا قومَك من بعْدك** ﴾[2]»[3] وجواب (لما)

---

(١) سورة الزخرف: الآية (٥٥).

(٢) سورة طه: الآية (٨٥).

(٣) تفسير الرازي، (١٥/ ١٠).

قوله تعالى: ﴿ **بئسما خلفتموني من بعدي** ﴾.

فـ (ما) نكرة موصوفة، تفسر فاعل بئس المستتر، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: بئس خلافة خلفتموني بها أثناء غيبتي عنكم لأتلقى من ربي ما فيه صلاحكم.

والخطاب في قوله: ﴿ **خلفتموني** ﴾ إما لعبدة العجل، وهو الراجح عندي، وإما لهارون ومن معه ممن ثبت على إيمانه، والمعنى على هذا التقدير الأخير: إن موسى ـ عليه السلام ـ لام هارون ومن معه على تقصيرهم في منْع عبدة العجل من عبادتهم، ولم يكن يعلم ـ عليه السلام ـ مقاومة هارون لهؤلاء العبدة، ولا همّهم بقتله، بل ظن أنه ومن معه قد خافوهم لكثرتهم فلم ينصحوهم.

ولكن حمل الخطاب على العبدة أوفق ليتلاءم مع قوله تعالى: ﴿ **أعجلتم أمر ربكم** ﴾ لأن العجلة غير متصورة من هارون ـ عليه السلام ـ ولأن آخر هذه الآية صريح في لوم هارون، فلو جعل الخطاب لهارون ومن معه من المؤمنين لخلت الآية من لوم عبدة العجل مع أنه الأولى بالذكر، والاستفهام في قوله تعالى: ﴿ **أعجلتم أمر ربكم** ﴾؟ إنكاري تحقيقي على معنى قد عجلتم أمر ربكم، وإنما عدل عن التحقيق لإبراز إنكار موسى عليهم لتلك العجلة، وقد قيل في معنى العجلة: هي فعل الشيء قبل وقته بخلاف السرعة فإنها فعل الشيء في أول وقته، ولذا ذم بعضهم العجلة ولم يذم السرعة[1].

والمراد بأمر ربهم الذي استعجلوه هو وعده ـ تعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ أن يأتي ربه بعد مضي ثلاثين ليلة وقد عرفت ـ فيما أسلفنا ـ[2] أن موسى ـ عليه السلام ـ صام كل هذه الأيام بلياليها، وأنه لما أنكر رائحة فمه تسوك، فزاده الله

---

(١) بتصرف من تفسير الرازي (١٥/ ١٠، ١١).

(٢) انظر: ص (٥٠٣، ٥٠٤) من بحثنا هذا.

عليها عشرًا، فلما لم يرجع إليهم على رأس الثلاثين ظنوا أنه قد مات، فغيروا وبدلوا، وكفروا بالله مع وجود هارون النبي بينهم واستخلاف موسى إياه عليهم، وهذا أمر عجيب حقًا يقتضي الإنكار عليهم، ويرى عطاء أن المراد بأمر ربهم الذي استعجلوه سخطه عليهم، وعذابه لهم، والمعنى على هذا الرأي الأخير: قد عجلتم عذاب ربكم لكم بعبادتكم العجل واستقرار حبه في قلوبكم.

وقد ذكرت الآية لشدة غضب موسى - عليه السلام - مظاهر:

١ - قوله لقومه: ﴿ **بئسما خلفتموني من بعدي** ﴾.

٢ - وقوله تعالى: ﴿ **أعجلتم أمر ربكم** ﴾.

٣ - وقوله تعالى: ﴿ **وألقى الألواح** ﴾.

٤ - وقوله تعالى: ﴿ **وأخذ برأس أخيه يجره إليه** ﴾.

وهذه المظاهر تبين لك تهاوي الباطل وتخاذله أمام الحق وشدته؛ فإن بني إسرائيل عبدة العجل لما رأوا شدة غضب موسى - عليه السلام - مع كثرتهم - رأوا أنفسهم كعصافير محبوسة في قفص لا يعي صائدها عن أخذها، وحاولوا أن يجتهدوا في الاعتذار إليه وذكر السبب الذي به ضلوا كما ذكرته سورة طه، وهو قوله تعالى: ﴿ **قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري** ﴾[1] وقد تناولت هذه الآية في التقدمة لعبادة بني إسرائيل العجل، فتأمل موقف بني إسرائيل مع موسى القائم على الاعتذار، وعلى ما عراهم من خوفهم بطش الكليم بهم، وموقفهم من هارون حين قالوا له: ﴿ **قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى** ﴾[2] فإنهم قالوا ذلك لاستضعافهم له، وعدم خشيتهم من صولته، وهكذا أهل الباطل يتبجحون

---

(١) سورة طه: الآية (٨٧).

(٢) سورة طه: الآية (٩١).

بباطلهم ما فقدوا الرادع القوي، فإذا ردعوا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وكادت قلوبهم تبلغ حناجرهم، وقوله تعالى: ﴿ **وألقى الألواح** ﴾ للمفسرين في هذه الجملة كلام طويل وكثير أنفذ إلى أقواه وأرجحه بلا دخول في سرد ما قالوه.

والسبب في كثرة ما قيل حول هذه الجملة الكريمة هو التعبير بكلمة ﴿ **ألقى** ﴾ مكان كلمة (وضع) فإن كلمة ﴿ **ألقى** ﴾ تعني: إلقاء ما في اليد بلا مبالاة، وكلمة (وضع) تعني: وضع ما في اليد بتريث وتحفظ لما وضع.

والواقع أن ﴿ **ألقى** ﴾ هنا بمعنى (وضع) وقد اختار القرآن التعبير بها ليمهد بها لما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿ **وأخذ برأس أخيه** ﴾ فإن الأخذ لا يكون إلا باليد، ولا يستطيع ذلك إلا إذا فرغت يده مما فيها، وموسى ـ عليه السلام ـ إنما أسرع بإلقاء ما في يده، لما يرى أن ما بعد من الأهمية بمكان، ولذا وضع ما بيده من الألواح ليتفرغ لمسألة أخيه والأخذ برأسه، لا أن شدة الغضب هي التي حملته على إلقاء الألواح بدون النظر لما يحدث لها بسبب الإلقاء، ومما يقوي ما ملت إليه أن هذه الجملة جاءت لمدح موسى وبيان شدة غيرته في دين الله تعالى.

وأما ما قيل من تكسر معظمها بالإلقاء، فرفع المكسر بما فيه، فلم يثبت في حديث صحيح حتى نعوِّل عليه، وفي جعل الإلقاء الذي أدى إلى تكسر الألواح ناشئًا عن استيلاء الغضب على موسى ـ عليه السلام ـ مما جعله ينسى قدسية الألواح التي بيده لا يساعده ظاهر النص لأن هذه الجملة كما قلت لم ترد للعتاب.

والذين قالوا بتكسر الألواح استدلوا بالحديث الذي أورده الألوسي في تفسيره: «أخرج أحمد وغيره وعبد بن حميد والبزار وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**يرحم الله ـ تعالى ـ موسى؛ ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه ـ تبارك**

وتعالى ـ أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح، فتكسر منها ما تكسر»[١].

هذا الحديث أثبت تكسر بعض الألواح، وقد أخرجه الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب السنة وأثبت أيضًا التكسر وإليك نص الحديث:

حدثني أبونا سريج ابن النعمان ناهشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**ليس الخبر كالمعاينة، إن الله ـ عز وجل ـ أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت**»[٢].

قلت: الحديث إسناده ضعيف لأن فيه هشيم وهو ابن بشير السلمي أبو معاوية بن أبي حازم الواسطي، ثقة ثبت كثير التدليس والإرسال الخفي[٣].

والحديث نفسه أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم في المستدرك بدون ذكر التكسير، أخرج ابن أبي حاتم بسنده قال: «حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ثنا عفان ثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: **يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه ـ تبارك وتعالى ـ أن قومه فتنوا فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح**»[٤].

أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب تفسير سورة الأعراف، (٢/ ٣٢١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

(١) تفسير الألوسي (٩/ ٦٧).

(٢) ابن حنبل، الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد. كتاب السنة. تحقيق د. محمد بن سعيد القحطاني، مكة المكرمة، ابن القيم.

(٣) انظر: التقريب، (٢/ ٣٢٠).

وقد ذكر ابن أبي حاتم بعد هذه الرواية رواية أخرى قال: «حدثنا أبي حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني يعلي ابن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنه ألقى موسى الألواح فتكسرت فرفعت إلا سدسها»[١].

وأخرج الحديث الذي نحن بصدد دراسته الحاكم في المستدرك بدون ذكر التكسير: «عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**ليس الخبر كالمعاينة، إن الله أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح**» هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي[٢].

فقد تبين لنا من دراسة متن الحديثين وسندهما أن الحديث الذي لم يتعرض للتكسير حسن أو صحيح بينما الحديث الذي تعرض للتكسير والذي قد يشم منه الطعن على الكليم في الإلقاء ضعيف لا يُعوَّل عليه في مثل هذا المقام لأن الأنبياء معصومون عن الأحوال العادية التي لا تجوز في حقهم مع جوازها من غيرهم.

والذي يفهم من الحديث بيان سبب إلقاء الألواح، فهو بمثابة الاعتذار عن أخيه هارون مما قد يظن به مما لا يليق بمقامه ـ عليه السلام ـ وهو أيضًا مدح له كالآية تمامًا، والله أعلم بالصواب.

---

(١) انظر: تفسير سورة الأعراف الأخ الزميل/ د. حمد بن أبي بكر، (٢/ ٥٢٥).

(٢) الحديث إسناده ضعيف لأن في سنده (حجاجًا) وهو ابن محمد المصيص الأعور أبو محمد، مولى سليمان بن مجالد، ترمذي الأصل، سكن بغداد ثم تحول إلى المصيصة، ثقة ثبت لكنه اختلط في آخر عمره لما قدم بغداد وقد مات بها سنة ست ومائتين.

انظر: الميزان (١/ ٤٦٤) والتهذيب (٢/ ٢٠٥) والتقريب (١/ ١٥٤) وانظر: تفسير سورة الأعراف الأخ الزميل/ د. حمد بن أبي بكر (٢/ ٥٢٦).

(٣) المستدرك للحاكم (٢/ ٢١).

قال الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ: «ليس في القرآن إلا أنه ألقى الألواح، فأما أنه ألقاها بحيث تكسرت فهذا ليس في القرآن وإنه لجرأة عظيمة على كتاب الله، ومثله لا يليق بالأنبياء ـ عليهم السلام ـ»[1].

❊ ❊ ❊

(١) تفسير الرازي (١٥/ ١١).

المبحث العاشر
لوم موسى ـ عليه السلام ـ لأخيه هارون ودفاع هارون عن نفسه

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ ...وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾[1].

قبل أن أشرع في تفسير هذه الآيات الكريمة لابد أن أبين الحوار الذي حدث بين موسى وأخيه، والذي فصلته سورة طه، ليكون القارىء على علم بالأحداث التي صاحبت هذه الحادثة، ولأن القرآن وحدة متكاملة، فما أجمل في موضع يفصل في موضع آخر، وهذه إحدى سمات الإعجاز في كتاب الله العزيز.

قال تعالى: ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا (٩٢) ألا تتبعن أفعصيت أمري ﴾؟[2] أي: لماذا لم تسارع إلى إخباري وإعلامي بما أحدثوه من عبادة العجل فمكاني منكم ليس ببعيد عنكم؟ ويستدل بالآية على حرص الرسل الشديد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على هداية أقوامهم، ونجاتهم وفلاحهم، واحترازهم البالغ من وقوع أممهم في المهالك.

﴿ أفعصيت أمري ﴾؟ استفهام انكاري، أي: هل عصيت ما أمرتك به من استخلافك على قومي؟ كما قصَّه القرآن ﴿ وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).

(٢) سورة طه: الآيتان (٩٢، ٩٣).

قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾[١].

فأخذ هارون يدافع عن نفسه بقوله: ﴿ قال يا بنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ﴾[٢] يفهم من الآية أن الغضب قد أخذ من موسى لمخالفة قومه ما تركهم عليه، فقد أخذ موسى بلحية ورأس هارون يجره إليه، يعنّفه على الذي حدث، فقال هارون: ﴿ إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ﴾.

أي: خشيت إن فارقتهم وأتيت إليك لإخبارك بما أحدثه قومك، ولحق بي من هم باقون معي على الإيمان، ولحق الفريق الآخر السامري أن تقول حينئذ: ﴿ فرقت بين بني إسرائيل ﴾.

﴿ ولم ترقب قولي ﴾ أي: لم تحافظ وتراع ما قلته لك، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ اخلفني في قومي وأصلح ... ﴾ وفي الآية دليل على جواز الاجتهاد.

وأعود إلى سورة الأعراف فقوله: ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ أي: بشعر رأس هارون - عليه السلام - ﴿ يجره إليه ﴾ ظنًا منه أنه فرّط في نصحهم وكفِّهم، وقد فعل موسى - عليه السلام - بأخيه هارون ذلك مع أنه أكبر منه سنًا، وذلك لشدة غضبه وفرط غيظه، ولم يقصد موسى بهذا إهانته والاستخفاف به بل للَّوم والتأنيب على التقصير المظنون بحكم الرئاسة وفرط الحمية.

هذا وقد فسر الرازي - رحمه الله - أخذ موسى رأس أخيه يجره إليه ليُساره ويستكشف منه كيفية الواقعة[٣] وهذا يمنعه صريح منطوق الآية لأن دفاع هارون عن نفسه بقوله: يا ﴿ بن أم ﴾ فيه استعطاف واسترحام، فهو يستجيش عاطفة

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٢).

(٢) سورة طه: الآية (٩٤).

(٣) تفسير الرازي، (١٥/ ١١).

الأخوة في قلب موسى بنداء رقيق يا ﴿ **بن أم** ﴾ لا تعجل بلومي وتعنيفي فما آليت جهداً في الإنكار عليهم، وما قصرت في نصيحتهم، لكنهم لم يستمعوا لنصحي، واستضعفوني وأوشكوا أن يقتلوني، فلا تفعل بي ما هو محل شماتتهم من الاستهانة بي والإساءة إليّ.

﴿ **ولا تجعلني مع القوم الظالمين** ﴾ أي: بغضبك عليّ وذلك من هارون ـ عليه السلام ـ تواضع تام وأدب جم مع أخيه موسى، الذي له الرئاسة، والذي بطلبه وبرغبته نال هارون ـ عليه السلام ـ النبوة والوزارة لموسى ـ عليه السلام ـ قال تعالى: ﴿ **ووهبنا له من**[1] **رحمتنا أخاه هارون نبيا** ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ **واجعل لي وزيرا من أهلي (٢٩) هارون أخي (٣٠) اشدد به أزري (٣١) وأشركه في أمري (٣٢) كي نسبحك كثيرا (٣٣) ونذكرك كثيرا (٣٤) إنك كنت بنا بصيرا (٣٥) قال قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾[3].

* * *

(١) أي: لموسى.

(٢) سورة مريم: الآية (٥٣).

(٣) سورة طه: الآيات من (٢٩) إلى (٣٦).

المبحث الحادي عشر
اعتذار موسى لربه عما بدر منه لأخيه

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[1] لما عرف موسى - عليه السلام - أن أخاه هارون لم يقصر في نصح القوم وأنهم تمالأوا عليه، وأن موسى قال له: ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ ولم يقل له: «إن بدت منهم مخالفة فاتبعني لتخبرني بها» سأل ربه أن يغفر له ما بدر منه مع أخيه، وأن يغفر لأخيه إن كان قد حصل منه تقصير - ولم يقصر - هذا ما قرر المفسرون[2] وهو كلام حسن، والذي أراه - والله أعلم - أن موسى - عليه السلام - طلب المغفرة عامة له ولأخيه ولم يحصرها في شيء محدد كما ذكر المفسرون، لا لأنه أساء في الحقيقة لهارون فهو معذور فيما فعل معه، وإنما طلب المغفرة له ولأخيه اعتذارًا إلى ربه - سبحانه وتعالى - لا عن شيء حدث، وإنما يرى أنه مع شدة غضبه وأسفه وتوبيخه لقومه لم يبلغ في نظر نفسه غاية ما هو مطلوب، وإن كان في الواقع قد فعل أقصى ما يمكن فعله اعتذارًا إلى الله - تعالي - إن كان قد قصر - وهو في الحقيقة لم يقصر -.

وصَدْرُ هذه الآية يعلمنا أننا مهما حصَّلنا من التقوى، ومهما اجتهدنا من العمل الصالح، فلا نغتر بما عملنا، بل ننحو على أنفسنا باللائمة والاتهام، وقوله تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ﴾ أي: أدخلني وأخي في رحمتك التي خصصت بها أحبابك، والتي لا ينالهم معها ضيم، والتي لا تخرجهم منها بكرمك.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥١).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٦٨)، والرازي، (١٥/ ١٢)، والنسفي، (٢/ ٧٩).

وقوله: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ تذييل أريد به سعة رحمة الله ـ تعالى ـ والمعنى: فأنت يا حي يا قيوم بفرط رحمتك لا حرج عليك إذا أدخلتنا في رحمتك.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني عشر
نقمة الله ـ جل وعلا ـ على من لم يعتذر إلى ربه عن عبادة العجل وتوبته على المعتذرين

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾(١).

في هذه الآية الكريمة بيَّن ـ جل وعلا ـ نقمته في الدنيا والآخرة على مَن صنع العجل، أو ساعد في صنعه، أو حرّض السامري على فعله ـ كما سأرجحه ـ.

وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية الكريمة، والذي رجح عندي بعد استعراض ودراسة أقوالهم أن هذه الآية في السامري وأصحابه الذين أشربوا حب العجل في قلوبهم، ولم يعتذروا إلى ربهم قصَّه الله سلفًا عن المعتذرين ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(٢).

فالمعنى إذن: أن الذين صنعوا العجل ليكون إلهًا لبني إسرائيل بقصد إضلالهم وفتنتهم عن التوحيد كالسامري ومشايعيه في هذا الأمر لا يتوب الله عليهم في الدنيا وإن تابوا، فهم مستثنون من آيات التوبة كما استُثنى إبليس لعنه الله. والاتخاذ هنا بمعنى: الصنع، ولذا لم يصرح القرآن بالمفعول الثاني لـ ﴿ اتَّخَذُوا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ سَيَنَالُهُمْ ﴾ بالسين هو إخبار لموسى ـ عليه السلام ـ عن حال

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٤٩).

هؤلاء الصانيعين، وأن ما ذكر من العقاب واقع بهم عن قرب، وقد كان كما قصته سورة طه.

قال تعالى: ﴿ **قال فما خطبك يا سامري (٩٥) قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي (٩٦) قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا** ﴾[1].

فهاتان الآيتان صريحتان في أنه لا توبة للسامري، وأنه إن تاب لا يتوب الله عليه، وهذا ما أجملته سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿ **سينالهم غضب من ربهم** ﴾ أي: سيحل عليهم غضب شديد من ربهم، الذي شأنه رحمتهم ورعايتهم، لكنه رفع عنهم الرحمة لكونهم ليسوا بأهل لها، وأن هذا الغضب واقع عليهم في الدنيا والآخرة، ولذا جاء به القرآن مُنكَّرًا لتستشعر فظاعته وشدته، ووصفه بأنه ﴿ **من ربهم** ﴾ لتعلم أن الرحمن إنما حرمهم الرحمة لأنهم لا يستحقونها، وأنه جعل الذلة والهوان نصيبهم في الدنيا وأنهم مُزْدَرون، لا يُمسون ولا يخالطون، وإذا كانت آيتا طه قد بينتا حالة السامري فآية الأعراف قد بينت مآله ﴿ **وذلة في الحياة الدنيا** ﴾ الذلة التي اختص بها السامري من الانفراد عن الناس والابتلاء بلا مساس[2] مع أشياعه الذين تميزوا عن سائر بني إسرائيل بشدة الضلال والإضلال، ثم ختم ـ تبارك وتعالى ـ هذه الآية بقوله: ﴿ **وكذلك نجزي المفترين** ﴾ أي: وكهذا العقاب الشديد الدنيوي والأخروي الذي حلّ على السامري وأضرابه نجزي ونعاقب به كل مفترٍ في دين الله وكل مبتدع، وكل متقول على الله ما لم يقل، إذ الافتراء هو قول الزور والبهتان.

---

(١) سورة طه: الآيات من (٩٥ ـ ٩٧).

(٢) يروي أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك وإذا مس أحدُهم أحدًا غيرهم حَمّوا جميعًا. والله أعلم انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٥).

هذا وإن كل يهودي لا يؤمن بالأنبياء بعد موسى ـ عليه السلام ـ ويعُينُ على قتلهم كما قصَّه القرآن، ولا يؤمن بإمام الرسل نبينا محمد ﷺ داخل في هذه الآية وفي هذا الغضب الشديد، وتلك الذلة إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ **وضُربتْ عليهمُ الذلَّةُ والمسكنةُ وباءُوا بغضبٍ مِّنَ اللَّه ذلكَ بأنَّهمْ كانُوا يكفُرُون بآياتِ اللَّه ويقتُلُون النَّبيِّين بغيْرِ الْحقِّ ذلكَ بما عصَوا وَّكانُوا يعتدُون** ﴾[1].

هذا ما رَجَحَ عندي، وللمفسرين محامل أخرى أذكرها فيما يلي باختصار إكمالاً للفائدة:

حمل بعضهم الآية على اليهود المعاصرين للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بتقدير: إن الذين اتَّخذ آباؤهم العجل سينالهم غضب من ربهم[2] . . . إلخ، كما حصل لبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وليهود خيبر وفدك ووادي القرى، وأخبارهم في السيرة معروفة . . .[3].

وحملها بعضهم على عموم بني إسرائيل وأن شدة الغضب التي حلت عليهم قد تمثلت في شكل توبتهم التي لم يعامل بها أحد قبلهم ولا بعدهم[4] وأن الذِّلة التي أصابتهم في الدنيا هي خزيهم بعبادة العجل، واستحقارهم أنفسهم لَمَّا استنارت قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿ **والَّذين عملُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بعْدِها وآمنُوا إنَّ ربَّكَ مِنْ**

---

(١) سورة البقرة: (٦١).

(٢) قال أبو السعود ـ رحمه الله ـ: «فإن تعيير الأبناء بأفاعيل الآباء مشهور معروف، منه قوله تعالى: ﴿ وإذ قتلتم نفسا . . . ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿ وإذ قلتم يا موسى . . . ﴾ الآية.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٢، ٢٠٠، ٢٤٤، ٣٦٨، ٣٧١، ٣٧٢).

(٤) حديث: أمروا بقتل بعضهم بعضا . . . كما سوف يمر علينا بيانه.

بعدها لغفور رحيم ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ **والذين عملوا السيئات** ﴾ أي: الكفر فما دونه من الذنوب ﴿ **ثم تابوا من بعدها** ﴾ أي: من بعد فعل تلك السيئات ورجعوا عنها وأقلعوا ﴿ **وآمنوا** ﴾ بالله حق الإيمان وأنه لا يليق أن يعصوه أو أن يكفروا به، واستصحبوا ذلك الإيمان وتلك التوبة حتى خرجوا من هذه الدنيا، فإن الله يقبل توبتهم، ويفرح بها، بل يحبهم برجوعهم إليه أشد الحب، قال تعالى: ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ وقوله: ﴿ **إنَّ ربك** ﴾ أي: يا محمد ـ صلى الله عليك وآلك وسلم ـ والإضافة هنا للتشريف فهو رب السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، فاختصاص الإضافة مصرِّح بعلو شأنه عند ربه ﴿ **من بعدها** ﴾ أي: من بعد تلك التوبة الصادقة.

﴿ **لغفورٌ** ﴾ أي: ستور وصفوح عن زلاتهم.

﴿ **رَحيمٌ** ﴾ بهم، أي: يقيل عثراتهم، ولا يبقيهم أسرى لذنوبهم، وقد أكد ذلك بـ (إن) و (اللام) ليطمع عباده في كرمه، ولئلا ييأسوا من رحمته مهما قبحت ذنوبهم ومهما أتوا من الكفر، قال تعالى: ﴿ **قُل لِّلَّذين كفروا إن ينتهوا يُغفر لهم مَا قد سلف** ﴾[٢].

وهذه الآية بشارة عامة للمؤمنين من كل أمة، وهي بأمة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ألصق، غير أن توبة الله على بني إسرائيل كانت أمرًا عجبًا يماثل كفرهم الأعجب والأغرب، وقد تكفلت سورة البقرة ببيان تلك التوبة.

قال تعالى: ﴿ **وإذْ قال مُوسىٰ لقومه يا قوم إنكُمْ ظلمتُمْ أنفسكُم باتخاذكُمُ العجْل فتُوبُوا إلىٰ بارئكُمْ فاقْتُلُوا أنفسكُمْ ذلكُمْ خيرٌ لكُمْ عند بارئكُمْ فتاب عليكُمْ**

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٣).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٣٨).

إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[١].

أخرج ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قال موسى لقومه: ﴿ تُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه ـ عز وجل ـ أن يقتلوا أنفسهم، قال: فاختبأ الذين عكفوا على العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل وأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضا فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل مَن قُتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة»[٢].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «قال السدي في قوله: ﴿ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان مَن قُتل من الفريقين شهيدًا، حتى كَثُرَ القتل حتى كادوا أن يَهلكوا، حتى قُتل سبعون ألفًا، وحتى دعا موسى وهارون: ربنا أهلكت بني إسرائيل، ربنا البقيةَ البقية، فأمرهم أن يلقوا السلاح وتاب عليهم، فكان من قُتلَ منهم من الفريقين شهيدًا ومن بقي مُكَفَّرًا عنه، فذلك قوله: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾»[٣].

ولو تمعّنا في توبة الله لبني إسرائيل باقترانها بقتل بعضهم بعضًا، وكيف يتوب الله ـ جل وعلا ـ على المذنبين من أتباع الأمة المحمدية ـ على نبيها أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ لرأينا رحمة الله بهذه الأمة، إذ إن العاصي مهما كانت معصيته، أو المذنب مهما كان ذنبه، أو المشرك والمرتد عن دينه يكفي في توبتهم الندم والاستغفار وعدم الرجوع إلى ما كانوا عليه، والمبادرة إلى الأعمال الصالحة، بشرط أن يتوبوا قبل أن تصل أرواحهم حناجرهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى

(١) سورة البقرة: الآية (٥٤).

(٢) تفسير الطبري، (١/ ٨٦).

(٣) تفسير ابن كثير، (١/ ٩٢).

اللَّه للَّذين يعملُون السُّوء بجهالة ثُمَّ يتُوبُون من قريب فأُولئك يتُوبُ اللَّهُ عليهم وكان اللَّهُ عليما حكيما (١٧) وليست التَّوبةُ للَّذين يعملُون السَّيئات حتَّىٰ إذا حضر أحدهُم الْمَوْتُ قال إنِّي تُبْتُ الآن ولا الَّذين يمُوتُون وهُمْ كُفَّارٌ أُولئك أعتدْنا لهُمْ عذابا أليما ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ فمن تاب من بعْد ظُلْمه وأصْلح فإنَّ اللَّه يتُوبُ عليه إنَّ اللَّه غفُورٌ رَّحيمٌ ﴾[2] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ ومن تاب وعمل صالحا فإنَّهُ يتُوبُ إلى اللَّه متابا ﴾[3].

❊ ❊ ❊

(١) سورة النساء: الآيتان (١٧، ١٨).

(٢) سورة المائدة: الآية (٣٩).

(٣) سورة الفرقان: الآية (٧١).

المبحث الثالث عشر
حرص موسى ـ عليه السلام ـ على الألواح وشدة تعلقه بها

قال تعالى: ﴿ ولَمَّا سكت عن مُوسى الْغضبُ أخذ الأَلْواح وفي نُسْخَتها هُدًى ورحْمةٌ لِلَّذين هُم لربِّهم يرْهبُون ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ ولَمَّا سكت عن مُوسى الْغضبُ ﴾ السكت والسكوت خلاف النطق[2] أي: الإقلاع عن الكلام وتركه، والتعبير القرآني هنا بقوله: ﴿ ولَمَّا سكت ... ﴾ يجسد الغضب كأنما هو كائن حي يدفعُ ويحثُّ موسى على الغضب ثم تركه بعد ذلك، والجملة هنا استعارة مكنية حيث شبه الغضب بشخص آخر يدفعهم ويقوِّيه على ما فَعل، ويقول له: قل لقومك بئسما خلفتموني من بعدي، ويأمره بأن يأخذ برأس أخيه ويجره إليه، فلما زال عنه الغضب صار كأنه سكت. وهذا من بديع الاستعارة، أو أن قوله: ﴿ ولَمَّا سكت عن مُوسى الْغضبُ ﴾ جعل سكون الغضب سكوتًا، ويكون معنى الآية: ولما سكن وهدأ الغضب عن موسى.

والغضب: هو الانفعال الشديد الذي يصيب الكائن الحي نتيجة مؤثرات خارجية لا توافق هواه، وهو إما محمود وإما مذموم، فالمذموم ما كان في غير الحق، والمحمود ما كان في جانب الدين والحق، ولابد للإنسان إذا غضب أن يتمالك نفسه ويعي ما يفعل وما يقول، لذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة ـ

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٤).

(٢) لسان العرب: (٢/ ٤٤).

رضي الله تعالى عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «**ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[١] وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا يغضب إلا إذا انْتُهكَت محارم الله.

وقوله تعالى: ﴿**أخذ الألْواح وفي نُسْختها هُدى ورحْمةٌ**﴾ ظاهر الآية أن الألواح لم تنكسر، ولم يرفع من التوراة شيء، وأنه أخذ الألواح التي ألقاها ﴿**وفي نُسْختها**﴾ أي فيما نسخ فيها وكتب[٢] ﴿**هُدى ورحْمةٌ**﴾ أي: هدى من الضلالة ورحمة من العذاب.

وقوله تعالى: ﴿**لِلَّذين هُمْ لربِّهِمْ يرْهبُون**﴾ أي: يخافون أشد الخوف منه، واللام الأولى في قوله: ﴿**لِلَّذين**﴾ متعلقة بمحذوف وقع صفة لرحمته، أي: بكائنة لهم، أو هي لام العلة، أي: هدى ورحمة لأجله؛ واللام الثانية في قوله: ﴿**لربِّهِمْ**﴾ لتقوية عمل الفعل المؤخر، كما في قوله: ﴿**إن كُنتُمْ للرُّءيا تعْبُرُون**﴾[٣] أو هي أيضًا لام العلة والمفعول الثاني محذوف، أي: يرهبون المعاصي لأجل ربهم لا للرياء والتباهي[٤].

* * *

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، جمعه/ محمد فؤاد عبد الباقي، (الكويت: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ١٣٩٧هـ)، ٢/ ٧٠٧.

(٢) تفسير أبي السعود، (٣/ ٣٧٦).

(٣) سورة يوسف: الآية (٤٣).

(٤) بتصرف من تفسير الألوسي، (٩/ ٧١)، وتفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٦).

المبحث الرابع عشر
منة الله ـ جل وعلا ـ على صلحاء بني إسرائيل

قال ـ تعالى ـ: ﴿ واختار موسىٰ قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلمَّا أخذتهم الرَّجفة قال ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإيَّاي أتهلكنا بما فعل السُّفهاء منَّا إنْ هي إلاَّ فتنتك تضلُّ بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت وليُّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين (١٥٥) واكتب لنا في هذه الدُّنيا حسنة وفي الآخرة إنَّا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كلَّ شيء فسأكتبها للَّذين يتَّقون ويؤتون الزَّكاة والَّذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾[(١)].

قوله تعالى: ﴿ واختار موسىٰ قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ﴾ اختلف المفسرون في سر هذا الاختيار:

فذكر بعضهم أن سبب هذا الاختيار هو الاعتذار إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عما صنع بنو إسرائيل من عبادة العجل، وأنه كان تمهيداً لطلب توبة الله عليهم، والرغبة إليه أن لا يهلكهم بتلك الفعلة، ويسألوه التوبة على مَن تركوهم وراءهم من قومهم[(٢)].

ويرى بعضهم أن سبب هذا الاختيار موت هارون ـ عليه السلام ـ دون أن يّطلع عليه بنو إسرائيل، وقد أمر الله موسى أن ينطلق بهارون إلى مكان موته من طور سيناء، فذهب بهارون وابنه، فلما مات هارون رجع موسى وابن أخيه

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٥٥، ١٥٦).

(٢) قاله السدي، انظر: زاد المسير لابن القيم، (٣/ ٢٦٨).

وقاله ابن إسحاق، انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٧).

حزينين إلى بني إسرائيل فاتهموه بقتله، فاختار هؤلاء السبعين ليحي الله لهم هارون فيعودوا إلى قومهم مصدقين موسى في مقالته لهم بموت هارون، وأنه لم يقتله كما يفترون[١].

ولا غرابة في صدور ذلك عنهم، فكم لاقى الكليم عنتًا وأذى مما اقتضى تحذير المؤمنين من إيذاء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - تشبهًا ببني إسرائيل الذين آذوا موسى - عليه السلام - فقال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها** ﴾[٢].

وكذلك اختلف المفسرون في الميقات، والراجح عندي أنه ميقات مخصوص يغاير الميقات الأول المذكور في قوله تعالى: ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه** ... ﴾ الآية، فإن هذه الآية صريحة في أن موسى هو الذي أمر وحده بالذهاب إلى ميقات ربه، ولم يكن معه أحد.

ومعنى: ﴿ **واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا** ﴾ أي: انتقى وتخير موسى - عليه السلام - سبعين رجلاً من قومه ليطلعوا على بعض أحوال موسى - عليه السلام - عند تكليم الحق - جل وعلا - له، فيستشهد بهم في وصفه لبني إسرائيل، وليثبتوهم على الإيمان، فيكونوا بمثابة الوزراء والخلصاء لموسى - عليه السلام - وهذا يرجح ما ملتُ إليه من كون ميقات هؤلاء السبعين غير الميقات الأول.

﴿ **فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي** ﴾ المراد بالرجفة هنا: صعقة أصابتهم لهول ما عاينوا، أو أن الجبل قد رَجَفَ بهم فماتوا أو غُشِيَ عليهم. وقد اختلف المفسرون في سبب أخذ الرجفة لهم:

---

(١) ذكره الألوسي نقلاً عن ابن أبي الدنيا وابن جرير وغيرهما عن علي - كرم الله وجهه -، انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٧٤).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٦٩).

فقال بعضهم: هيبة المقام التي لم يحتملوها.

وقال بعضهم: إنهم لما سمعوا كلام الله لموسى وأمره ونهيه قالوا بعد انتهاء المكالمة: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الرجفة لذلك[١]...

وقد أطال المفسرون في ذلك، والذي يظهر لي أن الرجفة أخذتهم للهيبة لا لتلك المقالة، وأن تلك المقالة صدرت عن غير هؤلاء السبعين، ومما يقوي ذلك ما قاله موسى - عليه السلام - معتذراً إلى ربه بقوله: ﴿ **أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا** ﴾ وبقوله: ﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ** ﴾ وطلبه المغفرة والرحمة بقوله: ﴿ **فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا** ﴾ فإن كل ذلك يدل على أن هؤلاء السبعين الصلحاء من بني إسرائيل رُجفَ بهم لأن طاقتهم لم تحتمل الحالة التي أحيط بها موسى - عليه السلام - فقد روي أنه - عليه السلام - لما أتى الجبل تغشاه عمود الغمام، وأنه أمر السبعين أن يدخلوا فيه فلما دخلوا خروا سجداً، وسمعوا كلام الله - تعالى -[٢] ولذلك ضعفت قواهم عند هذا السماع وتزلزلوا.

وقوله تعالى: ﴿ **لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ** ﴾ أي: قبل حضورهم معي إلى هذا الميقات الذي جعلته لهم بأمرك سبحانك، فإن هؤلاء السبعين مع صلاحهم لم يفارقوا قومهم حين عبدوا العجل، ولم يبالغوا في الإنكار عليهم، فهم بذلك يستحقون الإهلاك، فإذا أمهلتهم وهم بهذه المثابة فلا تهلكهم وهم معي لئلا يظن بنو إسرائيل أني قتلتهم، فلا يأمنوني بعدُ على أحد منهم.

وقوله: ﴿ **وَإِيَّايَ** ﴾ عند قتلي للقبطي في مصر، ومع ذلك لم تهلكني بما استحق رحمة منك، بل رحمتني لما اعتذرت إليك بما قصَّهُ الله من اعتذاره: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾[٣].

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٧٣، ٧٤)؛ وأبي العود، (٣/ ٢٧٧)؛ وزاد المسير، (٣/ ٢٦٩).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٧) نقلاً عن السُّدِّيِّ.

(٣) سورة القصص: الآية (١٦).

وقوله: ﴿ **أتُهْلِكُنا بما فعل السُّفهاءُ منَّا** ﴾ يؤكد لك أن هؤلاء السبعين لم يرتكبوا ذنبًا يستحقون به هذه الرجفة، والمراد بالسفهاء عبدة العجل، والاستفهام هنا لإنكار الوقوع على معنى: إنه لا يكون منك إهلاك قوم بذنب آخرين، فإنك لا تفعله تفضلاً وعدلاً، أو على معنى النفي، أي: لا يكون منك ذلك، فإنك تعاليت وتعاظمت وقد حرّمت الظلم على نفسك.

وفي قوله: ﴿ **أتُهْلِكُنا** ﴾ يعود الضمير على موسى ومن معه، وهذه من أقوى الأدلة على أن الرجفة كانت للهيبة وعدم التحمل لا لمقالة قالها السبعون، فإنه جمع نفسه معهم، ومحال أن يقرن نفسه بسفهاء متطاولين، وقوله: ﴿ **إنْ هي إلاَّ فتْنتُك** ﴾ يقصد به: إما فتنة بني إسرائيل بعبادة العجل ـ وهو ما أرجحه، وهذا أيضًا يؤكد ما ملت إليه من أن الرجفة كانت للهيبة وليست لمقالة قالوها ـ وكأن موسى يقول لربه ـ عز وجل ـ: إن هي إلا فتنتك التي أخبرتني عنها عند مناجاتي معك في الميقات الأول، حيث أخبرتني بقولك جل جلالك: ﴿ **قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك** ﴾[1].

أو كما قيل: إن المراد بالفتنة[2] هنا الابتلاء مطلقًا لعباده في كل زمان، إذ الفتنة في كلام العرب هي الابتلاء والاختبار.

وقوله تعالى: ﴿ **تُضلُّ بها من تشاءُ** ﴾ لعلمك أنه سيختار الضلال ويُصرُّ عليه ﴿ **وتهْدي من تشاءُ** ﴾ أي: ممن اختار الهدى وثبت عليه.

ثم دعا موسى ربه ﴿ **فاغْفرْ لنا وارْحمْنا** ﴾ وقدم المغفرة هنا التي هي محو الذنب بالعفو عنه من باب التخلية قبل التحلية، فإن بقاء العبد مذنبًا يعرضه لسخط الله ـ عز وجل ـ فإذا حليَّ بالعفو كان أهلاً للرحمة، وقد عمم ـ عليه

---

(١) انظر: ص (٥٣٣) من بحثنا هذا (عند تفسير هذه الآية).

(٢) في قوله: ﴿ **إن هي إلا فتنتك** ﴾.

السلام ـ في طلب المغفرة والرحمة لتشمل مغفرته ـ تعالى ـ ما كان من الذنب وما سيكون، وليستديم ـ عليه السلام ـ رحمته ـ تعالى ـ به وبقومه، ثم أثنى على ربه بقوله: ﴿ **وأنت خيرُ الغافرين** ﴾ أي: خير العافين لأن عفو غيرك غايته سلامة الدنيا أما عفوك وغفرانك ففيهما سلامة الدنيا والآخرة، كما أن غيرك لا يعفو إلا بتحنينك وتعطيفك، فأنت العفو والغفار على الحقيقة.

هذا وإن للمفسرين في هذه الآية كلامًا طويلاً، وخلافات وردودًا على تلك الخلافات، وروايات منها ما لا يصح ومنها الضعيف الذي لا يُعوَّل عليه، وقد استخلصت بفضل الله ـ تعالى ـ لباب كلامهم، وما ذكرته واخترته هو خلاصة لقراءاتي لما وقع في يدي منها[1].

ثم سأل موسى ـ عليه السلام ـ ربَّهُ أن يكتب له ولقومه الفعلة الحسنة في الدنيا، وأن يثبتهم عليها، والمثوبة الحسنى في الآخرة، وأن يوفقهم لتحصيل أسبابها.

﴿ **واكْتُبْ لنا في هذه الدُّنيا حسنةً وفي الآخرة** ﴾ والكتابة هنا ليس معناها تغيير القضاء الأزلي بل معناها: اجعل لنا، وتعطّف علينا وتفضل. ومن حق كل مؤمن أن يسأل ربه ما يشاء من أمور الخير، وأن يدرأ عنه كل شر، فإن قضاء الله غيب عنه، وهو مأمور بالدعاء.

ونكّر ﴿ **حسنة** ﴾ إمعانًا منه ـ عليه السلام ـ في إكرام الله له ولقومه بكل خير الدنيا والآخرة، ثم أردف طلبه بذكر السبب الذي يستدعي قبول دعائه ﴿ **إنَّا هُدْنَا إليك** ﴾ أي رجعنا وتبنا، فشأنك وأنت الكريم أن تعود على من رجع إليك تائبًا بمسرته في الدنيا والآخرة.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٧١ - ٧٥)؛ وتفسير الرازي؛ (١٥/ ١٥ ـ ٢٠)؛ وتفسير أبي السعود، (٤/ ٢٧٦، ٢٧٧)؛ وتفسير الطبري، (٩/ ٧٧)؛ وتفسير ابن كثير، (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠)؛ والبحر المحيط، (٤/ ٣٩٨ ـ ٤٠١)؛ وزاد المسير لابن القيم، (٣/ ٢٦٧ ـ ٢٦٩).

هذا وإن لفظ (يهود)[١] مستعمل الآن في ضد ما كان عليه بنو إسرائيل وقت هذا الدعاء، فيهود في الأصل فعل مضارع من هاد يهود بمعنى: رجع عن الشر إلى الخير، وتاب إلى الله وأناب، أما هو الآن فمعناه الرجوع عن الخير إلى الشر، وقد تُنوسي كونه فعلاً وصار اسمًا بالنقل لفسدة بني إسرائيل، ولذا نقول: فعله يهود كذا بالتنكير، وفعله اليهود كذا بالتعريف، وقوله: ﴿ **قال عذابي أُصيبُ به من أشاءُ** ﴾ وهو جواب سؤال دل عليه الكلام، تقديره: فبماذا أجاب الله موسى ـ عليه السلام ـ؟

ومعنى ﴿ **أُصيبُ به من أشاءُ** ﴾ من قومك وغيرهم، فدعاؤك مقبول في الصلحاء منهم، وفي هذا الجواب إشارة إلى حال بني إسرائيل بعده ـ عليه السلام ـ ونظير هذه الآية قوله ـ تعالى ـ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمَّهنَّ قال إني جاعلُك للنَّاس إماما قال ومن ذُرِّيَّتي قال لا ينالُ عهدي الظَّالمين** ﴾[٢] أي: إن الظالمين من ذريتك لا ينالهم عهدي. فكذلك الضالون من بني إسرائيل لا تنالهم رحمة الله.

وقوله تعالى: ﴿ **ورحمتي وسعت كُلَّ شيء** ﴾ أي: ليس في الدنيا والآخرة ساكن أو متحرك، عاقل أو غير عاقل إلا ورحمة الله فيه ظاهرة، ويجوز أن يكون المعنى: إن رحمتي واسعة في الدنيا والآخرة، لا تضيق بمخلوق، ولكني قضيت بها لمن اتصفوا بالأوصاف الموصِّلة إليها، ولذا قال بعد ذلك: ﴿ **فسأكتبها للَّذين يتَّقُون ويُؤتُون الزَّكاة والَّذين هُم بآياتنا يُؤمنُون** ﴾ وقد عمم وخصص في هذا النص الكريم حيث قال: ﴿ **للَّذين يتَّقُون** ﴾ فهو ينتظم سائر المأمورات وجميع الخيرات، وخصص بذكر الزكاة والإيمان بجميع الآيات، لعلمه ـ تعالى ـ أن الزكاة

---

(١) (هُوْد): الهود التوبة، هاد يهود هودًا وتهوّد: تاب ورجع إلى الحق فهو هائد، وفي التنزيل العزيز ﴿ **إنا هدنا إليك** ﴾ أي: تبنا إليك... انظر: لسان العرب، (٣/ ٤٣٩).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٢٤).

كانت وستظل من أشق التكاليف على بني إسرائيل لأنهم عبيد الدينار والدرهم، ومَن كان هذا حاله يبعد أن يؤدي تلك الفريضة، ولعلمه - تعالى - بأن اليهود يحرفون الكلم عن مواضعه، ويكتبون كتباً ينسبونها إلى الله زوراً، فيها ما لم يأذن به الله، تلبيساً على العامة، وأنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وقد تجلى ذلك واضحاً في كفرهم بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فإن الإيمان به جزء من كتابهم قبل أن يؤمروا بالإيمان به في القرآن، ولأجل ذلك قال: ﴿ **ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ أي: بالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن، فلم يفعلوا، من أجل ذلك جانبتهم الرحمة، وذهب عنهم التوفيق، ويجوز كما قال أبو السعود - رحمه الله - أن المراد بقوله: ﴿ **والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ أن: «فيه تعريض بهم وبكفرهم بالآيات العظام، والتي جاء بها موسى - عليه السلام - وبما سيجيء بعد ذلك من الآيات البينات، كتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى»[1].

وقد تعرضت لقوله تعالى: ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾[2] عند ذكري لمبحث الآيات الخاصة بالحض على الإيمان، فاكتفيت بما ذكرته هناك[3].

* * *

(١) تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٩)، انظر ص (٥٧٣) إلى (٥٧٧) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

(٣) انظر: ص (٤٢) من بحثنا هذا.

المبحث الخامس عشر
ثناء الله تعالى على صلحاء بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿ ومن قوم موسىٰ أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾.

أثنى الله - سبحانه وتعالى - على فريق قليل من قوم موسى - عليه السلام - ثبتوا على الحق، وهدوا غيرهم إليه وجعلوه شعارهم في أحكامهم وسلوكهم.

وقوله: ﴿ ومن ﴾ للتبعيض وفيها القلة، وذكر هذا البعض القليل تعريض بأكثرهم الذين كانوا يلبسون الحق بالباطل، ويكتمون الحق وهم يعلمون، وليس المقصود بهذا الفريق الصالحين المعاصرين لموسى - عليه السلام - بل المقصود صلحاء بني إسرائيل من عهده - عليه السلام - إلى عهد نبينا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وهم غير أنبيائهم لأن هداية الخلق بالحق ولزومه في الأحكام من ضرورات النبوة، فلا يحمد الثناء عليهم به، وإنما المقصود صلحاء بني إسرائيل غير الأنبياء، ولا تعارض بين ما قررته من قلتهم، وقوله تعالى: ﴿ أمة ﴾ فالأمة تطلق على الجماعة الكثيرة[1] وتطلق على القليلة إذا كانت ذات شأن، وقد يسمى الواحد أمة لما تميز به من خصال الخير كما قال تعالى: ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾[2] ... الآية.

ومعنى قوله: ﴿ يهدون بالحق ﴾ أي: يهدون الناس إليه، وهم متلبسون به ثابتون عليه، لا يقولون ما لا يفعلون، بل يدعون غيرهم إلى ما عرف من أحوال هؤلاء الصلحاء، والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار الصورة الماضية لا لأن ذلك

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٥/ ٣١).

(٢) سورة النحل: الآية (١٢٠).

حاصل الآن إذ مهمة بني إسرائيل قد انتهت ببعثة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فمَن أسلم منهم فهو يهدي بالحق ويعدل به لا لأنه من قوم موسى ـ عليه السلام ـ بل لأنه مسلم متبع لنبينا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

ومعنى: ﴿ **وبه يعدلون** ﴾ أي: في أحكامهم وسياساتهم، وهذه الآية جاءت لبيان أن رحمة الله ليست مكتوبة للذين يتبعون الرسول النبي الأمي فقط بل هي لهم ولمن سلف قبلهم ممن هدى بالحق وعدل به من قوم موسى ـ عليه السلام ـ.

وهذه الآية تُرينا مدى الصراع بين الحق والباطل في اتباع موسى ـ عليه السلام ـ فأغلبهم دعاة باطل، والقليلون منهم هم الثابتون على الحق، ولذلك تجد القرآن الكريم يؤكد على وقوع بني إسرائيل في سوءتين قبيحتين، هما: الكفر بالله، وقتل الأنبياء بغير حق، ذكر ذلك مرة في البقرة: ﴿ **ذلك بأنَّهُمْ كانُوا يكْفُرُونَ بآيات الله ويقتلون النبيِّين بغير الحقِّ ذلك بما عصوا وكانُوا يعتدُون** ﴾[1] والضمير في ﴿ **بأنَّهُم** ﴾ راجع إلى بني إسرائيل، والإشارة راجعة إلى ضرب الذلة والمسكنة عليهم.

وفي سورة آل عمران: ﴿ **إنَّ الَّذين يكْفُرُون بآيات الله ويقْتُلُون النَّبيِّين بغير حقٍّ ويقتلون الَّذين يأمُرُون بالقسْط من النَّاس فبشِّرْهُم بعذاب أليم** ﴾[2].

وفي سورة آل عمران أيضًا: ﴿ **ضُربتْ عليْهمُ الذِّلَّةُ أيْن ما ثُقفُوا إلاَّ بحبْلٍ مِّن الله وحبْلٍ مِّن النَّاس وباءُوا بغضبٍ مِّن الله وضُربتْ عليْهمُ الْمسْكنةُ ذلك بأنَّهُمْ كانُوا يكْفُرُون بآيات الله ويقْتُلُون الأنبياء بغير حقٍّ ذلك بما عصوْا وكانُوا يعتدُون** ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٦١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٢١).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١١٢).

المبحث السادس عشر
نعم الله على بني إسرائيل في التيه وكفرانهم تلك النعم

إن سورة الأعراف قد عدّدت من تلك النعم خمسًا، ذكرها الله في قوله ـ جل من قائل ـ: ﴿ **وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾[1].

النعمة الأولى:

هي قوله تعالى: ﴿ **وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما** ﴾ ومعنى ﴿ **قطّعناهم** ﴾ أي: فرّقناهم وصيّرناهم إلى هذا العدد لأنهم من نسل أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ الاثنى عشر، والذين سماهم القرآن الكريم بالأسباط، وكان كل نسل يعتز بأبيه ويرى لنفسه الرئاسة، فإذا لم يقسموا بحيث يلي كل سبط منهم رجلٌ يلي أمرهم ويسوسهم فإن التهارج والتحاسد والتباغض ينتشر بينهم، وهم كما عرفت من خلال ما سلف من أحوالهم أمة قلقة نافرة، كثيرة التقلب، قليلة الشكر، مندفعة في الكفر، فكان هذا التقطيع بالنسبة لهم نعمة وخيرًا.

وتأمل الفرق بيننا وبينهم فالله ـ تعالى ـ يقول في حق أمة الإسلام ﴿ **إنَ هذه أُمّتُكم أُمّة واحدة** ﴾[2] أي: فلا أرضى تمزيقها ولا تفريقها، فإن فعلتم فقد ذهبت

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٠).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٩٢).

ريحكم، بينما بنو إسرائيل لا يستقيم حالها إلا بالتقطيع كما أن حال أمة الإسلام لا يستقيم أمرها إلا بالاتحاد والتجمع.

النعمة الثانية:

هي استسقاء موسى لقومه لما قحطوا في التيه وكاد العطش يقتلهم، وهو مقصود قوله تعالى: ﴿ **وأوْحيْنا إلىٰ مُوسى** ﴾ أي: أعلمناه وأمرناه استسقاء قومه، أي: أوحينا إليه في ذلك الوقت الذي طلب منه قومه الاستسقاء لهم بالسبيل الذي تحصل به السقيا، ولم نبطئ عليهم، والسبيل هو قوله تعالى: ﴿ **أن اضْرِب بِعصاك الْحجر** ﴾ فامتثل موسى أمر ربه فضرب، وإنما أمر بضرب الحجر لأن خروج الماء غير معهود منه، فهو لاكتناز أجزائه وصلابته لا ينفذ منه الماء ولا يدخل فيه ولا يثبت عليه لملامسته، فإذا خرج الماء من الحجر وهو بهذه المثابة كان بذلك معجزة ظاهرة لموسى ـ عليه السلام ـ ولفتًا لأنظارهم إلى قدرة الله على إخراج الماء من مكان لا يُتصور منه عادة خروج الماء، وهي تبكيت لهم بالفحوى على عبادة العجل من قبل.

والعصا المذكورة في هذه الآية هي عين العصا التي انقلبت حية فخافها موسى والتي لقفت ما يأفكه السحرة فانتصر بها الحق، وهي التي فلق بها البحر، وهي التي كان يهش بها موسى على غنمه، وهي التي كانت تضيء له في ظلمة الليل، وهي التي كانت تنقلب إلى شجرة ذات أغصان وأوراق تظله إذا نام ـ عليه السلام ـ وقيل إنها من الجنة، نزلت مع آدم، وتوارثها الصلحاء حتى وصلت إلى موسى ـ عليه السلام ـ وأما الحجر: فقد اختلفوا فيه: أهو حجر معهود؟ أو هو أقرب حجر مرّ به موسى بعد هذا الأمر؟ أم هو حجر كان موسى يحمله معه ينبع منه الماء إذا احتاج إليه؟ أقوال وآراء الله أعلم بحقيقتها، ولا يترتب على العلم بها حقيقة دينية، والمهم أن الماء انبجس من الحجر كما ذكرته سورة الأعراف[1] وانفجر كما ذكرته سورة البقرة.

(١) انظر: تفسير الألوسي (١/ ٢٧٠).

وفرّقوا بين الانبجاس والانفجار بأن الانبجاس هو أول خروج الماء، والانفجار هو فورانه وتواليه وتكاثره. وكلا المعنيين جميل دال على قدرة الله[١] وقد أخرج الله لبني إسرائيل اثنتي عشرة عينًا، لكل سبط منهم عين مخصوصة به، يجري في جدول يتصل به لا يختلط بجدول غيره، حمايةً لهم من التزاحم على الماء الذي هو أساس الحياة، والذي قد يؤدي الازدحام عليه إلى قتل الأنفس والوقوع فيما يغضب الله، ولذا نص الله ـ تعالى ـ على علم كل سبط بمشربه، أي: بمكان شربه وعينه المخصوصة به النابعة من الحجر ﴿ **قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ** ﴾ أي: قد علمت كل جماعة من بني إسرائيل مشربها فلا تنازع ولا تزاحم ولا تقاتل.

النعمة الثالثة:

تظليلهم بالغمام أثناء تيههم بسيناء؛ فإنهم لمّا أمروا بمقاتلة الجبارين في الأرض المقدسة فلسطين أرض آبائهم إسحاق ويعقوب وأبنائه الأسباط الاثنى عشر، وقد استولى الجبارون عليها أثناء إقامتهم في مصر وصيّروها دار كفر بعد أن كانت دار توحيد امتنعوا عن ذلك ـ وسيأتيك خبره قريبًا ـ[٢] فعاقبهم الله بالتيه في سيناء أربعين سنة. وسيناء إلى الآن أرض قليلة الشجر والمطر، شديدة الحر، ولذلك ظلّلهم الله بالغمام أثناء هذا التيه رحمة منه ـ تعالى ـ بهم، ولعلمه أن في أصلابهم من سيسترد الأرض المقدسة من أيدي الجبارين بقيادة يوشع بن نون[٣] ـ عليه السلام ـ والغمام هو السحاب الأبيض وسُمِّيَ غمامًا لأنه يحجب وجه السماء.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (١/ ٢٧١) و (٩/ ٨٨).

(٢) انظر: ص (٥٨٧) من بحثنا هذا.

(٣) سبق أن ترجمت له، انظر: ص (٤٨٧، ٤٨٨) من بحثنا هذا.

النعمة الرابعة:

إنزال المنّ عليهم وهو ـ على الراجح ـ طعام حلو ينزل عليهم أول كل يوم كالطلّ، وقد أمروا أن يأخذوا منه حاجتهم ليومهم فقط ولا يدخروا، إلا يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخروا فيه ليوم السبت لأنه يوم انقطاع وعبادة، وقد حرّم الله عليهم العمل فيه[١][٢].

النعمة الخامسة:

والسَّلْوى وهو طائر[٣] كان يأتيهم متى شاءوا، ينتقون منه ما يشاءون ويتركون ما لا يحبون، وقيل: إنه كان ينزل عليهم مطبوخًا. فسبحان من يقول للشيء كن فيكون[٤].

ومع ذلك لم يشكروا تلك النعم كعادتهم فكفروا وظلموا وعايشوا النعم بالإلْف لا بالشكر فضلوا ضلالاً بعيداً، وخالفوا أمر ربهم في الادخار فنكبت بهم البشرية إلى أن تقوم الساعة بتعفن أطعمتها الطرية وسريان السوس إلى الصلبة كالحبوب مما كلف البشرية معاناة كبيرة وخسارة فادحة، وحتى مع التحضر في حفظ الأطعمة فإن ذلك محدود بأمد؛ أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها**»[٥].

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (١/ ٢٦٣).

(٢) روى ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان المن ينزل على الشجر فيأكلون منه ما شاءوا، وعن قتادة: كان المن يسقط عليهم سقوط الثلج أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل. انظر: فتح الباري (٩/ ٢٣٠).

(٣) طائر يشبه السُّماني، روي ذلك عن ابن عباس. وعن وهب بن منبه قال: هو السُّماني، وعنه قال: طائر سمين مثل الحمام. انظر: فتح الباري (٩/ ٢٣٠).

(٤) انظر: تفسير الألوسي (١/ ٢٦٤).

(٥) انظر: صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٧/ ١٧٧).

قال ابن حجر: يَخْنَزَ ـ بفتح أوله وسكون الخاء وكسر النون وفتحها أيضًا بعدها زاي ـ أي: ينتن، والخنز: التغيُّر والنتن، قيل أصله أن بني إسرائيل ادخروا لحم السلوى وكانوا نهوا عن ذلك فعوقبوا بذلك. حكاه القرطبي وذكره غيره عن قتادة وقال بعضهم: معناه: لولا أن بني إسرائيل سنوا ادخار اللحم حتى أنتن لما ادخر فلم ينتن[1].

ثم ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿ **وما ظلمونا** ﴾ معطوف على مُقدر دَلَّ عليه سياق الكلام تقديره: فجحدوا نعمنا وما شكروها.

وقوله: ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ أي: إن كفرهم ومعاصيهم راجعان إليهم، وفي ذلك من التنديد والتحقير لهم ما يجل عن الوصف لأن كل إنسان يحب نفسه ويحرص عليها، وأن وقوع الظلم منه لنفسه أمر مستغرب ومستبعد، لكنه على الكفار بعامة وبني إسرائيل بخاصة ليس بمستغرب ولا مستبعد، وقد حوى هذا النص الكريم الفعل الماضي والمضارع ﴿ **كانوا** ﴾ و ﴿ **يظلمون** ﴾ لإفادة ثباتهم على هذا الحال، واستمرارهم عليها في كل الأزمنة رغم مضرتها لأنفسهم، لكنهم لفرط بلادتهم لا يشعرون بما يسيئون به لأنفسهم.

* * *

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ١٧٧) وقوله: «**لولا حواء لم تخن أنثى زوجها**» فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم للأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك. فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين به إبليس حتى زينته لآدم . . . وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفاحشة ـ حاشا وكلا ـ لكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسّنت ذلك لآدم عُدّ ذلك خيانة له، أما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها. ا.هـ. فتح الباري بتصرف (٧/ ١٧٧).

المبحث السابع عشر
مخالفة أخرى شنعاء من مخالفات بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿ وإذْ قيل لهمْ اسكُنُوا هذه القرْية وكُلُوا منْها حيْثُ شئتُمْ وقُولُوا حطَّةٌ وادْخُلُوا الْباب سُجَّدًا نَغْفرْ لكُمْ خطيئاتكُمْ سنزيدُ الْمُحْسنين (١٦١) فبدَّلَ الَّذين ظلمُوا منهُمْ قولًا غيْر الَّذي قيل لهُمْ فأرْسلْنا عليْهمْ رجْزًا منَ السَّماء بما كانُوا يظْلمُون ﴾[1].

ففي هاتين الآيتين يبين الله - تعالى - شنيعة قبيحة من شنائع بني إسرائيل، وأنهم كانوا يستفيدون بالمواعظ استفادة وقتية ثم لا يلبثون أن تغلب عليهم طبيعة المخالفة والتباعد عن الحق، فإن المتتبع لأحوالهم السالفة منذ طلبهم من موسى - عليه السلام - أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه من دون الله كإله مَن مروا عليهم بعد انفلاق البحر لهم، وتوبيخهم الشديد على هذا الطلب، يَظُنُّ أنهم لم يعودوا بعد إلى ما يحاط من شأنهم ويدل على سفاهة عقولهم، لكنه يرى هذا الظن قد تبدّد بعبادتهم العجل من دون الله كما مر، ثم بتأمل المتتبع لتوبة الله عليهم التي هي غاية في المشقة والشدة يعود إليه ظنه بأنهم لن يقدموا بعد على شناعة تسقط مكانتهم عند ربهم، ثم يتبدد هذا الظن عندما يأمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، ووعده محقق، فإذا علموا أنه - تعالى - كتبها لهم سهل عليهم دخولها، ومع ذلك يتعللون بما قصَّه القرآن الكريم عنهم: ﴿ قالُوا يا موسىٰ إنَّ فيها قوما جبَّارين وإنَّا لن ندْخُلها حتَّىٰ يخْرُجُوا منْها فإن يخْرُجُوا منْها فإنَّا داخلُون (٢٢) قال رجُلان من الَّذين يخافُون أنْعم اللَّهُ عليْهما ادْخُلُوا عليْهمُ الْباب فإذا

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٦١، ١٦٢).

دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين (٢٣) قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون (٢٤) قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾[1].

وقد عوقبوا بالتيه في سيناء هذه المدة لمخالفتهم نبيهم - عليهم السلام - في دعوتهم إلى دخول الأرض المقدسة، ثم لما سهل الله لهم دخول الأرض المقدسة بعد التيه، وقيل كان ذلك في حياة موسى - عليه السلام - حيث دخل بهم أريحاء ثم مات، وأكمل بعده يوشع بن نون - فتى موسى وخليفته عليهم - دخول بيت المقدس، وقيل: إنهم دخلوا الأرض المقدسة بعد موت موسى - عليه السلام - وفي عهد يوشع، وأمرهم الله بأوامر يلتزمونها عند دخول قرية بيت المقدس على ما هو الراجح[2] وكان المتوقع منهم أن يلتزموا ولا يغيروا ولا يبدلوا فيما أمرهم الله - تعالى - به ولكنهم ومع ما مر بهم من المواعظ والعقوبات على المخالفات خالفوا أيضًا تلك الأوامر في هاتين الآيتين.

وبعد هذه المقدمة نعود إلى تفسير ألفاظ هاتين الآيتين اللتين نحن بصدد دراستهما من سورة الأعراف.

فقوله: ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية ﴾ القائل هو الله - عز وجل - بواسطة الوحي ﴿ إذ ﴾ منصوب على المفعولية بتقدير فعل محذوف خوطب به النبي ﷺ وخوطبنا به نحن لنعتبر ولنتعظ بأحوال بني إسرائيل فلا ننحو منحاهم الذي قال الله فيه لبني إسرائيل كيت وكيت فبدَّلوا وغيَّروا. لتتعظ أمتك ولئلا تطمعوا في إيمان اليهود، وليعلم المعاصرون لك منهم جرائم آبائهم الذين هم عليها مقيمون حتى لا يرفعوا رأسًا بمجادلتك، وبنى الفعل لما لم يُسمَّ فاعله جريًا على سنن الكبرياء، وللعلم بالفاعل وأنه لا يحتاج إلى التنصيص عليه، واكتفاءً

(١) سورة المائدة: الآيات من (٢٢) إلى (٢٥).

(٢) انظر: تفسير الألوسي (١/ ٢٦٥).

بالتصريح به في سورة البقرة في نفس تلك القصة: ﴿ **وإذْ قُلْنا ادْخُلُوا هذه القرية** ﴾[١] وذكرهم بقوله: ﴿ **لهُمْ** ﴾ ليشعرك من أول الأمر بأنهم سيخالفون، وأنهم ليسوا من المطيعين حتى يقال: «وإذ قيل لبني إسرائيل» ولموافقة الضمائر في آية ﴿ **وقطَّعناهُم اثْنتى عشْرة أسْباطا أُمما**[٢] ﴾[٣].

والقرية: هي بيت المقدس، وقيل: أريحاء، وهذا كان على لسان موسى - عليه السلام - وقيل: على لسان يوشع بن نون - عليه السلام -.

ويقول الألوسي - رحمه الله -: «الأمر بالسكنى في القرية للإباحة»[٤] على معنى: أبحت لكم سكنى هذه القرية، ويستأنس لرأيه بعطف ﴿ **كُلُوا من طيِّبات ما رزقْناكُم** ﴾ عليه، ورأى أن الأمر بسكنى تلك القرية للوجوب، وأنهم أمروا أن لا يبارحوها، وأن لا يفسدوا فيها حتى تكون لهم وطنًا ولأن غيرها لا تصلح لإيوائهم لأنها مهد آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط، فلزومهم لها يقودهم إلى سلوك نهج آبائهم، فإن أفسدوا فيها سلب الله منهم الأمن، وسلط عليهم من لا يرحمهم كما قال - تعالى - في سورة الإسراء: ﴿ **وقضيْنا إلىٰ بني إسرائيل في الكتاب لتُفْسدُنَّ في الأرْض مرتين ولتعلُنَّ عُلُوًّا كبيرا (٤) فإذا جاء وعْدُ أُولاهُما بعثْنا عليْكُم عبادا لَنا أُولي بأْس شديد فجاسُوا خلال الدِّيار وكان وعْدًا مفْعُولا (٥) ثُمَّ رددْنا لكُمُ الكرَّة عليْهم وأمْددْناكُم بأمْوال وبنين وجعلْناكُم أكْثر نفيرا (٦) إنْ أحْسنْتُم أحْسنْتُم لأنفُسكُم وإنْ أسأْتُم فلها فإذا جاء وعْدُ الآخرة ليسُوؤُوا وُجُوهكُم وليدْخُلُوا المسْجد كما دخلُوهُ أوَّل مرَّة وليُتبِّرُوا ما علوْا تتْبيرا (٧) عسىٰ ربُّكُم أنْ يرْحمكُم وإنْ عُدْتُم عُدْنا وجعلْنا جهنَّم للْكافرين حصيرا** ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٥٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٠).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٨٣).

(٤) انظر: تفسير الألوسي، (١/ ٢٦٥).

(٥) سورة الإسراء: الآيات من (٤) إلى (٨).

وقوله تعالى: ﴿ **وكُلُوا منها حيثُ شئتُم** ﴾ أي: من طعامها وثمارها ولم يذكر كلمة ﴿ **رغدا** ﴾ في الأعراف كما ذكرت في البقرة اكتفاءً بدلالة ﴿ **حيثُ شئتُم** ﴾ عليه، فإنك إذا أكلت من بلدك حيث شئت، وكنت فيها حر التصرف دلّ ذلك على هناء عيشك ورغده.

وعطف ﴿ **وكُلُوا** ﴾ بالواو هنا لأن زمن الأكل واحد، والمعنى: اجمعوا بين الأمرين، وعطف بـ (الفاء) في البقرة لأن الأكل مترتب على الدخول، وأن الدخول هو الموصل إليه، فحسن عطفه هناك بـ (الفاء) لهذا المعنى، وهذا سر عظيم من أسرار الإعجاز، منتشر في الكتاب العزيز، جدير بأن يلتمس، وقد كتب فيه مؤلفون في القديم والحديث[1].

وقوله تعالى: ﴿ **وقُولُوا حطّةٌ** ﴾ أي: مَسألَتُنا لك ربنا حين دخولنا هذه القرية وبعده أن تحط عنا ذنوبنا، وأن تغفر لنا ما كان منا، ورفعت ﴿ **حطّةٌ** ﴾ لأنها خبر مبتدأ محذوف تقديره: مسألتنا حطةٌ، أخرج البخاري بسنده عن همام ابن منبه أنه سمع أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**قيل لبني إسرائيل: ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وقُولُوا حطّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خطاياكُمْ ﴾ فبدّلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة**» قال ابن حجر: كذا للأكثر، وكذا في رواية الحسن المذكورة بفتحتين، وللكشميهني «في شعيرة» بكسر المهملة وزيادة تحتانية بعدها. والحاصل أنهم خالفوا ما أمروا به من الفعل والقول فإنهم أمروا بالسجود عند انتهائهم شكرًا لله ـ تعالى ـ وبقولهم حطة، فبدلوا السجود بالزحف، وقالوا حنطة بدلَ حطة[2].

وقوله: ﴿ **ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا** ﴾ إن قلنا فيه إن (أل) للعهد كان المراد به بابًا

---

(١) انظر: إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، والإعجاز في دراسات السابقين لعبد الكريم الخطيب؛ وبيّنات المعجزة الخالدة. د/ حسن عتر.

(٢) انظر: فتح الباري، (٩/ ٣٧٤).

معينًا هو باب الحطة أو باب التوبة، كذا رُوي عن السلف، وإن أريد بها الجنس كان المعنى: ادخلوا أبواب هذه القرية ـ بيت المقدس ـ سجدًا لله وشكرًا له على أن أعادكم إلى موطن آبائكم وخلّصه لكم من أيدي الجبارين.

والمراد بالسجود هنا إما حقيقته اللغوية بمعنى الخضوع والانحناء والتطامن، وإظهار ما يدل على الخشية، ولذا رُوي عن ابن عباس في معنى ﴿ **سُجَّدًا** ﴾ أي: راكعين[1] وإما أن يراد به حقيقته الشرعية وهو وضع الجبهة على الأرض، وأن يسجدوا سجودًا حقيقيًا لله ـ عز وجل ـ: وأنا أميل إلى الرأي الثاني.

وقد وعدهم الله إذا التزموا بهذين الأمرين قولهم حطة، ودخولهم الباب سجدًا أن يغفر لهم خطيئة المخطئين منهم، وأن يزيد المحسنين منهم ثوابًا وإكرامًا، وقال في سورة البقرة: ﴿ **نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ** ﴾ وفي سورة الأعراف: ﴿ **نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ** ﴾ تفنُّنًا في القول، ودليل على الإعجاز، حيث روعة النظم مع اختلاف التعبيرين.

وقال في سورة البقرة: ﴿ **وَسَنَزِيدُ** ﴾ بالواو وفي الأعراف بدونها لأن الكلام في الأعراف استئناف وقع جوابًا لسؤال مقدر تقديره: وما لغير المخطئين؟ فقيل: سنزيد المحسنين. وهذان الأمران غاية في السهولة واليسر، فأحدهما قول لا يكلف شيئًا والآخر فعل تعشقه قلوب الطائعين، فهل التزم بنو إسرائيل بهما؟!

هذا ما ستجيب عنه الآية الثانية، قال تعالى: ﴿ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ** ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ** ﴾ أي: فعلوا خلافًا لما أمروا به، أي: بدلوا بالقول الذي أمروا به وبالفعل الذي أمروا به قولاً

---

(١) تفسير الألوسي: (١/ ٢٦٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٢).

غيره وفعلاً غيره، و(بدّل) تتعدى إلى مفعولين أحدهما مجرور بالباء وهو المتروك، والآخر غير مجرور وهو الذي عمله بنو إسرائيل من التبديل.

وفي ذكرهم بـ ﴿ **الَّذين ظلمُوا** ﴾ غاية التشنيع عليهم لأن المعنى: بدل الذين شأنهم الظلم دائمًا ما أمروا به وأتوا بخلافه.

وفي قوله: ﴿ **منهُم** ﴾ إنصاف وأي إنصاف لأنَّا عرّفنا به المخالفين من بني إسرائيل وغير المخالفين، ولم تذكر ﴿ **منهُم** ﴾ في البقرة اكتفاء لأن ﴿ **الَّذين ظلمُوا** ﴾ تشعر بأن منهم ظالمين وغير ظالمين، وجعل الله ذلك الإشعار حقيقة في الأعراف بقوله: ﴿ **منهُم** ﴾ وقوله: ﴿ **قولاً غير الَّذي قيل لهُم** ﴾ فقالوا مكانه: (حنطة) فدلَّ ذلك على مبلغ حبهم للدنيا، وانهماكهم في تحصيلها، وانصرافهم عن الآخرة، مع أن الله قد ضمن له رغد العيش في هذه القرية، وكفاهم همّ ذلك بقوله تعالى: ﴿ **فكُلُوا منها حيثُ شئتُم رغدا** ﴾[1] وبقوله: ﴿ **وكُلُوا منها حيثُ شئتُم** ﴾[2] ودخلوا زاحفين على أستاههم أي: أدبارهم، ولم يسجدوا كما أمرهم الله ـ تعالى ـ تكبرًا منهم واستعظامًا.

فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ **فبدَّل الَّذين ظلمُوا منهُم قولاً غير الَّذي قيل لهُم** ﴾ ولذا لم يمهلهم الله ـ تعالى ـ بل أرسل عليهم فَوْرَ ذلك ﴿ **رجزا مّن السَّماء** ﴾ قيل: هو الطاعون، وقيل: عذاب عام أهلك الظالمين منهم، ويدلك على فورية هذا العذاب العطف بـ (الفاء) ﴿ **فأرسلنا عليهم** ﴾ ويدل الجار والمجرور على لزوم هذا العذاب للظالمين، وأنه لم يَتَخَطَّهُمْ إلى الصالحين منهم، والتنصيص على كونه من السماء للدلالة على شدته وهوله، ولذا قال بعض المفسرين: مات منهم أربعة وعشرون ألفًا في ساعة واحدة[3].

(١) سورة البقرة: الآية (٥٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦١).

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (١/ ٢٦٧)، وتفسير أبي السعود، (٣/ ٢٨٤)، وتفسير الكشاف، (١/ ٢٨٣).

ثم علل الله تعذيبه لهم لاستمرارهم على الظلم وإقبالهم عليه مع وجود الزواجر الشديدة الصارفة لهم عنه، وأتى بـ (كان) ماضيه وبـ (يظلمون) للمضارع ليدل على أن ذلك العذاب لم يكن نتيجة تلك المخالفة بل لأجلها ولاستمرارهم على الظلم والفسق واجتهادهم في ذلك.

وقد ذكر الفخر الرازي أجوبة على تغاير بعض الألفاظ في آيتي البقرة والأعراف والقصة واحدة، وقد ضعّفها الألوسي ولم يرتضها، وفضّل عليها ما ذكره الزمخشري في الكشاف، وقد أعجبني نقد الألوسي لأجوبة الفخر واسترحت إلى ما استراح إليه، وأحيل القاريء إلى نقد الألوسي لتلك الأجوبة، ولم أذكرها خشية الإطالة[1] واكتفيت بذكر أجوبة الزمخشري.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف اختلفت العبارة هنا وفي سورة البقرة؟ قلت: لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض، ولا تناقض بين قوله: ﴿ **اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا** ... ﴾[2] وبين قوله: ﴿ **قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا** ﴾[3] لأنهم إذا سكنوا القرية فتتسبب سكناهم للأكل منها، فقد جمعوا في الوجود بين سكناها والأكل منها، وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخّروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما، وتَركُ ذكر الرَغَد لا يناقض إثباته.

وقوله: ﴿ **نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ مُوعدٌ بشيئين: بالغفران والزيادة، وطرح الواو لا يخل بذلك لأنه استئناف مرتب علَى تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: ﴿ **وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ وكذلك زيادة ﴿ **مِنْهُمْ** ﴾ زيادة بيان. وأرسلنا، وأنزلنا، ويظلمون، ويفسقون من وادٍ واحد[4].

---

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٥/ ٣٤-٣٦)، وانظر: تفسير الألوسي، (١/ ٢٦٧-٢٦٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦١).

(٣) سورة البقرة: الآية (٥٨).

(٤) انظر: الكشاف للزمخشري، (٢/ ١٢٤، ١٢٥)، وتفسير النسفي (٢/ ٨٢).

المبحث الثامن عشر
جناية أخرى من جنايات بني إسرائيل في عهد موسى ـ عليه السلام ـ

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١).

وقبل أن أشرع في تفسير هذه الآية ينبغي أن أذكر السبب الذي لأجله رفع الجبل على بني إسرائيل، وقد بينه الله ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة البقرة، وهو أنه ـ تعالى ـ أخذ على بني إسرائيل ميثاقًا مؤكدًا بعبادته وحده، والإحسان إلى الوالدين، وأن يقولوا للناس حسنًا، وأن يقيموا الصلاة ويؤتو الزكاة، ثم تولوا عن هذا الميثاق وأعرضوا عنه وذلك في عهد نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ فرفع الله الطور عليهم ليحملهم على الاستمساك بهذا الميثاق، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾(٢).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٧١).

ملاحظة: يلاحظ المتتبع للبحث أنني تركت تفسير الآيات من قوله: ﴿ وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ﴾.. الآية (١٦٣) إلى قوله: ﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المحسنين ﴾.. الآية (١٧٠) وذلك لأنني سوف أتحدث عنها في بحث الصراع بين نبينا محمد ﷺ وبين قومه ـ الفصل الثامن ـ لمناسبتها ولأنها خطاب للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يسأل اليهود عن القرية التي كانت حاضرة البحر... انظر: ص (٦٢١) من بحثنا هذا.

(٢) سورة البقرة: الآية (٨٣).

وقيل: إن موسى - عليه السلام - لما جاءهم بالتوراة استثقلوا ما فيها من التكاليف، وأبوا قبولها، وقد مر بك قوله تعالى: ﴿ **وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** ﴾ والمقصود بقوله بأحسنها[1] وأبى بنو إسرائيل أن يأخذوا بشيء منها فرفع الله عليهم الجبل ليحملهم على الأخذ بالتوراة.

والرأيان متقاربان لأن مواد الميثاق المأخوذ عليهم هو بعض ما في التوراة، فالأخذ بالتوراة أخذ بالميثاق؛ ولذا نجد القرآن الكريم في غير سورة الأعراف يقرن رفع الطور بأخذ الميثاق، فيقول في سورة البقرة: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ** ﴾[2] ويقول أيضًا في سورة البقرة: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** ﴾ الآية[3].

والخطاب في آيات سورة البقرة لليهود المعاصرين لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فهم وإن لم يرفع الطور عليهم فقد نقضوا الميثاق، وكفروا بالله - عز وجل - وأكل الحقد أكبادهم ببعثة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بحجة ذهاب النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل - العرب -.

وفي سورة النساء يقول تعالى: ﴿ **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ** ﴾[4] والكلام أيضًا مع اليهود في عصر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي سألوه أن ينزل عليهم كتابًا من السماء في ألواح كما نزل على موسى من قبل، فسلّى الله نبيه عن هذا التبجُّح بذكر ما سألوه موسى - عليه السلام - من قبل، فهو أكبر بكثير مما

---

(١) انظر: ص (٥٢٣) من بحثنا هذا . . . سورة الأعراف: الآية (١٤٥).

(٢) سورة البقرة: الآيتان (٦٣، ٦٤).

(٣) سورة البقرة: الآية (٩٣).

(٤) سورة النساء: الآية (١٥٤).

سألوه نبينا محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال تعالى: ﴿ **يسْئَلُك أهْلُ الْكتاب أن تُنزِّلَ عليْهِمْ كتابا مِّنَ السَّماء فقدْ سألُوا مُوسىٰ أكْبر من ذلك فقالُوا أرنا اللَّه جهْرةً فأخذتْهُمُ الصَّاعقةُ بظُلْمهِمْ ثُمَّ اتَّخذُوا الْعجْل من بعْد ما جاءتْهُمُ الْبيِّناتُ فعفوْنا عن ذلك وآتيْنا مُوسىٰ سُلْطانا مُّبينا** ﴾[1] يحجزهم عما قالوا وعما فعلوا، ويحملهم على قبول شرائع الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكنهم ما قبلوا إلا برفع الطور عليهم، وقد ربط الله رفع الطور بالميثاق في سورة النساء، وجعله سببًا في هذا الرفع، ولم يعطفه على الميثاق كما سلف في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿ **ورفعْنا فوْقهُمُ الطُّور بميثاقهِمْ** ﴾[2] أي: بسبب نقضه بعد قبوله، أو: بسبب الامتناع عن تحمله أصلاً.

وبعد هذه المقدمة نعود إلى أية الأعراف، فقوله تعالى: ﴿ **وإذْ نتقْنا الْجبل فوْقهُمْ** ﴾[3] الضمير فيه لبني إسرائيل الذين جرى الحديث معهم في هذه السورة منفردين عن فرعون، من قوله تعالى: ﴿ **وجاوزْنا ببني إسْرائيل الْبحر** ﴾[4] إلى هذه الآية، وهو قدر كبير من هذه السورة، يزيد على خمسها، وقد فصَّلناه وبيَّناه فيما مضى.

والخطاب في هذه الآية للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ و﴿ **إذْ** ﴾ في هذه الآية مفعول به لفعل محذوف تقديره: اذكر يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الوقت الذي نتقنا فيه الجبل فوق بني إسرائيل، وذكر الوقت يستدعي ذكر ما حصل فيه، والقصد من ذلك تسليته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بما لقيه موسى من تعنت بني إسرائيل واستكبارهم عن الحق وهم من نسل الأنبياء، وشدة

---

(١) سورة النساء: الآية (١٥٣).

(٢) سورة النساء: الآية (١٥٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٧١).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٣٨).

عداوتهم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتي فاقت عداوة المشركين.

ومعنى: ﴿ نتقْنا ﴾ قلعنا الجبل من مكانه قلعًا تامًا، وجعلناه فوق رؤوس بني إسرائيل لنحملهم على قبول التوراة.

قال الإمام البخاري: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ ﴾ رفعنا»[1]، والمراد بالجبل الطور للتصريح باسمه مرارًا كما سلف لك.

ومعنى ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ أي: كأنه سقيفة مُظلةٌ لهم كسقف البيت[2] [3].

وعبر القرآن بـ (كأنَّ) لأن المقصود برفعه فوق رؤوسهم التهديد بإهلاكهم بسقوطه فوق رؤوسهم إذا لم يقبلوا شرائع التوراة، فكان لهذا المعنى مشبهًا بالظلة وليس بظلة حقيقة لأنه لا يبقى كذلك بقصد التظليل.

﴿ وظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي: وظن بنو إسرائيل أن الجبل سيسقط عليهم، وعبر بـ ﴿ وظَنُّوا ﴾ مكان أيقنوا مع تيقنهم بوقوعه فوق رؤوسهم إذا لم يقبلوا الشرائع ليبين ـ تعالى ـ أنه مع رؤية الخطر الداهم لهم بأعينهم لم يصلوا إلى مرتبة اليقين، وهذا يدل على قساوة قلوبهم، فلما عاينوا ذلك قَبِلُوا أحكام التوراة ورَضَوا بما فيها.

وقال الله لهم: ﴿ خُذُوا ما آتَيْناكُم بِقُوَّةٍ ﴾ أي: بجد وعزم، وقد نقلهم الله بعد الإعراض عن التوراة من الأخذ بأحسنها إلى الأخذ بكلها، فلم يرخص لهم في ترك شيء منها عقوبة لهم، والمعنى: خذوا التوراة التي آتيناكموها كلها دون أن نجعل لكم فيها مفروضًا ومسنونًا ﴿ واذْكُرُوا ما فِيهِ ﴾ أي: ما في هذا الكتاب

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٧/ ٢٤١) وانظر: تفسير ابن عباس ومروياته.

(٢) في كتب السنة، تأليف الدكتور/ عبد العزيز الحميدي (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى)، ١/ ٤٣٢.

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٩٨).

من أحكام وأخلاق ومواعظ لتستعينوا بهذا الذكر على القيام بكل ما في هذا الكتاب قراءة وتطبيقًا.

ولأجل هذا النسيان ابتُليت أمة الإسلام في هذا العصر بمحن ورزايا لم تُعهد من قبل، وما ذلك إلا لأن أغلبهم لم يذكروا ما في القرآن الكريم فجهلوا المهمة التي أنيطت بهم وهي كونهم مسئولين عن دعوة كافة الخلق باسم نبيهم - صلى الله عليهم وآله وسلم - إلى التوحيد، والأخذ بمحاسن الأخلاق، وإماتة المنكرات في مهدها، أو تضييق الشُقَّة عليها حتى لا تنتشر.

ثم علل هذين الأمرين[1] لبني إسرائيل بقوله تعالى: ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ أي: لا سبيل لكم إلى تقوى الله - عز وجل - التي هي وصية الله لأنبيائهم كلهم ولعباده الصالحين إلا بالالتزام بهذين الأمرين، والثبات عليهما، وقد حاد عنهما بنو إسرائيل بعد ذلك فكانوا أعداء الرسل الذين يأمرون بالقسط من الناس، وكانوا سبب كل داء أصيبت به البشرية بحيدهم عن هذين الأمرين، قال أبو السعود في معنى ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾: «بذلك قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق، أو راجين أن تنتظموا في سلك المتقين» ا. هـ[2].

❊ ❊ ❊

(١) الأخذ بالتوراة بقوة وعزم ثم تَذَكُّر ما في التوراة من أحكام وأخلاق ومواعظ.
(٢) تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٨٩).

خلاصة ما جاء في الفصل السابع

١ ـ عاش الفراعنة في مصر يحكمون القبط وبني إسرائيل معلنين أنفسهم أربابًا من دون الله واجبروا الناس على ذلك.

٢ ـ لم تكن رسالة موسى ـ عليه السلام ـ خاصة بفرعون وملئه، بل لهما وللمصريين كافة.

٣ ـ بدأ موسى ـ عليه السلام ـ دعوته ببيان حقيقته لفرعون وأنه رسول رب العالمين، لا يقول إلا الحق، وهو مؤيّد بالحجة والبرهان على صدقه، وقد قوبل هذا الكلام بالرد والإنكار من فرعون وقومه.

٤ ـ أبدى موسى ـ عليه السلام ـ معجزتين على صدق رسالته، ألقى عصاه فإذا هي ثعبان لالبس فيه، وأخرج يده السمراء فإذا لها نور يضيء ما بين السماء والأرض، وكان رد فرعون وملئه أن اتهموه بالسحر ولابد من مقابلة سحره.

٥ ـ لما جمع السحرة، ظنوا أنهم سيغلبون لاعتقادهم أنهم أمهر السحرة، وقد بلغوا فيه غايته، ولكثرتهم، وظنهم أن موسى ساحر.

٦ ـ اشترط فرعون شرطين: أن يحدد موسى ـ عليه السلام ـ زمانًا ملائمًا، ومكانًا سوى، أي في المنتصف بين قصر فرعون ومكان إقامة موسى ـ عليه السلام ـ.

واشترط موسى ـ عليه السلام ـ شرطين: تحديد يوم الزينة وهو يوم عيدهم، وأن يحشر الناس ضحى لئلا تتداخلهم ريبة.

٧ ـ ألقى السحرة سحرهم، وأتوا بفنون متوالية من السحر، سَحَرتْ الجميع، حتى موسى الذي خيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

٨ ـ أوحى الله إلى موسى ـ عليه السلام ـ أن يلقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون ويدّعون.

٩ ـ كان من موقف السحرة أن صدقوا وآمنوا وأعلنوا اتباعهم لموسى ومن معه بل وسجدوا لله وحده إظهاراً لموقفهم.

١٠ ـ ألقى فرعون شبهتين وتهمتين إلى موسى والسحرة ليصدّ الناس عن الحق وهما:

* أن فعلكم ـ أيها السحرة ـ هو مكر مكرتموه في المدينة.

* أن غرضكم من مكركم أن تخرجوا من المدينة أهلها.

١١ ـ توعد فرعون السحرة بالعذاب والتمثيل بهم ولكنهم لم يتزعزعوا عن موقفهم بل زادهم الأمر ثباتًا وإيمانًا.

١٢ ـ أثار الملأ فرعون على موسى ومن معه بأمرين:

* إفساد موسى وقومه في أرض مصر ـ على حدِّ زعمهم ـ.

* أن هذا يؤدي إلى أن يخلعوا عنك ما أنت فيه من ربوبية وسلطان.

١٣ ـ كانت إجابة فرعون فيها الخذلان والضعف بأن توعد بقتل أبناء موسى وقومه واستحياء نسائهم وأننا قادرون عليهم.

١٤ ـ أمر موسى ـ عليه السلام ـ قومه بأمرين: الاستعانة بالله، والصبر، ثم بشرهم ببشارتين: أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وأن العاقبة للمتقين، ولكنَّ قوم موسى تضجروا فلم يصبروا.

١٥ ـ لما عاند قوم فرعون ورفضوا الحق سلط الله عليهم أنواعًا من العذاب لم تعرف من قبل:

* الطوفان وزيادة الماء حتى الغرق وإتلاف المزارع والتجارة والمساكن.

* الجراد، الذي أكل زرعهم وثمارهم إلا ما نذر.

* القُمّل: الذي انتشر في بيوتهم وفرشهم حتى أقضّ مضاجعهم.

* الدم: حتى سال النيل عليهم دمًا، أو هو رعاف سال من أنوفهم.

١٦ ـ يظهر من موقف موسى ـ عليه السلام ـ وموقف قومه عدة أمور:

* تفريط أهل الباطل واستكبارهم عن قبول الحق مع وضوح حجته.

* حرص نبيهم ـ عليه السلام ـ على إيمانهم واجتهاده في الدعاء لهم.

* صبر موسى ـ عليه السلام ـ عليهم وترفقه بهم.

* أن الله ـ عز وجل ـ تدرج في الآيات التي ابتلاهم بها لعلهم يتوبون ويرجعون إلى رشدهم.

* أن هذه الآيات لم تعرف من قبل، وهو مناسب لذنوب فرعون وقومه من كفر وعناد واستكبار غير مسبوق من قبل.

١٧ ـ عاهد قوم موسى نبيهم على أمرين: الإيمان بالله والاستسلام له ـ عليه السلام ـ وكذا أن يرسلوا معه بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة التي نزحوا منها إلى مصر.

١٨ ـ كان عاقبة فرعون وقومه أن أغرقهم الله جميعًا في البحر ليكونوا عبرة وعظة لكل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

١٩ ـ الراجح أن الأرض التي أورثها الله بني إسرائيل هي أرض الشام لا أرض مصر.

٢٠ ـ لما أراد الله أن يهيئ نبيه موسى ـ عليه السلام ـ للقائه أمره ـ سبحانه ـ بأن يصوم ثلاثين يومًا ليلهن ونهارهن ثم أتمها بعشر، فتم ميقات ربه أربعين ليلة.

٢١ ـ إنما خصص موسى أخاه هارون يخلفه في قومه من بين سائر الصالحين لأمور منها :

* أن هارون ـ عليه السلام ـ نبي ، ولا تخفى أفضلية النبي على غيره .

* أن هارون كان وزيراً لموسى ـ عليهما السلام ـ ، ولا شك أن الوزير هو أقرب الرعية إلى الأمير .

٢٢ ـ إنما طلب موسى ـ عليه السلام ـ من ربه الرؤية لفرط شوقه إليه ، لأن من تمام الفضل أن ترى من تكلمه ، ولما علم أن هذا لا يكون تاب إلى ربه وأعلن أنه أول المؤمنين بعظمة ربه وجلاله .

٢٣ ـ الصحيح ما قاله أهل السنة من جواز رؤية الله تعالى عقلاً ، خلافًا للمعتزلة وذلك لوجهين :

* أن نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ سألها .

* أن الله سبحانه علق وقوعها على استقرار الجبل ، وذلك ممكن في نفسه ، وما علق على الممكن ممكن .

٢٤ ـ لما أراد الله ـ تعالى ـ أن يسلي موسى ـ عليه السلام ـ بعد امتناع الرؤية ذكر له أموراً منها :

* ناداه باسمه تكريمًا له ومؤانسة ومباسطة .

* ذكر له أنه اصطفاه على الناس برسالته .

* أمره أن يأخذ ما آتاه الله وأن يداوم على شكر ربه .

* انتهز قوم موسى غيابه وذهابه للقاء ربه فصنع لهم السامريّ عجلاً جسداً من حليهم يعبدونه من دون الله .

* الراجح عندي أنه كان عجلاً حقيقيًا هكذا أسماه الله في قرآنه ووصفه بأن جسد.

* غضب موسى - عليه السلام - لما رأى قومه خالفوا أمر ربهم فيهم، وظهر غضبه من خلال قوله:

* بئسما خلفتموني من بعدي.

* أعجلتم أمر ربكم.

* وأخذ برأس أخيه يجره إليه.

* اعتذار موسى - عليه السلام - لربه عما بدر منه لأخيه من لوم وتعنيف، وطلب المغفرة له ولأخيه.

٢٩ - صرحت سورة الأعراف بأنه لا توبة للسامري، وأنه إن تاب لا يتوب الله عليه، وكذلك كل مفتر في دين الله وكل مبتدع، وكل متقوّل على الله ما لم يقل، وكذلك كل يهودي لا يؤمن بالأنبياء بعد موسى - عليه السلام - ولا يؤمن بإمام الرسل نبينا محمد ﷺ كله داخل في هذا الغضب الشديد من الله والحرمان من قبول توبته إلى يوم القيامة.

٣٠ - مَنَّ الله - تعالى - على صلحاء بني إسرائيل، واختار موسى قومه سبعين رجلاً ليمقات ربه، وقد أثنى الله على صلحاء بني إسرائيل.

٣١ - أنعم الله على بني إسرائيل في التيه بنعم خمس هي:

* أن الله قطعهم اثنتي عشرة أسباطًا أممًا.

* استسقاء موسى لقومه لما قحطوا في التيه وكاد العطش يقتلهم.

* تظليلهم بالغمام أثناء تيههم بسيناء.

* إنزال المن عليهم، وهو على الراجح طعام ينزل عليهم أول كل يوم كالطل.

* السلوى، وهو طائر كان يأتيهم متى شاءوا، ينتقون منه ما يشاءون ويتركون مالا يحبون.

٣٢ـ من إساءة بني إسرائيل ومخالفتهم أن بدّلوا القول الذي قيل لهم، وغيّروه إلى فعل غيره وكذلك استثقلوا ما في التوراة من تكاليف وأبوا قبولها.

* * *

الفصل الثامن

الصراع بين

نبينا محمد ﷺ وقومه

الفصل الثامن

الصراع بين نبينا محمد ﷺ وقومه(*)

تمهيد:

المبحث الأول: الصراع بين نبينا محمد ﷺ وقومه.

المبحث الثاني: أسباب موقف الكافرين المعاندين وإنكارهم لدعوته.

المبحث الثالث: موقف الرسول ﷺ من الكافرين والمعاندين.

(*) المقصود بقومه من كان على الشرك ولم يدخل بعد في دين الإسلام.

تمهيد

لما كان الإيمان بالله - عز وجل - هو الركيزة الأساسية التي قامت عليها دعوات جميع الأنبياء - عليهم السلام - لذلك كان موكب الإيمان الذي قاده الرسل - عليهم الصلاة والسلام - يواجه الجاهلية الضالة بكلمة الحق في صرامة وصراحة، بقول الأنبياء جميعًا لأقوامهم: ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾[1] كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾[2].

والمتمعن في سورة الأعراف المكية يجدها من بدايتها تعرضت للمعجزة الخالدة التي ختم الله بها الرسالات السماوية قال تعالى: ﴿ **الْمَصَ (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ** ﴾[3] ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي أعجز الثقلين أن يأتوا بآية من مثله، ذلك الكتاب الذي فيه سعادة الناس أجمعين، فهو النعمة العظمى من الرحمن للبشرية جمعاء لإنقاذهم من دياجير الظلمات وركام الأوهام والخرافات.

وكما هو معروف أن القرآن الكريم عني بالدرجة الأولى بتثبيت العقيدة، وترسيخها في قلوب المسلمين آنذاك، ولفت أنظارهم إلى موجد هذا الكون، وما فيه من أجرام سماوية ومخلوقات هي في غاية الإبداع وأن يدعوا عبادة الطواغيت التي يعبدونها من دون الله، والتي لا تعي ولا تسمع ولا تبصر ولا

---

(١) سورة الأعراف: الآيات (٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

(٣) سورة الأعراف: الآيتان (١، ٢).

تجلب نفعًا ولا ضرًا، وأن يتجهوا إلى عبادة الواحد القهار ويتبعوا ما شرعه لهم، فيحلوا ما أحله لهم، ويحرموا ما حرمه عليهم، ويمتثلوا أوامره، ويجتنبوا نواهيه، لأنه - جل وعلا - خالقهم ومربيهم ومدبر أمرهم، والعليم بما فيه مصلحتهم، وحذرهم من أن يتخذوا معه شركاء، يزينون لهم الباطل، ويصرفونهم عن دينه القويم، قال تعالى: ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾[1].

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية (٣).

المبحث الأول
دعوة النبي ﷺ لقومه

لقد بعث الله ـ جل وعلا ـ نبيَّهُ محمدًا ﷺ إلى الناس كافة عُربًا وعُجمًا، وكان أول من واجه من الناس العرب باعتباره ﷺ من أنفُسهم ومن أنفَسهم، فقابلوا دعوته بالعناد والتكذيب شأنُ سائر الأمم الذين فصَّل الله علينا خبرهم في سورة الأعراف موضوع الدراسة.

ولم تختلف شبهاتهم وأساليب عنادهم في مواجهة دعوة النبي ﷺ عما فعله السابقون مع الرسل الكرام ـ عليهم السلام ـ ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ **كذلك ما أتى الَّذين من قبْلهم مِّن رَّسُول إلاَّ قالُوا ساحرٌ أوْ مجْنُونٌ (٥٢) أتواصوْا به بل هُمْ قوْمٌ طاغُون** ﴾[1] والضمير في ﴿ **من قبْلهم** ﴾ راجع إلى مشركي قريش، وسنبيِّن إن شاء الله تعالى في هذا المبحث الأساليب التي اتبعها ـ عليه الصلاة والسلام ـ في دعوة المشركين من خلال سورة الأعراف، وسيقتضي البحث أن نتعرض لآيات في آخر السورة قبل التعرض لآيات في أوائلها أو في وسطها تبعًا للعناوين. ومن تلك الأساليب:

أسلوب الترغيب والترهيب:

وهما منتشران في هذه السورة. تطالعك ثالث آية فيها وهي قوله تعالى: ﴿ **اتَّبعُوا ما أُنزل إليْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ولا تتَّبعُوا من دُونه أوْلياء قليلاً مَّا تذكَّرُون (٣) وكم مِّن قرْية أهْلكْناها فجاءها بأْسُنا بياتًا أوْ هُمْ قائلُون (٤) فما كان دعْواهُمْ إذْ جاءهُم بأْسُنا إلاَّ أن قالُوا إنَّا كُنَّا ظالمين (٥) فلنسْئلنَّ الَّذين أُرْسل إليْهمْ ولنسْئلنَّ**

(١) سورة الذاريات: الآيتان (٥٢، ٥٣).

المرسلين (٦) فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين (٧) والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾[1] وقد سبق التعرض لهذه الآيات عند دراستي للآيات الخاصة بالحض على الإيمان[2] والآيات الخاصة باليوم الآخر وأن وقوعه لا ريب فيه[3]، والقصد من ذكرها هنا توضيح أسلوب النبي ﷺ في دعوة المشركين من خلال هذه السورة، والناظر في هذه الآيات يجدها تركز على أربع نقاط رئيسية:

أولا: ترغيبهم في اتباع القرآن بوصفه بأنه أحسن ما أنزل، وأنه أنزل لسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأنه من ربهم الحفي بهم القائم بمصالحهم والمدبر لشؤنهم، قال تعالى: ﴿ **واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون** ﴾[4] والخطاب في هذه الآية[5] للمشركين بقرينة قوله تعالى: ﴿ **قليلا ما تذكرون** ﴾.

ويدخل فيه ضمنا جميع المكلفين باتباع ما أنزل وهو القرآن، كما أنه ـ تعالى ـ نهاهم عن اتباع أولياء من الجن والإنس من دون الله حتى لا يحملوهم على الكفر بربهم الذي أنزل القرآن لأجلهم.

ثانيا: تلخيص مصير كثير من المكذبين السابقين ومجيء العذاب لهم في أي وقت يشاؤه الله ـ تبارك وتعالى ـ وما كان قولهم حين جاءهم العذاب إلا وصفهم أنفسهم بالظلم علّ ذلك يخلصهم من هذا العذاب، لكن تلك المقالة ما أغنت

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (٣) إلى (٩).

(٢، ٣) انظر: ص (٤٢، ٤٦) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الزمر: الآية (٥٥).

(٥) قوله تعالى: ﴿ **واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون** ﴾ سورة الأعراف: الآية (٣).

عنهم شيئًا ﴿ **فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين** ﴾[١] والضمير في ﴿ **دعواهم** ﴾ يرجع إلى المكذبين السابقين. والغرض من هذه الآيات وعظ قريش بحال السابقين، وأنهم ليسوا بأعز منهم، مما يحملهم على الإقبال على الإيمان لكنهم مع ذلك لجوا في العناد فاستحقوا ما وصفوا به.

﴿ **قليلاً ما تذكرون** ﴾ نفى عنهم التذكر البتة أو أنه تذكر قليل لا يؤدي إلى المطلوب.

ثالثًا: التنبيه على البعث بذكر بعض ما فيه وهو سؤال الذين أرسل إليهم عن إيمانهم وعنادهم، وسؤال المرسلين عن تبليغهم واجتهادهم في نصح قومهم تبكيتًا للمكذبين ومسرة للمؤمنين، قال ـ تعالى ـ: ﴿ **فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين (٦) فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين** ﴾[٢].

رابعًا: الحديث عن وزن الأعمال وحقيقة الميزان، وأنه يثقل بالأعمال الصالحة، وأنه يخف بالكفر وسيئ الأعمال، وأن المفلحين هم الذين ثقلت موازينهم بإيمانهم وصالح أعمالهم، وأن الخاسرين هم الذين خفت موازينهم لخلوها من الإيمان والعمل الصالح، وأنهم ظلموا أنفسهم بعدم اتباعهم ما أنزل إليهم من ربهم، فكانوا لها ظالمين ﴿ **والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾[٣] والأسلوب في هذه الآيات عام وشامل لسائر المكذبين وليس لومًا مباشرًا لمشركي العرب على كفرهم وعنادهم، وسبب هذا العموم التفاوت الكبير بين عقلية الأمة المحمدية والعرب منها بخاصة وعقلية الأمم السابقة.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٥).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (٦، ٧).

(٣) سورة الأعراف: الآيتان (٨، ٩).

ومن أسلوب الترغيب :

ترغيب المشركين بالإيمان بالله - عز وجل - وتذكيرهم بنعم شاملة لهم ولمن سبقهم من البشر، ولمن سيأتي بعدهم، كقوله تعالى: ﴿ **ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ... ﴾ الآية، وقد سبق التعرض لهذه الآية في الفصل الأول[١].

ومنها ذكر قصة آدم - عليه السلام - التي بدأت بسجود الملائكة له، تكريمًا لآدم خاصة وللنوع البشرى عامة، وبيان عداوة الشيطان للإنسان، وكيف احتال الشيطان في إخراج آدم وحواء من الجنة، وتعريض الجنس البشري للتكاليف والكدح في هذه الحياة، وسطو الشيطان عليهم لإغواء أكثرهم بالكفر وصرفهم عن طريق الحق.

قال تعالى: ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (١١) قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (١٢) قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين** ﴾ ... إلى قوله تعالى: ﴿ **قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾[٢] وقد سبق التعرض لها وتحليل الآيات بالتفصيل[٣].

ومنه الامتنان على بني آدم بما أنزله إليهم من اللباس الذي يسترون به عوراتهم، والريش التي يهيئون بها منازلهم أو يجملون بها حياتهم، قال تعالى: ﴿ **يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا** ﴾[٤] وقد سبق التعرض

---

(١) انظر: ص (٤٢، ٨٥) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٤).

(٣) انظر: من ص (١٢٦) إلى (١٢٨) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

لها في الفصل الأول[١].

ومنه إسداء النصح العام لبني آدم بتحذيرهم من فتنة الشيطان، والمشركون المخاطبون بهذه الآيات داخلون في هذا النصح دخولاً أوّليًا، قوله تعالى: ﴿ **يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾[٢] وقد سبق التعرض لها أيضًا في الفصل الأول[٣].

ومنه حضهم على ما تُقوَى به أرواحهم من طاعته وعبادته، والتجمل بزينة اللباس عند فعل بعض هذه الطاعات، وما تتقوى به أبدانهم للقيام بما كلفها الله - تعالى - به بإعطائها حقها من الأكل والشرب، ونهيهم عن الإسراف الذي يجر عليهم كل بلاء، ويعرضهم لسخطه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾[٤].

وقوله: ﴿ **خذوا زينتكم** ﴾ قال صاحب الكشاف: «أي: ريشكم ولباس زينتكم ﴿ **عند كل مسجد** ﴾ أي: كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة، وعن طاووس: لم يأمرهم بالحرير والديباج وإنما كان أحدهم يطوف عريانًا ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضُرب وانْتزعت عنه لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها، وقيل تفاؤلاً: ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب» ا. هـ[٥].

---

(١) انظر: من ص (١٦١) إلى (١٦٢) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

(٣) انظر: من ص (١٦٣) إلى ص (١٦٤) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الأعراف: الآية (٣١).

(٥) تفسير الكشاف، (٢/ ٧٦).

قال الواحدي في «أسباب النزول» عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت في الجاهلية وهي عريانة وعلى فرجها خرقة وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فنزلت: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ونزلت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ الآيتان[1] رواه مسلم[2] عن بندار عن غندر عن شعبة مع اختلاف يسير، قال صاحب الكشاف: «والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة، وكان بنو عامر في أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتًا ولا يأكلون دسمًا يعظمون بذلك حجهم، فقال المسلمون: فإنا أحق أن نفعل، فقيل لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان؛ سرف ومخيلة» ويحكى أن الرشيد[3] كان له طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسين بن واقد[4]: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، العلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان، فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا

(١) أسباب النزول للواحدي، تحقيق/ السيد أحمد صقر، ط دار القبلة، ص (٢٢٢).

(٢) صحيح مسلم، (٤/ ٢٣٢٠) تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي.

(٣) هارون الرشيد (١٤٩ ـ ١٩٣هـ): هو هارون بن محمد بن المنصور العباسي، أبو جعفر، خامس خلفاء الدولةالعباسية في العراق وأشهرهم، ولد بالري لما كان أبوه أميرًا عليها وعلى خراسان، ونشأ في دار الخلافة ببغداد وولاه أبوه غزو الروم في القسطنطينية، وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة (١٧٠ هـ) فقام بأعبائها، وازدهرت الدولة في أيامه، وكان عالمًا بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه، فصيحًا شجاعًا، كثير الغزوات، حازمًا كريمًا متواضعًا، يحج سنة ويغزو سنة؛ انظر: الأعلام للزركلي (٨/ ٦٢).

(٤) علي بن الحسين بن واقد: مولى الأمير فاتح خراسان عبد الله بن عامر بن كريز القرشي، الإمام المحدث الصدوق أبو الحسن المروزي، ولد سنة ثلاثين ومئة، وقال البخاري: توفي سنة إحدى عشرة ومئتين. ا. هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، (١٠/ ٢١١).

تُسْرِفُوا﴾ فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء في الطب، فقال: قد جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة، قال: وما هي؟ قال قوله: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وأعط كل بدن ما عودته» فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبًا».

ذكر هذه القصة الزمخشري في كشافه[١] والنسفي في تفسيره[٢] ونقلها ابن الجوزي في زاد المسير[٣] علّق على الحديث المذكور فيها عن النبي ﷺ بأنه لم يثبت. ا. هـ.

قلت: ذكره الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة وقال: لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أو غيره[٤] والله أعلم.

ومن أسلوب الترغيب في هذه السورة الحديث عن الكون: عُلويّةً وسُفليّة:

وأن الله ـ عز وجل ـ هو وحده المنفرد بخلقه والمدبر له، والمُصرِّف ما فيه بقدرته، والحديث أيضًا عن بعض الظواهر الكونية التي لها علاقة وثيقة بالبيئة العربية، والتي ينبه بها المشركين على رحمة الله وفضله عليهم، واستخدام ذلك البعض في توضيح حقيقة البعث الذي أنكروه وتجليته بما ينتزع الشك من نفوسهم فيقول تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[٥].

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري، (٢/ ٧٦).

(٢) النسفي، (٢/ ٥١).

(٣) زاد المسير لابن الجوزي، (٣/ ١٨٨).

(٤) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للحافظ السخاوي؛ ص (٣٨٩).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٥٤).

فقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ قال النسفي - رحمه الله -: «أراد السموات والأرض وما بينهما، وقد فصّلها في ﴿ حم ﴾ السجدة، أي: من الأحد إلى الجمعة لاعتبار الملائكة شيئًا فشيئًا؛ وللإعلام بالتأني في الأمور، ولأن لكل عمل يومًا، ولأن إنشاء شيء بعد شيء أدل على عالم مدبر يصرِّفه على اختياره ويجريه على مشيئته.

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وتفسير العرش بالسرير والاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبهة باطل لأنه كان قبل العرش ولا مكان، وهو الآن كما كان لأن التغير من صفات الأكوان.

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ أي: يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل.

﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ حال من الليل، أي: سريعًا، والطالب هو الليل كأنه لسرعة مضيه يطلب النهار ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ أي: مذللات ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ أي: هو الذي خلق الأشياء وله الأمر ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: كثرة خيره، أو: دام بره»[1].

وقوله: جل شأنه ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ بشرًا: جمع بشير لأن الرياح تبشر بالمطر ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ ﴾ أي: حملت ورفعت، واشتقاق الإقلال من القلة لأن الرافع المطيق يرى ما يرفعه قليلاً ﴿ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ بالماء ﴿ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ أي: لأجل بلد ليس فيه مطر ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الإخراج هو إخراج الثمرات ﴿ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ

---

(١) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٥٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٧).

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فيؤديكم التذكر إلى الإيمان بالبعث، إذ لا فرق بين الإخراجين لأن كل واحد منهما إعادة الشيء بعد إنشائه[١].

وقوله تعالى: ﴿ **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ** ﴾[٢].

وقوله: ﴿ **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ** ﴾ الأرض الطيبة التراب ﴿ **يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ** ﴾ بتيسيره، وهو موضع الحال كأنه يخرج نباته حسنًا وافيًا لأنه واقع في مقابلة نكدًا، وقوله: ﴿ **وَالَّذِي خَبُثَ** ﴾ صفة للبلد، أي: والبلد الخبيث ﴿ **لَا يَخْرُجُ** ﴾ نباته، فحُذف للاكتفاء ﴿ **إِلَّا نَكِدًا** ﴾ هو الذي لا خير فيه، وهذا مَثَلٌ لمن ينجع فيه الوعظ وهو المؤمن ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك وهو الكافر، وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر مثل المطر وإنزاله بالبلد الميت وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ مثل ذلك التصريف ﴿ **نُصَرِّفُ الْآيَاتِ** ﴾ ونرددها ونكررها ﴿ **لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ** ﴾ نعمة الله وهم المؤمنون ليتفكروا فيها ويعتبروا بها[٣].

أما أسلوب الترهيب للمشركين فقد ساقته سورة الأعراف بأساليب متنوعة أجمل منها ما يلي:

أولاً: مناقشتهم في شُبَهِ أثاروها وافتراءات لبيان الحق فيها، وأسوق لذلك أربع آيات: قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا** ﴾[٤].

﴿ **فَاحِشَةً** ﴾ الفاحشة: هي الفعلة القبيحة المتناهية في القبح، والمراد بها هنا عبادة الأصنام، وطوافهم بالبيت عراة، وسائر ما كانوا يأتونه في جاهليتهم، وقد

(١) تفسير النسفي بتصرف واختصار، (٢/ ٥٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٨).

(٣) تفسير النسفي بتصرف واختصار، (٢/ ٥٧، ٥٨).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٨).

تعللوا بصلاح ما فعلوا ـ مع أنه قبيح ـ لوجود آبائهم عليه، وهم أقرب إلى ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولو كان سوءًا ما فعلوه، ثم يتعللون بأن الله أمرهم بذلك، إذ لو كان ما يأتونه قبيحًا لحوّلهم عنه أو لعاقبهم عليه، ويرد الله عليهم بقوله: ﴿ **قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ** ﴾ لأنه ـ جل وعلا ـ جرت عادته على الأمر بمحاسن الأعمال، والحث على مكارم الخصال.

﴿ **أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾[1] الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، والإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون، ولكي يثير في نفوسهم قبح ما يقولون، وليبين لهم كبر جرمه، والأصل في المأمور به أن لا يكون إلا أمرًا حسنًا واجبًا، كان مندوبًا أو مباحًا، حتى يستحق أن يؤمر به، فأما الفواحش فلا يؤمر بها أصلاً بل يزجر الفاعل عن فعلها، فإذا رغب فيها راغب فذلك لبعده عن الإيمان وتحول فطرته من الخير إلى الشر.

ثانيا: ثم أمر الله نبيه أن يعرفهم ما يأمر الله ـ تعالى ـ به عباده حتى لا يبقى لبس في أن فواحشهم التي يأتونها ليست مما أمر الله به ﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ** ﴾ أي: بالعدل، وبكل خير شرعه الله على ألسنة رسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم وآلهم ـ ثم أمر الله عباده كافرين ومؤمنين إن أرادوا الخير لأنفسهم أن يقيموا وجوههم عند كل مسجد، وأن يدعوه مخلصين له الدين.

قال تعالى: ﴿ **وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ قوله: ﴿ **وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ** ﴾ أي: اقصدوا عبادته مستقيمين إليها، غير عادلين إلى غيرها، في كل وقت سجود أو في كل مكان سجود ﴿ **وَادْعُوهُ** ﴾ واعبدوه ﴿ **مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ أي: الطاعة، مبتغين بها وجهه خالصًا ﴿ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾ كما أنشأكم ابتداء يعيدكم[2] والمعنى: أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم، فأخلصوا له العبادة،

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٨).

(٢) تفسير النسفي (٢/ ٥٠).

فكما قَدَرَ على البدء بلا كلفة فهو قادر على الإعادة لا محالة، فإذا اهتدى مهتد فبتوفيق الله، وإذا أعرض معرض فبخذلان الله ﴿ **فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة** ﴾ بما اختاروه لأنفسهم من تكذيب الرسول ﷺ والإعراض عن الحق الذي جاءهم به، واتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله يطيعونهم في ما يحملونهم عليه من الشر، ويحسبون مع ذلك أنهم على هدى، وهم في الحقيقة ليسوا بمهتدين، قال تعالى: ﴿ **إنهم** ﴾ أي: الكافرين الذي حق عليهم الضلالة ﴿ **اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾[1].

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ...** ﴾ الآية.

كان المشركون - كما أسلفت[2] - يطوفون بالبيت عراة، ويدَّعون أن الله حرّم الزينة والتجمل باللباس في هذه المواطن، كما أنهم كانوا إذا أحرموا يمنعون أنفسهم من أكل لحوم الضأن ودهونها وألبانها، فخطأهم الله في ذلك بقوله: ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾ والاستفهام في هذه الآية إنكاري، قصد به تقبيح هذا المُدَّعَي من قائليه لأن التحريم لله وحده، وهو لم يحرم ذلك على عباده، ثم أخبر - تعالى - أن الزينة وطيبات الرزق للذين آمنوا في الحياة الدنيا أصلاً وللكافرين تبعًا، وأنها خالصة يوم القيامة للمؤمنين لأنهم صاروا إلى دار الكرامة التي هي مستقر الزينة والطيبات من الرزق، فأما الكافرون فقد صاروا إلى دار المهانة التي ليس فيها إلا الهوان والعذاب الأليم، وختم هذه الآية ببيان شاف يقاس عليه غيره من آياته في الموضوع وظهور الحجة، لا يدرك إلا من رزقه الله العلم النافع ﴿ **قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣٠).

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يا بني آدم خذو زينتكم عند كل مسجد ﴾ انظر: ص (١٦٣) من بحثنا هذا.

(٣) سورة الأعراف: الآية (٣٢).

رابعًا: ثم بيَّن ـ جل وعلا ـ في الآية الرابعة ما حرمه على عباده حقًا، وما لم يأذن لهم فيه، فقال: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ** ﴾ أي: القبائح من الذنوب ﴿ **مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾ كالزنا وشرب الخمر ووأد البنات، وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية بلا حياء ﴿ **وَمَا بَطَنَ** ﴾ كالحقد والكبر والخيانة وسائر الرذائل النفسية ﴿ **وَالْإِثْمَ** ﴾ أي: شرب الخمر أو كل ذنب ﴿ **وَالْبَغْيَ** ﴾ الظلم والكبر ﴿ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ متعلق بالبغي[1] ﴿ **وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** ﴾ أي: وحرم عليكم أيها المشركون ما اتخذتموه من الأصنام التي تدعون شركيتها لله ـ عز وجل ـ أو ندِّيتها له، تعالى الله عما يشركون ﴿ **وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[2] أي: وحرم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون أنه أذن فيه أو قاله ـ جلّ جلاله ـ، تعالى الله عما يقولونه علوًا كبيرًا.

ومن أسلوب الترهيب:

تهديد المشركين بأوخم العواقب وقد سلكت السورة بذلك أساليب متنوعة:

أ ـ **تهديدهم بسوء المصير والخلود في العذاب** كقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[3].

ب ـ **تهديدهم بسقوط مكانتهم عند** الله وأنه ـ تعالى ـ لا يسمع دعاءهم وأنه حَرَّم عليهم الجنة، وأنهم لا يدخلونها البتة حتى لو وقع ما يستحيل وقوعه في العقل، فإنهم لا يدخلونها بحال، ليقطع عليهم أطماعهم التي نطقوا بها، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ** ﴾[4] أي: الجنة،

---

(١) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٥١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٣٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٣٦).

(٤) سورة فصلت: الآية (٥٠).

أو: الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة[١] قال تعالى: ﴿ **إنَّ الَّذين كذَّبوا بآياتنا واستكبَروا عنها لا تُفتَّحُ لهُم أبوابُ السَّماء ولا يدخُلُون الجنَّة حتَّى يلج الجملُ في سمِّ الخياط وكذلك نجزي المُجرمين** ﴾[٢].

جـ ـ تصوير واقع أهل الجنة وأهل النار وأنهما متجاوران، وشتان ما بينهما من الحالة التي وصل إليها كل فريق، فمع ما هم عليه أهل الجنة من فرح وسرور وحبور بما وجدوه من وعد الله الحق لهم ينادي أهل الجنة أهل النار ويسألونهم: ﴿ **هل وجدتُم مَا وعد ربُّكُم حقًا قالُوا نعم** ﴾ وهذا إقرار من أهل النار بما هم فيه من هوان، والاستفهام في الآية للتهكُّم لأن أهل الجنة موقنون بأن ما وجده أهل النار فيها مما وعدهم الله به في الدنيا حق لا ريب فيه، فحينئذ يؤذِّنُ مَلَك من ملائكة الحق وينادي بصوت يخلع القلوب عقيب حوار الفريقين بعضهما لبعض . . . قال تعال: ﴿ **فأذَّن مؤذِّنٌ بينهُم أن لَعنةُ اللَّه على الظَّالمين (٤٤) الَّذين يصدُّون عن سبيل اللَّه** ﴾ أي: يصدون أنفسهم وغيرهم بالعناد والتكذيب والشبه الباطلة والتشكيك في القرآن ونبي القرآن.

﴿ **ويبغُونها عوجا** ﴾ أي: موافقة لأهوائهم وضلالهم.

﴿ **وهُم بالآخرة كافرُون** ﴾[٣] أي: بالدار الآخرة وما وعد الله عباده فيها. ﴿ **وبينهُما حجابٌ** ﴾ فلا يصل أهل الجنة لأهل النار، ولا أهل النار لأهل الجنة.

د ـ ومن الأساليب التي سلكتها السورة في تهديد المشركين وصف حالة أهل النار واستغاثتهم بأهل الجنة، وطلب أهل النار أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء ليطفئوا ما بلغ بهم من العطش والحر الشديد، حتى إن ألسنتهم نزلت من أفواههم، فهم يلهثون كما تلهث الكلاب، ويتوسلون إلى أهل الجنة أن

---

(١) تفسير النسفي، (٤/ ٩٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٤٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٤٥).

ينيلوهم شيئًا مما رزقهم الله إياهم من النعيم، وكان كل همهم أن يفيضوا عليهم بعضًا من الماء ليستريحوا به شيئًا من الاسترواح من أكل الزقوم[١] والغسلين[٢] ومن شرب الحميم وهو الماء الحار المتناهي في الحرارة، فيجيبهم المؤمنون بأن الله حرم ذلك على الكافرين، وإنما سأل أهل النار ذلك مع يأسهم من حصوله لأن المتحير المكروب ينطق بما يفيد وبما لا يفيد[٣] قال تعالى: ﴿ **ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين** ﴾[٤].

هـ- ومرة أخرى **يبين لهم أنهم منسيون في النار لا يصلون إلى رحمته** بولولتهم ولا بتذمرهم لأنهم اتخذوا دينهم الذي اعتنقوه وانتسبوا إليه لهوًا ولعبًا فحرّموا ما شاءوا، وأحلوا ما اشتهوه، وغرهم طول البقاء في هذه الدنيا ونسوا لقاء ربهم، قال تعالى: ﴿ **الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾[٥].

والتقدير: فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء هذا اليوم وكما كانوا بآيات الله يجحدون. وهذا يصور لك مبلغ عدم اكتراثهم بيوم القيامة وإمعانهم في التكذيب به، وإمعانهم في إنكار آيات الله - تعالى -.

و- وتارة يذكرهم بأنهم **سوف يعترفون بأن القرآن الذي جحدوه في**

---

(١) الزقوم: طعام أهل النار، قال - تعالى -: ﴿ **أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم** ﴾ سورة الصفات: الآيات من (٦٢) إلى (٦٧).

(٢) الغسلين: قال تعالى: ﴿ **ولا طعام إلا من غسلين** ﴾ سورة الحاقة: الآية (٣٦). والغسلين: غسالة أهل النار وهو ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم. انظر: النسفي، (٤/ ٢٨٩).

(٣) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٥٥).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٥٠).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٥١).

الدنيا حق لا ريب فيه، وأن الرسل الذين كذبوهم قد جاءوهم بالحق الذي لا مَعْدلَ عنه، وأن اعترافهم هذا لا يغني عنهم شيئًا لأنهم قالوه بعد فوات أوانه، وأنهم سيطلبون لأنفسهم شفعاء يشفعون لهم عند الله فلا يجدون، وأنهم يتمنون أن يُرَدُّوا إلى الدنيا من جديد ليعلموا ما امتنعوا عن عمله من قبل وأن ذلك لن يتحقق لهم، وأنهم قد خسروا أنفسهم بوقوعهم في العذاب الذي كذبوا به، وأن ما كانوا يفترونه من شركهم في الدنيا قد غاب عنهم؛ ولم يجدوا له نفعًا، قال تعالى: ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ** ﴾ أي: هل ينتظرون إلا عاقبة هذا الكتاب الذي كذبوا به حين يعلمون يوم القيامة أنه ما جاءهم إلا بالهدى والرحمة، لكنهم اجتهدوا في الإعراض عنه ففوجئوا بما لم يتوقعوا.

﴿ **يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ** ﴾ أي: تظهر الحقائق التي أخبر عنها ماثلة للعيان، فالجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ونبيهم محمد ﷺ الذي كذبوه حق ﴿ **يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾[1].

ثم لم تكتف السورة بما مضى بل قصت عليهم حال نوح - عليه السلام - مع قومه، وهود - عليه السلام - مع عاد، وصالح - عليه السلام - مع ثمود، وشعيب - عليه السلام - مع مدين، وموسى - عليه السلام - مع فرعون ومع بني إسرائيل بعد إنجائهم من فرعون؛ ليتعظ المشركون بهذا القصص وليعتبروا بحال الأقوام ومآلهم.

ولعلي أكون قد وفقت ببيان ما سلكته السورة في حجاج المشركين وتجلية الصراع بينهم وبين النبي ﷺ.

وكما سلكت السورة مع المشركين عدة مسالك ألمحت إليها، كذلك سلكت مع اليهود عدة مسالك، أقامت بها الحجة على المعاصرين منهم للنبي ﷺ وبينت

(١) سورة الأعراف: الآية (٥٣).

أخطاء أسلافهم، وقد تعرضت لها من خلال تناولي لقصة موسى ـ عليه السلام ـ وهي تتلخص في ذكر ما أنعم الله به عليهم، وبيان ما قابلوا به هذا الإنعام من الجحود والنكران، وارتكاب أشنع المخالفات ـ كما فصلته سابقًا ـ[١].

ولم تكتف السورة مع اليهود بما بسطته من خلال قصة موسى ـ عليه السلام ـ بل ذكرت لهم أربعة أشياء محدودة تحملهم على متابعة النبي ﷺ والإيمان به؛ حتى لا يحدث لهم ما حدث لأسلافهم:

أولاً: بيان شرف النبي ﷺ وأنه رحمة مهداة للعالمين، وهم جزء من العالمين وأنه ﷺ رحمة خاصة لهم، وتجد ذلك واضحًا في قوله: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ** ﴾[٢].

أي: التي حرمت عليهم وعلى أسلافهم بما ارتكبه أسلافهم من مآثم استوجبت تلك المعاقبة.

﴿ **وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** ﴾ من الربا والرشوة وشرب الخمر وأكل الخنزير وغير ذلك مما شاع في اليهود من محرمات.

﴿ **وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾ كاشتراط قتل النفس في قبول التوبة[٣] وأخذهم بالقود في قتل العمد والخطأ على سواء، وقطع ما تنجس من ثيابهم وجلودهم، وإحراق الغنائم، وظهور الذنوب على أبواب البيوت وغير ذلك. والإصر هو الثقل الذي يأصر صاحبه، أي: يحبسه عن الحراك

---

(١) انظر: من ص (٤٩٥) إلى ص (٥٠٢) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

(٣) كما أشار إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ في سورة البقرة: ﴿ **وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم** ﴾ سورة البقرة: الآية (٥٤).

لثقله، والمراد التكاليف الصعبة المشار إليها آنفًا، والأغلال جمع غُل - بضم الغين - وهي في الأصل الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه، وشُبِّهتْ التكاليف بالغل للزومها لزوم الغل(١).

ثم بين الله - تعالى - كيفية متابعة هذا النبي الأمي ﷺ فحصرها في أربعة أشياء:

أ - في تحقيق الإيمان به، قال تعالى: ﴿ **فالَّذين آمنُوا** ﴾.

ب - توقيره وتعظيمه وفداؤه بالنفس والمال والولد، قال تعالى: ﴿ **وعزَّرُوهُ** ﴾.

جـ - نصرته ومساعدته على نشر دينه، والقيام بعده بنشر هذا الدين والاجتهاد في تبليغه إلى العالمين، قال تعالى: ﴿ **ونَصرُوهُ** ﴾.

د - اتباع النور الذي أنزل معه وهو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ **واتَّبعُوا النُّور الَّذي أُنزل معهُ** ﴾.

قال تعالى: ﴿ **فالَّذين آمنُوا به وعزَّرُوهُ ونصرُوهُ واتَّبعُوا النُّور الَّذي أُنزل معهُ أُولَئك هُمُ الْمُفْلحُون** ﴾ ولم أفض كثيراً في هذه الآية لأنني ذكرتها في الفصل الأول(٢).

ثانيًا: أمر الله نبيه ﷺ أن يسألهم عن دقيقة انفردوا بمعرفتها، ولم يعرفها عنهم غيرهم، ولم يُعرف أنه ﷺ جالسهم فأخبروه بها ألا وهي قصة أهل القرية التي كانت قريبة من البحر، والتي اعتدى أهلها بالعمل في يوم السبت، وكان قد فرض عليهم تعظيمه وتخصيصه بالعبادة لما اختاروه لأنفسهم بأهوائهم، وتركوا ما اختار الله لهم وهو يوم الجمعة، فكان اختيارهم سبب نكبتهم ومسخهم قردة وخنازير، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يسألهم عن هذه القصة ليعلموا أنه ﷺ قد عرفها من قبل الوحي، لعل ذلك يحملهم على الإيمان به وتصديقه فيما جاءهم به عن الله - عز وجل -.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٨٨)، وأبي السعود، (٣/ ٢٧٩، ٢٨٠)، والنسفي (٢/ ٨٠).

(٢) انظر: ص (٧٢) من بحثنا هذا.

وقد انفردت سورة الأعراف بتفصيل هذه القصة بينما أشار القرآن إليها بإيجاز في سورة البقرة بقوله: ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين (٦٥) فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين** ﴾[١] وقوله ـ تعالى ـ في سورة النحل: ﴿ **إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾[٢] أي: إنما جعل البلاء على اليهود المختلفين في يوم السبت الذين آثروه على يوم الجمعة، قال النسفي ـ رحمه الله ـ: «روي أن موسى ـ عليه السلام ـ أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يومًا للعبادة، وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت، إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فهذا اختلافهم في السبت لأن بعضهم اختاروه، وبعضهم اختاروا عليه يوم الجمعة، فأذن الله لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد، فأطاع أمر الله الرضوان بالجمعة فكانوا لا يصيدون، وأعقابهم[٣] لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك، وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيجازي كل واحد من الفريقين بما هو أهله»[٤].

أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع؛ اليهود غدا والنصارى بعد غد**»[٥].

---

(١) سورة البقرة: الآيتان (٦٥، ٦٦).

(٢) سورة النحل: الآية (١٢٤).

(٣) هكذا في الأصل والصواب (أما أعقابهم لم ...).

(٤) تفسير النسفي، (٢/ ٣٠٤).

(٥) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب الجمعة (٣/ ٤ ـ ٦).

ويوضح الحديث الذي أخرجه البخاري الأثر الذي رواه أبو صالح[١] عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أنه قال: «أمر موسى ـ عليه السلام ـ اليهود بالجمعة، وقال: تفرغوا لله ـ تعالى ـ في كل سبعة أيام يومًا واحدًا وهو يوم الجمعة، ولا تعملوا فيه شيئًا من أعمالكم، فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا: لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله ـ تعالى ـ فيه من الخلق، وهو يوم السبت، فَجُعل عليهم، وشدد فيه الأمر، ثم جاء عيسى ـ عليه السلام ـ بالجمعة فقالت النصارى: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا فاتخذوا الأحد، وكأنهم إنما اختاروه لأنه مبتدأ الخلق»[٢]. وإليكم تفصيل قصة أصحاب السبت من سورة الأعراف:

قال تعالى: ﴿ **وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ** ﴾[٣] أي: اسأل يا محمد ـ صلى الله عليك وآلك وسلم ـ اليهود المعاصرين لك المناوئين لدعوتك سؤال توبيخ وتقريع عن أمر يختص بآبائهم، لا يعلمه أحد غيرهم إلا إياك، فإنا أعلمناك به ليعلموا أن ما جئتهم به هو الحق، سَلْهم عن أهل القرية التي كانت قريبة من البحر، قيل: «آيلة»[٤] وقيل غير ذلك ﴿ **إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ** ﴾ بمعنى إذ يعتدون فيه بفعل ما حرم الله عليهم فعله في هذا اليوم من العمل الدنيوي، فإنهم

---

(١) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٤/ ٥٠٥).

(٢) تفسير الألوسي (١٤/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٦٣).

(٤) آيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم ـ البحر الأحمر ـ مما يلي الشام، كانت مدنية جليلة في زمن داود ـ عليه السلام ـ وهي القرية التي ذكرها الله ـ تعالى ـ حاضرة البحر، كان أهلها يهودًا حرم الله ـ تعالى ـ عليهم يوم السبت صيد السمك، وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شُرَّعًا بيضًا سمانًا كأنها الماخض حتى لا يرى وجه الماء لكثرتها، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فكانوا على ذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان وسوس لهم وقال: إنما نهيتهم عن صيدها يوم السبت فاتخذوا حياضًا حول البحر وسوقوا إليها الحيتان يوم السبت، فتبقى فيها محصورة واصطادوا يوم الأحد، وفي غير يوم السبت لا يأتيهم حوت واحد، ففعلوا ما أمرهم الشيطان خائفين . . .
انظر: آثار البلاد وأخبار العباد لزكريا القزويني، ص (١٥٣).

أمروا أن يتفرغوا فيه تفرغًا تامًا لعبادة ربهم، وقد ابتلاهم الله بذلك لما أعرض أغلبهم عن يوم الجمعة الذي اختاره الله لهم، مدعين أن يوم السبت هو اليوم الذي فرغ الحق - تبارك وتعالى - فيه من خلق السموات والأرض.

﴿ إذْ ﴾ ظرف في محل جر بدل من القرية، وقوله تعالى: ﴿ **إذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا** ﴾ أي: ظاهرة بادية على وجه الماء، كثيرة يسهل اصطيادها بلا عناء وكلفة.

وسبت من ﴿ **سَبْتِهِمْ** ﴾ مصدر سبتت اليهود تسبت سبتًا، أي: انقطعوا لعبادتهم، وقد ابتلاهم الله بذلك نقمة منهم ليصطادوا في هذا اليوم الذي نهوا عن العمل فيه والذي اختاروه لأنفسهم ﴿ **وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ** ﴾ أي: لا تأتيهم حيتانهم في سائر أيام الأسبوع التي لا يسبتون فيها و ﴿ **وَيَوْمَ** ﴾ ظرف منصوب بـ ﴿ **لا تَأْتِيهِمْ** ﴾ مما جرأ سفهاءهم والضالين منهم على الاصطياد يوم السبت مما أدى إلى هلاكهم، وقوله تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ أي: كهذا البلاء، وهذا الافتتان الحاصل لهم بمجيء حيتانهم يوم سبتهم شرَّعًا، وانقطاعها في سائر أيام الأسبوع مما سهل عليهم المعصية، نبتليهم بأنواع أخرى من البلايا الشديدة بسبب استمرارهم على الفسق وإلْفهم له.

ولذا استخدم القرآن كلمة (كان) الدالة على الاستمرار في مثل هذا التعبير وبالفعل المضارع الدال على تجدد الفسق منهم، ووقوعه حينًا بعد حين دون مبالاة بعواقبه[1].

وقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ** ﴾ أي: أُمَّة صالحة من اليهود كانت قد يئست من رجعة أولئك السفهاء عن الاصطياد في يوم السبت، فتركت وعظهم لقوم آخرين صالحين استمروا على وعظهم، ولم يكفوا عنه مع استمرار هؤلاء

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢١٤)، وتفسير النسفي (٢/ ٨٢).

السفهاء على المخالفة: ﴿ **لم تعظون قوما الله مهلكهم؟** ﴾ أي: مستأصلهم في الدنيا بما يشاء لهم من العذاب الخاص بهم، المناسب لتلك الجريمة النكراء[١].

﴿ **أو معذبهم عذابا شديدا؟** ﴾ دون الإهلاك، مع ما ينتظرهم من العذاب الشديد في الآخرة، وكان هؤلاء القائلون قد سلكوا كل وسيلة في وعظهم لينزجروا عن جريمتهم، فلم ينجح فيهم، وقد أجابهم الصالحون المستمرون على وعظهم ﴿ **قالوا معذرة إلى ربكم** ﴾ أي: نعظهم لا لأنهم سيرجعون بل لنُظهر عذرنا عند ربنا وأننا لم نكف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن بدا أن المنهيين لا يرجعون ﴿ **معذرة** ﴾ مفعول لأجله وهي قراءة حفص، وقراءة الجمهور ﴿ **معذرةٌ** ﴾ بالرفع، والتقدير: موعظتُنا عذرٌ إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ لئلا ننسب إلى التقصير في النهي عن المنكر[٢] ومعنى القراءتين متقارب ﴿ **ولعلهم يتقون** ﴾ أي: رجاء لأن يتقوا بعض التقاة، واستخدام الواعظين كلمة (لعل) للدلالة على أن الأمل في تقواهم قليل.

وقد بيّن تعالى أنهم لما نسوا ما ذُكِّروا به من نهيهم عن العمل يوم السبت لما يجره عليهم من الويل نجّي الصالحين منهم، وأهلك المفسدين بعذاب خاص بهم، لم يعذب به أحدًا قبلهم ولا بعدهم وقد سماه الله باسم عام ﴿ **بعذاب بئيس** ﴾ لتذهب النفس فيه كل مذهب، ثم عيّنه ليريح القلوب من التفكير فيه، وليبين لها أنه شيء لم يخطر على البال، قال تعالى: ﴿ **فلما نسوا ما ذُكِّروا به** ﴾[٣] أي: فلما نسي الظالمون من اليهود ما ذكرهم به الصالحون وما خوّفهم به من عذاب الله ـ تعالى ـ ﴿ **أنجينا الذين ينهون عن السوء** ﴾ أي: أنجينا الصالحين منهم برحمتنا لأنهم تحلوا بما يؤهلهم لها وهو النهي عن السوء، ولم يقل: (ينهونهم) ليعلم أن هؤلاء

---

(١) أعين: اصطيادهم يوم السبت.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٣/ ٢٨٥).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٦٥).

الصالحين كانوا ينهون عن السوء الواقع من هؤلاء السفهاء ومن غيرهم، أي: كانت طبيعتهم كراهية السوء والنهي عنه مطلقًا، بلا تأثر بقرابة ولا جاه ولا مال ﴿ **وأخذنا الذين ظلموا** ﴾ أي: بقدرتنا وقهرنا، واستخدام القرآن الكريم اسم الموصول مزيدًا في تعيينهم، وكأنهم الظالمون لا غيرهم ﴿ **بعذاب بئيس** ﴾ في الدنيا، أي: شديد غريب لم يخطر مثله على البال ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ أي: بسبب فسقهم واستمرارهم عليه، وقد عمّم - تعالى - في وصفهم بالفسق ليعلم أن المعاصي كلها تجر إلى البلاء، فهو - تعالى - لم يقل: بما كانوا يفسقون في يوم السبت، والذي كان سببًا في هذا العذاب البئيس، بل قال تعالى: ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ **فلمَّا عتوا عن مَا نُهُوا عنه** ﴾ أي: أعرضوا عن ترك ما نهوا عنه كل الإعراض، وصدوا عن وعظ الواعظين منهم الصدود التام فاجأهم الله بما لم يكن في حسابهم ﴿ **قُلْنا لهُمْ: كُونُوا قِردةً خاسئين** ﴾ أي: جعلناهم قردة حالة كونهم خاسئين خاسرين أذلاء، لا يستطيعون أن يدفعوا ما نزل بهم، وهذا الكلام حقيقي لا دخل للمجاز فيه البتة، فقد حولهم من صورهم الآدمية إلى قردة حقيقية، وتأمل قوله تعالى: ﴿ **قُلْنا لهُمْ كُونُوا** ﴾ وهنا سؤال مهم وهو: هل مُسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير؟ أم مُسخ العاصون في يوم السبت كلهم قردة ومُسخ أناس آخرون من غيرهم خنازير؟ يرى بعض المفسرين أن شبابهم مسخوا قردة وشيوخهم مُسخوا خنازيرَ للتفاوت ما بين الشباب والشيوخ، ويرى البعض الآخر أنهم مسخوا كلهم قردة، وأما الذين مسخوا خنازير فهم الكافرون من بني إسرائيل بعد نزول المائدة التي طلبوا من الله نزولها في زمن المسيح - عليه السلام - والتي قال الله - جل وعلا - في آخر قصتها: ﴿ **قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾[1] وكان الممسوخون

---

(١) سورة المائدة: الآية (١١٥) قال النسفي في تفسير قوله تعالى: ﴿ **قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة** ﴾ . . . سورة المائدة: الآية (٦٠) يعني أصحاب السبت، والخنازير أي: كفار أهل مائدة عيسى - عليه السلام - أو كلا المسخين من =

يعرفون صلحاءهم وأنسباءهم ويبكون لكنهم لا ينطقون، والجمهور على أنهم ماتوا بعد ثلاثة أيام، وقيل: إن هذه القردة قد عاشت وتناسلت، والله أعلم بالصواب[١].

قال تعالى: ﴿ **واسْئَلْهُمْ عن الْقَرْيَة الَّتي كانت حاضرة الْبَحْر إذْ يعْدُون في السَّبْت إذْ تأْتيهمْ حيتانُهُمْ يوْم سبْتهمْ شُرَّعًا ويوْم لا يسْبتُون لا تأْتيهمْ كذلك نبْلُوهُمْ بما كانُوا يفْسُقُون (١٦٣) وإذْ قالت أُمَّةٌ منْهُمْ لم تعظُون قوْما اللَّهُ مُهْلكُهُمْ أو معذّبُهُمْ عذابًا شديدًا قالُوا معْذرةً إلىٰ ربّكُمْ ولعلَّهُمْ يتّقُون (١٦٤) فلمّا نسُوا ما ذُكّرُوا به أنْجينا الَّذين ينْهوْن عن السُّوء وأخذْنا الَّذين ظلمُوا بعذاب بئيس بما كانُوا يفْسُقُون (١٦٥) فلمّا عتوْا عن مّا نُهُوا عنْهُ قُلْنا لهُمْ كُونُوا قردةً خاسئين** ﴾[٢].

ثالثًا: أخبر الله نبيه ﷺ بعقوبات تلازمهم إلى يوم القيامة منها:

١ ـ أنهم كلما اجتمعوا لا يجتمعون إلا على الشر، سلط الله عليهم من ينزل بهم سوء العذاب إلى يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿ **وإذْ تأذّن ربُّك ليبْعثنّ عليْهمْ إلىٰ يوْم الْقيامة من يسُومُهُمْ سُوء الْعذاب إنّ ربّك لسريعُ الْعقاب وإنّهُ لغفُورٌ رّحيمٌ (١٦٧) وقطّعْناهُمْ في الأرْض أُمما منْهُمُ الصّالحُون ومنْهُمْ دُون ذلك وبلوْناهُمْ بالْحسنات والسّيّئات لعلّهُمْ يرْجعُون** ﴾[٣].

فمعنى قوله: ﴿ **وإذْ تأذّن** ﴾ أي: وإذ أعلم وأخبر، وفيه معنى القسم كما يقول النسفي، ولذا أجيب بما يجاب به القسم[٤] وهو قوله تعالى: ﴿ **ليبْعثنّ**

= أصحاب السبت؛ فشبانهم مُسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير . . . تفسير النسفي، (١/ ٢٩٠).

(١) انظر: تفسير الرازي، (٣/ ١١٢)، وتفسير أبي السعود، (٣/ ٢٨٧)، والنسفي (٢/ ٨٣).

(٢) سورة الأعراف: الآيات من (١٦٣) إلى (١٦٦).

(٣) سورة الأعراف: الآيتان (١٦٧، ١٦٨).

(٤) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٨٣).

عليهم إلىٰ يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ .

٢ ـ والعقوبة الثانية أنه فرقهم في الأرض، ولم يأذن باجتماعهم في مكان واحد إلى يوم القيامة، وأنه ـ تعالى ـ ابتلاهم بالنعم تارة، والنقم أخرى، لعلهم يرجعون عما هم فيه من غي، فما اتعظ بذلك إلا قليلٌ منهم، وأما أغلبهم فأقاموا على الفساد والضلال، وهذا هو حالهم إلى يوم القيامة، فقلّ أن تجد فيهم مهتديًا إلى الحق، قال تعالى: ﴿ **وقطَّعْناهُمْ في الأرْض أُمما مَنْهُمُ الصَّالحُون ومنْهُمْ دُون ذلك وبلوْناهُم بالْحسنات والسَّيئات لعلَّهُمْ يرْجعُون** ﴾[1] .

وهم كذلك إلى عصرنا هذا فرغم قيام الدولة اليهودية في فلسطين إلا أنها لا تضم أكثر من خمسهم، وهم يحاولون جاهدين أن يستقطبوا كثيرين ممن يقيمون في دول أخرى، لكن أغلبهم إلى الآن لا يطيب لهم العيش في هذه الدولة ـ أعني فلسطين ـ لأن تقطيعهم وتفريقهم حكم من الله عليهم، وأحكام الله لا تنقض، وحتى القاطنون في هذه الدولة تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى، يدلك على ذلك كتلهم وأحزابهم التي أصون هذه الرسالة عن ذكر أسمائها، وهي لا تخفى على مَن له أدنى دراسة بأحوالهم.

وهؤلاء الذين وُصف بعضهم بالصلاح وبعضهم بالفساد مضَوا، أما اليهود المعاصرون لنا فلا خير فيهم، ولم نسمع بأن أحدهم قد اعتنق الإسلام، بل هم كما قال تعالى: ﴿ **فخلف من بعدهم خلْفٌ ورثُوا الْكتاب يأْخُذُون عرض هذا الأدْنىٰ ويقُولُون سيُغْفرُ لنا وإن يأْتهمْ عرضٌ مثْلُه يأْخُذُوه** ﴾[2] .

و(الخَلْف) بسكون اللام بدل السوء، بخلاف (الخَلَف) بفتح اللام فهو الصالح، والمعنى: فخلف من بعد هؤلاء المذكورين قبل بعثة النبي ﷺ خلفٌ؛ وهم الذين كانوا زمن رسول الله ﷺ قوم لا يتورعون عن الحرام ﴿ **يأْخُذُون عرض**

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٩).

هذا الأدنى ﴾ أي: يأخذون الدنيا الفانية الحقيرة الزائلة بطرق غير مشروعة، كأخذ الرشا وأكل الربا وتحريف الكتاب ليشتروا به عرضًا قليلاً من هذه الدنيا، ويتذرعون إلى تبرير ما أخذوه بقولهم: ﴿ **سيُغفرُ لنا** ﴾ أي: ليس هذا الذنب الذي ذكرته الآية بل كل ذنب، ولا غرابة في هذا التفكير، فإنهم يقولون: إنهم أبناء الله وأحباؤه، وهم يقولون ذلك ليبروا أخطاءهم، وليكذبوا القرآن فيما أخبر به من عقوبة الكافرين والظالمين.

والواو في قوله: ﴿ **ويقُولُون: سيُغفرُ لنا** ﴾ واو الحال، أي: حالهم الملازمة لهم أنهم لا يشعرون بقبح ما صنعوا بل هم قائمون على تبريره وتسويغه، وهؤلاء الخلْف ـ كما أسلفت ـ هم اليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ ومَن بعدهم إلى يوم القيامة، والكتاب الذي ورثوه هو التوراة وكانوا في عهد النبي ﷺ يعلمون الحق من كتابهم، ويكتمونه، ويخلطونه بالباطل ليشوّشوا على الناس، وقد نهاهم الله عن ذلك بقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ **ولا تلْبسُوا الْحقَّ بالْباطل وتكْتُمُوا الْحقَّ وأنتُمْ تعْلمُون** ﴾[1] ولذلك وبخهم الله بقوله: ﴿ **ألمْ يُؤْخذْ عليْهم مَيثاقُ الْكتاب أن لاَ يقُولُوا على اللَّه إلاَّ الْحقَّ** ﴾ أي: قد أخذ عليهم هذا الميثاق ولكنهم تنكبوا عنه.

وقوله تعالى: ﴿ **ودرسُوا ما فيه** ﴾ بيان لتمكّنهم من علم ما في كتابهم من الحلال والحرام، فهم لم يفعلوا ما فعلوه من السوء بجهل، بل فعلوه وهم عالمون ببطلانه، ولذا وعظهم الله بموعظة عامة فقال: ﴿ **والدَّارُ الآخرةُ خيْرٌ للَّذين يتَّقُون** ﴾ أي: خير من عرض هذا الأدنى الذي حملكم على استحلال ما حرم الله عليكم.

قال الحافظ ابن كثير: «قال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيًا إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهودَ أن

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤٢).

لا يفعلوا ولا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي، فتَطْعَنُ عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نُزِعَ وجُعِلَ مكانه رجل ممن كان يَطْعَنُ عليه فيرتشي»[(١)].

ثم قال: ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ وهذا الاستفهام غاية في التوبيخ والتبكيت، و(الفاء) عاطفة لما بعدها على جملة محذوفة، تقديرها: أأصابكم الجهل بعد كل ما أنزل إليكم فلا تعقلون؟

ثم قال تعالى: ﴿ **والَّذين يُمسكُون بالْكتاب وأقامُوا الصَّلاة إنَّا لا نُضيعُ أجْرَ الْمُصْلحين** ﴾[(٢)] وقد ناسب بعد ذكر أحوال المكذبين الغاوين ذكر المؤمنين الذين يمسكون بالكتاب ابتغاء وجهه ـ تعالى ـ ويحلون ما أحل الله ويحرمون ما حرم، ويجتهدون في دعوة غيرهم إلى ذلك، ويقيمون الصلاة التي هي أهم فريضة بعد التوحيد، والتي هي جزء من الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل في تبيين الحق للناس ولا يكتمونه، والذي أهملوه بالكلية كما قال تعالى: ﴿ **وإذْ أخذَ اللَّهُ ميثاقَ الَّذين أُوتُوا الْكتاب لتُبيِّنُنَّهُ للنَّاس ولا تكْتُمُونهُ فنبذُوهُ وراءَ ظُهُورهم واشْتَرَوْا به ثَمَنًا قليلا فبئْس ما يشْترُون** ﴾[(٣)].

كما ناسب أن يُطمئن هؤلاء المتمسكين بالكتاب على سلامة فعلهم وحسن مصيرهم، وأن ما فعلوه لن يضيع عند ربهم، فهو يجازيهم عليه أحسن الجزاء، قال تعالى: ﴿ **إنَّا لا نُضيعُ أجْرَ الْمُصْلحين** ﴾.

رابعًا: أمر الله نَبيَّهُ ﷺ أن يتلو على اليهود نبأ رجل منهم آتاه الله علمًا خاصًا، فلم يهتد به، بل انسلخ من تلك الآيات، وابتعد عنها كل الابتعاد حتى

(١) تفسير ابن كثير، (٢/ ٢٦٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٧٠).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٨٧).

صار شيطانًا يقتدى به إبليس ويقترن به، فكان من الغاوين في الشر، الراغبين عن الخير، وقد بعثتك يا محمد لهؤلاء وغيرهم وأوحيت إليك من علم هذا المنسلخ الذي لا يعرف حاله إلا اليهود لعلهم يرجعون بما تتلوه عليهم ويعتبرون بحال هذا المنسلخ.

قال تعالى: ﴿ **واتْلُ عليهم نبأ الَّذي آتيناهُ آياتنا فانسلخ منها فأتبعهُ الشَّيطانُ فكان من الْغاوين (١٧٥) ولو شئنا لرفعناهُ بها ولكنَّهُ أخلد إلى الأرض واتَّبع هواهُ فمثلُهُ كمثل الْكلْب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذَلك مثل القوم الَّذين كذَّبُوا بآياتنا فاقْصُص الْقصص لعلَّهُم يتفكَّرُون** ﴾[1].

قال الواحدي في بيان سبب نزول هذه الآية: «قال ابن مسعود: نزلت في بلعم بن أبره[2] - رجل من بني إسرائيل - وقال ابن عباس[3] وغيره من المفسرين: هو بلعم بن باعوراء، وقال الوالبي: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له: بلعم، وكان يعلم اسم الله الأعظم، فلما نزل بهم موسى - عليه السلام - أتاه بنو عمه وقومه وقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادْعُ الله أن يردّ عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه مما كان عليه، فذلك قوله: ﴿ **فانسلخ منها** ﴾[4].

قال ابن كثير: وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٧٥، ١٧٦).

(٢) وفي طبعة أخرى لكتاب أسباب النزول للواحدي (ابن عاعورا) وهي الطبعة الأولى المطبوعة في مطبعة أمين هندية بالقاهرة سنة ١٣١٦ هـ، كما أشار إلى ذلك المحقق فضيلة الشيخ/ السيد صقر، والتي ذكر أنها مليئة بالأخطاء، وذكر لذلك أمثلة كثيرة في المقدمة.

(٣) الدر المنثور (٣/ ١٤٥) وتفسير البغوي (٢/ ٢٥٨).

(٤) الواحدي. أسباب النزول. تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، (مكة المكرمة: دار القبلة، ١٤٠٤ هـ).

من المتقدمين في زمن بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف، وذكر القصة السابقة مروية عن علي بن أبي طالب عن ابن عباس[١].

﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ فلحقه الشيطان وأدركه وصار قرينًا له، أو أنَّ الشيطان سلّط عليه كفار الإنس وغواتهم من جنوده، فجعلهم أتباعًا له ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ فصار من الضالين الكافرين ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء، وذلك بأن نحُول بينه وبين الكفر قهرًا وجبرًا، لكننا تركناه مع اختياره ﴿ بِهَا ﴾ بتلك الآيات التي آتيناه إياها ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي: مالَ إلى الدنيا ورغب فيها ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ في إيثار الدنيا ولذاتها على الآخرة ونعيمها ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ ﴾ أي: إن تزجره وتطرده[٢] ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «قال الليث: اللاهث هو أن الكلب إذا ناله الإعياء عند شدة العدْو وعند شدة العطش فإنه يُدلِعُ لسانه من العطش، واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب وإنما يقع بالكلب اللاهث، وأخس الحيوانات هو الكلب، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، وفي تقرير هذا التمثيل وجوه:

الأول: أن كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب اللاهث فإنه يلهث في حالة الإعياء، وفي حالة العطش، وفي حالة الري، فكان ذلك عادة منه وطبيعة، وهو مواظب عليه كعادته الأصلية وطبيعته الخسيسة، لا لأجل حاجة وضرورة، فكذلك مَن آتاه الله العلم والدين، وأغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقي نفسه فيها، كانت حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واظب على العمل الخسيس والفعل القبيح لمجرد نفسه الخبيثة وطبيعته الخسيسة لا لأجل الحاجة والضرورة.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٦) وتفسير الرازي (١٥/ ٥٣، ٥٤).

(٢) انظر: تفسير النسفي بتصرف، (٢/ ٨٥، ٨٦).

الوجه الثاني: أن الرجل العالم إذا توسل بعلمه إلى طلب الدنيا فذلك إنما يكون لأجل أنه يورد عليهم أنواع علومه، ويظهر عندهم فضائل نفسه ومناقبها، ولاشك أنه عند ذكر تلك الكلمات، وتقرير تلك العبارات، يُدلعُ لسَانُه، ويخرجه لأجل ما تمكن في قلبه من حرارة الحرص، وشدة العطش إلى الفوز بالدنيا، فكانت حالته شبيهة بحالة ذلك الكلب الذي أخرج لسانه أبدًا من غير حاجة ولا ضرورة، بل لمجرد طبيعته الخسيسة.

الوجه الثالث: أن الكلب اللاهث لا يزال لهثه البتة، فكذلك الإنسان الحريص لا يزال حرصه البتة»[1].

ثم بيّن ـ جل وعلا ـ الغرض من ذكره لهذا المثل، فقال تعالى: ﴿ **ذَلك مثلُ الْقوْم الَّذين كذَّبُوا بآيَاتنا** ﴾ من اليهود بعد أن قرأوا نعت رسول الله ﷺ في التوراة وذكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس باقتراب مبعثه ﴿ **فاقْصُص الْقصص** ﴾ أي: قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم ﴿ **لعلَّهُمْ يتفكَّرُون** ﴾ فيحذرون مثل عاقبته إذا ساروا نحو مسيرته ﴿ **ساء مثلا الْقوْمُ الَّذين كذَّبُوا بآياتنا** ﴾ أي: مثل القوم، فحذف المضاف، وفاعل ساء مضمر، أي: ساء المثل، ونصب مثلاً على التمييز ﴿ **وأنفُسهُمْ كانُوا يظْلمُون** ﴾ معطوف على كذبوا، فيدخل في حيز الصلة، أي: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب[2].

ولي على هذه الآيات استنتجات أحب أن أنبه عليها للفائدة:

النتيجة الأولى:

إن أحدًا لا يغلب الله بمعصيته، وإن شرود الشاردين ليس لعجز الله ـ تعالى ـ عن ردهم إليه ـ تعالى الله أن يوصَف بالعجز أو يخرج عن قدرته شيء ـ وإنك

---

(١) تفسير الرازي، (١٥/ ٥٦، ٥٧).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٨٦).

لتجد هذا الاستنتاج واضحًا في قوله تعالى: ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها** ﴾ أي: ولكننا لم نشأ ذلك، فتركناه لغوايته وما اختاره لنفسه.

النتيجة الثانية:

هي قوله تعالى: ﴿ **ولكنه أخلد إلى الأرض** ﴾ أي: مال إلى الدنيا فآثرها، واجتهد في العمل لها، وترك الآخرة وأعرض عما يوصل للسعادة، ولو كان ذلك الميل إلى الدنيا والإعراض عن السعادة عن جهل لكان الأمر أهون، لكنه فعل ذلك وهو على رتبة عالية من العلم والمعرفة.

ولابد لي أن أشير إلى أن الدنيا مهما كثرت في أيدي أصحابها، فهي ليست بغاية يُسعَى إليها، ولكنها لكي تكون صالحة مرضيًا عنها من ربها، فلابد أن تكون وسيلة إلى السعادة في الآخرة، فإذا خرجت عن ذلك فهي بلاء ونقمة على أصحابها، نسأل الله العفو والسلامة.

النتيجة الثالثة:

أسوأ ما يُبتلى به الإنسان أن تتجارى به أهواؤه كما يتجارى الكلب بالجيفة ولذا قال - سبحانه وتعالى - في شأن هذا الإسرائيلي ﴿ **واتَّبع هواه** ﴾ أي: صار مَن يعقل تبعًا لما لا يعقل.

فعلى العاقل أن يلاحظ هواه، فإن كان تبعًا للكتاب والسنة متَّنه واجتهد في تمتينه، وإن كان على خلاف ذلك فَلْيعلَم أنه مريض بمرض عُضال، يحتاج في علاجه إلى بذل كل نفيس وغال حتى يُرَدُّ إلى فطرته الصحيحة التي فطره الله عليها، حيث يقول سبحانه: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾[1].

---

(١) سورة التين: الآيات من (٤) إلى (٦).

النتيجة الرابعة :

ذكر قصص الماضيين من أنجع الدواء الذي يعالج به اللاحقون، فتواصل الأجيال لابد منه، ووقوف اللاحق على حال السابق لابد منه لينتفع بما فيه المنفعة، ويحترسَ عما فيه المضرة، ولذا أمر الله رسوله ﷺ أن يقص على بني إسرائيل القصص بعامة: قصص بني إسرائيل وغيرهم ﴿ **لعلهم يتفكرون** ﴾ في أحوال أسلافهم وغيرهم ممن تنكبوا الحق فهلكوا، فلعل ذلك يفتح قلوبهم المَغْلَقة، ويوصلهم إلى الهداية.

ولذا ينبغي لكل داعٍ ومصلح من المسلمين أن يهتم بدراسة القصص في الكتاب والسنة ليخرج منه الرحيق الذي يشفي النفوس من عللها، فإنَّ الحق والباطل يتصارعان إلى يوم القيامة، ومن أدوات انتصار الحقّ على الباطل أن يقص أصحابُ الحق القصصَ الحق على أهل الباطل؛ لينتشلوهم من باطلهم، أو ليصرعوهم بهذا السلاح الشديد المضاء. والله من وراء القصد.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني
أسباب موقف الكافرين المعاندين وإنكارهم لدعوة النبي ﷺ

من خلال ما سبق دراسته لمواقف الأمم السابقة مع أنبيائهم تتجلى لنا حقيقة واضحة وهي أنه ما من نبي إلا وواجه أمام دعوته التي بعثه الله لتبليغها المشاق الصعبة، والاتهامات الباطلة، والافتراءات الكاذبة، من فئة خاصة من أقوام ممن ألفوا الباطل وعميت بصائرهم عن الحق، وصمت آذانهم عن سماع ما فيه سعادتهم.

وهذه سنة الله في الأمم، فما من رسول أتى قومه إلا كذبوه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا[1] كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾[2] هذا ومما يجدر الإشارة إليه «أن الطغيان وقف بجانب الكثرة الكاثرة من دعاة الباطل، يتحدى الإيمان، ويتحدى التوحيد، ويتحدى رسالات الله، ووقف الهدى بجانب القلة القليلة من أتباع الحق وأنصاره، واحتدمت المعركة بين الهدى والضلال، والكفر والإيمان، وكانت النتيجة انتصارَ الإيمان على الكفر، والحقَّ على الباطل، وتلك سُنَّة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً، لن يغلب الباطل الحقَّ أبدًا وإن كانت معه قوة جميع أهل الأرض، فإن للحق صولة، وللباطل جولة، والمنتصر دائمًا جندُ الرحمن، مصداقًا لقول الله العلي الكبير: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ

---

(١) قوله ﴿تترا﴾: أي متتابعين واحدًا بعد واحد.

(٢) سورة المؤمنون: الآية (٤٤).

سُوءُ الدَّارِ ﴾[١]»[٢].

وأستطيع أن أوجز موقف الكافرين المعاندين من دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين بما يلي:

أولاً: تكذيبه فيما جاء به:

لقد بعث الله حبيبه ومجتباه بين أقوام العرب الذين كانوا يتخبطون في دياجير الوثنية، والمعتقدات الزائفة، والعصبيات الجاهلية، فضلاً عن الانحطاط الخلقي وانتشار الرذيلة، ولقد كان للفترة الطويلة بين بعثة رسول الله ﷺ وبين أخيه عيسى - عليه السلام - عامل كبير في وصول العرب إلى ما وصلوا إليه مما أشرت إليه آنفًا.

فقد أخرج البخاري بسنده عن سلمان الفارسي - رضي الله عنه - موقوفًا قال: «فترة بين عيسى - عليه السلام - ومحمد ﷺ ست مائة سنة»[٣].

ولذلك ما إن سمع أهل مكة ببعثة رسول الله ﷺ حتى كذبوه، واستبعدوا أن يكون يتيم قريش رسولاً من عند الله، وتعجبوا أن يختار الله رجلاً من الناس يرسله إليهم مع قدرته على بعثه الملائكة المقربين، قال ابن عباس - رضي الله عنه -: «لما بعث الله - تعالى - محمدًا ﷺ أنكرت الكفار، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا، أما وجد الله من يرسله ألا يتيمَ أبي طالب؟ فأنزل الله ﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ** ﴾[٤]»[٥] ثم إنهم كذبوا بكل ما جاء

---

(١) سورة غافر: الآيتان (٥١، ٥٢).

(٢) قبس من نور القرآن للشيخ/ محمد علي الصابوني، (٤/ ١٧٢، ١٧٣).

(٣) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، (٨/ ٢٨٠).

(٤) سورة يونس: الآية (٢).

(٥) انظر: أسباب النزول للواحدي، ص (٢٦٧)؛ وتفسير القرطبي، (٨/ ٣٠٦)؛ وتفسير الطبري، =

به، فكذبوا بالقرآن وما جاء فيه من الآيات الباهرات، وقالوا: إن هو إلا أساطير الأولين، كما قصَّ الله مقولتهم تلك بقوله: ﴿ **إذا تُتلى عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأولين** ﴾[1].

ولقد توعد الله - جل وعلا - المكذبين في هذه السورة التي نحن بصدد دراستها بتخليدهم في النار، قال تعالى: ﴿ **والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون** ﴾[2].

فهذه الآية الكريمة وإن كانت حكمًا عامًا في كل مكذب إلا أنها ألصق بمشركي مكة، إذ هم الذين يباشرون تكذيب رسول الله ﷺ فيما جاء به.

وقد اشتملت هذه الآية على سببين مهمين من أسباب تكذيب الرسول ﷺ في دعوته:

أ - إمعان الكفار في تكذيبه ﷺ مع ظهور أن ما جاء به هو الحق.

ب - استكبارهم عن هذه الآيات وإباؤهم لها لأنها ضد أهوائهم وما ألفوه في جاهليتهم.

وقد روي عن ابن عباس - رضي الله عنه -: أن المراد بهذه الآية أهل مكة[3] فهو يريد - رضي الله عنه - أنَّ أهلَ مكة داخلون في الوعيد بهذه الآية دخولاً أوليًا. ولم تقتصر السورة بهذا الوعيد للمكذبين، بل جاء في نهايةالسورة وعيدٌ آخر، وهو قوله جل شأنه: ﴿ **والذين كذَّبوا بآياتنا سنستدرجُهم مِنْ حيثُ لا**

= (١٥/ ١٣)؛ وتفسير ابن كثير، (٢/ ٤٠٦)؛ وتفسير الدر المنثور، (٤/ ٣٤٠)؛ وتفسير الخازن، (٣/ ١٤١)؛ وتفسير البغوي (٣/ ١٤١).

(١) سورة القلم: الآية (١٥) وسورة المطففين: الآية (١٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٣٦).

(٣) انظر: تفسير الرازي، (١٥/ ٧٣).

يعلمون ﴾[١] والمعنى: سنقربهم إلى ما يهلكهم، ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يُراد بهم، وذلك لأنهم كلما أتوا بجُرم، أو أقدموا على ذنب، فتح الله عليهم بابًا من أبواب النعمة والخير في الدنيا ازدادوا بطرًا وأنهماكًا في الفساد وتماديًا في الغي، ويتدرجون في المعاصي بسبب ترادف تلك النعم، ثم يأخذهم الله دفعة واحدة على غرتهم أغفلَ ما يكونون[٢].

ثانيا: عدم تفكرهم في حاله ﷺ:

عاش - عليه الصلاة والسلام - بين قومه أغلب عمره وهم يعبدون الأصنام، ويأتون ما يأتون من قبائح الجاهلية، فلم ينكر عليهم، ولم ينههم عن شيء كانوا يقارفونه، سوى أنه - عليه الصلاة والسلام - قد زهد في أحوالهم، فلم يتلطخ بشيء منها بما حرسه الله - سبحانه وتعالى - قبل النبوة، وبما هداه إليه من سلوك الصراط القويم، وبما فطر عليه قلبه الكريم ﷺ من حب الخير، وشديد الرغبة فيه، وكراهيته وبغضه لتلك الشرور، فكيف يأتيهم بما أتاهم به بعد أن انسلخ من عمره أربعون سنة؟ لو كانت دعوته شهوة نفس، أو حبَّ رئاسة، أو سعيًا إلى مُلك وسيادة لأعلن عليهم ذلك قبل سنّه هذه بوقت طويل، لكنها النبوة، وتجد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿ **وما كُنت ترجُو أن يُلقىٰ إليْك الكتابُ إلاَّ رحمة مِّن رَّبِّك** ﴾[٣].

فـ ﴿ **إلاَّ** ﴾ بمعنى: لكن، والاستثناء هنا في هذه الآية منقطع[٤].

وقوله تعالى: ﴿ **وكذلك أوْحيْنا إليْك رُوحًا مِّنْ أمْرنا ما كُنت تدْري ما الْكتابُ ولا الإيمانُ** ﴾ أي: ما كنت تدري تفاصيل ما أوحينا إليك، وحقائق ما بعثناك به قبل

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٨٢).

(٢) انظر: تفسير، الرازي (١٥/ ٧٣).

(٣) سورة القصص: الآية (٨٦).

(٤) انظر: تفسير الكشاف، (٣/ ١٩٤).

أن نوحي إليك: ﴿ ولكن جعلناهُ نُورا نَهْدي به من نَشاءُ منْ عبادنا ﴾[١]... الآية.

ومما يؤكد ما ذكرته استغرابه لنزول الوحي عليه في أول مرة لولا أن الله ألهم السيدة خديجة - رضي الله عنها - فذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فأخبره أن ما جاءه هو الناموس والوحي الذي أنزل على موسى - عليه السلام -[٢].

فلو تفكّر الكفار المكذبون له، والمعاندون لدعوته في حاله تفكيرًا هادئًا لا تحرِّكه عصبيتهم لباطلهم لسَهُل عَليهم من أول الأمر أن يصدقوه، ولذا جاءت آية الأعراف تنعي عليهم عدم تفكرهم في حاله، وتنكر عليهم ذلك أشد الإنكار؛ قال تعالى: ﴿ أولمْ يتفكَّرُوا ﴾[٣] فالهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، والواو عاطفة لما بعدها على جملة محذوفة، دل عليها سابق الكلام ولاحقه، والمعنى: أعَمُوا عن حالك وهو أبين ما يكون ظهورًا ولم يتفكروا فيه؟ مع أنهم لو تفكروا فيه حق التفكر، لأسرعوا إلى الإيمان بك والتصديق بما جئتَهُم به، وهذا السبب يطول ذكره، وقد اكتفيت بما ذكرت طلبًا للاختصار. والله الهادي إلى سواء السبيل.

ثالثا: اتهامه ﷺ بالجنون:

عندما يُلجمُ الحقُّ ألسنةَ أهل الباطل، وتقوم الحجج الواضحة والأدلة المقنعة بما يدفع أي ريب في دعوة النبي ﷺ وأنه رسول من عند الله، وأن القرآن الذي جاء به هو وحي من عند الله، ولم يبقَ أمام المعاندين المكذبين أي مخرج يواجهون به رسول الله ﷺ ليصرفوا الناس عن دعوته، فإنهم يلجأون إلى أسلوب الاحتقار والاستهانة وهو أسلوبٌ ماكرٌ، يُقْصَدُ من ورائه إبعاد الناس - وبالأخص العامة - عن اتباع النبي ﷺ وصرفهم عن دين الله - سبحانه وتعالى - وذلك برميه ﷺ

(١) سورة الشورى: الآية (٥٢).

(٢) انظر: صحيح البخاري مع فتح الباري، (١/ ٢٤ - ٣٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٨٤).

بالجنون، فإن المجنون لا يُتَّبعُ بحال من الأحوال، ولذا ناقشهم القرآن في هذه القضية في سور كثير[١] لا أطيل بذكرها بل أكتفي بما جاء في سورة الأعراف، قال تعالى: ﴿ **أولَمْ يتفكَّرُوا ما بصاحبهم مَن جنَة إنْ هُو إلاَّ نذيرٌ مُبينٌ** ﴾[٢] وقد ذكر أبو السعود والألوسي ستة أوجه في تفسير هذه الآية، ألخصها لك من تفسير الألوسي: قال تعالى: ﴿ **أولَمْ يتفكَّرُوا ما بصاحبهم مَن جنَة** ﴾:

الوجه الأول:

أن الهمزة للإنكار والتوبيخ، والواو للعطف على مقدر يستدعيه السياق، و﴿ **ما** ﴾ في قوله: ﴿ **ما بصاحبهم** ﴾ تحتمل أن تكون استفهامية إنكارية في محل الرفع بالابتداء والخبر ﴿ **بصاحبهم** ﴾ ويحتمل أن تكون نافية اسمها ﴿ **جنَة** ﴾ وخبرها ﴿ **بصاحبهم** ﴾ و ﴿ **جنَة** ﴾ مصدر كالجلْسة بمعنى الجنون، والتنكير للتقليل والتحقير، والتفكُّر التأمل وإعمال الخاطَر في الأمر، وهو من أفعال القلوب فحكمه حكمها في أمر التعليق، ومحل الجملة النصب على نزع الخافض، ومحل الموصول نُصبَ على ذلك في الوجه الأخير، أي: أكذَّبوا ولم يتفكروا في أي شيء من جنونَ ما كائن بصاحبهم الذي هو من أعظم الهادين للحق، وعليه أنزلت الآيات؟ أو في أنه ليس بصاحبهم من جنة حتى يؤديهم التفكر في ذلك إلى الوقوف على صدقه وصحة نبوته، فيؤمنون به وبما أنزل عليه من الآيات، أو في الذي بصاحبهم من جنة بزعمهم، وليعلموا أن ذلك ليس من الجنة في شيء فيؤمنوا.

---

(١) مثل: سورة الحجر الآية (٦) وسورة الشعراء: الآية (٢٧) والصافات: الآية (٣٦) والدخان: الآية (١٤) والذاريات: الآية (٣٩) كذلك الذاريات: الآية (٥٣) والطور: الآية (٢٩) والقمر: الآية (٢) والآية (٥١) والتكوير: الآية (٢٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٨٤).

الوجه الثاني :

واختار هذا الوجه الطبرسي وهو أن الكلام قد تم عند قوله : ﴿ **أَوَلَمْ يتفكَّروا** ﴾ أي : أكذبوا ولم يتفكروا في أقواله وأفعاله ، أو لم يفعلوا التفكير ؟ ثم ابتديء فقيل : أي شيء بصاحبهم من جنة ما؟ على طريقة الإنكار والتعجيب والتبكيت ، أو قيل : ليس بصاحبهم شيء منها .

والمراد ﴿ **بصاحبهم** ﴾ رسول الله ﷺ والتعبير عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بذلك لتأكيد الإنكار وتشديده لأن الصحبة تطلعهم على نزاهته ﷺ عن كل شائبة مما ذُكر . وعلى هذا الوجه بنيت تقسيمي لمواقف الكافرين المعاندين لدعوة النبي ﷺ .

الوجه الثالث :

أن هذه الآية نزلت للرد على عظيمتهم الشنعاء ، فقد أخرج ابن الطبري وغيره عن قتادة قال : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قام على الصفا ، فدعا قريشًا فخذًا فخذًا : يا بني فلان ، يحذرهم بأس الله ـ تعالى ـ ووقائعه إلى الصباح ، حتى قال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون ، بات يُهَوِّت[1] حتى أصبح ، فأنزل الله ـ تعالى ـ الآية[2] . وعليه فالتصريح ينفي الجنون للرد على عظيمتهم الشنعاء[3] .

الوجه الرابع :

تأثير القرآن الكريم فيهم ، وأخذه بمجامع قلوبهم ، مما جعلهم يقترحون عليه ﷺ أن يأتيهم بقرآن غيره ، أو يبدله بكلام من عند نفسه ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله** ﴾[4] . . . الآية .

---

(١) أي : يصوت .

(٢) انظر : تفسير الطبري ، (٩/ ١٣٦) .

(٢) تفسير الألوسي بتصرف ، (٩/ ١٢٧ ، ١٢٨) .

(٤) سورة يونس : الآية (١٥) .

وقد بدأت سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿ **الٓمٓصٓ (١) كتابٌ أُنزل إليك فلا يكُن في صدرك حرجٌ منهُ لتُنذر به وذكرىٰ للمؤمنين** ﴾[١].

فالمعنى: لا يكن في صدرك شك في أنه حق، أنزله إليك رب السموات والأرض، فلا تبال بمن كذبوا به، أو: لا يكن في صدرك ضيق بسبب تكذيبهم له، وخوف من إخبارهم بما فيه لئلا يتبعوه، فما عليك إلا البلاغ.

ولأجل هذا التثبيت الإلهي الناتج عن النهي في سورة الأعراف، قال الله له في سورة يونس: ﴿ **قُل ما يكُونُ لي أنْ أُبدلَه من تلقاء نفسي إنْ أتبعُ إلاّ ما يُوحىٰ إليَ إنّي أخافُ إنْ عصيتُ ربّي عذاب يوم عظيم** ﴾[٢] أي: إذا قصرت في تبليغه إليكم أو أنقصت منه ما لا يعجبكم ﴿ **قُل لو شاء اللهُ ما تلوتُه عليكُم ولا أدراكُم به فقد لبثتُ فيكُم عُمُرًا مِن قبله أفلا تعقلُون** ﴾[٣].

الوجه الخامس:

حديث سورة الأعراف عن اليوم الآخر وما فيه من سوء مصير المكذبين وحسن مصير المؤمنين؛ فإن المكذبين لدعوته ﷺ ممن خاطبهم بالآيات المتحدثة عن اليوم الآخر وما فيه عزّ عليهم أن يكون مصيرهم كما تلاه رسول الله ﷺ في آي القرآن التي تكفلت ببيان هذا المصير، كما قال تعالى: ﴿ **الّذين اتّخذُوا دينهم لهوًا ولعبًا وغرّتهُمُ الحياةُ الدُّنيا فاليوم ننساهُم كما نسُوا لقاء يومهم هذا وما كانُوا بآياتنا يجحدُون** ﴾[٤] وقد أشرت إلى بعض ذلك في هذا الفصل عند حديثي عن المكذبين، وعقدت موضوعًا خاصًا بالآيات الخاصة باليوم الآخر في الفصل الأول من هذه الرسالة[٥].

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١، ٢).

(٢) سورة يونس: الآية (١٥).

(٣) سورة يونس: الآية (١٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٥١).

(٥) انظر: من (ص) (٤٢) إلى ص (٤٦) من بحثنا هذا.

الوجه السادس :

حديث هذه السورة عن تحريم الفواحش ما ظهر منها كالزنا وقطع الأرحام، وأكل الميتة، ووأد البنات، وتحريم ما كانوا يهدونه لآلهتهم من الذبائح، إلى غير ذلك من عاداتهم، وتحريم الفواحش الباطنة كالحقد والحسد والكبر وسوء الظن والعصبية للباطل، وغير ذلك مما كان سائدًا في الجاهلية، قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[1].

فكان هذا من أقوى الأسباب في تكذيبه، والوقوف أمام دعوته، وإنكارهم لها لأنها خالفت ما استحسنته نفوسهم مما هو محرم وباطل لا يرضاه الله - جل وعلا - ويأباه رسوله ﷺ.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية (٣٣).

المبحث الثالث
موقف الرسول ﷺ من الكافرين المعاندين

لقد واجه رسول الله ﷺ من قومه عناءً ومشقةً وإعراضًا شديدًا، وقد سبق في المبحث السابق التعرض لبعض ذلك، لكن ذلك لم يفتّ في عضده، ولم يمنعه تكذيبهم وإعراضهم عن المضي بعزيمة وثبات أمام تلك المحن وذلك الصدود، فكان ﷺ يترفّق بهم ويتحمل صنوفَ الأذى ومختلفَ الإساءات والافتراءات الكاذبة، ولم يمنعه ذلك من أن يداهمهم في مجالسهم وأنديتهم، داعيًا لهم للدخول في دين الله، ومنذرًا لهم من حلول بأسه وعقابه، ومسفّهًا أحلامهم، ومقبحًا لأصنامهم، فلم يألُ - عليه الصلاة والسلام - جهدًا في دعوتهم ليلاً ونهارًا، صيفًا وشتاءً، ومن عجيب أمر هذا النبي الكريم ﷺ أن أمته في المعاندة والتكذيب في أول الأمر كانت كالأمم السابقة - قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب - عليهم السلام - وآل فرعون وبني إسرائيل - لكن النبي ﷺ أخذ يجتهد في الدعاء لهم، ويصبر على بلائهم، ولم يتعجل لهم العذاب والعقاب حتى هداهم الله في آخر الأمر، ونحّى الله منهم مَن علم أنه لا يؤمن دون أن يصيب الكفار بعذاب الاستئصال يقضي عليهم عن بكرة أبيهم، مع أنهم قد أجمعوا أمرهم على أن يخرجوه من مكة ليستريحوا من دعوته، أو يقتلوه، أو يوثقوه بالحبال في سجن يلقى إليه الطعام والشراب من خلال كوة حتى يموت، مما جعله ﷺ يبادر بالهجرة إلى المدينة بإذن الله - سبحانه وتعالى - هو ومَن معه ممن قَدَر على الهجرة، وقد أصبح المشركون بينهم مستضعفون من الرجال والنساء والولدان ممن آمن به ﷺ وهم لا يستطيعون حيلة للخروج، يؤذونهم بأشد أنواع

الأذى، ومع ذلك لم يعاجلهم الله بالعذاب العام كما فعل بالأمم السابقة ـ الذين ذكرتهم آنفًا ـ وفصلت أحوالهم فيما مضى من فصول.

قال ـ تعالى ـ في سورة الأنفال: ﴿ **وإذْ يمكُرُ بك الَّذين كفروا ليُثْبتُوك أوْ يقتلُوك أوْ يُخرجُوك ويمكُرُون ويمكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خيْرُ الْماكرين** ﴾[1].

وقال ـ تعالى ـ محرضًا همم المؤمنين على مقاتلة المشركين الذين يستضعفون إخوانهم من المؤمنين ويصدونهم عن دين الله: ﴿ **وما لكُمْ لا تُقاتلُون في سبيل اللَّه والْمستضْعفين من الرِّجال والنِّساء والْوِلْدان الَّذين يقُولُون ربَّنا أخْرجْنا من هذه الْقريَة الظَّالم أهْلُها واجْعل لَّنا من لَّدُنك وليًّا واجْعل لَّنا من لَّدُنك نصيرًا** ﴾[2].

ولقد كان لهم إلف شديد بما هم عليه، ولم يكن من السهل عليهم أن يتركوا ما تعودوه، بل لقد وصل بهم الأمر إلى تحريم بعض الطيبات، مثل: (**البحائر**) جمع بحيرة، وهي الناقة التي أنْتَجت خمسة أبطن أخرها ذكر، فإن أهل الجاهلية يبحرون أذنها، أي: يشقونها، ويمتنعون عن ركوبها وذبحها، ولا تُمنع عن ماء ولا مرعى.

و(**السوائب**) جمع سائبة، وهي أنهم كانوا في الجاهلية يقول الرجل منهم: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها.

و(**الوصيلة**) وهي أنهم كانوا إذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاه، ولم يذبحوا الذكر لآلهتهم.

و(**الحام**) وكانوا في الجاهلية إذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا:

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٣٠).

(٢) سورة النساء: الآية (٧٥).

قد حمى ظهره، فلا يُركب، ولا يُحمل عليه، ولا يُمنع من ماء ولا مرعى[١].

قال تعالى: ﴿ **ما جعل الله** ﴾ أي: ما شرع الله ﴿ **من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون** ﴾[٢].

والمعنى: ما شرع الله تحريم هذه المباحات التي حرموها على أنفسهم ونسبوا تحريمها وامتناعهم عن الانتفاع بها إلى الله - جل وعلا - كذبًا وافتراء، قال تعالى: ﴿ **ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون** ﴾ فتوارثوا هذه العادات والمعتقدات عن آبائهم دون أن يُعملوا عقولهم، ويمعنوا في التفكير في حقيقة ما يفعلونه.

وبعد هذه المقدمة أقول وبالله التوفيق: لقد أجملت سورة الأعراف أحوالهم تلك فقال جل شأنه: ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾[٣].

وقال جل وعلا: ﴿ **قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾[٤] وقد سبق تفسير هذه الآيات بما يغني عن إعادتها[٥].

ولقد امتثل رسول الله ﷺ لأمر ربه بمجاهدتهم عى هذا الدين جهادًا كبيرًا، ولم يستجب لأيّة محاولة قُصدَ بها ثنيه عن دعوته بحال من الأحوال رغم عظم

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٣/ ٨٦) وانظر: تفسير النسفي (١/ ٣٠٥).

(٢) سورة المائدة: الآية (١٠٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٨).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٣٣).

(٥) انظر: ص (٦١٤) من بحثنا هذا.

تلك المحاولات والمغريات[١] حتى قال ﷺ قولته المشهورة: «**يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يمني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته**»[٢].

ولقد رسمت سورة الأعراف للنبي ﷺ المنهج السوي القويم الذي يتَّبعُهُ في معاملة الخلق كافة: مؤمنهم وكافرهم، فقال سبحانه: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾[٣].

ولقد التزم النبي ﷺ بهذا المنهج تمام الالتزام، فما من كافر معاند أتاه مسلمًا إلا رق له ورفق به، وأظهر له من الجميل ما يحمل ذلك الكافر إما على نسيان ماضيه مع النبي ﷺ وإما على الاجتهاد في أمر هذا الدين ببذل غاية جهده في نصرته كما بذل من قبل غاية جهده في محاربته، وكم تألّف ﷺ قلوبًا بكرائم الأموال على الإسلام.

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿ **الْعَفْوَ** ﴾ على معانٍ كثيرة يروق لنا منها معنيان:

أولهما: (العفو) ما عفا وسهل وتيسر من أخلاق الناس.

ثانيها: أن يراد بـ (العفو) ظاهره، أي: خذ العفو عن المذنبين، والمراد

---

(١) منها قول الوليد بن المغيرة لرسول الله ﷺ: «يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه»، انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للشيخ/ محمد أبو شهبة (١/ ٣١٧).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، (١/ ٢٨٥)، وانظر: السيرة النبوية تأليف أبي الحسن على الحسن الندوي، ص (١٠٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٩٩).

اعف عنهم، وفيه استعارة مكنية إذ شبه العفو بأمر محسوس يطلب فيؤخذ، وإلى هذا ذهب جمع من السلف[١].

فهذا وحشي قاتل عمه حمزة أحب الناس إليه، ينيب ويسلم لله رب العالمين فيعفو عنه، ولا يستبشع ذنبه مع أنه بشع، ومع أنه ﷺ ما غضب في موطن كغضبه في هذا الموطن، لا سيما وقد مثّلوا به فبقروا بطنه وقطعوا كبده، فلما نظر إليه ﷺ كذلك ترحّم عليه وأثنى، ثم قال: «**والله لئن أظفرني الله بهم لأقتلنّ بسبعين منهم مكانك**» ثم ذكر قول الله تعالى: ﴿**وإنْ عاقبْتُمْ فعاقبُوا بمثْل ما عُوقبْتُم به ولئن صبرتُمْ لهُو خيْرٌ للصَّابرين (١٢٦) واصْبرْ وما صبْرُك إلاَّ بالله**﴾[٢] فاختار الصبر كما أمره الله، وكان ينهي عن المثلة[٣].

وعفوه ﷺ عن المذنبين وتغاضيه عن أخطاء عتاة الكافرين أكثر وأشهر من أن يذكر، وقوله تعالى: ﴿**وأْمُرْ بالْعُرْف**﴾ أي: بكل معروف، وبكل خلق حسن، فإن مَن جفاك وعادى دعوتك لا يمكن إلا أن ينصاع لهذا المعروف الذي تأمر به، فإن المعروف محبب إلى كل قلب، أو المعنى: وأمر بكل ما أمرك الله به وعرفته من قبل الوحي، وقد قام ﷺ بالأمرين جميعًا خير قيام؛ فهو المتمم لمكارم الأخلاق، وهو الذي جاهد على هذا الدين جهادًا كبيرًا كما أمره ربه، ولم تضعف عزيمته في ذلك ولم تهن مع شدة ما لاقاه من الأذى كما وصفت آنفًا.

وقوله: ﴿**وأعْرضْ عن الْجاهلين**﴾ يعم المشركين وأهل الجهالة من المؤمنين، والدليل على شمول اللفظ للفريقين هو أن الوصف لازم لهما، فالكفر ناشيء عن الجهل، واللجوء إلى السفاهة والمخالفة من عصاة المؤمنين سببه الأول الجهل،

---

(١) انظر: تفسير الألوسي بتصرف (٩/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) سورة النحل: الآيتان (١٢٦، ١٢٧).

(٣) حدائق الأنوار ومطلع الأسرار لابن الديبع الشيباني الشافعي، تحقيق الشيخ/ عبد الله الأنصاري، (٢/ ٥٢٧).

قال الألوسي - رحمه الله -: «ولا يخفى حسن موقع هذا الأمر بعد ما عدّ من أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يطاق حمله، وإذا قيل بأن ﴿ **الجاهلين** ﴾ موضوع موضع ضمير أولئك المشركين - حيث إن الكلام فيهم تسجيلاً عليهم بعدم الارعواء، وإقناطًا كليًا منهم، التأمت أطراف الكلام غاية الالتئام، وقد فسر هذه الآية للنبي ﷺ جبريل - عليه السلام - بعد أن سأل ربه عن معناها، فقال جبريل - علي السلام - للنبي ﷺ: «**إن الله - تعالى - أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك**»[1].

ويحسن أن أختم هذا الفصل بموقفه ﷺ من الطلقاء بعد أن أمكنه الله من فتح مكة، فإنه من أوضح التطبيقات لهذا المنهج الرباني الذي ذكرته سورة الأعراف.

إن الدروس التي لقنها ﷺ للإنسانية عامة، ولأهل مكة خاصة تكفي وحدها في إبراز ما نحن بصدده - بيان موقف الرسول ﷺ من الكافرين المعاندين - لقد دخل ﷺ مكة فاتحًا منتصرًا، وكان المشركون قد أخرجوه منها وهي أحب بقاع الأرض إليه بعد أن أذاقوه فيها المتاعب، وبعد أن نكّلوا بأصحابه المستضعفين منهم وفعلوا بهم ما تقشعر له الأبدان، وتصطك منه الآذان، فماذا كان جزاؤهم عنده حين وقعوا في قبضته وضاقت بهم الأرض بما رحبت؟ قال لهم قولته المشهورة: «**لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء**» بل لقد قال ﷺ وألوية النصر تخفق من حوله، والمشركون باسطو أيديهم يلقون بالسلم: «**بل اليوم يوم المرحمة**» رد بها على سعد بن عبادة - رضي الله عنه - وقد استبد به نشوة الظفر وهو يردد: «اليوم يوم الملحمة» وهذا لو حدث لما كان فيه أي لائمة، فجزاء سيئة سيئة مثلها، والباديء أظلم، ولكن نفسه العظيمة وأخلاقه الطاهرة التي لا أطهر منها لا تعرف الثأر، إنه لم يجيء لينتقم لنفسه، ولا ليثأر لأصحابه، إنما جاء وبُعث ليُعلي كلمة الله، والرحمة أنجح دواء لجميع القلوب وتوحيد

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ١٤٧).

الصفوف، وهو الرحمة المهداة ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[١].

وتوالت بعد ذلك الفتوح ودان له العرب قاطبة، ولم يقبضه الله حتى راسل الملوك والأمراء ممن حوله يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، وخرج لمقاتلة الروم في شمال الجزيرة العربية في غزوة تبوك، وظل هكذا مجاهدًا صابرًا محتسبًا حتى نزل عليه قوله - جل وعلا - ينعي له نفسه ويخبره بدنو أجله ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح (١) ورأيت النَّاس يدخلون في دين الله أفواجا (٢) فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾[٢].

* * *

(١) سورة الأنبياء: الآية (١٠٧).

(٢) سورة النصر.

خلاصة ما جاء في الفصل الثامن

١ ـ اتبع رسول الله ﷺ أساليب متعددة في دعوته لقومه منها :

* الترغيب في سماع القرآن بوصفه أحسن ما أنزل .

* تلخيص مصير كثير من المكذبين السابقين .

* التنبيه على البعث بذكر بعض ما فيه .

* الحديث عن وزن الأعمال وحقيقة الميزان .

* الترغيب في الإيمان بالله وذكر نعمه سبحانه الشاملة على المشركين .

* الحديث عن الكون : علويه وسفليه .

الترهيب للمشركين من خلال أمور :

* أن عبادتهم للأصنام ، وطوافهم بالبيت عراة إنما هي سنة ورثوها عن آبائهم ، ماأمرهم الله بها .

* أن الله تعالى لا يأمر إلا بالقسط والعدل .

* الرد على من ادعى أن الله حرم الزينة التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق .

* بيان ما حرمه الله حقًا على عباده .

* تهديد المشركين بأوخم العواقب ، وسوء المصير ، والخلود في العذاب ، وسقوط مكانتهم عند الله .

* تصوير واقع أهل الجنة وأهل النار ، ووصف حال أهل النار واستغاثتهم بأهل الجنة وأن المشركين منسيون في النار ، لا يصلون إلى رحمة ربهم ، وأنهم سوف يعترفون بأن القرآن الذي جحدوه حق لا ريب فيه .

ذكرت السورة للمشركين ثلاثة أمور تحملهم على متابعة نبي الله محمد ﷺ :

* بيان شرفه وأنه رحمة مهداة للعالمين .

* سؤالهم عن دقيقة انفردوا بها وبمعرفتها ، وهي قصة أهل القرية التي كانت حاضرة البحر وبيانها لهم .

* بيان عقوبات تلازمهم إلى يوم القيامة منها :

أ ـ أنهم كلما اجتمعوا لا يجتمعون إلا على الشر ، وسلط الله عليهم من ينزل بهم سوء العذاب إلى يوم القيامة .

ب ـ ذكر نبأ ذلك الرجل اليهودي الذي آتاه الله علمًا خاصًا فلم يهتد به ، وقد انسلخ من تلك الآيات .

٢ ـ هناك بعض الاستنتاجات من خلال الآيات التي صورت صورة الذي انسلخ من آيات ربه بصورة الكلب اللاهث وهي :

* أن أحدًا لا يغلب الله بمعصيته .

* أن الدنيا مهما كثرت في أيدي أصحابها فهي ليست بغاية يسعى إليها .

* أسوأ ما يبتلى به الإنسان أن تتجارى به أهواؤه كما يتجارى الكلب بالجيفة .

* ذكر قصص السابقين من أنجع الدواء الذي يعالج به اللاحقون .

٣ ـ يظهر موقف الكافرين من المعاندين من دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين بما يلي :

* تكذيبه فيما جاء به .

* عدم تفكيرهم في حاله ﷺ .

اتهامه ﷺ بالجنون .

٤ ـ كان رد رسول الله ﷺ على موقف المشركين هو العفو ، والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين .

الفصل التاسع

وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين وردهم وإنكارهم لدعوة الرسل - عليهم السلام -

الفصل التاسع

وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين وردهم وإنكارهم لدعوة الرسل - عليهم السلام -

تمهيد:

المبحث الأول: دعوة الرسل - عليهم السلام - لأقوامهم

المبحث الثاني: موقف الكافرين المعاندين من دعوة الرسل - عليهم السلام -

المبحث الثالث: كفر كل أمة ومعصيتها ونوع العقاب الذي عوقبت به

تمهيد

لم يخلق الله - عز وجل - الإنسان عبثًا في هذه الحياة - تعالى الله عن ذلك - بل خلقه ليؤدي رسالة أنيطت به، وضحتها الآية الكريمة في سورة الذاريات من قوله تعالى: ﴿ **وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلاَّ ليعبُدُون (٥٦) ما أُريدُ منهُم مِن رزقٍ وما أُريدُ أن يُطعمُون (٥٧) إنَّ اللهَ هُو الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّة المتين** ﴾[1].

ولقد ميز الله - جل وعلا - الإنسان عن سائر مخلوقاته بالعقل، وهو بمثابة المؤدب يأمره بالعدل فيما يجتنب ويجتلب، وإلى جانب ذلك ركّب فيه الهوى والشهوة، فكان نتيجة لذلك أن الناس كانوا على فريقين: مهتد وضال، أو مؤمن وكافر، وبعث - جل وعلا - الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين - دعاة هداة إلى الحق، فمن استمسك بشرعهم وهداهم وقبل دعوتهم واستنار قلبه فهو التقي السعيد، ومن أعرض عن هداية الله ورفض دعوة الرسل فهو الخاسر الشقي، وهكذا كان موكب الإيمان - موكب الأنبياء - عبر تاريخ الأمم والشعوب، من لدن نوح - عليه السلام - إلى خاتمهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - يدعون بلسان واحد إلى منهج ثابت لا يختلف، إلى إفراد الله بالعبادة ونبذ عبادة كل ما سوى الله، ويحذرونهم من كيد الشيطان وأتباعه وسلوك سبيله، ويذكرونهم باليوم الآخر وأنه حق لا ريب فيه، وفي ذلك اليوم يلاقي كل إنسان نتيجة عمله وسعيه؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

قال تعالى: ﴿ **يا بني آدم إمَّا يأتينَّكُم رُسُلٌ مِنكُم يقُصُّون عليكُم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنُون (٣٥) والَّذين كذَّبُوا بآياتنا واستكبرُوا عنها**

---

(١) سورة الذاريات: الآيات من (٥٦) إلى (٥٨).

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[١].

والمتمعن في دعوة الرسل - عليهم السلام - ومواقف أقوامهم منهم يجد أن الشبه بين ذلك واضحٌ ومتميز، ولأنني قد سبق أن فصلت القول فيها عند كل فصل من الفصول السابقة - حسب موضوع الفصل -. أكتفي الآن بالإشارة باختصار إلى مباديء دعوة كل نبي مؤيداً ذلك بالآية الكريمة التي تؤيد ما أشرت إليه، ومن ثَمّ الإشارة إلى وجه الشبه بين دعواتهم جميعًا - عليهم السلام - ثم أشرع في بيان موقف كل أمة من نبيها، واستنباط وجه الشبه بين مواقف الأمم جميعًا حسب ما ورد في سورة الأعراف وغيرها إن لزم الأمر؛ كل موقف بآية أو آيتين من كتاب الله.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٣٥، ٣٦).

المبحث الأول
دعوة الرسل - عليهم السلام - لأقوامهم

أولاً: دعوة نبي الله نوح - عليه السلام -:

أ - دعا قومه إلى توحيد الله - عز وجل - وترك عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[١].

ب - دعا قومه إلى الإيمان باليوم الآخر وحذرهم منه فقال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾[٣].

جـ - دعاهم إلى مكارم الأخلاق وذلك أنه لم يقابل إساءتهم بمثلها عندما اتهموه بالضلال فقالوا له: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[٤] فقال لهم: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٥] فلم يرمهم بالضلال مع أنهم كانوا متلبسين به.

د - دعاهم إلى تقوى الله واجتناب نواهيه، قال تعالى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٦].

(١، ٢) سورة الأعراف: الآية (٥٩).

(٣) سورة نوح: الآيتان (١٧، ١٨).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٦٠).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٦١).

(٦) سورة الأعراف: الآية (٦٣).

ثانيا: دعوة هود ـ عليه السلام ـ لقومه:

أ ـ دعاهم إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿ وإلىٰ عاد أخاهُمْ هودا قال يا قوم اعبدُوا اللَّه ما لكُم مَنْ إله غيرُه ﴾[١].

ب ـ دعاهم إلى تقوى الله ـ عز وجل ـ حيث قال لهم بعد دعوتهم إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ: ﴿ أفلا تتقُون ﴾[٢].

جـ ـ دعاهم إلى مكارم الأخلاق لما تسافهوا عليه، ولم يقابل تطاولهم بوصفهم بما هم أهله من سوء الخلق، بل رد عليهم ردًا جميلاً ينفي ما وصفوه به، ويبين لهم أنه رسول من رب العالمين، أرسله الله إليهم ليبلغهم رسالاته، وينصحهم بما يصلحهم في أولاهم وأخراهم: ﴿ قال الْملأُ الَّذين كفرُوا من قوْمه إنَّا لنراك في سفاهة وإنَّا لنظنُّك من الكاذبين (٦٦) قال يا قوْم ليْس بي سفاهةٌ ولكنِّي رسُولٌ مَن ربِّ الْعالمين (٦٧) أبلِّغُكُمْ رسالات ربِّي وأنا لكُمْ ناصحٌ أمينٌ ﴾[٣].

د ـ ذكّرهم بنعم الله عليهم وآلائه، قال تعالى: ﴿ واذْكُرُوا إذْ جعلكُمْ خُلفاءَ من بعْد قوْم نُوحٍ وزادكُمْ في الْخلْق بصْطةً ﴾ أي: آتاكم هيئات عظيمة في أجسادكم، وقوّى بنيانكم بحيث قَدرْتُم عى ما عجز عنه غيركم، وقوله: ﴿ فاذْكُرُوا آلاء اللَّه لعلَّكُمْ تُفْلحُون ﴾[٤] أي: اذكروا نعمه الكثيرة عليكم، غير تلك النعمتين السابقتين فإن تذكركم يؤدي إلى فلاحكم.

ثالثا: دعوة صالح ـ عليه السلام ـ لقومه:

أ ـ دعاهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة لله وحده، قال تعالى: ﴿ وإلىٰ ثمُود أخاهُمْ صالحا قال يا قوْم اعبدُوا اللَّه ما لكُم مَنْ إله غيرُه ﴾[٥].

(١، ٢) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

(٣) سورة الأعراف: الآيات من (٦٦) إلى (٦٨).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٦٩).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

ب ـ ذكرهم بنعم الله ـ عز وجل ـ وآلائه، قال تعالى: ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله** ﴾[1].

جـ ـ حذرهم من الإفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ **ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾[2].

د ـ دعاهم إلى مكارم الأخلاق، وواجههم بالرد المقنع على إنكارهم نبوته، وأنه لم يزد بالنبوة إلا رفعة وكمالاً، فإنهم كانوا يُجلّونه قبل النبوة ويعظمونه ويكبرونه لما تميز به من أخلاقه وسلوكه، قال ـ تعالى ـ في سورة هود: ﴿ **قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب (٦٢) قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير** ﴾[3].

رابعا: دعوة لوط ـ عليه السلام ـ لقومه:

أ ـ دعاهم إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ، لكن القرآن الكريم لم يصرح بذلك بل ندّد بذكر فاحشتهم التي انفردوا بها عن سائر العالمين والتي بها من الشناعة والقباحة ما لا يخفى.

ب ـ دعاهم إلى مكارم الأخلاق، وإلى ترك فاحشة اللواط التي كانوا يأتونها علنًا في نواديهم، وأمرهم أن يأتوا ما أباحه لهم من نسائهم، وأن ينتهوا عن كل منكر وخلق قبيح كانوا يفعلونه، قال تعالى: ﴿ **ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (٨٠) إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون** ﴾[4].

(١، ٢) سورة الأعراف: الآية (٧٤).

(٣) سورة هود: الآيتان (٦٢، ٦٣).

(٤) سورة الأعراف: الآيتان (٨٠، ٨١).

جـ- نهاهم عن قطع السُبل والتعرض لأرواح وأموال الناس وأعراضهم، وقد أشارت إلى ذلك سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾(١).

خامسا: دعوة شعيب - عليه السلام - لقومه:

أ- دعا قومه إلى نبذ عبادة الأصنام وإخلاص العبادة لله الواحد القهار، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾(٢).

ب- أمرهم بإيفاء الكيل والميزان، قال تعالى: ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾(٣).

جـ- نهاهم عن بخس الناس حقوقهم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾(٤).

د- نهاهم عن الإفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٥) وقال تعالى: ﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾(٦).

هـ- نهاهم عن القعود على طريق الدين ومناهج الحق لأجل أن يمنعوا الناس عن قبوله، قال - تعالى - : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾(٧).

و- ذكرهم بنعم الله عليهم وآلائه، ولا سيما أنه كثّرُ عددهم فأصبحوا كثرة يهابهم من حولهم من الأعداء، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾(٨).

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٢٩).

(٢، ٣، ٤، ٥) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

(٦، ٧، ٨) سورة الأعراف: الآية (٨٦).

سادسًا: دعوة موسى - عليه السلام -:

أولاً: دعوة موسى - عليه السلام - لفرعون وقومه:

أ - دعاهم إلى توحيد الله - عز وجل -، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[١] فهاتان الآيتان مصرحتان بأنه لا رب في الوجود جدير بأن يعبد سوى الله - عز وجل - خالق الخلق وموجدهم.

ب - دعاهم إلى عدم الظلم الذي كان منتشرًا بينهم حيث كانوا يستعبدون الإسرائيليين، ويجعلونهم في أردأ وأسوأ الأعمال وأشقها، كما أمر فرعون من تحته من المصريين والإسرائيليين بعبادته من دون الله، قائلاً لهم ما حكاه الله على لسانه: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾[٢].

جـ - نهاهم عن الإفساد في الأرض، فقال - تعالى - مخاطبًا نبيه محمدًا - ﷺ - يقص عليهم خبرهم: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[٣].

د - دعاهم إلى الإيمان باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾[٤].

ثانيًا: دعوة موسى - عليه السلام - لبني إسرائيل:

أ - دعاهم إلى توحيد الله - جل وعلا -. قال تعالى: ﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[٥].

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٠٤، ١٠٥).

(٢) سورة النازعات: الآية (٢٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٠٣).

(٤) سورة غافر: الآية (٢٧).

(٥) سورة الأعراف: الآية (١٤٠).

ب ـ ذكّرهم بنعم الله عليهم، قال تعالى: ﴿ وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿ وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى ﴾ (٢).

جـ ـ تحذيرهم من اتباع مسالك الهالكين والضالين، قال تعالى: ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ (٣).

د ـ تحذيرهم من التكذيب بآيات الله ـ عز وجل ـ ولا سيما اليوم الآخر وأن ذلك يؤدي إلى إحباط أعمالهم، قال تعالى: ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ (٤).

هـ ـ دعاهم إلى تقوى الله ـ عز وجل ـ وإيتاء الزكاة، قال تعالى: ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ (٥) كما دعاهم إلى التمسك والمحافظة على الصلاة لأنها عماد الدين، قال تعالى: ﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ (٦).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٤٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٤٧).

(٥) سورة الأعراف: الآية (١٥٦).

(٦) سورة الأعراف: الآية (١٧٠).

سابعا: دعوة خاتم الأنبياء نبينا محمد ﷺ لقومه:

أ- دعا ﷺ قومه إلى التوحيد وهجر عبادة الأصنام التي كانت منتشرة بين قبائل العرب، ودعاهم إلى الإيمان بالقرآن الكريم الذي أنزله الله بواسطة الوحي على قلب نبيه ﷺ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون** ﴾[1] وقد عضد دعوته لهم بلفت أنظارهم إلى بعض الظواهر الكونية التي لها علاقة وثيقة بحياتهم اليومية، قال تعالى: ﴿ **إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾[2].

ب- دعاهم ﷺ إلى مكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون (٢٨) قل أمر ربي بالقسط ...** ﴾[3] الآية.

جـ- حذرهم من مكايد الشيطان وفتنه، قال تعالى: ﴿ **يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾[4].

د- دعوته ﷺ إلى الإيمان باليوم الآخر، وأن وقوعه حق لا ريب فيه، وفيه يُجازى كلُّ إنسان بعمله، وضرب القرآن لذلك الأمثال المشاهدة في بيئة العرب وغيرهم، قال تعالى: ﴿ **وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا**

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٤).

(٣) سورة الأعراف: الآيتان (٢٨، ٢٩).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

أقلَّتْ سحابًا ثقالاً سُقْناهُ لبلد مَّيِّت فأنزلْنا به الْماءَ فأخْرجْنا به من كُلِّ الثَّمرات كذلك نُخْرِجُ الْموْتىٰ لعلَّكُمْ تذكَّرُون ﴾(١).

هـ- تذكيرهم بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: ﴿ ولَقدْ مكَّنَّاكُمْ في الأرْض وجعلْنا لكُمْ فيها معايش قليلاً مَّا تشْكُرُون (١٠) ولقدْ خلقْناكُمْ ثُمَّ صوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا للْملائكة اسْجُدُوا لآدم فسجدُوا إلاَّ إبْليس لمْ يكُن مِّنَ السَّاجدين ﴾(٢).

ونكتفي بهذا القدر؛ طلبًا للاختصار.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية (٥٧).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (١٠، ١١).

وجه الشبه بين دعوات الرسل

والمتمعن في دعوات الرسل من خلال العرض الموجز الذي ذكرناه آنفًا يجد التشابه واضحًا إلى حد كبير، ونستخلص من ذلك ما يلي:

أولاً: إن الأنبياء جميعًا بُعثوا من أجل إعلاء كلمة التوحيد، وجاهدوا وكابدوا أهل الباطل من أجل إقناعهم وإفهامهم حقيقة ذلك، قال تعالى: ﴿ **وما أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾[1] وقال جل شأنه: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾[2].

ثانيًا: دعوتهم جميعًا إلى مكارم الأخلاق، وزجرهم عن ارتكاب كل ما هو مستقبح.

ثالثًا: تذكيرهم بنعم الله وآلائه لأن تلك النعم والآلاء من أهم العوامل التي تؤدي إلى إيمان الأمم.

رابعًا: دعوتهم إلى الإيمان باليوم الآخر وأن وقوعه لا ريب فيه، فمن ثقلت فيه موازينه فأولئك الذين أصابوا الفلاح والسعادة، ومن خفت فيه موازينه فأولئك الذين ظلموا أنفسهم وَجَنُوا لها الخسارة والعذاب والهلاك.

❊ ❊ ❊

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

(٢) سورة النحل: الآية (٣٦).

المبحث الثاني
مواقف الكافرين المعاندين
من دعوة الرسل ـ عليه السلام ـ

أولا : موقف الكافرين من دعوة نوح ـ عليه السلام ـ :

أ ـ تكذيبهم بما جاء به نبيهم ـ عليه السلام ـ قال تعالى : ﴿ **فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين** ﴾ (١) .

وقال ـ تعالى ـ في سورة هود : ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ﴾ (٢) والخطاب في الآية لنوح ـ عليه السلام ـ ومن آمن به .

ب ـ رمي نبيهم بما هو بريء منه وذلك بوصفه بالضلال ، وكبرهم واستعلاؤهم على نبيهم ، وكذلك وصفهم له بالجنون : أما رميهم له بوصفه بالضلال ، فقال تعالى : ﴿ **قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين** ﴾ (٣) وأما كبرهم واستعلاؤهم على نبيهم فقد أشارت إليه الآية الكريمة في سورة هود : ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي** ﴾ (٤) ولقد رموه بالجنون ، وأشارت سورة المؤمنون إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين** ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الأعراف : الآية (٦٤) .

(٢) سورة هود : الآية (٢٧) .

(٣) سورة الأعراف : الآية (٦٠) .

(٤) سورة هود : الآية (٢٧) .

(٥) سورة المؤمنون : الآية (٢٥) .

جـ- إنكارهم بعثَ رسول بشراً وتعجبهم من ذلك، قال تعالى: ﴿ **أو عجبتم أن جاءكُم ذكرٌ من ربكم على رجل منكم لينذركم** ﴾[١] وقال - تعالى - في سورة هود: ﴿ **فقال الملأُ الذين كفروا من قومه ما نراك إلاَّ بشرا مثلنا** ﴾[٢] وكانوا يعتقدون أن الملائكة أولى بالرسالة من نبيهم.

د- كَذبُهُم وافتراؤهم على نبيهم بدعواهم أن ما جاءهم به نوح - عليه السلام - لم يسمعوا به في آبائهم، ولم يخبروهم عن ذلك أي خبر، وذلك منهم جحود وتكذيب وعناد، قال - تعالى - في سورة المؤمنين: ﴿ **مَا سمعنا بهذا في آبائنا الأولين** ﴾[٣].

هـ- طلبهم العذاب من نبيهم قال تعالى: ﴿ **قالُوا يا نُوحُ قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدُنا إن كُنت من الصَادقين** ﴾[٤].

ثانيا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة نبيهم هود - عليه السلام -:

أ- تكذيبه فيما جاء به، قال تعالى: ﴿ **قال الملأُ الذين كفرُوا من قومه إنَا لنراك في سفاهة وإنَا لنظُنُك من الكاذبين** ﴾[٥].

ب- طلبهم العذاب، وهذا منهم نهاية التكذيب والتحدي لنبيهم، وقصدوا بذلك أنه إن لم يأتهم بذلك العذاب ظهر للقوم كونه كاذبًا[٦] قال تعالى: ﴿ **فأتنا بما تعدُنا إن كُنت من الصَادقين** ﴾[٧].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٣).

(٢) سورة هود: الآية (٢٧).

(٣) سورة المؤمنون: الآية (٢٤).

(٤) سورة هود: الآية (٣٢).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٦٦).

(٦) انظر: ص (٢٦٤) من بحثنا هذا.

(٧) سورة الأعراف: الآية (٧٠).

جـ- طلبهم البينة والمعجزة الدالة على صدقه ولم تصرح سورة الأعراف بطلبهم هذا وقد صرحت به سورة هود عند قوله تعالى: ﴿ **قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ** ﴾[١] أي: ماجئتنا بحجة وبرهان قاطع عل ما تدعيه.

د- رمي نبيهم بما هو بريء منه وهو قذفه بالجنون، وهذه الفرية أيضًا لم تصرح بها سورة الأعراف وذكرتها سورة هود في قوله تعالى: ﴿ **إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ** ﴾[٢] أي: أخبلك ومسك بالجنون[٣].

هـ- تكذيبهم بيوم البعث والجزاء، قال- تعالى- حكاية عن قوم هود: ﴿ **أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ** ﴾[٤].

و- إنكارهم لبشريته، قال- تعالى-: ﴿ **وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ** ﴾[٥] وقصدوا أن البشر لا يصلحون لأن يكونوا أنبياء بل يجب أن يرسل الله لهم ملكًا من السماء.

ثالثا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة نبيهم صالح - عليه السلام -:

أ- كذّبوا نبيهم فيما جاءهم به، قال تعالى: ﴿ **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ** ﴾[٦]... الآية. وهذا منهم تكذيب بدعوته، وقال- تعالى- في سورة القمر حكاية عن قوم صالح-: ﴿ **أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ** ﴾[٧] أي: بطر متكبر،

---

(١) سورة هود: الآية (٥٣).

(٢) سورة هود: الآية (٥٤).

(٣) انظر: ص (٢٦٤، ٢٦٥) من بحثنا هذا.

(٤) سورة المؤمنون: الآية (٣٥).

(٥) سورة المؤمنون: الآية (٣٤).

(٦) سورة الأعراف: الآية (٧٥).

(٧) سورة القمر: الآية (٢٥).

حمله بطره وطلبه التعظيم علينا على ادعاء ذلك[١] وقال تعالى في سورة هود: ﴿ **وإنَّنا لفي شكٍّ مِمَّا تدعُونا إليه مُريب** ﴾[٢].

ب ـ استنكروا بشريته، وطلبوا أن يكون المرسل إليهم جنسًا أعلى من البشر وهم الملائكة، وقد وضحت هذا الاستنكار سورةُ القمر، قال تعالى: ﴿ **فقالُوا أبشرًا منَّا واحدًا نتَّبعُهُ إنَّا إذًا لَفي ضلالٍ وسُعُر** ﴾[٣] أي: جنون أو عناء. فهو اسم مفرد، وقيل: جمع سعير، كأنهم عكسوا عليه فرتّبوا على اتباعهم إياه ما رتَّبهُ على عدم اتباعهم له[٤].

جـ ـ كذبوا بالبعث، ولم تذكر سورة الأعراف ذلك صراحة لكن سورة الشعراء ذكرت إنكار نبيهم عليهم جحودهم للنعم العظيمة التي حباهم الله بها، والتي لم تزدهم إلا بطرًا وكفرًا وبُعْدًا عن اتباع الحق، ونسيانًا للبعث واليوم الآخر، فقال تعالى: يقص علينا إنكار نبيهم صالح عليه السلام ذلك: ﴿ **أتُتْركُون في ما هاهُنا آمنين (١٤٦) في جنَّاتٍ وعُيُون (١٤٧) وزُروعٍ ونخْلٍ طلْعُها هضيمٌ** ﴾[٥].

د ـ رميه بما هو بريء منه وذلك باتهامه بأن السحرة أثّروا على عقله بعد أن سحروه كثيرًا حتى صار يتكلم بما لا يعقل ولم يسمعوا قَطّ كلامه من قبل، وقد بينت هذه الفرية سورة الشعراء عند قوله تعالى: ﴿ **قالُوا إنَّما أنت من الْمُسحَّرين** ﴾[٦] أي: الذي سحر كثيرًا حتى غلب على عقله[٧].

---

(١) تفسير النسفي، (٤/ ٢٠٤).

(٢) سورة هود: الآية (٦٢).

(٣) سورة القمر: الآية (٢٤).

(٤) انظر: تفسير النسفي، (٤/ ٢٠٤)، وتفسير القاسمي، (١٥/ ٢٦٩).

(٥) سورة الشعراء: الآيات من (١٤٦) إلى (١٤٨).

(٦) سورة الشعراء: الآية (١٥٣).

(٧) تفسير النسفي (٣/ ١٩٢).

هـ - طلبهم المعجزة الحسية التي تؤيد صدقه فيما جاءهم به، قال تعالى: ﴿ **قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم** ﴾[١] وقد كان هذا بطلب منهم كما أشارت إلى ذلك آية الشعرا، قال تعالى: ﴿ **ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين** ﴾[٢] أي: ائتنا بأية حسية خارجة عن نطاق العادة تؤيد صدقك فيما جئتنا به.

و - طلبهم العذاب، قال تعالى: ﴿ **وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين** ﴾[٣] أي: بما تعدنا من العذاب.

رابعا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة لوط - عليه السلام -:

أ - تكذيب نبيهم في ما جاءهم به، ولم تصرح سورة الأعراف بالتكذيب صراحة إنما يفهم ذلك من المعنى العام لقوله تعالى: ﴿ **وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾[٤] وقال - تعالى - في سورة الشعراء: ﴿ **كذبت قوم لوط المرسلين** ﴾[٥] وقال - تعالى - في سورة القمر: ﴿ **كذبت قوم لوط بالنذر** ﴾[٦].

ب - طلبهم العذاب وتهكمهم على نبيهم، قال - تعالى - في سورة العنكبوت: ﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين** ﴾[٧].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٢) سورة الشعراء: الآية (١٥٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٧).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٨٢).

(٥) سورة الشعراء: الآية (١٦٠).

(٦) سورة القمر: الآية (٣٣).

(٧) سورة العنكبوت: الآية (٢٩).

خامسا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة شعيب - عليه السلام -:

أ - تكذيبه فيما جاء به، قال تعالى: ﴿ **الَّذين كذَّبوا شُعيبا كأن لَّم يغنوا فيها الَّذين كذَّبوا شُعيبا كانُوا هُمُ الخاسرين** ﴾[1].

ب - رميه بما هو بريء منه وذلك باتهامه بأنه مسحور، قد أفسد السحرُ عقله وتفكيره فأصبح يتفوّه بما لا يعرف وما لم يسمعوا به قط من قبل، قال - تعالى - حكاية عن قوم شعيب: ﴿ **قالُوا إنَّما أنت من المُسحَّرين** ﴾[2].

جـ - أنكروا بشريته واتهموه بالكذب، قال تعالى: ﴿ **وما أنت إلاَّ بشرٌ مِّثلُنا وإن نَّظُنُّك لمن الكاذبين** ﴾[3].

د - استكبروا على نبيهم لأنه جاءهم بما يخالف أهواءهم وهددوه بطرده وإخراجه من قريتهم، قال تعالى: ﴿ **قال المَلأُ الَّذين استكبَروا من قومه لنُخرجنَّك يا شُعيبُ والَّذين آمنُوا معك من قريتنا أو لتعُودُنَّ في ملَّتنا** ﴾[4]... الآية.

هـ - تهكّموا به واستهزأوا بدعوته، ولم تتعرض سورة الأعراف لهذا الخلق السيء الصادر منهم، وقد ذكرته سورة هود عند قوله تعالى: ﴿ **قالُوا يا شُعيبُ أصلاتُك تأمُرُك أن نَّترُك ما يعبُدُ آباؤنا أو أن نَّفعل في أموالنا ما نشاءُ إنَّك لأنت الحليمُ الرَّشيدُ** ﴾[5].

و - اتهامه بالضعف في منطقه فلم يفهموا دعوته، وتهديده برجمه بالحجارة، قال - تعالى - أيضًا في سورة هود: ﴿ **قالُوا يا شُعيبُ ما نفقهُ كثيرا مِّمَّا تقُولُ وإنَّا**

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٩٢).

(٢) سورة الشعراء: الآية (١٨٥).

(٣) سورة الشعراء: الآية (١٨٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٨٨).

(٥) سورة هود: الآية (٨٧) انظر: ص (٣٨٧، ٣٨٨) من بحثنا هذا.

لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾[١].

ز ـ استعجالهم للعذاب، قال تعالى: ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾[٢].

سادسا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة موسى ـ عليه السلام ـ:

أولا: موقف فرعون وقومه من دعوة نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ:

أ ـ تكذيبه وعدم تصديقه فيما جاءهم به، قال تعالى: ﴿ قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾[٣].

ب ـ رميه بالسحر، قال تعالى: ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ﴾[٤].

جـ ـ مخادعتهم لنبيهم، ونقضهم لعهودهم، قال تعالى: ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل (١٣٤) فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾[٥].

ثانيا: موقف بني إسرائيل من دعوة نبيهم موسى ـ عليهم السلام ـ:

أ ـ ميل نفوسهم إلى عبادة الآلهة من دون الله رغم عظم النعم التي حباهم الله بها، قال تعالى: ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون (١٣٨) إن هؤلاء

---

(١) سورة هود: الآية (٩١).

(٢) سورة الشعراء: الآية (١٨٧).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٠٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٠٩).

(٥) سورة الأعراف: الآيتان (١٣٤، ١٣٥).

متبرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون (١٣٩) قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ﴾[١].

ب ـ عبادتهم للعجل من دون الله ـ عز وجل ـ أثناء غيبة موسى ـ عليه السلام ـ عنهم لتلقي التوراة من ربه ـ عز وجل ـ قال تعالى: ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾[٢].

جـ ـ كفرهم بنعم الله عليهم وظلمهم لأنفسهم، قال تعالى: ﴿ وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٤].

د ـ تبديلهم القول والكلم غير الذي أمروا به، قال تعالى: ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين (١٦١) فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون ﴾[٥].

هـ ـ مخالفتهم لنبيهم ـ عليه السلام ـ فيما يأمرهم به، وقد ذكرت ذلك سورة

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (١٣٨) إلى ١٤٠٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٤١).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٦٠).

(٥) سورة الأعراف: الآيتان (١٦١، ١٦٢).

المائدة عند قوله تعالى: ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين (٢١) قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون (٢٢) قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين (٢٣) قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾[١].

و ـ امتناعهم عن الأخذ بتعاليم الله وتهديدهم برفع الطور على رؤوسهم ورميه عليهم، قال تعالى: ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾[٢].

سابعا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة النبي المصطفى ﷺ:

أ ـ تكذيبه فيما جاء به ﷺ قال تعالى: ﴿ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٣].

﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾[٤].

ب ـ عدم تفكرهم في حاله مما أداهم إلى اتهامه ﷺ بالجنون والسحر والشعر والكهانة، قال تعالى: ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ﴾[٦].

---

(١) سورة المائدة: الآيات من (٢١) إلى (٢٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٧١).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٣٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٨٢).

(٥) سورة الأعراف: الآية (١٨٤).

(٦) سورة القلم: الآية (٥١).

أما اتهامه له ﷺ بالسحر فالآيات على ذلك كثيرة، قال تعالى: ﴿ **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾[١].

وجعلوا كذلك الآيات البينات التي جاء بها نبيهم من عند الله لهدايتهم بمثابة السحر، قال تعالى: ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين** ﴾[٢] أما اتهامهم له بالشعر والجنون، قال تعالى: ﴿ **ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون** ﴾[٣] وقد نفى الله عنه كون أن ما جاءهم به من قبيل الشعر، قال تعالى: ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** ﴾[٤] وقد نسبوه أيضا ﷺ إلى أنه كاهن مجنون. وحاشاه ﷺ من ذلك. قال تعالى: ﴿ **فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون** ﴾[٥].

جـ. تكذيبهم للبعث، قال تعالى: ﴿ **الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾[٦].

د. تعنتهم بطلب الآيات الدالة على صدق رسالته بعد أن تبين لهم إعجاز القرآن، وأنهم عاجزون كل العجز أن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿ **ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا (٨٩) وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا** ﴾[٧] أي: تفجر لنا من أرض مكة عينا غزيرة من

---

(١) سورة يونس: الآية (٢).

(٢) سورة الأحقاف: الآية (٧).

(٣) سورة الصافات: الآية (٣٦).

(٤) سورة يس: الآية (٦٩).

(٥) سورة الطور: الآية (٢٩).

(٦) سورة الأعراف: الآية (٥١).

(٧) سورة الإسراء: الآيتان (٨٩، ٩٠).

شأنها أنها تنبع بالماء ولا تنقطع ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾[١] أي: قطعًا، يعنون قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾[٢] ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾[٣] أي: كفيلاً بما تقول شاهدًا بصحته ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: ذهب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: تصعد إليها ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ أي: من السماء فيه تصديقك ﴿نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[٤].

هـ- إنكارهم بشريته ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ يعني: أهل مكة ﴿أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: النبي والقرآن ﴿إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[٥] أي: إلا شبهة تمكنت في صدورهم، وهي إنكارهم أن يرسل الله البشر[٦].

و- استعجالهم العذاب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٧] واستعجال المشركين للعذاب بهذه الألفاظ يصوّر لنا منتهى العناد الذي واجهوا به الحق، وأبوا كل الإباء أن يُذعنوا له ويستسلموا لسلطانه فلم يسعهم أمام هذا الكبر والتأبي عن قبول الحق إلا أن يسألوا الله - وقد سمعوا آياته وحججه على لسان نبيه ﷺ - أن يصيبهم بالعذاب العاجل، وهذا شأن الفطرة إذا انعكست عن كونها

(١) سورة الإسراء: الآيتان (٩١، ٩٢).
(٢) سورة سبأ: الآية (٩).
(٣) سورة الإسراء: الآية (٩٢).
(٤) سورة الإسراء: الآية (٩٣).
(٥) سورة الإسراء: الآية (٩٤).
(٦) تفسير النسفي (٢/ ٣٢٧).
(٧) سورة الأنفال: الآية (٣٢).

فطرة سوية؛ إذ شأن الفطرة السليمة عندما تنزل بها غمة الشبهة ويلتبس عليها الأمر أن تسأل الله ـ تعالى ـ أن يكشف ما بها، وأن يهديها إلى الحق الذي عمي عليها معرفته لعل الله يدركها برحمته فيقولون: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه وأرشدنا طريقه؛ لكنهم أخذتهم العزة بالإثم فآثروا الهلاك العاجل على الخضوع للحق[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: معالم الدعوة لعبد الوهاب الديلمي (٢/ ٦٩٦).

وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين لدعوة الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -

إن المتمعن في مواقف الكافرين المعاندين لدعوة الرسل - والتي استعرضتها لك بإيجاز - يجدها تكاد تكون متشابهة إلى حد كبير جدًا، وإليك أوجه الشبه التي تشابهت فيها مواقفهم تجاه رسلهم - عليهم السلام -.

أولا : التكذيب فيما جاءتهم به رسلهم من عند الله وهذا ملاحظ في قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، وخاتمهم نبينا محمد - صلوات الله وسلامه عليهم وآلهم أجمعين - وغيرهم ممن لم تذكرهم السورة الكريمة. ويؤيد قولي هذا قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا** ﴾ أي: متواترين واحدًا بعد واحد من الوتر وهو الفرد[1] ﴿ **كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ** ﴾[2] أي: أمعنوا في تكذيبهم ومعاندتهم وإصرارهم على الكفر مستدلين بحجج هي أوهى من بيوت العنكبوت، وكان يتزعم أولئك المكذبين «الملأ» وهم كما - أسلفت - أصحاب النفوذ والوجاهة والغنى.

ثانيا : إنكار الأمم جميعا لبشرية أنبيائهم وكانت هذه إحدى شبهات الأمم التي أثاروها لإنكار رسالة أنبيائهم، ونلاحظ ذلك في موقف قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، ونبينا محمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -. اقرأ الآيات في سورة إبراهيم: ﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**

---

(١) الكشاف للزمخشري (٣/ ٣٣).

(٢) سورة المؤمنون: الآية (٤٤).

قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب (٩) قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴾(١).

ثالثا : تكذيبهم للبعث وعدم إيمانهم باليوم الآخر، وإن من الأصول العقائدية التي أجمعت عليها الديانات السماوية هي قضية البعث وإمكانية وقوعه، وهذه القضية كانت راسخة في قلوب جميع المكذبين للرسل، وكانوا يستبعدون البعث كل الاستبعاد وينكرون اليوم الآخر وما فيه من أحداث كل الإنكار، ولا يؤمنون بذلك البتة، لذلك كانت دعوة الأنبياء جميعًا إلى ترسيخ البعث واليوم الآخر في قلوب أقوامهم شاغلَهم الأول بعد قضية التوحيد واجتهدوا في ذلك وسعهم، ولقد مرّ بنا قريبًا إنكارُ كلّ أمة من الأمم للبعث وكفرهم باليوم الآخر بما يغني عن إعادته هنا.

رابعا : اتهامهم لأنبيائهم بما يشينهم ويقلل من مكانتهم، وهذه الرذيلة لا تكاد تخلو منها أمة من الأمم، فجميع الرسل - عليهم السلام - واجهوا من أممهم شتى أنواع التهم والافتراءات الكاذبة، وهذه التهمة لا تكون من المكذبين إلا عند عجزهم عن مواجهة أنبيائهم الذين أيدّهم الله بالحجج والآيات والمعجزات الباهرة فيقفوا مكتوفي الأيدي، فعندئذ يلجأ أهل الباطل إلى رمي أنبيائهم بالضلال والسفاهة والكذب والسحر والكهانة والجنون، وغير ذلك من التهم التي يلصقونها بأنبيائهم، وهم أبعد ما يكونون عنها بل هم صفوة خلق الله الذين اصطفاهم الله لإبلاغ شرعه وهدايته، واختارهم وطهّرهم لأداء رسالته، قال تعالى: ﴿ **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون**

(١) سورة إبراهيم: الآيتان (٩، ١٠).

(٥٢) أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾[١] وقد بيَّنا ذلك في العرض الموجز لمواقف الأمم مع أنبيائهم بما يغني عن الإعادة.

خامسًا : طلبهم للآيات تعنتًا، وقد جرت سنة الله - تعالى - أن لا يبعث رسولاً إلا ويؤيده بالآيات البينات الدالة على صدق دعواه لتلزم بذلك الحجة على الناس، وكان موقف الأمم من رسلهم إزاء هذه الآيات البينات التكذيب والتعامي عن الحق، والإصرار على الكفر مع وضوح الحجة، قال تعالى: ﴿ **تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين** ﴾[٢].

هكذا كان موقف الأمم مع أنبيائهم - عليهم السلام - التكذيب بآيات الله الواضحة لمَّا جاءتهم مع العلم بأن الذي حملهم على التكذيب ليس هو خفاء الآيات في ذاتها، أو ضَعْفُ البرهان والحُجَّة فيها، بل هي الرغبةُ في الإعراض عن الحق؛ إما عنادًا واستكبارًا وهذا ما يحصل من أكابر القوم، وإما تقليدًا وتمسكًا بما كان عليه الآباء وهذا ما يحدث من عامتهم ممن عميت بصائرهم عن رؤية الحق، وعلى الرغم من وضوح الآيات التي يأتي بها الرسل، عليهم الصلاة والسلام - نجد أن هؤلاء الكفار لا يكتفون بها في الاستدلال على صدق الرسل، لكنهم يطلبون منهم آيات أخرى حتى لكأنّ الرسل لم يأتوا بشيء من الآيات، ومرادهم من ذلك ليس الاهتداء إلى الحق بل يطلبونها لمجرد التعنت، ولذلك كانوا إذا أجيبوا إلى طلبهم ثم لم يؤمنوا يعاجلهم الله - سبحانه - بالعقوبة الرادعة، يقول - تعالى - مشيرًا إلى تعنت الأمم بطلب الخوارق والآيات وعدم الاكتفاء بما أيد الله - تعالى - به رسله من الحجج[٣] ﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد**

---

(١) سورة الذاريات: الآيتان (٥٢، ٥٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠١).

(٣) انظر: معالم الدعوة لعبد الوهاب الديلمي، (٢/ ٦٦٨، ٦٦٩).

وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾[1] قال النسفي ـ رحمه الله ـ: «﴿ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: بحُجة بيِّنة، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات ـ كما ذكرت ذلك أول الآية الكريمة ـ وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتًا ولجاجًا»[2].

سادسًا: طلبهم إنزال العذاب، فمن مواقف الأمم مع أنبيائهم أسلوب التحدي لهم وطلبهم إنزال العذاب العاجل عليهم، وهذا يحمل في طيّه التكذيب للرسل وكأنهم يقولون لرسلهم: لستم صادقين في دعواكم وبالتالي كيف تكونون صادقين في وعيدكم؟ قال ـ تعالى ـ حكاية عن قوم نوح: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[3] وقال ـ تعالى ـ مشيرًا إلى طلب قوم هود ـ عليه السلام ـ للعذاب: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[4] وقد طلب العذاب أيضًا قوم صالح ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[5] وطلب العذاب كذلك قوم لوط وشعيب وطلبت قريش العذاب أيضًا: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[6].

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان (٩، ١٠).

(٢) تفسير النسفي (٢/ ٢٥٦).

(٣) سورة هود: الآية (٣٢).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٧٠).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٧٧).

(٦) سورة الأنفال: الآية (٣٢).

المبحث الثالث
كفر كل أمة ومعصيتها
ونوع العقاب الذي عوقبت به

لقد اجتمعت الأمم قاطبة على الكفر بالله ـ عز وجل ـ والكفر بالآيات والكتب التي أنزلها الله لهدايتهم، كما جمعوا إلى الكفر الذي هو أقبح المعاصي معاصي أخر كثيرة.

وتنوع عقاب الله ـ جل وعلا ـ للكفرة الملحدين المعاندين لدعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ كل بما تقتضيه إرادته وحكمته فهو ـ جل وعلا ـ: ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾[1] وله الحكمة البالغة: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾[2].

وسأشرع في بيان معصية كل أمة وعقاب الله الرادع لها.

أولا: قوم نوح ـ عليه السلام ـ:

وقد أصر قوم نوح على تكذيب رسولهم، وعلى كفرهم وعنادهم، وعبادتهم آلهتهم من دون الله كانت نهايتهم الغرق، قال تعالى: ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ** ﴾[3].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٣).

(٢) سورة يونس: الآية (٤٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٦٤).

ثانيا: قوم هود - عليه السلام -:

ولقد أصر قوم هود - عليه السلام - على كفرهم وعبادتهم لأصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، وتبجّحوا على نبيهم بطلبهم العذاب كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾[1] فأنزل الله عليهم عذابه، ونجّي الله نبيه ومن معه من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ **فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين** ﴾[2] وقد فصلت ذلك العذاب سورة الحاقة، قال تعالى: ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر** ﴾ أي: شديدة الصوت، أو: باردة فهي تحرق من شدة بردها ﴿ **عاتية** ﴾ شديدة العصف ﴿ **سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما** ﴾ أي: متتابعة لا تنقطع، أو أنها حسومًا بمعنى تستأصل استئصالاً ﴿ **فترى القوم فيها صرعى** ﴾ أي: جثثًا هامدة، وصرعى جمع صريع ﴿ **كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾ أي: ساقطة أو بالية ﴿ **فهل ترى لهم من باقية** ﴾[3] أي: إن الريح أهلكتهم واستأصلتهم فلم تبق منهم أثرًا[4].

ثالثا: قوم صالح - عليه السلام -:

أما قوم صالح - عليه السلام - أصحاب الحجر - فكانوا أيضًا يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله، فلما استعصوا على نبيهم، وأصروا على كفرهم وعنادهم، وجحدوا آيات ربهم، وعتوا عن أمر ربهم، وتحدوا نبيهم بأن يأتيهم ما يعدهم به من العذاب عاقبهم الله - جل وعلا - بالرجفة وهي الزلزلة الشديدة التي أماتتهم وهم في أماكنهم لا يستطيعون دفع ذلك عنهم، قال تعالى:

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٢).

(٣) سورة الحاقة: الآية (٨).

(٤) انظر: تفسير النسفي بتصرف، (٤/ ٢٨٦).

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾[١].

رابعًا: قوم لوط - عليه السلام -:

أما قوم لوط - عليه السلام - فكانوا أيضًا كفرة ملحدين عبدة للأصنام فجاءهم نبيهم لوط - عليه السلام - من عند الله لهدايتهم، ودعوتهم إلى التوحيد، ونبذ عبادة الأصنام، والتخلي عما عرفوا بهم من قبيحتهم[٢] والتي لم تعرف فيمن سبقهم من العالمين، لكنهم أصروا وتمادوا في طغيانهم وراودوه عن أضيافه يريدون فعل الفاحشة بهم، فقلب الله عليهم قريتهم فجعل عاليها سافلها بعد أن رفعها إلى السماء وألقى بها على الأرض، ثم أكمل عليهم بأن أمطر عليهم مطرًا من حجارة مخصصة ومعدة لتعذيبهم ومُلائمة لفظاعة فاحشتهم، فردمتهم وأهلكتهم ودفنتهم هم وفجورهم وفسادهم، قال تعالى: ﴿ **وأمطرنا عليهم مطرًا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود (٨٢) مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾[٤].

خامسًا: قوم شعيب - عليه السلام -:

وأيضًا كان الشرك بالله وعبادة الأصنام عبادتهم التي كانوا يألفونها ويعتنقونها بالإضافة إلى أخلاق شاعت فيهم اتخذوها دستورًا لحياتهم، يرونها مظهرًا من مظاهر طغيانهم، وسببًا لنماء ثروتهم، ذلك أنهم كانوا ينقصون الكيل والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم، ويصدون عن سبيل الله، ويمنعون الناس عن الاستجابة لما فيه هدايتهم فعاقبهم الله - جل وعلا - بالرجفة - الزلزلة الشديدة - التي

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٨).

(٢) ألا وهي فاحشة اللواط.

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٤).

(٤) سورة هود: الآيتان (٨٢، ٨٣).

صاحبها صوت شديد فلم تبق في حي حياة ﴿ **فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ أي: خامدين هامدين موتى ليس فيهم حركة.

سادسا: معصية قوم فرعون وعقاب الله لهم:

وفرعون كفر بالله وطغى وتجبر، وأمر الناس بعبادته من دون الله، قائلاً لهم: ﴿ **فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾[1] وظلم من تحته من بني إسرائيل أشد الظلم، فقتل أبناءهم، واستحيا نساءهم، وأنزل بهم من البلاء ما لا يوصف، فأرسل الله إليه نبيه موسى - عليه السلام - يدعوه إلى عبادة الله وحده وترك الظلم، وأن يسمح له بإخراج بني إسرائيل من مصر كي يعود بهم إلى الأرض المقدسة - أرض آبائهم - ليعبدوا الله فيها، وليستردوها من أيدي العمالقة الذين طغوا فيها، فأبى وكذّب وعصى، فأراه الآيات الدالة على صدقه لكنه أصرّ على الكفر والتكذيب، فكانت نهايته الغرق في اليم هو وجنوده، وقد نّجي الله بدن فرعون من الغرق ليكون عبرة لمن لم يدركه الغرق من قومه ولمن يأتي بعدهم، قال تعالى: ﴿ **فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾[2].

❊ ❊ ❊

(١) سورة النازعات: الآية (٢٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٦).

معاصي بني إسرائيل وعقاب الله لهم

أولاً : جحدوا نعم الله عليهم؛ فبعد أن أنعم الله عليهم بنجاتهم من فرعون وخلصهم من الذل والاستعباد، وتقتيل الأبناء واستحياء النساء وإهلاك عدوهم - فرعون - أمام أعينهم طلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه من دون الله، قال تعالى: ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون (١٣٨) إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون (١٣٩) قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين** ﴾[١].

ثانيًا : اتخاذهم العجل في أثناء غياب موسى - عليه السلام - لتلقي التوراة وعبادتهم له من دون الله، قال جل شأنه: ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين** ﴾[٢].

وقد عاقبهم الله - جل شأنه - على ذلك بعقوبتين هما: الغضب والذلة في الحياة الدنيا[٣] قال تعالى: ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين** ﴾[٤].

ثالثًا : تبديلهم ما أمرهم به الله من القول والفعل عند دخولهم الأرض

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (١٣٨) إلى (١٤٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

(٣) انظر: ص (٥٥٦) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٥٢).

المقدسة، وذلك أن الله أمرهم أن يقولوا: ﴿ حطةٌ ﴾ أي: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزأوا وقالوا: حنطة في شعيرة، وأمروا أن يدخلوا الباب سجدًا فدخلوا يزحفون على أستاههم رافعي رؤوسهم، قال تعالى: ﴿ **وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطةٌ وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين** ﴾(١).

وقد عاقبهم الله - عز وجل - على ذلك بأن أرسل عليهم رجزًا من السماء لاستمرارهم على الظلم والفسق، وقد اختلف في المراد بالرجز فقيل: الطاعون، وقيل: عذاب عام أهلك الظالمين منهم، قال تعالى: ﴿ **فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون** ﴾(٢).

رابعا: نقضهم للميثاق الذي أخذه الله عليهم، قال تعالى: ﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلاَّ الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلاَّ قليلا منكم وأنتم معرضون** ﴾(٣).

وقد عاقبهم الله - جل وعلا - لنقضهم الميثاق بأن رفع عليهم جبل الطور وصار كالمظلة على رؤوسهم ليحملهم على الاستمساك بذلك الميثاق، قال تعالى: ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلةٌ وظنوا أنه واقعٌ بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون** ﴾(٤).

خامسا: تعديهم على محارم الله، وذلك باصطيادهم في اليوم الذي حرَّم عليهم الصيد فيه، وذلك أنهم اختاروا لأنفسهم يوم السبت للعبادة فابتلاهم الله -

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٢).

(٣) سورة البقرة: الآية (٨٣).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٧١).

جل وعلا ـ بأن تأتيهم حيتانهم في يوم سَبْتهم ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، قال تعالى: ﴿ **واسْئلهُم عن القرية الَّتي كانت حَاضرة الْبحْر إذْ يعْدُون في السَّبْت إذْ تأْتيهمْ حيتانُهُمْ يوْم سبْتهمْ شُرَّعا ويوْم لا يسْبتُون لا تأْتيهمْ كذلك نبْلُوهُم بما كانُوا يفْسُقُون** ﴾[1].

ولما أصروا على معصيتهم مسخهم الله قردة، قال تعالى: ﴿ **فلَمَّا عتَوْا عن ما نُهُوا عنْه قُلْنا لهُمْ كُونُوا قردةً خاسئين** ﴾[2].

والمتمعن في تاريخ بني إسرائيل على مرّ السنين يجدهم أنهم لم يَدَعُوا أيَّ جناية أو جريمة إلا فعلوها؛ فقد تعدَّوا على مقام الألوهية الأسنى، وتجنَّوا على أنبيائهم بالقتل والقذف والاعتداء، وحرّفوا كتبهم، وأكلوا الربا، وأثاروا نار العداوة والتفرقة بين الأمم أينما حلوا أو ارتحلوا فحقت عليهم لعنة أنبيائهم وسخط ربهم، قال تعالى: ﴿ **لُعن الَّذين كفرُوا من بني إسْرائيل علىٰ لسان داوُود وعيسى ابْن مريم ذلك بما عصوْا وكانُوا يعْتدُون (٧٨) كانُوا لا يتناهوْن عن مُنْكرٍ فعلُوهُ لبئْس ما كانُوا يفْعلُون (٧٩) ترىٰ كثيرا منْهُمْ يتولَّوْن الَّذين كفرُوا لبئْس ما قدَّمتْ لهُمْ أنفُسُهُمْ أن سخط اللَّه عليْهمْ وفي الْعذاب هُمْ خالدُون** ﴾[3].

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٦).

(٣) سورة المائدة: الآيات من (٧٨) إلى (٨٠).

معصية قريش والعرب ممن حولهم

كان معظم العرب وثنيين يعبدون الأصنام من الحجار[١] والأوثان والأنصاب بل كان بعض معبوداتهم الأشجار، ومن العرب من كان يعبد الملائكة ويسميها بنات الله، ومنهم من كان يعبد الجن زاعمًا أن بينها وبين الله نسبًا وصهرًا، قال تعالى: ﴿ **فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ **وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ** ﴾[٣].

وأنكروا البعث، والآيات على ذلك كثيرة، قال تعالى: ﴿ **أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** ﴾[٤] ولقد حرّموا على أنفسهم الكثير مما أباحه الله، وأحلوا كثيرًا مما حرمه الله، فضلاً عما كان منتشرًا بينهم من الفواحش والرذائل ووأد البنات كما أخبر عنهم - جل وعلا -: ﴿ **وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ** ﴾[٥] فبعث الله إليهم خاتم رسله ﷺ لهدايتهم

---

(١) يرى فريق من العلماء أن أول من أدخل الأصنام إلى بلاد العرب هو عمرو بن لحي الخزاعي، قدم بها من الشام أيام العماليق فنصبها على الكعبة ومنها هبل. انظر: السيرة النبوية للشيخ محمد أبو شهبة (١/ ٧٠).

(٢) سورة الصافات: الآيات من (١٤٩) إلى (١٥٤).

(٣) سورة الصفات: الآية (١٥٨).

(٤) سورة المؤمنون: الآيات من (٣٥) إلى (٣٧).

(٥) سورة التكوير: الآيتان (٨، ٩).

ولإخراجهم من الظلمات إلى النور، ورغم أن قريشًا كانت أشد عنادًا ممن سبقها، ورغم أنها استعجلت العذاب كما استعجل الأمم السابقة إلا أنه ـ جل وعلا ـ لم يعاجلهم بالعقوبة، ولم ينزل على هذه الأمة عذاب الاستئصال كما فعل بالأمم السابقة ويرجع ذلك إلى أمرين:

الأمر الأول: اهتمام هذا النبي الرؤوف الرحيم بأمته ورحمته بها؛ فإنه لم يفتر لسانه عن مناجاة ربه وتضرّعه وتوسله إلى ربه بأن يهدي قومه، ويجنبهم مزالق الغواية، والأدلة على ذلك كثيرة أسوق منها قصته ﷺ مع أهل الطائف عندما ذهب إليهم يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، فإنهم رجموه بالحجارة حتى أدمَوا عقبه وسال دمه الزكي على أرض الطائف، ثم غادرها رسول الله ﷺ وهو مهموم النفس مكلوم الفؤاد وهو يدعو ﷺ الدعاء المشهور: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العتبى**[1] **حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[2] وتابع سفره ﷺ إلى مكة حزينًا فلم يستفق إلا وهو بقرن الثعالب[3].

وهنا نقف ونذكر بقية ما حدث من صحيح مسلم كما حدّثت بذلك السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ حين سألت رسول الله ﷺ قائلة: هل أتى عليكم يوم كان

---

(١) أي: الاسترضاء.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦١، ٦٢).

(٣) أي: لم يفطن لنفسه وينتبه لحاله وللموضع الذي ذهب إليه إلا وهو بقرن الثعالب، وهو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد.

آشد من يوم أحد؟ فقال ﷺ: «**لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال**[١] **فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب**[٢] **فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا جبريل فناداني، فقال: إن الله ـ عز وجل ـ قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم**» قال ﷺ: «**فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**»[٣] فقال رسول الله ﷺ: «**بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا**»[٤].

فهذه القصة توضح مبلغ رحمته ﷺ بأمته وقد جاء في بعض الروايات: «**فقال له ملك الجبال: أنت كما سماك ربك رؤوف رحيم**»[٥].

الأمر الثاني: أن الله ـ جل وعلا ـ ما كان ليعذب أمته ﷺ وهو بين أظهرهم لكرامته على ربه ـ جل وعلا ـ قال تعالى: ﴿**وما كان اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأنت فيهم**﴾[٦] وهذا هو الأمان الأول لهذه الأمة، وقد جعل الله لها أمانًا ثانيًا بعد التحاق نبيها ﷺ بالرفيق الأعلى ألا وهو الاستغفار، قال تعالى: ﴿**وما كان اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ واختُلف في تفسيرها؛ فقال بعضهم: المعنى: وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون، فاللفظ وإن كان عامًا إلا أن المراد: وإن

---

(١) وهو من أشراف ثقيف من أهل الطائف.

(٢) قرن الثعالب: هو قرن المنازل وهو ميقات أهل نجد

(٣) جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله قعيقعان.

(٤) صحيح مسلم وعلى هامشه شرح النووي، (١٢/ ١٥٤، ١٥٥).

(٥) انظر: السيرة الحلبية، (٢/ ٥١ ـ ٥٨) والسيرة النبوية للدكتور محمد أبو شهبة، (١/ ٤١٧).

(٦) سورة الأنفال: الآية (٣٣).

بعضهم، وقال آخرون: المراد: ما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفي علم الله أنه يكون لهم أولاد يؤمنون بالله ويستغفرونه، فوصفوا بصفة أولادهم وذراريهم، وقال بعض أهل العلم: دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب، وقال ابن عباس: كان فيهم أمانان: نبي الله والاستغفار، أما النبي فقد مضى وأما الاستغفار فهو باقٍ إلى يوم القيامة.

❊ ❊ ❊

خلاصة ما جاء في الفصل التاسع

١ ـ دعا نوح ـ عليه السلام ـ قومه إلى توحيد الله، والإيمان باليوم الآخر ومكارم الأخلاق، وتقوى الله واجتناب نواهيه.

٢ ـ ودعا هود ـ عليه السلام ـ قومه إلى توحيد الله، وتقواه ومكارم الأخلاق وأن يذكروا نعم الله وآلاءه.

٣ ـ ودعا صالح ـ عليه السلام ـ قومه إلى توحيد الله، وذكر نعمه وآلائه، والتحذير من الإفساد في الأرض.

٤ ـ ودعا لوط ـ عليه السلام ـ قومه إلى توحيد الله، ومكارم الأخلاق ولا يقطعون السبيل.

٥ ـ ودعا شعيب ـ عليه السلام ـ قومه إلى توحيد الله، وإيفاء الكيل والميزان، ولا يبخسون الناس أشياءهم، ونهاهم عن القعود على طريق الدين وأمرهم أن يذكروا نعم الله عليهم.

٦ ـ دعا موسى ـ عليه السلام ـ فرعون وقومه إلى توحيد الله، وترك الظلم، وأن لا يفسدوا في الأرض وأن يؤمنوا باليوم الآخر، ودعا بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده، وأن يذكروا نعم الله عليهم، ويحذروا من اتباع مسالك الهالكين. ومن التكذيب بآيات الله، ودعاهم إلى تقوى الله تعالى.

٧ ـ دعا رسول الله محمد ﷺ قومه إلى توحيد الله، والإيمان بالقرآن وما فيه، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق، وحذرهم من مكائد الشيطان وفتنه، وأن يؤمنوا باليوم الآخر، أن يذكروا نعم الله عليهم.

٨ ـ تتشابه دعوة الأنبياء وتتحد في أربعة أمور : توحيد الله ـ ومكارم الأخلاق ـ وذكر آلاء الله ونعمه ـ والإيمان باليوم الآخر .

٩ ـ يتشابه رد المشركين على أنبيائهم في ستة أمور : تكذيبهم ما جاءت به الرسل من عند الله ـ إنكارهم بشرية أنبيائهم ـ تكذيبهم للبعث وعدم الإيمان باليوم الآخر ـ اتهامهم أنبياءهم بما يشينهم ويقلل من مكانتهم ـ طلبهم للآيات تعنتًا ـ طلبهم إنزال العذاب واستعجاله .

١٠ ـ كانت معاصي بني إسرائيل جحود نعم الله عليهم ، واتخاذهم العجل وتبديلهم ما أمرهم الله به من القول والفعل ، ونقضهم الميثاق وتعديهم على محارم الله ، وقد عاقبهم الله ـ تعالى ـ على معاصيهم بألوان من العذاب

١١ ـ قابل الله ـ تعالى ـ جميع الأمم السابقة على معصيتهم وكفرهم بالعذاب والانتقام ، إلا أمة محمد ﷺ . لم يستعجلهم الله بالعذاب مثلما استعجل غيرهم لأمرين :

* اهتمام هذا النبي ﷺ الرؤوف الرحيم بأمته ورحمته بها .

* أن الله لم يعذب قومًا ما دام نبيهم فيهم ، وهكذا كانت أمة محمد ﷺ ، ثم زادها الله بأن لا يعذبها ما داموا يستغفرون .

* * *

الفصل العاشر

الصراع كما تراه وتصوره النظريات الحديثة

الفصل العاشر

الصراع كما تراه وتصوره النظريات الحديثة

مقدمة:

- نشأة النظريات القديمة والحديثة
- نظرة الفلاسفة في العصر الحديث إلى الصراع
- الصراع عند هيجل
- الجدلية في منظار الماركسية (كارل ماركس)
- نظريات التطور :

* نظرية لامارك
* نظرية داروين
* نظرية داروين الحديثة للعالم الهولندي Hugode Veries

الصراع كما تراه وتصوره النظريات الحديثة

مقدمة:

نشأة النظريات القديمة والحديثة :

انصرف العقل البشري منذ فجر التاريخ إلى التأمل في حقيقة الوجود وما فيه من بدائع المخلوقات فضلاً عن التأمل في ذاته وأصله وماله، وقد سلك هذا التفكير طرائق ضمن ألوان من التخبط الفكري سرعان ما اتخذ ديانات وملاً ومظاهر فلسفية مختلفة انعكست على شكل معتقدات كثيرة اعتنقتها أمم وشعوب شتى، ولكن الحق - جل وعلا - لم يدع عباده يهيمون في متاهات الأهواء والتخيلات بل كان يبصرهم بحقيقة الوجود وحقيقة الإنسان ومنتهاه؛ قال تعالى: ﴿ **وإن مِّنْ أُمَّةٍ إلاَّ خلا فيها نذير** ﴾[1] وهكذا ظهر على صعيد الفكر الإنساني منهجان عن حقيقة الكون والإنسان والحياة:

أحدهما : التزم بما هو أصل الفطرة الإنسانية وأيدته الشرائع الإلهية.

والثاني : اجتمع على ركان الأوهام والخرافات والعصبيات والتخيلات التي نشأت تحت وطأة الحضارة والثقافة التي ترزح تحتها.

فكان لابد لهؤلاء أن يصلوا إلى نتائج فكرية واعتقادية وتختلف باختلاف العوامل فيما بينهم، ولكل وجهة هو موليها، ولا يسلم من الذلل والوقوع في الوحل إلا من تمسك بشرع الله الحنيف وبهداية العقل الصافي عن الأهواء والعصبيات.

---

(١) سورة فاطر: الآية (٢٤).

ولقد تخبط الفلاسفة على مدار التاريخ في رحلة البحث عن حقيقة الكون تخبطًا يختلف باختلاف بيئاتهم ومفاهيمهم ومقدرة عقولهم في القرب أو البعد عن جادة الصواب، وكان من أهم الفلاسفة وأخطرهم وأبعدهم عن جادة الصواب مَن جعل الصراع - التناقض - جزءًا أساسيًا في تكوين الكون، واعتبر آخرون أن الصراع - التناقض - هو الأصل في نشوء الكون، وقد بدأ الفيلسوف هيرقلط - ٦ . ق . م - في إيجاد أول مصطلح لهذه المفاهيم اعتمد عليه الغربيون والماديون بشكل خاص فيما بعد؛ يقول هيرقلط: «كل شيء يتغير ويجري ويتطور من حال إلى أخرى فهو في حالة صيرورة مستمرة ضمن ذاته»[(١)].

وكان هيرقلط وجماعته يردون على مَن كان يقول في ذلك الوقت: إن جميع الأشياء جامدة الذات والمحتوى فهي لا تتغير ولا تتحرك، وأطلق عليهم الميتافيزيائيين.

ولقد انتشر رأي هيرقلط بين العلماء والفلاسفة ولاقى قبولاً كبيراً منهم، وتم تهذيب هذا الرأي على مرِّ السنين فقالوا في مرحلة تالية: إن كل ما في الكون ينقسم إلى قسمين:

١ - مادة: وهي كالأخشاب، والأحجار، والمعادن.

٢ - قوة: وهي كالكهرباء، والحرارة والحركة.

وكلا القسمين مختلفان وفي ذات الوقت متلازمان؛ لأن كل شيء يتغير ويتحرك ضمن ذاته وهذا هو القاسم المشترك، لكن اختلف الفلاسفة حول هذا التحرك؛ هل هو بقوة ذاته أو قوة كامنة خارجة عنه؟ لم يقرر الفلاسفة أي شيء في ذلك الوقت.

---

(١) انظر: المواقف للعضد الأيجي وشرحه للشريف الجرجاني، (٢/ ١٥١ فما بعد)؛ وشرح مطالع الأنوار للأصفهاني، ص (١٢٢، ١٢٣).

نظرة الفلاسفة في العصر الحديث إلى الصراع

• تنبيه:

قبل أن نشرع في عرض لبعض النظريات الحديثة نرى من الضروري أن نلفت نظر القاريء الكريم إلى حقيقة هي غاية في الأهمية، وهي أن البيئة التي نشأت فيها تلك النظريات هي بيئة بعيدة كل البعد عن الدين، وأكثر من ذلك أن أوروبا موطن ولادة تلك النظريات كانت معادية تمام العداوة للكنيسة والقائمين عليها، وهي لم تعرف الدين الصحيح المنزّل من عند الله، وإنما اعتنقت دينًا محرَّفًا ممزوجًا بالوثنية[1] لذلك كانت آراؤهم ونظرياتهم ـ كما ستلمس ذلك من خلال عرض لتلك النظريات ـ بعيدة كل البعد عن الحق، وكانت وبالاً على أصحابها فضلاً على أقوامهم ومَن تبعوهم.

ولقد اخترت لك نماذج من أبرزهم:

هيجل[2]: (١٧٧٠، ١٨٣١م):

فيلسوف ألماني، استخدم مبدأ النقيض كي يصل إلى هدفه الذي هو مجال

---

(١) من أراد التوسع في معرفة الحالة التي كانت عليها أوروبا والكنيسة ورجال الدين فليرجع إلى: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ/ محمد قطب ص، (٩ ـ ٣٣) وص (٥٣ ـ ٦٦).

(٢) هو أحد الفلاسفة المشهورين في العصر الحديث، ألماني، كان على درجة واسعة من الثقافة فقد درس الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات والتاريخ والفنون والاجتماع، عُيِّن أستاذًا بجامعة أيينا سنة ١٨٠١م والتقى هناك بفختي وشلنج، ثم عين أستاذًا بجامعة هيدلبرخ سنة ١٨١٦م فأستاذًا بجامعة برلين سنة ١٨١٨م حيث بلغ ذروة الشهرة والمجد، والتفت حوله التلاميذ النابهون، شغل منصبه إلى وفاته، وكانت وفاته بالكوليرا، وله سبعة مؤلفات، وأسلوبه غاية في التجريد والتعقيد، انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم، ص (٢٦٤).

الفكرة، عمّق بيان العلاقة الجدلية بين ما سماه الفكر المطلق، والمادة المصنوعة والمخلوقة ليثبت من خلال ذلك أن المادة كلها إنما هي ثمرة الفكر المطلق، وإنما يعني بالفكر المطلق قدرة الله ـ عز وجل ـ[١].

فقد وصل إلى الحق لكنه لم يصرح به، فحاول أن يغلّف الحق بما سماه الفكر الكلي أو الوجود المطلق، يقول الدكتور البوطي في شرح نظرية هيجل هذه:

«إذن فالفكر الكلي هو مظهر تجلي الموجودات في مرحلتها المثالية الأولى ثم تتجسد في وجودها الخارجي صورة مطابقة للأصل في مرحلتها الثانية، وهذه الموجودات في مرحلتها الفكرية الأولى تكون متشابكة متآلفة بحيث لا وجود لمعنى التشاكس والتناقض فيما بينها حتى إذا برزت إلى ساحة الوجود الخارجي ظهرت حواجز التناقض والتضاد بين كثير منها، ثم إن الفكر لا تنقطع علاقته بها عندما تتحول منفصلة عنه إلى عالم المحسوسات الخارجية بل يظل الفكر يأخذها ويردها في منهاج تطويري لا نهاية له . . . يأخذها إليه مشروعًا للتحسين والتطوير، ويردها إلى الوجود الخارجي تجربة نافذة، ثم لا يلبث أن يأخذها إليه ثانية ليضيف إليها تطويرًا جديدًا، ويعيدها إلى ساحة الوجود الخارجي في طور أكمل . . . وهكذا دواليك»[٢].

وإليك توضيح فلسفة هيجل:

لقد اكتشف هيجل على حسب حدسه الفلسفي أن الجدلية[٣] الحركة المتغيرة ممتدة من أعمق أعماق الشعور ودنيا المجردات لتنتهي إلى علاقة ما بين الماهية والجوهر.

---

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، د/ محمد سعيد رمضان البوطي ص (٩٩ ـ ١٠٢).

(٢) نقض أوهام المادية الجدلية، للدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص (٢٠).

(٣) الجدلية = التناقص = الصراع.

فالجدلية عند هيجل قانون لابد من اعتباره في حركة الفكر والروح، ولابد من اعتباره في القول، ولابد من أخذه بعين الاعتبار بصدد فهم الطبيعة، وتتمثل في ثلاثة أطوار:

١ ـ أطروحة: نظام الشيء في ذاته.

٢ ـ نفي: نظام الشيء من أجل ذاته.

٣ ـ نفي النفي: نظام الشيء من أجل ذاته وفي ذاته.

إن رحلة الكشف عن أي حقيقة تكمن في ساحة الطبيعة أو تتجلى في علياء الروح إنما تبدأ ـ بنظر هيجل ـ من أطروحة مجردة تنشأ في أعماق الفكر، وهو الوجود المطلق أو نظام الشيء في ذاته ـ أي: نظام الشعور ـ ثم تنعكس إلى الواقع لتتحول إلى ما هيَّة، إذ تتولد من ذلك الوجود المطلق حقيقة ذات حدود وتعينات خارجية، وتتشخص وتتبين بواسطة نقائضها التي تلامس بعضها البعض، وهذا هو نظام الشيء من أجل ذاته، ثم ترد هذه الماهية إلى الفكر لتتركب من جديد مع الوجود الذهني فتغدو مفهومًا، وتلك هي مرحلة نظام الشيء من أجل ذاته وفي ذاته معًا.

تلك هي أطوار الحركة التناقضية الثلاثية عند هيجل، وهذه الحركة في حد ذاتها تتكرر وتتقدم في كل مرة بتركيب أفضل من الأول وأغنى منه؛ إذن هيجل يقرر أن الحركة تبدأ في الوجود المطلق متمثلة في الفكر متجهة إلى سائر مظاهر الموجودات الخارجية وإلى سائر الأحاسيس والقيم العلوية ثم عائدة إلى منطلقها الأول. فهيجل يخبرنا عن النظام الذي يسير الكون وفْقَهُ طبقًا لما يراه حدسه الفلسفي في ذلك[١].

ما المحور الذي تدور عليه فلسفة هيجل؟

---

(١) انظر: نقض أوهام المادية الجدلية، د. محمد سعيد رمضان البوطي ص (٢٥ ـ ٢٨).

إن المحور الذي تدور حوله فلسفة هيجل هو أن وجود الشيء على الصعيد الخارجي إنما هو ثمرة الإبداع الفكري له، فالفكر يبدع الشيء صورة ومثالاً ثم يدفعه إلى الصعيد الخارجي حقيقة مطابقة لذلك المثال، ونقول على وجه التقريب: كما أن الوجود الأصلي للشجرة كامن في نواتها، والوجود الأصلي للبناء كامن في خارطته، والوجود الأصلي للأنغام التي تنبعث من الآلات المشاهدة كامن في مدونة اللحن - النوتة - كذلك الوجود الأصلي لأي شيء من الموجودات التي نراها من حولنا كامن في جذورها التي أشرقت قبل كل شيء مثالاً وتصوراً في ساحة الفكر [١].

إن رسالة الإنسان الكامل عند هيجل هو الفيلسوف الباحث عن الحكمة الخفية في الكون، وتتطلب منه ألا يقف وراء المظاهر فقط بل يجب عليه أن يغوص ليعرف الأسباب كالذي يقف في سذاجة أمام فرقة موسيقية يعزف أفرادها إيقاعات وألحان تبدو أنها متخالفة ومتعارضة، ولو أراد أن يتجاوز حدود هذه المظاهر لعرف أن مدونة اللحن - النوتة - تتجلى فيها الوحدة الحقيقية الكاملة، ويتبدى فيها معنى الوجود المطلق الذي يحيا في فكر كل عازف على حدة ليقودهم جميعًا - كُلاً حسب طريقته - نحو غاية متسقة متكاملة.

ومن هنا فعلى الإنسان المتأمل لمنثورات العلوم والقوانين لهذا الكون عليه أن يقف أمام مدوَّنة اللحن العلوي الكامل لمعزوفة هذا العالم [٢].

والخلاصة:

إن هيجل - كما أسلفت - عمق بيان العلاقة الجدلية بين ما سماه الفكر المطلق، والمادة المصنوعة والمخلوقة ليثبت من خلال ذلك أن المادة كلها إنما هي ثمرة الفكر المطلق، وإنما يعني بالفكر المطلق قدرة الله - عز وجل -.

---

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص (٩٩).

(٢) بتصرف من كتاب: نقض أوهام المادية الجدلية ص (٢٨، ٢٩).

غير أن ماركس ـ كما سوف نفصِّل ـ عمد إلى نظرية هيجل هذه عن الجدل بين المادة والفكر المطلق فمسخها وجعلها علاقة محصورة بين أجزاء المادة نفسها، وحذف الفكر المطلق الذي جعله هيجل مصدر الخلق والتطور، فهيجل لم يكن أكثر من سلاح بيد الماركسيين.

❊ ❊ ❊

الجدلية في منظار الماركسية (*)
كارل ماركس (**)

يقول الماركسيون: إن هيجل وضع الديالكتيك ـ أي: الجدلية ـ ولكن مُنكّسًا على رأسه، فجاءت الماركسية وأقامته منتصبًا على قدمه؛ إن الخط العريض الهام الذي طرأ على نظرية هيجل من وجهة نظر الماركسيين هو ما يلي:

١ ـ إذا كانت الأشياء في صيرورتها وتطورها الخارجي انعكاسًا لما يجري في الفكر أو الروح عند هيجل فإنّ ما يجري في الفكر والروح ليس إلا انعكاسًا لصيرورة الأشياء وتطورها في الخارج عند ماركس ورفاقه، أي أن الفكر والروح أصل عند هيجل والمادة من ثمراته بينما المادة هي الأصل عند ماركس والفكر والروح من ثمراتها (!).

أيهما الذي أقام النظرية مستوية على قدميها؟ وأيهما الذي نكَّسها؟

٢ ـ ترى الماركسية أن جدل الأطروحة ونفيها ونفي النفي لا يتم بين الفكر

(*) انظر كتاب: تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم، ص (٣٦٨)، وموقف الإسلام من نظرية ماركس، ص (٦١١، ٦١٢).

(**) كارل ماركس هو مؤسس المادية التاريخية، وحاخام الشيوعية، وفيلسوفها الأكبر النافخ في نارها حتى أشعلها ثورة عالمية؛ ولد من أبوين يهوديين، وكان جده حاخامًا يهوديًا كبقية آبائه وأجداده، درس القانون في جامعة برلين ثم هجره إلى الفلسفة وحصل على الدكتوراه فيه سنة ١٨٤١م، طُرد من الجامعة وضويق فيها بسبب اتهامه بالإلحاد فاضطر إلى الهجرة إلى باريس، كان عصبي المزاج أناني الطبع لئيمًا حقودًا دوّن كتبه الكبرى وهي: نقد الاقتصاد السياسي، ونداء إلى الطبقات العاملة في أوروبا، وكتابه الأشهر رأس المال، ويتألف من المادية التاريخية والجدلية على طريقة هيجل ممزوجًا بالشيوعية الإلحادية التي هي نتيجتها.

والمادة كما يقرر هيجل بل يتم بين المادة ذاتها دون أي عمل خارجي من الفكر أو غيره، وذلك وحده هو سر تطور الكون والموجودات المختلفة التي لا تعدو أن تكون من جنس المادة أو من ثمراتها، والدستور الفلسفي الجديد ـ الماركسي ـ يقرر أن الذرَّة مثلاً وهي أصغر أجزاء المادة محشوة بالوحدات المادية المتناقضة المتصارعة؛ بعضها صائر إلى الفناء وبعضها متجدد صاعد نحو البقاء، ومن صراع ما بينها يتمسك وجودها ويمتد نموها.

ويتحقق هذا التناقض في العلوم بأشكال مختلفة؛ فهو مثلاً في الرياضيات ضمن الزائد والناقص، وفي الميكانيكا ضمن الفعل ورد الفعل، وفي الفيزياء بالتيار الموجب والتيار السالب، وفي الكيمياء باتحاد وتفكك الذرات، وفي علم الاجتماع بصراع الطبقات.

ويتحرك صراع الأضداد هذا ضمن الإيقاعات الثلاثة التي قررها هيجل؛ فالأطروحة هنا كامنة في أحشاء المادة ذاتها، أي: خارجة ومستقلة عن الوعي الإنساني، والنفي الأول يتجلى في الانعكاسات التي تأتي ردًا أو نتيجة للانبثاق، وتختلف هذه الانعكاسات في أشكالها، ونفي النفي يتجلى في بلوغ تلك الانعكاسات ذروتها، إنها عندئذ عائدة إلى الأطروحة حيث تتحول الأطروحة إلى حقيقة غنية ثابتة.

ثم إن هذه الحقيقة الجديدة لا تلبث تحت صراع الأضداد أن تنبثق منها أطروحة جديدة أكثر تقدمًا وغناء من الأولى في حركة لولبية نحو التطور المستمر الذي لا انقضاء له، وأبرز مثال يعتز به الماركسيون لبيان زعمهم هذا هو ما يلي:

إن انبثاق حبة الحنطة في الأرض عن عوامل داخلية متجهة نحو الإثبات هو ما نعنيه بالأطروحة، فإذا انعكس عن تلك العوامل النبات الأخضر المتصاعد فهو الطباق، أي: النفي الأول، ثم إذا عاد النبات سنبلاً متراكبًا من الحنطة فذلك هو التركيب، أي: نفي النفي، ثم إن حبات تلك السنبلة ما تلبث هي الأخرى أن

يتحول كل منها إلى أطروحة من جديد، وهكذا دواليك.

ذلك هو لبُّ الجدلية والباعث لحركتها وتطورها في نظر الفلسفة الماركسية، إلا أنه بالإضافة إلى هذه النظرية الأساسية هناك قوانين أخرى تؤمن بها المادية الجدلية، وتعتبرها أيضًا سرَّ فاعليتها ومن أسس دعائمها، وإليك هذه القوانين:

القانون الأول: قانون تحول الكم إلى كيف:

تقرر المادية الماركسية أن التغيرات التي تطرأ على كمية الشيء تؤثر أخيرًا في تغيير كيفياته، مثال ذلك: الحجارة التي تتراكم شيئًا فشيئًا في مجرى النهر، تتحول عند حد معين من تطورها الكمي إلى كيفية جديدة لم تكن من قبل؛ إذ إنك تنظر فترى ركام الحجارة وقد أصبح سدًا.

ومثال آخر: الماء الذي تشتد سخونته تطرأ عليه تغيرات تتعلق بالكم إذ ترتفع درجة حرارته من (٥٠°) إلى (٦٠°) إلى (٧٠°) وهكذا ما إن تتجاوز المائة حتى يتحول الماء إلى بخار، أي: إلى كيفية أخرى جديدة.

إلا أن التغير في الكيفية لا يتحقق بتدرج تبعًا لما يتم في التغير الكمي عقلاً، وإنما يكون تغيُّر الكمية في نظر الماركسية بمثابة التهيؤ والإعداد لولادة كيفية جديدة منتظرة على شكل قفزة، وهذه القفزة تختلف باختلاف الطبيعة التي هي موضوع التغيير؛ فما يحدث في الطبيعة الميتة غير العضوية يختلف تمامًا عما يتم في الطبيعة الحية على حد تعبيرهم[1].

القانون الثاني: قانون وحدة الأضداد وصراعها:

لقد أثبتت المادية الماركسية حسب فهمها أن كل شيء متغير متطور، لكن ما هو العامل الأساسي لهذا التطور؟ تجيب الماركسية عن هذا السؤال بأن مصدر

---

(١) القضايا الأساسية في الماركسية لبليخانوف، ص (٣٧)
ما هي الديالكتيك؟ تأليف ع. كورسانوف، ص ٤٣.

التطور في كل شيء إنما هو أضداد موجودة متزاحمة ضمن الشيء الواحد بل ضمن الذرة الواحدة، والعامل المباشر للتطور هو الصراع الذي يتم بين هذه الأضداد ضمن وحدات المادة.

القانون الثالث: نفي النفي:

والحقيقة أن هذا القانون هو في الوقت ذاته يعد الركن الثالث من الدائرة الجدلية ذات الإيقاعات الثلاثة ـ أطروحة، ونفي، ونفي النفي.

هذا القانون يمتاز من وجهة الفلسفة الماركسية بما يلي:

أ ـ الاستمرار الذي لا توقف له، فما من كيفية إلا وتحمل في باطنها بذور نسخها بما هو أتم وأفضل.

ب ـ والنسخ لا يعني القضاء على كل العناصر بل هو نفي من شأنه أن يحتفظ بأفضل خصائص القديم، ويمتاز عليه بخصائص لم تكن موجودة.

فنفي النفي الجدلي الماركسي يفترض النفس والمحافظة على حد سواء[1].

هكذا تتكامل عملية نفي النفي في كل دورة بشكل أفضل وأغنى، وترى الماركسية في نظرية التطور وانتخاب الأصلح التي طرحها داروين أكبر ثروة في مجال الاستشهاد على صحة هذا القانون.

إن هذه القوانين الثلاثة هي أركان المادية الجدلية الماركسية، ولهذه القوانين مستلزمات لابد منها:

أولاً: أن المادة هي أساس الوجود وينبوع الحقائق:

وذلك هو حجر الزاوية في الفلسفة المادية بكل ما لها من عمق وشمول فالمادة هي أول الموجودات وأقدمها، والمادة موجودة خارج وعي الإنسان ومستقلة عنه وأسبق في وجودها من وجود الوعي.

(١) موجز المادية الديالكتيكية، لبودوستنيك وياخوت، ص (١٠٦).

يقول لينين[١]: «إن المادة تثير الإحساس بالدماغ والأعصاب والشبكية، ولا يرتبط وجود المادة بالإحساس، فالمادة هي الشيء الأول، والإحساس والفكر والشعور هي المنتجات الأرقى للمادة المنظمة بشكل معين»[٢].

ثانياً: ملازمة المادة للحركة:

تقول الماركسية: «إن الحركة هي نمط وجود المادة في أي زمان وأي مكان، ولم توجد أبدًا مادة بلا حركة، ولا يمكن أن توجد»[٣].

ثالثاً: سرمدية العالم ووحدته:

تقول الماركسية: إن المكان بلا نهاية، والزمان سرمدي، والعالم ينبسط في جميع الجهات بلا نهاية، ولم تكن له بداية ولم تكن له نهاية.

فالمادية عند الماركسية قديمة أزلية، وهي منذ فجر وجودها الذي لا أول له تتحرك وتتطور، فالجديد من المادة هو أشكالها أما ذاتها فتغوص إلى أغوار سرمدية لا أول لها . . .[٤].

رابعاً: الوعي هو وظيفة لمادة عالية التنظيم هي الدماغ:

وهذا يعني لا وجود للوعي بدون مادة.

خامساً: تفاعل السبب والمسبب:

يقول أنجلز: «يوجد في المجتمع تفاعل عام قوامه أن السبب والنتيجة يتبادلان الأماكن على الدوام، إنّ ما يكون في بعض ظروف المكان والزمان سببًا يصبح في

(١) لينين: (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤م) اسمه الحقيقي فلافمير ايلبتشي لينين، اعتنق الماركسية ١٨٩٤م وشارك في التنظيمات الشيوعية، أهم كتبه: تطور الرأسمالية في روسيا.

(٢) المادية والمذهب التجريبي النقدي، للينين، ص (٤٣).

(٣) انظر: المادية والمذهب التجريبي، للينين، ص (١٧١).

(٤) انظر: الدفاتر الفلسفية، للنين، (١/ ٧٧).

ظروف أخرى نتيجة، والعكس بالعكس، فبين السبب والنتيجة إذًا جدلية مستمرة.

وتؤكد المادية الجدلية أن حركة الأسباب والمسببات لا تنبثق إلا من قوانين الطبيعة ذاتها ومقتضياتها الكاملة فيها، والتي تجمع بين الضرورة والمصادفة في آن واحد فلا يسمى بالعلة الغائية في تفاعل الأسباب والمسببات بعضها لبعض، والماديون يهزأون من كل تفسير لحركة الطبيعة يستهدف القول بالغائية»[١].

سادساً: علاقة المعرفة ـ الحقيقة النسبية ـ بالحقيقة المطلقة:

يقول الماديون الجدليون: إن الحقيقة المطلقة القائمة بذاتها إنما تتركب من حقائق نسبية، وإنما تتركب الحقائق النسبية من تراكمها وتكدسها في الذهن، ولا يكون ذلك في لحظة خاطفة بل من خلال طريق للمعرفة معقد تاريخي لا نهاية له، والبشرية لم تنهه ولم تنجزه[٢].

إن الفكر البشري لا يمكن أن يحيط بالحقيقة المطلقة التي تدل عليها أجزاؤها، كيف يمكن للفكر أن يؤمن بما لم يصل إليه؟ من أين يعرف أن من وراء هذه الظواهر النسبية حقيقة مطلقة؟ لا يمكن لنا التوسع في معرفة الإجابة عن هذه الأسئلة، ومن أراد ذلك فعليه مراجعة كتاب نقض أوهام المادية الجدلية ص (١٩٠).

سابعاً: المادية التاريخية:

وهي من أخطر النتائج المترتبة على المادية الجدلية المتعلقة بالطبيعة وأحكامها، فإن الفكر الإنساني طبقًا للنظرية المادية الجدلية شكل من أشكال المادة، وكذلك الروح من بعض ثمار المادة ونتائجها، فلابد أن تكون هذه المرحلة التاريخية التي قطعها الإنسان إلى اليوم منذ بدء الخليقة هي أيضًا من ثمرات المادة وآثارها، إذًا

---

(١) انظر: الدفاتر الفلسفية، (١/ ٥٧).

(٢) المادية والمذهب التجريبي النقدي ص (١٢٦) والموجز في المادية الديالكتيكية ص (١٨٤).

فلابد أن تخضع حركة التاريخ الإنساني للقانون ذاته الذي خضعت له المادة في أطوارها وتقلباتها، إنه قانون صراع الأضداد بدءًا من الأطروحة فالنفي فنفي النفي.

وإليك هذا المثال العلمي الواقعي حسب الفلسفة المادية الجدلية.

الأطروحة : تبدأ منها حركة المجتمع الإنساني، فقوى الإنتاج التي يملكها الإنسان ووسائله التي استفادها من الطبيعة أرغمت الناس على الدخول في علاقات إنتاجية متبادلة، وذلك من أجل العيش وتطوير أسباب الرفاهية في الحياة.

ومع مضي الزمن تزداد وسائل الإنتاج تقدمًا وتعقدًا مع بقاء علاقات الإنتاج متخلفة ـ ملكية جماعية تحت سلطان العشيرة أو القبيلة ـ وبذلك تظهر بذور التناقض بين وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج حيث لا يلبث أن ينفجر أخيرًا هذا الصراع بظهور الإقطاع وهو النفي الأول.

إلا أن هذا الطور الجديد للملكية يحمل في أحشائه بذور نقيضه وهي طبقة المستعبَدين والمستغَلِّين، حيث تثور هذه الطبقة ـ المستبعدين ـ على سيطرة الإقطاع وتقضي عليها فيكون ذلك إيذانًا بتحقيق نفي النفي وتعود الملكية إلى حالتها السابقة.

إلا أن هذه الأطروحة الثلاثية وحسب النظام المادي الجدلي لا يلبث أن يصبح أطروحة جديدة يتولد عنها نفي جديد ونفي نفي جديد، يكون أسمى وأغنى، أو بتعبير آخر تحل البرجوازية ـ الطبقة الكادحة المستعبدة ـ مع الزمن محل الإقطاع ويعود التناقض بين البرجوازية والطبقة الكادحة المستعبَدة التي كانت في يوم ما درعًا لها، وفي اللحظة المناسبة يحل عصر الانتقال إلى عصر التركيب الجديد؛ إنه عصر الشيوعية المطلقة حيث تذوب الفوارق الطبقية نهائيًا وإلى غير رجعة،

ويتم إنقاذ البشرية من الظلم الاجتماعي كله، وتزول الحاجة إلى رقابة الدولة وقيادتها، فتنهي الدولة نفسها، وآنذاك تهدأ حالة التاريخ البشري بعد طول صراع ويلقي عصاه آمنًا مطمئنًا في ظل ظليل من الشيوعية الوارفة[1] (!!).

❊ ❊ ❊

(١) انظر: كتاب نقض أوهام المادية الجدلية، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص(٣٠-٥٠).

نقد المادية الجدلية

إن أركان النظرية المادية الماركسية ـ كما ذكرنا ـ ثلاثة قوانين :

أولاً : قانون تحول الكَمِّ إلى كيف .

ثانياً : قانون وحدة الأضداد .

ثالثاً : قانون نفي النفي .

ومن مستلزمات المادية الماركسية ما ذُكر آنفًا وهي :

أولاً : المادة هي أساس الوجود وينبوع الحقائق .

ثانياً : ملازمة المادة للحركة .

ثالثاً : سرمدية العالم ووحدته .

رابعاً : الوعي هو وظيفةلمادة عالية التنظيم هي الدماغ .

خامساً : تفاعل السبب والمسبب .

سادساً : علاقة المعرفة ـ الحقيقة النسبية ـ بالحقيقة المطلقة .

سابعاً : المادية التاريخية .

وستقتصر هذه الدراسة على نقد القوانين الثلاثة الرئيسية أما المستلزمات فأحيل القاريء إلى كتاب نقض أوهام المادية الجدلية للدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي ؛ من ص (٩٧ ـ ٢٤٢) .

هذا ، وبعد أن فرغنا من استعراض النظرية بدءًا من أصولها إلى محطتها الجدلية الماركسية سنشرع في نقد قوانين الفلسفة المادية الماركسية ، ولن أتطرّق لتطوراتها المختلفة بدءًا من هيرقلط مرورًا بهيجل ؛ لأن آراءهم قد تحولت إلى

قاعدة أقيمت على أسسها الفلسفة الماركسية التي سننقدها بإذن الله بدقة وأمانة، وليس أمامنا إلا ميزان واحد وضعه الإسلام بأصلَيْه الكتاب والسنة، هو ميزان المنطق العلمي وبراهينه الراسخة.

أولاً: قانون تحول الكم إلى كيف:

شرح مفهوم الكم والكيف: من المعلوم أن أي شيء يتكون من جوهر وظواهر؛ الجوهر هو ذات الشيء، والظواهر تجلياته وخصائصه الواضحة للعيان، هذه الظواهر تخضع لأحد مفهومين:

الكم: وهو ما يحدده العدد أو الحجم أو القياس أو الوزن، والكم ينقسم إلى قسمين: كم متصل، وكم منفصل.

* الكم المتصل: وهو تعبير عما يحققه الحجم أو القياس من التراكمات والأحجام.

* الكم المنفصل: تعبير عما يحدده العدد مما يؤثر الزيادة عليه أو النقص منه.

أما مقولة **الكيف**: فهو كاللينونة والبرودة والحرارة.

إن المادية الجدلية تقرر أن التغيرات الطارئة على كمية الشيء تؤثر أخيراً في تغيير كميته، هذا التقرير صحيح إلى حد ما ولكنه يحوي مغالطات كثيرة، أما كونه قانونًا عامًا لكل شيء فهذا غير صحيح البتة وإليك التفصيل: إن الكم كمَّان كما ذكرنا؛ فالكم المنفصل لا يبدع عن طريق الزيادة أو النقصان أيّ كيفية ذات قيمة يمكن أن تنشأ من إضافة عشرة أحجار إلى خمسين حجراً، نعم إلا في حالة واحدة، إذا تدخل الوعي الإنساني فإنه بإمكانه أن يستغل تزايد الكم المنفصل لاستخراج كيفية جديدة ذات أهمية، فإذا ازداد عدد المستضعفين فلا يمكن أن يتحول كمهم إلى كيفية جديدة إلا إذا حكّموا وعيهم فإنهم حينئذ يستفيدون منه.

نستنتج من هذا كله ما يلي:

أولاً : إذا لم يظهر عامل خارجي من شأنه أن يحدث خللاً في تفاعل الأسباب مع المسببات لن تحقق القفزة بل تظل الأمور سائرة بتدرج ورتابة .

ثانياً : ليس حتمًا أن تتجه هذه القفزة حيثما وجدت إلى الأعلى بل قد تتجه إلى الأسفل ، فالقانون غير صحيح .

مثال ذلك : زيادة عدد السكان بدون موارد إنتاجية ، إنها زيادة كمّ ومع ذلك فهي قفزة إلى الأسفل لا إلى الأعلى لأنها تتمخض عنها مجاعات وصراعات[١] .

ثانياً: قانون وحدة الأضداد:

وهو قانون باطل ؛ فمن أحكام الضدين أنهما لا يمكن أن يجتمعا تحت ظل من وحدة الموضوع والمحمول والزمان والمكان وقيود الصفة ، أي : فالسواد القاتمّ والبياض الناصع لا يمكن أن يلتقيا في ذات واحدة أو في حيز مكاني واحد . وكذلك إذا عرفنا أن اجتماع الضدين في حيز واحد أو في زمان واحد كالليل والنهار أو في صفة واحدة كأن يكون الشيء أبيض وهو في نفس الوقت أسود ، لا يمكن أن يكون ذلك بحال من الأحوال . فحينئذ بطل قانون اجتماع الضدين الذي يقول به الماركسيون[٢] .

ثالثاً: قانون نفي النفي:

وهو ما يعبر عنه بالتركيب ، ففي مثال الحنطة المذكور آنفًا[٣] لم تحقق عمليات الزرع المتلاحقة خلال آلاف السنين أي تطور للحنطة ، فأين الصعود اللولبي الذي ذكره قانون نفي النفي؟ كذلك في صراع الطبقات تقرر النظرية أن نهاية العالم

(١) انظر : نقض أوهام المادية الجدلية الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي ص (٣٤ ، ٣٥) وص (٦٧) وص (٧٣) .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) انظر : ص (٧١٠ ، ٧١١) من هذا الفصل .

تكون في قيادة الشيوعية المطلقة وتحت ظلها، أي بتعبير آخر: يتوقف القانون الثالث للتطور - قانون نفي النفي - وينسفونه من جذوره، وإلا فحسب ادعاءاتهم يجب أن تسقط الشيوعية المطلقة ببذور أضدادها من الداخل ويظهر تركيب أرقى وأغنى.

ويتبين لنا من ذلك أن تلك القوانين لا تعتمد على أي أصل علمي راسخ[١] وسوف نعود مرة أخرى إلى نقد الفلسفة الماركسية من الناحية العقائدية في الفصل القادم - إن شاء الله - عند حديثي عن موقف الإسلام من الصراع[٢].

* * *

(١) باختصار وتصرف من العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، د/ محمد سيعد البوطي.

(٢) انظر: ص (٧٣٩) إلى (٧٤٩) من بحثنا هذا.

نظرية داروين

داروين ـ صاحب نظرية التطور والارتقاء ـ

لقد نالت نظرية التطور والارتقاء من الشهرة والانتشار ما لم تنله نظرية حديثة في هذا العصر، ولعل السبب يرجع إلى أنها تدور حول خلق العالم وتكوين الإنسان والروح، ولكونها كانت بمثابة العون لدعاة الإلحاد وسلاحًا لهم في مجال الدعوة إلى الإلحاد والتحلل والقول بإنكار الخالق.

عرض موجز لأهم نظريات التطور:

يجب أن نعلم في البداية أنها ليست نظرية واحدة تلك الفكرة التي تتصور أن الإنسان تصاعد من مخلوقات أدنى، ولكنها سلسلة نظريات متلاحقة متخالفة، كلها يفرض أن الحياة تطورت على وجه هذه الأرض تطورًا آليًا، ثم تتفرق عن بعضها في طرائق مختلفة لتفسير هذا التطور وتحليله، وستعرض باختصار وإيجاز لأهم هذه النظريات وهي تتلخص في ثلاث نظريات:

١ ـ النظرية اللاماركية.

٢ ـ النظرية الداروينية.

٣ ـ النظرية الحديثة للعالم الهولندي Hugode Veries.

أولاً: النظرية اللاماركية:

النظرية اللاماركية نسبة إلى لامارك العالم الفرنسي المولود سنة ١٧٤٨م، وهو زعيم الجناح الإلحادي في هذه النظرية، وهو أول من نادى بنظرية التطور، ولكن في غمرة النقاش والجدال الذي دار حاميًا حول «داروين» وما سجله من

بحوث بشأن نظريته؛ نسي الناس لامارك واضعَ النظرية وأصبحت تُعرف فيما بعد بنظرية داروين.

وتتلخص نظرية لامارك في أن الأنواع الحيوانية غير ثابتة على حالها، ومردّ ذلك هو الظروف المناخية المختلفة التي تتقلب على كل منها كالإقليم والغذاء وطراز الحياة وحالة الطقس والطبيعة؛ ذلك لأن اختلاف شيء من هذه العوامل يؤثر في اختلاف العادات ويؤثر بدوره في اختلاف الوظائف والأعمال واختلافهما لابد أن يؤثر مع الزمن في اختلاف الشكل والأعضاء إذن فمحور نظريته هو الظروف والعوامل المناخية المختلفة التي تؤثر في نظره على تطور الأنواع وليس لها أي علاقة بالأصلح والقول بأن البقاء للأصلح.

ولقد دعم لامارك نظريته هذه ببعض من الأمثلة المحسوسة المشاهدة وجد فيها الدليل لما يقول، فالفقاريات التي تتغذى بدون مضغ تضمر أسنانها وتصبح مع الزمن خفية في اللثتين. والحوت وآكل النمل مثالان أيضًا على ذلك، والخلد الذي يعيش في الظلام يتمتع بعينين صغيرتين جدًا كل تلك الأمثلة تدل في نظره أن العوامل الطبيعة والمناخية لها أثر واضح في تغير المعالم. وهو ليس إلا دليل بدوره على السير في الطريق إلى اختلاف الأنواع.

وهكذا سرعان ما شاع في الأذهان ذلك التصور الذي تصوره لا مارك واستقبله الناس بالقبول والرضا لا سيما من أولئك الذي يعيشون في فراغ فكري تجاه مسألة اليقين بوجود مبدع للكون كله، وراحوا يفسرون به الحياة الإنسانية العجيبة المعقدة وتطورها من حال إلى حال خلال الأجيال والقرون المنصرمة.

❊ ❊ ❊

نقد نظرية لامارك

لقد وضعت نظرية لامارك تحت مجهر البحث والنقد العلمي من قبل العلماء والمفكرين وإليك تلك الانتقادات.

١ ـ الانتقاد الأول:

إن الأمثلة التي استشهد بها لامارك قرر فيها أن سير التطور يتجه إلى فائدة الحيوان وضمان استمراره في عمله الوظيفي وتكيفه بأكبر قدر مع أحوال المناخ والطبيعة. غير أن الواقع لا يؤكد ذلك ولا يثبته، فإن أنواعًا كثيرة من الحيوانات قد انقرضت وبادت تحت وطأة تلك العوامل المناخية والطبيعية وقد كان من مقتضى افتراضات لامارك أن تتطور تلك الحيوانات وفقًا لاختلاف الأحوال الطبيعية حتى تتأقلم وتتناسق معها بحيث تضمن لنفسها استمرار بقائها النوعي على أقل تقدير ومن أمثلة الحيوانات التي انقرضت ولم يتطور وفقًا لاختلاف الأحوال الطبيعية الديناصور.

٢ ـ الانتقاد الثاني:

إن أكثر ما لاحظه لامارك من مظاهر التطور التي اعتمدها أساسًا لبحثه ودليلاً على دعواه إنما يجري ضمن سلسلة الإفراد بعامل الوراثة، أي: من قبل أن يلتقي الحيوان مع الظروف أو البيئة التي تُلجئه إلى نوع من التطور أو التشكل للانسجام معها.

فجلد الطفل يكون منذ ولادته أشد غلظًا على أخمص القدمين منه في أي جهة أخرى من أجزاء الجسم، والجمال لها ثفنات في سويات رسغ اليدين والمرفقين بحيث تطابق السطح والتي تَتحمل وطأة الوزن عندما يستنيخ البعير،

غير أن هذه الثفنات موجودة في ولد الناقة منذ ولادته، ولا يمكننا في مثل هذه الحالة أن نعلل الأمر بتكيف سابق تأثر بالظروف والأحوال سيما وقد تبين أن تفاصيل الهيكل الحيواني منوط باقتران الصِّبْغيات والناسلات بكل نوع على حدة، ودعوى أن مانشاهده اليوم من قوانين الصبغيات لم يكن على هذا النحو الوراثي في غابر الزمن زعم غيبي بحت يتنافى مع الواقع المستمر المشاهد[١].

الانتقاد الثالث:

إن هذه الفرضية التي طرحها لامارك إنما تعالج مسألة أخرى أضيق بكثير من موضوع البحث، وهو مدى احتمال أن يكون سائر أنواع الحيوانات المختلفة قد تطور تطوراً نوعيًا كاملاً لا يحده تبدل أشكال وألوان وأعضاء بل يأتي على التكوين الحيواني كله من حيث هو، بدءًا من الغريزة والفكر إلى الشكل والشعر والمخالب والأظفار.

أما التحليل الذي تذهب إليه النظرية الاماركية بالنسبة لظاهرة الأشكال والأعضاء الجزئية تحت سلطان النوع الواحد فهو لا يفسر إلا جزءًا يسيراً جدًا من موضوع البحث الأساسي الذي لا يزال يتطلب تحليلاً وشرحًا يجيبان عن أسئلة كثيرة تفرض نفسها في هذا المجال.

هذه الانتقادات الثلاثة لم تجد أي إجابة عنها، وهكذا طُوي بساط هذه النظرية عن الالتفات إليه والاهتمام به بعد أن خُدع بها الكثير، وقامت على أنقاضها نظرية أخرى هي نظرية داروين فما هي خلاصتها؟

---

(١) انظر: التطور والإنسان، للدكتور حسن زينو، ص (١٧).

ثانياً: النظرية الداروينية:

داروين[١] (١٨٠٩ - ١٨٨٢)

في عام ١٨٧١م أخرج داروين كتابه المشهور المسمى بـ (أصل الأنواع والانتخاب بالنسبة للجنس) حاول أن يرد التطور إلى تغير آلي بحت بحيث يكون مستقلاً قدر الإمكان عن الأسباب الغائبة، ولكنه اتخذ مع ذلك من مبدأ اختيار الأصلح سببًا للتطور.

خلاصة نظرية داروين :

يرى داروين أن ثمة صفات قد لا تكون ذات أهمية في الظاهر، يتفاوت الأفراد في اتصافهم بها، ولكنها ذات أثر فعال في المحافظة على صاحبها وترشيحه لمستوى أفضل، وعندما يدخل هؤلاء الأفراد في صراع مع الطبيعة من أجل الحياة يجري اصطفاء طبيعي يؤدي إلى بقاء أشد الأفراد كفاءة وصلاحية للبقاء بما تمتاز به من تلك الصفات، أو بما تمتاز به من الحصول على أعلى الرتب منها.

وهكذا فإن التفوق الذي يتمتع به الحيوان من حيث هو نوع بالنسبة للأنواع الأخرى، أو من حيث هو فرد بالنسبة للأفراد الأخرى.

وبتعبير أوضح: إن بقاء بعض الأنواع وانقراض بعضها يرجع إلى ظاهرة

---

(١) هو تشارلز داروين، صاحب نظرية التطور العضوي المعروفة، ولد بويلز في بريطانيا، وألف كتابه: (أصل الأنواع) بعد رحلة طويلة دامت خمس سنوات في دراسة عالم الأحياء على الطبيعة، وقد اطلع خلال هذه الرحلة على كثير من أسرار عالم الحيوان والنبات، وقد أحدثت نظريته انقلابًا فكريًا في معظم حقول المعرفة الأوروبية نظرًا للاستغلال العظيم الذي قام به المغرضون والهدامون من الملحدين ولا سيما اليهود، وأخيرًا ألف كتابه: أصل الإنسان ١٨٧٤ وقد خصص هذا الكتاب لموضوع التطور الإنساني. بتصرف من موقف الإسلام من نظرية ماركس ص (٦٠٨).

الصراع من أجل البقاء، فالبقاء يكون للنوع المكافح الأفضل، وأما النوع الخامل الذي لا يكافح من أجل البقاء فإنه يضمر ثم يضمحل ثم ينقرض[١].

وفي غمرة هذا التسابق الذي تم منذ أقدم العصور في عالم الأحياء ونتيجة لتفاوت الصفات الكامنة في أنواعها الكثيرة - وهي الطاقة الوحيدة لذلك التسابق - ظهر سلم الدرجات الذي صنف الأحياء إلى أنواع مختلفة ومتفاوتة شتى، وليس الإنسان في سلم هذه الدرجات إلا واحدٌ من فريق تلك الحيوانات البسيطة التي بدأ السباق فيما بينها ضمن دائرة نوعية واحدة، فكان من حسن حظه أن كان له من الصفات الكامنة ما تقدم به صعدًا في حلبة ذلك الصراع والسباق ورشحته ليتبوأ أسمى درجات الحياة من حيث تخلَّفَ زملاؤه عنه في درجات متفاوتة شتى.

ولكن على أي دليل اعتمد في الذهاب إلى أن الإنسان كبقية الحيوانات الأخرى تطور من نوع واحد؟

أدلة داروين على أن الإنسان كبقية الحيوان تطور من نوع واحد:

أولاً: استمد داروين دليله على ما يقول من علوم التشريح المقارن والأجنة ومن التراكيب الأثرية التي توجد في الإنسان، فقد وجد مثلاً أن أجزاء الهيكل العظمي للإنسان يمكن أن يُقارن بمثيله في بعض الحيوانات الأخرى، وكذلك الأمر بالنسبة للجهاز العضلي أو العصبي حتى تركيب المخ وأجزائه يمكن مقارنتها بين الإنسان والحيوان واستخراج كثير من أوجه الشبه بينهما.

ثانيًا: كما اعتمد على الأدلة التي استمدها من علم الأجنة، فقد لفت نظره أن عملية تكوين الجنين في الإنسان ما هي إلا استعادة لأطوار الحياة في حيوانات أقل مرتبة، كما أن المراحل الأولى لتطوير الجنين تتشابه تشابهًا كبيرًا في الإنسان

---

(١) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة للشيخ/ عبد الرحمن حبنكة الميداني ص (٣١٨).

والحيوان؛ فقد لاحظ مثلاً أن عَجُز الجنين ينتهي بما يشبه الذيل في جنين كل من الإنسان وحيوانات أخرى، وبتطور الجنين يختفي الذيل في جنين الإنسان ويبقى في الحيوانات الأخرى.

ثالثًا : استدل داروين بمظاهر من الترابط النفسي بين الإنسان وبعض الحيوانات مثل ظاهرة الوجدان والشعور والانفعالات النفسية[١].

* * *

(١) بتصرف واختصار من: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، د/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص (٢٣٥، ٢٣٦).

نقد الداروينية

وإليك بعض وجوه النقد العلمي الموجهة من العلماء للنظرية الدروانية.

١ ـ إن الواقع الذي نشاهده ونلمسه على صعيد الحياة يتنافى بشكل واضح مع ما أسماه داروين بقانون الاصطفاء والبقاء للأصلح، فإن الكون لا يزال بعد الذي قطعه من عمره المديد يَعُجُّ بالأصلح وغير الصالح من شتى صنوف الحيوانات بدءًا بالهلاميات إلى القردة فالإنسان، ولو كان قانونه صحيحًا لكان من أبسط مقتضاياته الواضحة أن يتجاوز موكب السباق الحيواني نقطة البدء على أقل تقدير مهما فرضنا البطء في حركة التطور والاصطفاء، ولكن ها هي نقطة البدء لا تزال تفور بحيواناتها الضعيفة المختلفة، ولا تزال تتمتع بحياتها وخصائصها المعيشية كما كان يتمتع بها السابقون مثْلاً بمثل.

٢ ـ إن كل ما رصده الإنسان من معارف عن التاريخ والتاريخ الطبيعي دل على أن كل نوع من أنواع الحيوانات على اختلافها قوة وضعفًا تطرأ عليه خسائر ضخمة مع الزمن، لا تحت سلطان ما يسميه داروين البقاء للأصلح بل بسبب عواد وعوامل طبيعية مختلفة تتقلب عليها، وهي حقيقة مشاهدة لا تنكر، فالموت والنجاة من الموت كثيرًا ما يكون أمرهما إلى المصادفة المجردة[1] لا إلى صفات خاصة في الفرد.

فالمستنقع العظيم الذي يجف مثلا، والموجة الهائلة التي تتدفق على الرمل،

---

(١) جريًا على مفهوم الذين لا يعتقدون وجود الخالق ـ عز وجل ـ وأن الطبيعة هي التي يعود عليها أمر هذا الكون ومما فيه. ولا شك أنه ليست هناك قيد أنملة تتحرك أو تسكن إلا بتقدير العزيز الحكيم.

والفيضانات والسيول الجارفة تبيد الألوف من الحيوانات وتنجو من الموت طائفة أخرى، ومن المعلوم أنه لا الموت اصطفى لنفسه الضعفاء ولا النجاة اختارت لنفسها الأقوياء بل الأمر كله جاء على سبيل المصادفة[١] وهذا يتعارض مع فكرة أن البقاء للأصلح وأن التطور يسير لمصلحته.

٣ ـ إن الموت من حيث هو ظاهرة عامة يتناقض مع ما يراه داروين من أن الطبيعة تسير مع جماعة الأحياء حسب قانون الاصطفاء والبقاء للأصلح، فأي بقاء يتم للأصلح إذا كان الموت يتربّص به؟ على أن الدراسات الإحصائية التي أثبتها علماء هذا الشأن تبيّن أن الموت يداهم أول ما يداهم الأفراد الذين قد يرتفعون عن النمط العادي حيث يبقى بعد ذلك نمط المتوسط وما دونه وهي نتيجة تعاكس نظرية داروين وتنبؤاته[٢].

٤ ـ عملية الاصطفاء هذه عملية غائية يتدخل فيها الفكر والتدبير وليست حركة آلية، سواء اعتبرنا الاصطفاء أمرًا صناعيًا أو طبيعيًا، فكيف يمكن إسناد هذا الاصطفاء إلى الطبيعة أو الحركة الآلية؟ إن السير الطبيعي والآلي لا مناص من أن يفسر ـ مهما تنوعت التعابير عنه ـ بالعشوائية المجردة، وأنّى للعشوائية أن تلتزم بالسير وراء قانون الاصطفاء والبقاء للأصلح؟

وبتعبير آخر: إن انتخاب الأصلح لابد أن يعتمد على قانون يميز الأصلح عمن دونه ويعلل ذلك ويوجهه، فعلى أي قانون تستند الطبيعة في انتخابها؟

٥ ـ إن وقاية الحياة من أن يتسلل إليها ضعيف لا تتوفر فيه مجموعة الصفات الصالحة أيسر على الطبيعة ـ لو كان الأمر بيدها ـ من أن تذهل عنه، حتى إذا تسلل إلي الحياة وأخذ قسطه منها وراح يشارك أمثاله في القيام بكافة الوظائف الحياتية

---

(١) انظر: علم الحياة الحيوانية للدكتور/ عبد الحليم سويدان ص (١٣٢).

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٢.

انتهت إليه فجأة ثم راحت تلتقطه وأمثاله من بين سائر الحيوانات لتقضي عليه ولتصحح في محوه خطئتها التي ما كان لها أن ترتكبها، أي: إذا كان هذا الضعيف محكومًا عليه بالتخلف فالزوال لأنه ليس من صنف الصالح أو الأصلح وقدّرنا أمر إيجاده عائدًا إلى الطبيعة، فلماذا أوجدت الطبيعة هذا الذي تريد اليوم أن تقضي عليه أو تؤخره عن الركب؟ أما إن قلنا إن أمر إيجاده لم يكن إليها فأحرى أن لا يكون إليه أيضًا أمر تهذيب الكون بإعدامه والقضاء على خطيئة وجوده.

٦ ـ إن في أصناف الحيوانات ما يتمتع بصفات ترشحها لتتبوأ الصدارة في سلسلة أنواع الحيوانات ـ لو أن الطبيعة راعت فيها ذلك ـ ولكن هذه الحيوانات لم تترقَّ فوق مرتبتها التي هي فيها وبقيت دون مستوى حيوانات أخرى؛ لو صحت نظرية داروين فيها لسبقتها، وقد عرض داروين لهذا الاعتراض الوارد على نظريته في كتابه أصل الأنواع، ولم يعلق عليه بأكثر من قوله: «إننا لا ينبغي لنا أن نعثر على جواب محدود معين على هذا السؤال إذا ما عرفنا أننا لا جرم نعجز عن الإجابة عن سؤال أقل من هذا تعقيدًا»[١].

وهكذا تكاثرت الانتقادات على نظرية داروين من كل صوب فكان مصيرها في ميزان النقد العلمي شرًا من اللاماركية التي سبقتها[٢].

ثالثًا: الداروينية الحديثة:

غير أن العالم الهولندي Hugode Veries أقبل فأقام على أنقاض تصوّرات داروين هذه نظرية ثالثة في تفسير نظرية التطور المفروضة بشكل إجمالي سلفًا، سرعان ما سميت بالداروينية الحديثة.

---

(١) أصل الأنواع لداروين ص، (٤١٢).

(٢) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، للدكتور البوطي، ص (٣٣٥ـ٣٣٩).

ويتلخّص فرق ما بين نظرية داروين وهذا العالم الثاني أن داروين أفحم نفسه في متاهات محرجة لا مفر منها عندما أعطى الطبيعة القدرة على تصعيد أجناس الحيوانات إلى المستوى الأفضل، وهو عمل يدخل في صميم ما يسميه العلماء بالعلة الغائية، والعلة الغائية من أرقى وظائف الفكر والعقل.

أما هذا الثاني فقد قرر أن الإنسان كغيره من الكائنات الحية يخضع للتطور الجزئي والنوعي، ولكن عن طريق الطفرة لا عن طريق السعي نحو الاصطفاء وانتخاب الأصلح؛ فمن خلال طفرات نوعية أدركت الإنسان منذ أحقاب طويلة مرت أتيحَ له أن يرقى صعداً إلى هذه المرتبة التي وصل إليها.

غير أن مآل هذا التصور الثالث لم يكن خيراً من مآل كل من الفرضيتين السابقتين فقد وجهت لها هذه الانتقادات الآتية:

١ ـ أن التطور المفروض الذي هو أصل البحث تطور تقدمي، ولا ريب إذاً هو التصور المقترح لتدرج أصناف الحيوانات، فهل من شأن الطفرة أن تنطوي على هذا التطور التقدمي المطرد؟

المعروف أن الطفرة دائماً تنطوي على صفات الانتقاص والاضطراب، والموت أكبر مثال على ذلك، فكيف يفسر التطور التصاعدي المطرد هذا على أساس من هذا العامل الانتفاضي المضطرب؟

أي أن العاقل لابد أن يسأل: لماذا لا تتجه الطفرة يوماً ما في مسيرها بالركب الحيواني نحو الانتكاس إلى الخلف بدلاً من الصعود الشاق الدائب إلى الأمام ما دام أن المسألة طفرة وليس ثَمّ سائق يتجه به إلى أي هدف؟

٢ ـ إذا كانت الطفرة هي التي تتحكم فيما يطرأ على الكائن الحي من تغير وتطور، فأي موجب يبقى لافتراض نشأة الكائنات الحية من أصل واحد؟ إذ من المعلوم أن هذا الافتراض إنما لاقى قبولاً من أصحابه بناءً على ما لاحظوه من

الشبه التصاعدي بين هذه الكائنات، وهي الملاحظة التي جعلتهم يقولون بمبدأ الاصطفاء وانتخاب الأصلح، فإذا نُسف هذا المبدأ بافتراض الطفرة فلابد من تجاوز ظاهرة التشابه التصاعدي بين أصناف الأحياء؛ إذ ليس من علاقة بينها وبين افتراض الطفرة وتصوُّر أنها هي عامل التطور[١].

وأخيرًا الكشف العلمي الذي قضى على فرضيات التطور كلها، وقد كانت هذه الانتقادات كلها تتجه إلى هذه النظريات المتناسخة قبل أن يكتشف العلماء ما في داخل نواة الخلية الحيوانية، وهو الذي يسمونه اليوم بالكروموزومات أو الصبغيات، أما اليوم وقد دخل هذا الكشف طور الحقيقة العلمية التي لا مرد لها فقد قام هذا الكشف سدًا محكمًا في وجه النظريات الثلاث التي درسناها، بل في وجه أي نظرية أخرى تفرض تطور الإنسان من كائن حيواني أقل شأنًا؛ ذلك لأن الصبغيات تنطوي على شريط حُشدت عليه رموز شتى تدل على الطبائع والصفات والأشكال الإنسانية التي ستتفتح في حياة هذا الكائن الإنساني.

والدلالة الهامة التي ينطوي عليها هذا الكشف العلمي هي أن سائر ما يمتاز به الإنسان أو الحيوان من المقومات الإنسانية أو الحيوانية ـ سواء في مظهره أو طبائعه أو أخلاقه ـ نابعة من أصل تكوينها الذاتي وليست طارئة عليه بفعل التطور المزعوم الذي اعتمد على مجرد التشابه التدريجي في الأنواع.

وبعد، فتلك هي أبرز النظريات التي تلتقي تحت مظلة دعوى أن الكائنات الحية بما فيها الإنسان قد تطورت من بعضها، ومن عجيب الأمر حقًا أنك في الوقت الذي تجد علماء هذا الشأن يتسابقون إلى تحطيم هذه النظريات والتنبيه إلى دلائل الثغرات ومظاهر الخطأ فيها تجدهم يعودون من سباقهم المتعب هذا ليقولوا: ولكن لابد أن التطور النوعي خلال القرون هو التفسير الوحيد لنشأة الإنسان وبلوغه هذا الأوج من الملكات العجيبة التي تميز بها؛ يعرقون ويتعبون في

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، للدكتور البوطي ص (٢٣٩ ـ ٢٤١).

تحطيم كل نظرية تنادي بالتطور ثم ينكفئون عى أعقابهم ليقرروا في استكانة وذل أن القول بالتطور هو الملاذ الوحيد.

وليس هذا الوصف يقتصر بالذات على العلماء الأجانب لكنه للأسف هناك مَن تأثروا بمناهج أولئك من المسلمين اسمًا، فراحوا يسيرون خلف أولئك كظلال شاحبة، فما هو تفسير هذا الموقف المتناقض العجيب[1]؟

تفسير ذلك أن أصحاب هذه النظريات وأتباعهم من الغربيين وأولي النزعة المادية في تفسير أصل الوجود ينطلقون إلى دراسة هذه الظاهرة من يقين سابق لم يضعوه قط موضع ريبة أو بحث ألا وهو اليقين بأن الطبيعة هي التي نسجت هذا الوجود الكوني.

حتى الذين يستريحون منهم إلى القول بوجود الله ضمن حدود اليقين بأن قوة خفية لابد أنها أبدعت هذا الكون لا يرقى إيمانهم هذا إلى درجة من القوة بحيث يفرض عليهم إزاحة سلطان الطبيعة من طريق الخلق والإبداع فهو إيمان تقليدي لا أهمية له.

فكان من جرّاء ذلك أنهم وضعوا أنفسهم لدى محاولة البحث عن تفسير علمي صحيح لنشأة الإنسان أمام استقراء ناقص، أي أنهم فرضوا عدة احتمالات لنشأة الإنسان وأبعدوا أنفسهم عن واحد منها، ألا وهو احتمال أن يكون أمر نشأته بيد خالق مبدع، صوّره كما شاء، ثم قال له: كن فكان كما أراد، فلقد شطبوا وألغَوا هذا الاحتمال سلفًا ثم راحوا - وقد حصروا أنفسهم في باقي الاحتمالات - يتلمّسون الدليل العلمي في كل منها الواحد إثر الآخر، ولكن الدليل العلمي شطب على احتمالاتهم كلها، فكان مقتضى هذا الانغلاق الذي

---

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، تأليف الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص (٤٢١ - ٤٤٣).

حكموا على أنفسهم به أن يختاروا التمسك بأحد تصورين اثنين: إما أن يغمضوا فكرهم وبصائرهم ثم يقرروا أن الطبيعة تمخضت فجأة عن كائن حي يتمتع بأعلى درجات الفهم والإدراك، ويطمح إلى السماء بقوته وسلطانه ويهيمن على خير الأرض، وإما أن يريحوا أنفسهم عناء البحث في كيفية نشأته ويكتفو، بالقول إجمالاً بأنه تطور عن كائنات أقل شأنًا خلال أحقاب طويلة من الدهر وإن لم ندر كيفية ذلك.

لا ريب أن المنطق النسبي - أي بالنسبة لمن حصر فكره ضمن احتمالات استقرائية ناقصة، وأبى أن ينطلق من الصفر في فرض كل الاحتمالات - يدفع هؤلاء الناس إلى الميل للقول بالرأي الثاني، فهو على علاَّته وغموض السبيل العلمي إليه أقرب إلى قبول الذهن من تصور أن الطبيعة أوجدت فجأة هذا الكائن العجيب على سبيل المصادفة وطبقًا للعوامل العشوائية[1].

غير أن هذا المنطق النسبي جهل عظيم وانخداع خطير، وسأجلي لك الرد على هذه النظرية من القرآن الكريم والسنة المطهرة في الفصل القادم.

* * *

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، تأليف الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص (٣٤٣-٣٤٤).

خلاصة ما جاء في الفصل العاشر

١ ـ يرى الفلاسفة القدماء أن كل ما في الكون هو : إما مادة (كالأخشاب والأحجار والمعادن) أو قوة (كالكهرباء والحرارة والحركة) .

٢ ـ يرى هيجل أن المادة كلها إنما هي ثمرة الفكر المطلق ـ قدرة الله ـ .

٣ ـ يرى ماركس أن المادة هي الأصل ، والفكر والروح من ثمراتها ، وهناك قوانين تؤمن بها المادية الجدلية وهي :

* قانون تحول الكم إلى كيف ـ قانون وحدة الأضداد وصراعها ـ قانون نفي النفي .

٤ ـ من مستلزمات قوانين المادية الجدلية الماركسية ما يلي :

* المادة هي أساس الوجود وينبوع الحقائق ـ وملازمة المادة للحركة ـ وسرمدية العالم ووحدته ـ والوعي هو وظيفة لمادة عالية التنظيم هي الدماغ ـ وتفاعل السبب والمسبب ـ وعلاقة المعرفة ـ الحقيقة النسبية ـ بالحقيقة المطلقة ـ والمادة التاريخية .

وكل هذه القوانين ومستلزماتها لا تقوم على أي أصل علمي راسخ .

٥ ـ أهم نظريات التطور : النظرية اللاماركية والنظرية الداروينية ، والنظرية الحديثة ، للعالم الهولندي ، وكلها نظريات مردودة مرفوضة .

* * *

الفصل الحادي عشر

موقف الإسلام من الصراع

ويتضمن

الرد على النظريات الحديثة

الفصل الحادي عشر
موقف الإسلام من الصراع
ويتضمن الرد على
النظريات الحديثة

تمهيد:

ويشتمل هذا البحث على ثلاثة جوانب :

أ ـ الجانب العقائدي : وفيه الرد على قضية الإلحاد .

ب ـ الجانب الاجتماعي : وفيه توضيح قضية نظام الطبقات .

جـ ـ الجانب الاقتصادي : وفيه توضيح قضية حق التملك .

تمهيد:

كل من يتمعن في الأسس التي احتوت عليها الشريعة الإسلامية يجد أنها تتضمن مجموعة من الأحكام الاعتقادية التي تخاطب في الإنسان عقله ووجدانه، وترشده إلى معرفة الله والإيمان به وبوحدانيته إيمانًا لا يقبل الشك، كما أنها تتضمن مجموعة من أحكام العبادات التي تدعم صلة الإنسان بربه، وتزكي نفسه، وتسمو بروحه، وإلى جانب ذلك نجد مجموعة أخرى من الأحكام والمبادئ التشريعية كالمبادئ والقيم الأخلاقية التي تنظم أمور المجتمع تنظيمًا عادلاً متوازنًا بما يؤدي إلى تخليصه من كل أسباب الصراع أو الشقاق أو الانحراف، وهذا يعني أن الإسلام يعتبر نظامًا شاملاً لسلوك الإنسان في جميع شئون الحياة، وهذا الشمول لا يقبل الاستثناء أو التخصيص فهو شمُول كامل بكل معاني الشمول، وسنتناول هذا البحث من ثلاثة جوانب، سالكين مسلك الاختصار تجنبًا للإطالة.

أولاً: الجانب العقائدي:

سنقتصر على قضية الإلحاد :

إن الإسلام فوق ما اشتمل عليه من مبادئ خلقية سامية هو في ذاته ـ كما أسلفت ـ دين العقل، فما من أمر جاء به إلا وكان موافقًا للعقل يدركه ويصدقه، ويذعن له ما دام غير معتكر بهوى غالب أو شهوات مسيطرة، فعقيدته هي الواحدانية لله ـ تعالى ـ في ذاته وفي صفاته، وخلقه وإبداعه أمر هو حكم العقل المستقيم، حام حوله الفلاسفة الأقدمون، وليس في إدراك تلك الوحدانية صعوبات تعوق العقل أو تمنع بل إنها واضحة غير معقدة، يصل إليها العقل إذا خلا من الأوهام ولم ينزلق في الوثنية أو المادية.

والسورة الكريمة ـ التي نحن بصدد دراستها ـ بينت لنا نماذج من الأمم السابقة إلى عهد خاتم الأنبياء نبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وكيف أن

الله بعث إليها رسله مبشرين ومنذرين ودعاة إلى الخير والحق والسلام، فكان منهم المعارضون المنكرون ومنهم المطيعون المصدقون، فهذه سنة الله في خلقه؛ فعلى عهد كل رسول أرسل برسالة الله، كان المؤمن والكافر، وكان المهتدي والضال، وكان المتقي والفاجر، وكان المتواضع والمستكبر المتبع لغواية الشيطان.

وفي العصر الحديث تختلف وتتنوع أساليب الكفر والضلال، وإن كانت تختلف في مسمياتها لكنها تتفق جميعها في رفض كل معاني الحق والفضيلة، فتطالعنا أشهر النظم وأوسعها أفقًا وأبعدها عن منهل الحق وأشدها انغماسًا في الكفر والإلحاد والضلال، ألا وهي النظرية الشيوعية التي اعتمدت في أساسها على إنكار وجود إله لهذا الكون، والقضاء على كل الأديان الموجودة في الأرض باعتبارها في نظرهم خرافات يتوارثها الأبناء عن الآباء، كما اعتمدت النظرية الشيوعية على أن المادة هي التي شكلت نفسها وما تزال تتطور حسب تفاعلات معينة؛ فالسموات في اعتقادهم بما فيها من كواكب متحركة ونظامها الدقيق الذي لا يتغير منذ مئات الملايين من السنين، وتعاقب الليل والنهار ليست في عقيدتهم من خلق الله، والأرض وما عليها من إنسان وحيوان ونبات وجبال وهضاب وسهول وبحار وأنهار كل هذا في نظرهم كان نتيجة لتفاعلات مادية.

وسنكتفي بنقد الفلسفة الماركسية دون التطرق لنقد فلسفة هيجل وذلك لأن ماركس ـ وكما أسلفنا عند عرض النظريات ـ قد عمد إلى نظرية هيجل عن الجدل بين المادة والفكر المطلق فمسخها وجعلها علاقة بين أجزاء المادة نفسها، وحذف الفكر المطلق الذي جعله هيجل مصدر الخلق والتطور؛ أي بعبارة أوضح: إن كل ما في الكون من موجودات هو من خلق الطبيعة، وذلك نتيجة لتفاعلات أجزاء المادة بعضها ببعض وليس هناك أي اعتبار لخالق الكون ـ جل جلاله ـ تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

لكنَّ سؤالاً واحدًا يُقوّض هذه العقيدة الماركسية من أساسها، والسؤال

يقول: لو قُدِّر لواحد من هؤلاء ولنفرض أنه ماركس مثلاً، لو كان يسير في أرض قاحلة جرداء مترامية الأطراف الفسيحة رأى من بُعد بناء شامخًا في وسط هذه الأرض التي لا أثر للحياة فيها، وحينما بلغه وجده مصنعًا مجهزًا بكل ما تتطلبه التقنية الحديثة من أجهزة إلكترونية، وآلات حاسبة دقيقة، وتمديدات كهربائية، وأبراج للمياه، ومكائن ومعدات صناعية تعمل في نظام دقيق ودقة إنتاجية مدارة وفق أدق الدراسات الاقتصادية الحديثة، فماذا يا ترى يدور في لحظة هذه المفاجأة في فكر ماركس؟ هل يعتقد والحالة هذه أن هذا المصنع وجد نتيجة للتفاعلات المادية، وأنه لم يكن نتيجة عمل قام به مجموعة من المهندسين والحدادين والكهربائيين والفنيين وغيرهم؟

إذا كان يعتقد أن الطبيعة أوجدته فهو بين أمرين: إما أنه مختل الشعور تمامًا، أو أنه معاند لا يعترف بالليل بأنه ليل ولا بالنهار أنه نهار!!

وإذا اعتقد أنه كان نتيجة جهود كبيرة بذلت من مهندسين وعمال فنيين، وأن عامل الصدفة لا مجال له هنا ففي هذا هدم للعقيدة الماركسية القائمة على الاعتقاد بأن التفاعلات المادية هي مصدر الخلق والتطور، وهنا نتساءل مع ماركس: لماذا تعتقد أن هذا المصنع الشامخ لم يكن من فعل الطبيعة وإنما هو من عمل الإنسان، ولا تعتقد أن هذا الكون بكل ما فيه مما نعلمه وما لا نعلمه من عمل خالق له وهو الله؟

سؤال لا نكاد نجد له جوابًا عند الشيوعيين إلا المكابرة والعناد والارتماء في أحضان الطبيعة وإسناد كل مقومات الحياة إليها، وما عرفوا أن الطبيعة هي ذاتها مخلوقة عاجزة عن أن تخرج قيد شعرة عما أراد الله لها أن تكون عليه، وما عرفوا أن كل ذرة في هذا الوجود وما تحويه من أسرار إنما هي دليل على وجود خالق لها.

لقد تعرف ذلك الأعرابي[1] على إله هذا الكون من محسوسات وآيات كونية

(١) هو: قصيّ بن سعيد الأيادي.

حوله، وهو أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يكن فيلسوفًا أو أستاذًا في إحدى الجامعات، فعندما سئل كيف عرفت الله؟ قال: يا سبحان الله إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

ويلخص هذا القول النظرية الثابتة لدى جميع الفلاسفة والتي تتضمن قانونًا بديهيًا من البديهيات وهي أن كل عمل منظم له هدف لابد له من موجود؛ فالساعة عمل منظم هدفها ضبط الوقت لا يوجد مكابر يقول إنها وجدت بالصدفة، والطائرة عمل منظم هدفها اجتياز المسافات الطويلة والتي كان يقطعها المسافر في أسابيع بل في شهور، فتجتازها الطائرة في سويعات ولربما دقائق ولا يوجد مكابر يدعي وجودها بالصدقة، وهناك آلاف الأمثلة الحسية بين أيدينا تنطق ببداهة هذا القانون.

فإذا طبقنا هذا القانون على الكرة الأرضية وما حولها من أجرام المجموعة الفلكية لأدركنا أنه لابد أن يكون لنشأة هذا الكون من خالق، يقول عالم الطبيعة فرانك ألن[1]: «لو أزيحت الأرض إلى ضعف بُعدها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية، وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول، وتضاعف تبعًا لذلك طول فصل الشتاء وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض، ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض أربعة أمثال، وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس، ولآلت الفصول إلى نصف

(١) فرانك ألن: ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل، أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا (١٩٠٤ ـ ١٩٤٤) أخصائي في أبصار الألوان والبصريات الفسيولوجية وإنتاج الهواء السائل، وحائز على وسام توري الذهبي للجمعية الملكية بكندا.

طولها الحالي إذا كانت هناك فصول مطلقًا، ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة»[١].

ويقول عالم الطبيعة فرانك ألن: «إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صورًا عديدة لا يمكن تفسيرها عى أساس المصادفة أو العشوائية؛ فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار، وهي تسبح حول الشمس مرة كل عام فيكون في ذلك تتابع الفصول . . .، ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير يزيد على ٥٠٠ ميل، ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة إلينا . . .، والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات، حيث يمكن أن يتكاثف مطرًا يحيي الأرض بعد موتها، والمطر مصدر الماء العذب ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة . . .»[٢].

ويقول أيضًا عالم الطبيعة فرانك ألن: «أما الشمس المستعرة، والنجوم المتوهجة، والأرض الغنية بأنواع الحياة، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذًا حدثٌ من الأحداث، ومعنى ذلك أنه لابد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، عليم محيط بكل شيء، قوي ليس لقدرته حدود، ولابد أن يكون هذا الكون من صنع يديه»[٣].

---

(١) انظر كتاب: الله يتجلى في عصر العلم تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعات الأرض، مبحث: نشأة العالم، هل هو مصادفة أو قصد؟ كتبه فرانك ألن عالم الطبيعة البيولوجية ص (١١ ـ ١٥).

(٢، ٣) المرجع السابق.

كل هذه التنظيمات الدقيقة المعجزة لها هدف، وهدف هذا العمل المعجز هو وجود الكائن الإنساني عليه، إذن لابد لهذا العمل من موجد حسب القانون السابق، ألا وهو رب العباد، والذي استدل عليه الأعرابي بفطرته السليمة وتوصَّل إليه هذا العالم الأمريكي - فرانك ألن - وغيره بما أتيحت لهم من دراسات عميقة في الطبيعة وما تحتويه من أسرار.

❊ ❊ ❊

القرآن الكريم
استدل على وحدانية الله ـ تعالى ـ بالعلم والنظر

لقد استدل القرآن الكريم على وحدانية الله ـ تعالى ـ بالعلم والنظر لا بالفرض والوهم؛ فترى الآيات الكثيرة التي تدعو إلى النظر في المخلوقات وما فيها من أسرار تدل على وجود الله ـ تعالى ـ وأنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الخالق فهذا الكون، المدبر لشئونه، وله الحكمة البالغة في كل ما يجري على هذا الكون، قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذي رفع السَّموات بغير عمد ترونها ثُمَّ استوىٰ على الْعرْش وسخَّر الشَّمْس والْقمر كُلٌّ يجري لأجل مُسمًّى يُدبِّرُ الأمْر يُفصِّلُ الآيات لعلَّكُم بلقاء ربِّكُمْ توقنُون (٢) وهُو الَّذي مدَّ الأرْض وجعل فيها رواسي وأنْهارا ومن كُلِّ الثَّمرات جعل فيها زوْجين اثْنين يُغْشي اللَّيْل النَّهار إنَّ في ذلك لآيات لَقوْم يتفكَّرُون (٣) وفي الأرْض قطعٌ مُتجاوراتٌ وجنَّاتٌ مِّنْ أعْناب وزرْعٌ ونخيلٌ صنْوانٌ وغيْرُ صنْوان يُسْقىٰ بماء واحد ونُفضِّلُ بعْضها علىٰ بعْض في الأُكُل إنَّ في ذلك لآيات لَقوْم يعْقلُون** ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ **إنَّ ربَّكُمُ اللَّهُ الَّذي خلق السَّموات والأرْض في ستَّة أيَّام ثُمَّ استوىٰ على الْعرْش يُغْشي اللَّيْل النَّهار يطْلُبُهُ حثيثا والشَّمْس والْقمر والنُّجُوم مُسخَّرات بأمْره ألا لهُ الْخلْقُ والأمْرُ تبارك اللَّهُ ربُّ الْعالمين** ﴾[2].

واقرأ قوله تعالى: ﴿ **أمَّنْ خلق السَّموات والأرْض وأنزل لكُم مِّن السَّماء ماء فأنْبتْنا به حدائق ذات بهْجة مَا كان لكُمْ أن تُنْبتُوا شجرها أإلهٌ مَّع اللَّه بلْ هُمْ قوْمٌ يعْدلُون (٦٠) أمَّن جعل الأرْض قرارا وجعل خلالها أنْهارا وجعل لها رواسي وجعل**

---

(١) سورة الرعد: الآيات (٢ ـ ٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٤).

بين البحرين حاجزا أإلهٌ مع الله بل أكثرهم لا يعلمون (٦١) أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإلهٌ مع الله قليلاً ما تذكرون (٦٢) أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإلهٌ مع الله تعالى الله عما يشركون (٦٣) أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإلهٌ مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[١].

ألا ترى في ذلك الاستدلال على الوحدانية ما يدعو إلى توجيه الأبصار والعقول وجميع الحواس إلى أسرار الكون وما فيه من بدائع المخلوقات؟ أليس هو بهذا التوجيه المنطقي ينير العقول ويدعو إلى النظر والتأمل والتفكير؟.

ولم يقتصر القرآن الكريم على توجيه العقول لمعرفة الله - تعالى - والاستدلال على وحدانيته بل دعاهم إلى النظر المستمر في الأشياء وفي الأحياء وإلى أصل الكون ودراسته، اقرأ قوله تعالى: ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٧) وإلى السماء كيف رفعت (١٨) وإلى الجبال كيف نصبت (١٩) وإلى الأرض كيف سطحت (٢٠) فذكر إنما أنت مذكر (٢١) لست عليهم بمسيطر ﴾[٢].

ودعاهم أيضًا إلى النظر والتفكر في حقيقة أنفسهم وكيف خلقهم، قال تعالى: ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى (٣٦) ألم يك نطفة من مني يمنى (٣٧) ثم كان علقة فخلق فسوى (٣٨) فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (٣٩) أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾[٤].

لكن أنى لهم أن يصلوا إلى معرفة الله - عز وجل - وإدراك وحدانيته وهم

---

(١) سورة النمل: الآيات من (٦٠) إلى (٦٤).

(٢) سورة الغاشية: الآيات من (١٧ إلى (٢٢).

(٣) سورة الذاريات: الآية (٢١).

(٤) سورة القيامة: الآياتة من (٣٦) إلى (٤٠).

يجاهدون بكل الوسائل المتاحة لهم للقضاء على الأديان ـ وبخاصة الإسلام ـ هذا ولقد شنت الشيوعية حربًا لا هوادة فيها ضد الإسلام في كل بلد تضع أقدامها فيه، ومارست كل الوسائل والضغوط لتحقيق أهدافها فأغلقت المساجد والكنائس، وأعدمت العلماء المسلمين ورجال الدين من النصارى، وقتلت الملايين من المسلمين وغيرهم، وشتت الملايين من ديارهم وأهلهم[١].

وترجع أسباب محاربة الشيوعية للدين في نظري إلى سببين:

أولهما: أن الشيوعية نتاج يهودي؛ فمعظم زعمائها وقادتها من اليهود، حتى ماركس المؤسس الأول للمذهب الشيوعي أصله يهودي[٢] فمعارضة الشيوعية للدين وحربها القاسية تعود إلى النفسية اليهودية التي تسعى جاهدة إلى تحقيق استعلاء شعب الله المختار، واليهود قوم معروفون بالحقد والكراهية للأديان الأخرى، ومجبولون عى الطمع والجشع وحب المال والفساد، فهم ينتهزون كل فرصة لإفساد الناس وإبعادهم عن الدين القويم حتى يتمكنوا من تنفيذ مخططاتهم الرامية إلى هدم عقائد الناس وإفساد أخلاقهم، وبالتالي يسوسون الناس كما يريدون، والشيوعية من أهم الأسلحة التي استخدمها اليهود في مخططاتهم.

ثانيا: وجود نصرانية محرّفة على يد أباطرة ادَّعَوا حقَّ الآلهة، ومسخوا الربوبية، وخلطوا بين الخالق والمخلوق؛ فبيعت الجنة صكوكًا، وأعطيت القياصرة حق الآلهة بقوانين من الكنيسة، وكانت الكنيسة تقف وراء ظلم هؤلاء القياصرة وتعطيهم حق الآلهة مّما حَدا بالثورة أن تكفر بهذا الدين وبكل دين، وكان الأحرى بها أن تدرس بقية الأديان لا أن تشملها بحكم واحد.

والشيوعية بوصفها مذهبًا أو عقيدة تحلُّ محل الأديان القديمة، وتحتقرها وتناهضها بالدعوة إلى الإلحاد والمادية التي تنكر الله ـ تعالى ـ ورسوله، لذلك

(١) انظر: الإسلام في وجه الزحف الأحمر ص (١٠٧ وما بعدها).

(٢) انظر: ترجمة ماركس ص (٧٠٨) من بحثنا هذا.

شنت حملة فكرية على الأديان، فوصفوا الدين بأنه مخدر وأنه وهم، وأن المتدين رجعي متخلّف جاهل، والملحد تقدمي متحرر، يقول ماركس: «الدين زفرة الكائن المثقل بالألم، وروح عالم لم تبق فيه روح، وفكر عالم لم يبق فيه فكر، إنه أفيون الشعوب إذن فنقد الدين هو الخطوة الأولى لنقد هذا الوادي الغارق في الدموع»[١].

❊ ❊ ❊

(١) نقض أوهام المادية الجدلية، ص (٣٤) نقلاً عن الدفاتر الفلسفية، ص (٥٣ ـ ٥٧).

فطرية التوحيد

إنه مما لاشك فيه أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي خلق الكون والإنسان بحكمته، والذي أودع في فطرة الإنسان التدين والتوجه إليه بالعبادة لم يترك خلقه يعتمدون على أنفسهم، فكان من حكمته إرسال الرسل لتصحيح العبادة للناس، وقد ذهب كثير من العلماء ـ وبخاصة جمهور أهل السنة من المسلمين، والعقلاء من علماء أوروبا ـ إلى أن عقيدة التوحيد فطرية في النفوس، وأن الإنسان بفطرته عرف الإله الواحد وتعلق به وعبده، وأن الشرك والوثنية أمور عرضت للعقيدة وانحرافات طرأت عليها.

ومن جملة من يؤيد هذا الرأي من العلماء الغربيين لانج الذي أثبت عقيدة الإله الأكبر عند القبائل الهمجية في استراليا وأفريقيا وأمريكا، ومنهم شريدر الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة، وبروكلمان الذي أثبتها عند الساميين قبل الإسلام[1].

* * *

(١) انظر بتصرف: بين الدين والعلم، عبد الرزاق نوفل، القاهرة: مطابع الشعب، ص (٢٦).

مقالات وآراء لمجموعة من العلماء الأمريكيين عن اعتقادهم بوجود الله

يقول عالم الطبيعة روبرت بيبج[١] : «إذا أراد الإنسان أن يثبت من صحة المعلومات الغيبية التي يخبره بها شخص آخر فلابد أن يشترك في التجربة ويتهيأ لها حتى يستطيع أن يحكم عليها، وكذلك الحال فيما يتعلق بالإيمان بالله، فلابد أن يدرس الإنسان أولاً نوع العلاقات التي يمكن أن تكون بينه وبين خالقه، وما ينبغي أن تكون هذه العلاقات، فإذا درس الإنسان الشروط التي يلزم توافرها لقيام هذه العلاقة، واتجه بقلبه وكليته نحو تحقيق هذه الشروط، فإنه سوف يشاهد هذه الحقيقة كاملة، عندئذ يغمر الإيمان قلبه ويؤثر في حياته، ولا يدع في نفسه مجالاً للشك، وإذ ذاك يكون الله أقرب إليه من نفسه ويصير إيمانه يقينًا»[٢].

ويقول عالم الطبيعة الفيلسوف ميربت ستانلي كونجدن[٣] في بحث بعنوان (درس من شجرةالورد): «إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله ـ سبحانه ـ ويدل على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطرق الاستدلالية فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته، ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل المادية

---

(١) روبرت بيبج: حاصل على دكتوراه في العلوم من جامعة هاملين، كان أول من اكتشف الرادار في العالم سنة ١٩٢٧ يعمل في الوقت الحاضر مديرًا مساعدًا في معامل بحوث البحرية الأمريكية، سجل نحو سبعة وثلاثين بحثًا معظمها في الرادار.

(٢) انظر: الله يتجلى في عصر العلم، ص (٢١).

(٣) دكتوراه من جامعة بورتون، أستاذ سابق بكلية تزني بفلوريدا، عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية، أخصائي في علم النفس وفلسفة العلوم والبحوث الإنجيلية.

وحدها، ولكننا نرى آياته في أنفسنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته»[١].

ويقول المستشار الهندسي كلوردم هاثاواي[٢] في مقال له بعنوان (المبدع الأعظم): «إن هذا الكون ليس إلا كتلة تخضع لنظام معين، ولابد له إذن من سبب أول لا يخضع للقانون الثاني من قوانين الديناميكية الحرارية، ولابد أن يكون هذا المسبب الأول غير مادي في طبيعته، إنه هو الله اللطيف الخبير الذي لا تدركه الأبصار»[٣].

❊ ❊ ❊

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص (٢٦).

(٢) كلود هاثواي، حاصل على درجة الماجستير من جامعة كلورادو، مستشار هندسي بمعامل شركة جنرال إلكتريك، مصمم العقل الإلكتروني للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة لانجلي فيلد، أخصائي في آلات الكهربائية والطبيعة للقياس.

(٣) الله يتجلى في عصر العلم ص (٩٤ ـ ٩٧).

تكريم الله لبني آدم وإسجاد الملائكة له

لا شك أن الإنسان بما منحه الله من عقل وتفكير أفضل من كل المخلوقات في هذه الحياة، فالإنسان هو سيد هذه الأرض يستطيع بما وهبه الله من العقل والتفكير أن يفجّر ينابيعها ويستنبت أرضها، ويستخرج منها كل خيراتها.

ونظرة الإسلام إلى هذا الإنسان نظرة فيها الكثير من معاني التقدير والتكريم والاحترام لسببين:

أولهما: إن الإنسان خليفة الله في أرضه، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾[1] وقد أوجد الله هذه البسيطة وما عليها لعبادته ـ جل جلاله ـ كما قال: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾[2].

ثانيا: تكريم الله له بأمور لم تحصل لغيره من المخلوقات منها أمره ـ تعالى ـ للملائكة أن يسجدوا له، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ** ﴾[3] ومنها قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٠).

(٢) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١١).

(٤) سورة الإسراء: الآية (٧٠).

ولهذا التكريم مظاهر أذكرها إكمالاً للفائدة:

أولاً: تحرير عقله من عبادة المخلوق إلى عبادة الله، كما قال ـ جل شأنه ـ: ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ** ﴾ الآية[1].

ثانيًا: ومن مظاهر التكريم لهذا الإنسان إلغاء كل الفوارق بين الناس؛ فلا تكبر ولا استعلاء ولا تعاظم، ولا فرق بين أبيض وأسود، ولا فضل لعربي على عجمي، ولا لغني على فقير، ولا لشريف على وضيع؛ قال تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾[2].

ثالثًا: تكريمه ـ جل وعلا ـ لبني آدم بالعلم دون غيره من المخلوقات، قال تعالي: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾[3].

رابعًا: تسخير الله له هذا الكون بما عليه من جبال وبحار وأودية وقفار وفضاء وأفلاك، ولولا هذا التسخير لما استطاع أن يستخرج المعادن من الصخور واللآليء من قاع البحار.

وحين ننظر في تعاليم الإسلام نجدها تطبق مبدأ المساواة موضع التنفيذ فأمامَ القضاء يقف الحق وحده بجانب صاحب الحق، وفي مجال التوحيد عدم الخضوع لغير الله فيأمر الناس أن يتجهوا إليه وحده ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا**

---

(١) سورة النساء: الآية (٣٦).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٩٢).

(٣) سورة البقرة: الآيات (٣١ ـ ٣٣).

وأنتم تعلمون ﴾[١].

مدى الفرق الكبير الشاسع الذي عليه الإسلام في أصل خلق الإنسان وما عليه نظرية التطور :

مرَّ عليك في البحث السابق تكريم الله لبني آدم وإسجاد الملائكة له، ونظرة الإسلام إلى الإنسان، ومدى الحفاوة والتقدير والتكريم الذي حظي به الإنسان في ظل الإسلام، وأضيف إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **وإذْ قال ربُّك للْملائكة إنِّي خالقٌ بشرا مِّن صلْصال مِّنْ حمأ مَّسنُون (٢٨) فإذا سوَّيْتُهُ ونفخْتُ فيه من رُّوحي فقعُوا لهُ ساجدين (٢٩) فسجد الْملائكةُ كُلُّهُمْ أجْمعُون (٣٠) إلاَّ إبْليس أبىٰ أن يكُون مع السَّاجدين** ﴾[٢] واقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **لقدْ خلقْنا الإنسان في أحْسن تقْويمٍ** ﴾[٣] واقرأ قوله تعالى: ﴿ **يا أيُّها الإنسانُ ما غرَّك بربِّك الْكريم (٦) الَّذي خلقك فسوَّاك فعدلك (٧) في أيِّ صُورةٍ مَّا شاء ركَّبك** ﴾[٤].

فلقد تكاثر الإنسان من نسل أبيه آدم، وكان الخالق ـ جل وعلا ـ يحيطه بكل ما يضمن هدايته ورشده، فلم يتركه هملاً بل كان يبعث إليه بين الحين والآخر رسلاً من بني جنسه يُذكِّرونه بالسبب الأول لإيجاده على هذا الكون وأنه ما خُلق إلا ليعبد الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ **وما خلقْتُ الْجنَّ والإنس إلاَّ ليعْبُدُون (٥٦) ما أُريدُ منْهُم مِّن رِّزْقٍ وما أُريدُ أن يُطْعمُون** ﴾[٥] وقد تكفل الله له بالرزق كما أشار إلى ذلك قوله: ﴿ **وفي السَّماء رزْقُكُمْ وما توعدُون** ﴾[٦] وقوله:

---

(١) سورة البقرة: الآيتان (٢١، ٢٢).

(٢) سورة الحجر: الآيات من (٢٨) إلى (٣١).

(٣) سورة التين: الآية (٤).

(٤) سورة الانفطار: الآيات من (٦) إلى (٨).

(٥) سورة الذاريات: الآيات (٥٦، ٥٧).

(٦) سورة الذاريات: الآية (٢٢).

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[١].

بل تكفل الله بحفظه كما قال تعالى: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾[٢] الآية.

وانظر إلى رأي داروين - صاحب نظرية التطور في أصل الإنسان - وكيف وصل إلى ما وصل إليه اليوم، يقول داروين: لقد سارت الحياة في سلسلة طويلة من الرقي التدريجي بدأت بالكائن وحيد الخلية وانتهت بالإنسان على النحو التالي - باختصار كثير من التفصيلات -: كائن وحيد الخلية كالأميبا، ثم فطريات متعددة الخلايا، ثم نبات، ثم نبات يشبه الحيوان، ثم حيوان يشبه النبات، ثم حيوانات فقارية أرقى كالثدييات الدنيا والثدييات العليا، ثم القردة العليا والغوريلا الأورانج أو تانج، ثم إنسان الغاب والشمبانزي والجيبون، ثم الحلقة المفقودة، ثم القرد الشبيه بالإنسان أو الإنسان الشبيه بالقردة العليا، ثم الإنسان.

وقال داروين وهو يشرح نظريته: «إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق»[٣].

وأوجز الرد على نظرية داروين وما سبقها وما لحقها من نظريات التطور بما يلي:

أولاً: إن نظريات التطور تتعارض مع ما توصل إليه العلم الحديث[٤].

ثانيا: إن نظريات التطور تتنافى مع خبر السماء وما جاءت به السنة المطهرة. وقد أشرت إلى الآيات الكريمة التي مفادها أن الله كرّم بني آدم وخلقه في

---

(١) سورة الذاريات: الآية (٥٨).

(٢) سورة الرعد: الاية (١١).

(٣) مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص (٩٤).

(٤) وقد سبق توضيح ذلك. انظر: ص (٧٢٧) إلى (٧٣٣) من بحثنا هذا.

أحسن تقويم في صورة كريمة، وهي تختلف تمامًا على ما عليه الصور الحيوانية، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[١].

ثانيا: الجانب الاجتماعي:

المباديء التي تقوم عليها العلاقات بين أفراد المجتمع:

لقد اهتم الإسلام بالفرد فعمل على تربية نفسه وروحه تربية مثالية ليكون أهلاً لوصفه بالإنسانية، واهتم الإسلام بالأسرة أيضًا باعتبارها اللبنة الأولى في المجتمع، فأحاطها بكل الحقوق، ووفر لها أجمل مناخ لجعلها تعيش في أرغد عيش وأهنأ بال؛ ذلك لأنها نواة المجتمع السليم السعيد، ذلك المجتمع الذي يقوم على أسس متينة من الرحمة والتعاون والمحبة، وعلى قاعدة قوية في أداء الحقوق والواجبات والتوازن بين حقوق الفرد والجماعة في إطار ما رسمته العقيدة الإسلامية الراسخة[٢].

وقبل أن أبيِّن المباديء التي تقوم عليها العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامي فلعله من المفيد أن أذكّر القاريء الكريم أن الاجتماع الإنساني ضروري للفرد وهذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان، وطالما أن المجتمع ضروري للإنسان. فلابد أن يكون لهذا المجتمع نظام يتضمن الحدود التي يجب أن يقف عندها كل أفراد المجتمع، والضوابط العامة التي يجب أن يلتزموا بها في سلوكهم حتى يسلم

---

(١) سورة السجدة: الآيات (٧-٩).

(٢) الأمثلة كثيرة واستعراض بعضها دون البعض لا يؤدي الغرض، فالأخلاق وما ينطوي تحتها من مثل، وتشريعات حكيمة فيها سعادة المسلم من صلاة وصوم وزكاة وحج، والعقوبات الزاجرة التي فيها حفاظ على قيم المجتمع، واهتمام الإسلام بالأسرة وتنظيمها، وحقوق الزوجية وما يضمن استمرار الحياة العائلية والعواصف التي يمكن أن تهز الحياة الزوجية.

المجتمع من الصراعات التي تؤدي به إلى تدميره، وحتي يستطيعوا العيش في ظلاله في أمان واستقرار، وقبل أن أشرع في بيان أهم المبادئ التي تقوم عليها العلاقات بين أفراد المجتمع لابد أن أشير إلى ركيزتين أساسيتين يقوم عليهما المجتمع المسلم:

الركيزة الأولى:

هي وحدة الأصل: حيث ينتسب البشر جميعًا إلى أب واحد وأم واحدة، ولا يمكن حجب هذه الحقيقة باختلاف الناس بالأنساب والأجناس «**كلكم لآدم وآدم من تراب ...**» الحديث.

قال تعالى: ﴿ **يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلقْناكُم مِّن ذكرٍ وأُنثىٰ وجعلناكُمْ شُعُوبا وقبائل لتعارفُوا إنَّ أكْرمكُمْ عند اللَّه أتْقاكُمْ** ﴾[1] هكذا يقرر الإسلام وحده الأصل لكل الناس بحيث يمكن عن طريق وحدة العقيدة توجيه طاقاتهم لما يحقق النفع والخير لهم في الحياة الدنيا والآخرة.

الركيزة الثانية:

وحدة العقيدة: تلك الصلة التي تجعل البشر جميعًا عبادًا لله - عز وجل - قال تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أحدٌ** ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ **فإلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ فلهُ أسْلمُوا** ﴾[3] فهذه الآيات تقرر وحدة الإله، خالق السماوات والأرض وما بينهما، وإليه وحده يرد الأمر.

ومن هاتين الركيزتين تنبثق المباديء الإسلامية والغايات النبيلة والضوابط الحكيمة التي تصيغ المجتمع المسلم، وأكتفي هنا بالإشارة إلى جانبين يتميز بها المجتمع المسلم وهما: الإخاء، والتكافل.

(١) سورة الحجرات: الآية (١٣).

(٢) سورة الإخلاص: الآية (١).

(٣) سورة الحج: الآية (٣٤).

أولاً: رابطة الإخاء:

تعتبر رابطة الإخاء بين المسلمين من المبادئ الأساسية التي يقوم عليها المجتمع المسلم، فقد حض عليها الشارع الحكيم ودعا إليها، يقول جل شأنه: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[١] وفي الحديث: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره**»[٢] وتنبثق من رابطة الإخاء مظاهر، منها التودد، والتراحم، والتعاطف بين أفراد المجتمع، وقد شبه النبي ﷺ تلك المظاهر بقوله: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[٣].

ورابطة الإخاء تكاد تنعدم في المجتمعات المادية التي لا هَمَّ لها إلا جمع المادة حيث تثور الصراعات بين الطبقات، فالغني لا هم له إلا في السبل التي ينمي بها ثروته، والفقير لا يكاد يجد لقمة العيش والمجتمع بأكمله في غفلة عنه، والأكثر من ذلك أن رابطة التوادد والتراحم لم تنزع فقط من بين أفراد المجتمع بل من بين الأسرة نفسها؛ فالابن أو الفتاة إذا ما بلغت الثامنة عشرة أو أقل من ذلك فلا مكان لها في منزل أسرتها، والجد أو الجدة متى تقدما في السن وأصبح لا مورد لهما فإن مكانهما الطبيعي هو الملجأ الذي يجب أن يكون له مقر في كل مدينة وقرية في أوروبا.

حدثني صديق لي طبيب مسلم وهو يعمل في إحدى مستشفيات ألمانيا أنه جاءته سيدة طاعنة في السن تشكو من كسر في حوضها مما أعجزها عن المشي، وتم تقديم العلاج لها حتى تماثلت للشفاء وأصبحت تسير على قدميها، وقرر الطبيب المشرف على علاجها أن بإمكانها أن تذهب إلى منزلها، فاتصلت السيدة

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٠).

(٢) جزء من حديث طويل في صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٦) بترتيب/ محمد فؤاد عبد الباقي.

(٣) صحيح مسلم، بترتيب وتحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، (٤/ ١٩٩٩، ٢٠٠٠).

العجوز بابنتها التي كانت نادرًا ما تزورها تخبرها بالذي قرره الطبيب وأن عليها أن تأتي لكي تأخذها إلى منزلها فجاءت الابنة لأخذ أمها وهي تزف إليها هذا الخبر: يا أمي لقد هيّأنا لك غرفة في الملجأ لكي تقيمي فيها: وإذا بالعجوز تسقط من ألم هذا الخبر وتودع الحياة مفارقة لها دون رجعة!

ثانيًا: التكافل الاجتماعي:

من المباديء الأساسية التي يقوم عليها المجتمع المسلم مبدأ التكافل، والمقصود بالتكافل هو التعاون والتضامن بحيث لا تطغى مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة، ولا تضيع مصلحة الفرد في دوّامة المجتمع، بل يبقى للفرد كيانه ومميزاته ويكون للجماعة هيمنتها وسيطرتها، فيعيش الفرد في كفالة المجتمع كما تكون الجماعة متلاقية في مصالح الآحاد ودفع الضرر عنهم، ومن ثم فإن المجتمع الإسلامي لا يعترف بالنظام الطبقي ولا يعترف بصراع الطبقات وتناحرها بينما يقيم الماديون تفسيرهم للحياة البشرية على أساس أن الصراع الطبقي هو قوام هذه الحياة منذ خرج الناس من الشيوعية الأولى حتى يعودوا إلى الشيوعية الثانية[١] وأن هذا الصراع الطبقي متعلق بالملكية الفردية[٢] وبمجرد أن تزول الملكية الفردية يرجع الناس إلى الحياة الملائكية التي كانوا عليها أيام الشيوعية

---

(١) الشيوعية الأولى: يزعم التفسير المادي للتاريخ أن الشيوعية كانت هي الطور الأول للبشرية، وأنها كانت شيوعية شاملة وتشمل كل نواحي الحياة البشرية بما في ذلك الجنس؛ فكانت القبائل البشرية الأولى تعيش في حالة من المشاعية الجنسية الكاملة مع مشاعية الأرض ومشاعية الطعام والشراب والسلاح، أما مرادهم من الشيعوية الثانية فهي الفترة الزمنية التي أعقبت الطور الأول للبشرية حيث إن البشرية تعلمت الزراعة، حيث أدى ذلك إلى انتهاء الفترة الشيوعية الأولى ودخول البشرية في مرحلتي الرق والإقطاع. انظر: مذاهب فكرية معاصرة، ص (٣٣٥، ٣٦٢) للشيخ / محمد قطب.

(٢) الملكية الفردية: سأتناول الملكية الفردية في البحث القادم عند حديثي عن الجانب الاقتصادي. انظر: ص (٧٦٣) من بحثنا هذا.

الأولى وتستريح البشرية من الصراع[١].

«صحيحٌ ما يقولون ولكنها صحة محددة بنطاق معين وليست صحة مطلقة، صحيح بالنسبة للجاهليات ففي الجاهليات يصدق القول بأن الذي يملك هو الذي يحكم، وحين يحكم يُشرّع لصالح نفسه وصالح طبقته على حساب بقية الطبقات، ومن ثم ينشأ صراع الطبقات، ويدور صراع حول متاع الأرض، ولأنه في غياب القيم العليا لا يبقى للناس إلا متاع الأرض يتصارعون حوله ويتقاتلون عليه.

أما في النظام الرباني فليست هناك باديء ذي بدء طبقات، ومن ثَم لا يوجد صراع طبقي؛ حقيقة أنه توجد ملكية فردية ويوجد في المجتمع أغنياء وفقراء لكن لا الأغنياء طبقة ولا الفقراء طبقة، ولا هؤلاء ولا هؤلاء يحكمون.

فالثروة في المجتمع الإسلامي دائمة التنقل من جيل إلى جيل بحيث لا تكون طبقة دائمة من أفراد معينين أو أسر معينة تتوارث وضعًا اجتماعيًا معينًا، فأيّ فقير يمكن أن يتحول إلى غني، وأي غني يمكن أن يتحول إلى فقير، فلا يحجزه شيء عن أن يكون هذا أو ذاك، بحسب تصرفه الشخصي من ناحية، وبسبب حركة المواريث الدائمة التي تفتت الثروة من مكان تجمعها إلى مكان آخر، وحيث يشتد الظلم فيثور المسلمون.

ولقد حدث هذا أكثر من مرة في التاريخ الإسلامي، فهو ليس صراعًا طبقيًا بالمعنى الذي يشير إليه التفسير المادي للتاريخ لأنه لا توجد طبقة تريد الإطاحة بطبقة أخرى لتأخذ مكانها في السلطة التشريعية إنما يطالب الثائرون بالعدل، أي بتطبيق شريعة الله في المواضع التي خولفت فيها شريعة الله، وما أبعد هذا عن الصراع الطبقي كما يفهمه التفسير المادي للتاريخ، إنما يوجد الصراع في النظام الرباني على أسس مختلفة تمامًا عن الصراع الطبقي الذي هو محور الحياة في الجاهلية.

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، ص (٣٧١).

ما مفهوم الصراع في النظام الرباني؟

الصراع في المفهوم الرباني صراع لا علاقة له على الإطلاق بالطبقات ولا بالملكية الفردية إنما هو صراع الحق والباطل الذي يقول الله فيه: ﴿ **الَّذين آمنوا يُقاتلُون في سبيل الله والَّذين كفروا يُقاتلُون في سبيل الطَّاغُوت فقاتلُوا أُولياء الشَّيْطَان إنَّ كيْد الشَّيْطان كان ضعيفا** ﴾[1]»[2].

مفهوم الصراع عند أصحاب النظريات الحديثة والفرق الكبير بينه وبين النظام الرباني:

يترجم هذا المفهوم أحد الفلاسفة المحدثين ـ هيجل ـ:

لقد جعل النصر يبرر الحروب دون نظر إلى قيم إنسانية يراد نشرها أو منع ظلم لحَقَ بمظلوم بل يرى أن الخيرية تكمن في أن يغلب الإنسان غيره؛ فالغالب دائمًا خير من المغلوب، وهو بذلك لم ينظر إلى ما عند المغلوب من خير أو حق ولا إلى ما عند الغالب من شر، ولم يكتف بذلك بل جعل حكم الله وقضاءه هو ما قاله، أي: خيرية الغالب على المغلوب أيًا كان نعته: «إن التاريخ يظهرنا على أنه يوجد في كل عصر من عصوره دولة مهيأة لأن تتزعم سائر الدول وتفرض ما بلغت إليه من تقدم في الحضارة، هذه الدولة واجبها الفتح، وانتصارها يبرر حروبها، الدولة الغالبة خير من المغلوبة بدليل غلبتها نفسها التي يجب أن تعتبر حكم الله».

ويرى هيجل أن الجرمانية خير ممثل للحضارة المسيحية[3] وهذا يذكرنا بما ذاقته البشرية على يد النازية من دمار وإزهاق للأرواح ونكبات فادحة، وقد خاب ظنه حين ذهب إلى أن الحضارة المسيحية تعد الجرمانية خير ممثل لها،

---

(١) سورة النساء: الآية (٧٦).

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ/ محمد قطب، (ص ٣٧٢ـ ٣٧٤).

(٣) بتصرف واختصار من: تاريخ الفلسفة الحديث ليوسف كرم، ص (٢٧٢).

وبواسطتها سيتحقق النصر النهائي في التاريخ، فلم تنتصر الألمانية على العالم بل انهزمت شر هزيمة، لكن ما هي نظرة الإسلام إلى الحروب؟ هل هي موافقة لنظرة هيجل حيث يرى أن القوة والنصر مبرر ودافع لإحداث الحروب، وإنزال الويلات وما يصاحبها من القتل والسلب والنهب والدمار؟

كلا، إن نظرة الإسلام وتشريعاته الحكيمة تختلف اختلافًا كليًا عن نظرة هيجل وأضرابه، إن القتل والحروب في الإسلام لم تكن قط إلا في سبيل الله لإعلاء راية الإسلام، ولنشر دعوته والدفاع عن حزبه، والمحافظة على المسلمين عامة وبلادهم وممتلكاتهم من الطامعين في اغتصاب خيرات بلادهم، أو انتهاك مقدساتهم وأعراضهم، فهو دفاع عن العقيدة والشرف وإحقاق للحق وإبطال للباطل لا لمجرد كون المسلمين سينتصرون على مَن يقاتلونهم، أو أنهم أقوياء على مَن جاورهم، والإسلام لم يفرض على الناس أن يعتنقوه بالقوة كما قال تعالى: ﴿ **لا إكْراه في الدِّين قد تَّبيَّن الرُّشْدُ من الْغيِّ ...** ﴾[1] الآية. وإنما يكتفي من العالم بإتاحة الفرصة له ليختار مَن يختاره عن بينة، وألا يمنع دعاته من نشره بين العالمين وتعليمه لمن يشاء، وقد بين ﷺ دستور القتال في الإسلام، وهو بحق يعتبر منهجًا سديدًا على مر الأزمنة والدهور.

أخرج مسلم في صحيحه عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «**اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا**[2] **ولا تغدروا ولا تمثلوا**[3] **ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيتَ عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث - أو: خلال - فأيتهم ما أجابوك فاقبل منهم**

(١) سورة البقرة: الآية (٢٥٦).

(٢) لا تغلوا: أي لا تخونوا في الغنيمة.

(٣) لا تمثلوا: لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان ونحوهما.

وكفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ...»[1] الحديث.

ولقد حرم الإسلام محاربة غير المحاربين، وهو لا يُجيز قتل المرأة والصبي والشيخ والعجزة أو مَن انقطعوا للعبادة، فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**انطلقوا بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلاً صغيرا، ولا امرأة، ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا إن الله يحب المحسنين**»[2].

والحرب والجهاد في الإسلام لا يمتد إلى القتل الحيواني، أو تخريب البيوت، أو قطع الأشجار ما لم تكن هذه الوسائل لكسب المعركة كالحيوانات التي تساعد على القتل، أو الأشجار والبيوت التي تتخذ حصونًا ومعاقل.

ثالثا: الجانب الاقتصادي. الملكية الفردية وحق التملك:

المباديء التي يقوم عليها النظام الاقتصادي:

قبل أن أشرع ببيان المباديء الاقتصادية في النظام الإسلامي لابد أن أشير إلى أن الفرد الذي يعتبر قوام المجتمع الإسلامي مكون من جسم ونفس وقد أودع فيه خالقه ـ جل وعلا ـ غرائز طبيعية، وخصه بالعقل الذي يتميز به عن الحيوان،

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، (١٣/ ٣٧ـ٣٨ـ٣٩).

(٢) رواه أبو داود بسند صالح، (٢/ ٣٦).

والإسلام ـ كما سبق أن ذكرت ـ يعتبر شاملاً لسلوك الإنسان في جميع شئون الحياة، فلقد وازن بين القيم الروحية التي يجب على الإنسان أن يتحلى بها وبين غرائزه الطبيعية الأصلية، فلم يأمر بطغيان النواحي الروحية وإرهاق الجسم وحرمانه من طيبات الحياة على حساب الروح والعقل، كما لم يأمر بكبت الغرائز وعدم إروائها بالطريق الحلال الذي لا لوم فيه ولا تفريط، بل نراه يوازن بين المطالب الروحية ومطالب النزعات الإنسانية من شهوات الحياة، فيبيح التمتع بالطيبات مما تشتهيه النفوس والتزين من غير إسراف يخرج عن الاعتدال المشروع، يقول ـ تعالى ـ في السورة التي نحن بصدد دراستها سورة الأعراف: ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين (٣١) قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ **يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ...** ﴾[2] الآية.

وأكثر من ذلك أننا نرى الإسلام يمتن على الإنسان بما يتمتع به من أسباب النعم، قال تعالى: ﴿ **ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم (٧) والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون** ﴾[3].

والمتأمل في المنهج الذي سلكه الإسلام في صياغة الجانب الاقتصادي داخل المجتمع الإسلامي يجده بلا شك انقلابًا في المفاهيم والأوضاع الاقتصادية التي كانت سائدة فيه.

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٣١ ـ ٣٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

(٣) سورة النحل: الآيات من (٦) إلى (٨).

لقد حث الإسلام على العمل باعتباره إحدى الوسائل لتملك المال، وأجاز حق التملك جاعلاً الملكية وظيفة في المجتمع، ثم عمل في ذات الوقت على تحقيق التوزان المالي بين أفراد المجتمع حتى لا تتكدس الثروات في يد فئة دون أخرى، وفي كل ذلك كانت العدالة سمة بارزة فلم يطغ حق الفرد على الجماعة، ولم يطغ حق الجماعة على الفرد.

وسأكتفي بذكر ثلاثة مبادئ تعتبر في نظري هي أهم المباديء التي يقوم عليها النظام الاقتصادي.

١ ـ أولاً : حرية العمل.

٢ ـ ثانيًا : حق التملك.

٣ ـ ثالثًا : التوازن المالي بين أفراد المجتمع.

أولا: حرية العمل.

الإسلام حث على العمل بكافة أنواعه وصوره وأشكاله حيث إنه سبب من أسباب الحصول على الأموال وتملكها، فالزراعة والتجارة والصناعة والصيد كلها مجالات للعمل حث عليها الإسلام، قال تعالى: ﴿ **هُو الَّذي جعل لكُمُ الأرض ذَلُولا فامشُوا في مناكبها وكُلُوا من رزْقه وإليه النُّشُور** ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ **فإذا قُضيت الصَّلاةُ فانتشرُوا في الأرْض وابْتغُوا من فضْل الله واذْكُرُوا الله كثيرا لَعلَّكُمْ تُفْلحُون** ﴾[2].

والأنبياء وهم أصحاب السلوك الأمثل، وقد كُلِّفوا بتبليغ شرع الله للناس، ومع ذلك كانوا يعملون ويأكلون من كسب أيديهم، قال ﷺ: «**ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود ـ عليه السلام ـ**

(١) سورة الملك: الآية (١٥).

(٢) سورة الجمعة: الآية (١٠).

كان يأكل من عمل يده»[١] وقوله ﷺ: «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**»[٢].

فالإسلام ليس مجرد إقامة شعائر وإنما هو عبادة وعمل في نفس الوقت، والإسلام لم يميز بين عمل وآخر لأن قيمة الإنسان في نظر الإسلام بمقدار ما يتقن عمله، وفي الحديث: «**إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه**»[٣].

وحرية العمل في النظام الاقتصادي مكفولة، فكل فرد له الحق في اختيار العمل المناسب له، وله أن يباشر كافة أوجه النشاط الاقتصادي دون إكراه أو إجبار أو منع بشرط أن يكون هذا النشاط مأذونًا به شرعًا؛ فلا يجوز للمسلم أن يتخذ الربا عملاً لتنمية أمواله، ولا أن يتجر في الخمر ولا في الخنزير ولا الميسر وسائر ما حرمه الله ـ تعالى ـ وغير ذلك مما هو مبسوط في كتب الفقه وكتب السنة من البيوع المحرمة وسلوك الوسائل غير الشرعية للاسترزاق كالاحتكار، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة حددت ذلك وبينته، قال تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ**﴾[٤] فهذه الأشياء حرم أكلها وحرم الاتجار فيها، وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾[٥].

فقوله تعالى: ﴿**مِمَّا فِي الأَرْضِ**﴾ صريح في أن بعض ما فيها مأذون وأن

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب البيوع، (٥/ ٢٠٩).

(٢) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب الزكاة، (٤/ ٧٨).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(٤) سورة المائدة: الآية (٣).

(٥) سورة البقرة: الآية (١٦٨).

بعضه غير مأذون فيه، وأن المأذون فيه هو الحلال الطيب الذي أذن الله فيه ورسوله، وإذا وازنت بين العمل في النظام الإسلامي سترى أن العمل عند مَن لم يتخذ النظام الإسلامي منهجًا له في بعض المجتمعات مباح في كل شيء ولو ترتب عليه إضرار الفرد والجماعة[١] وأن المحرمات قُنِّن جوازها بقوانين تجعلها كالحلال سواء بسواء، بل لا يرى مَن أجاز ذلك فرقًا بين ما هو حلال وما هو حرام، وفي مجتمعات أخرى كالمجتمعات الاشتراكية يفرض على الناس الالتزام بعمل معين لا يتجاوزونه إلى غيره، فإن هم تجاوزوه كانوا تحت طائلة العقاب حتى ولو كان هذا العمل في نفسه طيبًا كريمًا وأراد به الفرد تنمية نفسه وزيادة دخله ونفع مجتمعه، وكلا الفريقين يشتركان في تجويز العمل في المحرمات ولا يرون في ذلك بأسًا.

ثانيًا: حق التملك:

مفهوم الملكية:

الملكية تفيد معنى الاحتواء والقدرة على الاستبداد بالشيء[٢] ويراد بها حق الفرد في احتواء شيء ما، وتمكينه من الانتفاع به بكل الطرق الجائزة شرعًا بحيث لا يجوز للغير الانتفاع بهذا الشيء إلا بموافقة المالك الأصلي[٣].

ولقد أقر الإسلام حق الملكية للفرد والجماعة على السواء، وتقريره حق الفرد في التملك أظهر من تقريره لحق الجماعة باعتبار أن ملك كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية هو في النهاية كأنه ملك لكل الأمة، وقد قرر الله هذا الحق لما أودعه في

---

(١) كالاتجار بالبغاء وعمل مراكز رسمية تشرف عليها الدولة كما هو الحال في معظم الدول الغربية.

(٢) انظر: ترتيب القاموس المحيط (٤/ ٢٥١).

(٣) أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع ـ القسم الثاني، إعداد/ محمد فاروق النبهان، الأستاذ بكلية الشريعة والحقوق بالكويت، ص (٢٩٧).

فطرة الإنسان من غريزة التملك والسعي إلى ذلك بفطرته، ومقاومة كل مَن وما يحول بينه وبين ذاك، وإنك لترى ذلك واضحًا في سلوك الأطفال أول ما يدركهم شيء من الوعي فترى الطفل يمسك الأشياء النافعة والضارة وإن قاومته احتج على ذلك بشدة صراخه، وكثرة عويله، وهذا منه توضيح لما جعله الله في فطرته وتكوينه؛ لأنه يفعل ذلك قبل أن يدري أن البيئة التي تحيط به تجيزه أو تمنعه، تحلّهُ أو تحرمه وهكذا تنمو هذه الغريزة، إلا أن الإسلام وإن أباح التملك فإنه قنّنه بقوانين حتى لا يطغى الفرد على المجتمع أو العكس، فهو لا يعترف لك بملك شيء إلا إذ وصلك عن طريق مشروع كالذي تكتسبه بجهودك وعملك، أو بما ورثته عن مورثيك الشرعيين إلى غير ذلك من أسباب التملك المختلفة في الإسلام كالهبة والهدية والوقف ونحو ذلك.

وقد صان الإسلام الملكية الفردية والجماعية أتم صيانة، فحرّم التعدي على أموال الفرد والجماعة بأي شكل من أشكال التعدي، قال تعالى: ﴿ **ولا تأكُلُوا أموالكُم بينكُم بالباطل وتُدلُوا بها إلى الحُكّام لتأكُلُوا فريقًا مَنْ أموال النّاس بالإثْم وأنتم تعلمُون** ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ **يا أيُّها الّذين آمنُوا لا تأكُلُوا أموالكُم بينكُم بالباطل إلاّ أن تكُون تجارة عن تراض منكُم ولا تقتُلُوا أنفُسكُم إنّ اللّه كان بكُم رحيما** ﴾[2] والمراد بالباطل في الآية الأخيرة المكاسب غير الشرعية كأنواع الربا والقمار وما جرى مجرى ذلك من سائر أصناف الحيل، وقد أحل الله التجارة وأذن للبائع أن يبيع بأكثر مما اشترى به لما في ذلك من منافع عظيمة للبائع والمشترى معًا ليس هنا مكان سردها.

وإذا عرفت أن المحرمات التي لها في الإسلام عقوبات دنيوية محصورة تبين لك عناية الإسلام بالملكية الفردية والجماعية، لذلك شرع قطع يد السارق

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٨٨).

(٢) سورة النساء: الآية (٢٩).

والسارقة فيما سرقاه إذا بلغ المسروق النصاب الشرعي إلى آخر الشروط التي يجب توفرها في السرقة لإقامة الحد، قال تعالى: ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم** ﴾[١].

وشرع أيضًا العقوبات الزاجرة لمن يقطع الطريق، قال تعالى: ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾[٢].

روى الشافعي في مسنده عن ابن عباس في شأن قطّاع الطريق، وهو تفسير للآية الكريمة السابقة أنه قال ـ رضي الله عنهما ـ: «إذا قتلوا وأخذوا المال قُتّلوا وصلّبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يُصلّبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالاً نفوا من الأرض»[٣].

وجهة نظر النظام الاشتراكي للملكية الفردية:

أولاً: القضاء على مظاهر الملكية الفردية كافة:

يرى النظام الشيوعي أن الملكية الفردية هي سبب كل الشرور التي حلت بالبشرية منذ خروجها من مرحلة الشيوعية الأولى إلى أن تعود الشيوعية الثانية فتلغيها وتلغي معها الشرور الناشئة عنها.

وينشأ الشر ـ من وجهة نظرهم ـ من أن الذي يملك هو الذي يحكم، وحين

---

(١) سورة المائدة: الآية (٣٨).

(٢) سورة المائدة: الآية (٣٣).

(٣) انظر: الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي للشيخ/ محمد أبو زهرة ـ قسم العقوبة القاهرة: دار الفكر، ص ١٥١.

يحكم فإنه يضع التشريعات التي تخدم مصالحه ومصالح طبقته على حساب بقية الطبقات[١].

وللرد على وجهتهم هذه: يحدث هذا الظلم في نظام الجاهليات التي تحكم بشرائع البشر ولا تحكم بشرائع الله.

ثانيا: ويرى النظام الشيوعي أن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية في النفس البشرية بدليل فترة الشيوعية الأولى التي لم تكن فيها ملكية فردية إنما هي أمر مكتسب اكتسبته البشرية بعد أن تعلمت الزراعة حيث أدى ذلك إلى انتهاء فترة الشيوعية الأولى ودخول البشرية في مرحلتي الرق والإقطاع، ثم لما تحولت الملكية من ملكية زراعية إلى ملكية صناعية رأسمالية دخلت البشرية مرحلة الرأسمالية، ويرون أن الصراع لا يزول من الأرض إلا بإزالة البشرية للملكية الفردية في جميع صورها.

وللرد على وجهتهم هذه نقول: أما رأيهم بأن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية في النفس البشرية، وأن الزراعة هي التي كانت السبب في نشأة الملكية الفردية فقول ساذج عار عن الصحة لا يقره البحث العلمي إنما الذي يناسب البحث العلمي أن نقول إنَّ الأرض كانت موجودة من قبل ولكنها لم تَستثر حاسة الملك عند الناس لأنه لم تكن هناك فائدة تتحقق من امتلاكها، وبمجرد ظهور الفائدة تحركت الحاسة التي كانت موجودة من قبل في حالة كمون، فنشطت وتحركت.

والخلاصة: أن الشيوعية الأولى - على فرض وجودها - ليست دليلاً على عدم وجود نزعة فطرية للتملك إنما هي دليل فقط على عدم وجود نشاط ظاهر لهذه النزعة في تلك الفترة لأنها نشطت بالفعل بمجرد وجود حوافز تستثيرها،

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة ص، (٣٧٢).

ويمكن لهذه النزعة أن تُهذَّب إلى درجة عالية جدًا توشك أن تحولها إلى نزعة جماعية كما صنع التهذيب الإسلامي بالأنصار حتى جعلهم يُؤْثرون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويقتسمون معهم كل ما يملكون من متاع الحياة الدنيا حتى قال الله فيهم: ﴿ **والَّذين تبوَّءُوا الدَّار والإيمان من قبلهم يُحبُّون من هاجر إليْهم ولا يجدُون في صُدُورهم حاجة مِمَّا أُوتُوا ويؤْثرُون علىٰ أنفُسهم ولو كَانَ بِهِمْ خصاصةٌ ومن يُوق شُحَّ نفْسه فأُولَئك هُمُ المُفْلحُون** ﴾[١].

ولكن هذا التهذيب لا يلغي النزعة الفطرية من أساسها إنما يرفعها إلى أنبل صورها مع الإبقاء على أصلها، ولو كان الله - جل وعلا - منزل هذا الدين الذي هذب النفوس إلى هذا الحد الرفيع يعلم - سبحانه وتعالى - أن إلغاءها بدلاً من إبقائها وتهذيبها أنفع للإنسان أو أنسب لطبيعته لشرع - سبحانه إلغاءها، ولكنا نجد التشريعات والنصوص كلها تؤكد وجودها في فطرة الإنسان[٢] قال تعالى: ﴿ **زُيِّن للنَّاس حُبُّ الشَّهوات من النِّساء والبنين والقناطير المُقنطرة من الذَّهب والْفضَّة والْخيْل الْمُسوَّمة والأنْعام والْحرْث ذلك متاعُ الْحياة الدُّنْيا واللَّهُ عندهُ حُسْن الْمآب** ﴾[٣].

أما زعمهم أن الصراع سيتوقف حين تزول الملكية الفردية، فنقول لهم: إن الشيوعية قد ألغت الملكية الفردية فلماذا تقوم المؤامرات الدائمة التي يعلن عن تصفيتها والتغلب عليها بين الحين والآخر أو تكون نتيجتها الإتيان بزعيم أخر بدلاً من الزعيم الهالك أو المدحور؟ وفي الصراع بين شقي المعسكر الشيوعي: روسيا والصين، أولَم تُلغَ الملكية الفردية؟ فلماذا إذن بقي الصراع؟[٤].

---

(١) سورة الحشر: الآية (٩).

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ/ محمد قطب، ص (٣٦٨، ٣٦٩).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٤).

(٤) انظر: مذاهب فكرية للشيخ/ محمد قطب ص، (٣٧٥).

ثالثا: التوازن المالي بين أفراد المجتمع:

من المباديء الاقتصادية التي يقوم عليها النظام الاقتصادي الإسلامي التوازن المالي بين أفراد المجتمع، وهذا التوازن لا يعني انتفاء التفاوت في الثراء بين أفراد المجتمع، فهذا مستحيل لقوله تعالى: ﴿ **أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون** ﴾[1] وإنما يعني التوازن في الإسلام أن يؤدي كل فرد من أفراد المجتمع العمل الذي يحسنه والذي يتلاءم مع جهوده، في حين أوجب الإسلام على الأغنياء حقوقا رتبها في أموالهم وجعل بعضها أمرا إلزاميا لا يستطيع الغني الفكاك منه بحال من الأحوال، فإن راودته نفسه على التهاون في ذلك الواجب بإنقاصه أو التخلي عن أدائه قام الإمام بمحاربته والضرب على يده حتى ينصاع لأمر الله، ومن هذه الواجبات التي رتبها الله - جل وعلا - في المال ما يلي:

أ - أداء الزكاة المستحقة في كل مال بلغ النصاب الشرعي وحال عليه الحول بالشروط المنصوص عليها في كتب الفقه في كل نوع من الأنواع التي فرض الله ورسوله ﷺ الزكاة فيها، وهذا الموضوع ليس من صميم البحث وإنما سقته كمثال على التوازن المالي بين أفراد المجتمع الإسلامي، وقد أمر الله - سبحانه - بأداء الزكاة في آيات كثيرة من كتاب الله العزيز، قال تعالى: ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير** ﴾[2] كما بيّن مصارفها فلم يترك تبيينها لأحد، فقال جل شأنه: ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** ﴾[3] فهؤلاء لهم حقوقهم

---

(١) سورة الزخرف: الآية (٣٢).

(٢) سورة البقرة: الآية (١١٠).

(٣) سورة التوبة: الآية (٦٠).

في أموال الزكاة وإذا كُفي هؤلاء الأصناف فلن يبقى في المجتمع مضطر ولا محتاج.

ب ـ ومن وسائل الإسلام في التوازن المالي بين أفراد المجتمع ذمه للبخل والبخلاء، وحضه على التصدق والإنفاق في سبيل الله، وإغراؤه على ذلك بوسائل مختلفة لا يسمح الموضع باستيعابها، وحسبي أن أذكر بعض الآيات التي تذم البخل وأهله، والتي يفهم منها أن هلاك المال وذهابه إنما هو بسبب بخلهم وشحهم، وأن أموالهم ستكون عليهم حسرة وندامة، قال تعالى: ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير** ﴾[1] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم (٣٤) يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾[3].

جـ ـ ومن وسائل الإسلام في التوازن المالي بين أفراد المجتمع ذمه للإسراف، فكما ذم الإسلام البخل ذم الإسراف الذي يؤدي إلى ضياع المال في غير وجوه النفع، وكلاهما يؤدي إلى سوء العاقبة، وتتولد عنهما في نفوس الفقراء الضيق والضجر والكراهية، قال ـ تعالى ـ يحذر من التبذير والإسراف: ﴿ **إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا** ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٨٠).

(٢) سورة التوبة: الآيتان (٣٤، ٣٥).

(٣) سورة محمد: الآية (٣٨).

(٤) سورة الإسراء: الآية (٢٧).

د ـ ومن وسائل التوازن المالي في الاقتصاد الإسلامي حضه على الصناعة وترغيبه فيها وجعلها مفخرة وذكرًا عظيمًا لبعض أنبياء الله كداود ـ عليه السلام ـ حيث يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿ **ولقد آتينا داوود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد (١٠) أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير** ﴾[١].

والمراد بقوله تعالى: ﴿ **أن اعمل سابغات** ﴾ أي: دروعًا واسعة تامة من السبوغ، وهو أول من اتخذها، وقد علّمه الله هذه الصنعة ليستغني وليأكل من عمل يده.

وقوله: ﴿ **وقدر في السرد** ﴾ أي: لا تجعل المسامير دقاقًا فتفلق ولا غلاظًا فتفصم الحلق، و ﴿ **السرد** ﴾ نسج الدرع[٢] وقوله ـ تعالى ـ في حقه أيضًا ـ عليه السلام ـ: ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾[٣].

وأيضًا كانت الصناعة مفخرة لابنه سليمان ـ عليه السلام ـ يقول جل شأنه: ﴿ **ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر** ﴾ أي: معدن النحاس، فالقطر هو النحاس وهو الصفر ﴿ **ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير (١٢) يعملون له ما يشاء من محاريب** ﴾ أي: مساجد أو مساكن ﴿ **وتماثيل** ﴾ أي: صور السباع والطيور، وكان التصوير حينئذ مباحًا ﴿ **وجفان** ﴾ جمع جفنة ﴿ **كالجواب** ﴾ جمع جابية وهي الحياض الكبار، قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل ﴿ **وقدور راسيات** ﴾ ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها، وقيل إنها باقية باليمن[٤] ﴿ **اعملوا آل**

---

(١) سورة سبأ: الآيتان (١٠، ١١).

(٢) انظر: تفسير النسفي (٣/ ٣١٩).

(٣) سورة الأنبياء: الآية (٨٠).

(٤) انظر: تفسير النسفي، (٣/ ٣٢٠).

داوُودَ شُكْرًا وقليلٌ مِّنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ ﴾[١].

هـ- ومنها حَضُّهُ على الزراعة والتجارة وتسخير الأموال في اكتشاف المعالم في البر والبحر وصنع كل ما يعود على الإنسان بالنفع مع تجنب الإجحاف على أصحاب الأموال من مصادرتها أو النيل منها بأخذ بعضها ما داموا يستخدمونها محكومين بمباديء الإسلام وشرائعه بأصليه العظيمين: الكتاب والسنة، وكذلك تجنب الإجحاف على العمال بإنقاصهم بعض أجورهم أو التسويف في أدائها إليهم أو استغلال حاجاتهم وضعفهم فيعطون الأجر الزهيد في العمل الكثير المضني.

هذه مباديء الإسلام وهذه شرائعه في التوازن المالي بين المسلمين، ولو طبقت تطبيقًا صحيحًا لعاش أفراد المجتمع في حب ووئام، إذ لكل إنسان متطلباته ومقدراته، وإنما دخل الخلل على المجتمعات الإسلامية باستغلال القوي للضعيف وحرص أصحاب الأعمال على إنجاز أكبر قدر منها بأزهد الأجور، وحرص العاملين على النيل من القادرين متى وجدوا السبيل إليه.

ومن هذا الباب دخلت علينا نظريات خُدعنا بها ووقعنا في شراكها كالتأمين وتحديد الملكية والاشتراكية وغير ذلك مما ولّد صراعًا بين طبقات المجتمع أدى إلى تخلخل كبير، وغرس الأحقاد والأضغان بين الناس حطّم قدرات مَن لهم قدرة على العمل والإنتاج، واضطرت المجتمعات الإسلامية إلى التعامل بالربا والوقوع فريسة في أيدي المحتكرين العالميين من الكفرة الذين يأخذون أموالنا ويردونها إلينا أسوأ رد مما لا يخفى على متأمل، ولو طبقنا الإسلام تطبيقًا صحيحًا وأخذنا الزكاة من الأغنياء ورددناها على الفقراء، وأنصفنا العامل من صاحب العمل وبالعكس، وأمّنا كل مسلم قادر على ماله، وأعطيناه حريته في استثماره كما يشاء محكومًا بالشرع لما وجدنا بيننا صراع، ولما كان لهذه المباديء الهدامة بيننا رواج، فالعيب فينا وفي تهالكنا على ما عند غيرنا مع أنه ظاهر الفساد، وتَرْك ما عندنا مع أنه صواب محض.

(١) سورة سبأ: الآية (١٣).

خلاصة ما جاء في الفصل الحادي عشر

١ ـ يظهر موقف الإسلام من الصراع في جوانب ثلاثة : الجانب العقائدي ـ والاجتماعي ـ والاقتصادي .

٢ ـ مما يتميز به المجتمع الإسلامي : رابطة الإخاء ـ والتكافل الاجتماعي .

٣ ـ من أهم مبادىء النظام الاقتصادي في الإسلام : حرية العمل ـ حَقُّ التملك ـ التوازن المالي بين أفراد المجتمع .

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني عشر

عاقبة الصراع

بين الحق والباطل

الفصل الثاني عشر

عاقبة الصراع بين الحق والباطل

في ضوء دراستي لدعوة الأنبياء مع أقوامهم ممن ذكرتهم سورة الأعراف بصفة خاصة ومن خلال تأملي وتفكري في سير الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وأتباعهم - رضي الله عنهم - وجهادهم الطويل من أجل نصرة الحق، وإعلاء كلمة الله، وعاقبة جهادهم مع أقوامهم، ولأجل تجلية عاقبة الصراع بين الحق والباطل رأيت أن أقسم هذا الفصل إلى مبحثين :

المبحث الأول : النصر محتم من عند الله للمؤمنين

المبحث الثاني : هذا النصر له وجوه متعددة

المبحث الأول
النصر محتم من عند الله للمؤمنين

إن النصر محتم من عند الله للفئة المؤمنة، ويوضح ذلك ما يلي:

أولاً: ثبوت الحق وانمحاق الباطل.

ثانيًا: انتصار الحق على الباطل وذلك بتأييد الله له، وجعل ذلك النصر حقًا عليه أوجبه على نفسه وكتبه عليه.

ثالثًا: حسرة أهل الباطل على ما أنفقوه في دنياهم على نصرة باطلهم.

رابعًا: استخلاف الله للمؤمنين به وبرسله، الثابتين على الحق، النابذين للباطل، العاملين للصالحات وتمكينهم في الأرض.

وإليك تفصيل ذلك:

أولاً: ثبوت الحق وانمحاق الباطل:

قال تعالى: ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾[1].

يخبر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة بأن الحق هو الثابت الباقي وأن الباطل هو الذاهب الممحوق، وقد ضرب الله - جل وعلا - مثالين في هذه الآية بيّن فيهما ثبات الحق وزوال الباطل.

(١) سورة الرعد: الآية (١٧).

أولهما : بقوله تعالى : ﴿ **أنزل من السماء ماء** ﴾ أي : من السحاب ، ونكَّرَ ﴿ **ماء** ﴾ لكثرته وانتشاره في جهات مختلفة ﴿ **فسالت أوْديةٌ** ﴾ والوادي : الطريق بين جبلين ، وهذه الأودية تحفظ الماء لينتفع منها كل مَن هو في حاجة إليه من الإنسان والحيوان والنبات ، كما قال تعالى : ﴿ **وجعلْنا من الْماء كُلَّ شيْءٍ حيٍّ أفلا يؤمنون** ﴾[1] ولذا قال : ﴿ **بقدرها** ﴾ أي : بالمقدور من الماء الذي يفي بحاجات من يرد هذه الأودية ليشرب منها ويسقي مواشيه ، ويزرع حولها ﴿ **فاحْتمل السَّيْلُ** ﴾ أثناء اندفاعه من أوديته زبدًا رابيًا ، ظاهرًا معتليًا وجه الماء ، والزبد هو الغثاء الذي يحمله السيل على وجه الماء ثم ما يلبث أن يزول وينمحي في وقت قليل ، وذلك بدفع الماء له على الشاطيء فيتلاشى ويضمحل ، والـ ﴿ **ماء** ﴾ كناية عن الحق الثابت الذي يسعف من يتمسك به ويحفظه من الزيغ والشبه ، و ﴿ **زبدًا رَّابيًا** ﴾ كناية عن الباطل الذي هو سريع الزوال ، والذي لا ينتفع منه المتمسك بشيء ما ، وهذا المثل يتلاءم مع الناس بعامة وأهل الزراعة خاصة .

ثانيهما : المثل الثاني في الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ **ومِمَّا يُوقِدُون عليْه في النَّار ابْتغاء حلْية أوْ متاعٍ زبدٌ مِّثْلُه** ﴾ وهذا المثل يتلاءم مع أهل الصناعات وسكان المدن الذين قلما تقع أبصارهم على الزبد الرابي فوق الماء .

ومعنى الآية الكريمة : ومما يوقد الناس عليه نيرانهم من الذهب والفضة تطويعًا لهما ليشكلوا منها ما يشاءون من الحلي التي يتحلون بها أو غيرهما من الحديد والنحاس والفلزات المختلفة ، ابتغاء المتاع والانتفاع بأشكال مختلفة لا تدخل تحت الحصر كصنع الأسلحة والمعدات الصناعية المختلفة وصنع الأواني المنزلية التي هي وسيلتنا لإنضاج الأطعمة وحفظها . . . إلخ لذلك كله زبدٌ كزبد الماء يطفو ويظهر على وجه تلك المعادن عندما يُحمى عليها وتصل إلى درجة الغليان ، فيظهر على وجه تلك المعادن زبد هو عبارة عن خبث وشوائب عالقة في

(١) سورة الأنبياء : الآية (٣٠) .

تلك المعادن، فيزيلها الصانع لتلك الحلي والمعادن لأن في بقائها تأثيرًا في جودتها، وتبقى المادة صافية خالصة يشكل منها الصانع ما يشاء من الحلي والمتاع، فالباطل مهما علا وظهر فهو مثل الزبد الذي يعلو يطفو على سطح تلك المعادن أثناء غليانها، وسرعان ما يقذف به الصانع خارج الوعاء دون الانتفاع به.

ولذا عقّب الله على هذين المثلين بنتيجة حتمية، قال تعالى: ﴿ **فأمَا الزَبدُ فيذْهبُ جُفاءً وأمَا ما ينفعُ النَاس فيمكُثُ في الأرض** ﴾.

﴿ **فأمَا الزَبدُ فيذْهبُ جُفاء** ﴾ أي: متلاشيًا، وهو ما يقذفه القدر عند الغليان والبحر عند الطغيان، والجفء: الرمي، وجفأت الرجل: صرعته.

﴿ **وأمَا ما ينفعُ النَاس** ﴾ من الماء والحلي والأواني ﴿ **فيمكُثُ في الأرض** ﴾ فيثبت الماء في العيون والآبار يُنتفع بها في سقي الحبوب والثمار . . . وتصفو الحلي والمعادن لينتفع بها في الزينة والتجارة وغيرها . . . ﴿ **كذلك يضرب اللهُ الأمْثال** ﴾ ليظهر الحق من الباطل[1].

ذلك مثل الحق والباطل، فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابيًا طافيًا ولكنه بعد زبد أو خبث ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحًا لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئًا ساكنًا وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أوضاع أو مات ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي، والمعدن الخالص ينتفع الناس به[2] وكذلك الشبهات والتمويهات الزائفة قد تقوى وتعظم إلا أنها في الآخر تبطل وتضمحل وتزول ويبقى الحق راسخًا لا يشوبه شيء من الشبهات، لأنه لا بقاء إلا للنافع، وما تصارع الحق والباطل إلا وفاز الحق بقرنه.

---

(١) بتصرف من تفسير النسفي (٢/ ٢٤٧).

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٨٥).

ثانيا: انتصار الحق على الباطل وذلك بتأييد الله له، وجعل ذلك النصر حقا أوجبه على نفسه وكتبه عليه:

قال تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾(١).

لقد تكفّل الله - سبحانه - في كتابه العزيز بنصر عباده المؤمنين الصادقين، وذلك من خلال تسخير أسباب النصر لهم وتيسيرها عليهم، وهذه الآية الكريمة صريحة في أن أهل الباطل لما كذبوا ما جاءهم من البينات على ألسنة الرسل تولى الله الانتقام منهم بذاته - جل وعلا - مع بيان سبب ذلك التشديد عليهم وهو إجرامهم ومعاندتهم لأهل الحق: ﴿ فانتقمنا من الذين أجرموا ﴾.

كما بينت هذه الآية أن نصر المؤمنين وهم حزب الله وخاصته حق عليه، أوجبه - جل وعلا - على نفسه تفضلاً وتكرمًا، فكلمة ﴿ حقًا ﴾ معناها هنا: واجبًا وفرضًا، والله لا يجب عليه شيء، والنصر ربما تأخر لكنه لابد أن يأتي لأنه وعد مقطوع به، مؤكد لا يقبل الخلف، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك؛ لقد حقق الله وعده فنصر عبده، وأعز جنده، وملّك المسلمين ما لم يكن يخطر لهم على بال، ملكهم ملك كسرى وقيصر، وفتح لهم البلاد، ودانت لهم رقاب العباد، وصاروا في عز مكين وجاه عظيم بعد أن كانوا في الذل والهوان مصداقًا لقوله - تقدست أسماؤه -: ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾(٢).

وما كان هذا العز والتمكين إلا تحقيقًا لوعد الله القاطع ﴿ وكان حقًا علينا نصر المؤمنين ﴾(٣) وقوله - تعالى -: ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن

---

(١) سورة الروم: الآية (٤٧).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٢٦).

(٣) سورة الروم: الآية (٤٧).

ذا الَّذي ينصرُكُم مِنْ بعْده وعلى الله فليتوكَّل المُؤمنون ﴾[١] هذه الآية الكريمة تعني أن الله إذا تكرم بنصره للمؤمنين فلن يغلبهم أحد مهما جمعوا من أسباب النصر، فليوالوه وليتوكلوا عليه، وليعملوا بما أمروا به ولينتهوا عما نهوا عنه، والخطاب في هذه الآية للمؤمنين سيما مَن ذاق منهم مرارة الهزيمة في غزوة أحد، والعبرة بعموم اللفظ فهي درس قويم للمؤمنين إلى يوم القيامة.

وقال ـ جل شأنه ـ: ﴿ **كتب اللهُ لأغلبنَّ أنا ورُسُلي إنَّ الله قويٌّ عزيزٌ** ﴾[٢]، هذه الآية تشير إلى أنه ـ جل وعلا ـ قد كتب نصرة الحق وأهله منذ الأزل في اللوح المحفوظ فلا يغير ولا يبدل، فالغلبة وإن تأخرت ستكون في النهاية لأهل الحق؛ يظهرهم الله وينصرهم على أهل الباطل مهما علوا في أمرهم، وقد أكد ـ جل وعلا ـ ذلك بنون التوكيد، وختم الآية الكريمة بقوله: ﴿ **إنَّ الله قويٌّ** ﴾ أي: على نصرة رسله وأوليائه، لا يعجزه شيء ﴿ **عزيزٌ** ﴾ أي: لا يقهر ولا يغلب، ولا يدفعه أحد عن مراده.

ثالثا: حسرة أهل الباطل على ما أنفقوه في دنياهم على نصرة باطلهم:

يجتهد أهل الباطل في نصرة باطلهم بكل الوسائل المتاحة لهم، فما من طريق لبثّ باطلهم إلى غيرهم إلا وسلكوه، ومن تلك السبل إنفاقهم الأموال الطائلة لنشر رذائلهم ومبادئهم وسمومهم ليصدوا عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿ **إنَّ الَّذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثُمَّ تكُونُ عليهم حسرة ثُمَّ يُغلبُون والَّذين كفروا إلىٰ جهنَّم يُحشرُون** ﴾[٣].

هذه الآية الكريمة نزلت في المطعمين يوم بدر من أهل مكة عندما خرجوا لمقاتلة المسلمين في بدر وكانوا اثني عشر رجلاً من كبار قريش، وقيل: نزلت في

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٦٠).

(٢) سورة المجادلة: الآية (٢١).

(٣) سورة الأنفال: الآية (٣٦).

أبي سفيان وإنفاقه المال على حرب رسول الله ﷺ يوم أحد وكان قد استأجر ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب وأنفق عليهم أربعين أوقية[١] والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقد بينت الآية الكريمة مقصدهم وهدفهم من ذلك الإنفاق ألا وهو صدهم عن سبيل الله، سيما صدهم عن اتباع رسول الله ﷺ والإيمان برسالته، وأخبر - جل وعلا - أن ذلك الإنفاق سيكون عليهم في النهاية حسرة وندامة، وسبب تلك الحسرة أنه يذهب المال ولا يتحقق مقصودهم بل يصيرون مغلوبين في آخر الأمر.

رابعا: استخلاف الله للمؤمنين به وبرسله، الثابتين على الحق، النابذين للباطل، العاملين للصالحات وتمكينهم في الأرض:

ومن عواقب الصراع بين الحق والباطل استخلاف الله - تعالى - للمؤمنين وذلك بعد حصول النصر كما وعد به - جل وعلا - بقوله: ﴿ **واذْكُرُوا إذْ أنتُمْ قَليلٌ مُستَضعفُون في الأرْض تخافُون أن يتخطَّفكُمُ النَّاسُ فآواكُمْ وأيَّدكُم بنصْره ورزقَكُم من الطَّيِّبات لعلَّكُمْ تشكُرُون** ﴾[٢].

وقد وعد الله - سبحانه - عباده المؤمنين بالنصر والاستخلاف والتمكين إذا أخلصوا في عبادتهم لله وحده، فقال جل شأنه: ﴿ **وعدَ اللَّهُ الَّذين آمنُوا منكُمْ وعملُوا الصَّالحات ليستخلفنَّهُمْ في الأرْض كما استخْلف الَّذين من قبْلهمْ وليُمكِّنَنَّ لهُمْ دينهُمُ الَّذي ارتضى لهُمْ وليُبدِّلنَّهُم من بعْد خوفهمْ أمْنا يعبُدُونني لا يُشْركُون بي شيْئا ومن كفر بعْد ذلك فأُولئك هُمُ الْفاسقُون** ﴾[٣].

قوله: ﴿ **وعد اللَّهُ الَّذين آمنُوا منكُمْ** ﴾ هذا وعد من الله لا يتخلف، والوعد إذا كان من المعهود منه الصدق والوفاء تستريح له القلوب، فما بالك إذا كان الوعد من الله - جل وعلا -.

---

(١) أسباب النزول للواحدي، تحقيق/ السيد صقر (٢٣٣، ٢٣٤).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٢٦).

(٣) سورة النور: الآية (٥٥).

وقوله: ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾ والاستخلاف ليس مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم إنما هو ذلك كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليفة أكرمها الله.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان[1].

* * *

(١) بتصرف من: في ظلال القرآن لسيد قطب (١٨/ ١١٨، ١١٩).

المبحث الثاني
تعدد وجوه النصر الإلهي للمؤمنين

إن المتمعن لسير الأنبياء والمرسلين عبر تاريخهم الطويل يتبين له أن النصر الذي وعد الله به الفئة المؤمنة كان يتجلى في عدة صور، وليس كما يتبادر لأول وهلة للذهن أن النصر دائمًا حافل بالنصر العسكري المادي، إن النصر في الفكر الإسلامي معناه الغلبة والظهور للدعوة الإسلامية لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فكل إعلاء لكلمة الله هو نصر لدين الله، وكل إحطاط من كلمة الكفر هو هزيمة للكفر وأهله، سواء تحقق ذلك بالصراع الفكري والعقدي بالحجة والبرهان، أو بإفشال مخططات العدو وكيدهم للنيل من الإسلام وأهله، أو بإنزال العقوبات الربانية لإهلاك طائفة من أهل الكفر، أو بالمواجهة العسكرية بين معسكر الإيمان والكفر، كل هذه وجوه للنصر لأن فيها إعلاءً لكلمة الله وإبطالاً لكلمة الكفر، وإعزازًا للحق وأهله وإذلالاً للباطل وأهله[(١)].

ويمكن أن نقسم وجوه النصر الإلهي للمؤمنين إلى أربعة وجوه:

الوجه الأول: النصر الفكري العقدي بالحجة والبرهان:

لقد أرسل الله رسله للناس مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وأيّدهم بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة والحكمة والموعظة الحسنة، وأيدهم - جل وعلا - أيضًا بالمعجزات الباهرة وقوة الصبر والتحمل

(١) انظر: أساليب النصر والهزيمة في الكتاب والسنة، رسالة ماجستير للزميل/ طالب أبو شعر، جامعة أم القرى ١٤٠٨هـ.

والترفق ولين الجانب، والأمثلة على النصر الفكري بالحجج والبراهين كثيرة في القرآن الكريم، وأذكر على سبيل المثال محاجّة نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ للنمرود[١] قال تعالى: ﴿ **ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾[٢].

الوجه الثاني: النصر بإنجاء المؤمنين من كيد الأعداء:

ما من نبي إلا ولاقى من قومه صدودًا وعنادًا وكيدًا، والله ـ جل وعلا ـ يؤيد أنبياءه بالنصر والحفظ والتمكين، وإليك بعض الأمثلة توضح ذلك:

قال ـ تعالى ـ حكاية عن قوم نبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذين ألقوه في النار ظنًا منهم أنها تحرقه بعد أن قيدوه وأحكموا وثاقه، فنصره الله، ورد كيدهم في نحورهم: ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين (٦٨) قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم (٦٩) وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** ﴾[٣].

وقال ـ تعالى ـ حكاية عن قوم لوط: ﴿ **ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين (٧٤) وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين** ﴾[٤].

---

(١) ملك بابل: نمرود بن كنعان، وقد أنكر أن يكون ثمّ إله غيره، وقد ذكر المفسرون والمؤرخون أنه استمر في ملكه أربعمائة سنة، وقد تمادى في كفره وطغيانه وتجبره، وقد دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له لكن جهله وطول أماله دفعاه إلى إنكار الخالق. انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١/ ١٤٨).

(٢) سورة البقر: الآية (٢٥٨).

(٣) سورة الأنبياء: الآيات من (٦٨) إلى (٧٠).

(٤) سورة الأنبياء: الآيتان (٧٤، ٧٥).

﴿ ونوحا إذ نادىٰ من قبلُ فاستجبنا لهُ فنجّيناهُ وأهلهُ من الكرب العظيم (٧٦) ونصرناهُ من القوم الّذين كذّبوا بآياتنا إنّهم كانوا قوم سوءٍ فأغرقناهُم أجمعين ﴾[١].

وكم لاقى نبينا ﷺ من الكيد والأذى، وقصة هجرته ﷺ واستخلافه عليًا - رضي الله عنه - على فراشه وخروجه من بيته وأعداؤه محاصروه مشهورة[٢] ومما نزل من القرآن في تربص المشركين به ومكرهم قوله تعالى: ﴿ وإذْ يمكُرُ بك الّذين كفروا ليُثبتوك أو يقتلُوك أو يُخرجُوك ويمكُرُون ويمكُرُ اللّهُ واللّهُ خيرُ الماكرين ﴾[٣].

ولم ينته الأمر بكيد المشركين فقط بل انضم إليهم بعد الهجرة المنافقون واليهود لكن الله قنّط أعداءه منه، وقرر أنه كتب عليهم الذلة والهزيمة وكتب لنفسه ولرسله الغلبة والتمكين، قال - تعالى -: ﴿ إنّ الّذين يُحادُّون اللّه ورسُولهُ أُولئك في الأذلّين (٢٠) كتب اللّهُ لأغلبنّ أنا ورُسُلي إنّ اللّه قويٌّ عزيزٌ ﴾[٤].

الوجه الثالث : نصر المؤمنين بإهلاك أعدائهم بالمهلكات الكونية :

ويعتبر هذا النصر من أشدّ أنواع النصر وضوحًا لسحقه للباطل والقضاء عليه، وهو سنة لله في الأمم السابقة التي طغت وتجبرت، وحادّت الله ورسله، وأمعنت في ضلالها وفسقها، ولم تستجب لنصح رسلها بل قابلوا ذلك بالعناد والتحدي، والسخرية والاستهزاء والإعجاب بقوتهم، قال تعالى: ﴿ وعادًا وثمُود وقد تبيّن لكُم من مَساكنهم وزيّن لهُم الشّيطانُ أعمالهُم فصدّهُم عن السّبيل وكانوا مستبصرين (٣٨) وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهُم مُوسىٰ بالبيّنات فاستكبرُوا في الأرض وما كانوا سابقين (٣٩) فكُلاًّ أخذنا بذنبه فمنهُم من أرسلنا عليه

(١) سورة الأنبياء: الآيتان (٧٦، ٧٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٢٣ - ١٢٧).

(٣) سورة الأنفال: الآية (٣٠).

(٤) سورة المجادلة: الآيتان (٢٠، ٢١).

حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(١).

وكانت الريح الشديدة الباردة سببًا في نصر المؤمنين يوم الأحزاب؛ أرسلها الله على أعدائهم فهدمت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، قال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾**(٢).

الوجه الرابع: النصر العسكري ويمكن أن نقسمه إلى قسمين:

أ ـ نصر مباشر:

وقد سطر التاريخ أمثلة رائعة للنصر العسكري المباشر للمسلمين وذلك يتجلى واضحًا في غزوة بدر وفتح مكة . . . إلخ.

ب ـ نصر غير مباشر:

وهي الغزوات التي كان ظاهر أمرها أن الباطل قد انتصر على الحق لكن ذلك انتصار للمسلمين بوجه غير مباشر، ومن الأمثلة على ذلك:

١ ـ غزوة أحد: التي انهزم المسلمون فيها على أرض المعركة، وكان ذلك انتصارًا لهم بوجه غير مباشر لأنهم انتصروا على أنفسهم بأن تعرى لهم الباطل وتبينوا أنهم إذا لم يطيعوا أوامر الرسول ﷺ أصابتهم الهزيمة وانقلب النصر الذي حصل لهم أولاً إلى أعدائهم؛ فقد خالف المسلمون توجيهات نبيهم في بداية وأثناء المعركة؛ وهي:

أ ـ مخالفة بعض المسلمين لنبيهم في بداية المعركة: وذلك أن رسول الله ﷺ كان من رأيه أن لا يخرج المسلمون لمقاتلة المشركين خارج المدينة بل يتحصن

(١) سورة العنكبوت: الآيات من (٣٨) إلى (٤٠).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٩).

المسلمون في داخل المدينة لإرغام قريش على مهاجمتها، وكان يهدف من وراء هذه الخطة إلى استخدام تكتيك حرب المدن والشوارع في مكان يعرفه المسلمون ويجهله المشركون، ويمكن للنساء المسلمات من المساهمة في المجهود الحربي مساهمة فعالة في حدود طاقتهن إضافة إلى إمكان المشاركة الفعلية في القتال برشق الحجارة من سطوح المنزل وإقامة المتاريس وسدادات الطرق في الشوارع[١].

وقد عبّر ﷺ عن رأيه بقوله: «**فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها**»[٢] ولكن بعضًا من الصحابة كانوا متحمسين للخروج ومقاتلة المشركين خارج المدينة، وكان على رأسهم حمزة بن عبد المطلب الذي قال لرسول الله ﷺ: «والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعامًا حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة» وأيد هذا الرأي عدد كبير من الصحابة الذين لم يكن لهم شرف الجهاد في معركة بدر[٣] وقد قال أحد الصحابة: «يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبْنًا عنهم وضعفنا».

فمخالفتهم لرأي الرسول ﷺ كانت درسًا تلقنه المسلمون وعرفوا أن ذلك سبب انهزامهم، ولكن كيف يصلون إلى ذلك لو لَم يحدث ما حدث؟

ب ـ مخالفة المسلمين لنبيهم في أثناء المعركة: وهي أن رسول الله ﷺ أمر خمسين من الصحابة على رأسهم عبد الله بن جبير بأن لا يبرحوا الجبل الذي يعلوا المعركة ـ جبل الرماة ـ وقال لهم: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا**

---

(١) انظر: الرسول العربي وفن الحرب للواء الركن/ مصطفى طلاس ص (١٥٤).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦٩).

(٣) انظر: الرسول العربي وفن الحرب للواء الركن/ مصطفى طلاس، ص (١٥٤، ١٥٥).

مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»[١].

وحصل ما حصل من مخالفتهم لرسول الله ﷺ عندما رأوا انهزام المشركين وإقبال إخوانهم الصحابة على جمع الغنائم فتركوا ذلك الموضع[٢].

فهذه المخالفات هي في الواقع كانت دروسًا عظيمة كشفت عن الباطل وعرّته، ولولا الهزيمة لما استطاعوا أن يفهموا حقيقة هذه الأمور.

٢ ـ غزوة حنين: وفيها كان عدد المسلمين عشرة آلاف مقاتل، وهذا العدد الكبير لم تبلغه غزوة قبل ذلك حتى قال أناس من المسلمين: «لن نغلب اليوم من قلة، وأعجبتهم كثرتهم»[٣] لكن كثرتهم لم تُغن عنهم من الله شيئًا فهزموا في أول المعركة، وفرَّ الكثير منهم، وكانت الهزيمة هنا نصرًا للمؤمنين على نفوسهم، فحين شاهدوا رسولهم ﷺ يتقدم في الصفوف لا يبالي بالسهام الموجهة إليه ويقول:

أنا النبي لا كذب　　أنا ابن عبد المطلب[٤]

واجتمع الناس بعد أن ناداهم عمه العباس: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السمرة[٥] فأجابوا: لبيك لبيك. والتفت المسلمون حول رسول الله ﷺ وأمدهم الله بجنوده من عنده، وحصل النصر وتمت هزيمة هوازن.

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب الجهاد (٦/ ٥٠٣).

(٢) انظر: المواهب اللدنية للإمام أحمد بن محمد القسطلاني، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ١/ ٩٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري، (١٠/ ٦٢، ٦٣)، وفتح الباري، (٩/ ٨٨).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، باب قوله تعالى: ﴿**إذ أعجبتكم كثرتكم**﴾، (٩/ ٨٩ ـ ٩١).

(٥) أصحاب السمرة: هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان، وأراد العباس أن يذكرهم ما بايعوا عليه يومئذ لأنهم بايعوا يومئذ أن لا يفروا. انظر: بهجة المحافل، (١/ ٤٢٠).

ونزل قوله تعالى: ﴿ لقد نصركُمُ اللَّهُ في مواطن كثيرة ويوم حُنين إذْ أعْجبتكُمْ كثرتُكُم فلم تغن عنكُم شيئا وضاقت عليكُمُ الأرْضُ بما رحُبت ثُمَّ ولَّيتُم مُدْبرين (٢٥) ثُمَّ أنزل اللَّهُ سكينته علىٰ رسُوله وعلى الْمُؤْمنين وأنزل جُنُودا لَّمْ تروْها وعذَّب الَّذين كفرُوا وذلك جزاءُ الْكافرين ﴾[1].

وقد تعلم المسلمون درسًا لا ينسونه أبدًا، تعلموا أنه لا ملجأ لهم من الله إلا إليه، وأن النصر من عند الله، وهذا هو النصر الحقيقي.

وصلى الله على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا ومولانا محمد، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وآلهم وصحبهم أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

(١) سورة التوبة: الآيتان (٢٥، ٢٦).

خلاصة ما جاء في الفصل الثاني عشر

١ ـ عاقبة الصراع بين الحق والباطل مهما طال أمده إنما هي النصر المحتم المحقق من عند الله ـ تعالى ـ للمؤمنين .

٢ ـ من علامات نصر الفئة المؤمنة ما يلي .

* ثبوت الحق وانمحاق الباطل .

* انتصار الحق على الباطل وذلك بتأييد الله له .

* حسرة أهل الباطل على ما أنفقوه في دنياهم لنصرة باطلهم .

* استخلاف الله للمؤمنين به وبرسله الثابتين على الحق النابذين للباطل .

٣ ـ النصر الإلهي للمؤمنين له عدة وجوه ، منها :

* النصر الفكري العقدي بالحجة والبرهان .

* النصر بإهلاك أعداء المؤمنين بالمهلكات الكونية .

* النصر العسكري ، وله قسمان :

ـ نصر مباشر كغزوة بدر وفتح مكة .

ـ ونصر غير مباشر ، كغزوة أحد ، وغزوة حنين .

* * *

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد أن أكرمني الله - عز وجل - بدراسة سورة الأعراف والتعرف على ما جاء فيها من صراع بين الحق والباطل يطيب لي أن أبين أهم النتائج التي تَوصَّلتُ إليها:

١ - أن مفهوم الصراع بين الحق والباطل هو: غلبة الحق على الباطل بالبراهين والحُجج التي لا تدع مجالاً لذي لب في ظهور الحق على الباطل، ومدافعته له بالشرائع الإلهية التي أنزلها الحق - جل وعلا - في كتبه على أنبيائه - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -.

٢ - الحق ما جاءت به الشرائع الإلهية ورضيه الله - سبحانه وتعالى - دينًا لعباده، وهو شامل للعقائد والأحكام على سواء وإن نفر منه أكثر الخلق، والباطل ما ذمه الله - تعالى - على لسان رسله وأنزل ذمه في كتبه، ولم يرضه دينًا لخلقه وإن جنح إليه أغلب الخلق وحرصوا على إعلائه على الحق.

٣ - أن الصراع الذي أمر المؤمنون بخوضه لنصرة الحق يتمثل في أمرين:

أولا: مجاهدتهم أنفسهم على الثبات على الحق وأن يظل الانتصار له قويًا في نفوسهم لا يضعف.

ثانيا: مجاهدة أعدائهم بالحُجة والبرهان، فإن عجزت الوسائل الإقناعية وظل طغاة الباطل يمنعون المسلمين من دعوة الحق أمكن حينئذ اللجوء إلى القوة لإزاحة الطغاة، وتأمين دعوة الله للناس وإقامة العدل والأمن والسلام، وذلك لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله.

٤ ـ أن أهل الباطل لهم وسائل خاصة بهم لنشر باطلهم، وهم يبذلون كل وسيلة متاحة لهم لنشر باطلهم مهما كلفهم الأمر، وأن الفواحش والمحرمات هما في مقدمة وسائلهم التي يتصيدون بها من أرادوا إضلاله.

٥ ـ أن غاية الصراع في الإسلام هي هداية البشرية وإسعادها وترغيبها في الخضوع لخالقها ـ عز وجل ـ وأن تعبده بما شرعه لها، وأن تنبذ العداوات ويسيطر الحب والإخاء على قلوب الناس.

٦ ـ أن غاية الصراع عند أعداء الحق هو تحطيم البشرية، وإضلالها عن الحق، وتجهيلها بربها ـ عز وجل ـ وتجهيلها بآخرتها دار القرار التي هي صائرة إليها لا محالة، وإفشاء العداوات والأحقاد والفتن.

٧ ـ أن سورة الأعراف كغيرها من السور المكية دعت إلى تثبيت الإيمان في النفوس، وحضت على التمسك به لأنه طريق السعادة، لذلك أمرنا الله ـ عز وجل ـ في الآية الثالثة[1] من هذه السورة أن نتبع ما أنزل إلينا من ربنا، مُجانبين أن نتبع من دونه أولياء هم وسيلة الشيطان إلى الإغواء، ثم بيَّن ـ تعالى ـ في ختام هذه الآية أن تلك الحقيقة بشقّيها تغيب عن كثير من الناس، وأن أغلب البشر في ذهول عنها، وأنهم لا يتذكرونها إلا تذكراً لا يوصلهم إلى المطلوب.

٨ ـ أن الإنسان بطبعه حريص على الاستكثار من عَرَض الدنيا، غيَر مُبال بما يضره منه وبما ينفعه، وأن صدقَ الإيمان ولزوم التقوى يحققَان للإنسان ما يبتغيه من كثرة الأشياء لديه، وأن الله سمى ما يؤتيه المؤمنين ﴿ **بركات** ﴾[2] فلا حدود لهذا الجمع، وغيرُ خاف أن البركة هي النماء والزيادة، فما بالها إذا كانت بركات

(١) قال تعالى: ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون** ﴾ سورة الأعراف: الآية (٣).

(٢) قال تعالى: ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾ سورة الأعراف: الآية (٩٦).

فتحها الله على أهل القرى لو آمنوا واتقَوا؟ ولكن أهل القرى أمعنوا في الكفر والتكذيب.

٩ ـ عداوة إبليس لبني آدم وتوعده بإضلالهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فهو لا يدع ولا يُقصِّر في وجه من الوجوه الممكنة البتة إلا سلكها، لذلك كله جاء التحذير لبني آدم من الشيطان ووسائله الخادعة، وأنه لا سبيل لدحره إلا بذكر الله، والإكثار من الاستعاذة منه، والتحصن بالمأثورات النبوية الواردة في هذا الشأن.

١٠ ـ التحذير من التساهل في كشف العورات لما يجر ذلك إلى الفواحش فإن كشف العورات أساس كل فتنة.

١١ ـ بينت خطورة المعاصي على بني آدم وأنها تجلب عليهم الشؤم وخسران الدنيا والآخرة.

١٢ ـ التحذير من سوء الأخلاق كالكيد والحسد والكذب والغرور . . إلخ.

١٣ ـ طول الفترة التي ظل نوح ـ عليه السلام ـ يدعو فيها قومه، والتي أخبرنا القرآن الكريم عنها عند قوله: ﴿ **فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاما** ﴾[1].

١٤ ـ اتهام الأقوام لأنبيائهم بالضلال أو السفاهة أو الكذب فيه درس عظيم للدعاة بأن يتحملوا كل إساءة أو إهانة، وحسبهم في ذلك ما لاقاه الرسل من أممهم، وما لاقاه رسول الله ﷺ من المشركين في مكة حيث وضعوا سلا الجزور على رأسه وهو يصلي حول الكعبة، وقذفوه بالحجارة حين ذهب إلى ثقيف لدعوتهم حتى سال دمه الزكي، واتهموه بالسحر والجنون . . . إلخ.

١٥ ـ أن الباطل وإن طال أمده زاهق، والحق مهما عُورض وحُجبَتْ أنوارُه فهو مزهر ثابت، ولا يضر الحق قلة أهله، ولا ينفع الباطل كثرة أعوانه.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (١٤).

١٦ ـ أن الله ـ عز وجل ـ وعد بنصر رسله والذين آمنوا، ووعدُ الله هو الحق، ولا تستطيع أية قوة مهما كانت أن تنقض هذا الوعد.

١٧ ـ أن من سنن الله ـ تعالى ـ في الأمم المكذبة أنهم إذا اقترحوا آية فأعطوها ثم لم يؤمنوا حل بهم عذاب الله ـ تعالى ـ[1] ولذلك لم تُجبْ قريش في ما اقترحت على سيد الخلق ﷺ أن الله ـ جل وعلا ـ لم يُرد إهلاك هذه الأمة ومعاملتها بما عومل به الأولون.

١٨ ـ بعض الناس قد يحدثون شرًا لا عهد للبشرية به من قبل فيبقى داء وبيلاً مهلكًا لكل مَن يتعاطاه من بعدهم فيدمره تدميرًا، يتضح ذلك من قبح فاحشة اللواط وخطورته على البشرية وما تمخض عنه في عصرنا من مرض الإيدز الذي أعجز العلماء في معاملهم وصيّر الأطباء حيارى أمام هذا الخطر الفتاك، قال تعالى: ﴿ **ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾[2].

١٩ ـ أن كثرة الأموال لدى أية أمة إذا لم تضبط بقواعد الشرع قادتها إلى المهلكة، وأن أولي الأموال الذين لا يُخضعون سلوكهم للشرع يستخدمون أموالهم في جلب الشرور والصد عن سبيل الله وإعجاز المصلحين عن إصلاح نفوسهم التي أفسدها الشَرَه فأصبحت حريصة على جمع المال دون مبالاة بسلامة الوسائل إلى ذلك، قال ـ تعالى ـ على لسان شعيب: ﴿ **فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين (٨٥) ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن**

---

(١) قال تعالى: ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٠).

به وتبغونها عوجا ... ﴾[١].

٢٠ ـ أن الباطل قد يسحر عيون الناس ببريقه الزائف لفترة من الزمن، ويستولي على أفئدتهم ومضة من الوقت حتى إنه لَيُخيّل لضعاف القلوب أنه غالب وحق، وهذا ما حدث لقوم فرعون عندما شاهدوا السحرة يلقون حبالهم وعصيهم وقد تحولت إلى حيات تسعى.

ولكن ما إن يواجه ذلك الباطل الزائف الحق الثابت الذي لا يتزعزع حتى يضمحل ويزول، وإذا بأتباع الباطل يصيبهم الذُعر والذل وهم يرون صروحهم تتهاوى وآمالهم تتداعى أمام نور الحق المبين، وإذا بتحدِّيهم الصريح وتطاولهم الأحمق يتحول إلى استسلام مهين وذل مشين.

٢١ ـ أن رسوخ الإيمان في نفوس أتباع الحق يجعل من أتباع الحق القدرة على تحمل جميع المشاق مهما كانت ولو أودت بحياتهم، وفي هذا الاستنتاج درس قويم للدعاة إلى الله، قال ـ تعالى ـ حكاية عن سحرة فرعون وهم يخاطبون فرعون الذي هددهم بتعذيبهم وصلبهم: ﴿ **فاقْضِ ما أنت قاضٍ إنَّما تقْضي هذه الْحياة الدُّنْيا ...** ﴾ الآية[٢].

٢٢ ـ تخاذل الباطل واضمحلاله أمام الحق، فأهل الباطل يتبجَّحون بباطلهم ما فقدوا الرادع القوي، فإذا رُدعوا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وكادت قلوبهم تبلغ الحناجر.

٢٣ ـ أسوأ ما يبتلى به الإنسان أن تتجارى به أهواؤه كما يتجارى الكلب بالجيفة، ولذا قال ـ سبحانه ـ في شأن ذلك الإسرائيلي بلعم بن باعوراء: ﴿ **واتْلُ عليْهِمْ نبأ الَّذي آتيْناهُ آياتنا فانسلخ منْها فأتْبعهُ الشَّيْطانُ فكان من الْغاوين (١٧٥) ولو**

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٥، ٨٦).

(٢) سورة طه: الآية (٧٢).

شئنا لرفعناهُ بها ولكنَّهُ أخلد إلى الأرض واتبع هواهُ﴾[1]، فعلى العاقل أن يلاحظ هواه، فإن كان تبعًا للكتاب والسنة متنه واجتهد في تمتينه، وإن كان على خلاف ذلك فليعلم أنه مريض بمرض عضال يحتاج في علاجه إلى بذل كل نفيس وغال حتى يرد إلى فطرته الصحيحة التي فطره الله عليها.

٢٤ ـ أن الله ـ جل وعلا ـ كتب نصرة الحق وأهله منذ الأزل في اللوح المحفوظ فلا يُغيَّرُ ولا يُبدَّلُ، فالغلبة وإن تأخرت ستكون لأهل الحق؛ يظهرُهم الله وينصرهم على أهل الباطل مهما علَوا في أمرهم.

٢٥ ـ أن النصر في الفكر الإسلامي ليس محصوراً بالنصر العسكري المادي فحسب بل إن مفهوم النصر في الفكر الإسلامي معناه الغلبة والظهور للدعوة الإسلامية لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فكلُّ إعلاء لكلمة الله هو نصرٌ لدين الله.

اللَّهمَّ انصر الإسلام والمسلمين، وأهلك الكفرة أعداء الدين؛ اللَّهمَّ إنك تعلم ما نزل بالمسلمين من الضعف والهوان، وتكالب الأعداء عليهم.

اللَّهمَّ، كلُّ مَن أراد الإسلام والمسلمين بسوء أو كيد أو إيذاء، فاجعل اللَّهمَّ كيده في نحره، وتدبيره تدميره وخذه أخذ عزيز مقتدر.

وكل من أراد الإسلام والمسلمين بخير وصلاح ونفع فوفقه لكل خير، وأيِّده بنصرك وتأييدك وحفظك، يارب العالمين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٧٥، ١٧٦).

الفهارس

فهرس المصادر والمراجع

(أ)

١ ـ **القزويني**، زكريا بن محمد بن محمود:

* آثار البلاد وأخبار العباد. (بيروت: دار بيروت، ١٣٩٩هـ).

٢ ـ أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع:

* من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ، (الرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ).

٣ ـ **الغزالي**، محمد بن محمد، (ت ٥٠٥هـ):

* إحياء علوم الدين. (القاهرة: مطبعة عيسى الحلبي، د. ت).

٤ ـ **الدمشقي**، ابن العباس أحمد بن يوسف أحمد الشهير بالقرماين، (ت ١٠١٩هـ).

* أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ. (بيروت: عالم الكتب).

٥ ـ **الأزرقي**، أبو الوليد محمد بن عبد الله:

* أخبار مكة المشرفة، تحقيق رشدي الصالح ملحس، (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة).

٦ ـ **الشوكاني**، محمد بن محمد:

* إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. الطبعة الأولى، (القاهرة: مصطفى الحلبي، ١٣٥٦هـ)، الباب الأول.

٧ـ **الواحدي**، أبو الحسن علي:

* أسباب نزول القرآن، تحقيق السعيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، (جدة: دار القبلة، ١٤٠٤هـ).

٨ـ **الغزالي**، الشيخ محمد:

* الإسلام في وجه الزحف الأحمر. الطبعة السادسة، (القاهرة: المختار الإسلامي للطباعة والنشر، ١٣٩٦هـ).

٩ـ **دارون**:

* أصل الأنواع.

١٠ـ **الشنقيطي**، محمد الأمين:

* أضواء البيان، (بيروت: مطبعة عالم الكتب).

١١ـ **الشافعي**، الإمام أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، (ت ٤٠٥هـ):

* أعلام النبوة. الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٣هـ).

١٢ـ **نخبة** من العلماء الأمريكيين:

* الله يتجلى في عصر العلم. ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، (بيروت: دار القلم).

١٣ـ **البار**، محمد علي:

* الأمراض الجنسية. (جدة: دار المنارة).

(ب)

١٤ـ **ابن كثير**، أبو الفداء إسماعيل:

* البداية والنهاية. الطبعة الثالثة، (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٨٠م).

١٥ ـ **البلخي**، أبو زيد أحمد بن سهيل، (ت ٣٠٢هـ):

* كتاب البدء والتاريخ، يباع عند الخواجة أرتشف كرو الصحفي بمدينة بايرز سنة ١٨٩٩م، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم محمد الرجب.

١٦ ـ **الزركشي**، بدر الدين محمد بن عبد الله.

* البرهان. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، (القاهرة: البابي الحلبي، ١٣٩١).

١٧ ـ **ابن يعقوب**، أبو الطاهر محمد، (ت: ٨١٧ هـ):

* بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق عبد العليم الطحاوي، (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية).

١٨ ـ **طنطاوي**، محمد سيد:

* بنو إسرائيل في القرآن والسنة. الطبعة الأولى، (القاهرة: دار حراء، ١٣٨٨هـ).

١٩ ـ **العامري**، عماد الدين يحيى بن أبي بكر:

* بهجة المحافل وبغية الأماثل. (المدينة المنورة: المكتبة العلمية).

٢٠ ـ **نوفل**، عبد الرزاق:

* بين الدين والعلم، القاهرة.

(ت)

٢١ ـ **الزبيدي الحنفي**، الإمام محب الدين أبي الفياض السيد محمد مرتضى الحسيني الوسطي، ت (١٢٠٥هـ).

* تاج العروس. الطبعة الأولى، (القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٦هـ).

٢٢ ـ **النجار**، محمد الطيب:

* تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية. (الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ).

٢٣ ـ **الطبري**، أبوجعفر محمد بن جرير، ت (٣١٠هـ):

* تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، (بيروت: دار سويدان).

٢٤ ـ **كرم**، يوسف:

* تاريخ الفلسفة الحديثة، (القاهرة: دار المعارف).

٢٥ ـ **ابن عبد السلام**، أبو محمد عبد العزيز:

* ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام. تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي، (بيروت: مكتبة المنار).

٢٦ ـ **الكلبي**، محمد ين أحمد بن جزي:

* التسهيل لعلوم التنزيل. (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ).

٢٧ ـ **زينو**، حسن:

* التطور والإنسان.

٢٨ ـ **الحميدي**، عبد العزيز:

* تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة. (مكة المكرمة مركز البحث العلمي، بجامعة أم القرى).

٢٩ ـ **الملا**، حمد بن أبي بكر:

* تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق، أحمد بن أبي بكر الملا، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى.

٣٠ـ **ابن كثير**، أبو الفداء إسماعيل، (ت: ٧٧٤):

* تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار الفكر).

٣١ـ **العمادي**، أبو العسود محمد بن محمد، (ت٩٥١هـ):

* إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، المعروف بتفسير أبي السعود، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٣٢ـ **الألوسي**، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود، (ت: ١٢٧٠هـ):

* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المعروف بتفسير الألوسي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٣٣ـ **الأندلسي**، أبو حيان بن محمد بن يوسف، (ت: ٧٤٩):

* تفسير البحر المحيط، (بيروت: دار الفكر).

٣٤ـ **البقاعي**، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم، (ت: ٨٨٥هـ):

* نظم الدر في تناسب الآيات والسور، والمعروف بتفسير البقاعي.

٣٥ـ **البيضاوي**، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشافعي، (ت: ٦٨٥هـ):

* أنوار التنزيل وأسرار التأويل، والمعروف بتفسير البيضاوي، (بيروت: مؤسسة شعبان).

٣٦ـ **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت: ٩١١هـ):

وجلال الدين محمد بن أحمد المحلي، (ت: ٨٦٤هـ).

* القرآن الكريم وبهامشه التفسير المعروف (تفسير الجلالين)، (القاهرة: المكتبة الشعبية).

٣٧ـ **العجيلي**، سليمان بن عمر:

* تفسير الجمل (الفتوحات الإلهية)، (القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٢٠٤هـ).

٣٨ـ **البغدادي**، علاء الدين بن محمد بن إبراهيم الشهرياني: (ت: ٧٢٥هـ).

* تفسير الخازان، وبهامشه تفسير البغوي المعروف بمعالم التنزيل، لأبي محمد الحسيني بن مسعود الفراء البغوي (ت: ١٥١٦): الطبعة الثانية، (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م).

٣٩ـ **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن، (ت: ٩١١هـ):

* تفسير الدر المنثور في التفسير المأثور. الطبعة الثانية، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ).

٤٠ـ **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت: ٣١٠هـ):

* تفسير القاسمي (محاسن التأويل) تعليق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر).

٤٢ـ **القرطبي**، أبو عبد الله محمد أحمد، (ت: ٦٧١هـ):

* تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٤٣ـ **فخر الدين الرازي**، أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين:

* التفسير الكبير، (طهران: دار الكتب العلمية).

٤٤ـ **الزمخشري**، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، (ت: ٥٣٨هـ):

* تفسير الكشّاف (حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل). الطبعة الأولى، (بيروت: دار الفكر، ٣٩٧هـ).

٤٥ـ **عبده**، محمد (ت: ١٣٢٣هـ)، ورضا، محمد رشيد، (ت: ١٣٥٤):

* تفسير المنار، تفسير القرآن الكريم، الطبعة الأولى، (القاهرة: مطبعة المنار ١٣٤٦ هـ).

٤٦ ـ **البهي**، محمد:

* التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. تفسير سورة الأعراف: الطبعة الثانية، (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٠هـ).

٤٧ ـ **النسفي**، أبو البركات عبد الله بن أحمد:

* تفسير النسفي. (بيروت: دار الكتاب العربي).

٤٨ ـ **النيسابوري**، :

* غرائب القرآن ورغائب الفرقان. تحقيق إبراهيم عطوة عوض، الطبعة الأولى، (القاهرة: البابي الحلبي، ١٣٨١هـ).

٤٩ ـ **طنطاوي**، محمد سيد، الكومي، أحمد:

* تفسير سورة الأعراف. (القاهرة: دار الجيل، ١٣٩٢هـ).

٥٠ ـ **العسقلاني**، ابن حجر:

* تقريب التهذيب، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٩٧٥م).

٥١ ـ **إسماعيل**، عماد الدين، صاحب حماة، (ت: ٧٣٢هـ):

* تقويم البلدان، (باريس: الطباعة السلطانية، ١٨٣٠م).

٥٢ ـ **العسقلاني**، ابن حجر:

* تهذيب التهذيب. الطبعة الأولى، الهند، ١٣٢٧هـ، تصوير، (بيروت: دار إحياء، ١٩٦٨م).

٥٣ ـ **الأزهري**، أبو منصور محمد بن أحمد:

* تهذيب اللغة. (القاهرة الدار العربية للتأليف والترجمة).

٥٤ ـ **النجري**، محمد أمين بن محمود، (ت: ٩٨٧):

* تيسير التحرير على كتاب التحرير. (مصر: البابي الحلبي، ١٣٥٠هـ).

(ج)

٥٥ ـ **أبو زهرة**، محمد:

* الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي. (القاهرة، دار الفكر).

(ح)

٥٦ ـ **ابن القيم الجوزية**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، (ت: ٧٥١هـ):

* حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح. (بيروت: دار الندوة الجديدة).

٥٧ ـ **الشبياني**، ابن الديبع:

* حدائق الأنوار ومطلع الأسرار. تحقيق عبد الله الأنصاري.

(خ)

٥٨ ـ **أبو العلا**، عادل محمد صالح:

* خصائص السور المدنية ومقاصدها. رسالة ماجستير مكة المكرمة: (جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ).

(د)

٥٩ ـ **وجدي**، محمد فريد:

* دائرة معارف القرن العشرين. (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ).

(ر)

٦٠ ـ **طلاس**، مصطفى:

* الرسول العربي وفن الحرب. (دمشق: مطابع الإدارة السياسية).

(ز)

٦١ ـ **ابن الجوزي**، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي، (ت: ٥٩٧هـ):

* زاد المسير في علم التفسير. الطبعة الثالثة، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ).

(س)

٦٢ ـ **المغيري**، أبو علي زين الدين علي المغيري:

* سراج القلوب وعلاج الذنوب، على هامش قوت القلوب لأبي طالب الملكي.

٦٣ ـ **ابن ماجه القزويني**، أبو عبد الله محمد بن يزيد، (ت: ٢٧٥هـ):

* سنن ابن ماجه. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: عيسى البابي الحلبي).

٦٤ ـ **أبو داور السجستاني**، سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي:

* سنن أبي داود. (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧١هـ).

٦٥ ـ **الترمذي**، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة:

* سنن الترمذي. تحقيق محمد شاكر وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٦٦ ـ **ابن هشام**، أبو محمد بن عبد الملك، (ت: ٢١٨):

* سيرة ابن هشام. تحقيق مصطفى السقا وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٦٧ ـ .....،

* سيرة الحلبي. إنسان العيون في سيرة المأمون، (مكة: دار الباز، ١٤٠٠هـ).

٦٨ ـ **أبو شهبة**، محمد:

* السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة. (القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ١٣٩٠هـ).

٦٩ ـ **الندوي**، أبو الحسن على الحسيني:

* السيرة النبوية، الطبعة الأولى، (جدة: دار الشروق، ١٣٩٩هـ).

(ش)

٧٠ ـ **ابن أبي المعز**:

* شرح العقيدة الطحاوية. حققها جماعة من العلماء، الطبعة الرابعة، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ).

٧١ ـ . . . . . :

* المحلي على جمع الجوامع، بحاشية البناني، (القاهرة: مصطفى الحلبي).

٧٢ ـ **البيهقي**، أبو بكر أحمد بن الحسيني عل، (ت: ٤٥٨هـ):

* شعب الإيمان.

(ص)

٧٣ ـ **الصاوي**، (ت: ١٢٤١):

* الصاوي علي الجلالين على تفسير الجلالين. (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية لأصحابها البابي الحلي.

٧٤ ـ **العيني**، بدر الدين بن محمد:

* شرح صحيح البخاري مع شرح عمدة القارئ، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٧٥ـ **العسقلاني**، أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر:

* صحيح البخاري مع شرح فتح الباري. (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٨هـ).

٧٦ـ الإمام مسلم:

* صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار إحياء التراث).

(ظ)

٧٧ـ **قطب**، سيد:

* في ظلال القرآن الطبعة السابعة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩١هـ).

(ع)

٧٨ـ **سويدان**، عبد الحليم:

* علم الحياة الحيوانية.

٧٩ـ **البوطي**، محمد سعيد رمضان:

* العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر. (دمشق، جامعة دمشق).

(ف)

٨٠ـ **الشيباني**، الإمام أحمد بن حنبل:

* الفتح الرباني لترتيب مسند ابن حنبل، تحقيق أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي، (القاهرة: دار الحديث).

٨١ـ **الشوكاني**، محمد بن علي بن محمد، (ت: ١٢٥٠هـ):

* فتح القدير. (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٣هـ).

٨٢ـ **الديلمي**، أبو الشجاع شيرويه:

* الفردوس بمأثور الخطاب. تحقيق السعيد بن بسيوني، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ).

٨٣ـ **الظاهري**، ابن حزم الأندلسي:

* الفصل في الملل والنحل، وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني.

(ق)

٨٤ـ **الصابوني**، محمد علي:

* قبس من نور القرآن الكريم. الطبعة الأولى، (دمشق: دار القلم، ١٤٠٧هـ).

٨٥ـ **ابن كثير**، أبو الفداء إسماعيل، (ت: ٧٧٤هـ):

* قصص الأنبياء. تحقيق عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الثانية، (بيروت: المكتبة الإسلامية، ١٤٠٢هـ).

٨٦ـ **بليخانوف**:

* القضايا الأساسية في الماركسية.

(ك)

٨٧ـ ابن حنبل الإمام أحمد:

* كتاب السُنة، تحقيق محمد بن سعيد القحطاني، (الدمام: دار ابن القيم).

٨٨ـ الميداني، عبد الرحمن حبنكة:

* كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، الطبعة الأولى، (دمشق: دار القلم، ١٤٠٥هـ).

(ل)

٨٩ـ **ابن منظور الأفريقي**، أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم:

* لسان العرب. (بيروت: دار صادر).

٩٠ـ **(جمع) محمد فؤاد عبد الباقي**:

* اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان. (الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٣٩٧هـ).

٩١ـ **رسالة ماجستير**، مقدمة لجامعة أم القرى بعنوان: (لوط عليه السلام) على ضوء الكتاب والسنة:

(م)

٩٢ـ **ابن تيمية**، ابن العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت: ٧٢٨هـ):

* مجموع فتاوى ابن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد القاسم العاصبي، (الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ).

٩٣ـ **قطب**، محمد:

* مذاهب فكرية معاصرة، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار الشرزوف، ١٤٠٧هـ).

٩٤ـ **البغدادي**، صفي الدين عبد المؤمن، (ت: ٧٣٩هـ):

* مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع. تحقيق محمد علي البجاوي، الطبعةالأولى، (القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٣هـ).

٩٥ـ **النيسابوري**، أبو عبد الله الحاكم، (ت: ٤٠٥هـ):

* المستدرك على الصحيحين. (بيروت: دار الكتاب العربي).

٩٦ ـ **الشيباني**، الإمام أحمد بن حنبل:

* مسند الإمام أحمد بن حنبل، (بيروت: دار صادر).

٩٧ ـ **الديلمي**، عبد الوهاب:

* معالم الدعوة، (جدة: دار المجتمع).

٩٨ ـ **إشراف**، مجموعة من الباحثين بمجمع اللغة العربية:

* المعجم الوسيط. الطبعة الثانية، (القاهرة: دار المعارف، ١٣٩٣هـ).

٩٩ ـ **الأصفهاني**، ابن القاسم الحسين بن محمد الراغب، (ت: ٥٠٢هـ):

* المفردات في غريب القرآن. تحقيق سيد كيلاني، (بيروت: دار المعرفة).

١٠٠ ـ **السخاوي**، أبو الخير محمد بن عبر الرحمن:

* المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة.

١٠١ ـ **الزرقاني**، محمد عبد العظيم:

* مناهل العرفان. الطبعة الثالثة، (القاهرة: البابي الحلبي).

١٠٢ ـ **الهيثمي**، نور الدين:

* موارد الظمآن على زوائد ابن حبان. تحقيق عبد الرازق حمزة، (بيروت: دار الكتب العلمية).

١٠٣ ـ **الأبجي الشافعي**، عضد الدين الأيجي معيني الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني، شرح للشريف الجرجاني (ت: ٩٠٥ هـ):

١٠٤ ـ **القسطلاني**، أحمد بن محمد:

* المواهب اللدنية. (بيروت: دار الكتب العلمية).

١٠٥ ـ **يودستنيك وياخوت**:

* الموجز في المادية الديالكيتكية.

١٠٦ ـ **الطويشة**، أحمد:

* موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ. (مكة المكرمة: دار مكة، ١٤٠٢هـ).

(ن)

١٠٧ ـ **رسالة ماجستير**، مقدمة لجامعة أم القرى، للصادق المنا محمد بعنوان: (نبي الله شعيب على الكتاب والسنة).

١٠٨ ـ **البوطي**، محمد سعيد رمضان:

* نقض أوهام المادية الجدلية: الطبعة الثانية، (دمشق: دار القلم، ١٣٩٩هـ).

١٠٩ ـ **التويري**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت: ٧٣٣هـ):

* نهاية الأرب في فنون الأدب. (القاهرة: دار الكتب).

بالإضافة إلى غير ذلك من مراجع تم الاستعانة بها

* * *

فهرس الأعلام المسلمين المترجم لهم

١ ـ الحسين بن محمد بن المفضل أبي القاسم الأصفهاني (١٨).
٢ ـ أبو الحسن بن بطال، علي بن خلف البكري (ص ١١٨).
٣ ـ صالح بن عبيد بن أسيف عليه السلام (ص ٢٩٤).
٤ ـ عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن خليل القاضي، أبو الحسن (ص ٩٢).
٥ ـ عز الدين أبو محمد عبد العزيز عبد السلام (ص ٤٩٠).
٦ ـ علي بن الحسين بن واقد (ص ٦٠٨).
٧ ـ لاحق بن حميد سعيد السدوسي البصري، أبو مجلز (ص ٦١).
٨ ـ موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ (ص ٤١٣).
٩ ـ نوح بن لامك ـ عليه السلام ـ (ص ٢١٧).
١٠ ـ هارون الرشيد (ص ٦٠٨).
١١ ـ هود بن شالخ بن فخشد ـ عليه السلام ـ (ص ٢٥٥).
١٢ ـ يوشع بن نون (ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨).

* * *

فهرس الأعلام غير العرب المترجم لهم

١ ـ تشارلز داروين (ص ٧٢٤).

٢ ـ روبرت بييج (ص ٧٥٠).

٣ ـ فرانك ألن (ص ٧٤٢).

٤ ـ كارل ماركس (ص ٧٠٨).

٥ ـ كلودم هاثواي (ص ٧٥١).

٦ ـ لينين (ص ٧١٢).

٧ ـ ميربت ستانلي كونجدن (ص ٧٥٠).

٨ ـ موسى بن ظفر السامري (ص ٥٣٢).

٩ ـ نمرود بن كنعان (ص ٧٨٩).

١٠ ـ هيجل (ص ٧٠٣).

* * *

صدر من هذه السلسلة

١- **ولاية اليمامة:** دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، تأليف ثالج بن سليمان الوشمي (رسالة دكتوراة) الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٢- **أسس تنظيم المكتبات والمعلومات:** تأليف روزي بنهام، كولن هاريسون، ترجمة سناء محاسني - ناصر السويدان - حمد عبد الله عبد القادر، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٣- **لغة العرب:** دراسة تاريخية وكشاف موضوعي، إعداد أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، أمين سليمان سيدو، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٤- **السجل العلمي لندوة استخدام اللغة العربية في تقنية المعلومات،** إعداد ناصر السويدان، محمد الربيع، محمد السويل، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ

٥- **النشاط الاقتصادي في عصر الإمارة،** تأليف خالد البكر (رسالة ماجستير) الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٦- **الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري،** تأليف محمد إبراهيم أبا الخيل (رسالة ماجستير) (تحت الطبع).

٧- **الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين** (رسالة دكتوراه) د. يوسف بن إبراهيم العريني.

٨- **زواهر الفكر وجواهر الفقر،** مخطوط لابن المرابط، دراسة وتحقيق حسن فليفل.

٩- **الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف،** تأليف عادل محمد صالح أبو العلا.

١٠- **السجل العلمي لندوة الأندلس:** قرون من التقلبات والعطاءات (الجزء الأول).

١١- **تقييم الأداء في المكتبات ومراكز المعلومات،** تأليف ف. و. لانكستر ترجمة الدكتور حسني الشيمي والدكتور جمال الفرماوي.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
التقديم	٩
شكر وتقدير	١١
مقدمة الطبعة الثانية	١٣
المقدمة	١٧
منهجي في هذا البحث	٢٣
تمهيد	٢٩
أ ـ مفهوم الحق والباطل والصراع بينهما	٣٣
غاية الصراع في الإسلام	٣٩
ب ـ بيان أن سورة الأعراف من السبع الطوال وهي مكية	٤١
المقاصد العامة لسورة الأعراف	٤١
أولاً: الآيات الخاصة بالحض على الإيمان بالله ـ جل وعلا ـ	٤٢
ثانيًا: الآيات الزاجرة عن الشرك	٤٧
ثالثًا: الآيات الخاصة باليوم الآخر وأن وقوعه لا ريب فيه	٥٣
رابعًا: الآيات الواردة في صدق الرسول ﷺ	٧٢
خلاصة التمهيد	٧٧
الفصل الأول: صراع إبليس مع آدم ـ عليه السلام ـ	٧٩
مقدمة	٨٣
المبحث الأول: مسائل مهمة لابد من توضيحها	٨٧
المسألة الأولى: أطوار خلق آدم ـ عليه السلام ـ	٨٧

المسألة الثانية: خلق حواء ـ عليها السلام ـ ٩٠
المسألة الثالثة: من هم الملائكة؟ ٩٢
المسألة الرابعة: السجود لآدم وبيان حقيقة ذلك ٩٨
المسألة الخامسة: حقيقة إبليس ـ أعاذنا الله منه ـ ١٠٠
المسألة السادسة: الكلام عن الجنة ١٠٧
المسألة السابعة: الكلام عن الشجرة ١١٩
المبحث الثاني: الآيات التي يدور الصراع عليها في قصة آدم ـ عليه السلام ـ ١٢١
مقدمة ١٢٣
أولاً: تكريم الله لآدم وبنيه بإسجاد الملائكة له ١٢٥
ثانيًا: امتناع إبليس عن السجود لآدم ـ عليه السلام ـ ١٢٩
ثالثًا: توعد إبليس لبني آدم بالإغواء ١٣٥
رابعًا: عجز إبليس عن إغواء عباد الله المخلصين ١٣٨
خامسًا: كيد الشيطان للإنسان وفيه يتجلى الصراع بينهما ١٤٠
سادسًا: تكريم الله لآدم وزوجه بإسكانهما الجنة ونهيهما عن الأكل من الشجرة ١٤٥
سابعًا: بداية كيد الشيطان لآدم وزوجه ـ عليهما السلام ـ ١٤٨
ثامنًا: عتاب الله ـ جل وعلا ـ لآدم وزوجه بعد أن أكلا من الشجرة ١٥٤
تاسعًا: استقرار آدم وزوجه في الأرض بعد أن تاب الله عليه ١٥٧
عاشرًا: دعوة القرآن بني آدم للاعتبار بما حدث بين أبيهم وإبليس ـ أعاذنا الله منه ـ ١٥٩
الحادي عشر: التعري ومفاسده ووسائل الشيطان إليه ١٧١
الثاني عشر: في التحذير من فتن إبليس ومكايده ١٧٦
أ ـ الكبر والاغترار والإعجاب بالنفس ١٧٧

ب ـ الحسد ١٨٠
جـ الكذب والخداع ١٨٢
د ـ الإغراء بالشهوات ١٨٤
هـ ـ الغرور ١٨٦
و ـ الجرأة على المعصية ١٨٧
ز ـ طول الأمل ١٨٩
ح ـ الإيمان والكفر ١٩١
الثالث عشر : براءة آدم ـ عليه السلام ـ وبين قومه ١٩٣
خلاصة ما جاء في الفصل الأول ٢٠٣
الفصل الثاني: الصراع بين نوح ـ عليه السلام ـ وبين قومه ٢٠٩
مقدمة ٢١٣
المبحث الأول : دعوة نوح ـ عليه السلام ـ لقومه ٢١٧
المبحث الثاني : أسباب الصراع بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه ٢٢٣
المبحث الثالث : موقف نوح ـ عليه السلام ـ من الكافرين المعاندين ٢٣٠
أولاً : دفاع نوح ـ عليه السلام ـ عن نفسه ٢٣٠
ثانيًا : مصير الكافرين المعاندين من قوم نوح ٢٤٠
خلاصة ما جاء في الفصل الثاني ٢٤٩
الفصل الثالث: الصراع بين هود ـ عليه السلام ـ و قومه ٢٥١
مقدمة ٢٥٥
المبحث الأول : دعوة هود ـ عليه السلام ـ لقومه ٢٥٥
المبحث الثاني :
أولاً : موقف الكافرين المعاندين من دعوة هود ـ عليه السلام ـ ٢٦٤
ثانيًا : دفاع هود ـ عليه السلام ـ عن نفسه ٢٦٧
المبحث الثالث : موقف هود ـ عليه السلام ـ من الكافرين المعاندين ٢٧٠

أولاً: مجاهدة هود ـ عليه السلام ـ لقومه ورده لشبهاتهم ٢٧٠
ثانيًا: مصير الكافرين المعاندين من قوم عاد ٢٧٨
خلاصة ما جاء في الفصل الثالث ٢٨٦
الفصل الرابع: الصراع بين صالح ـ عليه السلام ـ وبين قومه ٢٨٩
مقدمة ٢٩٣
المبحث الأول: دعوة صالح ـ عليه السلام ـ لقومه ٢٩٥
المبحث الثاني: موقف الكافرين المعاندين من دعوة صالح ـ عليه السلام ـ ٣٠٢
المبحث الثالث: مصير الكافرين المعاندين من قوم صالح ـ عليه السلام ـ ٣١٧
خلاصة ما جاء في الفصل الرابع ٣٢٤
الفصل الخامس: الصراع بين لوط ـ عليه السلام ـ وزوجته خاصة وقومه عامة ٣٢٧
مقدمة ٣٣١
التعريف بلوط ـ عليه السلام ـ ٣٣١
صلة لوط ـ عليه السلام ـ بقومه ٣٣٥
المبحث الأول: دعوة لوط ـ عليه السلام ـ لقومه ٣٣٧
المبحث الثاني: موقف قوم لوط من دعوته ٣٤٤
المبحث الثالث: نجاة لوط وأهله ومصير الكافرين المعاندين ٣٥٠
الأبحاث الطبية الحديثة كشفت عن أضرار فاحشة اللواط ٣٦٢
خلاصة ما جاء في الفصل الخامس ٣٦٤
الفصل السادس: الصراع بين شعيب ـ عليه السلام ـ وقومه ٣٦٧
مقدمة: نبذة عن نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ ٣٧١
المبحث الأول: دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه ٣٧٤
المبحث الثاني: موقف الكافرين من دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ ٣٨٧
موقف شعيب ـ عليه السلام ـ من قومه ٣٩٠

موقف شعيب من اتهامه بالضعف ٣٩٤
المبحث الثالث : عاقبة قوم شعيب ٣٩٩
خلاصة ما جاء في الفصل السادس ٤٠٤

الفصل السابع :

القسم الأول : الصراع بين موسى - عليه السلام - وفرعون وفيه مباحث ٤٠٧
مقدمة موجزة ٤١٣
المبحث الأول : دعوة موسى - عليه السلام - لفرعون وملئه ٤١٥
المبحث الثاني : ظهور بينه موسى - عليه السلام - لفرعون وقومه ٤٢١
المبحث الثالث : موقف فرعون وملئه من دعوة موسى - عليه السلام - ٤٢٣
المبحث الرابع : شعور السحرة بأهميتهم لدى فرعون ٤٢٦
المبحث الخامس : موقف السحرة من موسى - عليه السلام - ٤٢٨
المبحث السادس : موقف موسى - عليه السلام - من السحرة ٤٣٥
المبحث السابع : موقف السحرة بعد بطلان سحرهم من معجزة موسى - عليه السلام - ٤٣٨
المبحث الثامن : تهديد فرعون للسحرة وتوعدهم ٤٤١
المبحث التاسع : موقف الملأ من موسى - عليه السلام - وقومه ٤٤٧
المبحث العاشر : وصية موسى - عليه السلام - لقومه بالاستعانة بالله ٤٥٢
المبحث الحادي عشر : تضجر بني إسرائيل من وصية موسى - عليه السلام - لهم ٤٥٥
المبحث الثاني عشر : معاقبة الله لفرعون وقومه قبل إغراقهم ٤٥٧
المبحث الثالث عشر : نبذهم العهد الذي عاهدوا به نبيهم ٤٦٦
المبحث الرابع عشر : عاقبة الصراع ونهاية فرعون وقومه ٤٧٢
المبحث الخامس عشر : منة الله - تعالى - على بني إسرائيل بتمكينهم

من أرض آبائهم أو أرض مصر ـ على ما قيل ٤٨٤
القسم الثاني : الصراع بين موسى ـ عليه السلام ـ وبني إسرائيل وفيه مباحث : ٤٩٣
المبحث الأول : جحود بني إسرائيل لنعم الله ٤٩٥
المبحث الثاني : تهيئة الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ لتلقي التوراة ٥٠٣
المبحث الثالث : طلب موسى ـ عليه السلام ـ من ربه الرؤية ٥١٠
المبحث الرابع : مسألة اختلاف أهل السنة والمعتزلة في وقوع رؤية الله ٥١٧
المبحث الخامس : تسلية موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن مُنع من الرؤية ٥٢٠
المبحث السادس : تحذير بني إسرائيل بتجنب مسالك الهالكين والضالين ٥٢٥
المبحث السابع : عبادة بني إسرائيل للعجل في غيبة موسى ـ عليه السلام ـ ٥٣١
المبحث الثامن : ندم قوم موسى على عبادتهم العجل ٥٤١
المبحث التاسع : توبيخ موسى ـ عليه السلام ـ لقومه على عبادتهم العجل ٥٤٣
المبحث العاشر : لوم موسى ـ عليه السلام ـ لأخيه هارون ودفاع هارون عن نفسه ٥٥١
المبحث الحادي عشر : اعتذر موسى ـ عليه السلام ـ لربه عما بدر منه لأخيه ٥٥٤
المبحث الثاني عشر : نقمة الله ـ جل وعلا ـ على من لم يعتذر إلى ربه عن عبادة العجل وتوبته على المعتذرين ٥٥٦
المبحث الثالث عشر : حرص موسى ـ عليه السلام ـ على الألواح وشدة تعلقه بها ٥٦٢
المبحث الرابع عشر : منة الله ـ جل وعلا ـ على صلحاء بني إسرائيل ٥٦٤

المبحث الخامس عشر : ثناء الله ـ تعالى ـ على صلحاء بني إسرائيل ٥٧١
المبحث السادس عشر : نعم الله على بني إسرائيل في التيه وكفرانهم تلك النعم ٥٧٣
المبحث السابع عشر : مخالفة أخرى شنعاء من مخالفات بني إسرائيل ٥٧٨
المبحث الثامن عشر : جناية أخرى من جنايات بني إسرائيل ٥٨٥
خلاصة ما جاء في الفصل السابع ٥٩٠
الفصل الثامن : الصراع بين نبينا محمد ﷺ وقومه : ٥٩٧
تمهيد ٦٠١
المبحث الأول : دعوة النبي ﷺ لقومه ٦٠٣
المبحث الثاني : أسباب موقف الكافرين المعاندين وإنكارهم لدعوة النبي ﷺ ٦٣٤
المبحث الثالث : موقف الرسول ﷺ من الكافرين المعاندين ٦٤٣
خلاصة ما جاء في الفصل الثامن ٦٥٠
الفصل التاسع : وجه الشبه بين مواقف الكافرين والمعاندين وردهم وإنكارهم لدعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ ٦٥٣
تمهيد ٦٥٧
المبحث الأول : دعوة الرسل ـ عليم السلام ـ لأقوامهم ٦٥٩
وجه الشبه بين دعوة الرسل ٦٦٧
المبحث الثاني : مواقف الكافرين المعاندين في دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ ٦٦٨
وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين لدعوة الرسل ٦٨٠
المبحث الثالث : كفر كل أمة ومعصيتها ونوع العقاب الذي عوقبت به ٦٨٤
معاصي بني إسرائيل وعقاب الله لهم ٦٨٨
معصية قريش والعرب ممن حولهم ٦٩١

خلاصة ما جاء في الفصل التاسع ٦٩٥
الفصل العاشر: الصراع كما تراه وتصوره النظريات الحديثة : ٦٩٧
مقدمة : نشأة النظريات القديمة والحديثة ٧٠١
نظرية الفلاسفة في العصر الحديث إلى الصراع ٧٠٣
هيجل ٧٠٣
كارل ماركس ٧٠٨
نقد المادية الجدلية ٧١٦
نظرية داروين ٧٢٠
النظرية اللاماركية ٧٢٠
نقد نظرية لامارك ٧٢٢
خلاصة نظرية داروين ٧٢٤
نقد الداروينية ٧٢٧
الداروينية الحديثة (Hugode veries) ٧٢٩
خلاصة ما جاء في الفصل العاشر ٧٣٤
الفصل الحادي عشر: موقف الإسلام من الصراع ويتضمن الرد على النظريات الحديثة ٧٣٥
تمهيد ٧٣٩
الجانب العقائدي ٧٣٩
القرآن الكريم استدل على وحدانية الله ـ تعالى ـ بالعلم والنظر ٧٤٥
فطرية التوحيد ٧٤٩
مقالات وآراء لمجموعة من العلماء الأمريكيين عن اعتقادهم بوجود الله ٧٥٠
تكريم الله لبني آدم وإسجاد الملائكة له ٧٥٢
الجانب الاجتماعي ٧٥٦

الجانب الاقتصادي ٧٦٣
خلاصة ما جاء في الفصل الحادي عشر ٧٧٦
الفصل الثاني عشر: عاقبة الصراع بين الحق والباطل ٧٧٧
المبحث الأول: النصر محتم من عند الله للمؤمنين ٧٨١
المبحث الثاني: تعدد وجوه النصر الإلهي للمؤمنين ٧٨٨
خلاصة ما جاء في الفصل الثاني عشر ٧٩٥
الخاتمة ٧٩٩
فهرس المصادر والمراجع ٨٠٧
فهرس الأعلام المسلمين المترجم لهم ٨٢٢
فهرس الأعلام غير العرب المترجم لهم ٨٢٣
صدر من هذه السلسلة ٨٢٤
فهرس الموضوعات ٨٢٥

❊ ❊ ❊